

أَسْمَاءُ حَبِيبَاتِ الْكَرِيمِ
عَلَى مَرْوِيَّاتِ الْأَخْبَارِ

فِي سِيَرَةِ النَّبِيِّ الْمُخْتَارِ وَالْوَالِدِ الْأَبْرَارِ وَصَحَابَتِهِ الْأَخْيَارِ

تَأَلَّفَ
مُحَمَّدُ بْنُ سَالِمِ الْبَيْهَقَانِي
رَحِمَهُ اللَّهُ



إِدَارَةُ إحياء
التراث الإسلامي
بِدولة قطر

اشعبر الانوار
على مزيواتنا الجنبه

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٨٦ هـ - ١٤٠٦ م

مكتبة الشيخ عبد الله الأنصاري

الرقم العام : ١٠١٦

رقم التصنيف : ٤١٩ ب ٣ أ

اشْتِعَابُ الْأَنْفَالِ

عَلَى مَزَوِيَّاتِ الْأَخْبَلِ

فِي سِيَرَةِ النَّبِيِّ الْمَجْتَارِ وَآلِهِ الْأَبْرَارِ وَصَحَابَتِهِ الْأَخْيَارِ

تأليف العلامة الفاضل

الشيخ محمد بن سالم البيهقي تغمده الله برحمته

وأجرزل له الأجر والثواب

مؤسس المعهد العلمي الإسلامي بـ

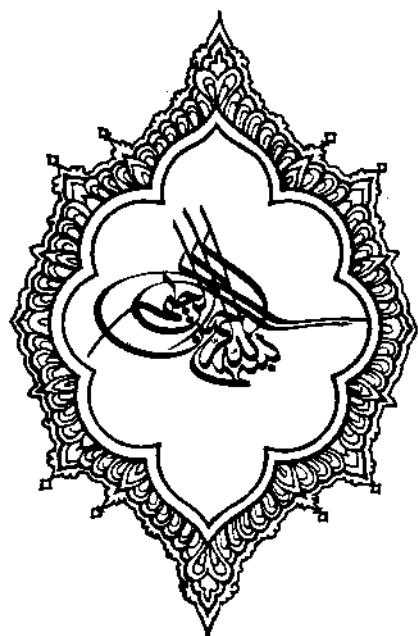
وأمارة وخطيب جامع العسقلاني

الجزء الثاني

إدارة

إحياء التراث الإسلامي

بدولة قطر



دولته بني زياد ومواليهم (١)

بَنُو زِيَادٍ كَتَبُوا لَوْحَيْنِ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَمِئَتَيْنِ
عَلَى الْجِبَالِ وَتَهَائِمِ الْيَمَنِ كِتَابَةً لَمْ يَمْخُهَا طُولُ الزَّمَنِ
فَأَرْسَلَ الْمَأْمُونُ بِالزِّيَادِي وَمَعَهُ اثْنَانِ مِنَ الْأَعَادِي
مِنْ تَغْلِبَ وَمِنْ بَنِي أُمَيَّة وَقَالَهُمْ كَانَ لَهُ أَمْنِيَّةٌ
لِيَكْتُمَهُمْ قَدْ أَحْسَنُوا الْكَلَامَا وَاسْتَسَلَّمَ الْخَلِيفَةُ اسْتِسْلَامَا (٢)

(١) بنو زياد في اليمن أولهم محمد بن إبراهيم بن عبيد الله بن زياد بن أبيه الثقفي أو أبو سفيان الأموي. كان في جماعة ضد المأمون سنة ١٩٩ وهو ما يزال في خراسان فرجع الزياتي مع مائة رجل إلى المأمون ومعه شخص من أحفاد سليمان بن هشام بن عبد الملك بن مروان وآخر هو محمد بن هارون التغلبي وسألهم عن أنفسهم فانتسبوا له وقال إن عبد الله بن علي العباسي قد قتل سليمان بن هشام وأولاده في يوم واحد وقال السليماني أنا من ولده الصغير الذي لم يقتل معه فأمر بقتل الأمويين وعفا عن التغلبي احتراماً لاسم أخيه الأمين محمد بن هارون، وقال الزياتي ما أكذب الناس يا أمير المؤمنين قال وكيف؟ قال يصفونك بالحلم عند الغضب والعفو عند المقدرة وأنت تأمر بقتلنا إن كان لذنوب فوالله ما أذنبنا. ما خالفنا لك أمراً ولا خرجنا عن طاعتك. وإن كان من أجل آبائنا فالله تعالى يقول: «ولا تزر وازرة وزر أخرى» وأعجب الخليفة بكلام الزياتي فعفا عنهم جميعاً. وحيناً أرسل المأمون جيشاً محاربة عمه إبراهيم بن المهدي الذي نصب خليفة في سنة ٢٠٢ وخرج الجيش في السنة التي تليها وجاءت الكتب من اليمن تخبر بانتفاض قبيلتي عكن والأشاعرة وأشار الفضل بن سهل بإرسال الزياتي وصاحبيه إلى اليمن ليخدموا فيها الثورات وليردوها إلى طاعة بني العباس.

(٢) بعدما تقدم وقد انتهى أمر إبراهيم بن المهدي توجه الزياتي إلى الحج ثم سار إلى اليمن في قوة من الجيش وجرت بينه وبين أهلها حروب كثيرة واستطاع بها التغلب عليهم في سنة ٢٠٤ واستمر نائباً لبني العباس يبعث بالخراج ويدعو لهم في الخطبة ولا يعد =

وَبَعْدَ أَنْ حَجَّ زِيَادِي ذَهَبَا
فَالأَمَوِيُّ بِمِثَابَةِ الوَازِيرِ
وَحَطَّطَ المَدِينَةَ المَشهُورَةَ
وَدَامَ فِي الأَمْرِ اثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ
لِلرَّجُلَيْنِ دَائِمًا مُسْتَضْحِبَا
وَالتَّغْلِبِيُّ هُوَ قَاضٍ لِلأَمِيرِ
زُبَيْدٍ فِي سَنَتِهِ المَذْكُورَةِ
كَالمُسْتَقِيلِ وَلِبُغْدَادَ يَدِينُ^(١)

= نفسه في بداية الأمر إلا منفذاً للأوامر، واللوحان أو الصفحتان اللتان سجلهما بنو زياد في جبال اليمن وتهاهما لا شك أنها اللتان تقرأ أخبارهما إلى اليوم من الفتح والغلبة والملك الذي استمر إلى سنة ٤٠٧ ومثل هذا لا يحوه الزمان ولا يستطيع محوه وإنما الخلود لأصحاب مثل هذه الأعمال. فإنهم أولاً قد نجوا من القتل بعد انظفر بهم واستطاعوا ثانياً إقناع الخليفة بالعمو عنهم والافتناع بعقوبيتهم وكفاءتهم بما أسند إليهم وثالثاً تأسيس دولة استمرت أكثر من قرنين كاملين في بلاد طالما أعيانها الخلفاء الأمويون والعباسيون من قبل فكانوا هم الملوك في الحقيقة وهم النواب إذا شعروا بالخطر.

(١) لم يفارق الزياتي صاحبه الأموي الذي اتخذه وزيراً واستمرت الوزارة في عقبه حتى كان منهم خلف بن طاهر صاحب الأمير جيش الحشبي ومحمد بن هارون التغلبي واستعمله على القضاء والفتيا واستمر الحكم في بنيه القضاة بني أبي عقامة حتى انتهى أمرهم أيام علي بن مهدي الخارجي. ثم إن الزياتي قد اختط مدينة زبيد في شعبان من سنة ٢٠٤ بأمر من المأمون واتخذها عاصمة في بلاد الأشاعرة من التهايم وقد أصبحت هذه المدينة مقراً للملك والعلم والعبادة وصارت من أفضل المدن اليمنية أهلة بالقوة والقصور والمساجد والمدارس العلمية والربط الكثيرة، وهاجر إليها السادة بنو الأهدل وبرز من علمائها الجم الغفير، وكانت بها أوقاف ومكاتب كثيرة وصارت ملتقى المذاهب الفقهية من الحنفية والمالكية والشافعية، وروي فيها الحديث وصنفت الكتب، وأفردها بالذكر الأمير جيش في كتابه المفيد من أخبار زبيد، والشيخ عبد الرحمن الديبع الشيباني في كتابه روح الروح، وإلى عهد قريب جداً وطلبة العلم يفتون إليها من مختلف الجهات والنواحي ومن آخر علمائها شيخنا وأستاذنا السيد سليمان بن إدريس الأهدل الذي تتلمذت له بقراءتي عليه شيئاً من بلوغ المرام للحافظ ابن حجر وأجازني في الأمهات الست وذلك في الرباط اليمني وأمام الكعبة المشرفة، وما يزال بها الأخيار من العلماء والعباد وإن كانوا قليلاً، ورحم الله الذي خاطب الإمام أحمد بن حنبل بالدين بقوله:

ينسب العلم في الحديث إلينا
وأعيدوا إلى تعز وصنعنا
فاشرحوا قول خاتم الأنبياء
وزبيد مآثر القدماء =

وَجَعَفَرُ مَوْلَاهُ فِي الْخَامِسَةِ
 أَرْسَلَهُ وَمَعَهُ الْمَالُ الْكَثِيرُ
 وَعَادَ جَعْفَرُ بِأَلْفِ فَارِسٍ
 زَادَتْ بِهَا الْقُوَّاتُ لِلزِّيَادِي
 دَانَتْ لَهُ صَنْعَا وَأَرْضُ بَيْحَانَ
 وَعَدْنُ وَأَبْسِينُ وَحَلِجُ
 وَقَامَ إِبْرَاهِيمُ بَعْدَ وَالِدِهِ
 وَمُلْكُهُ عَلَى الْبِلَادِ دَامَا
 وَكَانَتْ الْأَخْوَالُ مُسْتَقَرَّةً
 وَلَا بِنْتَهُ زِيَادٍ عَامَانٍ قَطُّ

أَرْسَلَهُ وَجَاءَ فِي السَّادِسَةِ
 وَأُعْجِبَ الْمَأْمُونُ مِنْ هَذَا الْأَمِيرِ
 مِنْ بَطَلٍ مُقَاتِلٍ وَحَارِسٍ
 فَأَمَدَّ سُلْطَانًا عَلَى الْبِلَادِ
 وَأَرْضُ صَفْدَةَ وَأَرْضُ نَجْرَانَ
 وَزَادَ دَخْلُهُ وَقَلَّ الْخَرْجُ (١)
 بِالْمُلْكِ فِي شَارِدِهِ وَوَارِدِهِ
 أَرْبَعَةً وَأَرْبَعِينَ عَامًا
 فِي عَهْدِهِ وَكُلُّهَا مُسِيرَةٌ
 لَمْ يَعْلُ فِيهَا نَجْمَةٌ وَلَا هَبْطٌ (٢)

= ثم إن محمد بن ابراهيم الزياتي قد استمر في ملك الين اثنتين وأربعين سنة من أول الرابعة بعد الميتين إلى نهاية الخامسة والاربعين وهو مستقل بأمرها ومظهر لطاعة العباسيين خلفاء بغداد، المأمون والمعتمد والواثق والمتوكل جعفر بن المعتصم.

(١) في السنة الخامسة بعد الميتين بعث الزياتي بمولاه جعفر ومعه الهدايا الكثيرة والتحف الطريفة بعثه إلى المأمون ليخبر عن إخلاص مولاه في الطاعة وليبشره بما أنجز من الأعمال في التهايم فشكر المأمون للزيادي أعماله وأمده بقوة كبيرة ألف فارس بكامل عدتهم ومنهم تسعمائة من مسودة خراسان، ورجع جعفر بمن معه في سنة ٢٠٦ وهذا قويت شوكة الزياتي وامتد نفوذه على جبال الين وسهولها، واسترجع من آل أبي أحمد بن العلاء العامري ما تغلبوا عليه من عدن وحلج وأبين والشحر وحضرموت وديار كندة ومرباط، واستولى كذلك على صنعاء وصعدة وبيحان ونجران وأصبح الملك المطلق فعليا وكثرت عنده الاموال دخلاً وقل الخرج حيث لا تعرف منشآت جديدة ولا ما يتطلب الإنفاق عليه من الأشياء المهمة، أما جعفر المذكور فكان رجلاً عبقرياً ساعد مولاه على توسيع المملكة وتثبيت أركانها وهو الذي ينسب إليه مخلاف جعفر من أوسع المخاليف اليمنية وأخصبها زراعة وأكثرها مياهاً.

(٢) بعد مؤسس الدولة الزياتية قام ولده إبراهيم بن محمد، ولم يحصل في أيامه ما يستحق الذكر إلا معاصرة بعض الدول في الجبال وليس بينها وبين الزياتي ما يستحق =

ثُمَّ أَبُو الْجَيْشِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ
نَحْوَ ثَمَانِينَ وَلَمْ يَضَعُهَا
كَالْقُرْمُطِيِّ عَلِيِّ بْنِ الْفَضْلِ
فَإِذَا كَانَ يَدْعُو لِلْمُعْبِدِينَ
وَأَسْقَطَ الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ
لَمَّا غَزَا زَبَيْدَ فَرَمِنَهَا
وَالْقُرْمُطِيُّ إِذْ سَبَى النِّسَاءَ
أَزْبَعَهُ مِنَ الْأُفُوفِ هُنَّ
وَسَجَّلَ التَّارِيخُ لِابْنِ الْفَضْلِ

وَدَامَ فِيهَا مَلِكًا عَظِيمًا
هَاجَمَهُ هَذَا وَذَلِكَ أَنْحَرَفَا
وَمَا لَهُ فِي شَأْنِهِ مِنْ مِثْلِ
فَسَاءِ سِيرَةٍ وَضَلَّ دِينَنَا
كَمَا أَبَاحَ النَّبِيُّ وَالْأَتَامَا
مَلِكُهَا هَذَا وَوَلَّى عَنْهَا
أَبَاحُهَا الْعِرَاضَ وَالذَّمَاءَ
كَتَفَ جُنْدَهُ بِقَتْلِهَا
مَا لَا يَنْظُرُ مِنْ قَبِيحِ الْفِعْلِ (١)

= تدوينه أو الحديث عنه، ودام إبراهيم هذا في الملك أربعاً وأربعين سنة من موت أبيه إلى سنة ٢٨٩ هـ. أما زياد بن إبراهيم المذكور فلم يملك إلا سنتين تكادان تكونان خاليتين من الحوادث وكأنما نام يوم ولد واستيقظ يوم مات، وما ظهر نجمه بصعود ولا غرب بهبوط؛ وتوفي في ٢٩١، وعاصر إبراهيم وابنه زياد من الخلفاء، المتوكل آخر أيامه؛ والمستنصر والمستعين والمعز، والمهتدي، والمعتمد، والمعتمد؛ والمكتفي، وهو السابع عشر منهم.

(١) رابع الملوك من بني زياد وهو إسحاق بن إبراهيم المكنى بأبي الجيش ولي بعد أخيه، وعاش في الملك ثمانين سنة ولا يعرف ملك مثله عاش في الملك مثل هذه المدة من ٢٩١ إلى ٣٧١ هـ، وعاصر الدولة الأخشيدية والفاطمية في مصر والحمدانية في الشام والموصل، وفي أيامه ظهر القرامطة أبو سعيد الجنابي وابنه أبو طاهر في هجر، وفي اليمن علي ابن الفضل، ومنصور بن أبي الحسن وكذلك الإمام الهادي يحيى بن الحسين وآل يعفر الخوالمين، أما الذي هاجمه من هؤلاء فهو القرمطي المأمون علي بن الفضل الخنزري السبيء الحميري وكان شيعياً، سار ليحج ثم ليزور قبر الحسين بكر بلاء والتقى هناك بمجد الفاطميين عبيد الله بن ميمون القداح، وتفرسوا فيه الذكاء والنبوغ فانتدبوه للقيام بالدعوة وأمره بالعودة إلى اليمن ومعه أبو القاسم بن فرج بن حوشب بن زاذان الكوفي الأول إلى عدن أبين وجهاتها والثاني إلى عدن لاعة وجهاتها، وأحسب ذلك بعد سنة ٢٧٦ هـ، فجاء علي بن الفضل وأظهر التنسك والعبادة وأصبح معتقد الناس في يافع يطلبون منه الدعاء ويرون فيه الرجل الصالح فلما كثر أتباعه ومريدوه سار بهم إلى الحج =

وَكَانَ لِلزَّيْدِيَّةِ الْأَفْجَادِ
 إِرَادَةٌ فِي قَتْلِهِ وَدَعْوَتِهِ
 وَمَا تَزَالُ سُغْلَةٌ مِنْ نَارِهِ
 أَمَّا سُلَيْمَانُ بْنُ ظَرْفِ الْحَكَمِيِّ
 وَابْنِ أَبِي يَنْعَفَرٍ وَالزِّيَادِي
 وَقَدْ أَصَابَ النَّاسَ شَرُّ فِتْنَتَيْهِ
 فِي يَافِعِ تُنْبِيكَ عَنْ أَخْبَارِهِ (١)
 فَلَيْسَ لِلطَّاعَةِ بِالْمُلْتَزِمِ

= واستولى عليها وأخذ خزائن سلطانها أبي العلاء الأصحبي وكان فيها مال كثير تقوى به على دعوته، ثم غزا جعفر بن أحمد المناخي فقتله وأخذ منه مديخرة في العدين وجعلها مستقراً له ثم سار إلى صنعاء وتملكها لأول مرة في ٢٩٣ وأخرج منها واستعادها في السنة الأخرى وأخرج منها أيضاً واستعادها في ٢٩٩ وصالح أحد خصميه الإمام الهادي وأسعد ابن يعفر وأصبح ثاني عامل له على صنعاء وقطع الدعوة للعباسيين، وأظهر القرمطي مذهبه وأعلن كفره وانحرف عن التشيع إلى إباحتهم وأسقط التكاليف عن أتباعه وأمر المؤذن أن يقول أشهد أن علي بن الفضل رسول الله، وتنسب إليه هذه القصيدة التي لا كفر بعدها ولا إلحاد عن الحق إلا ما فيها:

خذ الدف يا هذه واضربي	نقيم شرائع هذا النبي
تولى نبي بني هاشم	وجاء نبي بني يعرب
أحل البنات مع الأمهات	ومن فضله زاد حل الصبي
وقد حط عنا فروض الصلاة	وحط الصيام فلم تتعب
إذا الناس صلوا فلا تهضي	وإن صاموا فكلي واشربي
ولا تطلبي السعي عند الصفا	ولا زورة القبر في يشرب
ولا تمنعي نفسك المعرسين	من الأقربين ولا الأجنبي

وفي آخر العقد العاشر من القرن الثالث دخل القرمطي إلى زييد وفر منها أبو الجيش الزيادي فقتل وسفك الدماء وسبى النساء والذرية واصطفى من السبي أربعة آلاف عذراء وخرج يهن إلى مكان يقال له: المشاحيط، وخاف على جيشه أن يفتن يهن فأمر بقتلهم جميعاً وعليه لعنة الله، وكل ما قيل فيه أو نسب إليه من ترك الواجبات واستباحة المحرمات يظهر لك جلياً من القصيدة المنسوبة إليه، وصدق الله العظيم القائل، ﴿من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾.

(١) زاد حقد الناس على القرمطي وأصبح محاطاً بالأعداء من الزيدية واليعفرين والزياديين وكلهم ناقم عليه ويريد به الشرمتى سنحت بذلك الفرصة وجاء رجل مغربي =

وَإِنَّمَا اسْتَقْلَلَ بِالْمِخْلَافِ بَوَسْطِ مِنْهُ وَبِالْأَطْرَافِ
وَكَانَتْ الْخُطْبَةُ وَالسُّكَّةُ لَهُ مَا لِأَبِي الْجَيْشِ عَلَيْهِ مَنَزِلُهُ
وَنَصِيفٌ مَلِيُونَ مِنَ الدَّنَانِيرِ كَانَ لَهُ دَخْلٌ وَآيِسٌ بِالْيَسِيرِ
وَخَرَجَتْ لَحْجُ وَمَا يَلِيهَا وَخَرَجَتْ أُبَيْنٌ عَنِ وَالِيهَا ^(١)
وَمَاتَ إِسْحَقُ أَبُو الْجَيْشِ وَقَدْ خَلَفَ بَنْتَهُ وَخَلَفَ الْوَلَدُ
لَكِنَّهُ كَانَ صَغِيرًا جَدًّا وَيَدُهُ لَا تَسْتَطِيعُ الْمَدَا

= طيب أو متطبب واتصل بصاحب صنعاء أسعد بن أبي يعفر وتخابرا في قتل علي بن الفضل ووعده اليعفري هذا المغربي بمال كثير ومشاطرته له في كل شيء إن هو قتل علي بن الفضل ونجا من شره، فجاء إلى مذيخرة وطلبه ابن الفضل ليفضده فسم مبضعه وبلغ ما يريد من غدو الله وهرب حينه ولكن سمه سرى في جسم القرمطي وأدركوه فقتل ولكن بعدما قضى حاجته وأراح البلاد وأهلها من الطاغية المتغلب، ولكنه وإن مات فإن دعوته لم تمت وما تزال نارها تحت الرماد وقد امتزجت بطبائع العاجزين عن التكليف وأشبه البهائم في كثير من أرجاء اليمن وبالأخص في يافع العليا وحيث كان داعية القرامطة أحمد بن عطاء الحرازي ويسمى نفسه الحسن بن هارون وقد نشر المذهب ودعا إليه في أول القرن الرابع عشر واستجاب له الرعاع ومن لا يفرق بين التاء والباء والقائه والذباء، ولما مات خفت صوته وقل أصحابه واستتروا بشرهم وكفانا الله شرهم.

(١) لما كبر أبو الجيش وبلغ من العمر أزدله انتقص بعض عماله ومنهم سليمان بن طرف الحكمي الذي ينسب إليه المخلاف السليماني ويحده حالياً من الشمال ميناء البرك أو برك الغماد المعروف بالقمحة، والتابع إدارياً لإمارة القنذة ومن الجنوب ميدى ومن الغرب بحر القلزم ومن الشرق جبال ألمع وجبال هروب وجبال بني مالك وجبل النظير، هكذا قال محمد بن أحمد العقيلي صاحب التاريخ للمخلاف السليماني وقال أيضاً إن هذا المخلاف يضيق أحياناً ويتسع أحياناً حسب الظروف والأحوال السياسية وصاحبه سليمان لما شعر بضعف الملك الزيادي استغل الفرصة واستقل بالخطبة والسكة ولم تبق للملك عليه منزلة اللهم إلا إن كان شيء من المجاملات والهدايا، وبلغ دخل الحكمي من مخلافه ما يساوي نصف مليون دينار عثري وهو بالنسبة إلى زمانه شيء كثير، ومن خرج عن طاعة أبي الجيش صاحب لحج وصاحب أبين ومعظم ما خرج عن طاعة الزيادي قد استرده مولا هم حسين بن سلامة الآتي ذكره.

وبعده طفلٌ صغيرٌ آخرُ
 في خامسِ القرونِ عامَ سبعة
 قد عاصرَ المأمونَ والمعتصمَ
 إلى زمانِ القادرِ العباسي
 وها هنا أرى المؤرِّخينَ
 به انتهى البيتُ الكبيرُ العامرُ
 والأمرُ لله فلا تجعلُ معه
 وعشرةٌ وسبعةٌ بعدهما
 يا لبني العباسِ والمآسي
 قد خَبَطُوا في هندي والبنينا^(١)

(١) لم يكن بعد أبي الجيش من أهل بيته إلا طفل صغير يقال له عبد الله أو إبراهيم أو زياد وبنت اسمها هند، وأوصى على زياد مولاة رشيد والظاهر أنه مات وخلف ولداً اسمه عبد الله وكفلته عمته هند أيام حسين بن سلامة وهذا عندي هو الصحيح وليس كما يتوهم بعض المؤرخين من أن هندا كانت بنت صلب لزياد وإنما هي بنت أبي الجيش وعمة الطفل الأخير منهم الذي قتله نفيس الحبشي بموافقة من مولاة مرجان وكان هذا في سنة ٤٠٧ والأمر لله ((لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقع مذموماً مخذولاً)) وعاصر الزياديون بعد المأمون والمعتصم سبعة عشر خليفة آخرهم القادر بالله، وما أكثر المآسي في العهد العباسي، ((وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة هي الجوان لو كانوا يعلمون)).

موالي بني زياد

كان رشيداً من موالي ابن زياد
وحيث كان مُخلصاً وفيما
وكان ذا دينٍ وعقلي ورشاد
جعله سيده الوصيا
وما هؤلاء من أموالي^(١)
على النساء وعلى الأطفال

(١) لا عبرة بالرق والحرية في الرقاب وإنما العبرة بحرية النفوس وعبوديتها والإسلام يرفع من قدر الرقيق إذا كان صالحاً في نفسه وعمله وحسبك من هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوصي أصحابه رضي الله عنهم: «عليكم بالسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة»، وحيث جاء الإسلام والرق منتشر في الأرض كلها أمر بعق الرقاب ورغب في ذلك وجعله كفارة لكبائر الذنوب، وخصص جزءاً من الزكاة للمكاتبين، وأسقط عن العبيد كثيراً من التكاليف، وخفف عنهم الحدود لاشتغالهم بمقوق أسيادهم وحفظاً لتلك الحقوق من الإتلاف، والذي يقرأ القرآن يجد فيه كثيراً من مثل قول الله تعالى: ﴿فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة﴾ وقوله تعالى: ﴿والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة﴾ واستعمل النبي صلى الله عليه وسلم بلالا الحبشي على كثير من المهام وكان أول مؤذن في الإسلام، واستعمل عمر بن الخطاب بعدما طعن على الصلاة صهيياً رومياً وهو من الموالي، والأمثلة على ما جعل الإسلام للعبيد والموالي من العزة والكرامة كثيرة جداً. وربما كان فيهم من هو خير وأفضل من سيده الذي كان يملكه سداد رأي وقياماً بالواجب. وإن كافر في عمله للاخشيد على مصر لأكبر شاهد، وفي اليمن لما ضعفت دولة بني زياد قام مواليهم الأحباش بأعباء الدولة خير قيام هذا أبو الجيش إسحق ابن إبراهيم لما حضرته الوفاة وليس له إلا ولد و بنت صغيران قد أوصى على أهله وماله ومملكته مولاه رشيد الحبشي العبد الصالح الخير الطائع التقي وأحسن الوصاية على كل ما عهد به إليه إلا أنه لم يطل عمره ومات بعد سيده بقليل، ولرشيد عبد تملكه بعد ما تحرر لا يقل عنه في الخير والصلاح بل هو في كفاءته وجدارته أعظم من سيده، خاصة وقد طال عمره وتمكن في أيامه من أشياء لم يتمكن منها سيده رشيد، والمراد بقولنا: وما هؤلاء من أموالي، إنما موصولة معناه الذي وليست نافية كما يتوهم من لا يعرف معانيها الكثيرة.

وَللرَّشِيدِ بَعْدَ مَا تَحَرَّرَا
 وَهُوَ الْحُسَيْنُ بْنُ سَلَامَةَ الْفَقِي
 وَقَدْ نَشَأَ فِي حِجْرِ مَوْلَاهُ رَشِيدٌ
 تَسَلَّمَ الْأَمْرَ فَأَحْسَنَ الْقِيَامَ
 لَمَّا رَأَى الضَّعْفَ وَقَدْ ذَبَّ إِلَى
 بَلِّ زِدِّ أَطْرَافِ الْبِلَادِ الْخَارِجَةِ
 وَجَهَرَ الْجُيُوشَ وَالْقُوَاتِ
 مُوَقِّفًا فِي كُلِّ مَا يَغْمَلُهُ
 عَبْدٌ مِنَ الثُّوبَةِ مِنْ خَيْرِ الْوَرَى
 وَمِثْلُهُ مِنَ الْمَوَالِي مَا أَتَى
 بِالْخَيْرِ مَوْصُوفٌ عَنِ الشَّرِيعِيدِ
 عَلَيْهِ وَالْمَأْمُومُ يَتَّبِعُ الْإِمَامَ (١)
 بَنِي زِيَادٍ لَمْ يَكُنْ مُسْتَسْهِلًا
 عَلَيْهِمْ وَأَحْسَنَ الْمُعَالَجَةِ
 حَتَّى اسْتَعَاذَ سَائِرَ الْجِهَاتِ
 وَمَنْ رَأَى آثَارَهُ يُجِثُّهُ (٢)

(١) الحسين بن سلامة عبد من النوبة ليس له مثيل من أبناء جنسه في دينه وصلاحه وإصلاحاته والله أعلم هل أعتقه مولاة رشيد في حياته أم دبره إلى ما بعد موته أم أنه بقي رقيقاً على ما كان، والمهم أن تربيته كانت إسلامية وأنه نشأ من صغره في حجر سيده الخير حتى تأثر به وسار على سبيله والمأموم دائماً يتبع الإمام وإنما جعل الإمام ليؤتم به، ولحسين بن سلامة نفس كريمة وهمة عالية حملته على بناء المساجد وإصلاح الطرقات وكثرة الصدقات وجنبته الظلم والبغي وأكل أموال الناس بالباطل وارتكاب المعاصي فيما بينه وبين الله.

(٢) مع ما في هذا العبد الصالح من البر والإحسان والشفقة على الناس ولين الجانب وحسن المعاملة مع القريب والبعيد فقد كان قويا حازماً شجاعاً موفقاً في خططه السياسية وتدابيره الحربية. فحين رأى تفلت الزمام من يد صاحبه وانتفاض الأطراف عليه وكثرة منازعيه استطاع أن يجهز القوات ويستعيد إلى المملكة ما خرج من الجهات في الجبال والتهائم ورد سليمان الحكمي صاحب الخلاف وابن الحرامي صاحب حلي، إلى طاعة الزيادي وله حرب واستسلام في كثير من المناطق العالية صنعاء وصعدة وغيرها، وطوع عدن ولحج وأبين بعد تمتع وانتفاض أيام أبي الجيش، وما أحسن القوة مع الطاعة وما أحسن التضعف مع القوة والقدرة وفي الحديث الشريف، (ألا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأصحاب النار كل جعظري جواظ مستكبر)، والذي يرى الآثار الكثيرة لابن سلامة يعلم أنه رجل موفق وميسر لما خلق له وستعلم مما يأتي ما أنشأ من المدن وأصلح من الطريق وحفر الآبار وبنى من المساجد رحمه الله.

أَنشَأَ فِي الْمَمْلَكَةِ الْمَدَائِنَا
 قَدْ وَضَعَ الدَّرْبَ عَلَى زَبِيدِ
 بَنَى الْمَسَاجِدَ الْكَثِيرَةَ الْعَدَدَا
 وَالْمَسْجِدَ الَّذِي بَنَى مُعَاذُ
 شَيْدَ مَسْجِدًا بِأَرْضِ الْعَارَةِ
 وَعَامِرٌ مِنْ بَنِيهِ جَدَّدَهَا
 وَمَسْجِدَ الرِّبَاطِ نَحْوَ أَبِي نَ

وَأَصْلَحَ الطَّرِيقَ وَالْمَسَاكِينَا
 مِنْ عَبَثِ الْأَحْرَارِ وَالْعَبِيدِ
 فِي كُلِّ قَرْيَةٍ وَمِضْرٍ وَبَلَدٍ
 فِي جَنَدِ جَدَّدَهُ الْأَسْنَادُ
 وَأَصْلَحَ الْمَسْجِدَ وَالْمَنَارَةَ
 فِي عَدَنَ وَاللَّهُ يُبْقِي مَجْدَهَا
 بِنَاؤُهُ أَوْ جَدَّدَهُ وَأَحْسَنُ (١)

(١) من المدائن التي أنشأها ابن سلامة مدينة الكدراء على وادي سهام ومدينة المعقرة على وادي ذوال وأقام سورا على زبيد يحفظها من اللصوص والسراق والمغيرين عليها من الأحرار والعبيد كلما واتتهم الفرصة وأصلح الطرقات التي تربط بين أطراف المملكة في السواحل والجبال والايواسط، واتخذ فيها البرد والفراسخ والأميال وجعل فيها المساكن والمنازل للمارين بها، وحفر الآبار على رؤوس المراحل ويسر للمتقلين والمسافرين للحج والتجارة والنزهة وطلب العلم يسر لهم الطرق وأوجد لهم المياه، ولو كانت وسائل المواصلات موجودة في زمانه لأنشأ المطارات والسكك الحديدية وعبد الطرقات للسيارات وعربات النقل والدراجات، أما مساجده التي بناها من جديد أورمها وأصلحها في القرى والأمصار فهي كثيرة وقد جعل لها الأوقاف ووظف فيها الأئمة والمؤذنين واستحق بعمله الجزاء الموعود به من رسول الله صلى الله عليه وسلم (من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتا في الجنة)، ومن مساجده التي أصلحها مسجد معاذ بن جبل في الجند وكان مسجداً صغيراً فوسعه وأصلح فيه كثيراً وهو المراد بقولنا: الأستاذ، والأستاذ في اللغة هو الخصي الذي لا يأتي النساء وقد توسع في معناه وأصبح يطلق على الماهر بالشيء والحاذق فيه، وكثيراً ما تستعمل كلمة أستاذ اليوم في المعلم ورئيس الصناعات، ولابن سلامة نصيب من المعنيين، وله مسجد في العارة على ساحل البحر وهي قرية كانت أهلة بالسكان ومرا للذاهبين والآيين واليوم هي مركز تابع لولاية. لحج وربما أنها قد محيت آثار المسجد الذي بناه فيها صاحب الترجمة، أما عدن فقد أصلح فيها مسجدها القديم ومنارته، وكان مبدأه في أيام عمر بن عبد العزيز كما أسلفنا وبقيت العمارة الثانية حتى جردها وأصلحها عامر بن عبد الوهاب في أول القرن العاشر ومن كان في عدن فليذهب لمشاهدة المنارة ومن كان بعيداً عنها فليعلم أن المسجد المذكور قد محى واتخذ =

وَبَيْنَ حَضْرَمَوْتِ وَالْحِجَازِ
 وَبَيْنَ عَدَنٍ وَبَيْنَ مَكَّةَ
 فِي وَسْطِ وَسَاحِلِ وَجَبَلِ
 وَعَاشَ فِي الْمُلْكِ ثَلَاثِينَ سَنَةً
 وَبَعْدَهُ مَرْجَانُ مِنْ مَوَالِيهِ
 وَبَيْنَ عَبْدِيهِ نَجَاحٌ وَنَفِيسٌ
 سَاعَدَ فِي قَتْلِ الْعَجُوزِ وَالصَّبِيِّ
 ظَنًّا بِأَنَّ الْمَرَأَةَ الْمِسْكِينَةَ
 لَمَّا أَتَى نَجَاحٌ مِنْ غَيْبَتِهِ
 أَخْرَجَ مِنْ تَحْتِ الْجِدَارِ الْقَتْلَى
 وَرَدَّ مَوْلَاهُ الظَّلُومَ مَرْجَانُ
 وَأَمَّا الْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ

قَدْ أَضْلَحَ الطَّرِيقَ لِلْمُجْتَازِ
 أَنشَأَ مَا يَلْزَمُ عِنْدَ السَّكَّةِ
 مِنْ حَفْرِ بَيْتٍ أَوْ بِنَاءِ مَنزِلِ
 فِيهَا أَتَى مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَحْسَنَهُ (١)
 قَامَ عَلَى الْمُلْكِ وَقَدْ أَحْسَنَ فِيهِ
 ضَمَّعَ مَا لَدَيْهِ مِنْ كُلِّ نَفِيسٍ
 كَمَا أَرَادَهُ نَفِيسُ النِّفْيِ
 عَلَيَّهَا كَانَتْ هِيَ الْمُعِينَةَ
 وَازْدَادَ هَيْبَةً عَلَى هَيْبَتِهِ
 مَوْلَاتِهِ وَابْنَ أُخِيهَا الطِّفْلَا
 مَعَ نَفِيسٍ تَحْتَ ذَلِكَ الْمَكَانِ
 وَبَسَّطَ بِالقَتْلِ عُمرُ مَنْ قَتَلَ

= مكانه ملعباً للرياضة وبنية لمجموعة من دوائر الحكومة والله يحفظ لعدن العزيرة مجدها
 ويحيي بها آثار الذين يقول الله فهم (إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل
 شيء أحصيناه في إمام مبين) وفي مدينة الرباط التابعة لولاية أبين بنى بها مسجدا عظيما
 أو جده وأحسن تجديده، وهذا الرباط يقع بين زنجبار وجعار والدرجاج وهو إلى الأول
 أقرب ويقال له رباط العماد، والله أعلم هل هو المقصود بالذكر أو غيره، ويحيط بهذا
 المكان منطقة الجول المعروفة، ولابن سلامة جامع زبيد ومسجد الأشاعرة ومسجد في حلي
 وغيرها مساجد في بقاع مختلفة.

(١) كانت الطرق من حضرموت وشبام وترتم ومن عدن أيضاً إلى مكة صالحة معلمة
 بمراحلها وبما فيها من المنازل والآبار في الساحل والجبل وما بينها وقد بينها نجم الدين
 عمارة في تاريخه وذكر ما بين كل مدينة وأخرى من المسافة وما أنشئ على هذه الطرق
 من الجوامع والمساجد فراجع، واستمر حسين بن سلامة في مملكته نحو ثلاثين سنة من
 وفاة سيده رشيد في أول العقد الثامن من القرن الرابع إلى سنة ٤٠٣هـ وقد أحسن فيها
 صنعا وجاء فيها من كل خير بأحسنه والله لا يضيع أجر من أحسن عملا.

وَدَامَتِ الْحَالَةُ خَمْسَ سَنَوَاتٍ ۖ بَيْنَ الْمَوَالِي وَهُمْ فِي خُذِّ وَهَاتِ (١)

(١) قام بالامر بعد حسين عبد من عبيده يقال له مرجان وصار وصيا على الطفل الأخير عبدالله بن زياد الزياتي الذي كان في حجر عمته هند، وأحسن الوصاية لمدة قصيرة إلا أنه عهد بالأمر الى عبيدين آخرين من عبيده وهما نفيس ونجاح الأول بمثابة رئيس للوزراء وكان قظا غليظا قاسيا مبغوضا في الرعية، والآخر وهو نجاح كان عاملا على الكدراء والمهجم والواديين فهو بعيد عن سيده مرجان وزميله نفيس وهما يديران الملك كما يشاءان وفي العبد نجاح رفق ولين والرعية تحبه والخلاف شديد بينه وبين نفيس واتصل بعلم رئيس الوزراء أو مدبر المملكة أن مولاته هند تتصل بنجاح وتكاتبه في الأمر فأخذ من سيده مرجان الإذن بالقبض عليها وعلى طفلها فأذن له وقتلها شر قتلة وحشية ما مثلها وحشية وحفرة حفرها لغيره فدفن فيها هو وسيده الأخرق الذي وافقه على ما فعل، أحضر المرأة وابن أخيها فبنى عليها جدارا في أحد أركان القصر وهما حيان يستغيثان ولا يغاثان حتى ختم عليهما، ولم تمض على مرجان إلا أربع سنوات بعد وفاة سيده ابن سلامة. وقضى بهذا الفعل على الدولة الزيادية وانتهى أمرها، ولما جاء نجاح من غيبته وقويت شوكته وأصبح يخافه الأمر والمأمور سأل عن مولاته ومولاه الزياتيين وضغط على مرجان حتى أخبره بالواقع فاخرج القتيلين وصلى عليها ثم أخذ نفيساً ومرجاناً وجعلها حيث كانت المرأة والصبي وبنى عليها الجدار حتى ختم، وجزاء سيئة سيئة مثلها، واستمر الوضع في أخذ ورد وجزر ومد لخمس سنوات كاملة من ٤٠٧ إلى ٤١٢ فصفا الأمر لنجاح وابتدأت فيه وفي بنيه الدولة واستمرت قوية وضعيفة على ما سياتي حتى زالت بعلي بن مهدي ٤٥٤هـ، وسبحان الذي يبدىء ويعيد وهو الفعال لما يريد، (فائدة) يقول الله عز وجل ((ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل إنه كان منصورا)) والمثل السائر على ألسنة العامة بشر القاتلين بالقتل والمسرفين بالنقمة، والملوك من آل زياد ستة وهم على الترتيب، محمد بن عبدالله وابنه ابراهيم وابنه زياد وأخوه إسحاق وابنه زياد وابنه عبدالله والموالي خمسة وهم على الترتيب، رشيد الوصي لأبي الجيش والحسين بن سلامة الوصي لرشيد ومرجان الوصي لابن سلامة والعبدان نفيس ونجاح المذكور أمرها في هذا الفصل، ومدة الموالي قبل آل نجاح إحدى وأربعون سنة من ٣٧١ إلى ٤١٢، والله عاقبة الأمور.

دولة آل نجاح

لَمَّا اسْتَقَرَّ لِنَجَاحِ الْمَوْلَى حَكَمَ الْبِلَادَ أَرْبَعِينَ حَوْلًا
فَامَ بِهِ كَمَا يَفْعَلُ الْخُرُّ وَقَدْ أَتَاهُ هَذَا الشَّرُّ
فَمَاتَ بِالسُّمِّ الَّذِي دَبَّرَهُ لَهُ الصُّلَيْحِيُّ الَّذِي عَاَصَرَهُ
عَلَى يَدَيْ جَارِيَةٍ أَهْدَاهَا وَحَقَّقَتْ مَا شَاءَ مَوْلَاهَا (١)

(١) علمت أن نجاحا ونفيسا كانا عبيدين لمرجان الوصي على آخر بني زياد وأن نفيسا قد قتل الزيادي وعمته فأقبل نجاح من المهجم يطلب بدم مواليه وليشفي صدره من زميله الذي كان يعاديه وحصلت بينها معارك شديدة وانهمز نجاح في موقعتي يوم رمع، ويوم فشال، ثم انتصر في موقعة العقدة ويوم عرق، وكان قد استدعى من الجنود الأحمر والأسود وقتل نفيس في الموقعة الاخيرة ومعه خمسة آلاف من جنوده ودخل نجاح إلى مدينة زييد وأول ما قصد قصر الملك الذي وجد فيه سيده مرجان وسأله عن القتيلين وصار من الأمر ما علمت في آخر الفصل السابق، ثم تم الملك لنجاح على تهامة كلها وأصبح فيها السيد المطاع الذي يخاطب بقول الناس أيها الملك ويا سيدنا، أما الجبال التي كانت تحت حسين بن سلامة فتغلب عليها ولاتها فبنو معن على عدن، ولحج، وأبين، والشحر، وحضرموت، وبنو الكرندي من حير على السمدان، وصبر، وذخر، والتعكر، والمعافر، ومخلاف الجند، كله ومخلاف عنه، كما تغلب السلطان أبو عبدالله الحسين التبعي على حصون: حب، وعزان، والشعر، وحصن نور والنقىل والسحول وحصن خدد والشوافي، وعلى مخلاف وحاطة وحصونها، بنو وائل من آل ذي الكلاع، وضرب نجاح السكة على اسمه ودعى له على المنابر ودام في ملكه أربعين حولاً من ٤١٢ إلى ٤٥٢، وكان الصليحي الداعية الفاطمي لا يرى لنفسه ثبوتاً ولا استقراراً إلا بالقضاء على الملك نجاح وهو لا يستطيع ذلك فأهدى إليه جارية ودست له السم ويقال في منديل مسح به ذكره بعد وطنها فمات منه، وتغلب الصليحي باديء الأمر ولدة إحدى وعشرين سنة على آل نجاح وبعد معارك ثلاث سنوات غلب فيها الأمير معارك بن نجاح وانتحر لما حس بالهزيمة.

مُخَلَّفاً وَلَدَهُ مُعَارِكاً
مَنْتَحِراً لَمَّا رَأَى عَدُوَّهُ
وَقَرَّ هَارِباً سَعِيدُ الْأُخُولِ
عَلَيْهَا فِي الْمُلْكِ وَالْإِنْنَانِ
قَدْ لَبِثْنَا فِي دَهْلِكَ الْبَعِيدَةَ
وَخَرَجَا فِي عَدَدِ قَلِيلِ
أَعْنَى الصَّلِيحِي الَّذِي قَدْ قَتَلُوهُ
وَصَارَ مُلْكُهُ إِلَى سَعِيدِ
وَمَعَهُ بِنْتُ شِهَابِ أَسْمَا
بَيْنَ يَدَيْهَا وَهِيَ فِي هَوْدِجِهَا
وَكَتَبَتْ إِلَى ابْنِهَا الْمَكْرَمِ
فَجَاءَ وَاسْتَخْرَجَهَا مِنْ قَضْرِهَا
وَلِيَّ عَهْدِهِ وَصَارَ هَالِكاً
أَكْثَرَ مِنْهُ عِزَّةً وَقُوَّةً
وَمَعَهُ جَيَاشٌ وَالْمُعَمَّوُكُ
فِي الْأَخْذِ بِالثَّأْرِ مِنَ الشُّجْعَانِ
يَنْتَظِرَانِ الْفُرْصَةَ السَّعِيدَةَ
وَوَظَفِرَا بِالْمَلِكِ الْجَلِيلِ
وَاحْتَزَمْنَا مِنْهُ رَأْسَهُ وَحَمَلُوهُ (١)
وَعَادَ ظَافِراً إِلَى زَبِيدِ
تَنْظُرُ رَأْسَ زَوْجِهَا الْمُعْتَمَا
تَبْكِي عَلَى مَا فَعَلُوا بِزَوْجِهَا
مَا يَسْجُدُ السَيْفُ أَمَامَ الْقَلَمِ
وَقَفَّهَا مِنَ الْعِنَا فِي أُسْرِهَا (٢)

(١) خلف نجاح من الولد أربعة وهم معارك وسعيد الأحول وجياش ومنصور وبننا واحدة هي ذخيرة. أما الأول فولي العهد وحارب بعد أبيه وهزم فانتحر وأما الآخرون فهربوا بمن معهم إلى جزيرة دهلك وانتظروا هنالك حتى أذن الله فيما يشاء فخرج منهم سعيد الأحول وجياش وهما الرجلان المعول عليهما في الأخذ بالثأر واسترجاع الملك ولم يكن معها إلا نحو سبعين رجلاً ولا سلاح إلا المسامير في رؤوس الجريد وقد بلغهم مخرج الصليحي يريد الحج ومعه جند كثير وخيل ومال وسلاح ومئة وخمسون من ملوك اليمن وأعيانهم من بني الصليحي وغيرهم وظفروا به في مكان يقال له أم الذهب قريباً من المهجم فقتلوه وقتل أخوه عبدالله بن محمد وتولى قتل الأخوين سعيد وجياش بأيديهما وقتل من كان مع الصليحي من الملوك إلا وائل بن عيسى الوحاظي وعلي بن معن وابن الكرندي وتحول الملك إلى سعيد الأحول الذي أخذ بثأر أبيه واستعاد المجد لآل نجاح.

(٢) بعد هذه المعركة قطع رأس الصليحي وسبيت زوجته أساء بنت شهاب وكانت معه وجعلوها في هودج على بعير يسير بها وقد رفع رأس زوجها بين يديها وهي تبكي عليه ودخلوا بها إلى زبيد ووضعت في قصر يليق بها فكتبت إلى ولدها المكرم الذي استخلفه =

وَلَمْ تَرَ حَرَكَهُ الْكِفَاحِ
وَدَبَّرَتْ أَرْوَى بِنْتُ أَحْمَدَ
وَأَنْتَصَرَتْ عَلَى سَعِيدِ الْأَحْوَلِ
وَرَأْسُهُ قَدْ وَضَعْنَهُ السَّيِّدَةُ
نَقُولُ أَرْوَى وَهِيَ تَبْسُطُ الْيَدَا
وَدَخَلَتْ جُيُوشُهَا وَابْنُ شَهَابٍ
بَيْنَ الصَّلَاحِيِّ وَبَنِي نَجَاحِ
تَدْبِيرَهَا مَعَ الْأَمِيرِ أَحْمَدَ
بِحِيلَةٍ مَا مِثْلُهَا فِي الْحَيْلِ
حَيْثُ تَرَاهُ الزَّوْجَةَ الْمُقْبِدَةَ
يَا لَيْتَ أَسَاءَ تَرَى ذَا الْمَشْهَدَا
زَبِيدَ وَالذُّنْبَا ذَهَابَ وَإِيَابَ^(١)

= أبوه على صنعاء ودست الكتاب في رغبة أعطته أحد المتسولين وفيه تستثير عاطفة ولدها وتقول إنها حبلى من العبد الأسود وهو غير صحيح ولكنه كلام يستخدم به القلم السيوف الصوارم والرماح العوالي، وذهب السائل بالكتاب وسلمه للمكرم وثارت ثائرتة وخرج في ثلاثة آلاف مقاتل على ماسيأتي حتى دخل زبيد فأخرج أمه من القصر واستنقذها من الأسر، وكذلك يفعل من لا ينام على الضيم وما أكثر عجائب التاريخ.

(١) استمر النزاع والصراع بين الصليحيين وبني نجاح مدة طويلة تقدماً وتأخراً وزحفاً وتقهقراً حتى انتهت دولة الأحباش وتغلبت السيدة أروى وأخذت بالتأثر لأهلها، فإنه لما جاء المكرم لتخليص أمه واستولى على زبيد ورجع منها إلى صنعاء مستخلفاً عليها خاله أسعد بن شهاب رجع المغلوب سعيد الأحول من جزيرة دهلك وأعاد الكرة في سنة ٤٧٧هـ وتوفيت أساء بنت شهاب بعد ذلك بستتين ولما أصاب المكرم من الشلل والتشنج يوم كشف وجهه لتراه أمه وهو مدجج بالسلاح والعرق يتصبب منه فإن زوجته أروى كانت تدبر له الملك وهي معه في صنعاء إلى سنة ٤٨٠هـ ثم نزلت إلى ذي جبلة وانخذتها مقرأ للملك واشتغل زوجها بالملذات وضعف عن الحرب والمقاومة فدبرت المرأة تدبيراً خطيراً مع عمالها وأظهر بعضهم لسعيد الأحول أنه سينضم إليه ويخرج عن طاعة السيدة إن جعل له كذا وكذا فخدع الأحول وجاء بجيشه ليستولي على حصن الشعر الذي فيه العامل وجعلت السيدة جيشاً يأتيه من الخلف فما شعر إلا وقد أحاط به الشر من بين يديه ومن خلفه فقتل وقطع رأسه وسير به أمام زوجته الأسيرة التي تكنى بأب الممارك حتى جيء بالرأس والمرأة إلى ذي جبلة فجعلت الأسيرة في دار ونصب رأس زوجها أمام الطاق وهي تنظر إليه كما كانت أساء بنت شهاب زوجة الصليحي وهي في أسرها تنظر إلى رأس زوجها المصلوب في زبيد والسيدة الصليحية ترفع يدها حامدة وشاكرة على هذا الانتصار وتقول: ليت لمولانا أساء بنت شهاب عينا ترى هذا المشهد =

وَقَرَّ نَحْوَ دَهْلِكَ جِيَاشُ
 ثُمَّ مَضَى إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ
 وَحَيْثَمَا جَاءَ إِلَى تَغْرِ عَدَنَ
 بِتَفْسِيهِ سَارَ إِلَى ذِي جَبَلَةَ
 وَكَانَ فِي صُورَةِ هِنْدِيٍّ غَرِيبٍ
 وَابْنُ أَبِي ظَاهِرِ الْوَزِيرِ
 كَتَبَ بِرِسْمِ الْخَطِّ وَابْنُ الْقَمِ
 حَتَّى إِذَا مَا سَاعَدْتُهُ الْقُرْصَةَ
 وَأَضْبَحَ الْمُلُوكَ عَلَى تَهَامِهِ
 مُؤَلَّفَ الْمُفِيدِ عَنِ زَبِيدِ
 وَمَاتَ فِي ثَامَنِيَةٍ وَتِسْعِينَ

ومعه في دهلك الأحباش
 وعاد في عزيمة المشتد
 سار ليستطلع أخبار اليمن
 وعنده تفصيلها والجملته
 يُنكره البعيد منه والقريب
 من هنا إلى هنا يسير
 يُعينه في أمره المهم
 تبوأ المقعد والمنصه
 لابن نجاح الملك العلامه
 أكرم بجياش وبالمفيد
 مُخلفاً أربعة من البنين^(١)

= وكان القضاء على سعيد الأحول في سنة ٤٨٢ هـ. وفر من بقي من أهله وعلى رأسهم
 أخوه جياش ووزيره خلف بن أبي طاهر، وفي وقت ما قتل سعيد الأحول أقبل أسعد
 ابن شهاب مسرعاً ودخل زبيد لحينه والدنيا ذهاب وإياب، وإذا أراد الله شيئاً هياً له
 الأسباب.

(١) جياش بن نجاح بطل مغوار وفارس لا يشق له غبار وعالم أديب وشاعر وخطيب
 ويكنى أبو ظامي فر من اليمن بعد قتل أخيه إلى جزيرة دهلك ومكث فيها ستة أشهر ثم
 رحل إلى الهند وبقي مدة وتزوج بها امرأة أم ولده فاتك ثم جاء إلى عدن يستطلع الأخبار
 ومعه وزيره ابن طاهر أرسله إلى زبيد وسار بنفسه إلى ذي جبلة يتجسس أخبار المكرم
 الصليحي وما هو عليه وكيف تدبر امراته المملكة وكان في صورة هندي لا يعرفه أحد قد
 ستر عينه بخرقه وطول أظفاره وشعوره ثم سافر إلى زبيد والتقى بوزيره وكانا يجتمعان ليلاً
 ويفترقان نهاراً، وهناك رجل يقال له علي بن القم وزيراً لأسعد بن شهاب وله ولد وهو
 الحسين بن علي كان يلعب بالشطرنج وعنده الغريب الهندي فسأله هل تلعب الشطرنج يا
 هندي؟ قال نعم فلاعبه وغلبه وذكر ذلك لأبيه فقال ما هنا أحد يجيد اللعبة إلا جياش
 ابن نجاح وقد مات وأشاع موته وزيره ابن أبي طاهر تغطية لأمره ومبالغة في كتمان سره،
 ومرة وهو يلعب أصابه طرف السوط الذي يضرب به أحد العبيد فقال: أنا أبو الظامي، =

وَفَاتِكُ كَانَتْ لَهُ الْإِمَارَةُ وَلَمَّوَالِي فَاتِكِ السَّوَارَةُ
ثُمَّ إِلَى الْإِخْوَانِ وَالْأَوْلَادِ وَبَعْدَهُمْ صَارَتْ إِلَى الْأَحْفَادِ
وَزَالَ مَلِكُهُمْ إِلَى ابْنِ مَهْدِي وَالْمَلِكُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْفَرِيدِ (١)

= وأنكره ابن القم فقال: ما اسمك يا هندي قال بحر قال: صدقت هذه كنية تصلح لمن اسمه مثل اسمك، وغلط مرة أخرى أو تعمد فقال: أنا جياش بن نجاح، فأخذه بطرف ثوبه علي بن القم وانكشف الأمر بينهما وتعاهدا على ما فيه الخير لجياش وكان قد استوثق من خمسة آلاف رجل مجراهم من أهله وشيعته ينتظرون قائداً لهم فأظهر نفسه ودقت طبوله واستولى على زييد والتهاثم وقبض على أسعد بن شهاب وقال: ما يومنا بواحد معكم يأل نجاح ومثلي لا يسأل العفو عنه قال له جياش: صدقت ومثلي لا يقتلك واعترف بما كان له من العفو عن أهله ثم سيره ومعه نساؤه وبنوه إلى صنعاء وعاش جياش إلى ذي الحجة سنة ٤٩٨ وقيل رمضان سنة ٥٠٠هـ، وله مؤلفات شعرية ونثرية وله أيضاً ديوان يشتمل على قصائد جميلة ذكر الشيخ بالحزمة في كتابه ثغر عدن قطعاً من تلك القصائد ومن نشره كتاب المفيد عن أخبار زييد وهو كتاب مفقود ويعد من أفضل الكتب المؤلفة في عصره ويقال إن جياش هذا كان ضخماً الجسم كثير العلم فصيح اللسان ومن أفضل ما يروى له ما كتب به إلى مؤدب ولده فاتك يرسم له الخطة في التعليم ويعدده بحسن الجزاء على صنيعه إذا بلغ الغاية في تعليم ولده، وخلف جياش أربعة أبناء وهم فاتك، وعبد الواحد، وإبراهيم، ومنصور، وصار الملك فيهم دون بني عمومته.

(١) اختلف الأبناء الأربعة فيمن يلي الأمر بعد أبيه فكان رجال الجيش يميلون إلى عبد الواحد وبقية الناس مفترقة آراؤهم كل يريد واحداً من بقية الأمراء وأخيراً تغلب فاتك وتلطف بأخيه عبد الواحد وعفا عنه وأكرمه وتوفي الأمير في ٥٠٣هـ، وولي بعده ابنه منصور بن فاتك بن جياش وهو دون البلوغ، واختلف مع إخوانه وأعمامه واستقر له الملك بعد منازعة واستعانة الأمراء الآخرين كل بملك آخر من ملوك اليمن ودام منصور مستقراً في الحكم على تهامة حتى توفي سنة ٥٣٠هـ، والفضل في تغلبه على عميه المنافسين إبراهيم وعبد الواحد راجع إلى الفضل بن أبي البركات صاحب التعمر الذي نزل معه في رجاله حتى أدخله زييد وانتصر به على من ينازعه الأمر، وبعد منصور بن فاتك ولي حفيده فاتك بن محمد بن منصور ودام حتى قتله مواليه في سنة ٥٥٣هـ، وتغلب في السنة التي تليها علي بن مهدي على مملكة آل نجاح وقضى عليهم تماماً، وكان الملوك منهم ستة وهم على الترتيب نجاح وابنه سعيد الأحوال وأخوه جياش بن نجاح وابنه فاتك بن =

الدول المعاصرة في ذلك الزمان

عَلَى الْجِبَالِ دَوْلَةُ الزَّيْدِيَّةِ أُمَّةٌ سَبَرَتْهُمْ مَرَضِيَّةٌ
 قَمِيْنٌ ثَمَانِيْنَ وَمِئَتِيْن يَخِي وَيَحِي وَلِدُ الْحُسَيْنِ
 صَاحِبُ صَعْدَةَ الْإِمَامِ الْهَادِي إِمَامُ الْاجْتِهَادِ وَالْجِهَادِ
 وَمَوْتُهُ ثَالِثَةُ الْمِئْتِيْنَا فِي عَامِهَا الثَّامِنِ وَالْتَّسْعِيْنَا (١)
 وَوَلَدَاؤُهُ الْمُرْتَضَى وَالنَّاصِرُ أَحْمَدُ مَنْ تَخِيَا بِهِ الْمَفَاخِرُ

= جياش ثم ابنه منصور بن فاتك ثم حفيده فاتك بن محمد بن منصور. هؤلاء هم الملوك وفي آخر أيامهم لم يكن لهم إلا الاسم والدعاء في الخطبة وبقية الشؤون كانت لوزرائهم المتغلبين عليهم. والحكم لله العلي الكبير.

(١) الدول التي عاصرت بني زياد ومواليهم هي أولاد دولة الزيدية المتعبدین علی مذهب الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي عليهم السلام وهم إحدى فرق الشيعة الثلاث الرئيسية يفضلون أمير المؤمنين علياً على غيره ولا يذكرون الخلفاء قبله إلا بخير والإمامة باقية عندهم إلى يوم القيامة وهي لمن ادعاها من أهل البيت وتكاملت فيه الشروط المعتمدة شرعاً، ونشأت في جبال اليمن بين صنعاء وصعدة هذه الدولة وابتداء أمرها أنه لما كثر الخلاف وتعاقبت عمال بني العباس على اليمن وما يزداد الوضع إلا سوءاً، جاء من المدينة المنورة في سنة ٢٨٠ هـ الإمام الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي عليهم السلام ومولد هذا الإمام في سنة ٢٤٥، وتلقب بالهادي وحارب القرمطي علي بن الفضل وغيره من المخالفين ديانة أو سياسة، وتوفي الإمام المجتهد المجاهد في سنة ٢٩٨، وله مؤلفات علمية كثيرة ومنها الأحكام والمنتخب والفنون والمجموع ويقال إنها بلغت تسعة وأربعين مؤلفاً، وقبره في مدينة صعدة مشهور مزور، ومن الإمام الهادي تعاقبت أئمة معظمهم أهل سيرة مرضية وأعمال صالحة وقد تكون الإمامة في اليمن بين أهل البيت الحسينيين والحسينيين ولكن بغير نظام متبع ولا ولاية عهد ملزمة للناس من سابق للاحق، ولكنها ما تزال في السادة الزيدية إلى اليوم.

وَلَمْ تَزَلْ بَعْدَهَا الْأَيْمَةَ
 بَابِنِ سَلِيمَانَ أَحْمَدَ الْمَلْقَبِ
 وَكَمْ لِهَؤُلاءِ مِنْ مُخَابِطَةٍ
 وَغَيْرِهِمْ مِنْ مَلِكٍ وَعَامِلٍ
 وَلَبَنِي مَعْنِي مَلُوكِ عَدَنَ
 مَمْلَكَةً تَحْتَ الصُّلَيْحِيِّينَا
 قَدْ قُتِلُوا مَعَ الْمُلُوكِ غَيْرِهِمْ
 إِلَّا عَلَيْنَا فَلَقَدْ خَلَّاهُ
 وَلِلصُّلَيْحِيِّ عَلِيِّ بْنِ مَعْنٍ
 مِئَةُ أَلْفٍ مِنْ دَنَانِيرِ الْبَلَدِ
 حَتَّى إِذَا تَمَنَعُوا مِنْ ذَلِكَ
 بَلَّ عُزْلُوا بِأَخْوَيْنِ مِنْ بَامِ

فِي ضَعْفٍ وَقُوَّةٍ وَهَيْمِهِ
 بِالْمُتَوَكِّلِ انْتَهَى ذَا الْحُقْبِ
 مَعَ الصُّلَيْحِيِّينَ وَالْقَرَامِطَةَ
 وَمِنْ عَصَاةِ الْبَدُوِّ وَالْقَبَائِلِ (١)
 وَحَضْرَمَوْتَ وَبِلَادِ أْبِينِ
 سِيَاسَةً لَا مَذْهَبَا وَدِينَا
 مَعَ الصُّلَيْحِيِّ وَهُمْ فِي سَيْرِهِمْ
 سَعِيدُ الْأَخْوَالِ وَاشْتَبَاهَهُ
 إِتَاوُهُ بِالْعَدِيدِ أَوْ بِالْوَزِينِ
 تَقْبِضُهَا أَرُوِي بِأَمْرِ مَعْنَمِدِ
 لَمْ تَبْقَ فِي أَيْدِيهِمُ الْمَمَالِكُ
 مَسْعُودٍ وَالْعَبَّاسِ تِلْكَ الْأَيَّامُ (٢)

(١) خلف الإمام الهادي ولداه محمد المرتضى وأحمد الناصر قام الأول بعد أبيه بالأمر ثم اعتزله وقام به أخوه بن يحيى الملقب بالناصر وسيرته كسيرة أهله وتوفي في سنة ٣٢٥ هـ وما زالت الائمة بعده في قوة وضعف يحيى واحد ويروح واحد لا في اليمن وحدها بل فيها وفي غيرها من بلاد العرب والعجم ومن أهل البيت الطاهر إلا أن كلامنا في أئمة اليمن الذين تعاقبوا عليها من زمان الهادي إلى زمان المتوكل على الله أحمد بن سليمان بن محمد ابن المطهر بن علي بن الناصر أحمد بن الهادي، وبيعة المتوكل في سنة ٥٣٣ هـ ووفاته في سنة ٥٦٦ هـ، وهذه المدة كان فيها على التهاثم بنو زياد ومواليهم وآل نجاح وابن المهدي والصليحيون والزريعيون وبنو معن واليعقريون والقرامطة وكانت الحروب سجلا بين الزيدية وبين بعض ما ذكرناه وربما تكون الحروب مع العصاة والبلغاة من البدو والقبائل قطاع الطريق والذين لا يصلحهم إلا السيف ولا يرضيهم إلا الدينار، والمخابطة مصدر مفاعلة من خبط أي ضرب بشدة، والحقب هو الزمان الطويل ويختلف علماء اللغة في تحديده، وجمعه أحقاب.

(٢) بنو معن قبيلة يمنية قال ابن خلدون: من ذرية معن بن زائدة، وأظنه غير صحيح، =

وَكَانَ لِلْعَبَّاسِ بَابُ الْبَرْ
 وَمَاتَ عَبَّاسٌ وَقَامَ وَلَدُهُ
 وَهُوَ الَّذِي ضَمَّ بِلَادَ الصَّلَوِ
 وَقُتِلَ الْاِثْنَانِ فِي زَيْدِ
 وَقَامَ بِالْأَمْرِ أَبُو مَسْعُودٍ
 وَأَمْتَنَا مِنَ الْخَرَاجِ الْإِلَازِمِ
 حَتَّى أَقَى الْمَفْضِلُ الْمُحَارِبُ
 وَصَالِحُ الْقَوْمِ عَلَى نِصْفِ الْخَرَاجِ
 حَتَّى عَلَى رُبْعِ الْخَرَاجِ لَمْ يَتَمَّ

وَكَانَ لِلْمَسْعُودِ بَابُ الْبَخْرِ
 وَهُوَ زَرِيعٌ عُمُهُ يُؤِيدُهُ
 وَصَارَ بَعْدَ ضَمِّهَا مُسْتَقْوِي
 فِي الْحَرْبِ مِنْ أُرْوَى عَلَى سَعِيدِ
 مَعَ أَبِي الْغَارَاتِ فِي الْحُدُودِ
 وَأَعْتَصَمَ بِقُوَّةِ الصَّوَارِمِ
 وَمَعَهُ الطَّعَانُ وَالْمُضَارِبُ
 وَبَعْدَ هَذَا الصَّلُحِ دَامُوا فِي اللَّجَاجِ
 وَلَمْ يَزَلْ شَأْنُ الْخِلَافِ يَخْتَدِمُ (١)

= تملكوا عدن، وأبين ولحج والشحر وحضرموت، وابتداء أمرهم وتغلبهم في حدود سنة ٤١٠ بعد وفاة الحسين بن سلامة وفي أيام مولاه مرجان الحبشي وكانوا أقوياء على حفظ ما في أيديهم ما استطاع بنو نجاح أن يغلبوهم على شيء من ذلك ولكنهم غلبوا للداعي علي بن محمد الصليحي لما دخل عدن في سنة ٤٠٤ أو ٤٥٥ هـ واستبقاهم على ولايتهم وفرض عليهم إتاوة سنوية يدفعونها إليه قدرها مائة ألف دينار ذهباً من دنانير البلد، وفي سنة ٤٦١ زوج الداعي الصليحي ولده أحمد المكرم بابنة عمه السيدة أروى بنت أحمد الملكة، وجعل صداقها الخراج المأخوذ من عدن وقبضته لنفسها نحو ثلاثة عشر سنة وإلى ما بعد مقتل عمها، واستمر بنو معن في إمارتهم والحالة بينهم وبين الصليحيين تحسن وتسوء، ومهما يكن من طاعتهم فليس إلا سياسة ومجارة لاوضاع الزمان وإلا فإن بني معن سنيون في المذهب ولا يريدون أن يكونوا تبعاً لغيرهم إلا قهراً، ومما سبق علمت أن الملوك الذين ساروا إلى الحج مع الصليحي في سنة ٤٧٣ قد قتلوا جميعهم إلا الثلاثة الذين استبقاهم سعيد الأحول ومنهم علي بن معن، وما زال ملكهم إلا بالزريعيين ولذلك بعد تمنعهم من دفع الإتاوة للصليحيين وبعد أن غزاهم المكرم أبادهم وأزال ملكهم.

(١) بعد بني معن استخلف المكرم على عدن رجلين من يام وهما العباس وأخوه مسعود بن الكرم من جشم، ابن يام بن أصغى من همدان، وكانت للعباس صلة قوية بالصليحي الأول عند قيام دعوته ثم بولده المكرم وجعل العباس على بابها البري في حصن التعكر وله جباية ما دخل من البر، وجعل مسعود على بابها البحري وحصن الخضراء وله جباية =

ثُمَّ تَنَاقَسَتْ بَنُو الْعُمُوْمَةِ وَاخْتَلَفَتْ فِي الْبُقْعِ الْمَقْسُوْمَةِ
 هَذَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي الْغَارَاتِ يُرِيدُ قِسْمَهُ مِنَ الْخَيْرَاتِ
 وَابْنُ أَبِي مَسْعُوْدٍ كَانَ أَكْبَرَا حِظًّا مِنْ ابْنِ عَمِّهِ وَأَكْثَرَا
 وَاشْتَمَعْتُ بَيْنَهَا الْحُرُوْبُ وَضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوْبِ
 وَابْنُ أَبِي الْغَارَاتِ لَمْ يَظْفَرْ بِمَا أَرَادَهُ مِنْ سَبَأٍ بَلْ هُزِمَا ^(١)

= ما نزل من البحر، واستخلفهما على ما كان يدفع للسيدة أروى مئة ألف دينار وبقيا على ذلك، ولما مات العباس كان بعده ولده زريع الذي تنسب إليه الدولة الزريعية وكان مع عمه كما كان الحال في عهد أبيه العباس، وفي حلة المكرم على زبيد لما طرد عنها سعيد الأحول واستخلص أمه أسماء بنت شهاب من الأسر كان معه الرجلان مسعود وزريع ابن أخيه فقتلا معه وجعل مكانهما على عدن ولديهما أبا السعود بن زريع وأبا الغارات ابن مسعود، راسمرا يدفعان للسيدة المفروض عليهما مدة قصيرة ثم تمنا ورفضاً أن يدفعها لها شيئاً، فأرسلت القائد المفضل بن أبي البركات لحربهما وبعد معارك اصططح القوم على دفع نصف الخراج ومات المفضل فامتنع أبو السعود وأبو الغارات عن النصف الذي صولحا عليه فأرسلت السيدة لحربهما أيضاً أسعد بن أبي الفتح وصالح الرجلين على نصف النصف خمسة وعشرين ألف دينار فقط وما دام هذا إلا أياماً قليلة وحدث بعدها اختلاف بين الزريعيين وقطعت الجباية من عدن ولم يبق للسيدة فيها شيء البتة، لضعف جانبها وقلة رجالها المعول عليهم في الحرب وقيادة الجيوش.

(١) وبعد أن انفصل الزريعيون تماماً عن الصليحيين حدث بينهم خلاف عائلي وبدايته بين الداعي سبأ بن أبي زريع بن العباس بن الكرم وبين ابن عمه علي بن أبي الغارات بن مسعود بن الكرم، فالاول يتسع ملكه ويستولي على باب عدن البري والدملوة وسامع ومطران وذبحان وأجزاء من المعافر والجند وبعض الجبال في تلك النواحي ومنها الصلو وما فوقها وأسفل منها، والله أعلم هل استولى الداعي سبأ على هذه الأماكن بنفسه أم أنه ورثها عنمن قبله، أما علي بن أبي الغارات وهو الذي قام بعد أخيه محمد فكان شبه المحصور في نصف عدن الداخلي وقد شعر بالغبن وضيق ولايته فجعل عماله يمدون أيديهم إلى رعايا سبأ بن أبي السعود وإلى ممتلكاتهم والناس يضيقون بهم ذرعاً والملك يتحمل الضيم ولا يحرك ساكناً إلا أنه يعد العدة ويجمع الغلة وينتظر الفرصة لتأديب ابن عمه وإيقافه عند حده فأمر نائبه علي عدن الشيخ بلال بن جرير =

ثم استقل سبأ بالحكم
 نائبه الشيخ بلال بن جوير
 وبعد موت سبأ تأمرا
 على الأعز صئوه محمد
 وصار عمران بعام ستين
 مُستوصياً على البنين ياسرا
 لكن قضى لربه عمران
 أما ملوكهم فهم ثمانية

مَمَتَّمَا فِي عَدْنِ بِالسَّلْمِ
 وَقَدْرُهُ عِنْدَ الزَّرِيْعِيِّ كَبِيْرٍ
 وَلِدُهُ الْأَعْرُ ثُمَّ انْتَصَرَا
 وَبَعْدَهُ عِمْرَانُ نِعْمَ الْوَلْدِ
 مِنْ بَعْدِ خَمْسِ مِئَةٍ فِي السَّالْفِيْنَ
 وَكَادَ يَأْسِرُ يَكُوْنُ الْأَمْرَا
 وَبَعْدَ عَشْرِ جَاءَهُمْ تَوْرَانُ
 عَلَى الشُّهُولِ وَالْجِبَالِ الْعَالِيَةِ (١)

= المحمدي أن يستعد للحرب فجمع رجاله من مختلف القبائل ونزل الداعي سبأ من الجبال فالتفت جيوشه في مكان يقال له بني أبة قرية في لحج واجتمعت جيوش علي بن أبي الغارات في مكان آخر يقال له الرعاع وهو في لحج أيضا وابتدأ الحرب بين الفريقين وكلاهما مجالد قوي وكلاهما لا يطلب إلا التفرد بالملك أو الموت دون ذلك ودامت الحرب بينهما سنتين وانتصر أخيراً الزريعي علي ابن أبي الغارات ثم رجع إلى عدن وقد أنفق أمواله كلها واقترض من التجار قروضا كثيرة ومات بعد سبعة أشهر في عدن ودفن في سفح جبل التعكر وهو المعروف بجبل حديد، وقضى عنه ما بقي عليه من الديون ولده الأعز، وصفا الأمر كله لآل سبأ بني زريع أما علي بن أبي الغارات وعمه منيع بن مسعود فقد اعتصما بعد الهزيمة بحصني منيف والجلبة في صهيب وبقيا فيه حتى قتلا عام ٥٤٥.

(١) قام بالامر بعد الداعي سبأ ولده علي الأعز بولاية عهد له وكان أخوه محمد في عدن والوالي مريض بالسل في الدملوة وأراد القضاء على أخيه محمد الذي لجأ إلى الشيخ منصور بن المفضل بن أبي البركات في تعز وكان الشيخ بلال يميل إلى محمد بن سبأ، ولما مات الأعز رجع اللاجئ السياسي إلى عدن وسلمه الشيخ بلال جميع ما في يديه وزوجه بابنته وتفرد بملك آل زريع وقهر أولاد أخيه الأعز والوصي عليهم أنيس الذي دخل في طاعته وسلم إليه حصن الدملوة وقد اشترى الداعي محمد بن سبأ من الشيخ منصور بن المفضل بن أبي البركات جميع حصون الصليحيين في اليمن وهي ثمانية عشر مئة ألف دينار، ومات في سنة ٨ أو ٥٤٩ هـ، ومدة ملكه خمس عشرة أو ست عشرة سنة تقريبا، وخلفه ولده عمران بن محمد وفي أيامه ظهر الخارجي عبد النبي بن علي بن مهدي الذي سيأتي ذكره وهو =

ملوك آخرون

أسس يعفر بن عبد الرحمن
وكان ثائراً على المعتصم
محمد بن يعفر قد قال له
وقام بالأمر حياة والده
ثم مضى محمد بن يعفر
وهو الذي شاركه في الحكم
ولهذه المجرم إبراهيم
وجده يعفر إن شئت البقا

دولته على شبام كوكبان
ثورة ساخط لتلك التظيم
تتخ واترك هذه المعامله
يكره ما يعرف من عوائده
لحجه مستخلفاً لغدر
مستائراً بما له من غنم
قال له شيطان الرجيم
فاقتل أباك لتعيش مطلقاً^(١)

= الذي أغار على لحج واستولى عليها وأحرق أيبين وعجز عن دخوله عدن، وتوفي الداعي عمران بن محمد في سنة ٥٦٠ هـ واوصى على بنيه الشيخ مدافع بن بلال وبعده كان الوصي عليهم أخوه ياسر وهو الذي فصلهم عن كل شيء وأراد أن يكون له الملك في هذه الجهات كما كان لآل نجاح في التهام، وأخيراً قتله توران شاه الأيوبي الذي دخل اليمن في سنة ٥٦٩ هـ قيل إنه قتل ياسراً في عدن شنقا وقيل حبسه حتى مات، وهذا ينتهي الحديث عن الزريعيين ومدتهم ثلاث وتسعون سنة، وأمراؤهم، عباس ومسعود، ابنا الكرم ثم زريع بن عباس وأبو الغارات بن مسعود وأولاده، وأبو السعود بن زريع، ثم تملك الداعي سبأ وبعده ابنه الأعز علي، ثم ابنه الآخر محمد، ثم عمران بن محمد وبه كانت نهاية الدولة الزريعية، ولا دوام إلا لله.

(١) كانت العمال تختلف على اليمن لبني العباس من أيام السفاح إلى أن قامت الدول المستقلة بالبلاد تماماً أو التي تعترف بالخلافة العباسية شكلياً، ومن هذه الدول دولة الحوالبين ومؤسسها يعفر بن عبد الرحيم أو ابن عبد الرحمن كما تختلف كتب التاريخ وهو الحوالي سخط الأوضاع في أيام المعتصم وإلى أن عزل الواثق بن المعتصم عامه هزيمة في =

وبعد ما صلوا صلاة المغرب وكان للمقتول في المصانعة يدعوله في خطب الجوامع وغضب القبائل الأشدا كجعفر بن أحمد المناخي كفضل بن يونس المرادي شيخ بكيل وهو الدعام

حَقَّقَ مَا يُرِيدُ مِنْ قَتْلِ الْأَبِ
 مع الزيادي حيلة المخادعة
 بعد بني العباس كالموادع
 ولعنوا القاتل بل والجدا
 وغيره من سائر الأشيخ
 ومثله سيد أهل الوادي
 تعرفه همدان والإمام (١)

= صنعاء وتفرد في شبام كوكبان هذا الأمير الجديد سنة ٢٣٠هـ ثم إن ولده محمد راجعه في شدته وعدل بعض تصرفاته فصانع الزياديين في التهاثم ودعا لهم في الخطبة بعد الخلفاء وأهدى لهم الهدايا واكتفوا منه بذلك، ولما أراد الحج استخلف على اليمن ولده إبراهيم بن محمد بن يعفر، وقلت فيه غدر، بضم المعجمة وفتح الدال بمعنى الغادر لأنه قاتل أبيه والذي كادت تنتهي بغدرته الدولة اليعفرية، وكان مشاركاً لأبيه في الحكم وحظه من المغنم أكثر من حظ أبيه، وفي سنة ٢٦٩هـ، وما يزال مؤسس الدولة يعفر بن عبد الرحمن حياً قال لحفيده المجرم إبراهيم بن محمد: إن شئت أن يخلو لك الجو ويصفو لك الملك فاقتل أباك الذي يمنعك من التصرف المطلق، وأظنه كان ما يزال حاقداً على ولده محمد من حين كلفه بالاعتزال عن الملك وموادعة الزياديين الذين هم أقوى منه شوكة وأحسن صلة بالخليفة، ولما بويع المعتمد أخذ له البيعة الشكلية محمد بن يعفر فبعث إليه بولاية اليمن وزاده قوة في دولته، وقد استجاب إبراهيم الحفيد لما دعاه إليه جده يعفر وزين له الشيطان قتل أبيه ظلماً وعدواناً.

(١) وفي يوم منحوس وبعد صلاة المغرب قتل إبراهيم بن محمد والده وآثر الحياة الدنيا على الآخرة ووقف جده إلى جانبه وما أغناه ذلك من شيء بل إن أصدقاء الأمير المقتول قد غضبوا غضباً شديداً لهذه الفعلة النكراء وصبوا على الجد والحفيد جام غضبهم، ومن أشهر هؤلاء الغاضبين جعفر بن أحمد بن إبراهيم المناخي والفضل بن يونس المرادي وإبراهيم بن عبد الله الدعام الهمداني وهو من بكيل وتعترف له همدان بالسيادة وله مع الإمام الهادي مواقف مشكورة، وقد رأى الخليفة المعتضد أن يطفىء نار هذه الفتنة فعزل إبراهيم بن محمد القاتل وأقام مقامه ولده يعفر بن إبراهيم وبقي في الحكم عشر سنين ثم قتل في عام ٢٧٩هـ.

وجعفر من ينسب الخلاف واتخذ العاصمة المذيخرة ثم رأى الخليفة المعتضد أعني به يعفر من بعد أبيه وقتلوه بعد عامٍ عاشرٍ وبعده أسعد وهو المعتمد أخباره تُروى مع ابن الفضل ومات في الثنتين والثلاثين أما أبو يعفر نجل المذكور إليه قد شجعه الخلاف مقره ومستقر السيطرة عند الخلاف أن يقوم الولد لعل شعبه الأبى يرتضيه فقام يعفر بن عبد القاهر من هذه الدولة في جزيرٍ ومدٍ تُروى من المملي على المُستملي من رابع القرون عند المسلمين فمات بعد سبعة من الشهور (١)

(١) جعفر بن أحمد بن إبراهيم الحميري المناخي هو كما قلت من أصدقاء محمد بن يعفر وهو الذي ينسب إليه الخلاف وبعضهم ينسبه إلى جعفر مولى محمد بن زياد الذي سار بالهدايا إلى المأمون ورجع منه بالعدد العسكري والتأييد لمولاه الزيادي وهكذا مع الأسف نجد كثيراً من الأسماء غير مضبوطة ومن النسب والأسباب غير صحيحة، ودام جعفر هذا على المذيخرة ٤٣ سنة وأشك في صحة هذه المدة وأخرجه منها القرمطي علي بن الفضل بعد حروب وانهزم فيها جعفر بن أحمد ثلاث مرات وأخيراً قتل، وبقاؤه في المذيخرة والخلاف كان نتيجة لخلافه مع اليعفرين إبراهيم القاتل وولده يعفر المنسوب في حياة أبيه بأمر من الخليفة العباسي كما علمت، ولما قتل يعفر بن إبراهيم بن محمد بن يعفر الأول قام بالدولة يعفر الثالث وهو ابن عبد القاهر بن أحمد بن يعفر الأول ومدته نحو أربع عشرة سنة، وقام بعده في سنة ٢٩٣ هـ، أسعد بن يعفر الثاني بن إبراهيم القاتل ابن محمد بن يعفر الأول وله مع القرمطي أخبار طويلة وخرج من صنعاء إلى بعض معاقله في ٢٩٩ ثم عاد إليها وهو عائل للقرمطي يدعوله في الخطب ويقطع الدعوة عن العباسيين حتى دبر قتله ثم نزل إلى المذيخرة وحاصرها سنة كاملة وبعدها قتل ابن القرمطي وسبي بناته الثلاث واستمر في الحكم إلى أن مات في ٣٣٢ والمراد بقولي: عند المسلمين، التاريخ الهجري وهو الذي اعتمده في ضبط الحوادث إلا النادر اليسير فقد أذكره بالتاريخ الميلادي لحاجة يقتضيها سبب من الأسباب، وأبو يعفر نجل المذكور أسعد لم يمكث بعد أبيه في الأمر إلا سبعة أشهر أو نحو ذلك.

وبعده قام عليُّ وردانَ
ولم يُقِمْ سابورُ إلا عاماً
ثم استعاد مجد آلِ يعفر
ثم ابنةُ أسعدُ واستمرا
وقد فهمتَ خبرَ المفضلِ
لما أراد مُلكَ آلِ فاتِكِ
وصار ما يملكهُ بالتَّفَكُرِ
لَمَّا رأى بعضَ جوارِيه وقد
وزال عن ولدهِ بالبيعِ

وابنُ أبي الفتوحِ شيخُ خولانَ
بَعَدَ أخيه فأنتهى وتاما
ولدُ قحطانَ بتلكَ الأعصرِ
حتى انتهى أمرهمو ومراً^(١)
في السهلِ من بلادِهِ والجَبَلِ
ضاعت عليه أحسنُ الممالكِ
للفقهاءِ وهولِ المنظرِ
صِرْنَ مع الثوارِ مات بالكمدِ
جميعُ ما يملكُ للزريعي^(٢)

(١) ابتدأ الضعف الظاهر في دولة بني يعفر الخوالبين بموت يعفر بن أسعد صاحب السبعة الأشهر وتغلب على الحكم رجل من مواليهم يقال له علي وردان يشاركه الأسمر بن أبي الفتوح الخولاني صاحب حصن ناعط، وبنو الضحاك من حاشد، واستمر على وردان إلى سنة ٣٥٠ فات واستخلف أخاه سابور ولم يبق إلا سنة واحدة ولحق بربه فقام من اليعفرين عبدالله بن قحطان بن يعفر وعمه أسعد بن يعفر فقوى أمره واستعاد ممالك أهله واستولى على مخلاف جعفر وغيره، وكان ملكاً قوياً حازماً دام في ملكه إلى سنة ٣٨٣هـ، وكانت امرأته إحدى بنات القرمطي المسيبات من المذيخرة زوجه بها عمه أسعد، وكان له منها ولده أسعد بن عبد الله الذي خطب للعبيديين وتأثر بمذهبهم وعلى يده انتهى أمر هذه الدولة تماماً في سنة ٣٨٩هـ، ولا نعلم أين ذهبوا ولا كيف قضى عليهم الزمان، ومدتهم تسع وخمسون ومئة سنة من ٢٣٠ إلى ٣٨٩هـ، وملوكهم تسعة على الترتيب، يعفر بن عبد الرحمن، محمد بن يعفر، إبراهيم بن محمد، يعفر بن إبراهيم، يعفر ابن عبد القاهر، أسعد بن يعفر بن إبراهيم، يعفر بن أسعد وبعده مولاهم علي وردان ثم عبدالله بن قحطان ثم ولده أسعد بن عبدالله آخرهم.

(٢) المفضل بن أبي البركات الحميري كان رجلاً من أكبر الإقطاعيين في الدولة الصليحية وهو من أكبر قواد السيدة أروى بل هو أكبرهم، قاد لها الجيوش وأخضع لها المتمردين وحظي عندها إلى أن صار وزيرها الذي لا يحجب عنها وأميرها الذي لا تقطع دونه رأياً ولا ترد له مشورة، وطلب منها أن تأخذ الأموال والذخائر الموضوعة في التعكر =

ولبي الضحاك قوم حاشد
من خبر بذكره الرواة
ولو تأملت الذي ألقينا
لقلت كيف كانت الأحوال
فنحن لا نعرف مما يُروى
وَعَهْدَهُ الْمَاضِي عَلَى رُؤَاتِهِ
ما يفعل الملوذ بعد الوالد
والدهر في أخباره العظاء
من خبر القوم كما استقينا
يومئذ ونقلها محال
إلا قليلا بيّنته الأضواء
فأبحث إذا ما كُنْتَ مِنْ هَوَاتِهِ (١)

= وتخلي له الحصن فقالت: سأهبه لك والأموال ولو لم تكن محتاجا إليها ولن نحتاج إن شاء الله إلى شيء منها. ولما وقع الخلاف بين منصور بن فاتك بن جياش وعمه عبد الواحد لجأ منصور إلى المفضل واستعان به على عمه وجعل له زرع الخراج في التهام إن هو نصره، فنزل المفضل بقواته إلى زييد وأعاد الملك إلى منصور بن فاتك ثم طمع في التوسع وأراد التغلب على بني نجاح وأن يقضي عليهم وبيننا هو كذلك وقد فطن القوم لما يفكر فيه ثار عليه جماعة من الفقهاء واستولوا على مقر ملكه ومركز قواته وممتلكاته (جبل التمر) الواقع بين مدينتي اب وذي جبلة فرجع لا يلوي على شيء وحاول المستحيل وتبين له عجز نفسه عن طرد الثوار واسترجاع ملكه وقد رأى بعض جواريه من بعد وهي تضرب بالدف وإلى جانبها أحد الثوار فات كمدأ، وقيل أكل سمأ لهول ما رأى ومات في رمضان سنة ٥٠٤ هـ وانتهى أمره وفرأ أولاده إلى تعز ومنهم المنصور الذي تقدم أنه باع حصون بني الصليحي إلى الداعي سبأ بن السعود الزريعي.

(١) بنو الضحاك قوم من حاشد وهم ملوك همدان وعظماؤها ومقرهم ريذة، ولهم سلطة قديمة بصنعاء ونواحيها، حتى قتل الصليحي منهم يحيى بن أبي حاشد بن قيس بن الضحاك في ألف من قومه، وهؤلاء صلة حرب وسلم بالإمام الهادي ثم بولديه المرتضى والناصر ثم بالمختار لدين الله القاسم بن الناصر، وللمؤرخ الكبير محمد بن الحسن الهمداني صلة قوية بأل الضحاك وله عناية عظيمة بمدحهم والثناء عليهم. هذا ومع الأسف لا يذكر التاريخ من أخبار هؤلاء الملوك إلا وقائعهم الحربية ومتى ولد أحدهم وكيف مات أو قتل، أما أفعالهم التي تعتز بها البلاد والعباد من العمران والحضارة والعلم والتعليم وصلاتهم بالخارج فلا شيء من ذلك إلا القليل الذي لا يذكر، ثم لا تكاد تعرف موارد الثروة التي يجمعونها ولا كيف تصرف وتبدد اللهم إلا في شراء الخيل والسلاح لقتال بعضهم البعض أو في نكاح العبيد والحسان ومختلف أنواع الأطياب واللبن من الفرس =

دولة بني مهدي

مِنْ حَمِيرٍ مَنْ ذِي رَعِينٍ انْتَصَبَ عَلَى الْبِلَادِ حَاكِمٌ ثُمَّ اغْتَصَبَ
 حَقُوقَ مَنْ جَاوَرَهُ مِنَ الْمَلُوكِ وَقَبْلَ هَذَا كَانَ يَحْسُنُ السَّلُوكَ
 وَكَانَ فِي خِلْقَتِهِ وَسِيمًا نَعَمَ وَفِي أَخْلَاقِهِ عَظِيمًا
 لَهُ لِسَانٌ مُحْسَنٌ فِي لَفْظِهِ وَقَلْبُهُ مُنْسَعٌ فِي حِفْظِهِ
 فِي بَادِيءِ الْأَمْرِ مِنَ الْعِبَادِ وَحِجَّةٌ فِي الْوَعْظِ وَالْإِرْشَادِ
 بِلَدَةٍ مَعْرُوفَةٌ بِعَنْبَرِهِ قَرَبَ زَبِيدٌ وَهِيَ فِي الْمُوْخَرِ (١)

= والثياب . ولا أقول هذا وأنكر غيره ولكنني أتساءل ماذا تركوا من الآثار الصالحة
 وهل كتبت عنهم الأخبار التي نحن في حاجة إلى نشرها والاطلاع عليها؟ ولا لوم علينا
 إذا عجزنا عن جواب السائل الذي يقول كيف كانت الأحوال الاجتماعية أيام هؤلاء
 الملوك وإنما نعتذر إلى السائل بقلة المصادر الموثوق بها عندنا ونقول معترفين بالعجز
 والتقصير: ((سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم)). وعلى الراغب
 في المزيد أن يقرأ ومن قرأ درى والحقيقة بنت البحث والله تعالى يقول: ((قل هل يستوى
 الذين يعلمون والذين لا يعلمون)).

(١) دولة بني مهدي هي المنسوبة إلى صاحبها ومؤسسها علي بن مهدي بن محمد بن
 علي بن داود بن محمد بن عبد الله الحميري الرعيني، وكان ظهورها الحقيقي بعد احتلالهم
 لزبيد في سنة ٥٥٤هـ، وكان علي بن مهدي متقلباً بين ثلاثة مذاهب إسلامية وهي السنية
 أولاً ثم الاعتزال ثم الخارجية، وكان في بادئ أمره واعظاً مرشداً متعبداً متنسكاً، ولما صار
 حاكماً اغتصب الحقوق وأخذ الممالك المجاورة، وطلب من الزريعي أن يوليّه علي زبيد
 فيريجه من بقايا آل نجاح ولكن الزريعي لم يوافقهُ على ذلك وأبى أن يتعاون معه وكيف
 يتعاون الضب مع النون أو كيف يتفق الخوارج والعلويون ذلك هو الأمر الذي لا يكون ومن
 صفات ابن مهدي الخارجي شخصيته البارزة في خلقه الوسيم وخلقته العظيم مع كثرة حفظ
 وفصاحة لفظ فهو الخطيب المبدع والراوية المكثر روايته تصل إلى القلوب =

وحيثما حج وزار أحدا
وقومه سَمَاهم المهللة
وكان في منزلة شريفه
وصار في التوحيد والكلام
وصار أيضاً خارجياً ويقول
من أجل هذا حلل الدماء
قال له المخبر أنت المبتدا
وليته سَمَاهم المحللة
يتبع في الفقه أبا حنيفه
كأنه الحاكم والمحامي
بقولهم عند الفروع والأصول
كما سَمَى الأطفال والنساء (١)

= قبل الآذان ودرايته بابلية في سحر البيان كثير البكاء دائم العبرة، ومن كلامه المأثور عنه «أيها الناس دنا الوقت وأزف الأمر وكأنكم بما أقول لكم وقد رأيتموه عياناً» وهذا جلب الناس واستمال قلوبهم إليه، وأهل اليمن كما في الحديث الشريف، أرق الناس أفئدة وألينهم قلوباً، ومسكنه في بداية أمره قرية يقال لها عنبرة، من قرى زبيد الساحلية في مؤخرتها موقعاً أو عدم شهرة، وبعدهما عظم شأنه ارتفع إلى بلاد خولان وتمركز في أصلب ليتأق له الإشراف على التهاثم وليتمكن من حفظ الجبال في أعالي مملكته.

(١) لما حج وزار المدينة المنورة لقي من أهل العراق جماعة من العلماء والمنجمين فأخذ عنهم الاعتزال وأخبره أحد المنجمين أنه سيكون من أمره كذا وكذا، وأنه المبتدأ من جملة خبرية للتاريخ وزاد بهذا طموحه وقويت به عزيمته حتى كان من أمره ما كان، أما مذهب الخوارج فلعله أخذ في اليمن، وعلى أهله وشيوخ بلاده تفقه على مذهب أبي حنيفة وبحكم مهنته في الوعظ والإرشاد قال بقول المعتزلة في المنزلة بين المنزلتين وجره ذلك إلى تقليدهم في كثير من المسائل الكلامية، ولما تشدد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجاوز الحد رأى رأي الخوارج القائلين بكفر مرتكب الكبيرة فالزاني والسارق وشارب الخمر والمتخلف عن صلاة الجمعة بغير عذر كلهم عنده كفار تباح دماؤهم وأموالهم، ولكثرة التسيب والتهليل سمي قومه وأتباعه بالهللة، يعني أهل، لا إله إلا الله، قلت وليته سماهم المحللة الذين يستحلون من هذه الأمة ما حرم الله ومن استحل من أمرها ما حرم الله فعليه لعنة الله، وبما جمع له من العلم والشجاعة وكثرة العبادة وبلاغة القول والتغلب على الملوك ارتفعت منزلته وقويت حجته وأصبح في المسائل الكلامية كأنه الجاحظ أو النظام، وهو مثل أبي يوسف في الفقه ومسائل الأحكام، وإذا ادعى فهو الحاكم بقوته والمدافع المحامي بحجته، ولقوله بقول الخوارج ولا يعجابه بآرائهم تناول الشيخين عثمان وعلي رضي الله عنهما بالنسب والشم والتيل من قدرهما، وما أظن أحداً يستبيح دماء المسلمين وأموالهم ويسبي نساءهم وذرائعهم وهو يدعي الإسلام إلا الخوارج وعلي بن مهدي معتزلي وخارجي خطير.

وَفِي ثَلَاثِ سِنَوَاتٍ مِنْ بَعِيدِ
 فَجَاءَهُمْ وَبَعْدَ مَقْتَلِ فَاتِكِ
 وَلَجَأِ النَّاسِ إِلَى الْإِمَامِ
 وَلِسُرُورِ الْفَاتِكِيِّ اغْتَالَا
 وَهُوَ بِصَلِيِّ الْعَصْرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ
 ثُمَّ أتَى عَلِيُّ بْنُ مَهْدِيٍّ
 فِي رَجَبٍ مِنْ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ
 وَسَارَ بَعْدَهُ ابْنُهُ مَهْدِيُّ
 وَعَاشَ خَمْسَ سِنَوَاتٍ بِحُكْمٍ
 وَهُوَ الَّذِي دَانَتْ لَهُ الْبِلَادُ
 وَاسْتَسَلَمَتْ لَهُ حِصُونُ الْيَمِينِ
 وَانْهَزَمُوا فِي أَقْبَحِ انْهِزَامٍ

وَمِنْ قَرِيبٍ وَهُوَ بِرِتَادُ زَبِيدِ
 عَصُوهُ فِي نَهَابَةِ الْمَعَارِكِ
 الْمُتَوَكِّلِ الْفَتَى الْعِصَامِي
 بِعِضِّ الْجَنُودِ وَعَلَيْنِهِ مَا لَا
 فَكَانَتْ الْوَقْعَةُ شَرَّ وَقْعَةٍ
 إِلَى زَبِيدٍ بَعْدَ قَتْلِ الْعَبِيدِ
 وَمَاتَ بَعْدَ الْفَتْحِ فِي أَقْصَرِ حِينَ (١)
 عَلَى الَّذِي رَسَمَهُ عَلِيُّ
 وَبَعْدَهُ عَبْدُ النَّبِيِّ الْأَعْظَمِ
 دَانَتْ لَهُ الْأَغْوَارُ وَالْأَنْجَادُ
 وَانْدَحَرَتْ جِيُوشُهُ عَنْ عَدَنِ
 مِنَ الزَّرِيْعِيِّ وَعَلَى الْيَامِي (٢)

(١) بعدما ظهر أمره واتسع ملكه لم يبق عليه في التهايم إلا زبيد التي فشل مع الزريعي في حديث احتلالها فأخذ يهاجمها ويصده عنها ولا يقدر منها على شيء، وبها إذ ذاك الأمير فاتك بن منصور محمد بن فاتك بن جياش عاكف على شهواته وملذاته فطلب أهل المدينة العون من الإمام المتوكل أحمد بن سليمان المتقدم ذكره أن يعينهم على حرب ابن مهدي فأجابهم إلى ما يريدون واشتراط عليهم قتل أميرهم فاتك فقتلوه وجاء الإمام وطرده عنهم الخارجي وطمع أن يكون الوالي عليهم ولكنهم عصوه وبعد ثلاثة أيام أغلقوا الأبواب في وجوهه عسكريه ومنعوه من المدينة ورجع عنهم إلى بلاده صعده ثم عادت المناوشة بين أهل زبيد وعلي بن مهدي من سنة ٥٥٣ إلى رجب سنة ٥٥٤ هـ ثم دس على أمير زبيد سرور الفاتكي من يغتاله فجاء رجل من أصحاب ابن مهدي يقال له المرحوم وقتل سرور في المسجد وهو في الركعة الرابعة من صلاة العصر يوم الجمعة اثني عشر رجب فاضطربت الأمور واستطاع الخارجي أن يدخل المدينة ويستقر له الأمر في تهامة كلها ولم يبق في ملكه إلا إلى سابع شوال من تلك السنة، فأتت ومدة ملكه الكامل شهران وواحد وعشرون يوما وهو المراد من قولنا، ومات بعد الفتح في أقصر حين.

(٢) لما مات مؤسس هذه الدولة قام بعده ولده المهدي بن علي يسير بسيرته ويمضي على =

وقد غزا الأشراف هذا الطاغية
 عنهم فكان يقتلُ الكبارا
 ولم يجدْ غانمُ بنُ يحيى
 إلا ابنَ أيوبَ صلاح الدين
 فَرَارَةٌ يَطْلُبُ منه النصرا
 يقوِّدُها تورانُ حتى وصلتْ
 نهايةُ الأمرِ على ابنِ مهدي
 ودامتِ المملكةُ المهديّة

بني سليمٍ وأزالَ العافية
 وَيَسْتَرِقُ منهم الصغارا
 له نصيراً من جميع الأحياء
 في منتهى العزّة والتمكين
 وَأَقْبَلَتْ جُيُوشُهُ مِنْ مِصْرَا
 إلى زبيدَ وهناك حصلت
 وابنِ زريع الضدُّ عند الضدِ
 خمسَ عشرة سنة جِدَّة (١)

= طريقته حتى مات في سنة ٥٥٩هـ، وملكه خمس سنوات ثم قام أخوه عبد النبي الذي طوع غور البلاد ونجدها وجبلها وتهامتها واستولى على جميع حصونها حتى قيل إنها وجدت عنده خزائن خمسة وعشرين ملكا وعلى الرغم من قوته فإنه حاول الدخول إلى عدن ولم يقدر على ذلك وقف أمامه الزريعي عمران بن محمد واستعان بالشيخ علي بن حاتم الياامي الهمداني، فرجع عبد النبي مدحوراً عن عدن وقيل صالحوه على إتاوة سنوية يدفعونها إليه فقبل. وقلت: وهذا إن كان قبل نهاية ٥٦٦هـ، أما إن كان بعد ذلك فعلى يد ياسر بن بلال بن جرير المحمدي مولى الزريعيين وأظن هذا هو الصحيح والله أعلم.

(١) الأشراف بنوسليم من أهل التهامي غزاهم الطاغية عبد النبي في أيام أبيه وأخيه وقتل منهم الشريف وهاشم، وسبي النساء والذرية واستنصر عليه الشريف غالب بن يحيى ولم يجد من ينصره عليه، فسافر إلى مصر واتصل بصلاح الدين الأيوبي وتظلم إليه واستغاث به فأعانه ووجه جيشاً عظيماً بقيادة أخيه السلطان توران شاه بن أيوب فدخل اليمن واحتل زبيد وأسر عبد النبي وجاء به إلى عدن حيث كان يرى عدوه ياسر بن بلال ويسبه ويشتمه وأخيراً قتله الأيوبي شنقاً في عدن عام ٥٦٩هـ، وبعده بسنة أو سنتين قتل ياسر وجمع الله الضد بال ضد ومحيت دولة بني زريع وبني مهدي في وقت واحد على يدي هذا الفاتح الجديد، وسيأتيك مزيد من الخبر، ودولة بني مهدي من سنة ٥٥٤ إلى سنة ٥٦٩هـ، وكانت خمس عشرة سنة، وملوكهم ثلاثة، علي بن مهدي ومدته ثلاثة أشهر إلا قليلاً، وابنه مهدي ومدته خمس سنوات، ثم أخوه عبد النبي ومدته عشر سنوات تقريباً، ودوام الحال من الحال، ولا بقاء إلا لله الكبير المتعال.

دولة الصليحين

جاء الصليحيون نسبةً إلى
 وأسس الدولة منهم علي
 من علماء اليمن الأجلّاء
 قد كان يفتي الناس بالمعتمد
 ونشأ الداعي فتىً شرعياً
 أفضى إليه عامرُ الزواحي
 وضمّره في دينه وفتنه

جبل الأضلوح فجاوزوا العُلا
 وهو ابنُ شيخٍ في الرعيلِ الأوّل
 في الفقهاء قدحُ المعلّاء
 في القولِ والفعلِ وفي المُعتقِد
 وصار بعدُ رجلاً بدعيّاً^(١)
 بما يقالُ عن بني القُداح
 ورزقن الشرّ له وحرّسنه

(١) نشأت هذه الدولة في سنة ٤٢٩ هـ، وهي منسوبة إلى صاحبها ومؤسسها الأول علي ابن محمد بن علي الصليحي من قبائل همدان، والجبل الذي تسكنه هذه العائلة يقال له: جبل الأضلوح، وإليه تنسب هذه الدولة والمراد بقولنا: جاوزوا العلاء، بلغوه ومعناه السمو والارتفاع، وكان المؤسس ولد القاضي الشرعي لتلك الجهة وأبوه على مذهب الإمام الشافعي ويعد من الرعيل الأول في العلم والعمل الصالح، ومع القضاء كان يفتي بالمعتمد عند أهل السنة في الأقوال والأفعال والمعتقدات، والقُدح المعلّاء، يراد به السهم الفائز في لعب الميسر ثم صار مثلاً عند العرب لكل متفوق، ومن أمثالهم في الميسر، حاز فلان القُدح المعلّاء، وهو بكسر القاف وسكون الدال وتشديد اللام المفتوحة، ولا يسمى قدحاً إلا إذا لم تكن فيه حديدة، ومن كسب الرهان في السباق قيل: حاز قصب السبق، وذلك أنهم كانوا يضعون قصباً في طريق الخيل إذا تسابقت ومن مرّ بقصبة أخذها قبل الذي يليه ويقال، حاز قصب السبق، أما علي بن محمد الصليحي فقد نشأ بادية الأمر في حجر أبيه على مذهب أهل السنة والجماعة ثم تشيع وصار باطنياً داعياً للدولة العبيدية في مصر، وكان معاصراً للخليفة المستنصر ثم لولده الحاكم بأمر الله أو بأمره كما قيل.

وَقَامَ بِالذَّعْوَةِ بَعْدَمَا أَشْتَهَرَ
 مِنْ أَنَّهُ سَيَمْلِكُ الْبِلَادَا
 فِي عَامِ تِسْعَةٍ وَعِشْرِينَ اجْتَمَعَ
 فَبَايَعُوهُ وَبِيَهُمْ تَقْوَى
 وَكَاتَبَ الْخَلِيفَةَ الْمُسْتَنْصِرَا
 وَأَذِنَ الْخَلِيفَةُ الْمُسْتَنْصِرُ
 يَطْوِي الْبِلَادَ شَرْقَهَا وَالغَرْبَا
 مِنْ كَذِبِ الْإِنْشَاءِ وَصَدَقَ الْخَبْرُ
 وَيَقْهَرُ الْمُلُوكَ وَالْأَمْجَادَا
 سَتُونَ شَخْصاً مِنْ وَجْهِ الْمَجْتَمَعِ
 وَمَا يَزَالُ أَمْرُهُ يُسَوَى (١)
 مِنَ الْعَبِيدِينَ فِيمَاذَا يَبْرَى
 لَهُ فِقَامُ الْفَاتِحِ الْمُنْتَصِرُ
 وَالنَّاسُ تَخْتَشِي بِأَسْهَ وَالْحَرْبَا

(١) عامر بن عبدالله الزواحي، بزاي مهملة، من دعاة الفاطميين، وصل إليه هذا المذهب من القرامطة علي بن الفضل وصاحبه منصور بن أبي الحسن الكوفي وبدوره كان يتصل بالقاضي محمد بن علي الصليحي والد صاحب الترجمة ويتلطف له، وإذا زاره نزل على ضيافته وهو يجتال لنشر مذهبه بأية وسيلة ممكنة، وقد رأى ابن القاضي وعليه مخابيل الذكاء وتفرس فيه الفطنة والنبوغ وهو ما يزال دون البلوغ فاستماله إليه وطلب من والده أن يأذن له في تعليمه والعناية به مكافأة منه لحسن الصنيع فأذن له وما زال به يستدرجه شيئاً فشيئاً حتى فتنه وملأ قلبه بتعاليم الباطنية ووعده بأنه سيكون من عظماء الزمان وسيتولى ملك اليمن وكان الزواحي منجماً ويزعم أن عنده من أسرار أهل البيت ما يده له على ذلك وما مات إلا وقد هيا الصليحي للمهمة ورسم له الطريق التي يسير عليها في مستقبل حياته، فأخذ يتردد على مكة حاجباً في كل سنة وهو دليل الحاج اليمني حتى إذا حج سنة ٤٢٨ هـ أخذ يبث الدعوة ويتصل بالوجهاء ورؤساء القبائل اليمنية ويروج له المفروضون ما يصبو إليه ويشيعون في الناس أنه سيكون كذا وكذا وهو يكذب الخبر تحيلاً وخداعاً، وفي السنة بعدها قام بدعوته في جبل: مسور، بلاد همدان ومعه ستون رجلاً قد توثق منهم واتفق معهم وشرع فيما يريد وأخذ يملك البلاد ويمد عليها سلطانه والمراد بكذب الإنشاء وصدق الخبر، تلك الإشاعات المختلفة أو المروية كما يزعمون نقلها من أهل البيت، وسبحان الذي لا يعلم الغيب إلا هو، وكان يصعب عليه في تلك المدة أن يتغلب على صاحب تهامة الملك نجاح الحبشي لأنه أقوى منه جانباً وأكثر جنداً فسأله ووادعه وأظهر له الصداقة وأهدى إليه جارية جميلة ودس له السم معها حتى قضى عليه في سنة ٤٥٢ هـ، فصفاه له الجو ومكّن له في الأرض وآتاه الله من كل شيء سبباً.

وفي خلال مدة قصيره وقال يوماً فوق منبر الجند اليوم هاهنا ومثل اليوم وقال بعض الناس هذا مجنون فحقق الأمر وصلى الجمعة وجعلت صنعا مقر الملك وحلت الملوك والسادات والعامل الذي على تهامه صهر الصليحي الذي يسمى

دبر ملكه على بصيره مقالةً فيها خلافت المعتقد في عدن سوف يكون قومي مستسلم لوهمه وللظنون في عدن على جناح السرعة (١) وانتظم الملوك خيظ السلك فيها لثلاث تقع الثورات طول فيها المكث والإقامة بأسعار وهو شقيق أسماً (٢)

(١) لما فرغ الصليحي من أمر نجاح أمكنه التغلب على تهامة وسائر أقطار اليمن سهلها وجبلها وبرها وبحرها، وكتب إلى الخليفة المستنصر الفاطمي يستأذنه في إظهار دعوته فأذن له ولم تنته سنة ٤٥٥هـ إلا وقد ظهر أمره وزاد نصره وشاعت دعوته والأقدار تساعده وجيوشه تتدفق وكأنها السيول من الجبال إلى السهول، وحج آخر هذه السنة واستولى على مكة وكسا الكعبة وفرق في الناس أموالاً كثيرة وجعل الوالي على الحجاز أبا هاشم محمد بن جعفر، وأمر بالدعاء للفاطميين في خطبة الجمعة، ومن غريب ما روى في سرعة الطاعة له وأن الأرض تفتح أبوابها بين يديه كلما توجه منها إلى جهة أنه كان يوم الجمعة يخطب على منبر الجند ويقول اليوم هاهنا والجمعة القادمة في عدن إن شاء الله ولم يكن قد فتحها، فقال رجل يستبعد هذا الكلام ويعدده من المستحيل، سبوح قدوس، فسمعه وأمر بالقبض عليه وسار به معه حتى فتح عدن وخطب فيها كما وعد، فقال الرجل متعجباً ومسلماً للواقع: سبوحان قدوسان يا مولاي، ودام ملك الصليحيين في عدن حتى زال بالزرعيين في العقد الثالث من القرن السادس نحو خمس وسبعين سنة.

(٢) تمرکز الداعي علي بن محمد الصليحي في صنعاء وجعلها عاصمة له وجمع فيها الملوك وكل من يخاف شره، وانتظم السادات والقادات خيظ السلك في هذه المملكة وأصبح كالسبحة يديرها في يديه الملك الصليحي واستعمل على المدن الأخرى والحصون والثغور ولاية وعمالا آخرين ولكثرة الدخل من تهامة حلف ألا يوليها إلا من دفع مئة ألف دينار ذهبية قبل أن يولى عليها فدفع المبلغ صهره وابن عمه أسعد بن شهاب وعاونته عليه أخته =

وسار في جيش له عرمرم
بالمال والسلاح والعِتَادِ
وبعد أربع مئآت من سنين
وكان قد زوجه بالسيدة
لا يخشي إلا الإله القادرا
زوال أمره وأمر المملكه
عرفت بالقول الذي تقدمنا (١)

واعتز الحجاج أبو المكرم
من الملوك ومن الأجناد
في عامه الثالث بعد السبعين
مستخلفاً على البلاد ولده
وبينا كان المليك سائرا
وبات في دهيم حيث أدركه
على يدي ابن نجاج تحسبها

= أسماء بنت شهاب زوجة الملك فاستعمل على تهامة وطالت مدته هناك حتى أزاله عنها جياش بن نجاج في سنة ٤٨٢ هـ ودخوله إليها كان في سنة ٤٥٦ هـ ولما علم الصليحي أن زوجته أسماء هي التي دفعت المبلغ المطلوب عن أخيها قال لها: أتى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، وقبض المال وقال هذه بضاعتنا ردت إلينا، وقالت أسماء: ونمير أهلنا ونحفظ أخاننا، وهكذا تكون المساجلات بين أهل العلم والأدب وما أحسنها بين الزوجين وأفراد الأسرة الواحدة.

(١) فيما تقدم من مدلول هذه الأبيات ما فيه كفاية عن الإعادة وإليك شيئاً من الزيادة. ففي العام المذكور سافر الصليحي إلى الحج وأخذ معه ملوك اليمن وعلية القوم من رعيته واستصحب معه زوجته أسماء بنت شهاب، واستخلف على صنعاء ولده المكرم أحمد بن علي وكان قد تزوج بالسيدة أروى وسيأتيك الكثير من أخبارها، وكانت سياسة الصليحي تمرين ولده على القيام بأعباء الملك فلا يكون معه في البلاد من ينازعه أو يتغلب عليه وأبوه غائب، وهكذا الملك الذي لا يقوم إلا على العسف والقوة وليس له نظام متبع ولا رجال مخلصون يحافظون على مصالح الشعب والبلاد كما يحافظ الملك أو الرئيس، وعلي بن محمد الصليحي في تلك الأيام محاط بالأخطار وخائف من الأخذ بالثأر من آل نجاج، ومن الائمة الزيدية في أعلى الجبال ومن الملوك الآخرين الذين قهرهم واستولوا على ممالكهم، الكرندي، والوحاظي، وابن معن، وغيرهم ففكر وقدّر ونجح في شيء وخسر شيئاً آخر مما دبر، ورغم ما خرج به من العدة والعتاد والمال والسلاح والخيال والرجال وهو لا يخشى على نفسه إلا الله وإنما يخشى الثورات والانقلاب على ولده، ووافاه الأجل وداهمه في أم دهيم الخطر فقتل هنالك وأخذت منه الممالك واسترجع بنو نجاج ما أخذ منهم وقال لسان الحال: يوم بيوم وما يوم زبيد ببعيد.

فصل تابع لما قبله

بِاتِعَ لِلْمُكْرَمِ الشُّجَاعِ بِعَدِ أَبِيهِ وَمَقَرُّ مَلِكِهِ
 وَحِينَ جَاءَ كِتَابُ الْوَالِدِ إِلَى زَبِيدٍ فِي هَدِيرِ السَّيْلِ
 وَكَانَ مَا كَانَ وَقَدْ قَدَّمْنَا وَلَمْ يَزَلْ أَحْمَدُ فِي صَنْعَاءَ
 وَقَدْ أَصِيبَ أَحْمَدُ بِالْفَالِجِ تَدْبِيرَ الْمَلِكِ لَهُ تَدْبِيرًا
 زَوْجَتُهُ أَرَوَى وَمِنْ ذِي جَبَلِهِ وَانْتَصَرَتْ فِي حَرْبِهَا الْعَوَانَ
 فَزَالَ عَنِ صَنْعَاءَ وَمِنْ تِلْكَ الْجَهَةِ
 جَمِيعُ قَوْمِيهِ بِبَلَاءِ نِزَاعِ صَنْعَاءَ حَيْثُ كَانَ مَجْرَى فَلِكِهِ
 قَامَ وَقَوْمُهُ لَهُ مَسَانِدَةٌ وَنَسَخَ الْفَجْرُ ظِلَامَ اللَّيْلِ
 مِنْ خَبَرِ الْوَقْعَةِ مَا عَلِمْنَا إِلَى وَفَاةِ أُمِّهِ أَسَاءَ^(١)
 فَأَعْجَزَ الطَّبِيبَ وَالْمَعَالِجَ وَتَحَسَّنُ التَّقْدِيمَ وَالتَّأخِيرًا
 تُزْجِي لَهُ الْحَمْلَةَ بَعْدَ الْحَمْلَةِ عَلَى النَّجَاحِيِّ وَبَنِي الْعِيَانِيِّ
 وَأَصْبَحَتْ قَوَاتُهُ مُتَّجِهَةً

(١) ثاني ملوك الصليحيين هو المكرم أحمد بن علي بن محمد، بويغ له بعد مقتل أبيه ولم ينازعه يومئذ أحد في الملك لا من أهله ولا من رعيته وكان بطلاً شجاعاً مغواراً مقداماً قد ورث البأس والنجدة من قبيلته همدان كما ورث السياسة والملك من أبيه المبرز في هذا الشأن، وعاصمته مدينة صنعاء كما كانت لأبيه من قبل وهي دائماً لأهل اليمن كجبل الجودي لا ترسو سفينة الملك في خضم الحوادث إلا عليه إلا بلاد آل نجاح زبيد والتهائم كلها فقد رجعت إليهم وخرجت من يد المكرم وأصبحت أمه أسيرة عندهم وقد كتبت إليه بما علمت وأثارت حفيظته وخرج مخاطراً ومغامراً بأسود الشرى من قومه وكانهم السيل أو الفجر الصادق بنهار العرب ينسخ ظلام الليل من الحبشة فاستنقذ أمه ورجع إلى صنعاء واستقر بها حتى توفيت العجوز بعد خمس سنوات من وصولها إليها أو بعد ست سنوات من مقتل زوجها وذلك في ٤٧٩ هـ.

نحو تهامة وأسفل اليمن
وَيَوْمَ مات جعل الوصية
ولابن عمه سباً وقد مات
وقد أراد أن تكون أروى
وكان بينه وبين الفاطمي
حيث استدل بصريح الآية
فأرسلت جاريةً للداعي
فردّها وقال لا لجاجا

وعاش فيها مدةً من الزمن
لزوجه السيدة المرضية
ولم يَدُم إلا ثمان سنوات (١)
زوجته ولم يَنَل ما يَهوى
ما صار معلوماً لكل آدمي
من سورة الأحزاب في النهاية
صاحبةً للوطء والجماع
ولا أريدُ غيرها زواجا (٢)

(١) ولما أصيب المكرم بالفالج يوم زيد ضعف عن القيام بأعباء الملك وبعد عرضه على الأطباء وعجزهم عن علاجه أخذ يتسلى باللهو واللعب وزوجته العبقرية تدبر له الملك أحسن تدبير فرة تدفع المهاجم وتأخذ على يد الظالم ومرة تستعيد ما فات وتحسن المكاتبات والمراسلات وتضم إليها الصفوة من الأجناد والمشهورين من القواد، وقد رأت أن تتخذ من ذي جبلة بأسفل اليمن مستقراً لها فتقيم هنالك وزوجها في صنعاء حتى لا يطمع أحد في ملك بني الصليحي وبقيت في مقرها الجديد نحو أربع سنوات، وتوفيت أم المكرم وانتصر الأشراف بنو القاسم بن علي العياني في حرهم على المكرم الصليحي واحتلوا صنعاء فكان لا بد من توجهه إلى ذي جبلة حيث قد أعدت له السيدة ما يلزم وبنت له دار العزبذي جبلة وهي بلدة اختطها عبدالله بن محمد الصليحي شقيق الداعي علي بن محمد، وجبلة اسم رجل يهودي مذارا كان يسكن هنالك وأضيفت إليه هذه البلدة، وبعدها وصل إليها المكرم وانتصرت السيدة علي بن نجاج شعر بقرب أجله فأوصى إلى زوجته وإلى الداعي سباً بن أحمد بن المظفر بن علي ومات في سنة ٤٨٤ هـ، واستقلت السيدة بالملك بعد زوجها. أما الداعي سباً المعروف بعلمه وأدبه وكرمه وشجاعته فقد كان يسكن الجبال المشرفة على التهاثم حصن أشيخ، ومقرو، ووصاب، وقوارير، والظرف، والشرف، الذي ثار منه ابن مهدي وظفار، وريمة، ومخالفها، ولم يعيش الداعي سباً بعد موت المكرم إلا حوالي ٨ سنوات.

(٢) حاول الداعي سباً أن يتزوج بالسيدة بعد وفاة زوجها المكرم وتمنعت عليه ورأت أنها إن تزوجت به شغلت عن الملك وربما ينتزعه من يدها فرفضت رفضاً باتاً، وكتب إلى الخليفة المستنصر يحظبها إليه ويذكر له تمنعها من الزواج فكتب إليها الخليفة الفاطمي كتاباً خلع =

وبعد ما مات سبأ استقلت
وأصبحت ثانيةً لبلقيس
وجعلت لابن أبي الفتح
وسوف لا تنسى لتلك المرأة
وماها من صدقاتٍ جارية
وموئها في سادس القرون
وقبرها يزارُ في ذي جبله
وها هنا قد انتهى الكلام

بالحكيم حتى عظمت وجلت
ورعا قدمتها حين تقيس
قائدها وزارة الصليحي
صفتها من قوة وجرأة
وما تزال صدقاتٍ باقية
ثلثها الأول أو ما دون
وهو من التعكّر نحو القبلة
عن الصليحيين والسلام (١)

= فيه عليها من الألقاب ما لا يزيد عليه وأخبرها أنه قد زوجها واستشهد بالآية الكريمة من سورة الأحزاب، ((وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً)) فحزنت لذلك ولم تجد بداً من الطاعة ولامت السفراء وقالت لهم: لقد خدعتم أمير المؤمنين والله ما جئتموه من سبأ بنياً يقين، ورغم تمنعها ونفارها فقد دخل عليها الداعي سبأ ليلة واحدة وأقيمت الحفلات والزينات نحو شهر كلها حاول أن يظهر الكرم فعملت أكثر منه حتى رحل عن ذي جبلة ورجع إلى بلاده، وقيل إنها لم تظهر عليه وإنما أهدت إليه جارية جميلة تضارعها في الحسن والجمال وابن أن يمسه أو يمد إليها يداً وردها قائلاً: أخبرني سيدتك أنها نطفة كريمة ولا توضع إلا في المكان اللائق بها، ويقال: إنه لا يبطأ الإماء قط، ومات بعد أو في خلال سنة ٤٩٢ هـ.

(١) شعرت السيدة أروى بعد موت الداعي سبأ بقوة شوكتها ورأت أنه لا ينافسها في الحكم أحد فصارت المستقلة بحكم البلاد حتى قيل إنها بلقيس الثانية ومن الناس من يعدها أكبر قدراً وأعظم خطراً من بلقيس لا تتسع مملكتها ولطول مدتها ولكثرة ما كان في خزائنها من المال، وقد ولدت في سنة ٤٤٠ هـ وهي بنت أحمد بن محمد بن جعفر بن موسى الصليحي وأما الرذاح بنت الفارح بن موسى الصليحي ولما مات أبو أروى تزوجت أمها بعامر بن عبدالله الزواحي وجاءت له بسليمان الذي صار داعياً فاطمياً وقتله المفضل بن إبي البركات بالسّم ونشأت السيدة في حجر أساء بنت شهاب وتولت تهذيبها وتأديبها، وتزوجها المكرم في عام ٤٦١ هـ، وقال عمارة اليمني في سنة ٤٥٨ هـ ووصفها =

دولة بني أيوب في اليمن

كَانَ لِأَيُوبَ بْنِ شَاذِي الكُرْدِي وُلِدَ وَكَانُوا مِنْ خِيَارِ الوَلَدِ
كَالْأَسَدِ فِي الغَابَةِ وَالْعَرِينِ أَشَدَّهُمْ بَأْسًا صَلَاحُ الدِّينِ
بِهِ الشَّرِيفُ غَامَ اسْتَجَارَا لَمَّا رَأَى عَبْدَ النَّبِيِّ جَارَا

= بقوله: بيضاء حمراء مديدة القامة ومعتدلة البدن إلى السمن أقرب، كاملة المحاسن جمهورية الصوت قارئة كاتبة تحفظ الأخبار والأشعار والتواريخ وما أحسن مما كانت تلحقه بين سطور الكتاب عنها من اللفظ والمعنى انتهى، ومن حسن حظها وعظيم فضلها أن صداقها من المكرم كان خراج عدن بكامله مئة ألف دينار سنويا، ولما زوجها المستنصر بالداعي سبأ جعل صداقها مئة ألف دينار أيضاً وجعل لها من التحف والهدايا ما مقدار قيمته خمسين ألف دينار وقد استوزرت ابن أبي الفتوح بعد ابن أبي البركات وإنها لبصيرة باختيار الرجال للمناصب العالية والرتب الرفيعة والناس من وقتها الذي عاشت فيه إلى اليوم يذكرون مجدها ويصفونها بالقوة والجرأة ويعدونها أول ملكة في الإسلام، أما صداقاتها فكثيرة وأوقافها معروفة في أسفل اليمن وأعلى وما يزال صرف المرتبات والنفقات على العلماء والمتعلمين في ذي جبلة من أوقافها وصداقاتها الجارية، وتوفيت رحمها الله في سنة ٥٣٢هـ وهو ثلث القرن السادس أو قريباً من ثلثه، وعمرها اثنتان وتسعون سنة، وقبرها مشهور ومعروف بجامعها الكبير قبلي التعكر ويأتي لزيارتها من الهند كثير من الطائفة الإسماعيلية، وقد مرّ بعدن سلطان البهرة مولانا طاهر سيف الدين مرتين لزيارة قبر السيدة واجتمعنا به في دار جماعته وفي عدة أماكن أقيمت له فيها الحفلات التكريمية، وفي عدن سنة ١٣٧٥هـ أطلقت أسماء العظماء على شوارع البلاد وسمي أكبر شارع فيها باسم الملكة أروى تخليداً لذكراها واعترافاً بسيادتها على عدن، وإلى هنا ينتهي الكلام باختصار وإيجاز عن الدولة الصليحية وملوكها ثلاثة وهم: الداعي علي بن محمد وابنه المكرم وزوجته أروى ومدتهم ١٠٤ سنوات أو ٩٤ سنة، والدوام لله.

(ملاحظة) في كتب التاريخ أن ابتداء دولتهم كان في سنة ٤٢٩هـ وفي كتاب عمارة اليمن كانت في سنة ٤٣٩هـ، والله أعلم.

وَعَامَ خَمْسِ مِئَةِ وَسْتَيْنِ
 تَحْتَ قِيَادَةِ الْأَمِيرِ طُورَانَ
 وَدَخَلُوا زَبِيدَ وَالتَّهَائِمَا
 وَجَمَعُوا مَقَرَّهُمَ وَالْعَاصِمَةَ
 وَفِي ثَلَاثَةِ وَسَبْعِينَ رَجَعَ
 وَاسْتَخْلَفَ ابْنَ مَنْقِذِ الْكِنَانِيِّ
 وَتَعَزَّزَ فِيهَا اسْتُخْلِفَ السُّلْطَانُ
 وَالزُّنْجَبِيلِيُّ جَعَلُوهُ فِي عَدْنٍ
 فَجَدَّدَ الْأَسْوَارَ وَابْتَنَاهَا
 قَدْ أَضْلَحَ الطَّرِيقَ وَالْأَسْوَاقَا

(١) من الدول المتعاقبة على اليمن وليست من أهله دولة الأيوبيين أولاد أيوب بن شاذي رجل من الأكراد وقيل من العرب، وسيأتي ذكر نسبه في تاريخ مصر إن شاء الله، وله أولاد أقوياء أشداء إذا حاربوا ونبلاء كرماء إذا سالموا والصفة الجامعة بينهم وبين الأسود في التشبيه هي القوة ومضاء العزيمة، وأبرزهم في أوصافهم هو السلطان صلاح الدين الذي حارب الصليبيين وامتد نفوذه إلى الشام والحجاز واليمن وسبب مجيء هذه الدولة إلى اليمن أن عبد النبي بن علي الخارجي لما حكم البلاد ونكل بالملوك والأمراء كان قد قتل الشريف وهاشم بن غانم بن يحيى بن وهاشم السليماني واستنجد الشريف غانم بن يحيى في الظن واستنصر ببعض جيرانه فلم يجد منهم نجدة ولا نصرة والحر لا ينأى عن الضيم. فسافر إلى مصر وأقضى بما عنده للسلطان صلاح الدين فاستجاب له ورأى من الخير أن يغزو اليمن ليصرف رعيته عن الإشتغال بما كان للأيوبيين مع السلطان نور الدين زنكي، فجهز جيشاً عظيماً بقيادة أخيه طوران شاه فدخل اليمن واحتل زبيد بعد حروب دامية وذلك في ٩ شوال من سنة ٥٦٩هـ، وأسر ابن المهدي ثم رحل إلى عدن ودخلها في ١٩ من ذي القعدة في السنة نفسها، كما دخل صنعاء في شهر المحرم من السنة التي تليها، ثم أصبحت زبيد عاصمة الدولة الجديدة ومستقرها وإن كانت قد تحولت فيما بعد إلى تعز وما والاها.

(٢) لم يبق طوران شاه في اليمن إلا قرابة أربع سنوات وتعبد من ضيق العيش =

أَخْرَجَ مِنْ ذِي جَبَلَةِ الْمُظَفَّرَا فِي بِلَادِ حَضْرَمَوْتِ اسْتَكْبَرَا
فَكَمْ وَكَمْ مِنْ عَالِمٍ قَتَلَهُ وَكَمْ وَكَمْ مِنْ مَلِكٍ أَذَلَّهُ
وَقَرْيَةٍ كَانَتْ تُسَمَّى الْأَخْبَةَ بَيْرَ أَحْمَدِ الْيَوْمِ فِيهَا التَّرْبَةُ
لِصُنْعَةِ الرُّجَاجِ وَالْأَجْرِ مِنْهَا لِعُثْمَانَ عَظِيمُ الشُّكْرِ

= واشتاق إلى بلاده مصر وأحب أن يكون في الشام وخاصة بعد موت السلطان نور الدين وانضمامها إلى بني أيوب واستأذن أخاه في ذلك وكان يرغب في البقاء على مملكته في اليمن ولكنه أظهر التبرم وعدم القدرة على البقاء فأذن له أخوه ورجع في سنة ٥٧٣ وقد رتب الأمور واستخلف على اليمن من يثق به ويعتقد فيه الكفاءة فجعل على زبيد مبارك ابن علي بن منقذ الكناني وجعل على تعز ياقوت التعزي وعلى عدن أبا عمرو عثمان بن عمر بن علي الزنجبيلي أو الزنجبيلي نسبة إلى قرية قريبة من دمشق وكان ضابطاً في جيش طوران لما خرج إلى اليمن وظن أنه سيكون الملك المطلق على عدن وأن أحداً لن ينازعه فيها لأنه يحتضنها من الأمام ويسند ظهره إلى بني أيوب إن خاف من ثورة عليه أظهر أنه عامل لهم وسيطلب منهم القوة الكافية لإخماد أي ثورة تقوم عليه وإن استتب له الأمر استتب بكل شيء وفكر في تأسيس دولة زنجبيلية مستقلة بعدن ونواحيها وقد يوسعها إلى أبعد من ذلك إن واثته الفرصة وتيسرت له أسباب التوسع فأخذ يجدد ما خرب من أسوار عدن التي بناها الصليحيون والزريعيون ويمدها ويبتنيها حيث لم تكن موجودة من قبل، قال صديقنا الأستاذ حمزة لقمان في تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية ما نصه (وأدار الزنجبيلي سوراً على سور ابتداء به من حصن الخضراء إلى حصن التعكر على رؤوس الجبال وأدار سوراً ثالثاً على الساحل من لحف جبل الخضراء إلى جبل حقات وركب ستة أبواب على الأسوار هي باب: الصباغة، وباب حومة، وباب السيلة الذي يخرج منه السيل حين نزول الأمطار وعرف فيما بعد باسم باب مكسور لأن السيل يكسره في كل دفعة، وباب الفرضة، ومنه تدخل البضائع وتخرج، وباب مشرف الذي كان مفتوحاً للدخول والخارج وعرف أيضاً باسم باب الساحل، وباب حيق أو باب حيق وعرف أيضاً باسم باب السر لأنه ما كان يفتح إلا عند المهم من الأمور، وقال أيضاً بني الزنجبيلي: الفرضة قبلي دار السعادة وجعل لها بابين واحداً إلى الساحل تدخل منه البضائع لإجراء دفع الرسوم عليها، والآخر إلى المدينة تخرج منه البضاعة بعد دفع الرسوم، وبني الزنجبيلي الأسواق والدكاكين وشق الطرق والأسواق المسقوفة التي كانت تعرف بالقيصرية وكانت مخصصة لبيع المواد الطبية)، انتهى ما أردناه من كتاب لقمان بدون تصرف.

شكائها من عرب يغتد بهم إذا ما قيل جد الجد (١)
ومات طوران الهمام العبقري في مضر في مدينة الإسكندر

(١) كان العمال لبني أيوب في اليمن يدفعون الخراج إليهم كل عما تحت يده، ولما مات طوران شاه تمنعوا من دفع الخراج وضربوا السكة بأسمائهم وخطبوا لأنفسهم على المنابر إلا مظفر الدين صاحب ذي جيلة فإنه ضعف وبان عجزه فأغار عليه الزنجيلي واستولى على بلاده وما جاورها من الجبال وضمها إليه ولعظيم طمعه هاجم كثيراً من جيرانه واستبد بهم، وخرج إلى حضرموت في سنة ٥٧٥ هـ وتغلب فيها على بني راشد وأسر الأمير عبد الله وأخاه أحمد ثم رجع إلى عدن، وفي السنة التي تليها قبض على بقية الأسرة وقتل في ترم عدداً كبيراً من علمائها كالشيخين العظيمين أحمد ويحيى أبناء الشيخ سالم ابن أبي أكر وآخرين، ويقال إن السبب في قتلهم هو اتهامهم بالتحريض على مقاومة الزنجيلي وجيشه من الغز والقبائل العربية وقيل: السبب تحريض الخوارج وتواطؤهم مع هذا الشرير الطاغية على قتل أهل السنة الذين قاوموه وحاربوا مذهبهم في حضرموت، أما بير أحمد وكان يقال لها: الأخبه، وتبعد عن عدن بنحو أربعة فراسخ فكانت بها تربة صالحة وقد عني الزنجيلي بصنع الزجاج وضرب الآجر منها وهاتان صناعتان يشكر على إيجادهما والعناية بها ولا يبعد أن تكون في هذه المنطقة صلاحيات كبيرة لإنشاء مصانع كثيرة لا سيما وقد تقدم العلم وتوسعت الأعمال الإقتصادية ونشأت فيها حكومة الجنوب العربي أو حكومة الإتحاد، في السنوات الأخيرة، وقال لي أحد المسؤولين الكبار: إن عندهم مخابرات بل اتفاقيات مع جملة شركات تجارية لأربعة عشر مصنعا هناك، وبير أحمد هي الولاية العقربية واحدة من أربع عشرة أو سبع عشرة ولاية إتحادية يوم كتابة هذا، والعقارب قبيلة مشهورة بالقوة والشجاعة إلا أنها اليوم قليلة العدد وضعيفة الحال وشيخهم محمود بن محمد بن فضل بن عبد الله بن حيدرة العقربي وسيأتي ذكر الحماية الإنجليزية عليهم وكيف تم الاتفاق على إنشاء مدينة الإتحاد في بر أحمد التي جرتا تاريخ الزنجيلي إلى ذكرها في هذا الفصل، ولينتنا نجد من أخبار الدول والدويلات ما يستحق تخليد ذكرهم الطيب من المنشآت والصنائع والآثار الطيبة، ويقال إن للزنجيلي أوقافاً كثيرة في عدن على الحرم الشريف وقد جعل نظارتها لقاضي دمشق الذي أناب عنه قاضي مكة الذي أناب عنه قاضي عدن في حفظها، نقل هذا باحترمة عن جده محمد بن علي ابن مسعود بن شكيل، وللزنجيلي مسجد بعدن ووقف عليه، وله بمكة مدرسة ورباط وسبيل خارج باب الشبيكة على يمين الذهاب إلى التنعيم وقد خرب وجدده تاجر حضرمي من أهل عدن يعرف بأبي راشد، ولكل امرئ حسناته وسيئاته ولا يظلم ربك أحداً.

وَأَنْتَقَضَتْ عَلَى بَنِي أَيُّوبِ
 وَحَسِبَ الْوَالِدُ وَالْمَوْلُودُ
 وَاعْتَبَرُوا الضَّرَائِبَ الْمَفْرُوضَةَ
 كُلُّ يَرَى مَا فِي يَدَيْهِ مِنْكَ
 وَالذَّكْرُ وَالذُّعَاءُ فِي الْمَنَابِرِ
 وَظَفَّتْ كَيْنُ عِنْدَ مَا أَنَاهُمْ
 يَا لَهُمْ وَمَا عَلَيْهِمْ نَخْوَةٌ
 وَرَدَّ يَأْقُوتُ الَّذِي لَدَيْهِ
 حَتَّى أَقْرَهُ عَلَى أَعْمَالِهِ
 وَقَتَّلُوا ابْنَ مُنْقِذٍ وَصَادَرُوا
 وَالرَّنَجَبِيَّ فَرَّ بِالْأَمْوَالِ
 مِنْ عَدَنَ فِي سُقَيْنِ مُغَامِرَةَ

أَمْوَرُهُمْ فِي الْيَمَنِ الْمَخْبُوبِ
 أَنَّ بَنِي أَيُّوبِ لَا تَعُودُ
 عَلَيْهِمْ وَعُقُودُهَا مَنْقُوضَةٌ
 وَظَبَعُوا أَشَاءَهُمْ فِي السَّكَّةِ
 أَضْبَحَ لِلْمَأْمُورِ لَا لِلْأَمْرِ (١)
 هُوَ الَّذِي بِسَيْفِهِ أَقْنَاهُمْ
 وَلَا تُبِيحُ الظُّلْمَ إِلَّا الْقُوَّةُ
 وَكُلُّ مَا فِي قَبْضَتِي يَدَيْهِ
 هَذَا الْأَمِيرُ رَاضِيًا بِحَالِهِ
 أَمْلاكَهُ الَّذِي بِهَا يُفَاخِرُ
 وَقَرَّ بِالْأَهْلِ وَبِالْعِيَالِ
 خَوْفًا مِنَ الْقَتْلِ أَوْ الْمَصَادِرَةِ (٢)

(١) توفي طوران شاه عام ٥٧٦هـ في مدينة الإسكندرية المنسوبة إلى إسكندر المقدوني وفيها دفن، وليس كما يفهم من كلام باغرمزة أنه توفي في الشام، وموته انتقض عمال اليمن واستبد كل بما في يده وحسبوا أن أمر بني أيوب قد انقطع وأنهم لن يعودوا إلى اليمن وكان بعد المواصلات يقطع الأخبار بين مصر واليمن ولا يسمع بالشيء يقع هنا أو هناك إلا بعد مدة طويلة وتقدم أنهم ضربوا السكة بأسمائهم وكلفت الرعايا بتبادل العملة الجديدة وأخذ هؤلاء الولاة والأمراء يتجاهلون بني أيوب ولا يذكرونهم بشيء حتى ولا بالدعاء في الخطبة فلم يتحملوا ذلك ولم يطبقوا معنى الطرد من بلاد احتلوها وهم قادرون على البقاء فيها.

(٢) في سنة ٥٧٩هـ جاء طغتكين أخو طوران شاه في قوة إلى اليمن أخضع بها المتمردين وضرب بها المنتقذين وأخذ ما تأخر عندهم من الخراج وألزمهم بالطاعة العمياء للحاكم المستبد، والظلم لا يحتاج إلى دليل على جوازه إلا قوة الظالم وعجز المظلوم، فعمد أولاً إلى خطاب بن علي بن منقذ صاحب زبيد فقتله وصادر أمواله جميعها، وسلم ياقوت التعزي جميع ما لديه وأفرغ ما في يديه وأظهر الطاعة بدون أية مقاومة فأقر على عمله ورد =

وَكَانَ ظَلَمْتَكَيْنُ شَيْخاً عَالِماً
وَإِنَّهُ لَمَمْلِكٌ مِمَّامَارِي
قَدْ جَدَّدَ الْحُصُونَ وَالْأَشْوَارَا
وَأَسَّسَ الْمَدِينَةَ الْمَشْهُورَةَ
مَجِيئُهُ فِي سَعَةٍ وَسَبْعِينَ

دَاهِيَةَ فِي الْحَزْبِ أَوْ مُسَالِمَا
وَمَا يَزَالُ بَادِي الْأَثَارِ
وَجَدَّدَ الْمَسَاجِدَ الْكِبَارَا
فِي الصَّلُوحَى الصَّلُ وَالْمَنْصُورَةَ
وَمَوْتُهُ فِي الصَّلُوبَعْدِ التِّسْعِينَ (١)

= إليه بعض ماله، أما الزنجبيلي فإنه لما سمع بهذه الأعمال وخاف أن يحل بداره ما قد حل
بجاره فتمثل بما قيل:

من حلقت لحيه جار له فليسكب الماء على لحيته

فقد جمع سفناً بحرية وشحنها بأهله وماله وذخائره، وأمر طغتكين بمطاردته فقبض على
جميع مراكبه ونجا بنفسه وبالسفينه التي كان عليها وصار إلى دمشق وسكن المدرسة التي
ابتناها خارج المدينة ومات ودفن بها، واستعمل طغتكين ولاية آخرين على مدن اليمن في
أعلاها وأسفلها وسهلها وجبلها.

(١) ما أحسن الملك إذا كان معه العلم، والسلطان طغتكين عالم فقيه محدث وله
مقروءات ومسموعات كثيرة وقد أخذ عنه القاضي أحمد بن علي العرشاني موطأ الإمام
مالك، ومع عدله وإنصافه للمتظلمين فقد كان جباراً إذا أخذ لا يرحم وإذا أرتأى شيئاً لا
يتراجع عنه، شجاعاً صبوراً على الحرب، ذلت له الصعاب وخضعت له الرقاب، وقد
فتح حصن حب، وقتل أهله ولم يفلت منهم إلا من لم يعرف وقد حاصره سنة كاملة،
وطلع إلى البلاد العليا فأخذ حصن هران، وحاصر حصن، ذروان، نحو خمسة أشهر،
واشترى حصن الدمولة من جوهر المعظمي مولي بني زريع، قال الجندي: (في سنة
٥٨٥ هـ أمر بهدم حصن التعكر فهدم وبني على ما هو عليه الآن، ثم بني حصن حب،
وحصن خدد، وحصن، تعز، وعمر عدة من الحصون في اليمن وكل هذه الحصون على
موضعه وبنيته ثم طلع إلى صنعاء فوصلها في ٢٠ شوال من سنة ٥٨٥ هـ فحط على أشيخ
ثم تسلمه، ثم تقدم إلى العروس فقاتل أصحابه وضيق عليهم وأخيراً استسلموا وتركه لهم،
واستولى على جملة حصون وقلاع ومنها كوكبان وكان فيه عمرو بن علي بن حاتم اليامي
وبعد مقتلة عنيفة وقع الصلح بين الجانبين، ولطغتكين آثار كثيرة فمنها بناؤه لمؤخرة جامع
زبيد وبني الجناحين الشرقي والغربي والمنارة واختط في اليمن مدينة سماها المنصورة وهي =

فصل تابع لما قبله

جَرَّتْ خِلَافَاتُ لَطْفَتِكِينَا مَعَ ابْنِهِ الْمُعِزِّ دَامَتْ جِينَا
 وَسَافَرَ الْمُعِزُّ مِنْ أَبِيهِ مُغَاضِباً لِسَبَبِ وَجِيهِ
 لَعَلَّهُ انْتِقَادُهُ عَلَيْهِ لَمَّا أَرَادَ بِسَطِّهِ يَدِيهِ
 عَلَى الدِّيَارِ وَمَزَارِعِ الِیَمَنِ مِنْ أَهْلِهَا لَيْسَ لَهُمْ إِلَّا الثَّمَنِ
 وَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّ مَا أَرَادَ وَقَدْ دَعَا عَلَيْهِ أَصْحَابُ البِلَادِ
 وَرَجَعَ الْمُعِزُّ مِنْ ذَاكَ السَّفَرِ حِينَ أَتَى بِالمَوْتِ صَادِقُ الخَبَرِ (١)

= قبل مدينة الجند على أميال منها وذلك في ذي القعدة من سنة ٥٩٢هـ، وابتنى فيها قصرأ كبيراً وحماماً وابتنى للعسكر فيها بيوتاً كثيرة وكان واديا المعروف بجنوة سكنى الوحوش فأحياه وأحيا وادي المدارة والقاعدة، والمنصورة ما تزال معروفة وآثارها باقية وبها قلعة منيعة يعرفها أهل الصلو وما حوالهم إلا أن الطريق الموصلة إليها صعبة المسلك وضيقة المداخل، ومن المؤسف أن كثيراً من الأحجار المكتوب عليها قد نقلت عنها وتقلبت عن وضعها الأصلي، ومات طغتكين في هذه المدينة وقبره هناك وكانت وفاته في عام ٥٩٣هـ، ومدته في اليمن أربع عشرة سنة، ومن سيئات أعماله أنه فكر في الاستيلاء على العقارات والمزارع وأرادها أملاكاً للدولة ويدفع الأثمان لأصحابها فضجت البلاد من ذلك ولجأ الناس إلى المساجد يدعون رهم ويستغيثون به على السلطان وإن كان يؤجرها على السكان والمزارعين ويدفع لهم أثمان الأصل إلا أن أخذ الحق من يد صاحبه قهراً ليس بالأمر الهين ولم يتم له ما أراد، والله وحده الأمر كما يشاء في البلاد والعباد، «أفحكهم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون».

(١) السلطان إسماعيل المعز بن طغتكين هو الذي اختلف مع أبيه مدة طويلة وهو أكبر أولاده وأليقهم بالسلطنة بعده، وسبب هذا الخلاف هو أنه صار رافضياً متفقاً مع إسماعيلية اليمن ولهذا طرده أبوه. ولعل السبب الصحيح هو انتقاد الولد على والده حين أراد أخذ الممتلكات ودفع الأثمان إلى أصحابها فذهب مغاضباً يريد بغداد والله أعلم =

وَصَارَ مَالِكاً لِسِتِّ سَنَوَاتٍ
يَأْذُنُ فِي أَكْلِ لَحُومِ الْبَشَرِ
وَهَرَبُوا مِنْهُ وَلَمْ يَبْقَ مَعَهُ
وَقَتْلَ الْعَبِيدِ وَالْغُلَامَانَا
وَقِيلَ إِنَّهُ بِعَقْلِهِ أَصِيبَ
وَقَالَ إِنَّهُ هُوَ الْخَلِيفَةُ
وَكَتَبَتْ أَعْمَامُهُ إِلَيْهِ
وَالْبَعْضُ مِنْ جُنُودِهِ جَنَدَلَهُ
وَجَاءَ سَنَقَرُ الَّذِي تَحَصَّنَا
وَجَعَلُوهُ لِلْمَلِكِ النَّاصِرِ
وَمَا يَزَالُ الْمَلِكُ ابْنَ ظُلْمَتِكَيْنِ
وَسَنَقَرُ عَزَزَ مُلْكَ مَوْلَاهُ

مُرْتَكِباً فِيهَا الذُّنُوبَ الْمُنْكَرَاتِ
وَيَخَافُهُ فِي الْجُنْدِ مِثْلُ سَنَقَرِ
إِلَّا بَقَايَا الْكُرْدِ وَمَنْ تَبِعَهُ
وَجَلُّهُمْ مَعَ أَبِيهِ كَانَا
حَتَّى ادَّعَى مَا لَيْسَ فِيهِ بِمَصِيبِ
وَأَضْبَحَتْ آرَاؤُهُ سَخِيفَةً
بَرْدٌ مَا يَقُولُهُ عَلَيْهِ
حَقٌّ اسْتِرَاحَ وَأَرَاخَ أَهْلَهُ (١)
بِحُجَّةٍ وَعَاشَ فِيهَا زَمَانَا
أَنْبَاكَا وَلَمْ يَكُنْ بِالْغَادِرِ
طِفْلاً وَتَخْتَاجُ إِلَى خَيْرِ مُعِينِ
وَبَعْدَ تِسْعِ سَنَوَاتٍ يَخْلَاهُ

= ماذا يريد منها عزل أبيه أو وقفه دون ما يريد وربما كان يريد مصر يعرض الأمر على أعمامه ولكن بلغته وفاة أبيه وهو في (المهجم) من المخلاف السليماني فرجع مسرعاً ودخل زبيد ثم ارتحل إلى تعز واتخذها مقراً له.

(١) قضى المعز إسماعيل ست سنوات في ملكه على اليمن وذلك من آخر شوال ٩٣ إلى ١٨ رجب سنة ٥٩٩هـ، وارتكب في مدته ذنوباً كثيرة ومنكرات كبيرة، فلقد ادعى الخلافة وتلقب بأمر المؤمنين، وزعم أنه من قريش وأذن في أكل البشر واستباح لحوم بني آدم، وقال يوماً لمولاه سنقر: ما أحسن أضلاعك للشوي فعلم أنه قاتله وأكله وفر منه كما فر كثير من الجند وقتل منهم كثيراً ولم يبق معه إلا قليل من الأكراد الذين كانوا مع أبيه، وقضى على العبيد والغلمان ممن كان في خدمة أبيه وطاعته، ويقال إنه أصيب في عقله وتغير دماغه حتى سلك هذا المسلك، وكتب إليه أعمامه يستنكرون أعماله ويعيبون عليه ما يدعيه مما ليس له بحق، ومات مقتولاً على يد بعض جنوده الذين استراحوا بالقضاء عليه واطمأنوا على حياتهم من بعده، وكان مقتله عند مسجد (شاشة) وهو خارج من مدينة زبيد يتسیر على بلغته ويريد القوز.

بِمَوْتِهِ وَقَدْ بَنَى الْمَدَارِسَا
وَكَانَ جَبْرِيلُ بْنُ غَازِي بَغْدَه
وَكَلِّفَ الْمَلِيكَ وَهُوَ كَارِه
وَأَنْ يَسِيرَ مِنْ تِهَامَةَ إِلَى
وَدَسَّ جَبْرِيلُ بْنُ غَازِي السُّمَّا
أُمَّ الْمَلِيكَ النَّاصِرِ الْقَتِيلِ
وَأَضْبَحَتْ بِفَضْلِهِ عَرَائِسا (١)
أَتَابِكَا عَلَى الْمَلِيكَ وَخَدَه
أَنْ يَرْكَبَ الْأَخْطَارَ وَالْمَكَارِه
صَنْعَاءَ وَالنَّاصِرَ لَا يَغْرِفُ لَا
لَهُ وَأَتَى اللَّهُ تِلْكَ الْأَمَا
خَرَّضْتَ الْجُنْدَ عَلَى جَبْرِيلِ (٢)

(١) لما خاف سنقر من السلطان المعز فرّ على رأس جماعة من الأتراك ولجأ إلى حجة وله أخبار مع الأئمة الزيدية وبقي مدة يهاجم فيها السلطان الأيوبي ويستولي على كثير من ممتلكاته ويغنم في المحاربة مغنم كثيرة، ولما قتل المعز في سنة ٩٩٩هـ، هبط سنقر ومن معه إلى زبيد وتعز وما والاها واستقبله الأكراد وانضموا إليه وجعلوه أتابكاً للملك الناصر أيوب بن طغتكين بن أيوب وهو صغير دون البلوغ ووفى للمليكة وقويت به الدولة الأيوبية، ومكث تسع سنوات في الثامنة بعد الست المائة توفي والمليكة الناصر بل والرعية كلهم راضون عنه لما عرف به من الخير والصلاح والعدل وعمارة المساجد والمدارس التي أصبحت كالعرائس المجليات بفضل عنايته وعظيم إحسانه إلى العلماء والمتعلمين، فمن أعماله تعمير جامع المعز ووضع فيه المنبر وهو من عجائب البناء في عصره، وأنشأ مدرسة للشافعية وتعرف بالعاصمية نسبة إلى المدرس فيها عمر بن عاصم ومدرسة للحنفية بزبيد وكانت تعرف بمدرسة الحمادية نسبة إلى مدرستها محمد بن حماد، وبنى مسجداً جامعاً بعبقر من أرض أبين، وأنشأ الصفتين والجناحين والمؤخرة من جامع الجند، وحيّ الله من يعمل إذا وافته الفرصة لنفسه ولأهله ولشعبه.

(٢) نصب للمليكة الناصر بعد مولاه سنقر أتابكاً آخر وهو جبريل بن غازي الذي خانه وكلفه ما لا يطيق فأمر بالصعود من التهام إلى صنعاء وهو كاره، والمليكة ما يزال صغيراً ولا يستطيع أن يقول: لا مهبا أمره الأتابك جبريل، وأشرت إلى كونه مستبداً بقولي (وحده) وذلك خلاف ما كان عليه الأمر في أيام سنقر فإنه كان معه أتابكاً آخر وأسمه (ردسال) ودس جبريل السم لسيدته في صنعاء واستقل بالأمر لنفسه وحسب أن ذلك يتم له ولكن أم السلطان كانت عازمة حازمة وأدركت ما فعل بولدها فأخذت بالثأر وانتقمت من الأتابك جبريل شر انتقام وفتنت بينه وبين جنده وإليك ماذا كان من أمره.

وَكَانَ عَائِداً إِلَى زَبِيدٍ
 وَفِي السُّحُولِ انْتَهَبَتْ أَمْوَالَهُ
 ثُمَّ اخْتَفَى فِي (إب) عَنْ حُرَّاسِهِ
 وَأَنْتَشَرَتْ فِي الْيَمَنِ الْفُؤُضَاءُ
 حَتَّى أَتَى مَسْعُودُ بْنُ الْعَادِلِ
 وَقَالَ عَنْهَا كُلُّ مَا اغْتَرَاهَا
 لِكِنَّهُ اسْتَعَانَ وَاسْتَخْلَفَ مَنْ
 وَمَاتَ مَسْعُودٌ بِدَاءِ الْفَالِجِ
 حَتَّى انْتَهَى بِالسَّلْمِ وَالْحُرُوبِ

بَسِيرٌ فِي الْعُدَّةِ وَالْحَدِيدِ
 وَضَاعَ مُلْكُهُ وَسَاءَ حَالُهُ
 فَقَتَلُوهُ وَأَتَوْا بِرَأْسِهِ
 وَكَثُرَتْ فِي الْيَمَنِ الضُّوْضَاءُ
 فَسَكَنَ الْأَرْضَ مِنَ الْقَلَائِلِ
 وَسَأَلَتِ الْمِيَاهُ فِي مَجْرَاهَا (١)
 تَمَلَّكَ السُّلْطَنَةُ فِي أَرْضِ الْيَمَنِ
 وَإِنَّ الرَّسُولَ فَازَ بِالنَّتَائِجِ
 فِي شَفِينَا أَمْرٌ بَنِي أَيُّوبَ (٢)

(١) كانت وفاة الملك الناصر مسموماً في صنعاء في أول محرم ٦١١ هـ، ورجع الأتابك جبريل بعدته وعديده وجنده وحديده يقصد مدينة زبيد، ولما كان في السحول ثارت عليه القبائل ونهب معسكره وجميع أمواله ففرّ مخفياً إلى مدينة (إب) وجاءت جماعة من موالي الناصر الأيوبي ومن بقية جنده جاءوا إلى التعكر حيث كانت أم المليك وجملة من خواتين بني أيوب فسيتمهم الأم وشتمتهم واستشارت حفاظهم فرجعوا إلى (إب) يبحثون عن الأتابك جبريل حتى ظفروا به فقطعوا رأسه وجاءوا به إلى المرأة وانتشرت الفوضى واضطربت الأحوال في اليمن حتى جاء سليمان تقي الدين بن عمر شاهنشاه، وأمه أيوبية وكان على رأس جماعة من الصوفية حجاجاً وكلفته أم الناصر أن يتولى الملك واستجاب لها وتغيرت حالته فسكز وعربد ولها ولعب وصار كما قيل، فاسقاً بعد أن كان تقياً، وبلغ الأمر إلى بني أيوب في مصر فأرسلوا الملك المسعود بن العادل ووصل زبيد في أول سنة ٦١٢ هـ وقبض على سليمان بن عمر وهو في تعز فهدأت الزوابع وعادت المياه إلى مجاريها.

(٢) رجع الملك المسعود إلى مصر في سنة ٦١٣ هـ واستخلف جمال الدين قليم وكان فظاً غليظاً وساءت المعاملة بينه وبين الرعية ومات واستراح الناس من شره، ورجع أيضاً الملك المسعود إلى اليمن ومرّ بالحجاز حاجاً وقاتل فيها الشريف حسن بن قتادة وانتصر عليه وسار إلى اليمن واستخلف على الحجاز عمر بن علي بن رسول، واستقرت اليمن بوصوله إليها مرة ثانية إلا أنه سافر في سنة ٦٢٥ هـ وأصيب في الطريق بمرض الفالج =

خلاصة من تاريخ حضرموت

كَانَ لِحَضْرَمَوْتَ تَارِيخٌ عَظِيمٌ بِرُؤْيِي عَنِ الْحَادِثِ فِيهَا وَالْقَدِيمِ
وَالْخَبَرَ الْمَرْوِيَّ قَبْلَ الدِّينِ مُشَوَّةً بِالْخَلْطِ وَالْتَحْمِينِ
وَحَيْثَمَا جَاءَ النَّبِيُّ الْأَعْظَمُ وَعَلِمُوا مِنْ أَمْرِهِ مَا يُغْلَمُ
عَارِضَةً النَّاسُ وَهَوْلَاءِ كَغَيْرِهِمْ فِي الْجَحْدِ وَالْإِبَاءِ
حَتَّى إِذَا مَا انْتَشَرَ الْإِسْلَامُ وَذَهَبَ الْبَاطِلُ وَالْأَضْنَامُ
وَأَقْبَلَتْ وَفُودُ حَضْرَمَوْتَ تَقُولُ لَا جِبْتَ وَلَا طَاعُونَا (١)

= واستخلف ابن رسول على المملكة كلها وكان عبقرياً إدارياً صالحاً للملك ومات المسعود في سنة ٦٢٦ هـ واستقل ابن رسول بالأمر وذلك بدء الحال للدولة الرسولية كما سيأتي وانتهى أمر بني أيوب في هذه البلاد ولم تبق لهم بها أية علاقة ومدتهم فيها سبع وخمسون سنة، وملوكهم ستة، طوران شاه، خطاب بن علي بالنبابة، طغتكين بن أيوب، المعز بن طغتكين، الناصر بن طغتكين، مسعود بن العادل آخرهم والملك الدائم لله وحده، (تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير).

(١) حضرموت إقليم مشهور من أقاليم اليمن وهو في جنوب الجزيرة العربية شرقي عدن وفيه اليوم دولتان أو ثلاث، القعيطية، والكثيرية، والمهرية، إن اعتبرت الأخيرة دولة ثالثة في حضرموت وسميت بهذا الاسم نسبة إلى حضرموت بن قحطان أو إلى حضرموت ابن سبأ، وكان إذا حضر الموقعة الحربية كثر فيها الموت فقيل حضر الموت وركبت الكلمتان تركيباً مزجياً فأطلق على الرجل هذا الاسم ولأنه كان أميراً على تلك البلاد سميت باسمه وأهلها كلهم عرب إلا قليلاً من الدخلاء الذين جاءوا للتجارة أو الوظيفة، وفي حضرموت عدد كبير من أبنائها المواليد في أندونيسيا والملايو والهند وشرق أفريقيا ويقدر عدد السكان في الوقت الحاضر بما يزيد أو ينقص قليلاً عن أربعمئة ألف من الرجال والنساء ومن السادة العلويين والمشايخ المحترمين والقبائل المسلحة والقرويين التجار والمزارعين، وتاريخ هذه البلاد محفوظ ومدون لما تقادم من العصور وحوادثها ولما =

وَالْمُلْكُ بَعْدَ حِمِيرٍ لِكِنْدِهِ
وَوَائِلٌ كَانَ أَمِيرَ السَّاحِلِ
يَحْكُمُ فِي جِبَالِهَا وَالْوُدَيَانَ

وَوَقْتُ مَجِيئِهِمْ وَوَقْتُ الرِّدَّةِ
وَالْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ مِثْلُ وَائِلٍ
وَفِي الْوَفُودِ سَيِّدٌ مِنْ جَرْدَانَ

= تأخر مما هو أكثر ضبطاً وأدق بحثاً، وللعلماء المعاصرين كتب كثيرة في تاريخ حضرموت من الوجهتين السياسية والدينية من أمثال السيد عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف، والسيد علوي بن طاهر الحداد والسيد محمد بن هاشم بن يحيى وغيرهم، وجل هؤلاء من أساتذتنا ومشايخنا الذين قل الأخذ عنهم أو أكثر، ثم من أمثال السيد محمد بن أحمد الشاطري صاحب كتاب أدوار التاريخ الحضرمي وقد طبع منه الجزء الأول، والشيخ سعيد عوض باوزير، والشيخ صلاح البكري اليافعي وغيرهم لا يحصون ممن كتب عن حضرموت وخاصة في التراجم ومناقب الصالحين بيد أن القديم من تاريخ حضرموت بل وجنوب الجزيرة كله قبل الإسلام لا يخلو من الخلط والتخمين والمنقولات الغير موثوق بصحتها لهذا نجدها متناقضة تماماً والمتفق عليه منها نجهده قليلاً أو لا يكاد يصدق العقل، كيف لا والناس في هذه الجهة كانوا أميين لا يقرأون ولا يكتبون وشظف العيش وقلة موارد الرزق لا تمكنهم من الحفظ والرواية إلا قليلاً ممن هاجر إلى الخارج، والهجرة قبل الإسلام كانت قليلة والقادمون إلى حضرموت من المستشرقين لا يعتمدون إلا على آثار قليلة أو كتابات شبه مضموسة ثم إنهم لا يقدرّون على الاختلاط بأئمة النقل والرواية، وأشهر ما يروى من تاريخ حضرموت القديم هو ما قصه علينا القرآن من خبر عاد وهو المذكور في مثل قوله تعالى: ((واذكروا أحياناً عاد إذ أُنزِرَ قومهم بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه)) إلى قوله تعالى: ((وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون)) الأحقاف، وفي سور أخرى من الكتاب العزيز آيات كثيرة تفص علينا ما كان من قوة وآثار في الأرض لقوم عاد وكيف قضى عليها ونسفتها الرياح وأصبحت أراضيهم قاحلة صحراوية جرداء لسوء صنيعهم وقبيح فعالمهم ((وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)) أما الدول المعينية والسبئية الحميرية والكهلانية فالتخبيط والتخليط فيما نقل عنهم يعرفه كل مطلع ولا ينكره أي منصف، ولما جاء الإسلام وأخرج الناس من الظلمات ظلمات الشرك والكفر والجهل إلى نور التوحيد والإيمان والعلم تبدلت الحالة وذهبت الضلالة ونالت حضرموت قسمها الوافر ونصيبها العظيم من هذا الخير الذي شمل الإنسانية كلها والعرب وبلادهم بوجه خاص. وقد كانت المعارضة شديدة والذين يحاولون أن يطفئوا نور الله بأفواههم يبذلون قصارى الجهد في شمال الجزيرة وجنوبها لكي يبقوا على ما ألفوه من =

وَبَعْدَ مَا عَادَ الْوُقُودُ انْتَشَرَا دَيْبُهُمُ الْجَدِيدُ حَتَّى ظَهَرَا (١)
وَجَاءَ عَامِلًا عَلَيْهِمْ زِيَادٌ كَتَبَ يَنْصُرَ الْحَقَّ وَيَقْتَمِعُ الْفَسَادَ

= قبيح العادة وضلال العبادة، وأهل حضرموت مثل غيرهم من المعارضين ولم لا يكونون أشد معارضة من أهل الحجاز لبعدهم عن سماع القرآن ومشاهدة المعجزات الظاهرة على يد محمد صلى الله عليه وسلم ولكنهم حين ما وضع الحق وظهر النور وتحطمت الأصنام وزالت الشكوك والأوهام أقبلت الوفود من حضرموت يوحدون الله ويعترفون بصدق الرسالة ويقولون (لا إله إلا الله) ولا جبت ولا طاغوت بعد اليوم، والجبت هو الباطل والطاغوت هو الحكم بغير ما أنزل الله ((فن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم)).

(١) كندة قبيلة مشهورة من كهلان وتسكن في جنوب الجزيرة وشمالها، ومعلوم أن وزارة الحميريين كانت في بني عمومتهم الكهلانيين وكانوا هم المستشارين والمدبرين لشؤون الملك والصلة بين كندة وحمير قوية جداً فهم الأصهار والنواب وخاصة في حضرموت، وأبناء كندة في هذه الجهة فخذان معاوية وأشرس وهما أبناء ثور بن عفير بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن كهلان ومنهم السكون والسكاسك وآل شبيب وآل عقبة وآل سعد وتجبب والصدف، وآخر ملوكهم عند ظهور الإسلام هو الأشعث بن قيس أبو محمد الذي وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم في ستين رجلاً من قومه وأسلموا ورجعوا إلى بلادهم وارتد الأشعث وجيء به أسيراً إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقال استبقي لحر بك يا أبا بكر وزوجني أختك أم فروة فأجابته إلى ما أراد وأسلم وحسن إسلامه وتزوج بأخت أبي بكر وهي أم ولده محمد وقد حضر اليرموك والقادسية وكان فيمن أوفدهم سعد بن أبي وقاص إلى ملك فارس وحضر الأشعث مع علي عليه السلام في وقعتي صفين والجمل وحضر يوم التحكيم ومات بعد مقتل علي بأربعين يوماً وتزوج الحسن بن علي بنت الأشعث رضي الله عنهم، ورويت له تسعة أحاديث واتفق الشيخان على واحد منها، وعرف بهذا الاسم لأنه كان دائماً أشعث الرأس، وكان الملوك من كندة زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم في حضرموت أربعة أو أكثر كل منهم على جهة والظاهر أن الأشعث كان سيدهم جميعاً وهؤلاء من أشرس، ومن أبناء معاوية صاحب بحد والد امرئ القيس الشاعر وهو في الأصل من حضرموت وكان في الهجريين ودمون، وسمي ثور بن عفير بكندة لأنه كند أباه وكفر بنعمته عليه، أما وائل بن حجر فكان ملكاً على ساحل حضرموت وهو بقية الملوك من حمير وفد على =

وَبَعْدَ مَا مَاتَ النَّبِيُّ اٰمْتَنَعَا عَنِ الزَّكَاةِ بَغْضُهُمْ وَارْتَجَعَا
وَكَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ابْنِ لَبِيدٍ حَرْبٌ يَشِيبُ عِنْدَهَا الطِّفْلُ الْوَلِيدُ
وَمِنْ أَبِي بَكْرٍ اَنْتَى الْاِمْدَادُ وَازْدَادَ قُوَّةً بِهِمْ زِيَادُ (١)
وَالْاَشْعَثُ بَنُ قَيْسِ يَوْمَ الرِّدَّةِ فَادَ الْجُمُوعِ وَاعْدَدَ الْعُدَّةَ

= رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قد بشر أصحابه بقدمه قبل أيام، وقال يأتيكم وائل بن حجر من أرض بعيدة من حضرموت طائعا راعبا في الله عز وجل وفي رسوله، ولما دخل رحب به وأدناه من نفسه وبسط له رداءه وأجلسه عليه مع نفسه وقال: اللهم بارك في وائل وولده وأصعده معه على المنبر وأثنى عليه واستعمله على بلاده وأقطعه أرضا، وروي له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم واحد وسبعون حديثا، وحضر صفين مع معاوية وهو صاحب راية حضرموت ونزل الكوفة ومات بها، واسم أبيه حجر بضم الحاء المهملة وسكون المعجمة وهو ابن ربيعة بن يعمر الحضرمي. وقيل وائل بن حجر بن سعد ابن مسروق بن وائل بن ضمعج الحميري، وكان من الوفود الحضرمية القادمة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد الجعفيين أهل جردان ورئيسهم قيس بن سلمة وجردان معروفة باسمها ومكانها القديين مشهورة بأحسن أنواع العسل، أما القبيلة فقد وقع شيء من التحريف والتغيير في اسمها ولا أعرف التصحيح في أنساب أهل تلك الجهة، ولما ظهر الإسلام وانتشر كان لأهل حضرموت الفضل الأكبر في نشره وتعميمه بالعلم والقوة فمنهم الغزاة الفاتحون والوعاظ المرشدون في شرق آسيا وفي المغرب وعموم أفريقيا.

(١) استعمل النبي صلى الله عليه وسلم على حضرموت زياد بن لبيد الأنصاري وجعله لهم معلما وجابيا للصدقات وأميرا يقيم فيهم شرائع الله، ولما مات عليه الصلاة والسلام بقي زياد على عمله، وامتنعت كندة بادية الأمر من دفع ناقة لأحد رؤسائهم أخذها زياد وجعلها في إبل الصدقة فأبوا إلا ردها وأبى زياد إلا أخذها واستفحل الشر وتطور الموقف إلى أن امتنعت بنو معاوية من دفع الزكاة مطلقا، وحاربهم زياد حتى قتل الرجال وسبى النساء والذرية فاستنجدوا بالأشعث بن قيس وانضم بعض القبائل إلى بعض فأعلنوا الردة وعلموا أن في دفع الزكاة الاعتراف بالخليفة ووجوب الطاعة له وكتب زياد إلى أبي بكر رضي الله عنه يخبره الخبر ويطلب منه المدد فأرسل المهاجر بن أبي أمية عامل صنعاء وعكرمة بن أبي جهل الذي وصل من عُمان إلى أبين والتقى القائدان في مأرب ثم سارا بجيوشهما حتى وصلا إلى حضرموت وعلمت كندة بخطورة الموقف فتجمعت وتحصنت بحصن (النجير) قريبا من تريم بنحو ثلاثة أميال وللحصن =

لَكِنَّهُ اسْتَسَلَّمَ فِي النِّهَايَةِ
وَصَارَ لِالْأَشْعَثِ فِي الْمَدِينَةِ
بَعْدَ زَوَاجِهِ بِأَمِّ قَرْوَةَ
سَلَّ عَنْهُ فِي الْيَرْمُوكِ خَالِدًا وَسَلَّ
قَدْ كَانَ عُضْوًا عَامِلًا فِي الْوَفْدِ
فِي أذربيجان تقلد العمل
أَمَّا الْأَبَاضِيُّ بَنُ يُحْيَى الْكِنْدِيُّ
فَلَمْ يَقِفْ فِي حَضْرَمَوْتَ أُمْرُهُ
لَمَّا أَتَى صَنْعَاءَ وَاسْتَوَلَى عَلَى

وَوَفَّرَتْ بِالْحَقِّ تِلْكَ الرَّابِعَةَ
مَكَانَةً عَالِيَةً مَكِينَةً
وَفِي الْفَتْوحِ كَانَ خَيْرَ أَسْوَهُ
سَعْدًا عَنِ الْأَشْعَثِ إِنَّهُ الْبَطْلُ
أَرْسَلَهُ سَعْدٌ لِيَزِدَ جُرْدًا
وَعَلْوِيًّا بَعْدَ وَقْعَةِ الْجَمَلِ (١)
وَهُوَ الَّذِي قَامَ قِيَامَ الْجِدِّ
بَلْ فِي الْجَنُوبِ وَالشَّمَالِ ذِكْرُهُ
صَنْعَاءَ جَيْشُهُ الْعَظِيمُ أَرْسَلَا

= ثلاث طرق عسكر زياد بأحدها والمهاجر بالأخرى وبقيت الثالثة حتى وصل عكرمة فكان عليها واشتد الحصار وتيقنت كندة أن الخليفة أبا بكر رضي الله عنه لن يتركهم وأن المدد سيأتي يوماً بعد آخر، فاضطروا إلى المسألة وطلب الأشعث الأمان لنفسه ولتسعة من قومه على أن يفتح الحصن وأجابه المهاجر إلى ذلك، ولسبب ما أخرج الأشعث نفسه وجعل مكانه رجلاً آخر ودخل الصحابة رضي الله عنهم إلى الحصن وأخذوا ما فيه وقتلوا المقاتلة وبلغ السبي نحو ستة آلاف وأسر الأشعث وكان مع السبي فلما وصل المدينة كان من أمره ما علمت من إسلامه وتزوجه بأم فروة ثم ما كان من مشاهدته العظيمة وهذا ما أردناه بقولنا (حرب يشيب عندها الطفل الوليد) ومما مضى علمت ما فعل الصديق الأعظم بالمرتدين في سائر أنحاء الجزيرة حتى أعادهم إلى حظيرة الإسلام وجزاه الله عن الإسلام خير الجزاء، وأصيب من الصحابة رضي الله عنهم نحو سبعين رجلاً في حرب أهل الردة ورجعوا إلى تريم بعد نهاية المعارك ودفن من مات منهم في مقبرة (القرنيط) ومقابرهم معروفة، ومن شهداء تلك الحرب عباد بن بشر الأنصاري وقبره معروف بأعلى الجبل، والخطباء في تريم من ذريته إلى يومنا هذا.

(١) في ترجمة الأشعث بن قيس التي قدمناها في التعليقة السابقة ما يوضح لك معنى هذه السبعة الأبيات، وقد كان يوم اليرموك تحت قيادة خالد بن الوليد وفي القادسية تحت قيادة سعد بن أبي وقاص، وقد تولى العمل بأذربيجان، ويوم صفين كان مع علي عليه السلام.

تَخَتَ قِيَادَةَ الْأَمِيرِ مُخْتَارٍ فَدَخَلُوا مَكَّةَ وَاخْتَلَوْا الدِّيَارَ
وَقَرَّ مِنْ مَكَّةَ عَبْدُ الْوَاحِدِ وَلَمْ يَقِفْ أَمَامَ هَذَا الْقَائِدِ
وَفِي (قديد) كَانَ لِلْأَبَاضِيِّ عَلَى بَنِي مَرْوَانَ حُكْمٌ مَاضِي
وَدَخَلَتْ جَيْشُهَا الْمَدِينَةَ وَأَنْصَبَ اللَّهُ بِهَا قَعِيْنَهُ
وَبَغَضُهُمْ سَارَ إِلَى وَادِي الْقُرَى وَلَاقُوا الْمَوْتَ فَعَادُوا الْقَهْقَرَى (١)

(١) في سنة ١٢٩هـ ثار بحضرموت رجل من كندة واسمه عبد الله بن يحيى أباضي المذهب لقي بعض المنجمين وقال له: ممن أنت يا رجل؟ قال من كندة، قال من أيها؟ قال من بني شيطان، قال أما إنك ستملك وتبلغ خيلك إلى وادي القرى وبعد أن تصاب في إحدى عينيك، فتفعل وتشاءم ورأى في اليمن ظملاً كثيراً وقرر في نفسه حرب أمير المؤمنين آخر بني أمية مروان بن محمد الملقب بالجعدي، وكتب أصحابه في ذلك ووافقوه على الثورة، ثم كتب إلى إخوانه في المذهب من أباضية البصرة يستشيرهم في الأمر فأشاروا عليه بالمبادرة وألا يتأخر يوماً واحداً ووصل إليه منهم المختار بن عوف الأزدي، وبلغ بن عقبة السقوري وجماعة معهم ليؤيدوه وليقفوا معه إذا ثار وحراره أحد، وبويع له بالخلافة في (دمون) وطرد عنها عامل بني أمية إبراهيم بن جبلة ولحق بصنعاء، وانفصلت حضرموت حين ذلك عن الدولة الأموية واستقلت بأمرها عن دمشق عاصمة الخلافة الإسلامية ولا شك أن الاضطرابات والثورات كانت قائمة في نواحي كثيرة من البلاد الإسلامية ضد بني أمية الذين كان نجمهم يغرب وكاد نجم بني العباس يظهر، وبعد أن بويع للأباضي بالخلافة قام بنشر العدل وبناء المساجد وكثير من الإصلاحات، وأطعم الفقراء والمساكين وشمل الناس بفضله وإحسانه وعرفوه بهذه الصفات كما كان معروفاً بالكرم والشجاعة والعلم والزهد والعبادة، وهو خطيب فصيح ومتكلم لسن، وفي سنة ثورته وبعد المبايعه له سار بألفي مقاتل من قبائل حضرموت وأباضية البصرة يقصد صنعاء واستخلف على بلاده عبد الله بن سعيد الحضرمي، ولما قرب من صنعاء وسمع بقربه العامل الأموي القاسم بن محمد خرج لحربه والتقى الجيشان بمحل يقال له بلج وانهمز فيه عامل صنعاء وتفرقت جيوشه ولكنه جمع الفلول وعسكر في مكان آخر قرب صنعاء ولحق به الكندي فهزمه شر هزيمة ودخل صنعاء وأسر فيها خليفة العامل وهو الضحالك بن زمل كما أسر العامل على حضرموت سابقاً إبراهيم بن جبلة، ودخل المسجد وخطب على المنبر خطبة تدل على شجاعته وفصاحته قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه عليه الصلاة والسلام «أيها الناس إننا =

وَإِنَّ عَطِيَّةَ الْهَرَبِ السَّعْدِي
فَلَمْ يَزَلْ بَعْدَهُمْ وَيَسِيرُ
وَكَانَ فِي مَكَّةَ يَوْمَ الْفَضْلِ
تَحْتَ الرَّمَاحِ الشُّمْرِ وَالْمَوَاضِي
وَتَهَضَّ الْكِنْدِيُّ فِي أَشْيَاعِهِ
وَإِنَّ عَطِيَّةَ الَّذِي مَا زَالَا
أَدَارَهَا حَزْباً ضَرُوساً وَأَنْتَصَرَ
كَغَلْفَةَ مَرْوَانَ حَزْبِ الْكِنْدِي
وَيَسْتَقْطُ الْقَتِيلُ وَالْأَسِيرُ
إِذِ التَّقْوَا بِخَيْلِهِمْ وَالرَّجُلِ
تَسَاقَطَتْ عَسَاكِرُ الْأَبَاضِي
يَسْتَقْبِلُ الْقُلُونَ مِنْ أَتْبَاعِهِ
يَتَّبِعُهُمْ حَتَّى رَأَى الرَّثْبَالَ
وَبَعْدَ قَتْلِ الْخَارِجِيِّ مَا افْتَصَرَ

= ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإجابة من دعا إليهما، الإسلام ديننا ومحمد نبينا والكعبة قبلتنا والقرآن إمامنا رضيما بالخلال حلالاً لا نبتغي به بديلاً ولا نشترى به ثمناً قليلاً، وحرمانا الحرام ونبذناه وراء ظهورنا، ندعوكم إلى فرائض بينات وآيات محكمات وآثار مقتدى بها، ونشهد أن الله صادق فيما وعد، عدل فيما حكم، وندعو إلى توحيد الرب واليقين بالوعد والوعد، وأداء الفرائض، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والولاية لأهل ولاية الله، والعداوة لأعداء الله أيها الناس إن من رحمة الله أن جعل في كل فترة بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون على الألم في جنب الله يقتلون على الحق شهداء، فإسئد بهم وما كان ربك نسياً، أوصيكم بتقوى الله وحسن القيام على ما وكلكم الله بالقيام به فأبلوا الله بلاء حسناً في أمره وذكره، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم) وأقام في صنعاء عدة أشهر وقصده الناس من كل مكان ومدحه الشعراء ودانت له القبائل بالطاعة لما رأوا منه العدل وكثرة العطاء، وقد تلقب هذا النائر بطالب الحق وربما قيل له الأعور لذهاب إحدى عينيه، ثم أرسل جيشاً عظيماً بقيادة المختار بن عوف الأباضي لغزو مكة فوصل إليها آخر ذي القعدة من سنة ١٢٩هـ، واصطلى مع عبد الواحد بن سليمان أمير مكة على وقف القتال حتى ينتهي الحج، وبعد ذلك شعر عبد الواحد بعجزه عن المقاومة فسار إلى المدينة وترك للمختار مكة وما فيها وكتب إلى مروان يخبره بما كان ويعتذر لعدم القدرة على المقاومة، فأرسل مروان بجيش عرمرم إلى المدينة ومنها يسير إلى مكة فالتقى الجيشان الأباضي والأموي بمكان يقال له قديد وحصلت معركة عنيفة وقتل فيها من المروانيين أكثر من ألفين ومئتي قتيل ثم تفرقوا وزحف المختار بجيشه إلى المدينة ودخلها بلا حرب وخطب في المسجد النبوي الشريف ذاكراً لسبب ثورتهم ومخبراً بما كان في قديد ومتوعداً بعذاب الله وقتل من يقف في وجهه =

بَلْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ مَرْوَانَ
مَعَ ابْنِهِ وَأَقْرَبِ الْمَكَانَا
وَزَالَ حُكْمُ الْمَذْهَبِ الْبَاضِي وَاللَّهُ يَفْضِي وَهُوَ خَيْرُ قَاضِي (١)

= من أهل المدينة وبلغ الخبر إلى مروان فبعث جيشاً من أهل الشام من أربعة آلاف مقاتل وأعطاهم الخيل والبغال ولكل واحد مئة دينار، فانتدب الأباضي ستمائة رجل من قومه وأمر عليهم بلج بن عقبة وساروا إلى وادي القرى حيث قابلوا جيش الشام تحت قيادة عبد الملك بن عطية السعدي ونشب القتال بين الجانبين وقتل الأمير بلج وأصحابه كلهم إلا نحو ثلاثين منهم رجعوا إلى المدينة وذكروا ما كان لقائدهم أبي حمزة المختار، وهذا خلاصة ما تشتمل عليه هذه الأبيات الثمانية.

(١) لم يقف القائد بن عطية عند هذا ولم يكتف بما أصاب الأباضيين في وادي القرى بل سار وراءهم يتبع آثارهم بأمر من الخليفة مروان وهرب المختار من المدينة ولاذ بمكة وجمع قواته ولحق به السعدي فأضرمت الحرب نارها وطحنت جيش المختار برحائها وقضي عليهم تماماً وقتل أبو حمزة وامراته وأسروا منهم أربعمائة وصلب من القتلى جماعة واستمروا على الصلْب إلى زمان أبي العباس السفاح ولم ينج من سمر الرماح ومواضي السيوف إلا الشريد الطريد، فجمع عبد الله بن يحيى الذي ما يزال في صنعاء جموعه المهزومين والموجودين عنده وسار لمقابلة الملك بن عطية السعدي ودارت الحرب بينهم وأبدى من الشجاعة عبد الله بن يحيى ما أفرغ الأبطال وشفي به نفسه في القتال وبعد أن فعل بجيش ابن عطية الأفاعيل قتل أخيراً وأخذ ابن عطية رأسه وأرسل به إلى مروان مع ولده يزيد بن عبد الملك بن عطية؛ وانتهى بهذا حكم الأباضي الكندي الحضرمي على اليمن والحجاز تماماً وذلك في سنة ١٣٠ هـ وذكرت فيما مضى أن قاتل الأباضي هو معن بن زائدة وأن ولديه قد أخذوا بثأره وقتلاه في خراسان وهذا حسب ما تقوله بعض كتب التاريخ اليمنية والصحيح أن قاتل الأباضي هو عبد الملك بن عطية وأن الذي قتل معن بن زائدة هو محمد بن عمرو بن عبد الله الحارثي الحضرمي من أجل أنه قاتل أبيه وليس هو الذي قتل ابن يحيى الكندي لأن معن لم يخرج إلى اليمن إلا عاملاً لبني العباس وبعد عشر سنوات من مقتل الأباضي والله أعلم، ((ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون)).

فصل تابع لما قبله

لَمْ يَكْتَفِ الْجَعْدِي بِفِعْلِ السَّعْدِي
 بَلْ جِيءَ مِنْ مَرَوَانَ بِالْكِتَابِ
 إِلَى بِلَادِ حَضْرَمَوْتَ الشَّاسِعَةِ
 فَسَارَ فِي عُذَّتَيْهِ الْقَوِيَّةِ
 يَتَّبِعُ آثَارَ رِجَالِ الثُّورَةِ
 ثُمَّ أَنَاهُم مِّنْ ظَرْبِ الْكَسْرِ
 وَبَعْدَ مَا احْتَلَّ شِبَامَ وَأَرَادَ
 لَكِنَ أَنَاهُ الْأَمْرُ مِنْ مَرَوَانَ
 وَسَارَ بَعْدَهُ رِجَالًا قِلَّةً
 وَلَا بِمَا أُنزِلُهُ بِالْكِنْدِيِّ
 وَفِيهِ الْكِتَابُ الْأَمْرُ بِالذَّهَابِ
 لَكِنِّي تَكُونُ حَضْرَمَوْتُ طَائِعَةً
 مُنْهَذَا أَمْرَ بَنِي أُمَيَّةِ
 لَعَلَّهُ يَرَى لَهُمْ مِنْ عَوْرَةِ
 وَابْنُ عَطِيَّةِ حَلِيفُ النَّصْرِ
 أَنَّ تُخْضِعَ الْقُوَّةُ أُنْحَاءَ الْبِلَادِ
 بِالسَّيْرِ لِلْحَجِّ فَمَا تَوَانَا
 وَكُلُّ وَاحِدٍ يَبْعَثُ شَلَّةً (١)

(١) لما قتل طالب الحق عبد الله بن يحيى وبعث برأسه إلى مروان لم يكتف بذلك بل أرسل كتاباً إلى ابن عطية السعدي يأمره بتتبع آثار الأباضية ومحاربتهم أينما حلوا فسار إلى صنعاء وأقام بها أشهراً وثار عليه يحيى بن عبد الله السباق الأباضي فهزمه وقتل أصحابه كما قتل الأباضية من وجد منهم كافة، ولحق بالساحل يحيى بن كرم الحميري وانضم إليه نحو مائة رجل وقتلهم السعدي إلا من فر منهم ولحق بحضرموت وسار يتبعهم واستخلف على صنعاء ابن أخيه عبد الرحمن بن يزيد والجيش الذي مع القائد السعدي كان كثيراً كامل العدة ولما وصلوا قريباً من شبام خرج عبد الله بن سعيد الأباضي لمواجهةهم وذهبت فرقة من الجيش إلى شبام فتسوروا سورها واحتلوها وعبد الله بن سعيد مشغول مجرب من بين يديه وهو لا يدري أنه قد أخذ من خلفه ولما علم رجوع منكسراً، واستسلمت شبام وما حوالها لجيش بني أمية وأصبحت لهم خاضعة ولأوامرهم طائعة وأراد ابن عطية أن يستولي على بقية البلاد لولا أنه جاءه الأمر من مروان بالذهاب إلى مكة وإقامة الحج للناس.

وَأَدْرَكُوهُ فِي الظَّرِيقِ فَمُتِلن
وَابْنُ أَخِيهِ أَرْسَلَ الجُنُودَا
وَعَبَّئَتْ جُئُودُهُ بِالوَادِي
وَوَخَّوْفُوا الأَطْفَالَ وَالنِّسَاء
لِكَنَّهُمْ لَمْ يَشْرِكُوا أَبَاضِي
وَهَكَذَا نُطَوِي صَحَائِفَ الزَّمَانِ

وَرَأْسُهُ إِلَى شَبَامِ احْتُمِلن
وَكَسَّرَتْ مِنْ حَضْرَمُوتِ العُودَا
فِي المُدُنِ الكِبَارِ وَالبَوَادِي
وَانْتَهَبُوا الحُلِيَّ وَالكِسَاء
إِلَّا وَسَيْفَ الحَقِّ فِيهِ مَاضِي
بِأَمْرِهِمِ وَأَمْرِ آلِ مَرْوَانَ (١)

(١) سار ابن عطية بعد مجيء الأمر إليه من مروان في عدد قليل من أصحابه حتى وصل مأرب وأدركه جمانه وسعيد أبناء الأحنس في جماعة من قومها ورجل من نهد وثلاثة من مراد وخسة من كندة فقتل ابن عطية واحتزوا رأسه ورجعوا به إلى شبام وتراجع الأباضية وظهروا من جديد بمخالفة أوامر الخليفة ولكن سمع عبد الرحمن بن يزيد المستخلف على صنعاء بما فعل أهل حضرموت فغزاهم بجيش من الرعاع والدهماء ووصلوا إلى الكسر وخرّبوا هيناً وقعوظة، والمخينيق، وحورة، ودخلوا شبام فخرّبوا كثيراً من الدور والمنازل واستولوا على المدن والقرى في وادي حضرموت وانتهبوا الأموال وأخذوا من النساء حليهن وثيابهن وفعلوا من المنكرات ما لا يقره الشرع ولا يستسيغه الطبع، ولكنهم أخذوا حركة الإباضيين وقضوا عليها نهائياً إلا ما بقي من نارهم تحت الرماد ورجع اليمينيون بما في أيديهم من المنهوب والمسلوب، وبقتل مروان بن محمد الأموي الملقب بالجعدي زالت الدولة الأموية وقامت بعدها الدولة العباسية وبقيت حضرموت محكومة لبعض أهلها حتى جاءهم معن بن زائدة الشيباني عاملاً لأبي جعفر المنصور وكان من خبره ما قد علمت وتعاقت عليها العمال إلى عهد بني زياد، وسيأتيك ذكر ما كان فيها من دول ودو يلات، إلى عهد بني رسول وكل شيء دون الله يزول.

آل باعلوي في حضرموت

جاء المُهاجِرُ الَّذِي يَنْتَسِبُ إِلَيْهِ سَادَاتُ الْبِلَادِ الثُّجَبِ
جاء مِنَ الْبَصْرَةِ أَيَّامَ الْفِتَنِ مُهَاجِرًا يَدِينُهُ إِلَى الْيَمَنِ
وَكَانَ أَهْلُهُ مِنَ الْمُفْتَدِرِ لِمَنْعِهِ أَرْزَاقَهُمْ فِي ضَرَرِ
وَأَسْمُ الْمُهَاجِرِ الَّذِي نَذَرَهُ أَحْمَدُ وَالتَّارِيخُ لَا يُنْكِرُهُ
وَجَدُّهُ الصَّادِقُ وَابْنُ الْبَاقِرِ مِنْ آلِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ الطَّاهِرِ (١)

(١) آل باعلوي جماعة كبيرة في حضرموت من آل علي بن أبي طالب رضي الله عنه فهم العلويون نسبة إليه كثيرهم من آل الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية وعمر وعباس أبناء أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وهم الباعلويون نسبة إلى جدهم علوي بن عبيد الله ابن أحمد بن عيسى بن محمد بن علي العريضي ابن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسين بن علي بن أبي طالب، وأهل حضرموت ينسبون الأسر والعائلات إلى أجدادهم بالأسماء والألقاب المشهورة ويختصرون أبا فلان فيقولون بافلان فثلاً أبو فقيه، بافقيه، وأبو فضل، بافضل، وأبو عش، وأبو زرعة باعش، وبازرعة وهكذا وتكثر هذه الكنى في غير بني هاشم أما هم فكنتيتهم الجامعة، باعلوي، وتذكر العائلات بالأسماء والألقاب كالسقاف والحداد والعطاس والحبشي والبار وهكذا، وأول من جاء إلى حضرموت وعرف بها من آل علي هو المهاجر أحمد بن عيسى المذكور نسبة في هذه الأبيات وهو الذي جاء من البصرة وهاجر بنفسه وبنحو سبعين من أهله إلى المدينة المنورة وسبب هجرتهم من العراق ما ظهر فيها من الفتن وتعدد المذاهب الدينية والمنازعات السياسية مع تدخل الفرس والأتراك في شؤون الخلافة واستبدادهم بالحكم واستيلائهم على كل شيء ويومئذ فتنة الزنج والقرامطة، وكان المقتدر العباسي قد منع الطالبين من أرزاقهم المقررة لهم في بيت المال وضايقهم كثيراً فمنهم من صبر واستقر بالعراق ومنهم من هاجر إلى مختلف الأقطار العربية والإسلامية ومن هؤلاء صاحب الترجمة أحمد بن عيسى الذي هاجر معه ابنه عبيد الله =

وَتَعَدُّ مَا حَجَّ وَزَارَ الْمُضَطَّلِي
 وَمَقَّةُ ابْنَةِ عُبَيْدِ اللَّهِ
 مُسْتَخْلِفاً وَرَاءَهُ فِي الْبَصْرَةِ
 وَسَارَ حَتَّى بَلَغَ الْجُبَيْلَا
 إِلَى بِلَادِ الْهَجْرِينَ انْتَقَلَا
 إِلَى الْحَسِيِّسِ وَقَضَى الْحَيَاةَ
 وَقَبْرُهُ هُنَاكَ فِي سَفْحِ الْجَبَلِ
 فِي رَابِعِ الْقُرُونِ عَامَ عِشْرِينَ
 بِأَهْلِ حَضْرَمَوْتٍ قَدْ تَعَرَّفَا
 وَفِي الْبَنِينَ مَالَهُ مُضَاهِي
 جَمَاعَةً مِنْ كُتَبَاءِ الْأُسْرَةِ
 وَتَعَدُّ حِينَ مَالٍ عَنْهَا مَيْلَا
 إِلَى بَنِي جَشِيرٍ ثُمَّ ارْتَحَلَا
 فِيهَا وَفِيهَا اسْتَقْبَلَ الْوَفَاةَ
 يَغْرِفُهُ الْجَمِيعُ مِنْ أَهْلِ الْمَحَلِ
 هَاجَرَ وَالْمَوْتُ بِخَمْسِ وَأَرْبَعِينَ (١)

= وحفيده بصرى وبعض أبناء عمه عمر بن محمد جد بني الأهدل والسيد القديمي جد بني القديمي المعروفين في تهامة زبيد وما حوالها وللإمام جعفر الصادق أبناء ثمانية ومنهم الملقب بالعريضي علي بن جعفر والد محمد بن علي وهو والد عيسى وعيسى هو والد أحمد المهاجر وجعفر الصادق وآبأوه أغنياء عن الترجمة لهم وتاريخهم وأوصافهم ومناقبهم مشهورة في كتب التاريخ والحديث والتفسير والفقه وغيرها، والصادق بن محمد الباقر شقيق الإمام زيد صاحب المذهب وأبوها السجاد علي زين العابدين وأبوه الحسين بن علي سلام الله ورضوانه على الجميع، ومولد المهاجر في سنة ٢٦٠ هـ ووصله إلى المدينة في سنة ٣١٧ هـ وهي السنة التي أغار فيها أبو طاهر القرمطي على مكة فقتل الحجاج وأخذ الحجر الأسود إلى الإحساء وبقي هنالك إثنتين وعشرين سنة كما تقدم، ووقف المهاجر بالمدينة إلى سنة ٣١٨ هـ ولم يحج في السنة الأولى وقد اتصل بجماعة من أهل حضرموت وذكروا له بلادهم بكل خير وزينوا له الهجرة إليها فبعدهما حج ارتحل بمن معه إلى اليمن ينتقل من بلاد إلى بلاد حتى وصل حضرموت في سنة ٣٢٠ هـ وكان ذلك أول تاريخ المهاجر أحمد بن عيسى وأولاده في حضرموت، (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون).

(١) تعرّف المهاجر بكثير من الحضارمة في المدينة قبل أن يحج وفي مكة أيام الحج ثم سار ومعه ابنه عبيد الله الذي صغر اسمه تأدباً مع الله وتواضعاً مع إخوانه الصوفية رحمهم الله، ويقال في اسمه، عبيد الله، وليس له مماثل ولا مضاه من أهل عصره في صفاته الخلقية من العبادة والزهد والعلم وكثرة الصدقات وبره بأبيه وأهله ولم يكن مع المهاجر أولاده إلا هذا، أما محمد وبقية الأولاد فقد تركهم لحفظ الأهل والمال ورعاية =

وَأَلْ بِاعْلُوِي جِيْعاً تَنْسَبُ
وَلَمْ يَزَلْ خِلَافُهُمْ فِي شِدَّةِ
حَتَّى أَرَادَ اللهُ أَنْ يَجْتَمِعُوا
فَصَارَ كُلُّ تَابِعٍ وَمَتَّبِعٍ
وَرَغْبَةً فِي الْعِلْمِ وَالتَّعْلِيمِ
وَأَلْ بِأَفْضَلٍ وَأَخْرُونَا
لَابْنِ عَبِيدِ اللهِ عَلْوِي الْأَبِ
مَعَ الْأَبَاضِيِّينَ تِلْكَ الْمُدَّةُ
لَا كَافِرِيهِمْ وَلَا مُنْتَدِعٍ
مُقْتَدِباً بِالشَّافِعِيِّ فِي الْفُرُوعِ
جَاءَ بَنُو عَلْوِي إِلَى تَرِيمِ
يَوْمَئِذٍ لَهُمْ يُوقَرُونَا^(١)

= الأسرة تركهم في البصرة ولهم بها أعقاب وذريات يعرفهم النسابون، وأول بلد وصل إليها المهاجر هي بلدة الجبيل التي حسن أهلها للسيد أحمد بن عيسى الهجرة إليهم وهي في وادي دوعن وسكانها من أهل السنة أو من الشيعة المعتدلة وكلهم أعداء الأباضية الموجودين آنذاك في أعلى حضرموت وأسفلها وأهل الجبيل من كندة والصدف والمعروف عنهم أنهم سنيون، ولم تطل إقامة المهاجر عندهم بل تحول إلى الهجرين وأقام بها سنوات وتملك فيها عقاراً ونخللاً ثم تركها ووهب ممتلكاته لبعض مواليه ووصل إلى قارة بني جشير وأقام بها مدة وهي قريباً من بور، وخرها بنو خيثمة في أول القرن السابع حين جاءوا إلى حضرموت من جبل السراة، ثم تحول أيضاً إلى الحسيمة وبها أقام إلى أن توفي رحمه الله وكانت إقامته في حضرموت من سنة ٣٢٠ إلى ٣٤٥ هـ وهو معاصر للدولة الزيدية الأموية وللدولة الزيدية الهاشمية في اليمن، وكان عالماً عاملاً واعظاً فصيحاً، حارب الأباضية وغيرهم من القرامطة والمخالفين بلسانه وقيل بالسلاح أيضاً، ومعه من السنيين والشيعة من ينفذ أمره ويقف إلى جانبه لما عرفوا من فضله وكفائه، وكان يتلقى المدد الحسي من أهله وأبنائه المقيمين في البصرة وربما جاءه شيء من ذلك على القوافل البرية من بني عمومته في أعلى اليمن وليست له آثار علمية من المؤلفات أو المدارس إلا جهاده المعروف في نصرة الحق وإحياء السنة وإماتة البدعة والدعوة إلى مذهب الإمام الشافعي، ولعل ذلك هو السبب في تنقله من الجبيل إلى الهجرين إلى القارة إلى الحسيمة لما يلقاه من الأباضية أو لما تقضي به سنة الحرب مع الخصوم الذين لا بد من مطاردتهم ومضايقتهم أينما حلوا: ((قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين)).

(١) كان لعبيد الله بن المهاجر ثلاثة أولاد وهم علوي وجديد وبصري، ولكلهم أولاد وذرية طيبة وقد انقرض أولاد جديد وبصري في القرنين السادس والسابع، ومنهم =

وَبَرَزَتْ شَخْصِيَّةُ الْفَقِيهِ وَتُنَظَّمُ السَّادَاتُ مِنْ بَنِيهِ
هَذَا وَقَدْ لُقِبَ بِالْمُقَدِّمِ وَقَالَ كُفُّوا عَنِ إِرَاقَةِ الدِّمِّ

= أئمة فضلاء ومحدثون حفاظ ومن أشهرهم أبو الحسن علي بن محمد بن جديد وهو أول من اختصر رواية الأحاديث بجذف الأسانيد المعروفة في كتب السنة واكتفى بذكر الصحابي والمخرج عنه في الأمهات الست وبقية الدواوين المعروفة المتداولة بين الناس، أما علوي بفتح العين وسكون اللام فهو اسم طائر وبه سمي جد آل باعلوي وهو أول من سمي بهذا الاسم، ومات الثلاثة الأخوة جميعهم بحضرموت ودفنوا بقرية سمل بضم السين وفتح الميم ولم يكن لعلوي إلا ولد واحد واسمه محمد ومحمد ولد اسمه علوي ولعلوي ولدان سالم المنقرض وعلي خالع قسم وهو أول من نزل بتريم من السادة آل باعلوي وهو أبو محمد صاحب مرباط وهذا هو جد الفقيه المقدم محمد بن علي بن محمد بن علي بن علوي بن محمد بن علوي بن عبيد الله بن المهاجر أحمد بن عيسى إلى آخر النسب، وما زال الخلاف مستمراً بين السادة آل باعلوي والأباضية حتى انتهى بنهاية الأباضيين إلا أن مجد السادة دائماً في علو وارتفاع وشهرتهم في اتساع وتمسكهم بالسنة وعملهم الصالح بعلمهم النافع يزيد الناس تعلقاً بهم ومتابعة لهم وهم يترددون على تريم من القرى المجاورة حتى سكنها واستوطنها السيد علي بن علوي خالع قسم وبها يومئذ جماعة من أهل العلم كآل بافضل وآل الخطيب وعرفوا للسادة قدرهم واعترفوا بفضلهم، وأخذ مذهب الشافعي وعقيدة الأشعري في علمي الفقه والكلام ينتشران وانفقوا بحمد الله في الأصول والفروع وليس معهم كافر ولا مبتدع بنفي الصفات ولا قائل بتجسيم ولا تشبيه ولا تعطيل وأصبحت الحال في حضرموت على ذلك حتى اليوم ولمدة عشرة قرون وليس في حضرموت رفض ولا نصب ولا أي مذهب آخر غير مذهب أهل السنة والجماعة إلا ما عرفت من مذهب الأباضية الذي زال ظله وذهب أهله منذ ثمانية قرون، إلا أن بعض الغلاة يجاوزون الحد في حب أهل البيت عليهم السلام إلى القول بتفضيل آل باعلوي ولو كانوا عصاة على غيرهم، وإن كان غيرهم من أولاد الحسن أو الحسين ويدعون لهم من الكرامات وخرق العادات ما لا يصدقه عقل ولا يقره دين، وحاشا أهل الفضل والعلم منهم أن يقولوا هذا القول أو يقرؤا عليه من يدعيه ويتعصب له، ومن مصائب الغلو ما حدث في القرن الرابع عشر بين السادة الباعلوي وجماعة الإرشاد في جاوي من الطعن في الأنساب وعدم الكفاءة وقول الجاهل إن وجه فلان لا يصلح أن يكون حذاء لقدم فلان، (وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين قال رب أحكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون).

وَمَعَ فِيهِ صَارَ شَيْخاً صُوفِيًّا
وَلَمْ يَزَلْ هَذَا سَبِيلَ أَهْلِهِ
إِلَّا الَّذِينَ اخْتَلَطُوا بِالْبَدْوِ
أَوْ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ حَضْرَمَوْتِ
يَكْفُرُ بِالرَّمَاكِ وَالسُّيُوفِ
إِذْ أَخَذُوا بِقَوْلِهِ وَفَعَلِهِ
وَخَالَفُوا جَدَّهُمْ بَاعِلُوي
وَصَارَ عُوا الدَّهْرَ بِخَوْفٍ وَيَمُوتُ (١)

(١) الفقيه المقدم هو أشهر وأكبر شخصية في آل باعلوي علماً وعملاً، فقيه صوفي محدث، ولد في مدينة تريم سنة ٥٧٤هـ وأخذ العلم عن كبار أهله في زمانه ومكانه فتفقه على أستاذه عبد الله بن عبد الرحمن باعبيد وعلي القاضي أحمد ابن محمد باعيسى، وأخذ الأصول والعلوم العقلية عن الشيخ علي بن أحمد بامروان والإمام محمد بن أحمد بن أبي الحب، والتفسير والحديث عن الحافظ المفسر السيد علي بن محمد باجديد، كما تصوف وأخذ الحقيقة عن السيد سالم بن بصري والشيخ محمد بن علي الخطيب وعن عمه السيد علوي بن صاحب مرباط وعن الشيخ سفيان بن عبد الله اليميني اللحجي المنسوبة إليه قرية سفيان، وكانت بين الفقيه المقدم والشيخ سفيان المذكور صلات ومراسلات مذكورة في كتب تراجم القوم وتعلمد لغير هؤلاء في مختلف العلوم حتى صار مجتهداً أو صالحاً للإجتهد، طويل الباع في الحديث والتحديث وبلغ اللسان في علوم العربية من النحو والصرف والمعاني والبيان، وإليه ينسب معظم السادة ممن جاء بعده وبعضهم ينسب إلى عمه وأستاذه علوي بن صاحب مرباط، ولكثرة علمه وتفوقه على أقرابه لقب بالفقيه المقدم، وكان مع كثرة فقهه وتمسكه بأحكام الشريعة صوفياً عابداً زاهداً صواماً قواماً ويشبهونه بأبي حامد الغزالي وأبي القاسم الجنيد، وتوفي رحمه الله في سنة ٦٥٣هـ، وعمره تسع وسبعون سنة، ولما كان عليه من التصوف والبعد عن الفتن فقد كان يكره سفك الدماء ويكره الإعتداء كله على سائر الناس، ولهذا كسر سيفه حقيقة أو مجازاً ليجنب أهله وذويه مظاهر الشر وليفهمهم المراد من قول النبي صلى الله عليه وسلم «لا يشر أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزع في يده فيوقعه في حفرة من النار» والذي أراه أن الفقيه المقدم لم يكسر السيف ويكره حمل السلاح إلا حين تبين له قول الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم «إن الشيطان قد يشس أن يعبد في جزيرة العرب ولكنه التحريش» وحيث لم يبق كفر ولا شرك وخاصة في البلاد الحضرمية فإنه لم ير حاجة لحمل السلاح، وقد وافقه على ذلك أبناؤه إلى اليوم ولم يحملوا سيفاً ولا بندقية ولا سلاحاً آخر، إلا الخارجين منهم عن حضرموت، والمهاجرين إلى بلاد أخرى من الذين قد يضطروهم الحال إلى الدفاع عن أنفسهم وكرامتهم وخاصة منهم =

وَمِنْ مَشَاهِيرِ بُيُوتِ السَّادَةِ فِي الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ وَفِي الْقِيَادَةِ
 آلُ أَبِي بَكْرٍ بْنِ سَالِمٍ وَأَنَّ
 وَالْعَيْنِدْرُوسَ وَتَوْشِهَابَ
 وَكُلُّهُمْ ذُرِّيَةُ الْوَجِيهِ
 كَالشَّاطِرِيِّ أَبُوهُ أَسَدُ اللَّهِ
 وَلَبَنِي الْحَدَّادِ قَدْرٌ سَامِي
 وَهُمْ عَلَى تَرِيمٍ كَالْأَبْوَابِ
 وَغَيْرُهُمْ مِنْ جَدِّهِ الْفَقِيهِ
 وَمِنْهُمْ أَسَاتِذُنَا عَبْدُ اللَّهِ
 وَكُلُّهُمْ كَالدَّرِّ فِي النِّظَامِ (١)

= المختلطين بالبدو وأجلاف الأعراب وقد يتمثل أحد هؤلاء بقول الشاعر:

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لم يظلم الناس يظلم
 أو بقول الآخر:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

ومن هذا الفريق السادة المحاضير المقيمين في بلاد مرخة وبيحان فإنهم يحملون السلاح ويقاتلون معتدين ومعتدى عليهم، والله المستعان.

(١) تفرعت من الفقيه المقدم فروع كثيرة وأثمرت تلك الفروع ثماراً جنية طيبة، وكان له خمسة أولاد انتشرت ذراتهم في طول البلاد وعرضها وسهلها وجبلها لا في حضرموت وحدها بل منهم الكثيرون في أندونيسيا والملايو وبورما والسيام وفي عدة نواحي من الهند أشهرها حيدر أباد وفي أفريقيا من أولاد الفقيه ما لا يحصى كثرة، وذلك فضلاً عن الموجودين في الحجاز واليمن وفي أقاليم وأقطار أخرى، ومن أشهر السادة في الفضل والعلم والعبادة والقيادة آل الشيخ أبي بكر بن سالم بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن السقاف وجيه الدين بن مولى الدويلة محمد بن علي بن علوي بن الفقيه، وللشيخ أبي بكر عدة أولاد وأكثرهم عقبا وطيب نسل عمر المحضار الذي ينسب إليه السادة المحاضير بدوعن وحبان ومرخة وبيحان، ومن حامد والحسين وهم متفرقون في حضرموت ودوعن ويافع والبيضاء، وتجتمع أنساب المحاضير بمرخة وبيحان وهم آل الحاج وآل شيخ وآل حسن وآل درعان وآل الإمام وآل دباش يجتمعون كلهم في محسن بن حسين بن محسن بن حسين بن محمد بن علي بن عمر الملقب بالمحضار بن الشيخ أبي بكر. هكذا قال لي بعض زملائي منهم، وللشيخ أبي بكر أيضاً أخ كريم وأسمه عقيل =

= ومنه السادة آل العطاس في حريضة والمشهد وما حواليهما، ولأهل هذين البيتين بيت أبي بكر وعقيل وجاهة وتقدير عند البدو وفي قبائل الجنوب عامة، أما بنو العيدروس وبنو شهاب فهم أولاد الشيخ أبي بكر السكران بن عبد الرحمن السقاف، والعيدروس هو عبد الله وله أربعة أولاد أبو بكر العدني وعلوي وأحمد وحسين وشيخ أما أخوه الشيخ علي فهو جد آل شهاب، ولبيت العيدروس وبنو شهاب الدين أحمد بن علي بن أبي بكر بن عبد الرحمن السقاف مكانة عالية ورتبة سامية في أهل تريم وهم على بلدتهم كالأبواب التي يطرقتها كل قاصد ويدخلها كل وافد، والمتناسلون من آل العيدروس في عدن هم أولاد عبد الله بن علوي بن العيدروس، وأمهم مزنة بنت أبي بكر العدني بن العيدروس، وهذه الأربعة البيوت آل العيدروس وآل شهاب وآل الشيخ أبي بكر وآل عقيل بن سالم جميعها من وجيه الدين السقاف وله نسل كثير غيرهم، ومن آل باعلوي غير بني السقاف آخرون تجتمع أنسابهم في الفقيه المقدم من آل مولى الدويلة، وآل بالفقيه وفدعق وخرذ والحبشي والشاطري والجفري والكاف وغيرهم، أما الشاطري فهو علوي بن الفقيه علي ابن القاضي أحمد بن محمد أسد الله بن حسن الترابي بن علي بن الفقيه المقدم وشيخنا المعني هو أستاذنا وقدوتنا عبد الله بن عمر بن أحمد بن عمر بن أحمد بن علي بن حسين بن محمد بن أحمد بن عمر بن علوي الشاطري رحمه الله، وقد تتلمذت له من آخر سنة ١٣٣٩ هـ إلى منتصف سنة ١٣٤٤ هـ، ومن قصيدة قلبها فيه هذه الأبيات:

هو الشاطري العالم العامل الذي	تعلمت من تقريره الشرح والمتنا
إذا ما بكت عيني عليه لآثماً	فذلك مما كان يحشوبه الأذنا
قضى زمناً في خدمة العلم رافعاً	بناء رباط لا يشابهه مبنى
وأي غريب جاءه فهو واجد	به العلم والقوت الضروري والسكنى

وبنو الحداد عائلة علوية وفيهم العلم والفضل وأصلهم في تريم وبعضهم قد ارتحل إلى قيدون في دوعن وإلى نصاب في بلاد العوالمق، ومن آل الحداد الإمام العالم الرباني الصوفي الواعظ بشعره ونثره وصاحب المؤلفات المفيدة عبد الله بن علوي بن محمد بن أحمد ابن عبد الله بن محمد الحداد بن علوي بن أحمد بن أبي بكر بن أحمد بن علي بن محمد بن أحمد مسرفة بن محمد بن عبد الله بن الفقيه أحمد بن عبد الرحمن بن علوي بن محمد صاحب مرباط، فهم من عم الفقيه المتقدم ذكره، ومن أهل هذا البيت السيد العلامة المؤرخ الكبير علوي بن طاهر بن عبد الله بن طه الحداد وقد تتلمذت له في عدن وأخذت عنه من أول صحيح البخاري وأجازني في جماعة العلماء بالحديث المسلسل بالأولية، =

وَقَدْ تَفَرَّقُوا بِكُلِّ أَرْضٍ

وَسَفَلَتْ بَعْضُهُمُ الْحَيَاةُ

وَسَكَنُوا فِي طُولِهَا وَالْعَرَضِ

وَبَعْدَ الْأَحْيَاءِ عَمَّنْ مَاتُوا (١)

= «الراحمون يرحمهم الرحمن» وكان ذلك في منزلي بجوار مسجد العسقلاني ولله الحمد، وهو الواسطة بيني وبين السيد عيدروس بن عمر الحبشي صاحب الأسانيد في علم الحديث رحم الله الجميع، ونسأله تعالى أن يجمعنا بهم في مستقر الرحمة ودار الكرامة آمين.

(١) فرقت السادة آل باعلوي ضروريات الحياة فأصبحوا من سكان كل ربع من المهاجرين إلى كل صقع وصرفهم ذلك عما كان عليه أسلافهم الأطايب من العلم والعبادة وبعد الفرق بين السابق واللاحق والتابع والمتبوع، وما تزال فيهم بقية من كل خير، ولكن البون شاسع والفرق واسع بين من شغلته آخرته عن دنياه ومن اشتغل بدنياه عن آخرته ((والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من كل شيء كل امرئ بما كسب رهين)).

دول ودويلات

لَقَدْ عَلِمْتَ كَيْفَ كَانَ الْحَالُ
وَإِنَّ حَضْرَمَوْتَ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ
يَرَأُسُهَا فِي أَهْلِهَا السَّادَاتُ
وَفِي زَمَانِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ
إِلَّا الَّذِي أَصَابَهُمْ فِي الرِّدَّةِ
حَتَّى أَتَى الْخَوَارِجُ الَّذِينَ
وَمِنْهُمْ الدُّعَاءُ وَالْعُمَالُ
كَغَيْرِهَا فِي كُلِّ قَطْرِ عَرَبِي
وَالْحَكْمُ الْقُرْآنُ وَالْعَادَاتُ
كَأْتُوا جَمِيعاً سَامِعِينَ طَائِعِينَ
وَبَعْدَهَا تَرَاوَعُوا لِلْوَحْدَةِ
عَدُّوا الْخِلَافَ طَاعَةَ وَدِينَا (١)

(١) علمت ما كان في حضرموت من أمر الدعوة إلى الإسلام وعمال النبي عليه الصلاة والسلام من الوفود الذين قدموا عليه أو الصحابة الآخرين الذين كانوا يذهبون للتعليم وجباية الصدقات، ومن أشهرهم زياد بن ليبيد الأنصاري، ومر بك طرف من أخباره، وشأن حضرموت في العهد القديم كغيرها من بلاد العرب يحكمها أهلها ويعاونون من جاءهم مبعوثاً من النبي صلى الله عليه وسلم في أية مهمة في نجد وعمان وما بينها وفي اليمن كلها ومنها حضرموت، وليس يومئذ للناس دستور منظم ولا قوانين مسجلة إلا ما يعلمونه من نصوص الكتاب والسنة أو ما ظهرت معانيه أو ترجح فهم تأويله، والعادات التي لا تخالف أحكام الإسلام في الحلال والحرام محكمة بين الناس وهم يرجعون فيها إلى العرف والعادة ويحكم بها الرؤساء من أهل العلم وأولي الرأي الصائب عندهم، وأهل حضرموت من الحميريين والكنديين كانوا جميعهم على غاية من السمع والطاعة للخلفاء الراشدين ولمن بعدهم من خلفاء بني أمية إلا ما كان منهم أيام الردة في عهد أبي بكر رضي الله عنه وقد عاودوا الطاعة ورجعوا إلى الإسلام بعد ما أصابهم من القتل والجرح والأسر وذلك شيء قد أصاب أبناء الجزيرة العربية معظمهم واستمروا كذلك حتى جاءت الأباضية أصحاب عبد الله بن يحيى، وعلى مذهب الخوارج كانت حضرموت إلى أن استولت عليهم دولة بني زياد، والخوارج لا يتعبدون بشيء بعد الصلاة أعظم ولا أفضل من الجهاد وهو عندهم واجب لمن يخالف مذهبهم ولا =

وبعدهم جاء بئوزياد
واليعفريون ملوك صنعا
وللضليحين والزُرْنَمِي
ولأبي إسحاق الهَمَداني
والزنجبيلي لبني أيوب
مع ابن راشد أمير الوادي

ثُمَّ مَوَالِيهِمْ إِلَى الْبِلَادِ
مَدُّوا لَهُمْ فِي حَضْرَمَوْتَ قَرَعَا
عَقْدُ شِرَاءٍ نَافِذٍ وَبَيْعِ
حَرْبٍ مَعَ الْمَعْكَرِ الْيَمَانِي
أَصَابَ حَضْرَمَوْتَ بِالخَطُوبِ
وَمَعَ كُلِّ رَايِحٍ وَغَادِي (١)

= ولاية عندهم لظالم ولا فاسق وكما يقولون لا حاكم إلا الله ومهما يكن لهم من رئيس أو قائد فهو غير مطاع إلا في جماعته الموافقين له في رأيه والقائلين بقوله، وما كثرت فيهم الفرق وتخالفت بهم الأهواء من أباضية أزارقة إلى صفرية إلا لعدم طاعتهم للخليفة ودخولهم في الطاعة العامة وفي تسميتهم بالخوارج ما يدل على خروجهم عن جماعة المسلمين، ومما يساعد على وجودهم في حضرموت وبقائهم بها مدة طويلة بعد البلاد عن مقر الخلافة مع صعوبة المواصلات وليس للخلفاء دخل كبير من حضرموت يساعد على نفقات الجيوش المرسله إليها فلا مشركين تؤخذ منهم الغنائم ولا يهود ولا نصارى تؤخذ منهم الجزية ولا أغنياء كبار من المسلمين تؤخذ منهم الزكاة وإنما أهلها مسلمون فقراء وطبيعة البلاد تساعد على الأمن والاستقرار ثم على السمع والطاعة للقوي أياً كان.

(١) لم يقف الحال بالأباضية عند مجيء بني زياد ولكنهم ضعفوا واستقام للزياديين سلطانهم المباشر أو غير المباشر في حضرموت من عهد محمد بن عبد الله الزياتي أول من حكم اليمن في سنة ٢٠٣هـ إلى أول عهد أبي الجيش بن إبراهيم وربما ضعف سلطانهم آخر أيام المذكور، واستعاد ما ذهب من هيبتهم وما خرج عليهم من أطراف البلاد مولاهم حسين بن سلامة النوبي وهو الذي أصلح البلاد وقمع الفساد وأكثر من المنشآت الإصلاحية في حضرموت وغيرها، ودام على ملكه وخدمته لبني زياد إلى سنة ٤٠٧هـ، أما اليعفريون فقد وصل حكمهم إلى حضرموت في المنتصف الثاني من القرن الثالث أيام محمد بن يعفر بن عبد الرحمن الذي أخذ البيعة للخليفة المعتمد من أهل اليمن فولاه عليهم وصانع بني زياد الذين كانوا أعز جانباً وأوسع منه نفوذاً ولكنه بعدما جاءته تولية الخليفة استولى على كثير من الخالييف اليمنية ومنها حضرموت واستتاب عليها صاحب شبام (الهزيلي) والصليحيون والزريعون استولوا كذلك على حضرموت فكان بنو معن وهم ملوك عدن نواباً لعلي بن محمد الصليحي وهو الذي قاومه في حضرموت أبو إسحق إبراهيم =

وَقَامَ فِيهَا سَالِمُ الْحَبْوَظِيِّ وَهُوَ الَّذِي غَيَّرَ مَاءَ الْحَوْضِ
 مَعَ بَنِي الرَّسُولِ وَالْمُظْفِرِ قَدْ انْتَهَى عَلَى يَدَيْهِ الْمَظْهَرُ
 لَمَّا رَأَاهُ خَالَفَ الطَّرِيقَةَ وَأَخَذَ السَّفِينَةَ الْغَرِيبَةَ
 وَحَاوَلَ الْغَزْوَ إِلَى ثَغْرِ عَدَنَ وَابْنُ الرَّسُولِ كَانَ لَا يَبْغِي الْفِتْنَ
 وَكَانَ قَدْ خَاطَبَهُ بِاللُّطْفِ وَالرَّدُّ كَانَ بِأَشَدِّ الْعُنْفِ
 فَأَقْبَلَ الْجَيْشُ مِنَ الْغَسَانِي مِنَ الْمَشَاةِ وَمِنْ الْفَرَسَانِ
 وَمَعَهُمْ مَرَاقِبُ بَحْرِيَّةَ تَسِيرُ سَيْرَ الْقُوَّةِ الْبَرِّيَّةِ

= بن قيس بن سليمان الهمداني الحضرمي الأباضي، وكان عالماً أديباً شاعراً شجاعاً محارباً وله ديوان شعر مطبوع ويشتمل على تاريخ حياته وحروبه، ويقول علماء التاريخ الحضارمة إنها لا توجد مصادر موثوق بها عن تاريخ أبي إسحق إلا ما يدل عليه شعره ويشتمل عليه ديوانه، وكان يستمد القوة من إمام عمان الخليل بن شاذان الأباضي ومن الأئمة بعده، ولقد وفد عليهم مراراً واستنجد بهم ولم يقصروا في معاونته مادياً وأديباً ومات له ولدان في حياته وقد أحسن تأديبها وكمل تذهيبها وهما محمد وأبو الحسن وشق عليه فقدهما، أما هو فالظاهر أن وفاته كانت آخر العقد السادس من القرن الخامس وقصيدته المشتملة على وصيته كانت في سنة ٤٥٤ هـ، ولكن محاربتة للصليحي الذي لم تصل دولته إلى حضرموت إلا في السنة التي بعدها تدل دلالة واضحة على أن وفاته كانت بعد ذلك، والزرعيون الذين دام ملكهم إلى سنة ٥١٩ هـ وانتهى أمرهم وأمر مواليتهم على يد طوران بن أيوب كان لهم سلطان على حضرموت إلا أنه ضعيف ويعاصرهم فارس بن فهد بن أحمد بن قحطان الحميري ثم ابن أخيه راشد بن شجعنة وهو الذي تنسب إليه دولة آل راشد، وأطيهم ذكراً وأجهم إلى أهل حضرموت هو السلطان عبد الله بن راشد الذي يقال إنه حفظ القرآن في صغره وطلب العلم واشتغل به على كبار أهله فقد قرأ صحيح البخاري على الإمام محمد بن أبي النعمان الهجراني وسمع علي ضياء الدين المقدسي وابن عساكر وابن أبي الصيف اليمني وغيرهم وإليه ينسب الوادي ويقال وادي (ابن راشد) وله ولأهله مع الزنجبيلي ما قد علمت في سنتي خمس وست بعد السبعين والخمسمئة، ومحنة حضرموت على يد الزنجبيلي عامل بني أيوب كانت من أعظم المحن لا مع الدولة ولكنها معهم ومع العلماء ومع كل غاد ورائح، وللباطل جولة ثم يضمحل والنصر مع الصبر والفرج مع الكرب، وفي الحديث الشريف «وإن مع العسر يسراً».

يُخَمَلُ فِيهَا الْقَوْتُ وَالْعَتَادُ وَكُلُّ مَا تَحْتَاجُهُ الْأَجْنَادُ (١)
وَتَحَوَّ حَضْرَمَوْتَ سَارَتْ قُوَّة لِكِنَّهَا قَدْ وَقَعَتْ فِي الْهُوَّة

(١) الجبوظي هو الأمير سالم بن إدريس بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد الجبوظي أصله من مرباط وجده الثالث محمد بن أحمد كان عاملاً للسلطان محمد بن أحمد الأكلح ومتولياً لبعض شؤونه المالية ومات أمير مرباط وليس له من أهله من يقوم مقامه فأخذ محمد الجبوظي يمهّد لإمارة أبنائه، وبعده قام ابنه السلطان أحمد وهو الذي بنى مدينة ظفار الجديدة وأمر الناس بالتحول إليها من مرباط سنة ٦٢٥هـ آخر دولة بني أيوب وابتداء الدولة الغسانية في اليمن وتسلسلت الإمارة أو السلطنة في أبنائه محمد ثم إدريس بن محمد ثم سالم بن إدريس بن محمد وسالم هذا الذي استولى على حضرموت واشترى مدينة شبام أول ما يكون في سنة ٦٧٣ واتخذها مقراً ومد فيه سلطانه على بقية المدن الحضرمية وقراها واستولى على سيئون ودمون والعجز والغيل وما بين ذلك، وحاول دخول تريم وحاصرها مدة طويلة ولم يقدر عليها وقد أصاب أهلها من اللأوى والبؤس أشدها وتركت عندهم الجمعة أيام الحصار ولما يئس منها رجع إلى شبام حيث كان خليفته عليها أخاه موسى بن إدريس ثم كر راجعاً إلى ظفار واستتاب على حضرموت بعض القبائل آل كثير وكانوا يفكرون في إقامة سلطنة لهم على البلاد وقد رأوا ما فيها من كثرة الاختلافات وتفرقت القبائل فاستغلوا فرصة النيابة عن الجبوظي واستعدوا لما يفكرون فيه وقد أصاب البلاد في تلك الأيام شيء من القحط والجذب فقلت الأمطار وارتفعت الأسعار وذهب الناس يشكون ما أصابهم إلى الأمير سالم الجبوظي وباعه الكثير منهم حصونهم وديارهم وظن أنه قد تم له الأمر على حضرموت ولكنها ما فرجت عنهم الشدة وزال البأس إلا وقد استرجعوا حصونهم وعرفوا أن الجبوظي لا يقدر على شيء إزاء ما فعلوه فندم على ما فات ولم تكن له قوة يخضع بها المتمردون ويسيطر بها على حفظ ممتلكاته المشتراة بالثمن أو المأخوذة بالغلبة والقوة وفكر بعد ذلك في غزو الشحر من ظفار وقد فر عنها راشد بن شجعنة واحتلها الغز فجاء بقوته وخرجوا لمواجهة فانهزم ورجع مدحوراً مغلوباً، ومن الصدف أن الملك المظفر الغساني ملك اليمن قد بعث بسفينة مشحونة بالتحف والهدايا لملك فارس فالت بها الرياح وألقت بها إلى ساحل ظفار وأخذ الجبوظي السفينة وما فيها واستولى كما قيل على الجمل وما حل، وكتب إليه المظفر يلومه على قطع الطرق ويذكره ما كان بينه وبين أبيه الأمير إدريس من الصلة وحسن الجوار ويخوفه باسترجاع ما أخذ سلماً أو حرباً ويذكره الآية الشريفة ((وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر =

وَابْنُ كَثِيرٍ يَخْجُمُونَ الْوَادِي
وَالْآخَرُونَ السُّلْطَةَ الْدِينِيَّةَ
أَسَسَ بَا عَبَادَ دَارَ الْغُرْفَةِ
مَنْ بَعْدَ خَمْسِينَ وَسِتِّمِئَةَ
يَوْمَيْدٍ لِكَيْ تُعِزَّ وَظَنَّةُ
فِي عَقْدِ تَاسِعِ الْقُرُونِ الثَّانِي
قَامَتْ بِهِ الدَّوْلَةُ وَاسْمُهُ عَلَى
عَنْ حَضْرَمَوْتَ فِي نَهَايَةِ الْخَبَرِ

وَأَلْ بَاعِلَوِي وَبَا عَبَادِ
هَذَا بِقُوَّةٍ وَحُسْنِ نِيَّةٍ
وَعَامٍ وَاحِدٍ وَسِبْعِمِئَةَ
وَعَيْلُ بَا وَزِيرَ عَامِ السِّتَّةِ
وَلَمْ تَكُنْ لِابْنِ كَثِيرٍ سُلْطَنَةٌ
وَإِنَّمَا لُقِّبَ بِالسُّلْطَانِ
وَهُوَ ابْنُ عَمْرَبْنِ جَعْفَرَ الَّذِي
وَسَوْفَ يَأْتِي ذِكْرُ أَشْيَاءَ أُخْرَى

= ومن المؤسف أن أوقافاً كثيرة للمحسنين في حضرموت وغيرها قد ذهبت أدراج الرياح وعبثت بها أيدي النظار وربما ذهبت معها سجلات الأوقاف ونصوص الواقفين والظاهر أن أوقاف الحبوطي في الحكومة القعيطية الجالية معروفة محفوظة والله أعلم، وبعدها زالت هذه الدولة أو الدويلة بقي المظفر الرسولي هو الملك المطلق والحاكم في حضرموت حتى زال آخر ملك من أبنائه المسعود في أوساط القرن التاسع والظاهر أن ذلك في آخر العقد الخامس أو في أول السادس، وسيأتي بيان أخبار دولة بني الرسول وكيف بدأت وكيف انتهت، والله عاقبة الأمور.

(١) بعد مقتل الحبوطي ودخول الجيوش المظفرية إلى شبام في رمضان عام ثمانية وسبعين وستمئة ناب الأمير محمد بن محمد بن ناجي اليمنى على حضرموت للمظفر ودامت لهم هذه الولاية إلى أن انقرضت دولة بني الرسول في القرن التاسع إلا أنها تضعف وتقوى وحيناً تظهر في مكان وأحياناً في أماكن أخرى، وتشبه آل كثير بما في أيديهم من أملاك الحبوطي وأخذوا يقوون الصلة بينهم وبين السادة آل باعلوي وآخرين من مشايخ البلاد كآل باعباد ومشاهير أهل العلم والفضل في تريم وغيرها ويرون أنه لا بد من سلطان تكون له قوة تحفظ الحقوق وتقام بها الحدود وتنفذ بها الأحكام لأن مركز الدولة الرسولية في عاصمتهم تعزيبعد كثيراً عن حضرموت وليس لهم ولاية ولا عمال أقوياء وإنما الأمر فوضى والطرق مقطوعة وقبائل البدو أجلاف وفساق ولا يرقبون في ضعيف إلا ولا ذمة، واقتضت الحاجة إنشاء محلات تسكن فيها العائلات الكريمة فالشيخ عمر باوزير ينشئ في مدينة الغيل عام ٦٥٦ هـ وهي عامرة اليوم وله بها ذرية طيبة وآثارٌ صالحة ولئن كانت =

المدينة قد نشأت قبل مجيء الملك المظفر إلى حضرموت فإن الحاجة كانت داعية إليها إما لتباعد المشايخ آل باوزير عن ضجة الشحر واختلال الأمن فيما جاور تلك البلاد وإما ليجعلوها مقراً للعلم والتعليم ودار إقامة للفقهاء والمتصوفين وأنشأ الشيخ محمد بن عمر والد القديم عبد الله بن محمد باعباد مدينة الغرفة المعروفة بغرفة باعباد وهي إلى سيئون أقرب منها إلى شبام، وكان بدء عمارتها في سنة ٧٠١هـ وربما يكون الغرض من عمارة الغرفة مثل ما قلناه في عمارة الغيل والحالة أشد مما كانت عليه في زمان الشيخ عمر باوزير وكانت صلة الشيخ باعباد قوية بآل كثير كما كانت كذلك بينهم وبين السادة آل باعلوي هؤلاء بالقوة الحسية والسلاح وهؤلاء بالقوة الروحية والنفوذ الديني والدعاية القوية لآل كثير الذين تغلبوا على معظم المدن والقرى ولم يبق عليهم إلا (بور) وسكانها من آل بانجار وقد غلبوا مؤخراً وقتل منهم عدد كبير ودخلت بور في طاعة آل كثير واستمروا كذلك يتوسعون في الحكم ويتغلبون على غيرهم ويحسنون إلى رجال الدين ويستجيبون لهم طلباتهم ويقبلون شفاعاتهم، وفي سنة ٨١٤هـ غادر السلطان علي بن عمر بن جعفر بن بدر بن محمد بن علي بن عمر بن كثير مسقط رأسه في بور، واتصل بالمشايخ آل باعباد وغيرهم من أهل الصلاح ووعده بالخير وبثوا له الدعاية وجمع أهله وقبيلته فغزا بهم العصاة وأخضع المدن والقرى لسلطانه واستولى على ظفار ولقب بالسلطان، وحول الحالة في آل كثير من قبائل أشداء إلى سلطنة ودولة باقية في جزر ومد إلى اليوم، ودام الملك لآل كثير في ظفار إلى سنة ١١٣٠هـ، وتوفي المؤسس الأول وهو سلطان علي بن عمر في سنة ٨٢٥هـ وكان معاصراً للملك الناصر أحمد بن الأشرف الرسولي ملك اليمن، وإنما قلت إنه لقب بالسلطان في العقد الثاني من القرن التاسع لأن ظهوره كان في مدة إحدى عشرة سنة وهي ما بين أربع عشر وخمس وعشرين من ذلك القرن، والذي قلت إنه سيأتي من أخبار حضرموت في نهاية المنظومة كان عزمًا على التوسع في ذلك بعد ظهور الدولة القعيطية وتدخل الإنجليز بالمعاهدات والحماية على حضرموت كلها، وقد عدلت عما نويت جمعه وتلخيصه لئلا يطول بنا الكلام ولأن المعاصرين من علماء حضرموت ومؤرخيها قد وفوا المقام حقه وأتوا بخير وأفضل مما كنت أريد المجيء به وأثناء كتابة هذا الفصل لم يكن عندي من المصادر أسهل ولا أقرب من أدوار التاريخ الحضرمي للسيد العلامة محمد الشاطري وصفحات من تاريخ حضرموت للشيخ سعيد بن عوض باوزير الذي تبسط في تاريخ أهله وذكر منه طرفاً صالحاً وأتمنى وأرجو أن يطلع على هذه الأمنية فيذكر العائلتين آل عبد اللطيف وآل عبد العليم من آل =

دولة بني رسول الغساني

جاء بئز أئوب والرسل
 وكان أولاد علي بن الرسول
 ورد مئعود بن أئوب إلى
 واستخلف الرابع نور الدين
 وجدهم محمد بن هرون
 يرسله الملوك من بغداد
 وأضله الأوك من غسان
 وبعد ما مرت ثلاثون سنة
 نادى العظيم عمر المنصور
 وظل بين السلم والحروب
 فتارة يغزو إلى الحجاز
 وانتصر المنصور في المعارك
 وطلب النيابة الرسمية
 وخطبوا له على المنابر

ففي جيش طوران مع الدخول
 أربعة وكلهم من الفحول
 مضر ثلاثة مخافة البلا
 لما رآه أسد العرب
 كان رسولا ثقة وقأمون
 لمضر والعكس بالاعتماد
 وقيل لا بل هو تركماني
 وستمئة كأنها سنة
 بالملك إذ تمت له الأمور
 مع الملوك من بني أئوب
 وتارة يهزم هذا الغازي
 وصار بعد واسع الممالك
 من صاحب الخلافة الاشمية
 في حضرموت والحجاز الطاهر

= باوزير وهم الموجودون في بيحان ولا يقل عددهم عن ثلاثمئة وخسين نفساً إن لم يكونوا
 أكثر وكيف وصلوا إلى بيحان ومنهم والده المؤلف بنت الشيخ عبد الله بن أحمد بن سالم
 ابن بخيت بن يوسف بن عبد العليم ويقال لهم آل العليمي وهم بيت علم وصلاح
 وحسن استقامة، وبالله التوفيق.

وَضَرَبَ الْعَمَلَةَ عَامَ الْأَرْبَعِينَ وَغَمَلَةَ أُخْرَى بَسِطٌ وَأَرْبَعِينَ (١)

(١) بنو رسول هم أولاد صاحب هذا اللقب واسمه محمد بن هارون بن أبي الفتح ابن يوحى بن رستم من ذرية جبلة بن الأيهم بن الحارث بن ثعلبة بن عمر بن جفنة بن عمرو مزريقاء بن عامر ماء السماء بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الفوث بن نبث بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان فهو القحطاني ثم الكهلاني ثم الغساني، ويقال إنهم ليسوا عرباً البتة وإنما هم تركمانيون والله أعلم، والمنسوب إليه هذه الدولة محمد بن هارون الذي لقب برسول لأنه كان يحمل الرسائل من الخليفة الناصر العباسي من بغداد إلى صاحب مصر وبالعكس، وهو ذكي فطن ويعتمد عليه في حل الرسائل والكتب السرية حتى قربه الخليفة واصطفاه واختاره لهذه المهمة وأصبح معروفاً بها، وولده علي هو الذي خرج مع السلطان طوران شاه بن أيوب إلى اليمن ومعه أولاده الأربعة بدر الدين الحسن ونور الدين عمر وفخر الدين أبو بكر وشرف الدين موسى، فأما نور الدين عمر بن علي بن رسول فهو الذي أسس الدولة وتلقب بالمنصور وكان آخر ملوك الأيوبيين في اليمن كما علمت هو المسعود بن العادل الذي قبض على الثلاثة من أولاد علي بن رسول وبعث بهم إلى مصر خشية أن يتمردوا عليه وقلبوه على الحكم وهم الحسن وأبو بكر وموسى واستعان بالرايع وهو عمر فكان يوليه وينبئه عنه حتى إنه استخلفه على اليمن حين ذهب راجعاً إلى مصر، ومات في الحجاز بداء الفالج فقام عمر بن علي بن رسول بالأمر لنفسه واستولى على اليمن وظل مع الأيوبيين في حرب مستمرة يدخل مكة حيناً ويطرده عنها الملك الكامل حيناً آخر من سنة ٢٦ إلى ٦٣٩هـ، وفي سنة ٦٣٠هـ تم له الملك في اليمن كله من حضرموت إلى مكة وخرج عنها بعد ذلك وعاد إليها في سنة ٦٣٥هـ بجيشه فاتحاً واستناب عليها وهو راجع إلى اليمن ابن الوليد وابن التعزي ثم أخرج أيضاً في ٦٣٨هـ وعاد إليها في السنة التي تليها، واستمر ملكه إلى سنة ٦٤٧هـ وهي آخر حياته وكان قد بعث بالهدايا إلى الخليفة العباسي وطلب منه النيابة على اليمن فجاءه الشريف بذلك بجرأ من طريق البصرة فأصبح الملك المطلق يدعى له على المنابر وتضرب السكة على اسمه وقد ظفرت بقطعتين من تلك العملة إحداها مضروبة في سنة ٦٤٠هـ ولا أدري أيتهما ضربت في عدن وصنعاء، والقطعتان موجودتان في بيت المشايخ آل سالم علي عبد الله، والكتابة عليهما لا تقرأ إلا بالة مجسمة وأظن كثيراً من قطع النقود المستعملة في اليمن قديماً توجد اليوم في دار الآثار العدنية وربما تكون منها هذه العملة المنصورية.

وَكَمْ لَهُ مِنْ مَسْجِدٍ مَعْمُورٍ
 وَبَيْنَا كَانَ بِقَصْرِ الْجُنْدِ
 فِي شَهْرِ ذِي الْقَعْدَةِ يَوْمَ سَبْعَةِ
 وَقِيلَ إِنَّ الْاِغْتِيَالَ ذُبْرًا
 وَمُلْكُهُ عَشْرُونَ وَأَثْنَتَانِ
 ثَلَاثَةَ أَوْلَادِهِ الْمُصَدِّزُ
 وَكَانَ فِي الْمَهْجَمِ يَوْمَ قُتِلَا
 فَاسْتَلَمَ الْأُمُورَ وَاسْتَمْرَا
 وَبَعْدَ مَا دَانَتْ لَهُ زَبِيدُ
 وَسَارَ فِي جَيْشِ كَبْخَرِ لُجِّي
 وَسَلَّمَتْ لَهُ بِلَادُ الْجَحْفَلِ
 وَذَلِكَ فِي الْخَامِسِ وَالسِّتِينَ
 بِنَفْسِهِ الْمُظْفَرَ الرَّسُولِي

وَكَمْ لَهُ مِنْ مَفْهَدٍ مَنصُورٍ
 قَتَلَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَغْبِدِ
 فِي عَامِ أَرْبَعِينَ قَبْلَ سَبْعَةِ
 مَنْ أَسَدِ الدِّينِ وَكَانَ مُذْبِرًا
 مِنْ سَتَوَاتِ الْمَلِكِ لِلْغَسَانِي (١)
 لِلْمَلِكِ مِنْهُمْ يُوسُفُ الْمُظْفَرُ
 أَبُوهُ ثُمَّ عَادَ مِنْهَا عَجِلا
 سَبْعًا وَأَرْبَعِينَ وَاسْتَقْرَا
 دَانَ لَهُ الْقَرِيبُ وَالْبَعِيدُ
 لِيَقْدَنَ وَأَبْنَ وَالْخُجِ
 تَحْتَ غُبَارِ نَقْعِهَا وَالْقَسْطَلِ
 وَجَاءَ فِي الثَّامِنِ وَالسَّبْعِينَ
 إِلَى هُنَا يَهْتَمُّ بِالْأَسْطُولِ

(١) لا شيء يحفظ للعطاء الذكر الحسن مثل الآثار الدالة على ما لهم من الصدقات الجارية في بناء المساجد والمدارس وشق الطرق وإصلاح مجاري المياه وقد كان للملك المنصور مدينة تسمى باسمه المنصورية وله في زبيد المدرسة الشرقية المنصورية للشافعية والمدرسة الأخرى الغربية للحنفية وله المدرسة الغرابية نسبة إلى مدرستها الشيخ الغرابي في مدينة تعز والمدرسة الوزيرية نسبة إلى مدرستها الشيخ الوزيري بتعز أيضاً وله مدرسة عظيمة في مكة المكرمة ومدرسة في وادي سهام، وله مسجد النويرية بين زبيد وحيس وله بين مكة والمدينة حصون ومصانع للماء وأصلح مدينة برك الغمام بين القحمة وحلي بن يعقوب، وفي يوم السبت سابع ذي القعدة مساء من سنة ٦٤٧هـ، عدا عليه بعض عبيده وغلماناه فقتلوه وهو بقصره في الجند، ومدة ملكه اثنتان وعشرون سنة رحمه الله ويقال إن اغتياله كان بتدبير ابن أخيه أسد الدين محمد بن الحسن وكانت بينه وبين عمه جفوة وقطيعة وحاول أن يتملك بعده وحال المظفر بين ابن عمه أسد الدين وبين ما يريد، والملك لله يؤتبه من يشاء وينزعه ممن يشاء.

يَغْرُوبُهُ ظَفَارُ وَالشَّخَرُ وَقَدْ
أَمَّا حَلِيفَةُ الشَّرِيفِ رَاجِحُ
فَقَدْ أَعَادَ مَكَّةَ الْمُكْرَمَةَ
وَحَجَّ فِي التَّاسِعِ وَالْخَمْسِينَ
وَمَا رَأَى فِي النَّاسِ أَهْلُ مَكَّةَ
وَفِي جَمَادَى أَرْبَعٍ وَتَسْمِينِ
أَعْيَنِي بِهِ الْأَشْرَفَ وَاسْمُهُ عُثْمَرُ
وَمَاتَ فِي ثَالِثِ عَشَرَ رَمَضَانَ
وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ مِنْ مُحْسِنٍ

دَانَتْ لَهُ الْمُلُوكُ فِي تِلْكَ الْبَلَدِ
وَهَوَّلَهُ وَأَبِيهِ نَاصِحُ
إِلَيْهِ فِي حُكُومَةٍ مُنْتَظَمَةٍ
وَوَزَّعَ النَّفِيسَ وَالثَّمِينَا
مِثْلًا لَهُ مَنْ تَوَلَّى مُلْكَهُ
أَفْضَى بِعَهْدِهِ إِلَى خَيْرِ الْبَنِينَ
وَالشَّحَرَ وَوَلَاهُ الْمُؤْتَدُ الْأَعْرُ
مَنْ عَامِهِ وَكَانَ خَيْرَ إِنْسَانٍ
إِحْسَانَهُ فِي الدِّينِ وَالْتِمَادِ (١)

(١) خلف المنصور ثلاثة أولاد المظفر والمفضل والفائز ولكن المصدر منهم للملك والقائم به بعد أبيه هو الأول يوسف بن عمر سمع بقتل أبيه وهو يسردد من المهجم وبين والده شيء من الخلاف وقد أراد السفر إلى بغداد مقرهم الأول أو إلى مصر موطنهم الثاني وذلك مثل ما كان للمعز الأيوبي مع أبيه طغتكين، فعاد راجعاً إلى المملكة وجمع قوات كثيرة وقصد بها زبيداً المحاصرة بآبن عمه أسد الدين وبالمماليك الذين قتلوا والده المنصور وشعروا بقوته وخافوه واضطروا إلى الهرب والتفرق، وكتبه بعضهم في الغدر بأسد الدين محمد بن فخر الدين الحسن وفعلاً قبض عليه وعلى من ظفروا به من قتلة أبيه وتم له الملك على كل شيء وجاء أعمامه الثلاثة أبو بكر والحسن وموسى وأظهر لهم العز والتكريم ولكنه قبض عليهم بعد، وتركهم في سجن تعز حتى ماتوا، ودام ملكه على اليمن سبعاً وأربعين سنة من مقتل أبيه إلى رمضان عام أربعة وتسعين من القرن السابع، وفي سنة ٦٤٨ هـ ملك حصن حب وزحف على الثغر عدن ولحج وأبين واستولى عليها وكان سيره إليها من طريق الساحل وفي سنة ٦٤٩ أخذ حصن التعكر وفي ٥٠ الدمولة وصنعاء وفي ٥١ استرد جيشه الحجاز بمساعدة حليفه الشريف راجح بن قتادة، وولي على مكة ابن برطاس، وفي سنة ٦٥٢ هـ استولى على صعدة، وفي ٥٩ حج وسار معه الجيش والنفقات الكثيرة برأً وبحراً فشمّل الناس بالعطايا ووصل الحجاج في بره من سكان مكة وكسا الكعبة وقال الناس إنهم لم يروا مثله في بره وإحسانه وما قدم من الخيرات لأهل الحرمين، وطبيعياً أن يكون هذا أقل مما كان ينفقه الخلفاء العباسيون والفاطميون، وفي =

وهذه المآثر المشاهدة تُنبئك عن أخباره بالفائدة كجامع المظفر التعزي أكرم به من جامع للعز (١)

= سنة ٦٦٥ هـ احتلت قواته بلاد الجحافل (دثينه) وما حوالها وقتل كثير من الجحافل، وفي ٦٨ أو ٧٨ جاء المظفر إلى عدن بنفسه وأشرف على بناء الأسطول البحري الذي أعده لغزو ظفار ومحاربة السلطان الجبوتي، وقد تقدم ما كان من تفصيل تلك الحملة وكيف أسفرت عن زوال دولة الجبوتي واستيلاء المظفر على جميع ممتلكات ظفار وحضرموت الساحل والداخل ومما لا شك فيه أن هذا كله وقد وقع في سنة ٦٧٨ إلا أنه ربما جاء المظفر قبل ذلك إلى عدن لأشياء أخرى وقد يكون منها بناء الأسطول الذي لا بد منه لحماية عدن وسواحل اليمن، وفي سنة ٦٩١ هـ بعث بمحمل الحج وأرسل معه بالهدايا والتحف الكثيرة والهبات السنية والكسوة الثمينة للكعبة الشريفة واستقبل المحمل الشريف أبو نبي وكانت هديته المالية ثمانين ألف درهم وألف ومئتي عدة من الجيوب، وفي جمادى الأولى من سنة ٦٩٤ هـ ولي عهده ولده الأشرف الأول عمر بن يوسف المظفر وأشهد على ذلك جماعة من العلماء ورجال الدولة وفي ١٣ رمضان من تلك السنة انتقل إلى رحمة الله.

(١) للملك المظفر مآثر حسنة طيبة ما يزال بعضها مشاهداً وبعضها قد أتى عليه الزمان فذهبت ولم يذهب أجر العاملين، فن مآثره الجامع التعزي الكبير الذي ما يزال معروفاً باسمه وهو الجامع الوحيد بإقامة الجمعة إلى ما قبل سنوات قليلة وقد أدخل عليه من الإصلاحات الشيء الكثير، ودرس فيه جماعة من العلماء المشهورين، وتشرفت أنا بخطبة الجمعة فيه عدة مرات وأولها في جمادى الأولى من سنة ١٣٦٨ هـ، وكان الإمام أحمد بن حميد الدين حاضراً فيه وهو الذي كلفني بالخطبة وإمامة الصلاة يومئذ، وللمظفر جامع آخر ويعرف باسمه في مدينة المهجم، وثالث في واسط المحالب ولهذا المساجد أوقاف كثيرة وقد رتب في كل منها إماماً ومؤذناً أو مؤذنين ومدرساً أو مدرسين، ووقف على طلبة العلم والنقطعين للتعلم والتعليم فيها ما يكفيهم، أما المدارس فله المدرسة التعزية وجعل فيها مدرساً ومعيداً وعشرة طلاب ومعلماً للقرآن وعشرة أيتام ولهم في المدرسة ما يكفيهم ويقوم بكفالتهم، وله مدرسة للحديث ومدرسة لأصحاب القرآن ودار ضيافة، وابنتي المظفر خانقة في مدينة حيس، وجعل للواردين من الأوقاف ما يكفيهم مدة بقائهم هنالك، وبالجملة فآثره كثيرة وكان عالماً فقيهاً قارئاً محدثاً لغوياً منطقياً طبياً، وله على الكتب التي كان يقرأها تعليقات كثيرة تدل على طول باعه وغزارة علمه، وإنه ما كانت لتشغله دنياه ومملكته عن دينه وآخرته ورحمة الله عليه آمين.

الملوك بعد المظفر

ما عاش من بعد أبيه الأشرفُ
مدّة ملكه من الشهورِ
نازعه فيها أخوه داوُدُ
وبعد ما ثار بهذا الطرفِ
وظل محبوساً إلى أن ماتا
إلا قليلا وهو عدلٌ منصفٌ
سنة عشر في زمانِ النورِ
وشتها حرباً عليه في الحدودِ
أسره الناصرُ نجلُ الأشرفِ
أخوه واسترجع أمراً فاتا (١)

(١) في هذا الفصل ذكر ثلاثة ملوك من بني المظفر الرسولي وهم الأشرف الأول عمر بن المظفر يوسف والمؤيد داود بن المظفر والمجاهد علي بن المؤيد داود، أما الأشرف فكان ملكه بولاية عهد من أبيه وقام بالأمر من ثلاثة عشر رمضان سنة ٦٩٤هـ، وهو اليوم الذي توفي فيه أبوه ودام في الملك إلى يوم ثلاثة عشر المحرم من سنة ٦٩٦هـ، ومدته ستة عشر شهراً، وإنما قلت في زمان النور لما كان في تلك الأيام من كثرة العلماء وتعلم الملوك الغسانيين في اليمن وكان الملك المظفر قد جعل لولده داود المؤيد بلاد الشحر وحضرموت وما والاها، ولم يكن ذلك ليعجبه بيد أنه قبل وسكت على مضض ويرى أنه ليس بأقل كفاءة من أخيه الأشرف إن لم يكن هو في نفسه أحق بالملك منه، ولما بلغه خبر وفاة أبيه وتولي أخيه جاء من الشحر إلى أبين وتملكها وهرب منها عامل الأشرف ثم تقدم المؤيد إلى عدن واحتلها وكان دخوله إليها بحيلة دبرها وأعانه عليها بعض الصيادين العدنيين فسارت فرقة من جيشه وتسلقت جبل التعكر وهبطت إلى الداخل وزحف هو بقوته إلى الباب ثم نودي به ملكاً على عدن ونودي بالأمل ولم يسفك دم ولم ينهب مال في تلك الواقعة ثم تقدم وأخذ لحجاً، وجهاز الأشرف جيشاً لمقاتلة أخيه المؤيد وذلك بقيادة محمد الناصر بن الأشرف ومعه جمال الدين الشريف علي بن عبد الله وبدر الدين ونجم الدين وهما أبناء شمس الدين ازدمر، وطلب الأشرف الإمدادات من صنعاء وغيرها وبعث بها إلى ولده الناصر محمد ولم يكن مع المؤيد إلا عسكره الذين جاء بهم من الشحر وإلا جماعة من الجحافل الدثنيين، يرأسهم عمر بن سهيل، وتقدمت جيوش الملك =

هذا وقد لُقِّبَ بالمؤيد
وجاء في ثالثة السنين
واستقبلته عدنٌ في شوال
والحفلُ في حقات تحت المنظر
وقدم الناسُ الهدايا والتحف
وأجزلة المؤيد العطايا
حتى النواخيرُ وأهلُ البحر
وربع قرنٍ عاش مطلق اليد
من ملكه النصرُ والتمكين
وقد أقيم للمليك الاحتفال
حيث تبارى شعراء المحضر
وكُلُّهم يطلبُ عنده الشرف
وكافأ الناسَ على الهدايا
من ذاهبٍ وآيبٍ للشعر (١)

= الأشرف من (الراحة) إلى الكتيب القشيب ودار القتال بين الأخوين وانتصر المؤيد في أول الأمر ولكنهم كروا عليه فتفرق جيشه وأسر هو وولده المظفر والظافر ودخل عليه ابن أخيه الناصر القائد لقوة أبيه فتحدث معه طويلاً وخرجاً إلى خيمة أخرى ثم قيده وقيده ولديه معه وبعث بهم إلى الملك الأشرف في الجوة في الحج فلما وصلوا قابلهم بالإكرام وأحسن إليهم ثم أمر بتسييرهم إلى حصن تعز في أول المحرم من سنة ٦٩٥ هـ ومات هو على رأس السنة من هذه الحادثة، وكان عالماً جليلاً عادلاً في رعيته ولم يأخذ منهم الواجبات في تلك السنة لما أصابهم فيها من الفقر والحاجة وقال: لو لم يبق لنا إلا زكاة نخلة واحدة بالحق الشرعي لاكتفينها بذلك وشجع الناس على الغرس والزرع. ومن المؤسف أن حياة الملوك الصالحين غالباً ما تكون قصيرة، وما ملك عمر هذا إلا كخليفة عمر بن عبد العزيز أو هي أقل منها زمناً، ولما مات خرج أخوه المؤيد من السجن ووقف عنده يبكيه بمرارة ثم أعلن الحداد ونادى بنفسه ملكاً على اليمن.

(١) الملك الثاني من ولد المظفر هو داود المتقدم ذكره تلقب بالمؤيد، ومدة ملكه ست وعشرون سنة تقريباً من محرم ٦٩٦ إلى واحد ذي الحجة ٧٢١ هـ، وفي شوال ٦٩٨ وهي الثالثة من سني ملكه جاء إلى عدن يتفقد أحوالها ويرتب شؤونها وقد احتفل به احتفالاً عظيماً في حقات تحت حصن المنظر، ومدت الموائد على الساحل وتوافد الناس من كل مكان وتبارى الشعراء في مدح الملك المؤيد وقدمت إليه الهدايا والتحف فأجاز عليها وأثاب بها خيراً منها وأنفق أموالاً كثيرة لم يخلص بها أحداً دون آخر بل شمل بها الشعراء والخطباء والأشراف وعلية القوم وسائر أفراد الشعب حتى النواخير (البحارة) من أهل عدن ومن غيرهم أهدوا إليه وكافأهم والتجار القادمين إلى الثغر جعلهم ينقلون مدحه والثناء عليه إلى من خلفهم ويقال إن البحارة الهنود أقاموا مهرجاناً أعجب به المؤيد =

والجهة الشرقية استعادها حجةً بعد ما رأى فسادها
أما عصاة الأمر في جازان فاستسلموا لقوة السلطان
ودفعوا الخراج للمؤيد ولم تكن حربٌ بتلك البلد

= وأجازهم عليه ويقال أيضاً إنه كان يرد الهدايا النفيسة والتحف الثمينة على أصحابها وقد أظهر لهم قبولها ومعها يبعث بالخلع والدواب الفارهة والسروج المذهبة وعرف في هذه الزيارة بالكرم الذي لا يساويه كرم من قبله، حتى إنه ليهب خزانة عدن كلها لبعض خواصه ويعارض في ذلك كبار القوم ويصالحون المهوب له على أربعين ألف دينار وعلى ما يرضيه من الخلع والطيب وغيرها مما يصلح له، ودامت زيارة المؤيد لعدن إلى آخر ذي الحجة من السنة المذكورة وفيها حضر العيد عيد الأضحى وينبغي أن تعد هذه ذكرى تاريخية، ومما قيل من القصائد في الاحتفال بالملك المؤيد قصيدة عبد الله بن جعفر التي ألفت نيابة عنه وهي واحد وثلاثون بيتاً مطلعها:

أعلمت من قاد الجبال خيولا	وأفاض من لمع السيوف سيولا
وأماج بجرأ من دلاص سابغ	جرت أسود الغاب منه ذيولا
ومن القسي أهلة ما تنقضي	منها الخضاب على الخضاب نصولا
وتزاحمت سمر القنا فتعانقت	قرنا كما يلقي الخليل خليلا
فالغيث لا يلقي الطريق إلى الثرى	والريح فيه لا يطيق دخولا
سحب ثرت فيها السيوف بوارقا	وتجاوبت فيها الرعود سهيلا
طلعت أهلتها نجوماً في السما	فتبادرت عنها النجوم أفولا

إلى أن يقول في آخرها:

في كل يوم لا برحت مقابلا	فتحا من الملك الجليل جليلا
في حيث ما وقعت بنودك أنزلت	آيات نصرك فوقها تنزيلا
لولا العوائق والعلائق لم أغب	عن ظل بابك بكرة وأصيلا
ومن التكرم والتفضل لم يزل	عذري إلى صدقاتكم مقبولا
لا زال توفيق الإله مقارنا	لك حيث كنت إقامة ورحيلا

(ملاحظة) لم أجد خبر هذه الزيارة إلا في كتاب ثغر عدن لباخرمة وأظنه اعتمد عليها صديقنا حمزة لقمان أما غيره من الكتب بيدي العقود اللؤلؤة واللطائف السنية وبلوغ المرام والمخلاف السليماني وغيرها فلم أجد لها ذكراً البتة.

وقيل إنه محدثٌ فقيهٌ وإنه يحفظُ متنَ التنبيه (١)
وبعده قام المجاهدُ أبُّه وكان في الملكِ كما تظنه
أما وزيره شجاعُ الدينِ وليس بالموفقِ الأمينِ
فإنه أشارَ بالقبضِ على محمدِ الناصرِ حيثُ أرسلَا
لحبسه في عدنَ بالقلعة وغضب الناسُ لما قد صنعه (٢)

(١) كان الخلاف مستمراً بين بني رسول والأئمة الزيدية في مختلف جهات بلادهم بيد أن الأئمة كانوا يضعفون كثيراً ويقوون إلى حد ما وقد خرجوا عن طاعة بني رسول وتغلبوا على بلادهم ولكن المؤيد بعدما تملك بقليل هاجمهم وغزاهم في أوطانهم واسترجع كل ما خرج عن طاعة أهله وأخذ حصون حجة وما حوالها، ومن أنصاره الشريف علي ابن عبد الله بن حمزة ثم ولده عماد الدين إدريس بن علي وهما كان يقاتل ويستعين الملك المؤيد في أبين ولحج وبلاد الجحافل والتهائم ثم في الجبال والبلاد العليا ما بين سنة ٩٧ إلى سنة ٧٠٠ ثم إلى ما بعد ذلك بكثير، وفي تلك المدة خرج عليه أخوه الملك المسعود في زبيد والمهجم وما قاربها وانضم إليه الأشراف بنو سليمان ولما جاءت قوة الملك المؤيد استسلم هو وولده أسد الإسلام بن المسعود، وكان من قواد المؤيد في تلك الحملات الشريفان علي بن عبد الله ثم ولده إدريس وقد ذكرت التواريخ والتراجم اليمنية فضل هذين الرجلين وما لهما من الكتب والمصنفات النافعة في مختلف العلوم رغم اشتغالها بالحرب وقيادة الجيوش، وفي سنة ٧٠١ هـ خرج أشراف جازان عن طاعة المؤيد فأرسل إليهم بجيش من الأتراك والمماليك فأخضعوهم ورجع الجازانيون إلى الطاعة وسلموا الخراج السنوي المفروض عليهم ولم يقع قتال بين الفريقين، واشتهر الملوك من أهل هذا البيت بالعلوم وخاصة علوم الدين والفقه في مقدمتها، فكان داود المؤيد فقيهاً يحفظ التنبيه للشيرازي عن ظهر قلب ويروي من الحديث الشيء الكثير وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

(٢) هذا هو الملك الثالث بعد المظفر واسمه علي الملقب بالمجاهد بن داود المؤيد بن يوسف المظفر بن عمر المنصور بن علي بن رسول، بويغ له بالملك بعد أبيه وهو ابن خمس عشرة سنة وكان كفواً لما أسند إليه مع حداثة سنه، إلا أنه عزل عميد السلطنة ونائبها محمد بن يوسف بن يعقوب، واستوزر شجاع الدين عمر بن يوسف ولم يكن هذا الوزير بالموفق في عمله ولا بالأمين على رعيته والله أعلم بسريرته، وقد أشار على المجاهد بالقبض =

وعُمّه المنصور وهو أيوبُ
فاغتصب الملكَ ودامَ أشهراً
وأمرَ أبنته على الدملوة
ولم تزل أمَ الملكِ الحانقة
مع الممالِكِ ليرجعوه
وحصَلت يومئذٍ في العاصمة
رأى الملكَ للوزيرِ مغلوب
وأطلقَ الناصرَ نَجَلَ عمراً
وهو الذي صارَ عظيمَ القوةِ
تدبرُ الأمرَ وكانت حاذقة
وعُمّه أيوبُ يخلعوه
فوضاء كانت في تعزَ واصمة (١)

= على ابن عمه محمد الناصر بن عمر الأشرف وكان بترية الشيخ عمر بن سعيد فقبض عليه وأرسله إلى قلعة عدن لحبسه هناك وغضب الناس لهذا العمل ولم تمر على المجاهد الملك الجديد إلا نحو شهرين .

(١) لما رأى الملك أيوب المنصور بن المظفر أن ابن أخيه الملك المجاهد قد صار مغلوباً لوزيره شجاع الدين وأنه لا يسدر إلا عن رأيه قام بخلعه ودبر لذلك تدابيره إما بحسن نية وإما أنه وجدها فرصة سانحة فدخل الممالِك على المجاهد وهم يحملون السلاح وعلم أنهم يريدون قتله فرأى الحكمة في عدم المقاومة وسلم لهم نفسه فأخذوه أسيراً ونزلوا به إلى عمه المنصور في تعز فأحسن إليه ورفق به وأمر بإطلاق ابن أخيه الناصر بن الأشرف من قلعة عدن وأمر ابنه عبد الله الظاهر بن المنصور على الدملوة ولم يستمر أيوب في الملك إلا ثمانين يوماً أو ثلاثة أشهر، وكانت أم الملك المجاهد حانقة على خلع ابنها وهي بصيرة وحاذقة بتدبير الأمور فصالحت الممالِك والمخلصين لولدها المجاهد فقبضوا على عمه وأعادوه إلى دار ملكه وأذن المجاهد بنهب البيوت المنصورية ونزلوا إليها لحفظها وحصل في تعز نهب شديد واضطربت الحالة فيها وخرج بنات الملوك خوفاً من العامة حتى تسترن بحصر المساجد والمدارس وذلك ما أشرنا إليه بقولنا:

وحصلت يومئذٍ في العاصمة فوضاء كانت في تعز واصمة

أما الوزير شجاع الدين فقد هجم العسكر عليه في داره قبل أسر المجاهد فقتلوه وقتلوا معه صهره محمد بن علي بن همام والقاضي عبد الرحمن الظفاري والشيخ محمد بن عثمان الحكمي، ولا شيء أضر على الحكومات والشعوب من الثورات والانقلابات العسكرية التي تسفك فيها الدماء ويقتل فيها البريء والمجرم وذلك ما لا تعد ولا تحصى نتائجه في الدول المتحضرة وغير المتحضرة ولكنه في الدول العربية أكثر منه في سائر الدول الأخرى .

وبعد خلع الملك المنصور
وأصبحت تابعة له عدن
ثم استمر الحال في أخذ ورد
ثم استعان الملك المجاهد
وأقبلت قواتها الكثيرة
واختلفت قوة مصر حتى
ثم غدا عليّ المجاهد
بين تعزّ وزبيد وعدن
وفي تعزّ كان سجنُ النائر

قام ابنه الظاهرُ بالأمر
واستسلمت له تهائم اليمن
والملك مثلُ البحرِ في جزير ومد
بمصر حتى لا يزيد الزائد
وأخضعت للملك الجزيرة
عادت وعاد وصلها منبأ (١)
وانه هابطٌ أو صاعد
كي يستريح من متاعب الزمن
عليه حتى مات غير ظاهر

(١) طلب المجاهد من عمه المنصور بعد خلعه واستسلامه أن يكتب إلى ولده الظاهر بتسليم الدمولة ولكنه أبى أن يستجيب لأبيه فيما كتب به إليه فثبت على ملكه واستولى على عدن وعلى زبيد والتهائم، وبقيت حالة الملك بين المجاهد والظاهر كحالة البحر في جزره ومده ينتصر هذا حيناً وينهزم ذاك حيناً آخر، ورأى الملك المجاهد أنه لا بد من قوة تعينه ويعتمد عليها في قهر ابن عمه وتوحيد المملكة اليمنية فاستعان بالملك محمد بن قلاوون المصري وأمهه بالفي فارس ومثلهم من الرجاله ومعهم اثنا عشر رجلاً تحمل أزوادهم ويرافقهم القاضي محمد بن مؤمن فتلقاهم المجاهد إلى القوز الكبير فترجلوا له وسلموا عليه وسار بهم إلى زبيد في شهر رجب من سنة خمس وعشرين، ثم صعد بهم إلى تعز فأفسدوا فيها وأهلكوا الحرث والنسل وقبضوا على رجل موالياً للمجاهد بعدما كان موالياً للظاهر وعلقوه على أثلة في سوق الوعد بتعز، واتصل بعضهم بالظاهر وتفاهموا معه ووعدهم بالمال الكثير والرتب السنية إن هم أعانوه على المجاهد فرجع بعضهم إلى بعض وأرادوا الفتك به أو خلعه وسجنه وقصدوه في دار الشجرة فاعتذر إليهم بأنه في الحمام وخرج من باب السر إلى حصن تعز، وكتب شكره لرؤساء الجيش المصري وقال إنهم قد أدوا مهمتهم ولم تبق حاجة إليهم فرجعوا إلى تعز وتقاتلوا مع أهلها وقتل منهم نحو أربعين رجلاً وأسروا الغياث بن نور وساروا به معهم في أول شعبان من السنة المذكورة وأفسدوا في التهائم كإفسادهم في تعز، واستخلص منهم المجاهد الغياث بن نور وهم في حرض بمال كثير دفعه لهم، واقترفوا في الحجاز وذهب كل منهم إلى جهة وانقطعت الصلة بين اليمن ومصر وانبت جبلها، وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون.

ولم يكن يجابه الثورات وحج مرتين واعتدى عليه عجلان واستعان بالمصاربة للنهب والسلب وأسروه ولم تطل مدته في الأسر حتى استقر الحال في الجهات (١) في عرفات شرقت من حواليه وغارت الأعراب أهل البادية ثم مَضَوْا بِهِ وَسَيَّرُوهُ بل أطلقوا سراحه من مصر (٢)

(١) بعد ما سافرت الجيوش المصرية لم يسترح الملك المجاهد من تعب الثورات والمنازعات مع ابن عمه الظاهر ومع القبائل المنتقضة أو التي لا يهملها إلا المال من أي جهة تحصل عليه ولو من جهة الشيطان الرجيم، فكان يتردد صاعداً وهابطاً بين تعز وزبيد وعدن وجهات وغيرها ليحارب أو ليصالح أو ليؤدب إن قدر على التأديب، وحرابه مع الظاهر في لحج وعدن والدملوة كانت حروب الند للند، وقد ينتصر الظاهر ويكاد يكسر المجاهد فلم تقم له قائمة وشاء الله أن يضعف هذا ويقوي هذا وهي سنة كونية بين المتخاصمين بقطع النظر عن كون أحدهما محقاً أو مبطلاً وظهرت قوة المجاهد من سنة ١٣٠هـ إلى أن طلب ابن عمه الصلح بل الأمان لنفسه ولأهله فأعطاه ما طلب وأذهم، وفي المحرم من سنة ٧٣٤هـ وصل إلى تعز وأنزل في دار الإمارة مكرماً في الظاهر مديراً له في الخفاء وفي شهر ربيع الثاني من هذه السنة مات مسموماً أو موتاً طبيعياً والله أعلم. ودفن عبد الله الظاهر بن أيوب المنصور بن الملك المظفر في مقابر أهله بتعز، وبعد هذا قضى الملك المجاهد إلى سنة ٧٤٠ على أكثر أو على جميع الثورات وفتح حصوناً كثيرة ودخل مدناً مينية كانت غير طائعة إن لم تكن محاربة له، وما أثقل الملك وما أشد مرارة المسؤولية على صاحبه وخاصة في البلاد الجاهلة والتي تتعاقب عليها الدول المختلفة من أهلها ومن غير أهلها حيث لا نظام ملكي ولا دستور جمهوري وإنما هي القوة قوة المال والسلاح أو العصبية التي ترفع أقواماً وتضع آخرين.

(٢) حج المجاهد مرتين أولهما في سنة ٧٤٢ فقام من تعز في سادس شوال ومعه قوة كبيرة وأموال كثيرة ووصل إلى زبيد في حادي عشر من شوال وصاحبه منها إلى مكة الشريف الأمير عز الدين بن رميثة أمير مكة ابن أبي نمي وأحرم من يللمم وقابله فيها الأمير رميثة مع أشراف مكة وأكرم الجميع بالهدايا والهبات وتصدق على الناس وأطعمهم وسقاهم الماء بالسكر والسويق وكساهم ثياب الإحرام ويقال إنه وهب للشريف رميثة أربعين ألف درهم جديد مجاهدية وأعطاه خيلاً وكسوة عظيمة، ثم سار إلى مكة ودخلها ثاني ذي الحجة، ويوم الرابع والخامس قدم الحاج المصري والحاج الشامي وطلب الملك =

وقاوم الثورات عام ستين وسبعمئة بعزم لا يلين
وجاءه علي بن الجارية داهية تسير خلف داهية
وظل في كبر وفير يقدم وتارة عن عدن ينهزم

= أميري الحج فخلع عليها وأكرمها خير إكرام، وذكر الخزرجي تنقلات المجاهد من مكان إلى مكان حتى رجع إلى عاصمة ملكه في سبعة عشر صفر من سنة ٧٤٣ أما حجته الثانية ففي ٧٥١ توجه من تعز في الرابع والعشرين من شوال وترك الأمراء والقضاة كلا على جهة يحفظها ويقوم بأمرها وترك أولاده الصغار الظافر والأفضل والناصر والمنصور والمسعود، واستصحب معه ولده العادل وأمه جهة صلاح، وصاحبه إلى مكة الشريف بقية بن رميثة الذي طرده أخوه الأمير عجلان ولجأ إلى المجاهد، وأشاع الوشاة ومن لا خير فيه أن الشريف بقية هو الذي سيخلف أخاه عجلان على إمارة مكة وسيؤيده المجاهد وحنق عجلان بن رميثة وتخابر مع المصريين وقال لهم إن ملك اليمن قدم بكسوة معه للكعبة وسبق هنا حتى ترحلوا فيخلع كسوتكم ويلبس الكعبة بالكسوة التي جاء بها معه ويترك فيها أميراً من قبله ولن يبقى لكم في ملكه أمراً ولا ذكراً فإن لم تسعفوني بما أريد سرت معكم وتركت البلاد لمن يريد لها، واتفقوا معه على الشر ودخلوا بسلاحهم المشهور على الملك المجاهد يوم ثاني عشر ذي الحجة وهو في مخيمه بمبي وقيل إنهم هجموا عليه بعرفات وأعانهم الأعراب والطماعون على النهب وأخذ ما لديه وحكمته ودهائه لم يقاتلهم حيث كانوا كثيرين والذين معه قليلين بل استسلم وسار معهم مكرماً محترماً إلى مصر ويصحبه الأمير فخر الدين زياد بن أحمد الكاملي ورجعت أمه جهة صلاح إلى مكة ومعها الرفاق، واسترجعوا كثيراً من الخيل والبغال ومحتويات المخيم المجاهدي وقد نهب منها الشيء الكثير ورجعوا إلى اليمن وبقي المجاهد في مصر عشرة أشهر وقليلاً، فأطلقوا سراحه ورجع حتى وصل الدهناء من ينبع وحصل بينه وبين السفير المرافق له شيء من الخلاف فردوه إلى مصر وحبسوه بالكرنك حتى شفع الأمير (بيغاروس) فخلى سبيله ورجع إلى مصر ومنها خرج إلى العيذاب وسواكن السودان ثم إلى السواحل اليمنية وعيّد عيد الأضحى بالمهجم سنة ثلاث وخمسين، ودخل تعز في عاشر المحرم من سنة ٧٥٤ وأطلق بشفاعة أمه الملوك المسجونين شكراً لله على سلامته ورجوعه إلى مملكته وليتألف بذلك قلوب الناس وقبض على المشايخ بني زياد وكانوا ثلاثة أحدهم مقطع له الحج وأبين والثاني ناظر الدملة والثالث ناظر الجباية التعزية وكانوا أهل خير كثير فحسدوا وصودرت أموالهم مصادرة قبيحة وقضوا حياتهم جميعاً في الجوة وماتوا ودفنوا بها.

وعام أربع وستين قضي ونقلوا جثمانه منها إلى وكان عالماً أديباً شاعراً
حياته في عدن ثم مضى
تعرّ والدنيا تكونُ دولاً
بالسابقين يلحقُ الأواخراً^(١)

(١) في سنة ٥٩٠ هـ وبعدها سنة ٧٦٠ هـ قاوم المجاهد الثورات من بعض العرب القرشيين والمعازبة فنزل إلى زبيد ولم يظفر منهم بشيء، وفي شعبان أخذوا النخل واقتسموه بينهم وأصبح أهل النخل فارغة أيديهم ولا شيء لهم وكان المجاهد قد ترك ابن ميكائيل أميراً على الجهات الشامية مورد وسردد وسهام ورجبان وتغلب عليها فيما بعد، وخرج عن طاعة السلطان وأقام الخطبة لنفسه وضرب السكة باسمه واستدعى أشرف صعدة ودخل عسكره المحالب وأطاعته العرب وسلمت له، وفي ٧٦٣ خرج عن طاعة المجاهد ولداه الصالح والعاذل، وفي أول سنة ٧٦٤ خرج أيضاً عن الطاعة الولد الثالث يحيى المظفر بن المجاهد فأفسد المماليك وأخذ الخيل من الاصطبلات والإبل من المناخات ونزل نحو عدن واستعان بقبائل العقارب ولم يقدر على شيء، ويقال إنه ظل خارج عدن حتى توفي أبوه وكان يود لو أنه عنده فيعهد إليه والبعض يقول إنه قد قبض عليه بعد نزوله إلى عدن وجاء به من أبين وضربه وعذبه حتى مات، وفي خمس وعشرين جمادى الأولى من السنة المذكورة توفي المجاهد وعمره ثمان وخمسون سنة ونقل من عدن إلى تعز ودفن ب مدرسته مع أهله، وكان عالماً أديباً شاعراً كريماً شجاعاً لا يماثله أحد من أهله اللهم إلا جده المظفر كما قال تقي الدين الفاسي، ومما يذكر في كرمه ما رواه محمد بن عبد الله الرمي قال: أعطاني المجاهد في أول ما دخلت عليه أربعة شخوص من الذهب وزن كل منها مثناً مثقال وقد كتب على واحد منها:

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها
على الناس طراً قبل أن تتفلت
فلا الجود يفتنيها إذا هي أقبلت
ولا البخل يبقها إذا هي ولّت

وله ديوان شعر جيد وقد مدح بقصائد كثيرة طنانة للفقير أحمد بن محمد فليته ولغيره من شعراء العصر ومن مآثره مدرسته بمكة في الجانب اليمني من المسجد الحرام وله زيادة كبيرة في الجانب الغربي من جامع عدينة بتعز، رحمه الله، ((وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون)).

الملوك بعد المجاهد

بعد المجاهد المليك الأول ملك والثورات في الأطراف وأخذ الفتنة بالصمصام ولا بن ميكائيل ثورة على فكان نور الدين للمجاهد أما ابئه محمد فانتقضا فجرد الأفضل حملة عليه وظل في صعدة ست سنوات وبعد عام واحد جاءته ولا بن ميكائيل شأن يذكر

ولده العباس وهو الأفضل وبعضها يشتد في الخلاف وسكنت في يمين وشام بني الرسول بعد صدق في الولا كالعضد الأيمن أو كالساعيد وظن أن ملك غسان مضى وفر منها تاركاً لآ لديه وعاد بعدها إلى تلك الجهات قوات عباس فأخرجته في عدن إذ كان فيها يأمر (١)

(١) علمت مما مضى أخبار الملوك الغسانيين المنصور عمر والمظفر يوسف والأشرف عمر والمؤيد داود والمجاهد علي وأن الأخير قد نازعه الملك عمه المنصور أيوب وابن عمه الظاهر عبد الله، وفي هذا الفصل نقص عليك أخبار الملوك بعد المجاهد وأولهم الأفضل عباس بن المجاهد علي بويج له بالملك بعد وفاة أبيه في عدن آخر جمادى الأولى من سنة ٧٦٤هـ وسار بجثمان أبيه إلى تعز ودفن في المدرسة الجهادية، وكانت الثورات كثيرة في أطراف البلاد من أهله ومن غير أهله وأشدّها بأساً وأخوفها خطراً انتقاض محمد بن نور الدين ميكائيل في حرص وما والاها من الجهات الشامية، وقضى الملك الأفضل على الثورات وسكن الفتن وأخضع المتمردين بالقوة وفي القوة شعاع من اسم الله الأعظم، واهتم كثيراً بأمر محمد بن ميكائيل المتغلب على التهاثم ومنكر الجميل لبني رسول عليه وعلى أبيه من قبله، فإنه لما سمع بموت المجاهد مد يده من حرص إلى المهجم وما حوالها =

ثم أتى إلي زبيد الإمام وعاد منها قافلاً صلاح وجاءها ملىكها ثم بقي في عامه الثامن والسبعين

ولم يَدُم إلا ثلاث أيام إذ جاءت القوات والسلاح فيها إلى أن مات بالخَوَزَنق شعبان في الواحد والعشرين^(١)

= وأرسل الأمير أحمد بن سمير في قوة قوامها سبعمائة فارس لمحاصرة زبيد واختلف العسكر فيما بينهم بحيلة دبرها وإلى زبيد لبني رسول فرجع ابن سمير إلى القحمة ثم أرسل إليه الأفضل بجيش يقوده الأمير فخر الدين زياد بن أحمد الكاملي المقتول غيلة سنة ٧٧٥ والتقى الجيشان في حدود القحمة بشهر المحرم من سنة ٦٥ فهزم ابن سمير وقتلت من جيشه طائفة كبيرة، ودخل الأمير فخر الدين الكاملي إلى القحمة وسمع ميكائيل بهذه الهزيمة فارتفع من المهجم إلى حرص وتعقبه الكاملي فدخل المهجم وارتفع ابن ميكائيل أيضاً من حرص وفارق التهايم كلها ولحق بالإمام المهدي لدين الله علي بن محمد بن علي ابن الفضل إمام صعدة، وفي سنة ٧٧١ أعان الإمام المذكور محمد بن ميكائيل بقوة استعاد بها ما كان تحت يده من التهايم وأسر الأمير زياد الكاملي وأطلقه بعد مدة قصيرة وفي سنة ٧٧٣ أرسل الأفضل جيشاً آخر بقيادة فخر الدين الكاملي فاسترجع للسلطان جميع ما أخذ ابن ميكائيل من تلك الجهات، أما ذكرنا من أمر محمد ابن ميكائيل في عدن فن أشهر ما كان له مع الشيخ الصالح عبد الله بن أبي بكر ابن عمر بن سعيد المعروف بابن الخطيب الشعبي وهو قصة جرت له في معارضة الشيخ ومنعه من القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فأصابه الله بمرض كلفه الحجيء إلى الشيخ والاعتذار إليه فدعا له ومسح عليه وعوفي مما أصابه وقد جاء بعد ذلك أبوه نور الدين من تعز إلى عدن يعتذر من فعلة ولده ويطلب صالح دعوات ابن الخطيب، ومن قبيح أعمال ابن ميكائيل في عدن فرض ضريبة سنوية على كل بيت وفداحة تلك الضرائب، ولكل ظلم غاية ولكل ظالم نهاية.

(١) في سنة ٧٧٧هـ نزل الإمام صلاح الدين بن علي إلى التهايم وقصد زبيد في أول رجب ورأى جوعاً كثيرة وقوة هائلة لا يقدر على حرها مع ما كان له من بأس وقوة فقفل راجعاً ولم يدم إلا ثلاثة أيام ونزل السلطان من تعز إلى زبيد وتدبرها وأقام بقصره المعروف بالخوزنق، وكان يتردد بين تعز وزبيد وعدن وأبين، وفي عدن شمل الناس بفضله ومد عليهم ظلال عدله وأخيراً وفي أول رجب ٧٧٨هـ رجع إلى زبيد وطلب ولده الأشرف لما أحس بالمرض أوصى إليه وجعله ولي عهده وهو أكبر أولاده السبعة =

وبعده الأشرف إسماعيلُ
وهو نصيرُ العلمِ والتعليمِ
مجددُ الآثارِ بل بانها
ونغو مئة وأربعينا
والعلمُ كان في زمانِ الأشرفِ
وصاحبُ القاموسِ وابنُ المقري
وأرسل الأشرفُ باثني عشرًا
للعالمِ الرعي حين ألفا
ولده المملكُ الجليل
وملحقُ الحادثِ بالقديم
وناشرُ السنةِ بل مُحييها
مساجدًا وُزُبطا بنينا
كالبحرِ للغواصِ والمغترفِ
سفينتان في عبابِ البحرِ
ألفا دنانيرَها مقدرًا
شرحاً على التنبيهِ حاز الشرفا (١)

= وكان وصول الأشرف إلى أبيه يوم أربعة عشر رجب من السنة المذكورة، وتوفي الأفضل رحمه الله يوم الجمعة الحادي والعشرين شعبان من تلك السنة، وكان كما قال الشيخ علي ابن حسن الخزرجي، (كان ملكاً شهماً يقظاً عازماً أياً ذكياً فقيهاً مشاركاً للعلماء في عدة فنون من العلم، عارفاً بالنحو والآداب واللغة والأنساب وسير العرب وسير الملوك، وصنف عدة من الكتب منها كتاب نزهة العيون في تاريخ طوائف القرون لم يخذ على مثاله ولم ينسج على منواله وهو كتاب نافع جداً، وله أيضاً كتاب العطايا السنية في المناقب اليمنية يحتوي على طبقات فقهاء اليمن وكبرائها وملوكها ووزرائها وله كتاب نزهة الأبصار في اختصار كنز الأخبار، واختصر تاريخ ابن خلكان، وله كتاب بغية ذوي الهمم في أنساب العرب والعجم، وله غير ذلك انتهى) أما آثاره الدينية فمنها المدرسة التي أنشأها في الجليل من تعز وفيها المنارة المشهورة وكانت على ثلاث طبقات الأولى مربعة الشكل صحيحة الأركان والثانية مثلثة الأركان قائمة الحروف والثالثة مسدسة الشكل عجيبة المنظر ووقف على هذه المدرسة أطياناً ونخللاً وكروماً ورباعاً كثيرة تقوم بنفقات المدرسة والموظفين فيها، وله مدرسة أخرى بمكة المشرفة قبال باب الكعبة، وتذكر له مآثر أخرى وأعمال صالحة يجري عليه أجرها بعد موته (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث - الحديث).

(١) الملك الثاني بعد المجاهد حفيده الأشرف الثاني إسماعيل بن الأفضل عباس بن المجاهد علي بن المؤيد داود بن المظفر يوسف بن المنصور عمر بن علي ابن رسول، بويغ له الملك بعد وفاة أبيه بثلاثة أيام، وكان محباً للعلم وناشراً له ومعظماً لأهله، باذلاً قصارى =

جهد في بناء المساجد والمدارس والربط حتى بلغت في عهده مئة وأربعين أو قريباً من ذلك، وكان يجدد الآثار وينشئها في المملكة اليمنية سواء كانت من آثار أهله أو آثار الأيوبيين والدول الأخرى من قبله، ولا نظيل بذكرها وعددها لكثرتها ولأنها معروفة من تاريخه العلمي المجيد وكان عالماً سنياً شافعياً كبقية أهله ولا يعتني بالفقه دون غيره، بل كانت عنايته بعلوم كثيرة من الفقه واللغة والقراءات والحديث ويجب من رعيته في زبيد وتعز وعدن وغيرها أن يكونوا على جانب كبير من التعلم والتعليم لا فرق بين الرجال والنساء حتى قيل إنها وجدت في زمانه خمسمائة بنت عدينية تحفظ القرآن وإذا صح هذا فلتبك عدن اليوم على نفسها وعلى فوات ما كان فيها من العناية بالقرآن وإنك اليوم لا تكاد تجد فيها عشرة من الحفاظ ولم أكن مغالياً بقولي: إن العلم كان مثل البحر للغواص والمغترف أيام الأشرف إسماعيل، ومن أجل العلماء في عصره مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي الفيروزبادي الذي قدم إلى عدن في سنة ٧٨٦هـ وتولى بها القضاء وألّف فيها كتابه القاموس المحيط وأكرمه الأشرف كرامة لا مزيد عليها وتزوج ابنته ولما استأذن من الملك في الحج كبر عليه أن يمنعه وخاف ألا يعود إلى اليمن فقال: والله لزوال ملكي أخف علي من مفارقة الفيروزبادي، ومن العلماء يومئذ وحيد عصره وفريد دهره الفقيه العالم الجليل إسماعيل بن أبي بكر بن المقرئ الزبيدي صاحب المؤلفات الكثيرة والكتب الشهيرة ومنها كتاب الروض الذي اختصر فيه الروضة للنووي، وكتاب الإرشاد الذي اختصر فيه الحاوي للقاضي البارزي وهو جليل وليس له مثيل والشافعية يقولون إنه قد اشتمل على تسعين ألف مسألة:

كسا الله إسماعيل ثوب مهابة	وأسكنه بمجوح جنته الخضرا
بتصنيفه الإرشاد هذا الذي سما	على كل مبسوط ومختصر طرا
مسائله ستون ألفاً صريحة	ومفهومها عشرون زد بعدها عشا

وله شرح على الإرشاد في مجلدين وله الكتاب الذي يعد معجزة العلم ولا يستطيع أحد أن يأتي بمثله أو ينسج على منواله، عنوان الشرف الوافي في الفقه والنحو والتاريخ والعروض والقوافي، ولا بن المقرئ ديوان شعر وديوان خطب ومؤلفات أخرى، وكان يطمع في قضاء القضاة ولم يظفر به، واجتماعه بصاحب القاموس في مكان وزمان واحد كسفينتين محملتين بالخير العظيم وتجريان في العلم على بحر تملك سواحل وأصلح داخله الملك الأشرف إسماعيل، ومما يدل على محبته للعلم وتقديره العلماء أن الفقيه محمد بن =

ومات والأحوال في سكون
وأحمد الناصر بعد والده
مسالماً لمن يطيع أمره
حتى أخيه الظافر الحسين
ومات في زمان هذا الناصر
وجاء طاهر يزور الناصرا
ولم يكن في الهمة العلية
مثل المليك الناصر بن الأشرف
ومات في سابعة وعشرين

ثالث عام تاسع القرون (١)
للملك في شاردِه ووارده
محارباً لمن يخاف شره
لجأه استوجب سمل العين
معوضة وجد آل طاهر
بعد أبيه وأعز طاهرا
ونفسه الكبيرة الأبية
يتبع في الخير طريق السلف
وفي تمر مع أهله دفن (٢)

= عبدالله الرمي صاحب التفقيه شرحاً على التنبيه قد بعث به ثمانية عشر مجلداً إلى الأشرف بعد الفراغ منه وكان يحمل في أطباق فرده الملك مشيعاً بالطبل خانة ومصحوباً باثني عشر ألف دينار ذهباً تقديراً من الملك للشيخ الرمي وتشجيعاً على الاشتغال بمثل هذا الإنتاج وبلغني أن سيف الإسلام محمد بن الإمام يحيى حميد الدين قد ظفر بنسخة كاملة من هذا الكتاب وهي محفوظة في خزانة الكتب اليمنية وإذا صح ما بلغني فهو تراث علمي لا يستهان به ولا يجوز فيه التفريط.

(١) توفي الأشرف الثاني رحمه الله والأحوال ساكنة والثورات هادئة وكانت وفاته في العام الثالث من القرن التاسع وهو عام ٨٠٣ هـ ومدة ملكه من آخر شعبان ٧٧٨ إلى هذا التاريخ خمس وعشرون سنة، وكان معاصراً في اليمن للامامين صلاح الدين بن علي ثم لابنه علي بن صلاح، ولا حياة أبرك من حياته ولا فضل على العلم وأهله لأحد مثل فضل الأشرف، (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب).

(٢) الملك الثالث بعد المجاهد هو الناصر أحمد بن الأشرف إسماعيل بن الأفضل عباس بن المجاهد ولي هذا الملك في مرض أبيه قبيل وفاته بقليل في ثامن ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ، وفي سنة عشر من الشهر المذكور خرج لتأديب بعض العصاة في الجبال وكان بينه وبين ولادة أبيه خلافات كثيرة وعاد من هذه الغزوة منصوراً مظفراً ونزل في =

واشتهر المنصورُ بالخيراتِ في دينه وشرفِ العاداتِ
كما أزالَ منكرَ العوائدِ ولازمَ الصلاةَ في المساجدِ

= رجب من تعز إلى زبيد ومكث فيها إلى ذي القعدة من السنة نفسها، ثم رجع إلى عاصمته تعز، وأرسل بدر الدين بن فخر الدين زياد الكاملي لإخضاع أهل ريمة وأعمالها، وفي سنة ٨٠٨هـ استولى على دثينة قهراً وسارت جيوشه إلى جازان لتأديب أميرها المتمنع من دفع الخراج السنوي فغادرها أميرها وأقام بها الملك عدة أيام حتى رجع الأمير مستسلماً وبعث به الناصر إلى زبيد واستشفع جماعة من أهل الفضل وشفعهم فيه وخلع عليه وأعطاه عشرين ألف دينار وخسين مملوكاً وأعادته إلى إمارته في جازان، أما صاحب حلى ابن يعقوب الذي تأخر عن دفع الخراج فإنه سمع بقدوم الناصر إليه فلاقاه إلى البرك وسلم جميع ما تأخر عنده وساق الهدايا والتحف إلى الملك واعتذر إليه فعفا عنه واشترط لهذا العفو خسين فرساً يدفعها صاحب حلى سنوياً فقبل الشرط ورجع إلى محل إمارته، ومن جملة الخارجين علي الناصر بن الأشرف أخوه الحسين الذي تلقب بالظافر وقام بحركته من زبيد، فنزل إليه الملك وقبض عليه وحبسه في سجن تعز، وتمكن الحسين من الفرار من سجنه وعاد إلى الثورة مرة ثانية فحوصر هو وأصحابه حتى قبض عليه وأمر الملك بسمل عينيه عقوبة له أو اكتفاء لشره، وفي سنة ٨١١هـ مات الشيخ معوضة بن تاج الدين جد بني طاهر الآتي ذكرهم، وفي سنة ٨١٧هـ نزل الشيخ طاهر بن معوضة مسلماً على الملك ومظهراً للطاعة وطامعاً في البر والصلة فأكرمه الناصر هو ومن معه وكان هذا بدء الصلة بينه وبين آل رسول، وفي سنة ٨٢٠هـ غزا إمام صنعاء بلاد بني طاهر فقام الملك لمقابله والتقيا بموضع يقال له (صرام) وكسر الإمام حتى وصل إلى وادي حبان ثم نزل الملك إلى دثينة وأبين وعدن وأخضع ما كان فيها من الثورات والحق أنه كما وصف مسالم لمن سألته شديد البطش بمن خالفه، وفي سنة ٨٢٧ يوم ثمانية عشر من شهر ربيع الأول توفي الملك الناصر رحمه الله في مدينة تعز ودفن بها ومدة ملكه أربع وعشرون سنة وأشهر، ورثاه جملة من الشعراء ومنهم الشيخ ابن المقرئ الذي قال فيه قصيدة مطلعها:

هو الدهر كرت بالخطوب كتائبه
عوضت بأنياب حداد نوابه
فإن كان هذا الدهر مالا صروفه
على دكها الطود المنيع جوانبه
فأجدت إلا لمارن أنفسه
ولا جب إلا ظهره وغواربه
وآخرها قوله:

سقى قبره الفياض بالجوود والندی
سحائب ملث ليس يقلع راتبه =

وكان عدلاً وشجاعاً سني
والأشرف الثالث من بعد أخيه
وعزلوه واستبد الأوصيا
عمُ المليك وهو يحيى الظاهر

لكنه مات صغير السن (١)
ملك عاماً واحداً بما فيه
بالطفل واختاروا كبير الأوصيا
أول من صاهر آل طاهر (٢)

= والقصيدة كلها في آخر الجزء الثاني من العقود للؤلؤية للخزرجي، والموت سبيل الله لكل حي ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

(١) الملك الرابع بعد المجاهد هو المنصور الثالث عبد الله بن الناصر تملك بعد أبيه فأزال المنكرات ومنع النساء المطربات من دخول دار ملكه ونشر العدل وحافظ على الصلاة في الجماعات، إن كان في زبيد فهو يصلي بجامع الأشاعرة، وإن كان في تعز فهو يصلي بجامع المظفر، وهو شجاع عادل محافظ على السنة وبجانب للبدعة إلا أنه مات صغير السن وأيام ملكه سنتان وتسعة أشهر، وكانت وفاته رحمه الله في الخامس والعشرين من ربيع الثاني.

(٢) مات الملك المنصور الثالث وأقيم بعده أخوه الأشرف الثالث إسماعيل بن الناصر أحمد وهو صغير السن واستمر في ملكه سنة واحدة، وكان له مجلس وصاية من أعيان الدولة ولكل منهم مصلحة شخصية ووجهة نظر خاصة به فاتفق الأوصياء على خلع المليك الصغير لضعفه عن القيام بأعباء الدولة. أو لئلا يستأثر به أحد الأوصياء فيسيره كما يريد، ونصبوا عمه الظاهر يحيى بن الأشرف الذي أخرجوه من سجن ثعبات يوم العاشر جمادى الآخرة من سنة ٣١ وبيع له يومئذ، وأرسل بابن أخيه المخلوع إلى حصن الدملة ونزل الظاهر إلى زبيد في ذي القعدة من هذه السنة وفكر في ثورة المماليك والذين خلعوا الأشرف الثالث ففضى عليهم وقتلهم وصادر أموالهم وحتى وزير الملك الأول وهو الشريف إسماعيل بن عبد الله العلوي صادر أمواله ثم رضي عنه فيما بعد وكان له مع الوزير المذكور ومع أهله قصة لا نحب ذكرها ولا نحب أن نسأل عند الله يوم القيامة عن الظالم فيها والمظلوم ((وربك يحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون)) وفي سنة ٨٣٥ هـ جاء لزيارته الشيخ شمس الدين علي بن طاهر بن معوضة فأكرم مشواه وتزوج ابنته وكانت هذه أول المصاهرات بينهم كما كانت أول الصلات زيارة الشيخ طاهر للملك الناصر والمدة بين أول الصلات إلى أول المصاهرات نحو ثماني عشرة سنة من سنة ٨١٧ إلى ٨٣٥ هـ، وتوفي الملك الظاهر في شهر رجب من سنة ٨٤٢ هـ، ووفاته في زبيد ونقل إلى تعز ودفن فيها بمدرسته الظاهرية ومدة ملكه إحدى عشرة سنة وشهر واحد.

والأشرف الرابعُ فالمظفرُ
شيئاً فشيئاً عن جلالِ الملكِ
والخُلُق لا يثمرُ إلا شراً
والحقُّ أن دولةَ الغساني
وإن تزلُّ فكلُّ شيء زائلُ
فالمملكُ المسعودُ قد تأخروا
في عيبِ من عربٍ وترك
فتذهبُ الدولةُ بعدَ الأخرى
قد عظُمتَ في ذلكَ الزمان
وإنما يبقى المليكُ العادلُ^(١)

(١) آخر ملوك بني رسول في اليمن هؤلاء الثلاثة الأشرف الرابع إسماعيل بن الظاهر يحيى بن الأفضل عباس بن المجاهد، بويع له بعد أبيه وكان شجاعاً مقداماً حازماً فتاكاً، قهر المخالفين عليه من القرشيين في بوادي زبيد وقضى على كل حركة عدوانية ومن فتكه أنه أقام حفلة غداء في بيت الفقيه ودعا إليها مشايخ المغاربة ثم أمر بضرب رقابهم والطعام في أفواههم وهي جاذبة تشبه حادثة أبي العباس السفاح الذي قتل تسعين أموياً وهم على مائدته، ومدت عليهم السفر وهم يثنون تحتها، والذي فعله محمد علي باشا يوم المماليك هو أعظم من ذا وذلك، ويلعن الله كل نظام أساسه الاستبداد وعماده الاستعباد، وتوفي هذا الأشرف عام ٨٤٥هـ، وملكه سنتان وتسعة أشهر تقريباً، أما الملك المظفر الثاني فهو يوسف بن المنصور بن الناصر بن الأفضل بن المجاهد، بويع له بعد الأشرف وثار عليه جماعة من جنده الأتراك وخرجوا من تعز معلنين عصيانهم إلى زبيد حيث نصبوا لهم ملكاً آخر هو محمد بن إسماعيل بن عثمان بن الأفضل بن المجاهد ولقبوه الأفضل وقسم في أهل زبيد أموالاً كثيرة، وأرسل إليه المظفر الثاني بقوة محاربة فقتل هذا الأفضل بمكان يقال له شعب الديارة، ثم نزل المظفر إلى زبيد وأمر بنهبها، وخلع في ربيع الأول عام ٨٤٧هـ، وملك بعده المسعود صلاح الدين بن الأشرف بن الناصر وعمره لا يزيد عن ثلاث عشرة سنة، وظهر في أيامه أمر بني طاهر وبدأوا يتطلعون إلى الملك وأول ما فعلوه تأييدهم للمظفر المخلوع فساروا به إلى الحج وتبعهم المسعود بقوته فهزم بني طاهر وفر الملك المخلوع إلى بعض حصون تعز، واستنجد ثانياً بالشيخ عامر بن طاهر الذي حارب المسعود حتى صالحه على مغادرة تعز، وسار إلى عدن ثم تبعوه وقامت الحرب بين الفريقين وهزم فيها الملك المسعود وسمحوا له بالبقاء في حصن تعز عام ٨٥٤هـ وبقي فيه إلى ٥٨ والنزاع مستمر، والثائر عليه أيضاً في زبيد المؤيد حسين بن الظاهر الذي نصبه العبيد والغوغاء ملكاً عليهم، وجد الجد بين بني طاهر والمملك المسعود في عدن حتى تخلى عن الملك للدولة الجديدة، وهكذا انتهت دولة بني رسول وقد استمرت في اليمن مئتين وثلاثاً وثلاثين سنة من سنة ٦٢٥ إلى ٨٥٨هـ وكل شيء يزول ويفنى ولا =

دولة بني طاهر

لقد علمت من صحيح الخبر
وأهم ساروا بحسن نية
وكيف كان طاهرُ والناصرُ
وأعلم بأن طالع المسعود
وابتدأت أموره تنتفضُ
وانتصروا للملك المظفرِ

أمر الملوك من بني المظفر
والطاهرين بني أمية
ثم عليُّ والمليكُ الظاهرُ^(١)
أدخل سوسَ نحسه في العود
وأمر آل طاهرٍ ينتفضُ
على ابن عمّه بحكم القدر

= بقاء ولا دوام إلا لله ذي الجلال والإكرام، وملوك هذه الدولة أربعة عشر وهم على الترتيب هكذا: الملك المنصور عمر بن علي بن رسول، المظفر يوسف بن عمر، الأشرف علي بن المظفر، المؤيد داود بن المظفر، المجاهد علي بن المؤيد، الأفضل عباس بن المجاهد، الأشرف الثاني إسماعيل بن الأفضل، الناصر أحمد بن الأشرف الثاني، المنصور عبد الله ابن الناصر الأشرف الثالث إسماعيل بن الناصر، الظاهر يحيى بن الأفضل، الأشرف الرابع إسماعيل بن المنصور الثاني، المظفر يوسف بن المنصور الثاني، المسعود صلاح الدين ابن الأشرف إسماعيل بن الناصر، ((ولله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفوراً رحيماً)).

(١) طاهر المذكور هو ابن معوضة بن تاج الدين بن محمد بن سعيد بن عامر بن مسعود بن وهب بن فهر بن حراب القرشي الأموي، سبقت لك أخبار بني غسان عمر المنصور ويوسف المظفر وما تناسل منها كما سبق لك أيضاً بدء الاتصال بين الغسانيين وآل طاهر، فطاهر هو الذي اتصل بالملك الناصر وولده شمس الدين علي هو الذي اتصل بالملك الظاهر وصاهره وكانت النية بينهم حسنة وعطف بعضهم على بعض ليس إلا لوجه الله أو لكرم الملوك على رعاياهم، والآن ستعرف كيف نشأت الدولة الطاهرية وعندك طرف من تدخلها في الخلاف بين المظفر الثاني والمسعود صلاح الدين، وإليك ما بقي أو ما تيسر من أخبارهم.

والحرب بين الجانبين تستعر
وفي زبيد يحكم العبيد
لكنهم قد نَصَبوا المؤئدا
وحيثما سَلَّمَ أمرَ البلدِ
ودخلوا عليه وهو في عدن
فلقبوا علياً المجاهدا
أما أخوه عامرُ بنُ طاهرٍ
وطردوا من عدنَ جياشاً
وأحسننا صنعاً مع الحسينِ
معظماً مكرماً في داره
واشترى منه الحصونَ والخيلَ

منتصرٌ هذا وهذا منكر
ولا مظفرٌ ولا مسعودُ
أضعفَ أهله لساناً ويدا (١)
مسعودها جاؤوا إلى المؤئد
وتمَّ لابنِ طاهرٍ حكمُ اليمنِ
لما رأوا في يدهِ المقالدا
فلقبوه بالمليكِ الظافرِ
نائبَ مسعودِ الذي تلاشا
ولم يكن في كرمِ الإثنينِ
حتى انطوى السِجِلُّ عن أخباره
وأقبل الصبحُ وأدبر الليلُ (٢)

(١) حاصل ما تشتمل عليه هذه الآيات يعلم من آخر الفصل السابق، إلا أن العبيد في زبيد قد استبدوا بالأمر ولم يحتكموا لواحد من الملكين المتنازعين المظفر والمسعود، وإنما نصبوا رجلاً ثالثاً ضعيف اليد واللسان، وهو الذي لقبوه بالمؤيد وما هو الحقيقة بمؤيد، الحسين بن الظاهر وستعلم كيف انتهت نهايته ولكل شيء مقدماته، ومقدمات بني طاهر هو أن النحس لم يحقق للمسعود سعادته وأن طالع حظهم قد أوجد لهم أسباب تملكهم، والدنيا دول بين الناس ترفع أقواماً وتضع آخرين.

(٢) لما خلع نفسه الملك المسعود وخرج من عدن في ستة جمادى الأولى ٨٥٨ هـ دخلها بعده المؤيد وسار إليه الملكان عامر وعلي أبناء طاهر فتسلق على جبل التعكر ونزل إلى عدن ودخل عامر بجيوشه من الباب وأخذ من الحسين مدينة عدن وخزانتها وجميع ما في يديه من الحصون والسلاح ومختصات الملوك واشترى ذلك منه بالثمن وأحسننا إليه إحساناً كبيراً وكرماه تكريماً عظيماً وأسكناه داراً تليق به وأجرى عليه النفقة وتلقب علي بالمجاهد وعامر بالمظفر وأعلنا تملكهما على اليمن وانقضاء دولة بني رسول، وأول ما بدأ به في عدن طرد الأمير جياش بن سليمان السنبلي الذي كان نائباً عن المسعود، وإلى هنا أدبر ليل بني رسول وطلع فجر بني طاهر فرفعت الأعلام وجفت الصحف.

ومن زبيد جاء وفدُها إلى
واستسلمت لحكمه تمامه
وأظهر الطاعة في الجديدة
وابنُ أبي دجانة في السفن
يريد فتحها وكانت تسعا
وظل واقفاً على مراكبه
وهبت الريحُ فركبان
وابنُ أبي دجانة غريقُ
وبعد هذا كَلَّه في المأسر
والأمرُ في تاسعة من المئین

علي بن طاهرٍ مستعجلاً
وكان في استسلامها السلامه
حاكمها للدولة الجديدة^(١)
جاء من الشحر لثغرِ عدن
ورد عنها خائباً في المسعى
حتى أتى الظافرُ في مواكبه
تكسراً من شدة الطوفان
ومعه من قومه فريقُ
قد أسروه قربَ خورِ مكسر
في عامها الواحدِ والسنتين^(٢)

(١) مجرد ما سمع أهل زبيد بظهور الدولة الطاهرية بعثوا وفداً من قبلهم إلى الملك
المجاهد وأعلنوا طاعتهم وولاءهم له فأحسن استقبالهم وخرج من عدن ثالث شوال ٨٥٩
قاصداً تعز ونزل منها إلى موزع وحيس ودخل زبيد وقدمت بلاد التهام كلها طاعتها
للملك الجديد، أما الأمير إبراهيم بن عمر صاحب الجديدة فقد أظهر الطاعة قبل أن
يدخل الملك إلى زبيد وقبل أن يأتيه أحد بوعد ولا وعيد، وفي ٨٦٥ زحف الإمام المنصور
واسمه الناصر بن محمد بن الناصر بن أحمد بن الإمام المطهر يحيى بن المرتضى من ولد
الإمام الهادي يحيى بن الحسين زحف الناصر هذا على بلاد بني طاهر وهزمهم وقتل منهم
الأمير محمد شقيق الملكين عامر وعلي، ثم استولى المجاهد الطاهري في السنة التي تليها على
مدينة ذمار وفر منها الإمام إلى هزان ثم إلى صنعاء..

(٢) ابن أبي دجانة هو أمير الشحر بعد أبيه واسمه محمد بن سعيد بن مبارك بن
فارس الكندي، كان أبوه أميراً حازماً عازماً يدير الأمور بحكمة ويجتهد في توسيع إمارته
بكل وسيلة وأفضل الوسائل يومئذ هو الاقتصاد الذي كان الأمير سعيد معتنياً به إلى حد
بعيد فهو يصلح الأسواق ويخفف الضريبة ويحسن علاقات البيع والشراء بين رعيته وبين
جيرانهم ويرغب تجار حضرموت في ارتياد الشحر وتبادل التجارة مع أهلها في أمن على
أنفسهم وأموالهم وعدل فيما قد يحصل من الخلافات وحكمه كان في النصف الأول من =

وبعد هذا بقريب من عام
 وتم صلح بينهم والأخوين
 ثم بدا للأسد المستشري
 وسار عامراً بجيش منتصر
 تقدمت جيوش مولانا الإمام
 وعادت الحروب بين الطرفين
 في عدن غزو بلاد الشحر
 وجيش أهل الشحر ولي منكر (١)

= القرن التاسع ولما مات سعيد بادجانة خلفه ابنه محمد على إمارة الشحر وسمع بانهباء دولة بني رسول وإن أمر بني طاهر لم يكن قد بلغ أشده فطمع في غزو عدن والاستيلاء عليها وظن أن اختلاف القبائل وانتشار الفوضى سيساعده على مراده وزين له فكرته جماعة من أهل الكلديين لينتقموا من إخوانهم آل أحمد وقد غلب هؤلاء وانتصروا على الكلديين وطردوهم من عدن سابقاً وعارضت أم الأمير محمد بن سعيد هذه الفكرة ولكنه صمم عليها وأعد لها أسطولاً بحرياً مؤلفاً من تسع سفن شراعية سار بها إلى عدن وقابلته حامية بني طاهر فلم يتمكن من النزول وبينما هي راسية سفنه في البحر تنتظر الفرصة هبت عليها ريح عاصفة وأغرقت منها مركبتين كان الأمير بادجانة في أحدهما وغرق كثير من أصحابه ونجا هو بالسباحة إلا أن حامية عدن قد أسرته وكان الظافر عامر بن طاهر قد أقبل من اليمن ودخل بأسيره من خور مكسر إلى عدن والأسير راكب على جمل، ورجع الباقي من سفنه إلى الشحر بمن عليها من قبائل كنده والحموم والمهرة وغيرهم، وتوجهت أم الأمير إلى عدن تشفع في ولدها إلى السلطان عامر وقبل شفاعتها وأطلق سراحه ورجع مع أمه إلى بلاده، ويقال إنه ما عاش إلا قليلاً ثم مات موتاً طبيعياً أو مسموماً كما تقول رواية أخرى، ويقال أيضاً إنه رجع إلى الشحر في سنة ٨٨٣هـ من بلاد المهرة التي كان معتصماً بها أو لاجئاً إليها، أما غزوه لعدن فكان في سنة واحدة وستين من القرن التاسع.

(١) في صفر سنة ٨٦٢هـ تقدم الإمام محمد بن الناصر إلى بلاد بني طاهر وقابله الظافر عامر ثم حصل بينها صلح لم تطل مدته بل انتقض في رجب من هذه السنة، واستمرت الحرب بينها إلى أن مات الطاهري وهو محاصر لصنعاء وقد كان هذا الأسد المستشري الشجاع الوفق المنتصر في أكثر حروبه الهجومية والدفاعية كان غزا بلاد الشحر في سنة ٨٦٥هـ منتقماً من بادجانة أو مصالحاً لأمه التي سلمت إليه الشحر وقد سبقه إليها ابن أخيه عبد الملك بن داود وأمر بنهب المدينة ورفع عمه عامر هذا النهب، ولما استقر الأمر استخلف على الشحر أحمد بن شقر من قبل آل طاهر، وكاتبهم الأمير بدر بن محمد الكثيري وأصلح ما بينه وبينهم حتى استخلفوه على الشحر في سنة ٨٦٧هـ وذلك =

وبعد ما احتل بلاد الشحر
والحرب ما زالت من ابن الناصر
فيرة يأخذ هذا صنعا
حتى انتهت بقتل هذا الملك
وكان مغترباً بما حوالبه
رتب فيها أحمد بن شقر
تشتد بينه وبين عامر
ومرة يدفع عنها دفعا
وهو يخوض الحرب في المعترك
حتى أتاه قدر الله عليه (١)

= أول الأمر لآل كثير في الشحر ورجع إليها الأمراء من آل بادجانة واستمروا بها إلى أن أخذها في سنة ٩٠١ هـ جعفر بن عبد الله الكثيري.

(١) لما رجع الملك الظافر من الشحر إلى عدن بلغه أن الإمام المؤيد محمد بن الناصر قد استولى على ذمار فسار بجيشه بطارد الإمام حتى دخل صنعاء في شوال سنة ٨٦٧ هـ وصالح هذا الإمام على البقاء في ناحية من المدينة واستتاب عليها ابن أخيه عبد الوهاب ابن داود بن طاهر، وفي سنة ٨٦٩ هـ استولى المؤيد على صنعاء وطرد العامل الظاهري محمد بن عيسى البعداني، وجاء الملك الظافر في ألف وثلاثمائة فارس واستولى على صنعاء تماماً، ويقال إن الإمام المؤيد بن الناصر قد باعها بثمان بخرم معدودة، ولعله يتبلغ بهذا المال إلى أن تساعده الفرصة فيسترجع بلاده من الظاهريين، وأحس الملك الظافر بالقلق من الإمام فطلب من عامله أن يبعث به إليه وهو في زبيد، وثار الإمام لهذا الأمر فطرد العامل الظاهر واستولى على صنعاء وأقبل الملك الظافر يقود جيشاً كبيراً قد اغتر بكثرته ولم يتخذ الحزم الواجب لمقاتلة المؤيد، وجاء محمد بن عيسى شارب أحد أنصار الإمام في قوة قليلة نحو خمسة عشر فارساً خاض بها المعارك واعتز بها جانب الإمام وفتحت أبواب صنعاء وخرج أهلها للقتال فانتشر الذعر واندحش الظافر لما رأى الهزيمة حتى مات كمدأ وقيل إنه مات في المعركة وهو يقاتل على فرسه، والخلاصة أنه قتل أو مات في سنة ٨٧٠ هـ وهو منكسر وغير منتصر، والدنيا دول يوم لك ويوم عليك.

ثاني ملوك بني طاهر ومن بعده

لما استقلَّ بعدَ عامرٍ عليٌّ
تجنَّبَ الحربَ معَ الأئمَّةِ
مليئَةً بالعلمِ والعمرانِ
وضربَ المجاهدُ النقودا
بالملكِ في داني البلادِ والعلِيِّ
وأصبحت بلادُه مُهمَّةً
والخيرُ فيما اكتنفت الأمانِ
وما يزالُ عامرٌ موجودا
وذهبُ الأشرفِ حينَ ظهرا
تَرَكَهُ لشعبه مبعثراً
وأقطعَ الشامَ الحبشيَّ عمراً
شامَ زبيدَ حسباً بَروي الخبرِ (١)

(١) بعد ما قتل الملك الظافر عامر بن طاهر تفرد المجاهد علي بن طاهر بالملك في أعلى البلاد وأسفلها من سنة ٨٧٠هـ إلى أن توفي وتجنب الحرب مع الزيدية واشتغل بأمر بلاده ونشر فيها الأمن والطمأنينة، وبني المساجد والمدارس وشجع الناس على العمران ونشر العلم وما أحسن الأمرين إذا اجتمعا في زمان ومكان واحد، ويقال إن مآثره العمرانية كثيرة وبقي منها الكثير إلى عصور متأخرة، وكان قد سك النقود باسمه في حياة أخيه عامر وذلك في سنة ٨٦٤هـ، وفي أيامه ظهر بقرية واسط من أعمال زبيد الذهب الأشرفي الذي كان مدفوناً هناك فتركه المجاهد لرعيته ولم يأخذ منه ولم ينتزع من يد أحد شيئاً والله أعلم كم كان مقدار هذا الذهب وكيف توزعه الناس فيما بينهم ومن تركت له دنياه ترك لغيره آخرته ودنياه، وفي سنة ٨٧٦هـ السنة التي ظهر فيها الذهب أقطع المجاهد من شام زبيد بلاداً كثيرة للأمير عمر بن عبد العزيز الحبشي، وفي البدر الطالع، ترجم لهذا وسماه عمر بن مجد السراج وقال ولد في زبيد سنة ٨٠٦هـ إلى أن قال: ولما استولى علي بن طاهر على اليمن أكرم صاحب الترجمة ورتب له من الوقف ما يكفيه ثم قلده أمر الأوقاف وصرفها لمستحقها والإذن في النيابة لمن لا يحسن المباشرة، وقال أيضاً إن له مصنفات كثيرة وذكر بعضها وأن أهل اليمن الشافعية قد انتفعوا به وبعلمه طبقة بعد أخرى، ومات رحمه الله في صفر من سنة ٨٨٧هـ ولم يذكر اسم والده الصريح ولا أن المجاهد قد أقطعه شيئاً من تلك البلاد والله أعلم، وفي ترجمة الشيخ محمد بن علي =

وجاء وفدٌ من بني المجاهد
فأكرم الوفد وأعطى العربيُّ
من الجيادِ الصافناتِ معها
سافر في مرضه من عدن
وكان قد أوصى على رعيته
والملكُ الثالثُ عبدُ الوهابِ
في كتبه السَّرْموتِ عمّه
وعاد من بلاده سريماً
ومعه القمطُ واستقضاه
وأُقْبَت المنصورُ ثم في زبيد
سعدٍ إلى عليِّ المجاهد
للحبيشي من خيارِ الثُجَبِ
جميعُ ما يحتاجُ مَنْ مَعَمِعِهَا (١)
وموئته ودفئته في جن
نجلَ أخيه وهو في مَعِيَّتِهِ
وهو ابنُ داودَ اهتدى إلى الصوابِ
خشيةً أن يعارضوا في حكمه
لعدن من قبلِ أن تَضِيعَا
في عدن لأنه يَرْضَاهُ (٢)
أقام والمنصورُ عنها لا يَحِيدُ

= الحبيشي الإصباي صاحب كتاب نصيحة الطلاب، يقول الشارح: محمد بن علي بن محسن الحبيشي نسبة إلى قرية حبش بدون ياء من أصاب من بني المفتي المشهورين بتسلسل العلم فيهم من أسلافهم بحيث لم يتسلسل في بيت من البيوت مثلهم وهم قرشيون ينتسبون إلى عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.

(١) وفد على المجاهد الطاهري جماعة من بني المجاهد سعد الدين الحبيشي وكان بينهم وبين كفار الحبشة خلاف وحرب فأكرمهم وساعدهم الطاهري بما يليق به وبأمثاله وأعطاهم من الخيل النجبية مئة وخمسة أفراس بسرجهما ولجمها ومعها كل ما يلزم للفرسان من الدروع والسلاح ومع ذلك أشياء أخرى من الهدايا والتحف واتخذ به عندهم يداً بيضاء ورجعوا إلى بلادهم شاكرين. والمعنة: هي المعركة. ومن حرك الشيء بقوة فقد معمه.

(٢) في أول سنة ٨٨٣ هـ مرض الملك المجاهد آخر المحرم وهو في عدن فسار إلى بلاده ناحية جن وتوفي ودفن بها في شهر ربيع الأول وقد عهد بالملك إلى ابن أخيه عبد الوهاب بن داود بن طاهر وهو معه ولا يفارقه ولما مات عمه وفرغ من تجهيزه كتم السر ولم ينشر خبر الوفاة بل جاء مسرعاً إلى عدن ومعه جماعة من خاصته ومنهم القاضي جمال الدين القمط الذي استقضاه في عدن لما يعرف من غزارة علمه وعظيم إخلاصه.

وجاءه من عدن لَمَا ظَلَب
وبعد أن مات إلى بلاده
وبعد هذا الملك المنصور
وعامرٌ كان أشد من أبيه
خاضعةً له البلادُ السفلى
وتارةً يكون في رداع
وبعض آل طاهرٍ منشقٌ
وظل عبدُ الله وهو خاله
أما محمدُ بنُ عبد الملك
في عدن وكان أهلُ يافع
لكنه أجلاهم عن البلد
ووسع الخارجُ عبدُ الباقي

(١) رتب الملك عبد الوهاب أمور عدن بعد رجوعه إليها من جبن وقت له البيعة وتلقب بالمنصور ثم انتقل فوراً إلى زبيد واتخذها مقراً له ولم يفارقها حتى مات في جنادي الأولى سنة ٨٩٤هـ، ونقل منها إلى مقابر أهله ودفن معهم وكان قد طلب من عامله على عدن أن يبعث إليه بخراجها وما في خزانتها من النقود فامثل وأرسل بجميع ما لديه وقام بعده، الملك الرابع وهو ابنه عامر بن عبد الوهاب بن داود بن طاهر ولقب بالظافر، وصعد إلى جبال العرش، والخاضعة لسلطانه في أول الأمر عدن وأبين ولحج والشحر وحضرموت والتهاثم كلها واليمن الأسفل من تعز إلى رداع وذمار، ومن عهد الملك المجاهد والأحوال ساكنة بين الأئمة الزيدية وبني طاهر، وفي أيام عامر بن عبد الوهاب كان الإمام في صنعاء محمد بن الناصر موادعاً ومسالماً للملك عامر، وقد لجأ إليه بعض المنشقين من بني طاهر وزين له الناس أن يعلن الحرب ويغتنم فرصة الخلاف بين أهل البيت الواحد ولكنه أبي وفضل المسالمة وخاف على مملكته وسقوط عرشه في الوقت الذي يزداد فيه ابن عبد الوهاب توسعاً وظهوراً على من خالفه، ولحزمه ظل يتنقل في مملكته بين تعز وزبيد ورداع وذمار يتفقد أحوال رعيته ويحمي أطراف البلاد من الغارة عليها أو التفكير في غزوها.

وأشعل الحرب على ابن عمه
وحاولت يافع أن تنجليما
فردها طائفة لأمره
وكان في صنعا وكوبان
وجرع الظالم كأس ظليمه
وجيش عامر أتاهم مسرعا
راضية بخيره وشيره (١)
أئمة في ذلك الزمان

(١) بعد ثلاثة أيام من تولى السلطان عامر بن عبد الوهاب صعد إلى (المقرنة) وولى خاله عبد الله بن عامر بن طاهر وهو ابن عم أبيه وولاه على البلاد الشرقية ثم أفسد عليه في جماعة من أهله وتجهز عامر لمحاربة خاله ودارت المعارك بينها وقد استولى عبد الله على جبن ونهب خزائنها وبعد قتال مرير وقع الصلح على أربعين ألف دينار يدفعها السلطان لخاله ويقطعه جبل حرير وبلاد الشعب، وفي سنة ٩٠٧هـ غزا صنعاء وحاصرها أشهراً وفك الحصار عليها الإمام محمد بن علي الوشلي والأمير محمد بن الحسين الحمزي في محرم سنة ٩٠٨هـ، ورجع السلطان عامر إلى صنعاء في سنة ٩١٠هـ ودخلها بعد حرب ضروس وأسر الإمام الوشلي وأحمد بن الناصر، وامتد ملكه على صعدة وتهامة كلها وما يسامها من الحصون وتملك فيما بعد من أخواله الثائرين عليه فأسرهم وسجنهم حتى ماتوا واستراح منهم ودانت له اليمن كلها أعلاها وأسفلها، وقد جعل ابن أخيه محمد بن عبد الملك والياً على عدن وكلفه بشؤونها وتأديب العصاة فيها، وفي رجب من السنة التي توفي فيها السلطان عبد الوهاب وتولى ابنه عامر ظهر عصيان أهل يافع وتمردهم في عدن، ورأى الأمير محمد بن عبد الملك أن يخرجهم من عدن ويريح البلاد وأهلها من شرهم، فأجلى نحو خمسمائة من رجال يافع ونسائهم وأطفالهم، وظهر في لحج الشيخ عبد الباقي بن محمد ابن طاهر الذي قُتِلَ أبوه في الحرب مع الإمام الناصر وأراد أن يستولي على عدن وانضم إليه أهل يافع وجماعة من القبائل وزحف بهم إلى عدن وخرج لملاقاته الأمير محمد بن عبد الملك ودارت الحرب بين الفريقين وهزم فيها الشيخ عبد الباقي بعد ما كسرت يده وسقط منه السيف ولما رآه أصحابه منهزماً فاراً تبعوه في الهزيمة وظفر بهم أمير عدن فأسر منهم كثيرين قتل بعضهم وسمل عيون آخرين، واستمر أهل يافع في لجاجهم وظنوا أنه لا يقدر عليهم السلطان عامر ولا غيره وذلك دأبهم في عدم الطاعة والخضوع لأي حكومة حتى اليوم، وفي حال كتابة هذا وهم غير طائعين لحكومة اليمن ولا للحكومة الاتحاد في الجنوب العربي، ولكن عامر بن عبد الوهاب في سنة ٩٠٣هـ غزاهم ودخل بلادهم وأدب العصاة منهم وصاروا بعد ذلك من جملة رعيته، ورحم الله عامراً ما أحزمه وأشد بأسه.

وغيرهم أئمة بصغدة وكان بينهم وبين عامر وقام شخص مجرم يهودي وأصبح الملعون في كان وكان وما نزال ثم بعد عامر والخلف بينهم طويل المدة حرب وفيها خدع ابن الناصر (١) في أرض بيحان قوي العود حين خلا منه الزمان والمكان بقية من بيت آل طاهر (٢)

(١) وفي أول ما تملك عامر بن عبد الوهاب كانت في اليمن دويلات متعددة فبعثها ما يزال في قبضته وتحت يده وبعضها في يد الإمام المؤيد محمد الناصر صنعاء وما جاورها، وفي صعدة والشرف والظواهر أئمة يتنازعونها وهم الإمام الوشلي وأولاد المؤيد وآل المنصور، وفي كوكبان وما حوالها أولاد الإمام المطهر محمد بن سليمان، ودارت الحروب بين هؤلاء وبين بني طاهر وخدع الإمام محمد بن الناصر بموادته ومسألته للسلطان عامر فقد حط عليه وأخذ منه صنعاء، ومات في أسرة الإمام الوشلي وأحمد بن الناصر قيل مسمومين وقيل موتاً طبيعياً، والله أعلم.

(٢) في سنة ٩٠٥ هـ ظهر في بيحان رجل يهودي خبيث مجرم يركب الخيل ويظهر الشجاعة وعنده مال كثير فتن به العامة واستمال به الناس إليه وسمع السلطان عامر بخبره فخرج لا يظهر إلا أنه يريد الصيد ولما وصل بيحان أحاطت عساكره باليهودي وأجأوه إلى مكان ضيق فأسروه وقتل عدو الله واستراحت البلاد والعباد من شره، والمكان الذي لجأ إليه معروف بجبل (الشعبة) والناس يروون له أخباراً غير مضبوطة ولا يعول عليها في معرفة الحقيقة، والظاهر أن تلك السنة أو قبلها بقليل هي التي استولى فيها السلطان عامر على البلاد شرقي رداع، وسار منها إلى بيحان وحريب، ولآل طاهر قرية في السوادية وتعرف بالطاهرية، ومنهم جماعة في بيحان وفي أطراف حريب ويعرفون بآل طاهر، وشيخهم الحالي هو أحمد بن حسين بن صالح بن محسن بن منصر الطاهري، وكانت للسلطان عامر صلة متينة بالسيد أبي بكر بن عبد الله العيدروس العدني المتوفى في سنة ٩١٤ وهي التي وقع فيها الحريق بعدن واشتعلت نيرانه من المدرسة السفينانية إلى حافة اليهود، ويقال إن عامراً تحمل عن العيدروس ديوناً كثيرة وهب له أموالاً كثيرة، ومرة بعث إليه بقصيدتين يعاتبه فيها على التقصير في المكاتبه ورد الجواب على القصيدتين وهذا أحد الجوابين من الشيخ العيدروس:

يا حادي الأظعان لا تستريب وعج بوادي المنحنا والكثيب =

بقية من تاريخ بني طاهر

تَشَعَّبَتْ عَلَى ابْنِ عَبْدِ الْوَهَابِ
فَن خَلَافَاتٍ مَعَ الزَيْدِيَّةِ
إِلَى الْخَلَافَاتِ الَّتِي عَانَاهَا
أَمْرُهُ وَهُوَ الْقَوِيُّ وَالْمُهَابُ
كَثِيرَةٌ فِي الْجَهَةِ الْقِبْلِيَّةِ
مِنَ آلِ طَاهِرٍ وَقَدْ أَقْنَاهَا (١)

= وقبل الأرض التي حلها
عامر صلاح الدين ليث الوفا
الفاضل العادل سامي الذرى
من دوحه المنصور فرع نما
ما حاتم ما معن في جوده
من أمه مرتجياً فضله
قد عم بالجود جميع الورى
وسعه هدهد هذا وقد
خط من الباري على رعه
وليه الله وحسب له

(١) كثرة المشاكل الداخلية وتعدد الجبهات تضعف قوة الدولة مها كانت، وقد تشعبت الأمور على الظافر عامر بن عبد الوهاب، فله من الحروب مع الزيدية قبلي بلاده ما علمت، ومن أهله بني طاهر ما كاد يذهب بالملك ويخرجه من يده لولا حزمه في المحاربة والقضاء عليهم بعد المصالحة وهناك من أمر جازان واستغاثة آل قطب الدين بالمصارية ومهاجمة البرتغاليين للشواطىء اليمنية ما ينقص العيش ويسبب الضعف في التفكير السياسي وتوزيع القوة في الجبهات المتعددة، ولكن عامراً كان صلب العود وسديد الرأي وموفقاً في أعماله ومحبباً في رعيته ولذلك ثبت وانتصر على أعدائه ولم يفلت الزمام من يده حتى قتل وهو يجابه غزواً خارجياً وممالةً عليه من الزيدية الذين ينازعونه ملك اليمن =

وَأَكُّ قَطْبِ الدِّينِ فِي جَازَانَ
فَطَلَبُوا مِنْ مِصْرَآنِ تُيُدُّهُمْ
فَأَرْسَلَ الْغُورِي بِالشَّرَاكِسَةِ
وَهُمْ يُطَارِدُونَ جَيْشَ الْبِرْتِغَالِ
مِنْ نُصْرَةِ الْأَحْبَاشِ أَهْلِ الْكُفْرِ
فِي عَدَنَ وَفِي الْمَخَا وَانْقَلَبُوا
قَدْ أَخَذُوا مِنْ يَدِهِ الْعِمْنَانَ
بجيشها ليأخذوا بلادهم
جيش له يُعرفُ بالمُشَاكِسَةِ
والبُرْتِغَالِيُونَ يَبْغُونَ الْحَالَ
وحاربونا في شواطئ البحر
بغيبَةِ الْأَمَالِ حَيْثُ ذَهَبُوا (١)

= ويريدون القضاء عليه ولو بأي ثمن، والاختلافات العقائدية والتعصبات القبلية من أكبر العوامل في تصدع عرش الدولة وذهاب الوطن وتمكن الأعداء من التحكم فيه والاستبداد بخيراته وأهليه، وإليك ما نزل بعامر بن عبد الوهاب من التدخل الأجنبي في بلاده والله المستعان.

(١) كانت إمارة جازان للأشراف الغوانم حتى أخذها منهم آل قطب الدين الذين تأمر منهم خالد بن قطب الدين ثم ابنه دريب ثم ابنه أحمد بن دريب ثم ابنه مهدي بن أحمد ثم أخوه عز الدين بن أحمد، ثم تنازع الإمارة محمد بن يحيى وأحمد بن المهدي وتغلب محمد أولاً وبعده أحمد، وفي عهده قضى على هذه الإمارة في جازان، وكانت العلاقات بين الإماراتين السابقة واللاحقة حسنة مع بني الرسول ثم بني طاهر حتى شعر المهدي بن أحمد القطبي بفداحة الخراج الذي يدفعه لعامر بن عبد الوهاب وطمع في التوسع فأخذ يتشكى إلى السلطان قانصوه الغوري في مصر ويسمي ولده باسم السلطان وبعث وفداً من قبله بالتسمية ومعهم الهدايا والتحف ويطلب النجدة السريعة للأمير مهدي فاستقبلهم الغوري بالحفاوة والتكريم وأرسل معهم الجيش من الشراكسة المعروفين بالغلظة والقسوة والشراسة والمشاكسة وبعد وصولهم وإقامتهم قليلاً في جازان تقدموا إلى زبيد وهناك قوة مصرية تسير في البحر لمطاردة البرتغال المستعمرين واتخذت مقرها في جزيرة كمران، وقتل السلطان في معركة زبيد وانهزمت قواته أمام السلاح الجديد (البنادق النارية التي لم تكن معروفة قبل ذلك في اليمن) أما البرتغاليون والإنجليز والأفرنسيون والهولنديون فالمنافسة بينهم شديدة والحروب طاحنة لاستعمار الهند وشواطئ البلاد العربية والبرتغال أكثر هؤلاء طمعاً وأشدهم رغبة في توسعهم الاستعماري، وقد سيطروا على كثير من المدن السواحلية الهندية واتخذوا (جواً) مقراً ومركزاً لتحشداتهم ومعداتهم الحربية، وظلّت باقية تحت حكمهم حتى ضمها الهند مؤخراً بالقوة إليها وأصبحت ولاية =

لعامرٍ وحربةٍ تها
وفي زبيدٍ كان يومُ العسرِ
وانفتحت لجيشِ مصرَ الأبوابِ
شيئاً أمامَ قوةِ البنادقِ
وما رأوها قبلَ ذاكَ الزمنِ
وعامرٌ من هولهِ استَفَزَا
كادَ يَتِمُّ الصلحُ في البلادِ
قد جعلوا الظافرَ غيرَ ظافرِ
فانقلبت جيوشهم بالقرحِ
تعزُّ والفرصةُ كانت سائحة

وشرفَ الدينِ الإمامُ يحيى
رحبَ بالجيشِ القويِ المصريِ
إذ قُتلَ الأميرُ عبدُ الوهابِ
ولم يُفدُ بأسَ السلاحِ السابقِ
ولم تكنَ معروفةً باليمنِ
ثم مشى الجيشُ إلى تعزَا
ولكتابِ حسيِ البغداديِ
لكنَّ أصحابَ المليكِ الطاهريِ
وعارضوه في كتابِ الصلحِ
ووصلت جيوشُ مصرَ الفاتحة

= تابعة للهند، وفي سنة ٩١٠ هـ وصل إلى عدن أسطول برتغالي وأسر سفينة من الميناء وقتل بجاتها بصورة وحشية شنيعة وهم لا يطمعون في شيء من سواحل البحر الأحمر طمعهم في عدن والنخا أهم الموانئ وأحسنها للتجارة تصديراً وتوريداً، وكانت ملكة الحبشة هيلينا قد استعانت بملك البرتغال (عمانويل) في إخضاع البلاد الإسلامية المقابلة لسواحل الحبشة، وللبرتغاليين رغبة في ذلك فجاءت منهم قوة كبيرة عشرون سفينة بحرية تحمل ألفاً وسبعمائة من جنود البرتغال وسبعمائة من جنود الهند ووصلت هذه الحملة إلى عدن سنة ٩١٩ هـ، وكان لها مع الأمير جوهر الظافري خبر يذكر ثم يشكر، فقد استطاع كسر تلك القوة وهزمها حتى رجعت خائبة، ولكن بعد أن أحرقت السفن في ميناء صيرة وقتلت كثيراً من الجنود الطاهرية، والبسالة العربية وصحة العقيدة بأن الشهيد في مقاتلة الكفار صائر إلى الجنة تحب الموت في سبيل الله وتجعل المجاهدين يحرصون على ما عند الله أكثر من حرصهم على ما في أيديهم، وحب الموت يضمن طول البقاء والرغبة في الحياة تقرب الآجال كما قيل:

يقرب حب الموت آجالنا لنا وتكرهه آجالهم فتطول

وستأتيك بقية من أخبار البرتغاليين مع الجيوش المصرية والقوات العثمانية وهذه الحملة الأولى كانت في أيام عامر بن عبد الوهاب.

وزحفوا منها بقوم تسمى
 وقتلوا الأمير عبد الملك
 وأخذت جيوش عامر تفر
 وأبقن الملك بالهزيمة
 حتى رآه رجل في سموان
 وسلم الأسير للمساكر
 ثاني ربيع ثالثاً وعشرين
 وهم يُريدون جميعاً صنعا
 أصابه الرصاص في المعترك
 لما رأته رصاص مصر ينثر
 وضعت في نفسه العزيمة
 فصار عامر أسيراً واستكان
 وقتلوه في الصباح الباكر
 عاش قرن ثالثاً وعشرين (١)

(١) الإمام يحيى شرف الدين بن شمس الدين بن الإمام المهدي أحمد بن يحيى دعا
 إلى نفسه وأخذت له البيعة في شهر جمادى الأولى سنة ٩١٢ هـ هو الذي أخذ بالثار لأهله
 من السلطان عامر وقضى عليه وعلى دولته، ولما سمع بوجود المصريين في كمران كاتبهم
 وشكى إليهم بما لقي أهل البيت من العسف والجور وما نزل بنسائهم وذراهم واستفزز
 المصريين بهذه الشكاية ورجعهم في دخول اليمن وإزالة هذه الدولة دولة بني طاهر وبعد
 أخذ ورد بينهم وبين الإمام من جهة وبينهم وبين السلطان من جهة أخرى تقرر أن
 يستجيبوا للإمام وذلك حينما فشلت المحاولة للتفاهم مع السلطان عامر الذي استعانوا به
 على محاربة البرتغاليين وبعد ما حصل من الرد العنيف بالرأي السخيف من الأمير علي
 ابن محمد البغداني وهو من كبار الأمراء وهو المستشار الأول للملك الظاهر فنزلت جنودهم
 أول ما يكون بالحديدة وساروا إلى زبيد واستقبلهم الأميران عبد الملك بن عبد الوهاب
 صنو الملك وابنه عبد الوهاب بن عامر وفي تلك المعارك الشديدة قتل الأمير عبد الوهاب
 واستطاع عمه أن يأخذه من المعركة ويجعله بين يديه على الفرس ويشق به صفوف
 المحاربين ويقتل فيهم قتلاً ذريعاً ويفر بابن أخيه إلى تعز ولكن بعد أن سقطت زبيد، ثم
 يتقدم الجيش المصري إلى عدن وتكون فيها المعارك الدامية التي استطاع فيها الأمير جوهر
 الظافري أن يهزم المصريين ويردهم على أعقابهم، أما السلطان عامر فلما بلغته هذه
 الأخبار وهو في المقرانة نزل منها إلى اب وقصد زبيد وكانت الجيوش المصرية قد وصلت
 إلى تعز وشعروا بالخطر من تقدم السلطان فطلبوا منه الصلح ووسطوا في المخابرة بينهم
 وبينه علامة اليمن وفقهها الكبير أحمد بن عمر المزجد ولكنه تأخر وترك الوساطة ورجعت
 الرسل خائبة، وتقدم الملك إلى قرب زبيد، وبعد حرب مع الشراكسة رجع مهزوماً إلى
 تعز وقد قتل كثير من عسكره وأهله ونهبت أمواله، وفي سنة ٩٢٣ هـ في آخر المحرم زحف =

ورغم ما حلَّ بهذا البيت
بل ملكوا عامراً بعد عامر
لم يقف الأحياء بعد الميت
والملك الأول غير الآخر
وجمعوا فلو لهم واعتصبوا
للحرب صابرين لكن ذهبوا^(١)

= الجند المصري من زييد إلى تعز ووصلوا إليها سادس صفر وفر منهم الملك بدون محاربة ودخل إب فعاثوا فساداً في الأرض ونهبوا البلاد وصادروا الأموال وانتكوا الحرمات وفعلوا من الشر مثل ما فعلوا في زييد، ثم ساروا يريدون صنعاء وارتفع بعضهم إلى المقرنة وسبقهم إليها عامر بن عبد الوهاب واحتمل منها أهله ونساءه وما خف من أمواله ثم خرج منها ووصلوا إليها بعده وأخذوا كل شيء فيها من السلاح والعتاد والمال والممتلكات للدولة وللأهالي على السواء ووقع الخلاف بين الشراكسة وبعض العمال وشاء الله أن يقتل منهم عدد كبير، وسمع عامر بهذا فخامرته السرور وزحف ببقية من معه إلى صنعاء واعتزك مع المصريين وأهل صنعاء وقتل أخوه عبد الملك بن عبد الوهاب البطل المغوار والفارس الذي لا يشق له غبار أصابته رصاصة في صدره وخرَّ منها صريعاً ولما رآه أخوه الملك عامر خارت قواه وتحطمت أعصابه وتفرق من معه خوفاً من الرصاص المتناثر من البنادق المصرية، وفر الملك ماشياً على قدميه حتى رآه من عرفه من أهل سعوان فأسروه وقتلوه يوم الجمعة الثالث والعشرين ربيع ثاني من سنة ٩٢٣ هـ، وبذلك انتهى أمره والدوام لله وحده لا شريك له.

(١) حاولت بنو طاهر بعد مقتل الملك عامر بن عبد الوهاب أن تستعيد مجدها أو على الأقل تحافظ على ما بقي في يدها فنصب عامر بن داود بن طاهر عم الملك الأول رئيساً عليهم وحكم في عدن ولحج وأبين وحضرموت كلها وبعض أطراف اليمن وقد شعر الإمام شرف الدين بعزة جانبه وضعف عدوه الطاهري واستسلام مصر للسلطان سليم العثماني فأرسل ابنه المطهر لاحتلال نجران وطمع الملك الطاهري في استعادة ما أخذ من أهله وأن يأخذ بثأر ابن أخيه المقتول في صنعاء على ما عرفت فسير جيشاً بقيادة الشريف يحيى السراجي ومعه الأمير علي بن محمد البعداني وسمع الإمام بقدم جيش الطاهري فجهز لمقابلته وجاء بألني ناقة ومعها الجند الكثير وبعد أن أخذت رداً والتقى الجيشان بمحل يقال له موكل دارت المعارك العنيفة التي هزم فيها عامر بن داود وقتل من جيشه خلق لا يحصون، وأظهر المطهر من القسوة ما لا يليق بشرف أهل البيت فإنه قتل بيض الأسرى وأمر بعضهم بحمل الرؤوس والسير بها إلى صنعاء مع علمه بالنهي عن المثلة وبقول النبي صلى الله عليه وسلم «إذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم =

واستلمت مصر بنو عثمان
 وقُتِل الغوري في أرض حلب
 واستسلم الحجاز للسلطان
 وجيش مصر للخليفة انقلب
 وظلت الحروب في اشتعال
 توقد بالشجعان والأبطال (١)

= شفرته ولبرح ذبيحته» وإذا كان هذا في الحيوان المذبوح فما رأيك بالإنسان محارباً كان أو مسلماً، وكان جيش عامر بن داود ألفين وستمائة قتل في المعركة منهم ثلاثمائة وأسر ألفان وثلاثمائة فجيء بهم إلى المطهر وهو على بغلته فأمر بقتل ألف من الأسرى حتى غطيت حوافر بغلته بالدماء، ثم أمر بقطع رؤوسهم وحملها إلى مقر أبيه في صنعاء وسيرهم بعد ذلك إلى صعدة على تلك الجمال أما القائد الشريف يحيى السراجي فقد أسر وأمر بذبحه كذبح الشاة، وكان عامر معسكراً في قعطبة وصاحبه البعداني فقد توجه إلى القرانة ولما سمعا بالهزيمة فرّ عامر إلى الحد، والبعداني إلى الشعيب وبدا لهما تجهيز جيش آخر فانهم أيضاً وقتل البعداني ورجع عامر إلى عدن، وحصل هذا كله في سنة ٩٤١هـ، وفي الأمثال: لمن أنت يا دنيا قالت لقوم بعد آخرين.

(١) في السنة التي قتل فيها عامر بن عبد الوهاب قتل السلطان قانصوه الغوري سمع بقدوم السلطان سليم الفاتح فخرج لمقابلته وليرده عن مصر وقتل في حلب ودخل الجيش العثماني إلى مصر وقتل طومان الذي استخلفه الغوري على البلاد واستلم السلطان سليم من الأشراف مفاتيح الحرمين كما استلم من الخليفة المتوكل العباسي معالم الخلافة وسيأتي بيان هذا كله، ولما بلغ الخبر إلى المصريين في اليمن أظهروا الطاعة لبني عثمان ودعوا للسلطان سليم على المنابر، وخرج بعضهم القائد اسكندر باشا من صنعاء وتوجه بهم إلى زبيد وفي الطريق تلقته بعض القبائل اليمنية من حبيش والشوافي وغيرها فأخذوا كل ما معه من الخيل والبغال والإبل والأحمال وبقية الأموال من الذهب والفضة والمجوهرات وسائر ما أخذ المصريون من ممتلكات آل ظاهر الغالي منها والرخيص ودخل الأمير اسكندر إلى زبيد مغلولاً مكتفياً في آخر جمادى الأولى من السنة نفسها والمتبقون في صنعاء من الشراكسة يحاولون محاولة فاشلة الاحتفاظ بقوتهم وإثبات وجودهم حتى يأتيهم الأمر من مصر بما يفعلون، ووقعت بينهم وبين القبائل حرب طحنت منهم الكثير ورجعت منهم جماعة بعد ما حل بهم القرح والجرح في بني بهلول رجعوا إلى صنعاء، وأحاط بهم الأهالي في خامس شوال من السنة المذكورة فقتلوهم قتلاً وبددوهم شمالاً، والجزء من جنس العمل، ولم يكتسب العائدة من هذه التغيرات والتطورات أحد مثل ما كسبها الإمام شرف الدين وابنه المطهر (وكل شيء فعلوه في الزبر وكل صغير وكبير مستطر).

وقائدُ الأسطولِ في ثغرِ عدن
طلب عامراً يزورُ الأسطول
ثم انتهى الأمرُ بقتلِ مَنْ مَعَهُ
وليس هذا الفعلُ مما يُشكرُ

صار على البلادِ غيرَ مُؤتمِن
واحتمل القاتلُ ظلمَ المقتول
واللهُ أعطى ملكه وانتزعه
عليه هذا القائدُ المنتصرُ^(١)

(١) في سنة ٩٤٥هـ وصلت المراكب العثمانية إلى عدن واستأذن القائد البحري سليمان باشا من عامر بن داود أن ينزل المرضى إلى عدن لمعالجتهم وانتظار صحتهم فأذن السلطان ورحب بهم وأكرمهم وأرسل إلى القائد بالهدايا والمشروبات المختلفة وطلبه القائد لزيارة الأسطول ولتبادل التحية وللتعارف بينها، وتردد السلطان عامر في قبول الدعوة وألح عليه خاصة في الاستجابة وإظهار الولاء للخليفة العثماني فصعد إلى سفينة القائد واستقبله بالاحترام والتعظيم ولما أراد عامر بن داود أن ينصرف وينزل إلى البر أمر القائد بالقبض عليه وعلى من معه وقتلهم جميعاً وشنقهم على قطب السفينة خيانة منه وسوء تدبير وعدم تفكير في العواقب فهو غير مشكور على ما كان له من حسن النية ولا معذور فيما فعله ولكل غادر لواء ينصب يوم القيامة يعرف به ويقال هذه غدرة فلان بن فلان، وكان سليمان القائد يبرر موقفه بأن عامراً كان يرغب في نزول البرتغاليين إلى عدن وهو غير صحيح، والظاهر أنه فعل فعلته النكراء انتقاماً لمقتل ابن أخيه مصطفى محمود ولما أصابهم في سنة ٩٢١هـ على يد الأمير جوهرة الظافري، أما الجنود من المرضى فقد أخذوا سلاحهم وثاروا على أهل عدن واستولوا عليها تماماً، وبذلك ينتهي ملك بني طاهر وينتهي الحديث عن تاريخهم والدوام لله، وملكهم كان سبعاً وثمانين سنة من سنة ٨٥٨هـ إلى ٩٤٥هـ، وملوكهم خمسة الظافر عامر بن طاهر والمجاهد علي بن طاهر والمنصور عبد الوهاب بن داود والظافر عامر بن عبد الوهاب والأخير عامر بن داود، وسبحان من يعطي الملك من يشاء وينتزعه من يشاء وهو لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

من علماء وعباد ما قبل الألف

كما ألق الناس من المؤلفات
وعبروا بأفصح الكلام
فترجموا لملكٍ وعالمٍ
مثلي ابن سعيد والإمام ابن حجر
وابن عساكر وكالخطيب
مثلي ابن عبد البر وابن خلكان
وصنفوا من أحسن المصنفات
وأطلقوا أعنة الأقلام
وعابدين من صائمين وقائم
والشكبي والدّهبيّ المعتبر
وغيرهم من عالمٍ أديب
والحمويّ في كل عصرٍ ومكان (١)

(١) كتب التراجم العربية كثيرة والمترجم لهم لا يحصون ملوكاً وأمراء وعلماء وكتاب وشعراء وعباداً ووعاظاً وأجماً لا يحاط لهم بحد ولا ينتهي ذكرهم بعد، قبل ألف سنة من الهجرة وبعده إلى الآن وإلى ما شاء الله. وقد أحببت الإشارة إلى بعضهم وخاصة في عدن وحضرموت وبقية أنحاء اليمن والمؤرخ لا يقصر معلوماته على ما جرى من الحروب والخطوب وأخبار الحكومات والدول في الإنشاء والتعمير والتجارة والصناعة، ولا يكتفي بخبر التولية والعزل وقيام دولة بعد دولة، ولكنه يحتاج مع ذلك إلى معرفة الشخصيات البارزة في مواهبها وأخلاقها وما يختص به الواحد دون الآخرين في علمه وعمله وبلاغة منطقته وخارقه ذكائه وتحمل المكاره وحسن بلائه، وإن لم يتمكن من الكثير فالبركة في السير وما لا يدرك كله لا يترك كله، وقد كتب الناس وألفوا وجمعوا وصنفوا في ذكر الرجال كتباً لا يحاط بحصرها، فالمحدثون يعتنون بالجرح والتعديل في الرواة ونقله الأخبار، والأدباء يكتبون عن العظماء في مختلف البلدان، والعلماء يكتبون عن طبقات أهل الفن الواحد، وما أكثر طبقات القراء والمحدثين والفقهاء في مختلف المذاهب، والنحويين والشعراء وبعضهم يقتصر على أهل زمان واحد أو حرفة أو صفة أو قبيلة واحدة كما ستراه مفصلاً في هذا الفصل، فحمد بن سعيد بن منيع البصري الزهري أو الهاشمي بالولاء المتوفى سنة مئتين وثلاثين، قد جمع الشيء الكثير من الأخلاق والصفات للمذكورين في كتابه الطبقات المطبوع مؤخراً اثنين وثلاثين جزءاً، وقبله =

وعندنا كالجندي والأهـدي وكابن سمرّة الفقيه الأفضـل
وكالإمام العالم الشوكاني والشرحي والخزرجي اليماني

= أستاذه محمد بن عمر الواقدي صاحب المغازي والسير قد ذكر جملة من الأخبار والآثار وأصحابها، وللحافظ أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢هـ وهو صاحب كتاب فتح الباري على صحيح البخاري الذي وصلت إلى اليمن أول نسخة منه في سنة ٩٠١هـ ترجمة للصحابة في الإصابة وله تهذيب التهذيب وكتاب التقريب وتعجيل المنفعة ولسان الميزان والدرر الكامنة في أهل المئة الثامنة وفي هذه الكتب من الجرح والتعديل والمدح والقدح وبيان ما يحتاج إلى بيانه من أحوال الرجال والنساء والثناء العاطر على من يستحق الثناء من المتقدمين والمعاصرين له، وللإمام تاج الدين عبد الوهاب بن علي ابن عبد الكافي السبكي المتوفى سنة ٧٧١هـ كتاب طبقات الشافعية في ستة أجزاء، وللحافظ الذهبي المتوفى سنة ٧٧٣هـ كتاب تاريخ الإسلام في واحد وعشرين جزءاً وكتاب النبلاء في عشرين أو أكثر وله كتاب الميزان ثلاثة مجلدات وكتاب العبر في خمسة مجلدات المطبوع مؤخراً في الكويت المحروسة وله تذكرة الحفاظ وغيرها من الكتب في التاريخ والتراجم، ومن المؤرخين للبلدان والمترجمين لأهلها الحافظ أبو القاسم علي بن أبي محمد بن عساكر المتوفى سنة ٥٧١هـ في تاريخ دمشق الواقع في ثمانين مجلداً وقد طبع بعضها. والحافظ أبو بكر أحمد بن علي الخطيب المتوفى سنة ٤٦٣هـ في تاريخ بغداد عشرين مجلداً أو قريباً منها وعندنا منه أحد عشر مجلداً، وللحافظ محمد بن عبد الله الحاكم تاريخ نيسابور، ومثل هؤلاء كثيرون وللحافظ أبي عمر يوسف بن عبد البر الأندلسي المتوفى سنة وفاة الخطيب كتاب الاستيعاب في تراجم الأصحاب، وللشيخ شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان المتوفى سنة ٨٦١هـ كتابه الموسوم بوفيات الأعيان في مجلدين ضخمين وفيه ترجم لكثير من الملوك والعلماء والذين لا ينبغي جهلهم وعدم التعرف بما لهم من الآثار الجليلة والأعمال النبيلة، وللمؤرخ ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي المتوفى سنة ٦٢٢هـ معاجمه الثلاثة معجم البلدان وهو مع الذيل عليه في عشرة مجلدات كبار ومعجم الأدباء في عشرين مجلداً ومعجم الشعراء في أربعة مجلدات ولم أفق عليه، والله ما في هذه المعاجم الثلاثة من الخير والعلم الكثير، وغير هؤلاء في مختلف الأزمنة والأمكنة من ألف وصنف وأفاد وأجاد وجمع فأوعى من رجالات الأندلس والمغرب ومصر الشام والعراق والحجاز وصنعاء، والحق أنها ثروة علمية كما لا تغيب عليها الأمة العربية وهو فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وكلُّ هؤلاء لم يُقَصِّروا
 وها هنا نأتيك بالمطلوبِ
 فالشافعيُّ كان قد زار اليمن
 والأخوان العمالان همَّامٌ
 وعن أخيه وهبِّ الأخبارُ
 كان يقصُّ من أحاديثِ الأئمِّ

في ذكرِ أهلي الفضلِ ممَّنْ ظهروا (١)
 من ذكرِ بعضِ سادةِ الجنوبِ
 وأحمدُ بنُ حنبلٍ زار عدن
 بعدَ أبي هريرةَ نعمَ الإمامِ
 تروى وعنه نكتبُ الأسفارَ
 شيئاً كثيراً وروائعِ الحكمِ (٢)

(١) كتب في تراجم الرجال جماعة من علماء اليمن ومنهم بهاء الدين أبو عبد الله يوسف بن يعقوب الجندي نسبة إلى بلاد الجند المعروفة أو إلى قبيلة يقال لهم بنو جند من المعافر المتوفى سنة ٧٣٢هـ واسم كتابه السلوك في طبقات العلماء والملوك، أما الأهدل فهو الحسين بن عبد الرحمن بن محمد بن علي الحسيني العلوي المتوفى سنة ٨٥٥هـ واسم كتابه تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن، وابن سمرة هو أبو الخطاب عمر بن علي بن سمرة الجعدي الدثني المتوفى بعيد سنة ٨٥٦هـ وكتابه طبقات الفقهاء من أجل الكتب وهو الذي اعتمد عليه الشيخ الجندي في كتابه السلوك كما يقول هو نفسه، والشوكاني محمد ابن علي بن محمد الشوكاني نسبة إلى حصن شوكان في بلاد خولان صاحب التفسير فتح القدير وكتاب نيل الأوطار وغيرها من المؤلفات الكثيرة وهو المتوفى سنة ١٢٥٥هـ وكتابه المقصود هنا البدر الطالع في ترجمة من بعد القرن السابع، والشرحي أحمد بن عبد اللطيف الزبيدي الحنفي صاحب كتاب طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص، والخرزجي اليمني هو الشيخ علي بن حسن المتوفى في حدود سنة ٨٣٠هـ وكتابه العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية مشتمل على كثير من تراجم العلماء والفضلاء والمتوفين ما بين سنة ٦٢٥ إلى سنة وفاته رحمه الله، وليس من ذكرناهم الذين كتبوا في الموضوع فقط وإنما ذكرناهم على سبيل المثال، وإلا فغيرهم كثير ورحمة الله على الجميع.

(٢) محمد بن إدريس بن عباس بن عثمان بن شافع الشافعي المطليبي القرشي ولد بغزة أو بعسقلان من أرض فلسطين سنة ١٥٠هـ وصادف مولده وفاة أبي حنيفة الإمام الأعظم ونقل إلى مكة بعد سنتين من مولده وتوفي رحمه الله بمصر ودفن فيها في رجب سنة ٢٠٤هـ وعمره أربع وخمسون سنة ونشأ يتيماً في حجر أمه وجالس العلماء صغيراً وحفظ القرآن وهو ابن سبع سنين وأول ما كان مشغلاً به الشعر والأدب ثم التفت إلى الفقه والحديث حين دله الأئمة على الاشتغال بها وبذل قصارى الجهد في تعلمها والتوسع فيها رواية =

وكان في صنعا وفي أرض الجند
وقد تولّى بعده منصبه
طاووس القاضي على تلك البلد
ولده متابعاً مذهبه

= ودراية فأخذ على مسلم بن خالد الزنجي وسفيان بن عيينة وغيرهما ثم هاجر إلى المدينة فأخذ عن مالك بن أنس الأصبحي اليمني إمام دار الهجرة وسيد الفقهاء والمحدثين فيها وقرأ عليه الموطأ وأعجب به فأدبه وشجعه على الطلب وبشره بحسن مستقبله وعامله بالإكرام الذي يليق بشيخ كمالك وطالب كالشافعي، وولّي قضاء نجران في اليمن ثم دخل صنعاء ووشى به مطرف بن عبد الله المازني إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد فشدّه وثاقاً حماد البربري وبعث به إلى الرشيد ولما دخل عليه عرف فضله وسعة علمه فأكرمه وخلع عليه وقربه منه وبالجملة فنائب الشافعي كثيرة والمترجمون له من أعظم المؤرخين كداود الظاهري وأحمد بن الحسين البيهقي والفخر الرازي وغيرهم من المتقدمين والمتأخرين وإنما ذكرنا ما تيسر عنه لأنه ممن دخل اليمن وذاع صيته في أرجائها وأهل اليمن معظمهم على مذهبه رحمه الله، وزار عدن الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن علي ابن حنبل الشيباني البغدادي أحد أئمة الإسلام الأربعة المأخوذ بمذاهبهم في مختلف الأقطار الإسلامية ولد في سنة ١٦٤هـ وزار عدن في آخر القرن الثاني وذلك أنه سمع بإبراهيم بن الحكم بن أبان بن عثمان رضي الله عنه وأن عنده علماء كثيراً فقصده للأخذ عنه فلم يجده وقيل وجده ولكنه رآه دون ما بلغه عنه فقال لعمه مكث بن أبان في سبيل الله الدرهمات التي أنفقناها في سبيل الوصول إلى ابن أخيك وأقام في مسجد أبان، ونفذ ما عنده من المال فأجر نفسه مع الحماليين على ما يكفيه للضرورة، ورحل إلى صنعاء وأخذ عن عالمها الكبير عبد الرازق بن همام وعلم وفقره وحاجته فأعطاه عشرة دنانير واعتذر إليه بأنه لا يجد غيرها وسيأتي الله بخير منها فردها وقال لو أخذت شيئاً من مخلوق لأخذت منك يا أبا بكر، وتلمذ لعبد الملك الذماري، وامتحن في القول بخلق القرآن وضرب وعذب وصبر في ذات الله، وكان من أكبر تلاميذ الشافعي ومات في سنة ٢٤١هـ وشيع جنازته قرابة مليون مسلم من الرجال والنساء وأسلم يوم موته نحو عشرين ألفاً من اليهود والنصارى وليس له نظير في فقهه وزهده وورعه. أما الحديث فكان علمه الأوحد وقد جمع منه في مسنده أربعين ألف حديث وتلمذ له جماعة من المحدثين وفي مقدمتهم الشيخان البخاري ومسلم رضي الله عنهم وألحقنا بهم في دار كرامته آمين، والإخوان وهب بن منبه وهمام بن منبه كانا من علماء اليمن وعظماؤها، وقد قدمت لك شيئاً من ترجمة وهب بن منبه الصنعاني في أول الكتاب وهو الإخباري الكبير والقصاص الشهير =

ونسبوا عمرو بن دينارٍ إلى صنعا وصفوان هو ابنُ يعلى
 ومَعْمَرُ بنُ راشدٍ ثم هشامُ من علمائنا الكبارِ الأعلام
 وصاحبُ المصنّفِ الصنعاني عندَ المحدثين عالي الشان
 كمالكِ بنِ أنسٍ وسفيان والكلُّ عاصرَ الفضيلَ في الزمان^(١)

= والذي يقال إنه قرأ الكتب السماوية كلها وعنه تؤخذ الأخبار وتتلأ من علمه الأسفار، وأبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي اليمني رضي الله عنه من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يرو أحد من الحديث مثل ما رواه خمسة آلاف وثلاثمائة وأربعة وسبعين وتلاميذه لا يقلون عن ثمانئة من الصحابة ومن أبناء الصحابة ومن غيرهم، ومن أجل تلاميذه همام بن منبه الصنعاني الأبنوي وأخذ عنه أخوه وهب وشيخ أهل الحديث في اليمن معمر بن راشد وتوفي همام رحمه الله في سنة ١٣٢هـ.

(١) طاووس بن كيسان اليماني الحميري أو الهمداني مولا هم كنيته أبو عبد الرحمن وكان في صنعاء وتولى القضاء بمخلاف الجند وهو ممن يضرب به المثل في العلم النافع والعمل الصالح، روى عن ابن عباس وابن عمر وعائشة وأبي هريرة وغيرهم وروى عنه ابنه عبد الله ومجاهد بن جبر وعمرو بن دينار وغيرهم، وتوفي على الأصح في سنة ١٠٦هـ، واستعمل على القضاء بعده ابنه عبد الله الذي وصفه الإمام النووي بأنه الصالح بن الصالح، وكان يتبع مذهب أبيه فيما عرف من أقضيته، وممن ينسب إلى صنعاء فهو من أهلها أو من الواقدين إليها أبو محمد عمرو بن دينار الجمحي مولا هم أخذ عن ابن عمر وابن عمرو وابن عباس وجابر والمسور بن مخرمة وغيرهم من الصحابة، كما أخذ عن كثير من التابعين الكبار وعنه جعفر الصادق بن محمد الباقر وأيوب وقتادة ومسعر وابن أبي نجيح وغيرهم، وتوفي سنة ١٢٦هـ، وصفوان بن يعلى بن أمية أو ابن منية بسكون النون وتخفيف التحتية التميمي، وذكره ابن سمرة في فقهاء اليمن، وأبوه كان عاملاً لعمر ابن الخطاب على بعض اليمن واستعمله عثمان على صنعاء ويحتمل أن يكون صفوان مولوداً في اليمن أو جاء مع أبيه إليها وقد روى صفوان عن أبيه وروى عنه الزهري وعطاء بن حبان، ولا أعرف تاريخ وفاته، ومن علماء اليمن وأعلامها الكبار معمر بن راشد بن أبي عمرو البصري مولى عبد السلام بن صالح، سكن اليمن واشتهر بها ولما دخل صنعاء كرهوا خروجه من عندهم فقال رجل: قيده فزوجوه وكان هذا قيده، وقال أحمد بن عبد الله سكن معمر صنعاء اليمن وتزوج بها وقصده سفيان بن عيينة إلى صنعاء وأخذ عنه هناك وهو في اليمن مثل سفيان بمكة ومالك في المدينة، وأخذ عن شيوخ لا يحصون ومنهم =

ولأبي عمرو الإمام القاري
وبعدهم موسى بن طارق وقد
كالعدني محمد بن يحيى
وغير هؤلاء قومٌ تثرى
تَجَوُّكٌ في هذه الديار
شازكه في وصفه من لا يُعَدُّ
وكان قاضياً بتلك الأحيا
في عدن وفي البلاد الأخرى (١)

= الزهري وعمرو بن دينار وقتادة بن دعامة وهمام بن منبه ومحمد بن المنكدر وعاصم الأحول وعاصم بن أبي النجود وهشام بن عروة، وروى عنه عبد الرزاق الصنعاني وبعض شيوخه كـيحيى بن أبي كثير وعمرو بن دينار وأيوب السختياني، ومن أخذ عنه سفيان ابن عيينة وسفيان الثوري وابن جريج وآخرون، ومن اليمين هشام بن يوسف قاضي صنعاء وهو من الأبناء سمع معمرأ وابن جريج وأخذ عنه ابن المديني وهو من رواة الصحيح مات سنة ١٩٧هـ قبل عبد الرزاق، أما عبد الرزاق بن همام الصنعاني صاحب كتاب المصنف فهو الذي رحل إليه أحمد بن حنبل وعلي بن المديني وهو أيضاً يروي عن ابن حنبل وترجم له في طبقات الحنابلة وتوفي سنة ١١ أو ٢١٢هـ، وهو من المعاصرين لمالك وسفيان والفضيل بن عياض ويرحم الله الجميع.

(١) ومن الذين زاروا اليمن وتجولوا في أقطارها ونزلوا بديارها تارة بعدن وتارة بصنعاء الإمام أبو عمرو بن العلاء التيمي أحد القراء السبعة كان أبوه أو عمه عاملاً للحجاج فصادره وفر مع أبي عمرو إلى اليمن وهذا الإمام مترجم له في طبقات القراء واللغويين وهو من الفقهاء والمحدثين وشهرته أكبر من الترجمة له، وتوفي سنة ١٥٤هـ وقيل بعد ذلك، وموسى بن طارق اللحجي هو أبو قره كان حافظاً فقيهاً يتردد بين الجند ولحج وعدن وزبيد ومكة وأدرك نافع بن أبي نعيم وقرأ عليه، وله جامع في السنن ومؤلفات أخرى منتزعة من فقه أبي حنيفة ومالك ومعمر وابن جريج والسفيانيين ابن عيينة والثوري، ولقي هؤلاء جميعاً وأخذ عنهم، ومن نظرائه والمشاركين له في صفتي الفقه والحديث محمد بن يحيى بن أبي عمر القاضي نزيل مكة، روى الحديث عن أبيه وعن الفضيل بن عياض وابن عيينة ووكيع بن الجراح وغيرهم، ومن تلاميذه الإمامان مسلم بن الحجاج القشيري ومحمد بن عيسى الترمذي، ويقال إنه حج ستين مرة ماشياً على قدميه، وتوفي رحمه الله سنة ٢١٠هـ، وغير هؤلاء من عظماء اليمن في العصور القديمة آخرون في حضرموت وصنعاء وعدن وغيرها من العواصم والمدن اليمنية وقد سبقهم إليها من الصحابة الجمل الغفير، وذكرنا منهم العمال للنبي صلى الله عليه وسلم وللخلفاء الراشدين بعده.

والفقه والحديث بعد ذلك
والشافعي لم يكن مذهبه
كالزرقاني وابن عمران اسمه
وبعد هؤلاء جاء القاسم
وأخذوا في الفقه والحديث
ونفع الله به الكثير
والفقهاء بعده جُلُّهمو
كالصردفي وجعفر الخثائي
والعالم ابن سمرة قد انتهى
للحنفيين وصحب مالك
يُعرف إلا يوم جاء صحبه
موسى وزاد في المراغي علمه
الجمحي القرشي العالم
عنه وكان حسن التحديث
وأرشد الصغير والكبير
إليه يُنسبون أو كُتِّموا
وزيد اليفاعي ذي الرخاء
من ذكرهم في طبقات الفقهاء (١)

(١) اشتهر في اليمن قبل المذهب الشافعي ثلاثة مذاهب فقهية مذهب الزيدية والذي نشره في اليمن أول ما يكون هو الإمام الهادي يحيى بن الحسين صاحب صعدة وتقدم ذكره، ومذهب الحنفية أتباع الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت العراقي المتوفى سنة ١٥٠هـ وكان أصحاب المذهبين المالكي والحنفي أكثر من غيرهم عدداً وعناية بالفقه والحديث حتى ظهر وانتشر مذهب الإمام الشافعي على أيدي جماعة من أصحابه وأشهرهم القاسم بن محمد بن عبد الله الجمحي القرشي المولود في سَهْفَنَة، والمتوفى بها سنة ٤٣٧هـ معاصر للسلطان أحمد بن عبد الله الكرندي وهو أول من نشر المذهب الشافعي في صنعاء والجند وعدن وتفقه القاسم في وسط القرن الرابع بزبيد على يد الشيخ أبي بكر بن المضرب وهو عن ابن المثنى وهو عن القاضي أبي حامد أحمد بن عامر المروزي وهو عن أبي إسحق إبراهيم بن محمد المروزي أيضاً وهو عن أحمد بن عمر بن سريج وهو عن عثمان ابن سعيد بن بشار الأنطاقي، وهو عن إبراهيم بن يحيى المزني وعن الربيع بن سليمان المرادي والاثنان عن الشافعي الإمام رضي الله عنهم، كما تفقه القاسم الجمحي على يد عبد الله بن علي الزرقان المرادي ورحل القاسم إلى مكة ولقي فيها أبا بكر أحمد بن إبراهيم المروزي وذكر له ابن سمرة جملة مشايخ أخذ عنهم الفقه والحديث والقراءات وعلم الكلام، وأخذ عنه العلم جماعة منهم إسحق العشاري المعافري وجعفر بن عبد الرحيم الخثائي وعمر بن إسحق المصوعي وابنه عبد الله وأخذ عنه في سوق ظباء أيوب بن محمد ابن كديش وإبراهيم بن أبي عمران وعبد الملك بن أبي ميسرة وأسعد بن خلاد ومحمد بن =

فصل تابع لما قبله

من الذين قرأوا المهدباً
 جماعةً على أبي إسحق
 ومنهم القاضي حسين الطبري
 والبندنجي وابن عبدويه
 والأولان غيرَ يَمَنِين
 وخدموا للشافعي المذهباً
 جاؤوا إليه وهو في العراق
 يا لك من قاضي فقيهٍ أثري
 وكانت الأموالُ في يديه
 لا البندنجي ولا القاضي حسين (١)

= سالم بن عبدالله بن زيد، فهؤلاء المشهورون من جملة أصحابه رضي الله عنهم أجمعين، أما الشيخ إسحق بن يوسف بن يعقوب الصردفي الفقيه الفرضي فهو من تلاميذ الخثالي والعشاري وكلاهما من تلاميذ القاسم الجمحي كما علمت، ومن الفقهاء قبله موسى بن عمران والحسين بن جعفر المراغي وعبد الله بن علي الزرقاني وقد استوفى تراجم الجميع وأثنى عليهم بما يستحقون أبو الخطاب بن سمره في كتابه طبقات فقهاء اليمن، وأنا في هذا الفصل وفي الذي يليه سائر وراءه وراو لأخباره والعمدة بعد الله على الكتاب المذكور مع ما لدي بحمد الله من المراجع الأخرى. وقد اختصرت وأوجزت قدر الإمكان، وما هو بالاختصار القليل اللفظ والكثير المعنى، ولكنه المستطاع وليس على المرء إلا ما يستطيع وسيجعل الله بعد عسر يسراً، وبعد الحياة ذكراً حسناً وأجراً إن شاء الله.

(١) في المذهب الشافعي كتب كثيرة ومن أجلها قدراً وأشهرها ذكراً كتاب المهدب لأبي إسحق إبراهيم بن علي الشيرازي وهو الذي لا يوجد له نظير في كتب الخلاف، وقد شرحه جماعة من الفقهاء اليمنيين وغيرهم والشرح الذي بأيدي الناس اليوم وعليه الاعتماد عند الشافعية (المجموع) لأبي زكريا يحيى بن شرف الدين النووي، وقد قرأ المهدب على مؤلفه من كبار الشافعية القاضي حسين بن علي الطبري وأبو نصر محمد بن هبة الله البندنجي وأبو عبد الله محمد بن الحسن بن عبدويه المهروباري قرأوه عليه في بغداد، وتوفي صاحب المهدب في أول العقد التاسع أواخر الثامن من القرن الخامس، ورجع الثلاثة إلى مكة وتوفي بها البندنجي قبل القاضي حسين بقليل، وصلى عليه، =

ولابن عبدويه قدر سامي
والعلماء البارزون في اليمن
وفي زبيد ثم في الجزيرة
وخلف الله عليه المالا
وآلف الإرشاد في الأصول
وزاره في كمران العلما
وأرجع الله عليه بصره
وان تحدثنا عن العُمران

يَعْرِفُهُ النَجْدِيُّ وَالتِّهَامِيُّ
قَدْ أَخَذُوا عَلَيْهِ وَهُوَ فِي عَدَنَ
وُتْهِبَتْ أَمْوَالُهُ الْكَثِيرَةُ
فَكَانَ رِزْقاً طَيِّباً حَلَالاً
لِفَقْهَاءِ الْمَذْهَبِ الْفَحْوَلِ
وَكَانَ فِيهَا قَدْ أَصَابَةَ الْقَمَى
ثُمَّ أَمَاتَهُ بِهَا وَأَقْبَرَهُ (١)
يَحْيَى وَعَنْ كِتَابِهِ الْبَيَانُ

= وكان بينها شيء من الخلاف المعتاد بين الفقهاء، ومات القاضي حسين الفقيه المحدث المفسر الأصولي المتكلم في حدود سنة ٥٠٠هـ، وله ذرية بمكة معروفون بالخير والصلاح، ومن هذا فهمت أن الشيخين البنديجي والطبري ليسا يمينيين ولكنه تتلمذ لهما بعض فقهاء اليمن وانتفع الناس بهما، ورحمة الله على العلماء السابقين واللاحقين.

(١) أما أبو عبد الله بن عبدويه فهو من أبناء التجار المتنقلين في البحار، سكن عدن وتحول منها إلى زبيد ولما أغار المفضل بن أبي البركات على زبيد في سنة ٤٩٧هـ وملوكها ويومئذ بنو نجاح انتهبت أموال الشيخ كلها فصبر واحتسب ماله صدقة على آخذه أو أنه لم يطالب أحداً منهم بشيء، ثم سار إلى جزيرة كمران وخلف الله عليه أموالاً كثيرة وقصده العلماء لزيارته والأخذ عنه، ومن زاره في كمران الفقيه عبد الله بن أحمد بن أحمد ابن عبد الله الهمداني ورفيقه عبد الله بن يحيى الصعبي وزيد بن الحسن الفايشي وعمر بن أسعد السَّلَالي وعيسى بن عبد الملك المعافري ويحيى بن محمد بن أبي عمران وعمر بن عبد العزيز بن أبي قرّة وأخوه عبدالله وراجح بن كهلان وأسعد بن أبي زيد التباعي وغيرهم، وكان وجيهاً محترماً مفخماً يتصدق من أمواله بالشيء الكثير ولا يأكل إلا من أطيب الحلال وتوفي له ولد جليل القدر كثير العلم اسمه عبد الله ووفاته قبل أبيه بسنتين، ومن مؤلفات الشيخ محمد بن عبدويه كتاب الإرشاد في علم الأصول وقرأه عليه الشيخ يحيى بن أبي عمران، وتوفي سنة ٥٢٥هـ وعمره ثمان وثمانون سنة، وكان قد عمي ثم رد الله عليه بصره ووفاته في جزيرة كمران وقبره وولد المذکور معروفان مشهوران إلى جانب المسجد. ولهذا الشيخ ترجمة في كتاب السلوك وكتاب الثغر (ثغر عدن) وهو من أكبر رواة المهذب وخدمة المذهب، ويرحمه الله.

فإنما نأتيك باليسير
قد أخذ العلم عن اليفاعي
وقرأ الإرشاد لابن عبدويه
أما التلاميذ فكانوا جملة
ولده الطاهر وابن عمه
وطاهر كان أبؤه محمد
أما بنو عمومة الشيخ الكبير

كقطرة من بحره الفزير
وامتلات من علمه الأوعي
يا حبذا القاري ومَن يُقرأ عليه
له بذي السفال أودي جيله
وآخرون انتفعوا بعلمه
في عدن يقضي ونعم الولد
فهم كثير وهم خير كثير^(١)

(١) ولد الإمام العالم العلامة سيد فقهاء اليمن في الجبال وتهامة الذي سارت بذكره الركبان وعجز أن يأتي بمثله الزمان، الشيخ يحيى بن أبي الخير بن سالم بن أسعد بن عبد الله بن محمد بن موسى بن عمران العمراني ولد في سنة ٤٨٩هـ وتوفي سنة ٥٥٨هـ وتفقه بخاله أبي الفتوح بن عثمان بن أسعد العمراني وقرأ عليه كتاب الكافي في الفرائض للصدفي، وتفقه أيضاً بموسى بن علي الصعبي وقرأ عليه التنبيه للشيرازي، ومن شيوخه عبد الله بن أحمد بن محمد الهمداني وحفظ عليه المهذب واللمع للشيرازي أيضاً، ومنهم الإمام زيد بن الحسن الفايشي وأعاد عليه المهذب وقرأ عليه كتاب الغريب في الحديث لأبي عبيد ومختصر العين للخوافي، ومن مشايخه في مسائل الدور الفقيه عمر بن بيض، ولما قدم إلى الجند الفقيه زيد بن عبد الله اليفاعي رحل إليه صاحب الترجمة مع جماعة من أصحابه وتلاميذه فقرأ عليه كتاب النكت وغيره ولازمه حتى مات بالجند ثم رجع إلى سفينة، فقرأ على القاضي مسلم بن أبي البركات الصعبي كتاب الحروف السبعة في علم الكلام والتوحيد وأصول الدين للحسين بن جعفر المراغي، وفي ذي أشرق سمع كتاب الجامع للإمام الترمذي على الشيخ سالم بن عبد الله بن محمد اليزيدي وقرأ كتباً كثيرة على اليفاعي واستأذنه في تلخيصها والتعليق عليها وأذن له، ولما رجع لقي بمكة الشريف محمد بن أحمد العثماني الديباجي وذاكره فتناظرا وتذاكرا في مسائل الفقه والأصول وقرأ كتاب الإرشاد في الأصول على مؤلفه ابن عبدويه في جزيرة كمران، وسمع الإمام يحيى كتاب التبصرة لأبي الفتوح في مدرستي الشيخين الفايشي واليفاعي والشيخان يرويان كتاب التبصرة عن أبي نصر البندنجي، ومن أجل مؤلفاته كتاب البيان الذي استغرق في تأليفه ست سنوات وهو يقع في أحد عشر مجلداً، وتنقل من مصنعة سير إلى ذي السفال إلى ذي أشرق إلى ضراس وأخيراً رجع إلى ذي السفال وتوفي =

وليفاعي اتصالاً في الحرم بالبندنجي والحسين المحترم
وعنها قد أخذ الفوائد ونقل الجواهر الفرائدا (١)
وأصبحت من فقهاء الدين جماعة تُعَدُّ بالمئتين

= بها رحمه الله، وله تلاميذ فقهاء أئمة من أهله ومن غير أهله ومنهم ابن عمه محمد بن موسى ابن حسين العمراني وهو أرفعهم درجة وأعلاهم رتبة، وأول من قرأ على الشيخ يحيى بن أبي الخير ولده طاهر وكان فرعاً مثنماً من أصل طيب، ولطاهر هذا ولد جليل القدر واسع العلم تولى قضاء عدن وهو الذي أشرنا إليه بقولنا:

وطاهر كان ابنه محمد في عدن يقضي ونعم الولد

ولد في سنة ٥٤٦هـ وتفقّه بوالده ودرس الناس في عدن سيرة ابن هشام ورحل إلى مكة في طلب العلم، وتوفي في بضعة عشر وستمائة هجرية وتاريخ الوفاة بالضبط والتحديد غير معروف والله أعلم.

(١) اسم اليفاعي زيد بن عبد الله بن جعفر بن إبراهيم نسبة إلى قرية يقال لها يفاعه، ويعد شيخ مشايخ اليمن وأستاذ أساتذتها الكبار تفقه بصهره الشيخ إسحق بن يوسف الصردفي وقرأ عليه الفقه والفرائض والحساب ثم بالإمام أبي بكر بن جعفر قرأ عليه كتاب الفروع لسليم بن أيوب الرازي، ورحل إلى مكة أول مرة وأدرك الشيخين البندنجي والقاضي حسين وقرأ عليهما، وطريقته في كتابي المهذب والتبصرة على الشيخ البندنجي، ورجع إلى اليمن ودرس به الناس من يعرفه ومن لا يعرفه سبيله في التدريس غير سبيل أبي بكر بن جعفر فإن الأخير وهو أستاذ الأول كان لا يدرس إلا من عرف حسبه ونسبه. وأصله من المعافر سكن الجند واجتمع له من الطلبة الكبار زهاء مئتي رجل أو ثلاثمائة، وحسده على كثرة أتباعه وخاف منهم الأمير المفضل أبو البركات ودبر الحيلة في تفريق الناس عنه وتكوين الأحزاب الفقهية في الجند ليغري العداوة بينهم وليشغلهم بأنفسهم عن منازعته والاعتراض عليه، وهاجر الإمام زيد المترجم له مرة أخرى إلى مكة وأقام بها اثنتي عشرة سنة ودرس في الحرم آخذاً ومأخوذاً عنه وله في اليمن أموال كثيرة وكان ينفق منها ويقارض فيها وصارت أمواله رابحة، ويا حبذا المال الكثير مع العلم النافع والعمل الصالح وأعانه ذلك بعد وفاة الشيخين البندنجي والطبري على أن يكون العلم المفرد والمدرس المفتي الأوحده في الحرم الشريف، ورجع في سنة ٥١٣هـ إلى اليمن وقد مات عدوه المفضل بن أبي البركات، وكانت له وجاهة عند الملكة السيدة الصليحية تقبل شفاعته ولا ترد له طلباً، وتوفي رحمه الله في سنة ٥١٤هـ.

يتابعون مذهب ابن إدريس
وقد سكنوا مختلف الجهات
وربما تعرف عن تريم
ويذكرون سابقاً ولاحقاً
وعدنا وأبيننا ويافع
واليوم لا يوجد في هذي البلاد
والعلم لا يذهب من كل بلد
في الحكيم والفتوى وأمر التدريس
وجلثهم يُحسب في الثقة
عنايةً بالعلم والتعليم
رجالاً حضرموت والعوالقا
ولحج والضالع والرعا
مُرَجَّحٌ أو صالحٌ للاجتهاد
إلا بموت علمائها العمُد (١)

(١) بعد من ذكرنا من مشاهير الفقهاء الشافعية وكيف دخلوا بهذا المذهب إلى اليمن تعلم أنه قد انتشر كثيراً في القرن السادس وما بعده وأصبح رجال يعدون بالمئات في مختلف الجهات وتراجهم تدل على سعة علمهم وعنايتهم بالتعليم والتأليف للمبسوطات والمختصرات ورواة الحديث منهم كثيرون ولكنه من المتعسر إن لم يكن متعذراً ذكر أسمائهم جميعاً والترجمة لكل واحد منهم لا سيما من قام بالفتوى والتدريس والوعظ والإرشاد فقط فهؤلاء لا شك تضيق بالحديث عنهم الكتب الكبار ومجلدات الأسفار، ومن وجد منهم حنفياً أو مالكيّاً فهو بالنسبة للشافعية أقل من القليل، ولا ننازع في كثرة العلماء الزيدية المتقدم منهم والمتأخر في القراءات والتفسير والحديث والمسائل الفقهية الاجتهادية بيد أن الجهات التي يسكنها الشافعية هي أكثر وأوسع من جهات الزيدية وسبق ذكر جماعة من علماء تريم من السادة الباعلوي وغيرهم وليس في تريم دون غيرها من مدن حضرموت بل هم في تريم وسيئون والغرفة وشبام وعينات وغيرها من مدن الساحل والداخل كالمشايخ آل بافضل وآل الخطيب وآل باعباد وآل باوزير، ويوجد في بقية الجهات الجنوبية كعدن ولحج وأبين وإب وجبله وزبيد وبلاد الأجمود ودثينة وبيحان والعوالق خلق لا يحصون وقد عرفوا بالفقه والتصوف وإن شئت معرفة الكثيرين منهم فراجع الكتب للجندي وثمر عدن لباعمرمة وتحفة الزمن للأهدل وكتاب النسب الذي لم يطبع حتى الآن لباعمرمة أيضاً وفيه ذكر العلماء المنسويين إلى هذه البلدان، ومع الأسف لا نجد اليوم فيها من العلماء إلا قليلاً يعدون على الأصابع، وفي الحديث الشريف (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه ولكن يقبض العلم بموت العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً فسألوهم فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا) وإلى ما قبل =

وكان غير الشافعية الكرام
 فمن موالك ومن أحنافٍ
 وكل قوم وهم تراجم
 والمتصوفون في الإسلام
 مثل القشيري والجنيد وهما
 طوائف تتبع في الفقه الإمام
 وشيعة زيدية أشرف
 تذكر أخذ عالم من عالم^(١)
 في مصر والعراق والشئام
 شيخان والأخذ الكثير عنها

= سنوات قليلة كان عندنا في جنوب الجزيرة من يعد بالعشرات بل بالمئات من الفقهاء والمحدثين ورجال الشعر والأدب رواية ودراية، واليوم لا يوجد منهم إلا أفراد لا يصلحون للتدريس فضلاً عن الفتوى والقضاء أما المرجح أو المجتهد فقد فقدناهما منذ عهد بعيد، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١) يوجد في اليمن كما علمت بعض المالكية والحنفية، أما المالكية فلا نعرف منهم أحداً في الوقت الحاضر، وأما الحنفية فتوجد منهم جماعة في زبيد والحديدة وبعض التهام وهم يمنيون في الأصل وقد يكونون من الهنود الذين استوطنوا السواحل اليمنية الحما والحديدة، أما في عدن فالمسلمون من الهند كلهم حنفية ولكنه لا يوجد لهم رئيس يؤخذ عنه الفقه لا في العبادات ولا في غيرها وإنما يتعصبون للانتساب إلى أبي حنيفة ومساجدهم في عدن مشروط على أئمتها العمل بالمذهب الحنفي فهم لا يبسمون في أول القراءة ولا يؤمنون عليها والمأموم لا يقرأ الفاتحة بعد الإمام والقنوت قبل الركوع وصلاة الوتر مثل صلاة المغرب، وهذا جل ما يعملون به من مذهب الحنفية وآخر من عرفت من كبار علمائهم هو الشاب الأديب الفقيه الشاعر الخطيب الذي زارني في عدن عدة مرات ووضع تاريخاً لبناء مسجد العسقلاني يوم جاء ونحن مشغولون بعمارته فقال: «مسجدكم الأغر ١٣٦٩هـ» والمذكور هو الشيخ محمد بن عبد الله عامومفتي الحديدة رحمه الله، أما الشيعة الزيدية فهم ولاية الحكم في اليمن وهم يقولون بالاجتهاد مطلقاً متى ما توفرت شروطه في المجتهد، ولا بد عندهم في الإمام أن يكون مجتهداً بالفعل أو بالقوة ومؤلفاتهم في مختلف العلوم تدل على غزارة علمهم وكثرة إطلاعهم ومجاراتهم في الرأي لحوادث الزمان وكثيراً ما يتفقون مع الحنفية في مسائل الفروع لوجوب الزكاة في مال اليتيم وفي كل ما يخرج من الأرض إلا الحطب والحشيش ومسائل أخرى في العبادات والمعاملات والأنكحة، وتطلب معرفة ذلك من كتب الخلاف وشروح الحديث كسبل السلام للأمر الصنعاني ونيل الأوطار للشوكاني.

والشيخ عبد القادر الجيلاني ولا بن عربي حالاً ثاني
مذهبه ك مذهب الحلاج والناس فيهم هالك وناجي (١)

(١) ذكرت لك من الفقهاء رجالاً عدة وخاصة من الشافعية في اليمن، وههنا نذكر بعض رجال الصوفية المشهورين في الأقطار الإسلامية فمن المصريين ذو النون ثوبان بن إبراهيم النوي مولى لقريش وكان من شيوخ الطريقة ومن أقدمهم تتلمذ لشقران العابد وهو معدود من رواة الموطأ للإمام مالك، وقد ترجم له في كتب الصوفية وما يكاد يخلو من ذكره كتاب من كتبهم ولا يجله أحد من كبارهم، وتوفي سنة ٢٤٥هـ أو بعدها بسنة أو سنتين: أما القشيري أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري الفقيه المفسر المحدث الأصولي الشاعر الأديب الشافعي المذهب والأشعري المعتقد صاحب كتاب التيسير في علم التفسير وصاحب الرسالة القشيرية المشهورة في رجال الطريقة، وتتلמד لأبي علي الدقاق الصوفي المشهور وابن فورك الشافعي، ونظر في كتب القاضي أبي بكر الباقلاني وصاحب الإمام أحمد بن حسين البيهقي والشيخ محمد الجويني والد إمام الحرمين، وذكره الخطيب في تاريخ بغداد فقال: قدم علينا يعني إلى بغداد في سنة ٤٤٨هـ وحدث ببغداد وكتبنا عنه وكان ثقة حسن الوعظ مليح الإشارة، انتهى. وتوفي رحمه الله في ربيع الثاني ٤٦٥هـ في نيسابور، والجنيد هو أبو القاسم بن محمد بن الجنيد الخزاز القواريري أصله من نهاوند ومولده ونشأته بالعراق وتفقّه على أبي ثور صاحب الشافعي وقيل إنه كان على مذهب سفيان بن سعيد الثوري، وصحب خاله السري السقطي والحارث المحاسبي الصوفيان الكبيران، وصحبه أبو العباس بن سريج الفقيه الشافعي، ومن كلامه مذهبنا هذا مقيد بالأصول من الكتاب والسنة وله كلام طيب يدل على حسن سلوكه وطيب استقامته وأنه لا يتعدى حدود الشريعة ولا يقول شيئاً من المعروف عند الصوفية في الشطح والإدعاءات الباطلة من علم الغيب أو الحلولية التي فتن بها كثير منهم، وهو عابد زاهد وضارب بسهم وافر من علوم الشريعة، وتوفي رحمه الله في سنة ٢٩٧هـ ودفن في بغداد، وأبو القاسم القشيري وأبو القاسم الجنيد يعتبران من أجل أهل هذا الشأن وهما يقتدى وعلى طريقتهما يحتذى، والجيلاني هو الشيخ عبد القادر بن أبي صالح موسى جنكي دوست بن أبي عبد الله بن يحيى بن محمد بن داود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي ابن أبي طالب عليهم السلام، لا يعرف تاريخ ولادته والظاهر أنها في سنة ٤٧٠هـ وكانت بأرض جيلان وإليها ينسب، ودخل بغداد وهو ابن ثمانين سنة ووصفه ابن قدامة المقدسي بقوله شيخنا شيخ الإمام محيي الدين أبو محمد عبد القادر الجيلي نحيف البدن =

أما الذين في بلادِ الطهر
 قَجُّهُمْ كانوا ذُوو زهَادَه
 مثلُ أبي الخير ومثلُ ابنِ جميل
 والشيخ أحمد بنِ علوانَ وقد
 وربما يُروى من الكراماتِ
 بلادنا من عبدها والحرّ
 قد عُرفوا بالعلم والعبادة
 ومثلُ أحمد بنِ موسى بنِ العجيل
 يُروى عن الجميع ما لا يُعتمد
 ما لا يصحُّ في الحياةِ والمماتِ

= ربع القامة عريض الصدر عريض اللحية طويلها. أسمر مقرون الحاجبين أدهج العينين ذو صوت جهوري وسمت بهي وقدر علي وعلم وفي رضي الله عنه انتهى، وجلس للوعظ في شوال سنة ٥٢١هـ، قال بعض واصفيه: ولقد كان مع جلاله قدره وعلو منزلته وسعة علمه يقف مع الصغير ويوقر الكبير ويبدأ بالسلام ويجالس الضعفاء ويتواضع للفقراء وما قام لأحد من العطاء والأعيان ولا ألم بباب وزير قط ولا سلطان، والشيخ الجليلاني رحمه الله فقيه محدث حنبلي المذهب عامل بالشريعة متصوف لا يجيد عن الطريقة المثلى ولا يتقول على الله بغير علم ولا يدعي أنها أحلت له المحرمات أو سقطت عنه التكاليف كما يزعم بعض مريديه وتوفي سنة ٥٦١هـ عن عمر تسعين سنة ودفن في بغداد ولا يروى لأحد من الكرامات واستجابة الدعوات مثل ما يروى للشيخ عبد القادر الجليلاني رحمه الله أما ابن عربي محيي الدين محمد بن علي بن محمد من آل عبد الله بن حاتم طي، المتوفى سنة ٦٣٨هـ في دمشق وهو الذي ملأ الآذان صيته وانتشر ذكره في موطنه الأول بالأندلس ثم حيث تجول في البلاد الإسلامية فهو وحسين بن منصور الحلاج حالهما مخالف تماماً لأحوال المتصوفين في الإسلام، فالشيخان حلوليان ويقولان بوحدة الوجود، وفي كتاب الفصوص والفتوحات المكية وغيرها من كتب ابن عربي وما يروى عنه من الأمور المخالفة للشريعة وكذلك ما يروى عن الحلاج من الكفر الصريح كقوله: «أنا الله وما في الجية إلا الله» فذلك مخالف تماماً لتعاليم الإسلام ويستحقان عليه القتل، وقد قتل الحلاج شر قتلة وأحرق بالنار سنة ٣٢٢هـ وذلك في خلافة الراضي بالله العباسي، والناس في أمر الرجلين الحلاج وابن عربي فريقان أحدهما يقر ما كانا عليه ويزعم أنها من أولياء الرحمن والآخر يقول كافران شقيان ومحسوبان من أولياء الشيطان، ومن تمسك بالشريعة في الحكم عليها فهو ناج إن شاء الله ومن رضي بحالهما وتأول الباطل منها فهو هالك وسالك بأشر المسالك، «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبؤكم بما كنتم تعملون».

وَنَحْنُ لَا نَزُومُنُ بِالْخَوَارِقِ وَلَا بِمَا لِلْقَوْمِ مِنْ طَرَائِقِ
إِلَّا إِذَا وَافَقَتِ الْإِسْلَامَا وَالتَزَمَتْ أَصْحَابُهَا الْأَحْكَامَا
وَمَا زَوَّوْا مِنْ كَذِبٍ وَصَدَقَ نَنْبِذُهُ إِنْ كَانَ غَيْرَ الْحَقِّ (١)

(١) يوجد في اليمن بلاد العلم والعرفان والعمل الصالح والإيمان وطهر القلب واللسان جماعة من الصوفية الذين عرفوا بالعلم والعبادة والورع والزهادة كالمذكورين في هذه الأبيات من العبيد مثل جوهر بن عبد الله، وريحان بن عبد الله الحبشيان العدنيان، ومن الأحرار ما لا يعد ولا يحصى، ومنهم أبو الخير بن منصور بن شماغ السعدي وابنه أحمد وأبو الخير مشهور بالفقه والحديث والتصوف، وقرأ عليه ملك اليمن المؤيد بن المظفر سنن أبي داود وأصله من حضرموت واستوطن زبيد ومات بها سنة ٦٨٠هـ، وابنه أبو العباس أحمد توفي سنة ٧٢٩ وأبو الغيث بن جميل من الموالي ولا يعرف نسبه، وكان من قطاع الطريق ثم تصوف وتبتل، وليس له عقب، وأخذ عن علماء زبيد، ثم خرج إلى مكان يقال له بيت عطاء وفيه توفي سنة ٦٥١هـ، وترجمته طويلة في طبقات الخواص وغيرها، وابن عجيل هو الشيخ الفقيه الصوفي أحمد بن موسى بن علي بن عمر العجيل صاحب بيت الفقيه قرب زبيد ومحل اعتقاده الزرائق وهو كما يسمى بالفقيه وله أخوان لا يقلان عن فضله ولكن الشيخ اشتهر بهامة، وأخواه بالحجاز وجبال اليمن ولبنى عجيل ذرية كثيرة ويزعم الجهال أنهم سادة علويون وذلك غير صحيح، وتوفي الشيخ أحمد بن موسى بن عجيل سنة ٦٩٠هـ أيام الملك المظفر بن رسول، والشيخ أحمد بن علوان بن عطاق بن يوسف من آل موسى الجون ابن عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن بن علي عليهم السلام، وكان أبوه كاتباً بباب السلطان المظفر وأراد الشيخ أحمد أن يحل محل أبيه فقصده السلطان وحصل له في الطريق ما صرفه عن قصده وجعله يشتغل بالعلم والعبادة، وكانت له مؤلفات تدل على علمه ومعرفته بأحوال الصوفية وهي موجودة اليوم في أيدي الناس إلا أن كثيراً منها قد عبثت بها أقلام الكتاب وزادتها مع الإشكال إشكالاً، وله شعر جيد وديوانه محفوظ وله مسائل يخالف فيها الفقهاء وله مع علماء الزيدية هجمات شعرية وفي قصائده رد عليهم فلتراجع، وتنسب إليه كرامات لا يصدقها العقل وربما كانت مخالفة ولا تجوزها الشريعة، وعقائد الناس فيه غير صحيحة، وربما أهوه وطلبوا منه ما لا يقدر عليه مخلوق في ضر ولا نفع، وله مجاذيب وخدم يدعون الانتساب إليه وتظهر على أيديهم خوارق من العادات كبقر البطون وقلع العيون وقد فتن به من لا علم ولا عقل له، ومات سنة ٦٦٥هـ، وعلى قبره بيفرس قبة عظيمة وتابوت مرصع وهم يقصدونه =

كتب التراجم

ترجم علامتنا الشوكاني
لمن أتى من بعد قرنٍ سابع
وفي كتاب الدرر الكامنة
للحافظ المحدث ابن حجر
وللسخاوي الضياء اللامع
والعيدروس بنور سافر
لجملة من عظماء الشأن
في سفره البدر المنير الطالع
يذكر أهل المئة الثامنة
أعلم أهل عصره بالأثر
بيّن فيه أهل قرنٍ تاسع
أظهر من جاء بقرنٍ عاشر (١)

= بزيارته وعرض حاجاتهم عليه، ولما رأى الإمام أحمد بن حنبل الدين وهو ولي عهد اليمن ما يقع من المنكرات من اختلاط النساء بالرجال وتقديم الهدايا والندور وتخصيص أيام من السنة لزيارة الشيخين ابن عجيل وابن علوان هدم القبرين وطمسها حتى ما يعرفان، وليس هؤلاء الذين ذكرناهم هم المتصوفون في اليمن دون غيرهم بل هناك من أمثال البجلي والحكمي والسودي والنهاري ومحمد بن يعقوب أبي حربة وغيرهم الكثير الطيب، ونحن ممن يحب الصالحين ويذكرهم بما يستحقون ولكننا نكره الغلو والإطراء فيهم، ولا نصدق بما يضاف إليهم من الصفات ولا ما ينسب إليهم من الكرامات وخوارق العادات التي تخالف العقل والنقل كرد أرواح الميتين وجعل البحر في إبريق والصعود إلى السماء وعلم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، وما روي من ذلك فهو باطل مهما يكن راويه ولا يصدق به إلا مختل في عقله أو ناقص في دينه وحاشا على من تفقه في دين الله أن يدعي لنفسه ما لا يكون إلا لله، ومن شاء أن يضحك أو يعجب لما سجل من تلك الخرافات فليقرأ كتب الكرامات التي سببت الإلحاد أو جعلت من أولئك الرجال الشركاء والأنداد (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله).

(١) كتب التراجم التي هي من خير ما يقرأ ومن أجل ما يروى الكتب المؤلفة بعد القرن السابع أما التي قبلها فقد ذكرنا لك بعضها ونقلنا عنها في هذا التاريخ ما يحتاج =

ولزيارة بنشر العرف بيان أهل الفضل بعد الألف
أيضاً وفي كتابه نيل الوطر يذكّر أهل قرنيه الثالث عشر (١)

= إليه العالم والباحث عن العطاء وما عظموا به، والذي في هذا الفصل من أحسن ما وقفنا عليه البدر الطالع فيمن بعد القرن السابع للقاضي العلامة محمد بن علي الشوكاني وعليه ذيل للسيد زبارة وهو في مجلدين، ثم كتاب الدرر الكامنة في تراجم أهل المئة الثامنة للمحافظ ابن حجر العسقلاني وهو في أربعة مجلدات، والواقع أن أهل تلك المئة في مصر خاصة وفي البلاد الإسلامية عامة كانوا من الأشخاص البارزين في مختلف العلوم وما أظن بلاد الكنانة قد أنجبت من أبنائها مثل أهل القرن الثامن وللشيخ عبد الرحمن السخاوي كتاب الضياء اللامع بتراجم أهل القرن التاسع، وللسيد عبد القادر بن شيخ العيدروس كتاب النور السافر في ترجمة أهل القرن العاشر، وهذا ما نعرفه في الموضوع والذي لا نعرفه قد يكون أكثر وأكثر.

(١) السيد زبارة هو شيخنا وأستاذنا بقية المحققين ومفخرة المؤرخين محمد بن محمد ابن يحيى بن عبد الله بن أحمد بن إسماعيل بن الحسين بن أحمد زبارة الحسني الصنعائي، اشتهر بالتأليف وجمع من كتب التراجم ما لم يجمعه غيره وله كتاب نشر العرف لنبلأه اليمن بعد الألف ويقع في مجلدين كبيرين وقد اشتمل على ذكر جماعة من الملوك والأئمة والعلماء والشعراء والكتاب وأعلام اللغة وفيه النكت الأدبية والملح اليمينية وما أظنه إلا حائز قصب السبق في هذا الميدان وصاحب القدر المعلى في بيان أحوال فلانة وفلان، والمؤلف قريب العهد فهو المتوفى في سادس عشر ذي الحجة سنة ١٣٨٠هـ، وقد رثاه جماعة من الشعراء وحشرت نفسي معهم وإن لم أكن منهم، وفاء بحق الشيخ على التلميذ كيف لا وأنا الحامل لجميع أسانيده في كل ما يرويه عن اليمينين وغيرهم، وأول ما عرفته في سنة ١٣٥٥هـ في مدينة عدن فأجازني مشافهة وأخيراً كتب إلى من صنعاء بما يرفعي قدراً ويزيدني حداً لله وشكراً، ومن مرثاتي فيه رحمه الله أقول:

لذوال ملك أو سقوط وزاره	والله ما تبكي القلوب حزينة
وكؤوس حنظلها أشد مرارة	كلا ولا لحوادث مسودة
بعد الفقيد محمد بن زبارة	لكنها تبكي وتندب حظها
وقضى الحياة إمارة وسفارة	أعني الذي شغل المناصب مجده
في كفه كمؤذن بمنارة =	ما مات إلا واليراع مسبح

ترجمَ للمأموم منا والإمام
معاصراً وعلمه كثير^(١)
تراجمُ لآل باعلوي
لجملة من أهل هذي الجهة
في ثغر عدن مع المهجورة
ترجمة لشعراء الأحقاف^(٢)
عنه التراجمُ التي تسجلت
والشاعرُ المفلقُ والنبية

والزركلي في كتاب الأعلام
وإنه لكاتبٌ قديرٌ
وفي كتابِ المشرعِ الرّوي
وترجم القاضي أبو مخرمه
وذكر المساجد المعمورة
وللأديب السيد ابن السقاف
وإن منا لكثيراً أغفلت
ومهم الصوفي والفقيه

= ومضت فيها إلى أن أقول :

وقطفنت من بستانه أثماره
نيد التي أروي بها أخباره
وأكون في دار الكرامة جاره

لما أتى عدن العزيزة زرته
وإليّ من صنعاء قد كتب الأسا
فسأله يرحمه ويجمعنا به

وله رحمه الله نبيل الوطر في ترجمة أهل القرن الثالث عشر في مجلدين أيضاً، ومن آخر
مؤلفاته أئمة اليمن في القرن الرابع عشر.

(١) خير الدين الزركلي كاتب معاصر اشتغل بالعلم والسياسة والصحافة وأصدر
كتابه الكبير الموسوم بالأعلام طبع مرتين أو أكثر وهو في الأخيرة عشرة مجلدات ويؤسفني
أنه غير موجود عندي ولكنه بلغني عنه أنه شامل جامع لأعلام الإسلام من المأموم والإمام
وفيه علمٌ جمٌّ والاسم يدل على المسمى.

(٢) المشرع الروي في تراجم آل باعلوي للسيد محمد بن أبي بكر الشلي في مجلد
واحد ذكر فيه سادة حضرموت ومن تفرع عنهم وليت أشياء مما فيه حذف حتى لا تكون
حجة على كاتبه وقارئه وراويه، وفي موضوعه كتاب الجواهر الشفاف في مناقب السادة
الأشراف والكتابان من ينبوع واحد، وللشيخ الطيب بن عبد الله بن أحمد باخرمه كتاب
قلادة النحر ترجم فيه لأهل ثغر عدن ممن ولد بها أو عاش فيها أو وفد إليها وفيه ذكر
مساجد عدن المعمور منها والمهجور، وللسيد عبد الله بن محمد بن حامد السقاف باعلوي
كتاب شعراء الأحقاف في ثلاثة مجلدات.

وأَسألَ اللهُ عَظِيمَ المِینِ تسهیلَ جِیعِ عِظاءِ عِدنِ
 وإِنا لِبِلْدَةٍ مَأهُولَةٍ بِالْعِلماءِ وَرِجالِ الدِولَةِ
 والأدبِاءِ فی الزمانِ الحاضِرِ فیها کَثیرُ شاعِرٍ وَنائِرٍ^(١)

(١) فی جنوب الجزيرة كله من يستحق أن يترجم له ولكن الكتب أهملت ذكر من يعتز بذكره ويفتخر بانتسابه إلى الجنوب العربي من الشعراء والفقهاء والصوفية وأصحاب المواهب العظيمة في مختلف الشؤون خاصة في الأيام الأخيرة، والناس يعرفون من أغفلت ذكره التراجم من أولئك إما حسداً وإما لعدم شهرتهم، وربما كان في المغمور من هو خير من المذكور المشهور، والمعاصرة حجاب كثيف وليس في مقدور كل أحد أن يقوم بالواجب الكفائي وإنما نحمد الله على وجود المتأهلين للقيام بهذه المهمة، ونلتمس لهم العذر ولا ننسب التقصير إليهم، فرمى أن مشاغلم الشخصية أو اشتغالهم بالأهم يبرر موقفهم، ونؤمل إن شاء الله أن يتيسر وضع كتاب يشتمل على العطاء في عدن وخاصة بعد كتاب الشيخ باحمره قلادة النحر، ولولا العجز والاعتماد على من هو خير مني لحاولت القيام بالواجب مع قلة البضاعة وعدم إتقان الصناعة والأمر يومئذ لله، وفي عدن من المشاهد والمعان ما يزيدنا يقيناً بأنها كانت وما زالت مأهولة بأهل الفضل من العلماء والأدباء والسياسيين ومن أدبائها المعاصرين من نفخر به وإن اختلفنا معهم في المبادئ والاتجاهات، ونحن نقدر للعاملين أعمالهم ولا نختلف معهم جيعاً وإن اختلفنا في شيء واحد لا في كل شيء، ولولا خشية التطويل لذكرت لك من عباقرة عدن وإنتاجهم الأدبي قليلاً طيباً أمثال لقمان المحامي ولقمان الصحافي ولقمان المؤرخ ولقمان السياسي، ومن الشعراء والأساتذة التربويين السيد محمد عبده غانم ولطفي أمان ومحمد سعيد جرادة، ورحم الله فقيدنا الأديب الشاعر عبد المجيد محمد الأصنج الذي أقول في رثائه:

عبد المجيد عليك العلم والأدب	يبكي وتبكي عيون الشعر والخنطب
والدين واللغة الفصحى وما اشتملت	عليه في كل علم هذه الكتب
يا خير من صور المعنى وأخرجه	في خير لفظ كما يستخرج الذهب
لمن تركت القوافي وهي خاوية	على عروش المعاني ما لهن أب

ومنذ بداية الحرب العالمية الثانية ظهرت في عدن قرابة ستين صحيفة دينية وعلمية وسياسية واجتماعية وفنية ظهرت في عدن والشيخعثمان والتواهي وكثرتها تدلك على كثرة من يكتب فيها..

والشكر لله وللكتاب
 وفي بلاد ابن حميد الدين
 وكل هؤلاء قد جاءوا بما
 وللرجال والنساء ترجموا
 وإنما ذكرت بعض الكتب
 والجمع بين أدب وتاريخ
 في حضرموت الشيب والشباب
 من علماء أدب ودين
 يُرضي الصغار وكبار العلماء
 ممن تقدموا ومن تقدموا
 محبةً مني لعلم الأدب
 مثل العناقيد على الشماريخ^(١)

(١) ليس هذا الفصل كله مقصوداً على العديين دون غيرهم، ولكنه يوجد في حضرموت من يستحق الشكر والتقدير من رجالها الكبار والصغار والشبان والشبان، وكذلك في اليمن التي كانت وأنا أنظم هذا الفصل تحت عرش آل حميد الدين كان فيها من أمثال السيدين عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف وعلوي بن طاهر الحداد ومن الشيبية السيد محمد بن أحمد الشاطري والسيد محمد بن سالم بن حفيظ وغيرهم كثير وفي اليمن من أمثال السيد محمد زياره والسيد أحمد بن عبد الوهاب الوريث والقاضي محمد محمود الزبيري والحفاظة الراوية القاضي أحمد الحضرائي وغيرهم لا يحصون، ورحم الله من مات منهم وبارك الله في حياة من لا يزال منهم حياً، فإنهم لا شك قد فعلوا ما يحمدون عليه وقدموا لبلادهم من الخدمات العلمية والأدبية ما ليس بخاف على أحد، وأنا ما ذكرت جملة من الكتب الأدبية وما أثنيت على الأدباء في أشعة الأنوار والتعليق عليها إلا محبة مني ورغبة في الجمع بين الأدب والتاريخ والجمع بينها يعد كالجمع بين عناقيد وشماريخ الرطب، وأسأل الله أن يجعل حظنا من ذلك وافراً ونصيبنا منه كبيراً، وسبحان من يقول (نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم).

الدولة العثمانية

أسس تلك الدولة العلية
أسسها بعد علاء الدين
وإن عثماناً لتركمانى
أقطعه الممالك الكبيرة
ومات في سابعة من المئين
وقام بعده ابنته عثمان
وزال ملك آل سلجوق وما
شاحنة البنيان مستوية
عثمان ذو النصر وذو التمكين
كان أبوه عمدة السلطان
لما رأى فتوحه الكثيرة
وفي عامه السابع والثمانين^(١)
وهو الذي اعتز به الزمان
يدوم ملك الأرض إلا للسما^(٢)

(١) توصف الدولة العثمانية بأنها العلية لعلو سلطانها ولدخول كثير من الملوك
والممالك تحت نفوذها كما كان يقال (بريطانيا العظمى) والعظمة والعلو الدائم لا
يكونان إلا لله عز وجل، تأسست الدولة العثمانية نسبة إلى صاحبها ومؤسسها الأول
عثمان بن أرطغرل بن سليمان شاه التركماني جاء أبوه من آسيا الغربية إلى آسيا
الصفرى مع قبائله الرحل فرأى جيشين يقتتلان ووقف على مرتفع من الأرض يمتع نظره
بمشاهدة المعركة الحربية والحرب هوايته وهو من أهلها ورواها فرأى الهزيمة في أحد
الجانبيين ودبت النخوة في رأسه وحمل بمن معه على المنتصرين فكسرهم وفرق جمعهم وارتفع
بذلك أمره عند السلطان علاء الدين آخر ملوك بني سلجوق فقربه إليه وما زال يقطعه
بلاداً بعد أخرى وذكره يرتفع وأمره يتسع حتى مات سنة سبع وثمانين وستمائة هجرية
٦٨٧.

(٢) بعد وفاة القائد أرطغرل بن سليمان عين السلطان علاء الدين أكبر أولاد المتوفى
وهو عثمان مكان أبيه ففتح القلاع والحصون وكل يوم يضيف لنفسه وللسلطان علاء
الدين عزاً إلى عز، ومجداً إلى مجد، فأذن له بضرب السكة وأن يذكر اسمه على المنابر
ومنحه لقب بك، وصار ملكاً لا ينقصه إلا التاج ولقب الملك، وفي سنة ٦٩٩ هـ توفي
السلطان علاء الدين وانتهت بموته الدولة السلجوقية ويقال إنها قتلت التتر أو قتله ابنه =

وقبل عثمانَ وقبل أورخان أزعج أهلَ آسيا جنكيزخان
وسعَ ملكه بملكِ غيره يا ويله من شره وخيره
هذا وكان خوارزمشاه شرمع جنكيزخان تخشاه
وانتكست دولة آل عباس بعد قرونٍ خمسة شرّاً انتكاس (١)

= غياث الدين طمعاً في المُلْك، ومن استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه، وهذا صفا الجو لعثمان بن أرطغرل واستأثر بالبلاد التي أقطعت له ولأبيه قبله وأخذ يوسعها ويضبط أمورها، وتلقب (باديشاه آل عثمان) وجعل عاصمة ملكه يكي شهر، فانتهى أمر دولة بائدة وابتدأ أمر دولة جديدة، ولا يدوم الملك في الأرض إلا لملك الساء ((وهو الذي في الساء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم)) وغزا السلطان عثمان بعض البلاد الآسيوية وتمتعت عليه ولكنه كتب إلى الروم يطلب منهم الإسلام أو الجزية أو الحرب فأسلم بعضهم ومنهم الأمير ميخائيل الذي صار من أكابر المخلصين للسلطان الجديد ولكن إسلامه متقدم على هذا التاريخ وفيه وفي بنيه من بعده كانت الشهرة وقويت الصلة بينه وبين آل عثمان، أما المتنعون عن الإسلام فقد اشتد في حرهم وتولى قيادة الجيوش لغزو بلادهم الأمير الشاب أوخان بن عثمان وانتصر وفتح بلاداً واسعة واحتل مدينة بورصة في سنة ٧١٧هـ

(١) لما تمنع أقوام كثيرة من الدخول في الإسلام حارهم السلطان واشتد في محاربتهم فاستغاثوا بقبائل التتر وانضموا إليهم ووقفوا إلى جانبهم، والتتر والمغول من أعظم الأمم كثرة وأشدّها بأساً وهما والتتر من جنس واحد، وكان بينها اختلافات كثيرة وفي أول القرن السادس برز الطاغية جنكيزخان المغولي الذي دوّخ البلاد وخوّف العباد، اتخذ لنفسه ولقومه شريعة وقانوناً لا يتعداه أحد، وجمع ذلك في كتاب يقدره كما يقدر المسلمون القرآن ومات في سنة ٦٢٤هـ في خلافة المستنصر العباسي، وكان الخلاف بين خوارزمشاه وأمير المؤمنين على أشده فقد قطع اسمه من الخطبة وفكر في الزحف على بغداد ليستولي عليها وليزيل الخليفة عنها، فقبل إن الناصر العباسي كاتب جنكيزخان يستغيث به على خوارزمشاه وحصل ما حصل ولكن السفراء توصلوا إلى التوفيق بين الدولتين وتبادل التجارة وحسن الجوار ومضوا على ذلك من سنة ١٢ إلى ٦١٥هـ فجاء جماعة من رعايا جنكيزخان وهم زهاء أربعمئة تاجر ومعهم الأموال الكثيرة جاءوا إلى بلاد (أترار) من ثغر خوارزمشاه بساحل نهر سيحون، وطمع الوالي بتلك البلدة في أموال التجار فأخذها وبعث بها إلى الملك وباعها وقسم أثمانها على الناس وكتب إليه =

وجاء هولاء كويبيح الأرض
 وقَتَحَتْ بغدادَ تلك الأممُ
 ديناً ومالاً ودماءً وعرضاً
 وانتشر الذعرُ وقاست البلادُ
 وقتل الخليفة المستعصمُ
 مالا يُطاقُ من أساليب الفساد

= جنكيزخان فيما حصل وطلب منه ذلك الوالي (غاير خان) ليقتص منه ولم يحسن الرد خوارزمشاه بل قتل الرسول الذي جاءه بالطلب وانفتح باب الشر بعد ذلك بين خوارزمشاه وجنكيزخان حيث جمع الأخير قواته واستعد للغزو وقد بدأه بالعدوان ذلك الملك الضعيف الأحمق وأجلى كثيراً من سكان البلاد التي بينه وبين عدوه، فسهل الطريق ويسر السبيل لغزو التتر فجاؤوه بالخييل والرجل وعبروا نهر سيحون وأخذوا مدينة بخارى ولم يثبت الجند الخوارزمي لمقاتلتهم بل أفرغوا المدينة وهربوا عنها ودخلها جنكيزخان وقد طلب منه الأمان للناس فأمهم ولكنه أخذ أموالهم وجميع ما في أيديهم وسار إلى سمرقند عاصمة ما وراء النهر وبها خمسون ألفاً من جنود خوارزمشاه قد ملأ الرعب قلوبهم وتأخروا عن القتال، وخرج أهل البلد لمطاردة المغوليين ونصبوا لهم كميناً فلما جاوزوه وصاروا بين المنسحقين والكمين المعد لهم أحاطوا بهم وأخذتهم السيوف من بين أيديهم ومن خلفهم وقال من بقي في سمرقند للمغوليين نحن وأنتم من أصل واحد وخرجوا إليهم بأموالهم ونسائهم وقتلوهم بعد ذلك شر قتلة وأبادوا منهم الكثير، وأدخلوا بذلك الخوف والرعب على قلوب الرعايا لخوارزمشاه وما برحوا يقتضون آثارهم ويقول عدو الله جنكيزخان أطلبوا خوارزمشاه ولو تعلق بالسما، فساروا جادين في طلبه وهو يتحول من مكان إلى مكان حتى نزل في البحر يريد قلعة من قلاعهم وعجزوا عن اللحوق به وكان ذلك آخر أمره فتركوه ومضوا قدماً إلى غربي خراسان يقتلون وينهبون ويعيشون في الأرض فساداً يعطون الأمان طالبه ثم يفتكون به ولا يرقبون في مسلم إلا ولا ذمة، وقد انضم إليهم كثير من المسلمين والكفار خوفاً من شرهم أو تعصباً للجنسية الواحدة، وقتلهم أهل (قفجاق) ولكنهم حصدهم حصداً، وفرَّ بعضهم إلى مصر واشترى منهم الصالح نجم الدين الأيوبي مماليكه البحرية الذين صاروا فيما بعد ملوك مصر وحكامها، ومنهم المعز أيك والمظفر قطز والمنصور قلاوون أما جنكيزخان فإنه وقف بسمرقند بعد فتحها وأخذ يجهز الجيوش تحت قيادة أبنائه لفتح البلاد غرباً وجنوباً وشمالاً، واتسعت مملكته وتبتيدي من أطراف بلاد الصين شرقاً وتنتهي غرباً إلى بلاد العراق وبحر الخزر وبلاد الروس وجنوباً ببلاد الهند وشمالاً بالبحر الشمالي كل ذلك تم له في مدة قصيرة وقبل وفاته قسم مملكة الأرض التي فتحها ويؤمل أن يفتح ما وراءها إلى أربعة أقسام =

وضاع فيها معظمُ التراتِ
 كم أتلّفوا من مسجدٍ وقصر
 ولبس الإسلامِ ثوبَ الحزن
 وذاك عامَ سنةٍ وخمسين
 وسوف يلقى يومَ طولِ الندم
 بفعلِ جيشِ التترِ الخَبَاث
 وكتبٍ قد وضعت في النهر
 لما رأى تشوية كل حسن
 من سابغ القرون ياللمسلمين
 جزاءة محمد بن العلقمي (١)

= وجعلها بين أولاده الأربعة وجعل أكبرهم ولي عهده والباقي يتبعونه ما بقي منهم أحد فهو ملك الملوك أو كما يقال بمنزلة الخليفة عند المسلمين، ثم سيأتيك الخبر بما حصل من أولئك الأشرار حين دخلوا بغداد وقتلوا الخليفة المستعصم وساحوا في بلاد المسلمين وإنما قدمت لك طرفاً من الخبر لتعلم كيف كان ابتداء الشر من التتر والمغول على أوطان المسلمين وممتلكاتهم، وللدولة العثمانية بهذه الأحداث شأن يذكر، أما الخلافة العباسية التي قضت خمسمائة وأربعاً وعشرين سنة فقد نكست أعلامها ومحيت آثارها ولم يبق إلا أخبارها وقد قرأت عنها وستقرأ ما فيه موعظة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

(١) وقعت خراسان وما بينها وبين العراق مما قسمه جنكيزخان لولده تولى خان ومات في سنة ٦٥٤هـ وقام بعده ابنه هولوكو، وحصل بين الشيعة وأهل السنة من الاختلافات ما تدمى له القلوب وتبكي له العيون، واستبد القوي منهم بالضعيف وحصل بينهم القتل والنهب، والعباسيون ينتصرون لأهل السنة لأنهم أنصارهم وعماد ملكهم، وشيعة العراق ينتصرون للعلويين ويريدون زوال الخلافة العباسية كيف ما أمكن ولو بدفع أغلى ثمن، وكان وزير الخليفة المستعصم رجلاً يقال له محمد بن العلقمي رافضي كبير ومتأثر بما أصاب الشيعة من أهل السنة حين أغاروا على الكرخ وفعلوا بأهله الأفاعيل ولا يهم هذا الوزير شيء كما يهمه الانتقام والأخذ بالتأثر من أهل السنة، فكاتب هولوكو وزيراً له الزحف على بغداد وسهل له الأمر وحرصه عليه كما يقول بعض المؤرخين وبعضهم يبرئه من هذه التهمة والله أعلم بما في السرائر وما تنطوي عليه الضمائر وإذا صح ما نسب إلى ابن العلقمي فالويل له وسيندم يوم لا ينفعه الندم، وفي منتصف المحرم من سنة ٦٥٦هـ نزل هولوكو بنفسه على أحد أبواب بغداد وتملك أسوارها ثم دخلت جيوشه بعد حصار عشرة أيام فقط فنهبت الأموال واستبيحت النساء وقتلت الرجال وأنزلت من الشر والنكال بعاصمة الخلافة والإسلام ما تشيب له الأطفال وتكفر من =

وللصليبين حربٌ دامية
 في مصر والشام وعاشت مصرُ
 وكان فيها دولةُ المماليك
 قد هزموهم بعينِ جالوت
 وكان في أرضِ الحجازِ واليمنِ
 مع أجلِ الأممِ الإسلامية
 حليقُها على الغزاةِ النصرُ
 عن حربِها جيشُ المغولِ يُنبيك
 وجيشُ مصرَ مثلُ جيشِ طالوت
 دولةُ غسانَ وأبناءِ الحسنِ

= أجله الشمس والهلل، ونزل الخليفة المستعصم لمقابلة هولاكو بجيلة ملعونة دبرها ابن العلقمي وقدم إليه الهدايا الكثيرة وفرقها عدو الله على أصحابه، وفي يوم أربعة عشر صفر رحل عن بغداد واستصحب معه الخليفة وفي أول مرحلة قتله وقتل أولاده وبعض الخاصة والخدم الملازمين، وتم أمر الخلافة العباسية واستراح بذلك الرافضة والجهال من العلويين ورغم ما وقع من القتل وسفك الدماء فقد ترك المغول ببغداد جماعة من النصارى والشيعة ومن يعرفون من إخلاصه وولائه للدولة الكافرة المستعمرة «وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً» وإليك ما روي من أعمال التتر في بغداد قيل إن عدد القتلى من المسلمين بلغ ثمانمائة ألف وقيل ألف ألف وثمانمائة ألف وقيل ألني ألف، ولم ينبج منهم إلا من اختبأ أو اختفى في الآبار والكنف وقنوات الأوساخ، واستمر السيف يعمل فيهم أربعين يوماً والدماء تسفك والأعراض تنتهك والأمراض والأوبئة تنتشر من العفونات والروائح التي جاوز ضررها بلاد العراق ووصل إلى الشام وهذا عدا ما حصل من تخريب المساجد والربط والمدارس والزوايا والمكاتب ويقال إنها وضعت الكتب في مضيق دجلة حتى مرت الخيل عليها وشبت النيران في الأبواب والبيوت وما ثقل في أيدي الغزاة واللصوص أكلته النار، ومحمد بن العلقمي وسائر الرافضة يفرحون بهذا العمل ويطنون أنهم قد انتصروا ولكن الله غالب على أمره فقد حل بهم الدمار وقتلت سادتهم وكبرائهم وخلت منهم الديار وقتل ابن العلقمي وأولاده بعد ثلاثة أشهر من مقتل الخليفة وكان يظن أن الجو قد صفا له وأن التتر يرحلون ويصبح بعد ذلك المليك الأوحده وجاءه القدر بما ليس في الحسبان وحلت الخطوب وصروف الزمان، وقعت هذه الحادثة ونزلت بالمسلمين تلك الكارثة في سنة ٦٥٦هـ وفرغ منصب الخلافة الإسلامية لمدة سنتين وأشهر حتى بايع الظاهر بيبرس، صاحب الديار المصرية للخليفة الجديد المستنصر بالله أبو القاسم أحمد بن الظاهر بالله عم الخليفة المقتول المستعصم بن المستنصر بن الظاهر بالله وذلك في رجب من سنة ٦٥٨هـ.

والناسُ بين محنةٍ وشدةٍ كلُّ يُعدُّ للزمانِ العُدَّةَ (١)
وعامَ تسعةٍ وتسعينِ ابتدا ملكُ بني عثمانَ يعلو صعدا

(١) علمت ما جاءنا من الشر وما حل بنا من التتر أهل المشرق وهم الكفار الوثنيون أو الملاحدة اللادينيون والآن تعلم ما جاءنا من الغرب في الحروب الصليبية التي كانت بين المسلمين والنصارى عباد المسيح وحملة الصليبان ودامت قرنين كاملين من سنة ٤٩٠ هـ إلى ٦٩٠ هـ واشترك فيها من الدول الإسلامية الفاطميون والسلاجقة والأيوبيون والمماليك البحرية المصرية، وسبب هذه الحرب أن بطرس الراهب لما زار بيت المقدس أحزنه أن يكون بأيدي المسلمين فرجع إلى أوروبا باكياً شاكياً إلى البابا أوربانس الثاني، واستغاث به، فنودي باسم الدين في الدول الأوروبية فرنسا وإيطاليا والنمسا وما جاورها لحرب المسلمين واستخلاص تلك البقاع المقدسة من أيديهم فاجتمعت الجيوش وسارت نحو المشرق وكان من أمرها ما هو معروف من كتب التاريخ للحروب الصليبية، وثبت المسلمون للعدة القوية والجيوش المتكاثرة وصار كل يقاتل بوازع ديني وسياسي في وقت واحد، وكان لمصر والشام الفضل الأكبر والمجد الأعظم في محاربة الصليبيين ولذلك تستحق مصر ما نقول فيها (عاشت مصر حليفها النصر) فإن الصليبيين لما ألفوا مملكة لهم في وسط البلاد الإسلامية القدس وإنطاكيا والرها، لم يترك المسلمون لهم حالهم بل أضرموها ناراً مستعرة عليهم خاصة في أيام الأتابكيين بالشام والأيوبيين بمصر، هؤلاء الأتابكيون من الشرق والمصريون من الجنوب، ولم تكن مملكة الافرنج واحدة بل كانت عدة ممالك، وظلت الحرب بينهم وبين المسلمين تلك المدة الطويلة وإن انتهت في مظهرها آخر القرن السابع فإن ضررها ما فتىء تحت الرماد، وما جاء الاستعمار بمختلف أشكاله وألوانه إلا ممتداً من الحروب الصليبية فنحن وإياهم إلى اليوم وإلى ما شاء الله في حرب كلامية أو فعلية، وهل التبشير بالمسيحية والاختلافات بين المسلمين وحتى في زمان العلم والثقافة وتصفية الاستعمار إلا من أوار تلك النار التي دفتها حروب الصليبيين في بلاد المسلمين ولا قوة إلا بالله، أما المصريون وتحت قيادة المماليك فإنهم لما رأوا دخول التتر إلى بلاد الشام وأن الخطر يدهمهم خرجوا لمقابلتهم وكانت بينهم المعركة الفاصلة بعين جالوت في آخر رمضان من سنة ٦٥٨ هـ، وللأمير قطز وللظاهر بيبرس اليد البيضاء على الإسلام فيما صنعاه بجنود هولاكو فلقد ردوا على أعقابهم خاسرين، والفضل في الانتصار عليهم للذين شبهناهم بقوم طالوت، ((قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين)) وحين كانت البلاد العربية بين فكي الأسد أوبين حربي الرحى، بين الصليبيين من الغرب والتترين من المشرق كان في اليمن =

ولم يزل عثمان خان ينتصرُ
ودام حتى سبعة وعشرين
وقصة جرت لميخائيل
بل ووزيراً وله في الحكم
أما ابنه الثاني ونعم الخانو
مقدم على علاء الدين
ولم ينازع في الأمور صنوه
ونظمت في عهده الجنود
وكان للدولة صدراً أعلى
يكسر جيشاً بعد جيش منكر
ثامن قرن وله الدنيا تدين^(١)
صار لعثمان بها خليلاً
ما ليس بالخافي على ذي العلم
ولي عهد فأورخان
وزيره المخلص والأمين
لا في اجتماعات ولا في الخلوة
وضربت في عهده النقود
حتى قضى حياته وولي^(٢)

= أو في الجزيرة العربية دولتان تتنازعان البقاء وتريد إحداهما القضاء على الأخرى، دولة بني غسان وعليها المظفر يوسف بن المنصور عمر بن علي بن رسول، والأئمة الزيدية وأشراف الحجاز ما بين قائم وقاعد وغالب ومغلوب كل يستعد لمستقبله ويفكر في مصير بلاده وشيعته وهي مقدمات وضعها الله لتظهر منها نتائج الدولة العثمانية أولاً ثم خلافتها ثانياً: وسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون.

(١) علم مما سبق أن علاء الدين آخر ملوك السلاجقة مات في السنة المذكورة وتفرد عثمان خان بالملك وصارت هذه السنة أول تاريخ دولته، وقد غزا بلاد آسيا الصغرى، واستعان كفرة الروم بالتر ولكن عثمان حارهم وكسرهم المرة بعد المرة وانتصر عليهم ودامت الحروب بينهم، وعاش السلطان إلى سنة ٧٢٧هـ وأدركه الأجل وأيامه تزدهر وجيوشه تنتصر، وتسلطن بعده أكبر أولاده أورخان، وإليك عنه البيان.

(٢) القصة المشار إليها هي أن السلطان عثمان خطب امرأة هوها وتعلق بها وهي بنت رجل صالح وينافسه عليها الأمير (أسكي شهر) فكانت لعثمان وفضله أبوها على منافسه وزوجه إياها، وفكر أسكي شهر في قتل عثمان والانتقام منه وحاول أن يدخل عليه القصر ومعه عدة من أصحابه وفيهم المذكور كوسة ميخائيل ولكنه برز لهم السلطان عثمان فكسرهم وأسر بعضهم ولإعجاب ميخائيل بشجاعة السلطان أسلم وانضم إليه وأصبح من أكبر خلصائه وزيراً ومشيراً ونصيراً له، واحتل مكانة من السلطان يغبط عليها وصار لأولاده عند بني عثمان مثل ما كان له عند عثمان نفسه فمنهم الوزراء والعائلة =

وابنُ أخيه واسمُه سليمانُ وهو وليُّ العهدِ لكن ماتا
 صدرُ في دولةِ آلِ عثمانِ قبلَ أبيه وقضى الحياتا
 بعدَ سليمانَ فسارَ قدما (١)
 فأورخانُ ملكُ الأملاكِ واتسعتْ ممالكُ الأتراكِ

= المحترمة المعروفة بآل ميخائيل، وكان للسلطان عثمان عدة أولاد أكبرهم علاء الدين وثانيهم أورخان الذي صار سلطاناً بعد أبيه وعرف بالشجاعة والبسالة والإقدام، فهو رجل الحرب والكفاء الكرم لما عهد به إليه، رآه أبوه أصلح من يتولى الحكم بعده فعهد إليه وقدمه على أخيه الأكبر منه سنأ علاء الدين المشهور بالفضل والخير والصلاح والعبادة وكان القدر قد قسم السعادة بين الأخوين فهذا له الدنيا وليس بناقص في دينه، وذلك له الأخرى وليس بالضعيف في دنياه؛ ولو أن السلطان جعل عهده لولده الأكبر لنفسه أخوه لطموحه وعلوهمته، أما علاء الدين فالمصلحة العامة أقدم عنده من المصلحة الخاصة ولذلك لم ينازع ولم يخالف بل استسلم للواقع فكان عوناً على بناء المجد وتوحيد الكلمة، وإذا أراد الله شيئاً هياً له الأسباب، فاستوزره أخوه وجعله صدر الدولة بمعنى رئيس الوزراء فنظم الجنود وخاف أن يتعصب كل فريق منهم لقبيلته التي ينسب إليها وعصبيته التي يرجع إليها كما كان عليه الحال قبل هذا التنظيم، وأشار أحد الأعيان (قره خليل) الذي عرف بعد باسم خير الدين باشا وصار صدرأ أعظم للدولة أشار بفصل الشبان من الأسرا وتربيتهم على الإسلام تربية عثمانية لا يعرف أحد منهم أصلاً له ينتمي إليه إلا السلطان، ودرّبوا أحسن تدريب وتألفت منهم الجيوش النظامية واستخلصهم علاء الدين مع من أحسن به الظن من الآخرين، وضرب النقود السلطانية من الذهب والفضة، وبقي صدرأ أعظم لأخيه أورخان وللدولة العثمانية حتى مات وهو على ذلك.

(١) لما توفي علاء الدين حل محله ابن أخيه سليمان باشا بن أورخان وكان ولياً للعهد وقائماً بكثير من الأعمال وصار للدولة صدرأ أعظم بعد عمه لكنه مات في حياة أبيه وحل بعده في هذا المحل خير الدين باشا فكان رئيساً للوزراء وصدرأ أعظم للدولة وسار بها قدماً، وإنما الدولة برجالها وقد يكون الأجنبي أكثر إخلاصاً وأعظم نفعاً من بعض أقرارها إذا رزق حبها وعرفت له خدماته التي يشكر عليها مثل ما كان لخير الدين باشا والعكس بالعكس، وإن شئت أيضاً فاسأل قتيبة بن مسلم الباهلي وأبا مسلم الخراساني وكيف كانت خاتمتهما، وإن شئت أيضاً فاسأل بني رسول في اليمن بعد الأيوبيين واسأل بني طاهر بعد الرسوليين، والله عاقبة الأمور.

وَكَثُرَتْ فِي عَهْدِهِ الْمَسَاجِدُ وَعَظُمَ الْعَالَمُ بِلِ الْعَابِدِ
أَمَّا الزَّوَايَا وَالتَّكَايَا فَكَثِيرٌ لِابْنِ السَّبِيلِ وَالضَّعِيفِ وَالْفَقِيرِ
وَمَاتَ فِي وَاحِدَةٍ وَسَتِينَ وَبَعْدَ سَبْعِمِئَةٍ مِنَ السَّنِينَ
وَقَبْرُهُ بَيْنَ قَبْرِ أَهْلِهِ فِي بُورْصَا وَهِيَ مَقْرُنُ قَلْبِهِ (١)

(١) إتسعت ممالك الأتراك وأخرجوا الروم من آسيا الصغرى ولم يبق لهم فيها شيء إلا أنه سمح لهم بإقامة شعائرهم الدينية ومن شاء منهم الهجرة سمح له مع نقل ممتلكاته وبيع العقارات منها ودخل بعضهم في الإسلام واستعمل عليهم ولي العهد سليمان باشا وهو كثير الفتوح حسن المعاملة لمن استعمل عليهم إلا أنه مات كما قلت لك قبل أبيه، وفي سنة ٧٣٦هـ استولى السلطان على إمارة (قرة سي) لوقوع الخلاف بين ولدي أميرها ولولا ذلك ما كان ضمها إلى الممالك السلطانية بالأمر اليسير وبعد ذلك اشتغل السلطان أورخان بترتيب داخلية وسن النظمات اللازمة لاستتباب الأمن بالداخل وانتشار العمران في البلاد وفتح المدارس وبناء الجوامع والتكايا، فن آثاره أنه أسس مدرسة عالية في مدينة بورصة وأخرى في مدينة أزنك، وأجزل العطايا للشعراء والعلماء فأضاف بذلك خيرات السلم إلى فتوحات الحرب، ومات في سنة ٧٦١هـ ودفن مع أبيه في مدينة بورصة التي فتحها هو بنفسه في ٧١٧هـ وهذه المدينة التي دفن فيها الستة السلاطين، الأول من آل عثمان، والأرض كلها كما جعلها الله لبني آدم كفاتاً أحياء وأمواتاً.

من مراد الأول إلى مراد الثاني

ثالث إنسان تولى الملكا
من آل عثمان مراد الأول
فاتح أنقرا ومن أعماله
وعاش خمسة وستين سنة
وطاف يوماً بجنود قتل
وقام منهم رجل بخنجير
وقام بايزيد بعد والده
ولم يزن في النصر والفتوح

وصير الافرنج تخشى الشركا
في الفاتحين ذكره مسجل
ما يعرف التاريخ عن أمثاله
بسيرة طيبة مستحسنة
من بعد حرب تركتهم أشلا
أردى به السلطان في المعسكر^(١)
ورفع الملك على قواعده
يخافه الشرك والمسيحي

(١) مراد الأول ثالث سلاطين آل عثمان تولى الأمر بعد أبيه وعظمت به الدولة وأصبحت الإفرنجية تخاف من سطوة الأتراك وتخشى بأسهم، وأول ما حصل من السلطان مراد فتح (أنقرة) التي فكر صاحبها علاء الدين القرمانلي أن يخرج على آل عثمان ويشجع من حواليه من الدول الصغيرة على محاربتهم والانتفاض عليهم فدخل السلطان بقواته إلى أنقرة واضطر علاء الدين لمصالحته وأن يزوجه ابنته ليوثق بهذا عرى الصداقة بينه وبينه، وفتح مراد الأول مدينة أدرنة بعد فتح أنقرة بقليل على يد (الكلربك لاله شاهين) وسلمها صاحبها بعد قتال قليل لما داخله من الخوف واليأس من فائدة الدفاع عنها، واتخذها السلطان لأهمية موقعها مقراً للدولة ونقل إليها التخت العثماني وأصبحت العاصمة (بورصة) وفتوحات هذا السلطان كثيرة وقد عاش خمساً وستين سنة بين فتوحات كثيرة وأعمال مستحسنة، وفي الواقعة المشهورة بين العثمانيين والصربيين كان السلطان ماراً بين جثث القتلى إذ قام منهم جريح واسمه ميلوك كوبلوفتش، فطعنه بخنجر كان معه طعنة نجلاء خر بها قتيلاً ودفعت الجنود الإنكشارية على القاتل الصربي، وذلك في سنة ٧٩١هـ وبعد وفاة السلطان نقل جثمانه إلى بورصة ليدفن مع أهله فيها.

لكنه في الحرب مع تيمورلنك
وانتشر الخلاف بين ولده
وبعد حرب بينهم عوان
وكان تيمورلنك نازها
والنصر فيها حازه محمد
مات أسيراً وهو في كزب ووضنك
وصار كل ملكاً في حته
أضعفت القوة في الإخوان
بُسمر من دهائه أوازها
حتى استعاد كل ما قد فقدوا (١)

(١) بايزيد. الأول ابن مراد الأول تملك بعد أبيه ورفع الملك على قواعد الثابتة فطالت به أركانه وشمخ به بنيانه وكان له أخ أصغر منه قوياً شجاعاً له بأس يخشى، واسمه يعقوب وكان يرى أنه أحق بولاية العهد من أخيه الكبير كما فعل السلطان عثمان في تقديم ولده الثاني أورخان على ولده الأكبر علاء الدين وأجمع الوزراء على قتل يعقوب ابن مراد لثلاث أسباب في انقسام البيت المالك على نفسه فقتلوا عليه ولسان الحال منهم يقول:

والشر إن تلقه بالخير ضقت به ذرعاً وإن تلقه بالشر ينحسم
وأول ما بدأ به السلطان بايزيد. من الأعمال أنه جعل بلاد الصرب تحت إمرة اسطفن بن لازار، وأذن له في حكم بلاده بمقتضى قوانينهم واشترط عليه دفع الجزية ورجالاً يكونون في الجيش المحارب يوم تدعو إليه الحاجة، ولم يجعل تلك الولاية منضمة إلى السلطنة بل ترك لها حريتها ليستريح من شغبها والاشتغال بمحاربتها في الوقت الذي هو مشغول فيه بحرب الولايات الأخرى فيما بقي من آسيا تحت الرومان، ثم استمر في الفتوحات وعقد المصالحات مع أعدائه، ونشبت الحرب بين السلطان وبين الملك (عمانويل) ملك الروم في سنة ٧٩٣هـ. وكان قد تنازل له علاء الدين القرمانلي عن بعض ممتلكاته وأراد أن يسترجعها ظناً منه أن السلطان لا يقدر على رده في تلك الحالة فكرر عليه وأخذه أسيراً مع ولديه وانضمت بقية مملكته إلى السلطان وأصبحت كلها ولايات عثمانية، أما الأمراء الآخرون الذين أخذت بلادهم فقد انضموا إلى مدينة قسطنطين وهي خارجة عن الدولة العثمانية وكان أميرها يسمى بايزيد أيضاً فطلبهم منه السلطان وتمنع عليهم فغزاه وأخذ بلاده وصارت بذلك الأناضول كلها عثمانية. وفر صاحب قسطنطين إلى ملك المغول تيمورلنك، وبما ذكر من محاربة الروم والإفرنج وما كان من أمر آسيا الصغرى استحق ما أشرنا به إليه من كثرة الفتوح وأنه هو الذي خوف أعداءه المشركين والمسيحيين بل والمسلمين، وكان تيمورلنك التتري قد طلب أمير بغداد =

وكان في جيش أخيه موسى يدعو إلى المذهب الاشتراكي بل وعلى المسلم والنصراني ومع هذا الأحق الخدوع ولليهود من قديم الزمن ونفذ السلطان حكم القتل أفتى به تلميذ سعد الدين قاضٍ وكان قاضياً منحوساً مؤثراً به على الأتراك والبعض من أقارب السلطان من اليهود رجلٌ شيعوي في تركيا تدبير بعض الفتن شنعاً ولكن بعد قول الفصل يبيح فيه قتل بدر الدين^(١)

= والعراق أحمد جلاير فتمنع عليه ولجأ إلى السلطان بايزيد فأغار التتري تيمور الأعرج على الممالك العثمانية وخرج السلطان لمحاربه في جيوش جراره واقتتلوا مع التتر وأبلى السلطان بلاء حسناً رغم أن جيوشه قد تفرقت وانضم بعضها إلى جيوش تيمور حيث كان أبناء أمرائهم السابقين عنده وأخيراً وقع السلطان أسيراً ومعه ولده موسى وتفرق أبناؤه الآخرون، وعاش السلطان إلى أن مات في الأسر سنة ٨٠٦هـ، وسمح بنقل جثمانه إلى بورصة ليدفن فيها مع أهله، وكان تيمور قد بالغ في إكرامه طيلة أسره ولكن الفوضى قد انتشرت في أبناء بايزيد الأول فكان سليمان يدعي الخلافة في أدرنة، ويستعين في أمره بموالاة عمانويل الثاني، وعيسى يدعي الخلافة في بورصة، ومحمد في جبال الأناضول ومصطفى لا يعلم ماذا كان من أمره بعد أسر أبيه والسلطان تيمور يميزق الدولة العثمانية ويرد أمراء قسطنطين وصاروخان وكرميان وآيدين ومنتشا وقرمان إلى بلدانهم، واستقل في هذه الفترة كل من البلغار والصرب والفلاح ولم يبق تابعاً للراية العثمانية إلا قليل من البلدان، وعلى الرغم من هذا كله فأبناء السلطان يستعينون بتيمورلنك وهو يشجعهم على الثبات ويأمرهم بالاستمرار في الحرب ليضعف بذلك شوكتهم، ولكن محمد الذي كان بالأناضول وقد أخذ مدينتي توقات وأماسيا قد رجع لمحاربة أخويه عيسى وسليمان فانتصر عليهما وقتلها واستعاد لآل عثمان مجدهم وانشق عليه أخوه موسى، وحاصر بجيوشه مدينة القسطنطينية ليفتحها لنفسه وصالح ملكها السلطان محمد واستعان به على أخيه وتفرقت الجيوش عن موسى وقبض عليه أخوه وقتله بعد ست سنوات من محاصرته للقسطنطينية وهذا يعلم ما أردناه من استعادة محمد بايزيد لما فقدوه من ممالكهم الواسعة البعيدة الأطراف في آسيا وأوروبا.

(١) ظهر في جيش موسى بن بايزيد المنشق على أخيه السلطان محمد الجلبلي رجل =

والجلبي خامسُ السلاطين
أرسل بالصرة فيها الماءُ
من فقراء الحرم الشريفِ
وكان ذا حِلْمٍ وعفوٍ واسع
وحين ماتَ كتم الوزيان
وأرسل سراً إلى مرادٍ
كان كثيرَ الجودِ مبسوط اليدين
يأخذُه النساء والرجال
يرسلُها السلطانُ للشريفِ
بعد انتصاره على المنازع
خبرَ موتهِ وحقاً يُشكران
ولده خوفاً من الأعداي

= منحوس اسمه بدر الدين وهو من كبار علماء ذلك الزمان مذهب الإشتراكية في الأموال والأمتعة ويقول: إن الناس كلهم إخوة وليس أحد بأقدم من أحد عند الله مهما اختلفت مذاهبهم وأديانهم، وقد قبض على هذا القاضي بعد الفراغ من أمر موسى المخالف وألزم بالبقاء في مدينة أزنك ثم فر منها وجعل ينشر مذهبهِ ويتبعه كثير من المسلمين والمسيحيين وغيرهم وداعي الفساد مجلب في كل زمان ومكان، واستعان على دعوته برجل يقال له بير قليجة مصطفى ومعه رجل يهودي اسمه طولارق كمال، وأرسل السلطان لمحاربة بير قليجة مصطفى أولاً بالقائد سيسمان بن أمير البلغار فقتله مصطفى وسمع السلطان بهذا فأرسل وزيره الأول المدعو بايزيد باشا لمحاربة هذه الفتنة وسار إليها وتقابل مع بير قليجة مصطفى بضواحي أزمير فحاربه وأسره ثم قتله وقتل كثيراً من أتباعه المستجيبين لهذه الدعوة التي ما تزال تظهر حيناً بعد حين، ويفتن بها جيل بعد جيل وقبض على القاضي بدر الدين بعد حروب شديدة في مقدونية واستفتى السلطان علماء المسلمين في الحكم عليه وأفتى بقتله مولانا سعيد أحد تلاميذ الشيخ سعد الدين التفتازاني فقتل عدو الله شنعاً، واليهود بطبيعتهم ميالون إلى الفتنة، وكلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله وإذا كان الشيوعي الكبير ورأس الشيطان الرجيم يهودي الأصل فلا يبعد أن يكون من أتباع طولارق كمال إما مصادفة (والطيور على أشكالها تقع) وإما أن يكون من تلاميذ تلاميذه المختفين، وعلى سبيل الاستطراد نقول إن مؤامرات اليهود وإجراءاتهم المدبرة كانت تعقد في بلاد الأتراك منذ عهد قديم وقد أثرت أساليب مكرهم في إسقاط الخلافة العثمانية ورسمت بها الخطط الكمالية التي سار عليها كمال أتاتورك في الخروج عن الإسلام وجعل تلك الدولة كافرة لا دينية، وحسبك من الشر اليوم اعتراف تركيا بحكومة إسرائيل وحسن العلاقات بينها، وقد يكون ذلك من تأثير اليهود في تلك البلاد وغيرها قديماً وحديثاً، ولا رحم الله القاضي بدر الدين ولا صاحبه طولارق كمال.

وُنُقِلَتْ جِثْمَانُهُ مِنْ أَدْرَنَه
 وَابْتَدَأَ الْأَمْرَ مَرَادُ الثَّانِي
 مَصَالِحاً لِمَلِكِ الْمَجْرِي
 وَلِلْفُرُوعِ مِنْ حُرُوبِ آسِيَا
 لَكِنَّهُ فُوجِيَءٌ مِنْ عَمْنُوبِلِ
 وَحَيْثُ لَمْ يُضْغِ لِقَوْلِهِ فَقَدْ
 فَجَاءَ مِصْطَفَى بِنُ بَايَزِيدِ
 ثُمَّ ادَّعَى بِأَنَّهُ الْأَحْقُّ
 وَبَعْدَ مَا أَفْرَظَ فِي الْعِنَادِ
 لَدَفْنِهِ بَيْنَ رِجَالِ السُّلْطَنَةِ (١)
 بِالسَّلِيمِ لَا بِالضَّرْبِ وَالطَّعَانِ
 وَالقُرْمَانِ لَا كَتِفَاءِ الشَّرِّ
 وَكَانَ أَمْرُ الْحَرْبِ فِيهَا قَاسِيَا
 بِحَرْبِهِ الْفِغْلِي وَالْأَقَاوِيلِ
 أَطْلَقَ عَمَّهُ وَأَعْطَاهُ الْمَدَدَ
 بِقُوَّةٍ وَعَدِيدٍ عَدِيدِ
 بِالْمَلِكِ لَكِنْ وَقَعَ الْمُنْشَقُ
 لَمْ يَفْلُتِ الْأَسِيرُ مِنْ مَرَادِ (٢)

(١) يلقب السلطان الخامس محمد بن بايزيد بالجلبي وكان كريماً سخياً شجاعاً مقداماً معظماً للعلماء مكرماً لهم يقرب الحاضر ويكاتب الغائب منهم ويجري عليهم من النفقات ما يكفيهم وزيادة، ويحضر مجالسهم ويقرأ على كبارهم ويتناظرون بين يديه وهو أول من أرسل بالصرة العثمانية إلى أهل الحرمين الشريفين تقسم بين الفقراء والمستحقين منهم رجالاً ونساءً بواسطة الشريف أمير مكة، ولهذا السلطان مدارس ومساجد كبيرة وجوامع واسعة وعمارات كثيرة تظهر عظمة الإسلام وشعائره المقدسة، وافتتحت في دولته عدة مواضع من بلاد الافرنج، وعمر في بلاد الروم عمائر كثيرة مدارس ومساجد، وتوفي رحمه الله في سنة ٨٢٤هـ ونقل جثمانه من أدرنة إلى مدينة بورصة ودفن فيها مع من تقدم من السلاطين وأوصى بالملك بعده لولده مراد الثاني وكان غائباً في أماسيا، واتفق الوزيران إبراهيم وبايزيد باشا على كتمان وفاته خوفاً من الخلاف أن يطرأ في حال غياب مراد الثاني وقبل حضوره إلى عاصمة ملكه وأحسن الوزيران فيما صنعا وعلى الله أجرهما إن كانا يريدان بذلك وجه الله والمصلحة العامة، ولكل امرئ ما نوى.

(٢) قام بالسلطنة بعد أبيه مراد الثاني وكان عمره إذ ذاك ثمانين سنة، وأول ما بدأ به أن عقد الصلح مع أمير القرمات ومع ملك المجر وذلك ليفرغ من حروب آسيا، وتطويع المتمردين عليه والمنشقين عن طاعته وكانت الحرب في آسيا قوية شديدة، وبينما هو في اتخاذ الإجراءات اللازمة لإخماد الفتنة في آسيا طلب منه الملك عمانويل عهداً بأن =

ولم يزل مراد في الحروب
تخافه المجر والالبان
وسلم الأمر إلى ولده
واعتزل الملك وعاد المنعز
ومات في خامسة وخمسين
مع البعيد ومع القريب
كما تخافه الصرب واليونان
محمد وهو ولي عهد
لما رأى نار الحروب تشتعل
تاسع قرن سادس السلاطين^(١)

= لا يحاربه مطلقاً وأن يدفع له رهينتين من إخوانه على الوفاء بهذه المعاهدة وتهدد بإطلاق عمه الذي قلنا إنه قد اختفى بعد موت والده بايزيد، فأبى السلطان مراد ورفض هذا الطلب فأرسل عمانويل بالأمير مصطفى وجهزه بعشرة مراكب حربية تحت قيادة (دمتريوس لاسكاريس) وجاء بها وحاصر بعض المدن العثمانية وسلمت له وترك حامية فيها ثم سار إلى أدرنة وخرج لمحاربه الوزير بايزيد ولكنه خطب في الجيوش وادعى أنه أحق بالسلطنة من ابن أخيه وأثر عليهم بما يقول فخرجت جيوش بايزيد عن طاعته وقتلوه فتقدم مصطفى بن معه لمحاربة ابن أخيه وكان بجنوده خلف نهر صغير وخان مصطفى بعض جنوده وتخلوا عنه فهرب بنفسه إلى مدينة جاليبولي، وقبض عليه ثم سلم حياً إلى السلطان مراد الثاني فشنقه وسار للانتقام من الملك عمانويل وكان بينهما حرب وحصار طويل فرجع السلطان بقواته ولم يفعل شيئاً وخرج عليه أيضاً أحد إخوانه وهو مصطفى ابن محمد الجليبي واستعان ببعض أمراء آسيا على محاربة أخيه ولكنه ظفر به فقتله وقتل معه كثيراً من أنصاره ومشايخه واستسلم أمير قسطنطين وتنازل عن نصف مملكته وزوج السلطان بابنته، وتمرد على السلطان قرة جنيد واستولى على إمارة آيدين وليس هذا بأول شيء منه في نقض العهود وحاربه حمزة بك شقيق الوزير بايزيد وأسرته ثم قتله خنقاً واستراحت الدولة من هذه المخالفات وتفرغت لإصلاح شؤونها الداخلية، وأعاد مراد الثاني إلى أملاك الدولة العلية ولآيات آيدين وصاروخان ومنتشا وغيرها من الإمارات التي أعاد تيمورلنك استقلالها إليها، ومات أمير كرمان وليس له ولد وأوصى بما بقي له من بلاده إلى السلطان مراد.

(١) استعد السلطان مراد بعد استرجاع ما خرج من أملاك آل عثمان لمحاربة أعدائه المستقلين من جيرانه المسيحيين فألزم ملك المجر بالتوقيع على معاهدة يتخلى بموجبها عن جميع ما كان له على شاطئ نهر الدانوب الأيمن، ويفصل النهر بين الدولتين العثمانية والمجرية فوقع مكرها بعد حرب عوان كانت بينها، وخاف أمير الصرب أن يحل به ما لا =

= يقدر على دفعه فقبل أن يدفع الجزية السنوية خمسين ألف قطعة ذهبية من عملتهم و يقدم للسلطان فرقة من جنوده للمساعدة وقت الحرب إذا احتاج إليها وأن يقطع علاقاته مع ملك المجر ويتنازل للدولة العلية عن بلدة (كروشيفاتس) لتتخذها حصناً منيعاً تأوي إليه جنودها، وفتح سلانيك التي تنازل عنها ملك الروم لأصحاب البندقية، وأراد السلطان أن يفتح ما بقي من بلاد الصرب وألبانيا والفلاخ قبل أن يعيد الكرة على القسطنطينية حتى لا تجد عوناً ولا مدداً من هذه الدول، وأطاعه أكثر الألبانيين بدون عناء مشرطين لأنفسهم الحرية الكاملة في دينهم وعوائلهم، واعترف بسيادة الدولة العلية أمير الفلاخ الملقب (درة قول) ومعناه الشيطان، تخلصاً من الحرب التي يخاف سوء عاقبتها، ونكث هذا الشيطان عهده ورجع عن اعترافه واتفق مع أمير الصين بإيعاز من ملك المجر على الحرب التي خسروها وأذاقهم السلطان مراد كأس حنظلها ثم سار إلى بلاد المجر وفتح بعضها وانتقم من ملكها ورجع بعشرات الآلاف من الأسرى، وجاء القائد المجري هو نيباد فدارت رحى الحرب بينه وبين العثمانيين وانتصر في عدة مواقع واضطر السلطان إلى مهادنة عشر سنوات مع التخلي عن بعض ما فتحه من البلدان وأخيراً توفي علاء الدين ابن السلطان فحزن عليه أبوه حزناً شديداً وتنازل عن الملك لولده محمد الثاني وهو ابن أربع عشرة سنة، وسافر للإقامة في ولاية آيدين للبعد عن الهموم والأحزان التي نزلت به وبعد أشهر بلغه أن المجر قد نقضوا العهد وخالفوا شروط الهدنة بإغراء مندوب البابا الذي حسن لهم الشر وقال معاهدة المسلمين لا يجب الوفاء بها فما وسع السلطان إلا أن يأتي بجيوشه المظفرة ويحارب المجر حرباً يقتل فيها الملك وتتفرق قواته ولا تغني عنه شيئاً قوة القائد هو نيباد السياسي المحنك، وفي اليوم الثاني هاجم العثمانيون معسكر المجر وانتهوا جميع ما فيه وقتل مندوب البابا الذي تسبب في كل ما جرى بين الدولتين، وعاد السلطان إلى عزلته غير أن العساكر الإنكشارية قد استخفوا بالسلطان الصغير محمد الثاني وانتهوا مدينة أدرنة وعاتوا فساداً في الأرض فرجع السلطان مراد وأدبهم ثم شغلهم بالحرب مع اليونان، وفتح بعض بلادهم وساعده على ذلك أن الملك عمانويل قد قسم بلاده بين أولاده، وحاول فتح القسطنطينية ولم يتم له مراده واستعمل في ضرب أسوارها المدافع التي يقال إن ذلك أول استعمال الدولة العلية لها، وتوفي السلطان في سنة ١٨٥٥ هـ ونقل إلى مقابر آباءه في مدينة بورصة وهو السلطان السادس المدفون مع أسلافه في تلك المدينة وكانت وفاته في آخر أيام الدولة الغسانية باليمن وقبل قيام الدولة الطاهرية بنحو ثلاث سنوات والبقاء لله والدنيا دول .

محمد الفاتح

وولده بايزيد

محمد الثاني المليك السابع من آل عثمان هلاك طالع
فاتح قسطنطينيا وباني فيها مقر العلم والإيمان
سل عنه أبا صوفيا والدهرا كي يُسمعك عنه طيب الذكر
قد حوصرت من قبله المدينة لكنها مدينة حصينة
فأصبحت عاصمة للملك نَعَمْ وللتوحيد بعد الشرك^(١)

(١) سابع السلاطين من آل عثمان هو الفاتح محمد الثاني بن مراد الثاني بن بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان بن عثمان جد أهل هذا البيت ولد في سنة ٨٣١هـ، وتولى الملك وليس خارجاً عن دولته في آسيا إلا جزء من بلاد القرمات ومدينة سينوب ومملكة طرابزون الرومية، وليس في المملكة الرومانية الشرقية إلا مدينة القسطنطينية وضواحيها فأول ما بدأ به الاشتغال بفتح ما بقي من بلاد البلقان ومدينة القسطنطينية وضواحيها حتى تكون بلاده متصلة الأجزاء وليس فيها عدو مهاجم ولا صديق كذاب، وحصن أولاً بوغاز البوسفور من أجل أن يقطع المدد الآتي من مملكة طرابزون الرومية، وأراد أهل القسطنطينية أن يصلحوه على جزية يفرضها عليهم فأبى ذلك وابتدأ الحصار عليهم في سنة ١٤٥٣م شهر إبريل برأ وبحراً وأعد للحرب جيشاً مؤلفاً من مئتين وخمسين ألفاً وسفن بحرية عددها ثمانين ومئة ومعه المدافع الثقيلة التي ترمي قذائفها من بعد ميل واحد وزنة القذيفة اثنا عشر قنطاراً واكتشف أثناء الحصار قبر أبي أيوب الأنصاري الذي توفي رضي الله عنه في الحصار الأول لهذه المدينة تحت قيادة يزيد بن معاوية، واستنجد أهل القسطنطينية بإخوانهم الكفار واستجاب لهم أهل (جنوة) وأرسلوا إليهم بأسطول بحري عظيم استطاعوا به الدخول إلى الميناء، وصار ما صار حتى فتح الله على المسلمين هذه المدينة في آخر شهر مايو من السنة المذكورة الموافقة لسنة ٨٥٧هـ، والهجوم كان بخمسين ومئة ألف جندي تسلقوا الأسوار وأعملوا السيف في الأهالي ودخلوا على البطريق ومن معه وهم يصلون في كنيسة آيا صوفيا، وقتل الملك قسطنطين وهو يدافع عن بلده، وأصبحت القسطنطينية عاصمة للملك للعثمانيين ومقرّاً للتوحيد بعد الشرك وللإيمان =

وهو الذي قد قهر البنادقة
 وفتحت جزائر يونانية
 والصرْب والبشناق والطرابزون
 ويذكرون أن هذا الفاتح
 يُنظّم الدولة خيرَ تنظيم
 وبعد عشرين وتسع سنوات
 ودُفن الفاتح في الأستانة

من المسيحيين والزنادقة
 والأرنؤوط من بني البانية
 والروم فيها جرعوا كأس المنون^(١)
 كان كثيراً يَخدمُ المصالحا
 ويَنشرُ التعلِيمَ في الأقاليم
 من فتحه العظيم جاءه الممات
 وعرف الناسُ بها مكانه

= بعد الكفر وبنيت بها المساجد والجوامع للصلاة والعبادة، وفتحت بها المدارس الإسلامية والحمد لله رب العالمين، ويقول المؤرخون إن هذه المدينة قد حوصرت في الإسلام إحدى عشرة مرة، وبعد الفتح دخل السلطان وقت الظهر وأمر أن يؤذن بالصلاة في كنيسة أيا صوفيا إنذانا يجعلها مسجداً إسلامياً، وجع النصارى ومنحهم الحرية الكاملة في دينهم وأحكامهم المدنية والجنائية وأذن لهم أن ينتخبوا بطريقاً لهم وانتخبوه وأقره السلطان وجعل له عسكرياً من الإنكشارية وألزمهم بالخراج إلا رؤساءهم الدينيين فإنه أعفاهم وفعل مثل هذا في الولايات الأخرى، وعرف الناس فضل الإسلام فنهت من أسلم ومنهم من رضي بالحكم ودفع الجزية والخراج بدون معارضة ولا مقاومة.

(١) لما رتب السلطان أمور العاصمة بعد الفتح وأصلح ما خرب من أسوارها سار بجيوشه لفتح مورة وقبل وصوله إليها أظهر أهلها الطاعة وصالحوا على أنفسهم بخراج سنوي يدفعونه للسلطان الفاتح وقدره اثنا عشر ألف دوكا وهي قطعة ذهبية من عملتهم فتركهم وتوجه نحو الصرب وأراد المجر مساعدتهم إلا أنهم فضلوا الطاعة والمصالحة على هذه المساعدة للاختلافات الدينية بينهم، فالجر كاثوليكيون وأهل الصرب أورثوذكسيون، فأبرم الصلح مع السلطان أمير الصرب على دفع ثمانين ألف دوكا سنوياً وذلك في سنة ١٤٥٤م، وفي السنة التالية أعاد عليهم الكرة بقوة عظيمة وعبرها جنوب بلاد الصرب إلى شمالها بدون معارضة ووصل مدينة بلغراد وحاصرها براً وبحراً وسبق إليها قبل الحصار القائد المجري هونياد الذي دافع عنها دفاع الأبطال واضطر محمد الفاتح لرفع الحصار عنها وقد أصيب هونياد في تلك المدة بجراح أثخنه ومات منها بعد عشرين يوماً، وتجهز الصدر الأعظم محمود باشا لفتح ما بقي من بلاد الصرب واستمرت الفتوحات في البلاد اليونانية ومملكة طرابزون وغيرها مما ذكرناه في الأبيات.

وكنتموا سرّ وفاة السلطان
وكان ولداه غائبين
وجاء بعد مدة قصيرة
لأنه أراد حَمّ الأصغرا
فنظّم الدولة بايزيد
والانكشارية بالعطية
ولم يزل أخوه جمّ المندهر

مخافةً من الهوى والشيطان^(١)
وبايزيد أكبر الإثنين
وجنده قد قتلوا وزيره
وهو الذي أراد أن يؤقرا
وأخلصت في الطاعة الجنود
صيرها راضية مرضية^(٢)
يطلبُ نصرا وهو غير منتصر

(١) بعد الفتوحات الكثيرة جعل السلطان ينظم شؤون الدولة ويهتم كثيراً بالترتيبات الداخلية في المحاكم والقضاء والمسائل العسكرية وسمى الدولة بالباب العالي وأسند الوظائف إلى من يعتقد فيه الكفاءة والجدارة واهتم بالعلم والتعليم في مختلف الأقاليم، وتوفي في شهر ربيع الأول سنة ٨٨٦هـ وذلك بعد فتحه للقسطنطينية في سنة ٨٥٧هـ، ودفن بالأستانة في المدفن الذي أنشأه بأحد الجوامع هناك وكنتموا سر الوفاة لثلا يختلف أبناؤه على السلطنة حيث لم تكن ولاية عهد معقودة لأحدهم.

(٢) كان للسلطان محمد الفاتح ولدان غائبان الكبير بايزيد حاكماً في أماسيا والصغير اسمه جم حاكماً في القرماني وكنتم الصدر الأعظم قرماني محمد باشا أمر الوفاة لثلا يتنازع الولدان وكتب في الظاهر إلى بايزيد وسرا إلى جم وهو يوده ويميل إليه وإنما أراد أن يتبع خطة رسمها من قبله، وقد اكتشفت حيلته وانتقم منه الإنكشارية فقتلوه ونهبوا الأستانة، وكان القائم بأعمال الدولة قبل مجيء أبيه هو (كركود) بن بايزيد وحالما وصله خبر الوفاة جد مسرعاً حتى قطع المسافة من أماسيا إلى القسطنطينية في تسعة أيام ومعه أربعة آلاف فارس ولما عبر البوسفور وأحاط به عدة قوارب مملوءة بالإنكشارية طلبوا منه العفو عن قتلهم للقرماني محمد باشا كما طلبوا منه أن يعزل أحد الوزراء واسمه مصطفى باشا وأن يحل محله ضابط القسطنطينية إسحق باشا فأجاب طلبهم، ولما وصل إلى السراي الملكية طلبوا منه العطاء فأجزله لهم سروراً بتوليه، وصارت هذه سنة فيمن تسلطن بعده أن ينعم على عسكريه يوم توليه أما الرسول الذي ذهب إلى القرماني لاستدعاء جم المعروف عند الأفرنج (البرنس زينيم) فقبض عليه حاكم الأناضول وقتله قبل أن يؤدي رسالته.

وقد أراد الناس أن يستعملوه
وعاش في إيطاليا زمانا
ومات غير مدرك لما يريد
وقبل أن تأخذه فرنسا
ولم يكن فتح هذا الملك
إلا حروب مع أهل مصر
حرباً على السلطان حتى يُشغلوه
وفي فرنسا يطلب الأعوانا
وبعد استراح منه بايزيد
دس له السمّ الزعاف دسا^(١)
ولا وقوع سمك في الشبك
لم تكن الدماء فيها تجري

(١) لم يقف الأمير جم أخو السلطان بايزيد الثاني عند الأمر الواقع بل جاء في قوته قاصداً مدينة بورصة فاحتلها وهزم فيها نحو ألفين من الإنكشارية فجدد أخوه في كسره وطرده وأدرك ذلك فعلاً بالقرب من مدينة يكي شهر وهرب الأمير جم والجيوش تقفو أثره حتى قارب مصر فتركوه، وطلب العسكر الإنكشارية أن ينهوا مدينة بورصة جزاء لما فعل فيها الأمير جم وأبى عليهم السلطان وأعطاهم الفسوح من عنده، وفي سنة ١٤٨٢م سافر الأمير جم من القاهرة إلى حلب وراسل قاسم بك أحد أبناء الأمراء القرمانيين ووعده الوعود العظيمة إن هو استجاب له وانضم إليه وقد اغتر وانضم إلى الأمير جم وقصداً مدينة قونية ولكنها فشلا وانهزما هزيمة فبعدها الأمير جم وطلب من أخيه المصالحة على أن يقطعه بعض البلاد وخشي السلطان من سوء النتيجة فرفض الطلب وأرسل الأمير جم إلى رئيس الرهبان القديس يوحنا الاورشليمي في جزيرة رودس يطلب مساعدته على ما يريد فقبلوه عندهم وقابلوه بالتجلة والاحترام، وجاءت الوفود من السلطان يطلب من القديس يوحنا بقاء الأمير عندهم يحافظون عليه ويتعهد السلطان بدفع خمسة وأربعين ألف دوكا سنوياً وأن لا يغزو الجزيرة مدة حياته، فوافقوا على الطلب ووفوا بعهدهم ولم يسلموا الأمير لملك المجر ولا لملك ألمانيا اللذين طلبا إطلاق سراحه ليستعملوه آلة في محاربة السلطان بل أرسله رئيس الرهبة إلى فرنسا وجعله في مدينة نيس تحت الحفظ، وما زال ينتقل من بلد إلى بلد حتى وصل إلى البابا أنوسان الثامن وبقي عنده، وفي الاختلافات التي وقعت بين فرنسا وإيطاليا وحينما كانت روما تحت الحصار طلب ملك فرنسا من البابا أن يسلم إليه هذا الأمير المنحوس فسلمه إليه ويقال إنه دس له السم قبل تسليمه وظل مع الجيوش الافرنسية حتى مات في سنة ٩٠٠هـ الموافق سنة ١٤٩٥م فاستراح بموته واستراح الناس منه .

وباي تونس الذي تَوَسَّطَا
وأصلح الأمورَ بين الطرفين
وبين روسيا وآل عثمان
وجاء من موسكو سفيرٌ يحملُ
وبعده جاء سفير آخرُ
وابتدأ التحسينُ في العلاقاتِ
وكلُّ عهدٍ بين أهل الغربِ
قال لماذا تذهبون شططا
والحكمُ لله على المختلفين^(١)
تحسَّنَ الوضعُ بذلك الزمان
هديةً ببايزيد تجملُ
وواردٌ من غيرهم وصادر
ما بينه وبين معظم الجهات
وبيننا فيه نذيرُ الحرب^(٢)

(١) لم تقع الحروب الخارجية بين السلطان بايزيد وبين أعدائه لأنه كان مسالماً معروفاً ببايزيد الصوفي، اللهم إلا بعض شيء من الدفاع على حدود المملكة وإلا خلاف بينه وبين ملوك مصر توسط فيه باي تونس وأصلح بين الطرفين وذكرهما الأخوة الإسلامية وأنه إذا التقى المسلمان بسيفها فالقاتل والمقتول في النار، واستجاب له الطرفان وصرف الله عنها شر الحرب، وما أحوجنا اليوم إلى المصلحين في الاختلافات الواقعة بين الدول الإسلامية والتاريخ لا ينسى لباي تونس عمله المبرور في حسن هذه الوساطة.

(٢) تحسنت العلاقات بين السلطان بايزيد والدول الأوروبية، فجاءه أولاً السفير الروسي يحمل معه هدايا عظيمة من ملك موسكو تليق بعظمة السلطان بايزيد وبكرامة القسطنطينية، وبعد سنوات أربع جاء سفير آخر وتحصل على بعض الامتيازات التجارية للروسين في بلاد الدولة العلية، ثم ابتدأ تحسين العلاقات والمواصلات مع دول أخرى مملكة بولونيا والبابا إسكندر السادس (بورجة) وملك نابولي ودوك ميلانو، وجمهورية فلورنسا وكل هؤلاء يجتهدون في محالفة الدولة العلية ويستعينون بجنودها البرية ومراكبها البحرية على محاربة من عاداهم، وتمكنت إيطاليا من الفتنة بين الدولة العثمانية ودولة البنادقة وصارت حروب طاحنة بينها، وبالجملة فالمعاهدات بين المسلمين وبين دول الغرب إنما هي بمثابة التخدير وانتظار الفرصة وإلا فإنهم لا عهد لهم ولا ذمة، ويجب على المسلمين أن يستعدوا لمحاربة الغربيين في المدة التي تعقد فيها المعاهدات والتاريخ يشهد أنهم لا يوادعون ولا يهادنون إلا ليتمكنوا من إعادة الكرة علينا وكفانا الله شرهم في كل جيل وقبيل.

واختلفت أولادُ بايزيدَ
مما دعا السلطانَ للتنازلِ
وسَلَّمَ الأمرَ إلى سليمٍ
ومات في ثامنةٍ وعشرٍ
عليه في الهين والشديد
عن كلِّ شيءٍ خارجٍ وداخلٍ
وقد يكونُ الخيرُ في التسليمِ
سني عاشر القرونِ الهجري (١)

(١) كان للسلطان بايزيد ثمانية أولاد مات منهم خمسة صغاراً وبقي الثلاثة الذين هم، كركود وأحمد وسليم وقد تمردوا على أبيهم ولم يقبلوا منه تقسيم الولايات بينهم وكل يريد منهم الشر مع صفات فيه يحمد عليها، وبما أن الإنكشارية كانت تحب سليماً وتوده فقد وقفت إلى جانبه وجاءوا به إلى قصر أبيه بعد ما كان من حربه واستسلامه لأبيه واضطروا السلطان بايزيد للتنازل عن الملك لولده سليم الأول فنزل على رغبتهم وحقق الدماء أن تراق بين الوالد والولد والأخ والأخوة وسافر بعد تنازله إلى بعض المدن ويقال إن سليماً دس له السم خشية أن يعود كما عاد جده مراد الثاني والله أعلم، مات بايزيد في عشرة ربيع الأول سنة ٩١٨هـ، وعمره سبع وستون سنة ومدة ملكه إحدى وثلاثون سنة وأشهر والبقاء لله ((كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام)).

أمير المؤمنين سليم الأول

لما استقرَّ الأمرُ في يديه وولى سليمانَ ابنَه في العاصمة
والانكشارية من عاداتهم وسار نحوَ آسيا في قوتهِ
والأخوان أحمدُ وكركوذُ والخمسةُ القتلى بنو إخوانه
وبعد ما كان من اتفاقه أفنى من الشيعة ما لا يُحسبُ

(١) سليم الأول هو ابن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح بن مراد الثاني بن محمد الجليبي ابن بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان بن عثمان المؤسس، قلت فيه أمير المؤمنين لأنه الذي انتقلت إليه الخلافة العباسية كما سيأتي، تملك في عهد أبيه لما تنازل له عن الملك في سنة ١٥١٢م وبعد أن تم له كل شيء استخلف ولده سليمان القانوني على القسطنطينية، وفرق على الإنكشارية أموالاً كثيرة لكل واحد خمسون دوكا كجاري عاداتهم في أول ولاية السلاطين، وسار إلى آسيا يطلب أخويه أحمد وكركوذ المنازعين له مع أولاد أخوتها وتبع أحمد إلى أنقرة ولم يقدر عليه، وعلم أن مصطفى باشا كان على صلة بالأمير أحمد وأنه يطلعه على تحركات السلطان وأسراره فقتله شرقتله وسار إلى بورصة فقبض على خمسة من أولاد إخوانه وقتلهم جميعاً ثم سار إلى صاروخان يتبع أخاه الأمير كركوذ، وفر منه إلى الجبال وقبض عليه بعد البحث عنه مدة من الزمان وأتبعه القتل من قبله، أما الأمير أحمد فجمع قوة محاربة السلطان ولكنه هزم وقتل عند مدينة يكي شهر، واستراح سليم بذلك من المنازعات الداخلية، وفي سبيل الملك لا تحترم القرابة ولا توصل الرحم وفي الناس باغ ومبغى عليه وسوف يلتق كل امرئ عمله بين يديه.

ثم غزا بلاد فارس وقد
الصفوى الشاه إسماعيل
كانها عدوه الخضم الألد
ولم يزل بجيشه يميل
منه وزاد ملكه امتدادا
حتى أتى الشام وأرض مصر
بعد العراق وديار بكر (١)

(١) بعد ما تقدم اطمأن السلطان على داخلته وأمن من شر منافسيه رجع إلى مدينة أدرنة وكان ينتظره فيها سفراء من البندقية والمجر والموسكو وسلطنة مصر وعقد معهم الاتفاقيات والمعاهدات لمدد مختلفة ثم استعد لغزو بلاد فارس وكان لا يهمل شيء مثلها والملك فيها يومئذ لاسماعيل شاه الشيعي بن حيدر بن جنيد بن إبراهيم بن سلطان خواجه ابن علي بن صدر الدين موسى بن صفى الدين إسحق الأردبيلي ويقال إنه ينتهي نسبه إلى موسى الكاظم وأهله أهل سنة وطريقة صوفية وما دخل في الرفض والتشيع إلا إسماعيل شاه المذكور، وقد لجأ إليه بعض أولاد إخوان السلطان سليم وطلبه منه فأبى أن يسلمه مع ما كان من بغض له وكراهية في قلب السلطان الذي رآه يتسع ملكاً ويرتفع شأناً، وربما خيف منه على بلاد الدولة العلية، وقد امتدت مملكته من الخليج العربي إلى بحر الخزر ومن منابع نهر الفرات إلى ما وراء نهر (أمودرايا) وعمره ثماني وثلاثين سنة وأربعة أشهر، وهو أول من أسس الدولة الصفوية ومات في سنة ٩٣٠هـ، وكانت عاصمة ملكة تبريز، وهو نصير الأمير أحمد على والده بايزيد ثم على أخيه سليم وهو يعلم ما يكنه له السلطان وما يعتزم عليه من محاربه فطلب من سلطان مصر المحالفة على مقاومة السلطان العثماني والوقوف أمام زحفه وهو الذي أخذ يحصر من في الولايات العثمانية من الشيعة، ويقال إن عددهم بلغ أربعين ألفاً فقتلهم جميعاً نكالاً بإسماعيل شاه وبأهل مذهبه، ولم يطفىء هذا كله ما في قلب السلطان سليم من نار العداوة السياسية والمذهبية بل جهز جيوشه للحرب وسار بها من أدرنة في أول محرم سنة ٩٢٠هـ، ودخل بلاد فارس حتى وصل العاصمة تبريز في شهر رجب فاحتلها ونهب خزائنها وأسر كثيرين من أهل إسماعيل شاه وغيرهم وفي السبايا إحدى زوجاته التي جعلها السلطان سليم لبعض كتبته بناء على أنها سبية مملوكة أو أنه فسخ نكاحها، والسياسة أحياناً تبيح المحرمات وإن تصادمت مع نصوص الكتاب والسنة، وبعد مطاردة الشاه إسماعيل إلى نهر الرس توقف وعجزت جنوده عن التقدم لشدة البرد وقلة الملابس والمؤن الحربية المحتاج إليها، فترجع بهم إلى أماسيا حتى خرج الشتاء وكرههم على بلاد العجم وفتح قلعة كوماش، ورجع بنفسه إلى =

وكان بينه وبين الغوري
معركة عنيفة وفي حلب
ولم يزل سليم يمشي قدماً
وبعدما استقر في مصر وضع
والمتوكل الذي بيده
وهي مراسيم الخلافة التي

ملك مصر الحسن المشهور
قد قتل الغوري وجيشه انسحب
يئسها حرباً ويسفك الدماء
لها نظاماً ثم صارت تتبع (١)
بقية موروثه عن جده
كانت لهم كسيفه والبردة

= عاصمة ملكه واستبق الجيش لفتح ما بقي من ولايات العجم فتم له ذلك حتى فتحوا
مدائن ماردين وأروفة والرقة والموصل وبذلك تم فتح إقليم ديار بكر وأطاعت كافة قبائل
ال كرد بدون عناء بشرط بقائهم تحت حكم رؤساء قبائلهم، وشرع يفتح بلاد الشام
ومصر وقبل هذا رأى من المصلحة أن يقتل ضباط الإنكشارية الذين تمنعوا عن التقدم
عند نهر الرس فقتلهم وقتل معهم القاضي عسكر جعفر الجلي لأنه شجعهم على العصيان
وخوفاً من امتداد الفتنة وأن يقع منهم ثانية كما وقع أولاً قتلهم وخوف بالقتل من قد
يأخذ بفكرتهم ويفعل في المستقبل مثل ما فعلوه، وما أحب إهراق الدماء إلى نفس
السلطان سليم ساعه الله.

(١) أراد السلطان حسن الغوري أن يتوسط بين العجم والعثمانيين فرفضت وساطته
وأهين سفيره فتقدم لمواجهة السلطان سليم، والتقى الجيشان في مرج دابق قريباً من
حلب، وحصل خلف بين فرق الجيش المصري وأفزعته المدافع العثمانية وقتل السلطان
الغوري في المعركة وهو ابن ثمانين سنة وقت ذلك في أعضادهم وانسحبت جنودهم
والسلطان سليم يتبع آثارهم ويسير وراءهم، واستسلمت له حلب وحماه وحص ودمشق
ودخلها في آخر رجب من سنة ٩٢٢ هـ وصل بها الجمعة ودعى له على المنبر، وأصلح
المساجد ورمم الجامع الأموي وأكرم العلماء والصلحاء ثم سار قدماً إلى مصر حتى دخلها
وقد انتخب الماليك لهم سلطاناً آخر بعد مقتل السلطان الغوري وهو طومان باي الذي
رفض التفاهم مع العثمانيين، ودارت المعارك الحربية بين المهاجمين والمدافعين وقتل وزير
السلطان سليم وهو سينان بك قتله طومان باي بسيفه يظن أنه سليم بنفسه، ويقال إن
الحرب دارت في شوارع القاهرة حتى سقط من المصريين نحو خمسين ألف قتيل وأسرفي
الجيزة طومان باي وأمر بشنقه في باب زويلة، ونظم للبلاد نظاماً جديداً تسير بموجبه في
شؤونها الداخلية وفي طاعتها وما فرض عليها للدولة العلية.

وهو الأخيرُ من بني العباسِ
وصار من يومئذٍ خليفة
وأصبح السلطانُ يَحمي الحرمين
وأرسل الصرةَ حسب العادة
وانتقلت خلافةُ الإسلامِ
من بعد عشرين وتسعمئةٍ
سلمها للفاتح السياسي
للمسلمين أعظمَ بها وظيفة
أيضاً ومدعواً له في المسجدين
وكان في صرته زيادة
إلى سليم ثالثِ الأعوام
وأصبح الطربوشُ مثلَ العمة (١)

(١) كان الظاهر بيبرس البندقداري قد بايع في سنة ٦٥٨ هـ بعد الانتصار على جيوش هولوكو بايع للخليفة العباسي المستنصر بن الظاهر بالله، واستمرت الخلافة العباسية شكلياً في مصر تحت نفوذ وسيطرة المماليك إلى زمان المتوكل على الله آخرهم وهو الذي تخلى عن كل شيء وسلم ما لديه من آثار الخلافة السيف والبيرق والبردة ومفاتيح الحرمين سلمها إلى السلطان العثماني فانقلت إليه الخلافة وادعاه لنفسه ثم أبنائه من بعده، والظاهر أنها لم تكن خلافة بالمعنى المتفق عليه وإذا أخذنا بقول من يسميهم أمراء المؤمنين أو الخلفاء الإسلاميين فإنما ذلك عند البعض دون البعض الآخر، وحلول الطربوش محل العمة لغة في العمامة إنما هو مجاز بالاستعارة حيث الطربوش لباس الرأس عند الأتراك والعمائم تيجان العرب، وكان في مصر لما دخلها السلطان سليم جماعة من أهل مكة حبسهم السلطان الغوري لما طلب منهم أموالاً كثيرة بالمصادرة وعجزوا عنها فأخرجهم من السجن وأراد غزو الحرمين فأشار عليه صلاح الدين بن ظهيرة أحد المسجونين بمراسلة الشريف بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان أمير مكة وقال إنه سيسلم الأمر للسلطان بدون مقاومة وبدوره كتب إلى الشريف بذلك وقبل السلطان هذا الرأي فبعث بالهدايا والخلع وكسوة الكعبة مع المحمل المصري واستقبله الأشراف بالاحترام والتعظيم، وأخذوا للسلطان البيعة ودعوا له في الحرمين الشريفين مكة والمدينة وأرسل مع أحد البارزين صلاح الدين بك بالصرة المعتاد إرسالها من عهد السلطان محمد الجليبي وكان فيها ما مقداره ثمانية وعشرون ألف دينار ومعها سبعة آلاف أردب من القمح المصري لكي توزع على العلماء والفقراء وسائر المستحقين، وكل ما حصل من تسليم الخليفة العباسي وقبول السيادة على الحرمين كان في سنة ٩٢٣ هـ وفيها ثلاثة أحداث عظيمة أحدها تحول الخلافة من العرب إلى الأتراك ثانياً قتل السلطان الغوري الذي بعث جيوشه لمحاربة اليرتغاليين وغزو اليمن، وثالثها قتل السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهري بأيدي الغزاة المصريين، والله في خلقه شؤون.

وعاد راجعاً إلى أوطانه
 إلا ثلاث سنوات ومضى
 وكان فتاكاً شديد البطش
 وقيل إن الوزراء السبعة
 وربك الحاكم فيما ولي
 ولم يعيش من بعد في سلطانه
 لربه مُسنماً مفوضاً
 والشعب في حسابه للعرش
 لم يقتلوا إلا لتلك التزعة
 يقضي على الوالي وما تولى (١)

(١) بعد فتوحاته الجمة وانتصاراته العظيمة في مصر والشام والعراق وبلاد فارس عاد إلى وطنه القسطنطينية في رجب سنة ٩٢٤هـ ولم يبق إلا ثلاث سنوات حتى جاءه ريب المنون ومات في ثمانية شوال سنة ٩٢٦هـ، وعمره أربع وخمسون سنة وبلغت تسع سنوات وأشهر، وكان محباً للخير والصدقات، يعمر المساجد ويجدد ما خرب منها ويحب العلماء ويكرمهم إلا أنه كان سفاكاً للدماء شديد البطش بمن خالفه لا يرى الشعب إلا ملكاً لعرشه والرعايا جميعهم تحت حكمه وقهره وقلماً يفضب على وزير من وزرائه إلا قتله وقد أتى على سبعة منهم الواحد بعد الآخر وصار الناس يدعون على من كرهوه أن يجعله الله وزيراً للسلطان، والله سبحانه وتعالى هو الحاكم المنتقم للمظلوم من الظالم أميراً كان أو مأموراً (ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً)، ودفن السلطان بعد موته بثلاثة أيام في جامع الكبير المعروف باسمه، ((وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور)).

سليمان باشا القانوني

في عام تسعمئة هجرية
ويوم الإثنين وستة عشر
وعمره ست وعشرون سنة
يومئذ جاؤوا بجثمان سليم
فكان يوم فرح وحزن
ونار في الشام عليه رجل
فأرسل السلطان بالعساكر
وطلب الجزية وهي تجري
فقتلوا سفيره ونهضا
بكل ما لا بُد منه للجهاد

كان ظهوره على البرية
من شهر شوال تولى وأمر
سلطنة تمضي وتأتي سلطنة
لدفنه في مسجد له عظيم
ببيعة وجلال الدفن (١)
وما يثير الحرب إلا البطل
لكي يجيئوه برأس النائر
من قبله فرضاً على المجر
في قوة تؤدب المنتقضا
وفتح الله لهم بآفراد

(١) هذا عاشر الملوك وثاني الخلفاء العثمانيين، ولد في سنة ٩٠٠هـ وعاش أربعاً وسبعين سنة وتسلطن يوم الإثنين ستة عشر شوال سنة ٩٢٦هـ بولاية عهد من أبيه ومع الكفاءة التي لا توجد إلا فيه، ويقال له القانوني لأنه وضع كثيراً من القوانين المدنية الموافقة للشريعة الإسلامية، وكان غائباً في صاروخان عند وفاة أبيه فكتمت الوفاة حتى حضر واستقبله الناس استقبالاً عظيماً عند دخول سراي الملك، ووزع الصلوات والهبات على الإنكشارية كجاري عادتهم وجلس للتعزية وعليه ثياب الحزن حتى جيء بجنازة أبيه وخرج لاستقبالها إلى خارج المدينة ودفن أبوه بعد صلاة الظهر في جامع كما قلنا، وفي يوم واحد تكون ولاية سلطان ودفن سلطان آخر فهو فرح بالمستقبل وحزن على الماضي، وسبحان القديم الذي لا بداية له والباقي الذي لا نهاية له.

وَتَمَّ صلى الملك الخليفة
والاختلاف كان في أوروبا
وهيأ الفرصة للزحف على
سَيَّر جيشاً نحوها سليمان
وبعد ما طال حصاراً وقتال
أجلى المسيحيين عنها ذاهبين
وفي بلاد القرم والفلاخ
لما جرى فيها على الكراسي

صلاة يوم الجمعة الشريفة (١)
بين المسيحيين شَبَّ الحربا
رودس حيث كان مصدر البلى
فدافعت قسُها والرهبان
واشترك النساء فيه والرجال
لالمطا واجتمعوا محاربين
تدخل السلطاناً بالتراخي
من اختلاف كبراء الناس (٢)

(١) أول ما بدأ به السلطان سليمان باشا أن رجلاً من أمراء أبيه قد ثار عليه بالشام وأراد خلع الطاعة واسم الثائر (جان بردى الغزالي) من الشراكسة استولى على دمشق وأرسل من يقبض له بيروت وكاتب خير الدين بك الوالي على مصر في المخالفة فاشترط لذلك أن يقبض الغزالي على حلب وهي مما يلي بلاد الأتراك وكلا الرجلين كانا من أصحاب الغوري الذي قتل في حرب السلطان سليم بخديعة منها وتفاهم معه، وسمع السلطان الجديد بأمر الثائر الشركسي فأرسل لتأديبه جيشاً يقوده (فرهاد باشا) فكان يتقدم والغزالي يتأخر حتى قبض عليه وقطع رأسه وأرسل به إلى القسطنطينية، ورتب أمور الشام كما يرام ثم أرسل السلطان سفيره إلى المجر يطلب منهم الجزية المفروضة عليهم أو يستعدوا للحرب فقتل سفيره وظهر منهم العصيان واستعد لحرهم وسار في مقدمة جيشه حتى حاصر بلغراد ودخلها فاتحاً منصوراً واستسلمت قلعتها وانسحب حماتها يوم خمسة وعشرين رمضان سنة ٩٢٧هـ، وصلى الخليفة صلاة الجمعة في إحدى الكنائس التي صارت مسجداً فيما بعد وإنه ليوم تاريخ مجيد أن تقام شعائر الإسلام صلاة الجمعة في صبيحة ليلة القدر من شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، في عاصمة الكفر وعبادة الأوثان في أصعب مدينة شق فتحها على بني عثمان ورجع السلطان سليمان بعد الفتح إلى القسطنطينية وجاءته التهانى من روسيا وجمهورية البندقية وراجوزة، وأرسل ببشارة الفتح إلى جميع الولايات والأقاليم العثمانية.

(٢) تقع جزيرة رودس في البحر الأبيض المتوسط بين مصر والقسطنطينية وهي حصن منيع اتخذ لقطع طريق المسلمين ولتلجأ إليها مراكب الدول النصرانية مهاجمة =

وكان في مصرَ السوزيرُ الأعظمُ صهرُ سليمانَ وفيها يحكم
والإنكشاريةُ ثاروا ظلماً ونهبوا المالَ الكثيرَ الجماً

= للممالك العثمانية أو معتصمة بها عند الدفاع وفي الجزيرة مقر لرئيس الرهانة المسيحيين، وسكانها كلهم من أتباعه، وقد حاول السلطان محمد الفاتح قهر هذه الجزيرة وحاول فتحها ولم يتيسر له لمناعة أسوارها وحصونها ولما فيها من القوات المدخرة للحرب من الأقوات والعتاد ولما يأتيها تبعاً وصدقات من طوائف الكاثوليكين، وشاء الله أن يقع الخلاف بين البابا لاون العاشر ويتبعه الكاثوليكين في كل مكان وبين الراهب الألماني لوتر، مؤسس مذهب البروتستانت وهناك حرب بين ملك فرنسا وملك أسبانيا وبين أمراء المجر اختلاف شديد وملكهم ما يزال صغيراً عاجزاً عن التدابير الحربية واتخاذ الخطط اللازمة للحروب الداخلية والخارجية وكل ذلك جعل السلطان سليمان يفكر في غزو الجزيرة ويعد لها العدة ويرى الفرصة سانحة لفتحها فجهز قوة عظيمة برية وبحرية وسار بها قاصداً هذه الجزيرة فحاصرها في أول رجب وإلى أول صفر من سنة ٩٢٩هـ ودافع دفاعاً شديداً اشترك فيه الرجال والنساء واستعانوا بالبابا في روما وبدوره طلب مساعدة الملكين الإفرنسي والإسباني ولم يفعلوا شيئاً فاضطرت الجزيرة للاستسلام واشترطوا لأنفسهم مدة للانسحاب حتى ينجلوا عنها بأنفسهم وأموالهم وكل ما لديهم وقبل السلطان هذا الشرط فذهبوا إلى مالطا واستقروا بها إلى أن فتحها نابليون في سنة ١٢١٣هـ وأمرها بأيديهم، ودخلت الجيوش الإسلامية إلى جزيرة رودس وأصبحت بمحمد الله تابعة للدولة العلية، وبعد ذلك وقع في القرم خلاف بين غازي محمد كراي وأخيه بابا محمد مع أبيها فقتلاه وتفرد غازي كراي بالأمر وجعل أخاه وزيراً له ولم يوافق السلطان سليمان على ذلك بل عين عمها سعادت كراي أميراً على القرم وأصبح غازي وزيراً له وبعد مدة قتل سعادت كراي ولدي أخيه غازي وبابا، واستقل بالحكم إلى سنة ٩٣٨هـ فقام ولد أخيه إسليم كراي فطرده عن القرم ولجأ إلى القسطنطينية وبقي بها إلى أن مات في سنة ٩٤٤هـ ودفن في جامع أبي أيوب الأنصاري بالآستانة، ونتيجة لهذه الفتن زاد تدخل الدولة العلية في بلاد القرم حتى أصبحت ولاية تابعة لها أما الفلاخ فأراد السلطان أن يضمها إلى دولته في سنة ٩٣٤هـ ولم يكن له عليها إلا السيادة والجزية المفروضة عليهم فأرسل إليهم جيشاً احتل عاصمتهم وأخذ أميرهم إلى الآستانة وغضب الأهالي فعينوا خلفاً له وأقره السلطان في مقابل زيادة الجزية عليهم، وهذا هو ما أشرنا إليه من أمر الفلاخ وبلاد القرم وتفاصيل الحوادث في مطولات التاريخ.

وأدب السلطان بعد ذلك
وعقد الخليفة العثماني
وأن يكون ناصراً معيناً
وجرّ جيشه الكبيرَ جراً
وتَم ما أرادَه وعادا
والحربُ بينه وبين النمسا
فتارة تَقَدَّم وتارة

مُنفرداً بالشر أو مشاركاً^(١)
مع فرنسا العهد بالأمان
ها على الجيرانِ أجمعينا
لفتح بودبستَ والجرا
منتصرا وقد قضى المرادا
حديثُها يَطْلُبُ منك الدرسا
تَدحرُ عنها القوَّةُ الجرارة^(٢)

(١) كان للسلطان سليم صدر أعظم يقال له أحمد باشا ولسليمان صدر أعظم اسمه إبراهيم باشا قربه إليه وصاهره ولكن أحمد باشا قد خالف الأوامر وانفصل بمصر عن الدولة وضرب اسمه على السكة وادعى لنفسه السلطنة وخطب له على المنابر، فأرسل إليه قاسم باشا وهو الذي أخذ من يده كل شيء بعدما قتله وهو لاجئ إلى أحد شيوخ العربان في مصر، ثم جاء إبراهيم باشا واستقبل بالاحترام والتعظيم فرتب الأمور وأقر في الولاية قاسم باشا، ولما فرغ من مهمته رجع إلى القسطنطينية، ويقال إنه طفئ بعد ذلك وتكبر وأصبح يفكر في منازعة السلطان أو الجلوس على عرشه وفتن لذلك ووشى به الحساد وصوروا عليه أكثر من الواقع فقتله سليمان باشا في آخر رمضان سنة ٩٢٩هـ وهكذا كان مصير أحمد باشا ثم إبراهيم باشا والويل لمن اطمأن إلى ثقة السلاطين واعتمد على إخلاصه في خدمتهم ما لم تكن له حالة مع الله تحميه من نقمتهم وسوء مكافأتهم، وفي أيام وجود إبراهيم باشا بمصر أغارت الإنكشارية على ممتلكاته ونهبوا ونهبوا معها بعض جوانب الأستانة وكادت الفتنة تتوسع وجاء السلطان من أدرنة حيث كان مشتياً فيها فسكن الثورة وأكرم الرؤساء منهم وقتل بعض المفسدين منفرداً بفساده أو مشاركاً لغيره فيه والحزم والعزم واجبان في صاحب المسؤولية لصالح أمته وبلادته والشدة واللين لا بد منها:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف في موضع الندى

(٢) اتسعت جداً وعظمت مملكة شارلكان الإسباني وصار ملكاً لإسبانيا وامبراطوراً لألمانيا والبلاد المنخفضة هولندا وما جاورها، وانتصر في محاربتة بملك فرنسا وأحاط ببلادته من جميع الجهات إلا من جهة البحر وقد أخذ فرنسيس الأول أسيراً وأرسلت =

= زوجته سفيراً إلى السلطان تطلب عقد الحلف والمعاهدة بين فرنسا والباب العالي ولكن
 سفيرها قتل في الطريق، وجاء بعده سفير آخر وعرض عليه ما لديه فرحب به وأكرمه
 وكتب معه إلى ملك فرنسا يعده بالنصرة والمعاونة وحمايته من شر عدوه شارلكان، ومع أن
 البابا يكره الإسلام ويحارب دولة الإسلام فإنه لم يجد بداً من قبول هذا الرجاء وموافقة
 الملك فرنسيس على ما طلب من عظمة السلطان لحفظ التوازن بين دول أوروبا فكتب
 السلطان كتاباً يظهر فيه عظمته وما أكرمه الله به من الفتوح وما كان منها لآبائه من قبله
 ووعد بمناصرة فرنسا وحرب أعدائها ولم تكن معاهدة ولا محالفة قانونية بين الدولتين إلا
 مجرد وعد بالمكاتبة والمشاهدة والوعد على الحردين، والرأي عند فرنسا أن يحارب السلطان
 بلاد المجر التي تصل الإمدادات منها إلى شارلكان وفعلاً سار السلطان بقواته وجنوده
 ونصره الله على الكفار فهزم جيوشهم وقتل ملكهم، وفتحت بودبست وسلمت الحصون
 والقلاع وكثير من المدن المجرية لما رأوا الهزيمة وتيقنوا أن المدافعة لا تفيد، والمؤسف أن
 السلطان قد حذر جنوده من الفساد في الأرض ونهب أموال الناس ولكنهم خالفوا
 الأوامر طمعاً في المال وكما هو المعتاد دائماً من أفعالهم بعد الانتصارات ولكنهم أدبوا على
 صنيعهم، ورجع السلطان إلى القسطنطينية بعد هذه الفتوحات في سنة ٩٣٣هـ منصوراً
 مظفراً وقد جعل الملك على بلاد المجر (جان زابولي) أمير ترانسلفانيا، وقام في
 النمسا فردينان شقيق الملك شارلكان ورأى نفسه الأحق بالملك في بلاد المجر لقربته من الملك
 لويس المقتول في واقعة موهاكس فهاجم زابولي وانكسر أمامه وطلب النجدة من السلطان
 ولم يتأخر عن واجبه بل جهز القوات للغزو في سبيل الله وجعل قيادة الجيوش لإبراهيم
 باشا الذي ذكرنا خبره في إصلاح مصر بعد فتنة أحمد باشا، أما السلطان فبعد سنة تقريباً
 خرج بنفسه في جيش قوامه مئتان وخمسون ألفاً معهم العدة الكافية والقوة الكاملة
 ثلاثمائة مدفع كبير وما يحتاجون إليه من السلاح والخيول، وحاصر في بلاد المجر عاصمتهم
 بودبست وكان فيها الملك فردينان فهرب منها وسلمت المدينة مفاتيحها للسلطان فدخلها
 وأعاد إليها الملك زابولي وتوجه ملكاً عليها وسار معه إلى النمسا مستخلفاً على المدينة حامية
 من الإنكشارية تحافظ عليها حتى يعود إليها الملك زابولي، ورغم ما كان من الحصار مرتين
 على (فيني) عاصمة النمسا فإن السلطان لم يفتحها لنفاد الذخيرة ولشدة البرد والزمهرير
 الذي لا يمكن معه طول الحصار فرجع السلطان إلى القسطنطينية بعد فتحه لكثير من
 البلاد وكان قد التقي في غزوته بسفير آخر جاء من فرنسا وعقد معه الاتفاقية على حرب
 شارلكان ووعد بتقديم الأسطول البحري إذا احتاجت إليه فرنسا، ومجمل القول أن هذه=

وافتح الغازي بلاد العجم
وظل فيها مدة طويـلة
وكان إبراهيم باشا القائدا
وهناً السلطان بعض الجيران

وأصبحت بغداد تحت العلم
وزار منها الكوفة الجليلة
في فتحه الأطراف والقواعدا
ودوئ الغرب بفتح إيران^(١)

= الغزوات والانتصارات وما كان فيها من تقدم وتأخر وانتصار وانكسار تحتاج إلى دراسة وافية ومعرفة باللغات الأجنبية التي وقعت بها المراسلات ووقعت بها المعاهدات ومن طلب الشيء أدركه ومن عجز عن إيفاء المقام حقه تركه، وسبحان الذي لا يحاط بشيء من علمه إلا ما تفضل به وعلمته.

(١) حصلت حوادث تستوجب إعادة الكرة على بلاد العجم فأرسل السلطان قائده الصدر الأعظم إبراهيم باشا وسير معه الجنود وفتحوا تبريز عاصمة العجم في أول سنة ٩٤١هـ، وجاء ابن حاكم أذربيجان سامعاً طائماً ومعه رأس الخائن شريف بك الذي قتله صاحب أذربيجان وبعد مدة سار إبراهيم باشا إلى حلب ليستجيب ويقضي بها فصل الشتاء، وفي صفر من السنة نفسها وصل الغازي سليمان باشا إلى تبريز وعين فيها أميراً عليها وجاءته طاعة بعض الأمراء الآخرين ثم تقدم بجيوشه إلى بغداد وسبقه إلى فتحها إبراهيم باشا وفر حاكمها من قبل سلطان العجم وتركها بدون حامية كافية فدخلها السلطان ولم تصادفه أية معارضة وذلك في جادى الآخرة وأقام بها أربعة أشهر أصلح فيها كثيراً من المنشآت والعمارات المخربة ومنها زار النجف الأعظم بالكوفة كما زار كربلا يقصد قبور الأئمة وأهل البيت وأصلح المشهد على قبر أبي حنيفة، وما أعظم عناية العثمانيين بالقبور، وفي آخر رمضان قفل راجعاً إلى تبريز وقابل فيها المهنيين من الدول الأجنبية والجيران للتهاني بفتح إيران ومدائنها وحصونها، وكذلك المنتصر دائماً بهتى..

فصل تابع لما قبله

للقائد الرومي خير الدين في تونس الخضراء والجزائر يعرفه الأعداء في الهيجاء قد صير البلاد والرعية ولسليمان على المنابر وكان في مرآكش وتونس وملك الأسبان شن الحملة وصار في تونس مولانا الحسن وكان قد أرسله سليمان واحتل في طريقه صقلية ومر في مرسيليا ونيس ثم إلى العاصمة التركية ومات ثم دام للمقبور

مواقف في خدمة القانوني مع صفار القوم والأكابر بأنه ذو اللحية الصهباء خاضعة للدولة العلية دعا وسك النقدة باسم الأمر يقبل من جاء من الأندلس عليه حتى اضطره للرحلة ملكها السابق من أهل الوطن مع الفرنسيين بغزو الأسبان لما رأى جنودها مؤلّية ظل بها كالأسد الحبيس عاد وما زالت به بقية ذكر على شواطئ البسفور^(١)

(١) خير الدين باشا ويعرف عند الغربيين بذي اللحية الصهباء، أصله من جزيرة (مدلي) إحدى جزائر الروم كان هو وأخوه أروج من قراصنة البحر دخلا في الإسلام وانضبا إلى خدمة السلطان محمد الحفصي صاحب تونس واستمرا في عملهما، في أخذ المراكب المسيحية ونهب أموالها وبيع أصحابها في أسواق الرقيق ويأتیان بذلك إلى صاحب تونس وفرة أرسلأ أحد المراكب المأخوذة إلى السلطان سليمان العثماني هدية له وإظهاراً لطاعته فقبل الهدية وأرسل إليها بالخلع والمكافآت وأعطاهما عشر سفن بحرية يستعينان بها على عملهما، فقويت شوكتها وطمعا في احتلال بعض سواحل الغرب باسم =

والبرتغاليون يومَ ذاكَ
 وقضدُهم أن يأخذوا السواحلا
 وفي بلادِ العلمِ والإيمانِ
 وجهز الخليفةُ الجنودا
 في بحرنا قد نصّبوا الشباكا
 وأهلها يقاومون الصائلا
 صارت جيوشُ مصر للعثماني
 تحمّلُ للخليفةِ البنودا

= السلطان العثماني فاستولى خير الدين على ثغر (شرشل) بإقليم الجزائر وعاد إلى تونس وأرسل إلى مصر رجلاً يقال له (كرد اوغلي) ليؤكد ولاء خير الدين للسلطان وهو إذ ذاك في مصر، واستولى أروج شقيق خير الدين على الجزائر نفسها وهزم الجيوش الأسبانية التي أرسلها شارلكان لمساعدة الجزائريين وفتح مدينة تلمسان فقتل بعد هذا بقليل وحفظ أخوه ما فتحه من الجزائر وتلمسان وقتل أمير الجزائر وأرسل إلى السلطان من يخبره بهذه الفتوح باسمه الشريف فقابل الرسول بالاحترام وعين خير الدين بكلكريك على الجزائر وأصبحت ولاية تابعة لبني عثمان ودعا لهم على المنابر وضربت النقود باسم السلطان واستمر خير الدين في أخذ المراكب الإفريقية وغزو السواحل الإيطالية والإفريقية والأسبانية، وفتح الحصن الذي بناه الاسبانويون في جزيرة صغيرة أمام مدينة الجزائر، وللحلف المعقود بين فرنسا والدولة العلية أمر خير الدين أن يكف عن مراكبهم وأن لا يتعرض لهم بسوء فحول قوته إلى شاطيء أسبانيا وانتقم منهم على ما صنعوه بالمسلمين بعد سقوط غرناطة بقية أرض الأندلس حين قتلوهم وعذبوهم وأدخلوهم في المسيحية كرهاً، وساعد من بقي هناك من المسلمين في الرجوع إلى بلاد المغرب الإسلامية واستدعاه السلطان سليمان إلى الآستانة للمفاوضة معه فيما يجب اتخاذه لصد هجمات الأدميرال الجنوبي حليف شارلكان الأسباني أو أجيره في حرب المسلمين، فكلف خير الدين بإنشاء المراكب وإعداد العدة لفتح تونس، وفي سنة ١٥٣٤م خرج بقوته من الدردنيل قاصداً فيما يظهر للناس أنه لا يريد تونس مباشرة فر بجزيرة مالطا وبعض موانئ جنوب إيطاليا، وفي السنة التالية قصد تونس وبين أهلها خلاف على الملك وظن أهلها أنه يريد خلع مولاي الحسن صديق أسبانيا وأنه سينصب أخاه الحسن الرشيد مكانه، فاحتل المدينة وثرغها المسمى حلق الوادي وذلك باسم السلطان سليمان، وكبر الأمر على شارلكان الأسباني فاتفق مع رهينة يوحنا الأورشليمي التي نزلت في مالطا بعد سقوط رودس كما تقدم وحمل في كثير من جنوده حملة بحرية استرجع بها تونس من خير الدين واستولى على جميع ما فيها من العدد والذخائر وأفسد جيشه في البلاد نهياً وسلباً وهدموا المساجد ومزقوا الكتب وفعلوا مع التونسيين كما فعل التتر في بغداد من النهب والفساد، وفي ثمانية أغسطس سنة ١٥٣٥م =

في قوة بحرية سبعينا ومعها ست من السفينا
والأرنؤوطي يقوؤ القوه شيخوخة تدفعها فتوه
من السويس لاحتلال عدن ثم لتعزيز القوى في اليمن (١)

= أمضيت معاهدة بين شارلكان ومولاي الحسن الذي عزله خير الدين فرده إلى مملكته واشترط عليه شروطاً قاسية لا يتحملها إلا مغلوب وفرض عليه عند حصول أي مخالفة أن يدفع خمسين ألف دوكا وفي ثاني مخالفة مئة ألف دوكا وثالثاً لا يبقى له حق في المملكة، أما خير الدين فإنه لما رأى هذا كله والأهالي يميلون إلى ملكهم الأول رأى المصلحة في أن يرتحل بمراكبه إلى مقر السلطنة العثمانية حيث قد ضعفت قوته وانتصر عدوه والمدد السلطاني لا يأتيه قريباً، والحازم من أحسن التخلص مما هو فيه ولم يطلب المستحيل إذا أقلت الزمام من يده، ولشدة الخلاف بين الملكين الفرنسي والألماني طلبت فرنسا بإلحاح من السلطان مساعدتها في حرب شارلكان، وسارت القوات العثمانية إلى جهات مختلفة وسار خير الدين مع السفير الإفرنسي في مراكبه من الآستانة قاصداً مدينة مرسيليا في جنوب فرنسا واستولى في طريقه على بعض جزيرة صقلية ولم تكن بها قوة مدافعة، واستقبله الإفرنسيون بالتقدير والاحترام وأقلع بسفنه مع السفن الإفرنسية إلى مدينة نيس وفتحت عنوة، ثم أذن له بتفضية فصل الشتاء في مدينة طولون، وأعطيت له ثمانمائة ألف ريال فرنساوي يوزعها على جنوده، ثم إن ملك فرنسا رفض أن تسير سفنه مع السفن العثمانية لاتهام المسيحيين له بالخروج عن دينه وممالأة المسلمين على حرب المسيحية، فاتفق مع شارلكان بمعاهدة توقف الحرب بينها لعدة سنوات، ورجع خير الدين إلى القسطنطينية وتوفي في سنة ١٥٤٦م الموافق ٩٥٥هـ، ودفن بجهة (بشكسطاش) على شاطئ البوسفور وقبره هناك مشهور.

وما الناس إلا هالك وابن هالك وكل الذي فوق التراب تراب

(١) علمت ما كان من الأطماع الإفرنجية في البحر الأحمر والبحر الهندي للاستعمار وكسب المصالح التجارية في سواحل عدن والمخا وبقية الموانئ الأخرى، والبرتغاليون أشد من غيرهم طمعاً وأكثر تضحية في الاستيلاء على تلك الشواطئ التي يدافع أهلها عنها دفاع القوي عن نفسه وبلاده لمن يصول عليه، والمصريون المماليك الذين خرجوا إلى اليمن في مطاردة البرتغاليين وقد استعان بهم الإمام يحيى شرف الدين على محاربة بني طاهر قد دخلوا اليمن واستمروا من سنة ٩٢٣ إلى ٩٤٥هـ وهزموا سابقاً في غزوهم لعدن وبعد ما كانوا جنوداً لمصر وحكامها المماليك تحولوا جنوداً للخليفة العثماني وأعلن الأمير =

وقُتِلَ الباشا أويِسُّ وأتى
 من بعده أزدمرد سيفاً مُصلّتا
 في قوّةٍ إلى الحروبِ تَسعى
 عمودٌ باشا ثم أنهى عهده
 ومصطفى باشا مضى وبعده
 وجاء رضوانٌ وبعده مرادٌ
 والبشواتُ يَعبثون في البلاد (١)

= إسكندر باشا في اليمن طاعته للسلطان سليمان ولكنها ضعفت قوته واضطر لمصالحة الإمام شرف الدين، وجهاز القانوني جيشاً عظيماً من ميناء السويس لمطاردة البرتغاليين والاستيلاء على جزائر الهند الغربية التي كانت تمون البرتغاليين ولتعزيز قوته الباقية في اليمن ولتجديد الحملة على عدن بعد فشلها في المرة الأولى، وقوام تلك الحملة أربعة آلاف من الحرس السلطاني وستة عشر ألفاً من الجنود الآخرين تسير بهم ست وسبعون سفينة بحرية بقيادة سليمان باشا الأرنؤوطي الداع من العمر ثمانين سنة ولكنه الشيخ الذي ما يزال مملوءاً فتوة وقوة تدفعه إلى الحرب التي ألقها وترى عليها، ولما وصل جزيرة كمران قدم طلائعه إلى زبيد وأهل السواحل اليمنية أن يستعدوا لتكوين جيشه بجميع ما يلزم وأن يظهرها الطاعة التامة للخلافة العثمانية ولما وصل عدن فعل فيها ما تقدم شرحه مع آخر ملوك بني طاهر واستولى عليها وأصبح معظم اليمن أو كله تابعاً لبني عثمان اللهم إلا بعض أجزائه التي استولى عليها أئمة الزيدية، وهم والله بحق رجال الدفاع وأسود الشرى في يوم الصراع، وحين تم له احتلال عدن توجه إلى الهند وقاتل البرتغاليين براً وبحراً ولكنه انهزم وفقد قرابة ألفي رجل من جيشه مع أشياء كثيرة من معداته، ثم رجع إلى عدن ورتب فيها قوة تحميها من الغزو البرتغالي، وسار في سنة ٩٤٦هـ فاحتل المحا وزبيد وغيرها من البلاد اليمنية، وجاء إلى عدن مغيراً عليها علي بن سليمان اليافعي من خنفر فاحتلها وعادت القوات السلطانية فقتلته وأخذت منه عدن وفي سنة ٩٥٢هـ وقع خلاف بين الإمام شرف الدين وولديه شمس الدين والمطهر وانتهى الأمر بتغلب الأخير وضربت السكة باسمه، وتفرغ لحرب العجم.

(١) أثناء الحروب في البلاد العليا بين عساكر السلطان والمطهر وشرف الدين ومن بعده تعاقب البشوات على اليمن ولكل مدته القصيرة إلى أن أجليت عساكر السلطان في سنة ٩٧٥هـ فتقدم أولاً أويِسُّ باشا من صنعاء وهو في الجيش الذي أتى من تعز لمحاربة الإمام وقتل في الشلالة، وجاء من تعز أيضاً إلى صنعاء أزدمرد باشا فحط على صنعاء وناصبه القتال المطهر بن شرف الدين وانهزم الأخير إلى (ثلاء) ودخل الباشا صنعاء عنوة =

وقد روى التاريخُ قولاً يُعتمدُ تبكي له العينُ في القلبِ الكمدُ
قَتَلَ سَليمانَ وليس بالرشيدِ في قتلِهِ لمصطفى وبايزيد
ومَن هُذَيْن من الأبناء يا شقوةَ الأبناء والآباء
دَسَّتْ على هذا وذاك إمرأته وبسليمان هوت منسأته
ومات في أربعةٍ وسبعين والله يَسأَلُ العبادَ أجمعين (١)

= واستباحها ثلاثة أيام واستمرت الحرب بينه وبين المطهر إلى سنة ٩٥٤هـ، وعزل عن
اليمين بمصطفى باشا وبعده محمود باشا وبعده رضوان باشا وبعده مراد باشا، وكل هؤلاء
في عهد المطهر الذي استطاع بقوته وقبائله إخراج العساكر السلطانية من صنعاء ومن
الجبال كلها واضطروهم إلى زبيد وبلاد التهام وأعمال البشوات هؤلاء كانت غير محمودة
ولا مرضية، وقبل خروجهم من صنعاء بسنة واحدة توفي السلطان سليمان القانوني كما
سيأتي .

(١) كان للسلطان سليمان أولاد ثلاثة وهم سليم ومصطفى وبايزيد، وأم سليم
رغب في ولاية العهد لابنها وتعمل في سبيل ذلك حيلتها وتبذل جهدها وتقرب من رجال
الدولة من يعينها على قصدتها وقد استمالت إليها رستم باشا فكان صدرأ أعظم للدولة بعد
إياس باشا وتزوج هذا بنت السلطان من هذه المرأة ولعظيم ثقمتها بزواج ابنتها كاشفته بما
في نفسها من العداوة بمصطفى بن سليمان فعمل هذا الوزير الخائن على تحقيق ما تريده
المرأة وكان مصطفى مع الجيش الذي غزيت به بلاد العجم فكتب تزويراً وتضليلاً بأن
مصطفى يشر الإنكشارية ويستميلهم إليه ضد أبيه وأنهم يساعدونه عن خلعه كما فعل
جده سليم الأول مع أبيه بايزيد الثاني، فقام السلطان يظهر أنه سيتولى قيادة جيشه في
بلاد العجم ولما وصل سرادقه في شوال من سنة ٩٦٠هـ استدعى ولده مصطفى ووكل به
من يخنقه إذا دخل وفعلاً كان ذلك وقتل المسكين بدسياسة رستم باشا لتنفيذ خطة هذه
المجرمة، ونقلت جثته إلى بورصة ليدفن فيها مع أجداده السابقين وكان له بها ولد رضيع
وأرسلت زوجة أبيه من يقتل هذا الطفل لتستريح من مصطفى ومن عقبه ولا أراحها الله
إن كان الأمر كما ذكر، وكان مصطفى محبوباً عند الإنكشارية لشجاعته وحسن معاملته
معهم وله أخ يقال له جهانكير مات حزناً عليه وقيل إنه بكت والده على سوء صنيعه ثم
انتحربين يديه والله أعلم، أما بايزيد الذي كان والياً في قونية فقد رآه أخوه سليم الثاني
منافساً له في السلطنة بعد أبيه فتواطأ مع ناظر الخاتمة (لاله مصطفى) فعملوا حيلة =

الخلفاء العثمانيون بعد القانوني

لا نستطيعُ ذكرهم جميعاً
لأنهم عشرون بعد سبعة
وانما نذكر من أخبارهم
مع الأهم من شؤون الملك
وبعض ما كان من الافرنج
خوفاً على الفرصة أن تضعها
تاريخهم لا نستطيعُ جمعها
ما لليمانيين في ديارهم
وما جرى لعرب وترك
وفي الحديث عنهم ما يشجي^(١)

= للخلاص منه وفتنوا بينه وبين أخيه فتنة اقتضت معاتبة بايزيد لأبيه ولأخيه ورفع الكتاب إلى الوالد وأمر بتحول بايزيد من مقر عمله إلى أماسيا، وظن أنها خديعة فجمع القوة للدفاع عن نفسه ولكنه هزم وفرَّ إلى شاه إيران لاجئاً سياسياً مع أولاده الأربعة فرحب بهم الشاه وأكرمهم وخفية كتب إلى السلطان سليمان وسلمه اللاجئين فقتلوا جميعاً بمدينة (قزوين) وكانت هذه الخيانة طويلة الذبول بين سليم الثاني ولاله مصطفى وشاه إيران وذهبت ضحيتها هذه النفوس البريئة، ولقد كانت الدولة في عهد سليمان القانوني غرة في تاريخ بني عثمان ولولا ما كان منه مع أولاده لظل وحده علم التاريخ المفرد ولكن هكذا تفعل الدسائس وتكون عاقبة الحماقة والاستعجال في العقوبة قبل إثبات الجريمة فهوت بسليمان منسأة الملك وتحطمت معنويته بعد ما فعل بأولاده كما هوت بسليمان بن داود منسأته التي يقول الله فيها (فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خرت تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين)، وتوفي هذا السلطان في سنة ٩٧٤هـ.

(١) جملة السلاطين العثمانيين سبعة وثلاثون كما كان عدد الخلفاء العباسيين سبعة وثلاثين والذين فصلت لك بعض أخبارهم عشرة وهم كما في سلسلة هذا النسب: سليمان القانوني الأول بن سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح بن مراد الثاني ابن محمد الجلبلي بن بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان بن عثمان وبقيتهم كما في هذا الجدول (سليم الثاني) (مراد الثالث) (محمد الثالث) (أحمد الأول) (مصطفى =

فللمطهر بن شرف الدين مع سليم الثاني في الميادين
 كَرٌّ وَقَرٌّ وَجِيوشُ السلطان قد دخلت صنعا بذلك الزمان
 وفي الثمانين توفي العظيم وبعد عامين وشهرين سليم (١)

(الأول) (عثمان الثاني) (مراد الرابع) (إبراهيم الأول) (محمد الرابع) (سليمان الثاني) =
 (أحمد الثاني) (مصطفى الثاني) (أحمد الثالث) (عمود الأول) (عثمان الثالث)
 (مصطفى الثالث) (عبد الحميد) (سليم الثالث) (مصطفى الرابع) (عمود الثاني) (عبد
 المجيد الأول) (عبد العزيز) (مراد الخامس) (عبد الحميد الثاني) (محمد رشاد) (وحيد
 الدين) (عبد المجيد الثاني) آخرهم، وليس من السهل أن نذكر تفاصيل أخبارهم وما
 جرى في أيام كل واحد منهم من الحروب والفتوحات وتاريخ وفياتهم وكيف تولوا وكَم
 دامت سلطنة كل واحد منهم فهذا يفوت علينا الفرصة ويقتضي التطويل الذي تضعف
 عنه الهمة ويعجز المتبدي عن تتبعه واستيفاء المعلومات عنه ولكن ما يتعلق بأخبار اليمن
 وتدخل الدولة العثمانية في ديارنا المحروسة وماذا جرى لهم مع الأئمة الزيدية وقبائل التهام
 والسواحل البحرية، وقد يذكر للاستطراء أو لتكملة البحث في بعض ما جرى للترك مع
 العرب كافة في شمال الجزيرة وجنوبها وكذلك بعض مجريات الأحوال مع الافرنج الذين
 مزقوا رقعة الامبراطورية العثمانية المترامية الأطراف لعجز السلاطين عن المقاومة أو لحبهم
 المسالمة أو لاشتغالهم بالترف أو لإسناد الأمور المهمة إلى الأجانب من الوزراء والصدور
 الذين لا يكرهون سقوط هذه الدولة الإسلامية والانتقام منها لما فعلت بشعوبهم وبلدانهم،
 ولا يبعد أن يكون ثمة سبب خامس من رجال التصوف والذين لا يأخذون بظواهر
 الأسباب بل إنهم ليزينون للسلاطين الضعف والمسكنة وحقن الدماء والاتكال على
 معونة الله ورد الأعداء بمجرد الدعوات وتلاوة القرآن وذلك بيد الله الذي يقول تعالى (إن
 تنصروا الله ينصركم)، ويقول أيضاً: (ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن
 العالمين)، وما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا، والله در القاتل:

بسفك الدما ياجارتا تحقن الدما وفي القتل صون للنفوس عن القتل
 والذي يقول أيضاً:

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لم يظلم الناس يظلم
 (١) هذا البطل المقدم والأسد الضرغام لا شك أنه قد ملأ التاريخ ذكراً وقضى
 الحياة فتحاً ونصراً وإن كانت له زلاته وأخطاؤه الحربية فقل ما يسلم من ذلك أحد وأنه =

وَفُتِحَتْ قَبْرُصُ فِي عَهْدِ سَلِيمٍ
حَتَّى أَتَاهَا الْإِنْجَلِيُّ الظُّلْمَةُ
فِي عَامِ سَنَةٍ وَتَسْعِينَ وَأَلْفٍ
وَمِنْذَ عَامَيْنِ اسْتَقَلَّتْ قَبْرُصُ

وَلَمْ تَرَكَ تَخَضُّعُ لِلْبَيْتِ الْعَظِيمِ
فَزَالَ عَنْهَا مَجْدُهَا وَالْعِظْمَةُ
وَمِثْلَيْنِ حِينَ جَاءَهَا التَّلْفُ
وَرَأَسُوا الْأَسْقَفَ إِذْ تَخَلَّصُوا^(١)

= ليعترف صراحة بثلاث هفوات وقعت له . مخالفته لأبيه شرف الدين ومنعه لأهل صنعاء من مقابلة أزدمر باشا الذي فتحها عنوة وجعله ينهزم عنها ، وكثرة الإنفاق في عمارة ظيِّبة إحدى مدن اليمن بلا فائدة من تلك العمارة والإنفاق عليها ، ولقد حارب المطهر السلطانين العثمانيين سليمان الأول وسليم الثاني عدا ما له من الحروب الداخلية مع بني طاهر والأئمة الخارجين في وقته فلقد حارب من البشوات أويس وأزدمر ومصطفى ومحمود ورضوان ومراد وحسن وعثمان بل ومع الوزير سنان باشا ، وهذه الحروب كر وفر وتقدم وتأخر وكلها دالة على صلابته عوده وبسالة جنوده وهو فيها مصيب ويخدم الدين أو مخطيء ويرى القتال في الدفاع عن الوطن جهاداً في سبيل الله ، وتوفي المطهر رحمه الله في ثالث رجب من سنة ٩٨٠هـ ، وكان كثير التلاوة للقرآن قواماً بالليل جامعاً بين خشوع العبادة وصرامة الشجاعة ، وقد تفرق أمر البلاد بين أولاده فلطف الله في ذي مرمر وما والاها من المشارق وغوث الدين في عفارة وما والاها وعبد الرحمن في حجة وما والاها ، وعلي بن يحيى بن المطهر في ثلاً وأكثر المعازب ، وكان إذ ذاك السيد أحمد بن حسين المؤيدي في صعدة ، وتوفي السلطان سليم آخر رمضان سنة ٩٨٢هـ بعد المطهر بستين وشهرين تقريباً .

(١) كثر البغي من أهل جزيرة قبرص وعظم فسادهم واشتدوا في عداوة المسلمين فغزاهم السلطان سليم في سنة ٩٧٨هـ بجيش يقوده مصطفى باشا وبدأوا بمهاجمة نيقوسيا وفتحوها ثم تابعوا تقدمهم إلى بقية المدن والقلاع والله يفتحها عليهم والغنائم تملأ أيديهم والعدو يحفل أمامهم جفلان النعام من الأسود ، ومن المؤسف أن المسلمين وقد أخذوا عدة جزر بحرية وملأوا مراكبهم بالأموال والغنائم أرادوا التفرق وسمع بهم المسيحيون وقد تحالف البنادقة والبابا وملك أسبانيا على حرهم فأقبلوا بقواتهم يطاردون المسلمين واختلفت الوزير برتو باشا مع كاشف البحر علي باشا فالأول يريد عدم المقابلة وكان جبناً غير أنه أصاب الرأي وقال لا بد من مواجهة العدو ولا يمكن أن نفر عنهم وهم يستعدون للقائنا ، فأجمع الرجلان بعد الخلاف على مواجهة العدو . وشاء الله أن تهب رياح قوية فرقت المراكب العثمانية وهزم الجيش بعد ما شاهد من الانتصار ما يفرح =

ولم تكن مصيبة عظيمة مثل الذي حلّ من الهزيمة
بآل عثمان (بليسنته) وقد كادت جيوشُ الترك تفقدُ الجَلَدَ (١)

= و يسر، وقتل الكاشف علي باشا وأصابت المسلمين هزيمة نكراء فهبت مراكهم وأخذت غنائمهم وقتل كثير منهم طبيعة الحرب والحرب سجال يوم لك و يوم عليك (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين) واستمرت جزيرة قبرص تحت الحكم العثماني إلى سنة ١٢٩٥هـ، ثم حصلت خلافات سياسية بين الدولة العثمانية ودول أخرى اقتضت في أيام السلطان عبد الحميد الثاني أن تتنازل تركيا للإنجليز في احتلال قبرص مقابل حمايتها ودفاعها عن شواطئ تركيا في آسيا، فدخل الإنجليز واحتل الجزيرة وأصبحت من قواعده الحربية شرقي البحر الأبيض كما أصبحت مالطا في الجانب الغربي وهم يريدون بهذا المحافظة على مصر وقناة السويس وحماية مراكهم الذاهبة إلى الهند والراجعة منها وداموا بها إلى سنة ١٩٦٠م الموافق ١٣٨٠هـ ثم جلوا عنها بموجب معاهدة معقودة بينهم وبين تركيا واليونان وأهل قبرص، وبعد الاستقلال رأس القبارصة اليونان والأترك لجمهوريتهم الأسقف مكاربوس رجل دين تغلبت عليه السياسة فيما بعد ونيوب عنه في الرئاسة رجل تركي يقال له كوتشك، وكتبت هذه الأبيات بعد الاستقلال بسنتين وحال كتابة التعليق والخلاف شديد بين الأترك واليونان في قبرص وتحاول الجزيرة أن تتحد مع اليونان وأن تجرد الأترك من حقوقهم السياسية وليس لهم إلا مثل ما لغيرهم من الأقليات المستوطنة في الجزيرة ويوم هذا تمت الاتفاقية بين الرئيسين مكاربوس وجمال عبد الناصر وبموجبها تتعهد الجمهورية العربية المتحدة بتقديم المساعدات المادية والأدبية للدفاع بالقوة عن الجزيرة عند أي تدخل أجنبي وقد فشلت حتى هذه اللحظة هيئة الأمم في إيجاد حل مقبول للطرفين المتنازعين في قبرص، ونعوذ بالله من شر الفتن ما ظهر منها وما بطن ونحشى أن تطير شرارة الحرب ويبد الله وحده تصاريق الأمور.

(١) خسر العثمانيون بعد فتح قبرص في حربهم مع المسيحيين المتألبين عليهم بالقرب من (ليبنته) خسائر فادحة كادت تفت في أعضادهم وتضعف معنوياتهم وقد ثاروا على المسيحيين الموجودين في البلاد العثمانية لولا رباطة جأش الوزير محمد الصقلي وتسكينه لتلك الثورة فإنه قد استعد للانتقام والأخذ بالثأر وأدرك بعض ما يريد في السنة الثالثة من تلك الحادثة، ويقول المؤرخون إن الذي خسره الجيش الإسلامي في هذه المعركة =

أما مراد الثالث الذي بقي أكثر من عشرين عاماً يرقى
 فإنه عاصره الأولاد أربعة وگٹھم أمجاد
 أبوهم مطهر وأهله في عصره قالوا قليل مثله
 والحسن المؤيد الإمام مع مراد تجمع الأيام (١)

= ثلاثون ومئة سفينة عثمانية وأحرقت وأغرقت أربع وتسعون وغنمت ثلاثمائة مدفع
 وثلاثون ألف أسير، وقد اتخذ هذا الانتصار يوم عيد للمحاربين المسيحيين، وكانت
 الحرب دينية بحتة لا كما يقولون إنها سياسية بدليل مشاركة البابا فيها وخطبته المملوءة
 بالمديح والثناء على الجيوش المنتصرة في كنيسة ماري بطرس بروما، والله المستعان.

(١) ولد السلطان مراد الثالث بن سليم الثاني سنة ٩٥٣هـ، واستخلف بعد أبيه في
 آخر رمضان سنة ٩٨٢هـ وبقي خليفة إلى أن مات في سنة ١٠٠٣ في جادى الأول من
 تلك السنة، وأول ما بدأ به من أعماله أن منع الخمر الذي أفرط الإنكشارية في شربه
 وأفسدوا بالسكر دينهم وأخلاقهم ومصالح الناس، واشتدوا عليه حتى أذن في شرب
 القليل منه الذي لا يحصل به الخلل ولا يفسد به العقل وفي الحديث النبوي الشريف (ما
 أسكر منه - الفرق - أو قال الكثير فله الكف منه حرام)، وقتل مراد الثالث إخوته
 الخمسة محمد وسليمان ومصطفى وجهانكير وعبد الله قتلهم خوفاً على الملك أن ينازعوه
 فيه، وقد أصبح قتل الإخوة والبنين عادة معروفة عند السلاطين، وعاصر في اليمن أولاد
 المطهر بن شرف الدين الأربعة المتقدم ذكرهم لطف الله وعبد الرحمن وغوث الدين وعلي
 ابن يحيى وكلهم ماجد وجاهد ومجاهد والولد سر أبيه، وأهل اليمن لا يعرفون مثل المطهر
 الذي حارب الشراكسة المصريين وباشوات الترك وملوك اليمن وأتمتها، ففي أول سنة
 ٩٨٣هـ خرج إلى اليمن مصطفى باشا وكان بها قبله بهرام باشا الذي تحزبت عليه الجنود
 السلطانية وحاصروه في قصره مع بعض خواصه ولكن الباشا مصطفى مات فور وصوله
 وانتقم بهرام باشا من الجنود وقتل كثيراً من الذين تألبوا عليه، وفي سنة ٩٨٤هـ دخل
 مراد باشا إلى صنعاء وقتل جماعة من أعيان العسكر السلطاني وكان حسن المعاملة
 مع الرعية، وفي سنة ٩٨٥هـ بنى مدرسته المعروفة بصنعاء وفي سنة ٩٨٦هـ في شعبان منها
 اجتمعت الشيعة الزيدية بصعدة وأقاموا عليهم الحسن بن علي بن داود المؤيدي فصار إماماً
 مطاعاً تبعه أكثر القبائل وكان بينه وبين أولاد المطهر اختلافات بادية الرأي فبعضهم
 سلم له ودخل في طاعته وبعضهم تمنع وقاتل، وكان الأمير سنان قد أعانهم عليه وهو =

والعهدُ بينهم وبين النمسا وكان مما كان في عهدٍ مرادٍ إذا مشى أسطولهم في البحرٍ ودخلت بُولُونِيَا في الطاعة والمغربُ الأقصى ثورُ الفتنة لا يشبهُ العهدَ مع فرنسا للإنجليزِ رفعُ أعلامِ العنادِ وكان هذا لفرنسا يجري وغيرهم مِمَّن لهم مَناعة^(١) فيه وتزدادُ عليه المحنة

= والي صنعاء من قبل الباشا مراد، واستمرت الحالة كذلك في حرب وسلم إلى أن جاء الوزير حسن باشا في سنة ١١٨٩هـ، وفي أيامه أسر الإمام الحسن سنة ١١٩٣هـ، واستدعى أولاد المطهر في سنة ١١٩٤هـ ثم غدر بهم وقبض عليهم وفي سنة ١١٩٥هـ سيرهم جميعاً مع الأمير سنان إلى الحما وأرسل بهم بجزراً إلى القسطنطينية في خسة عشر شوال من سنة ١١٩٥هـ، وبقي الإمام الحسن بن علي هناك إلى أن توفي في سنة ١٢٠٤هـ، وهكذا تجمع الأيام بين الإمام الغالب والمغلوب والطالب والمطلوب، كما جمعت بين الإمام اليمني والخليفة العثماني وإلى الله المصير.

(١) وقعت على حدود النمسا فتن ومناوشات وسالت الدماء أيام مراد الثالث ولكن بدون حرب معلنة وفي كتاب الدولة العثمانية لمحمد فريد بك قال ما نصه: في أواخر سنة ١٥٧٦م أمضيت هدنة سلم بين الباب العالي والامبراطور رودولف الذي أخلف مكسمليان الثاني ثماني سنوات، تبتدىء من أول يناير سنة ١٥٧٧م وعند بيان أملاك الدولة العلية بهذه المعاهدة ذكرت بولونيا ضمن الأقاليم التي لها حق السيادة عليها، انتهى. أما العلاقات مع فرنسا فكانت حسنة جداً فجدد السلطان لهم الامتيازات القنصلية والتجارية مع زيادة بنود أخرى في صالح فرنسا، ومنها أن يكون سفيرها لدى الباب العالي مقدماً على جميع السفراء الآخرين في المقابلات والاحتفالات الرسمية، وتحصلت ملكة الإنجليز إيزابيلا على امتياز خصوصي لتجار رعاياها وهو أن مراكبها تحمل العلم الإنجليزي في الموانئ العثمانية وكان ذلك لا يجوز إلا لفرنسا وحدها وللبندقية أيضاً، وسائر الدول لا تدخل الموانئ العثمانية كذلك إلا في ظلال العلم الإفرنسي بموجب معاهدة معقودة سابقاً مع السلطان سليمان وولده السلطان سليم. وكانت بولونيا خاضعة لحكم الدولة العلية وتحت حمايتها كما ذكر في المعاهدة المعقودة مع الامبراطور رودولف وهي بنفسها التي قبلت بل طلبت حماية الباب العالي لشرقي بلادها ضد التتر المغيرين عليها.

وبعد ما استعان سلطان البلاد
وقد قضى بهم على الخلاف
وكل يوم والخلاف ثا
وخرجت تونس والجزائر
ولم تدم في ليبيا سيادة
أو المراسيم التي لا تُذكر
وظل فيها البغي من إيطاليا
وعاد فيها الملك السنوسي
وخلص الله تعالى تونس
وها هي الجزائر المجاهدة
حي الرئيس أحمد بن بلّة
وإن رأيت أننا أطلنا
فالأمر قد نذكره بالأمر

بالتريك لم يعرف جيلاً لمراد
والبرتغاليون في الإسراف
يشتد والخطب قد أدلّها (١)
من آل عثمان وجاء الفاجر
لهم سوى الخطبة حسب العادة
وأشعل الحرب بها المستعمر
حتى أزال الله عنها الباغيا
أكرم بليبيا وبالإدرسي
مما تُعانيه خلاص يونس
قد طردت عنها فرنسا الجاحدة
وقومه والعرب مستقلة
فيما نقولُه وفيما قلنا
وفي الأمور مستحق الذكر (٢)

(١) في سنة ١٥٧٨م قامت ثورة في المغرب الأقصى على ملك مراكش واستعان قائد هذه الثورة بالبرتغاليين مما جعل السلطان الشرعي يستجد بالدولة العلية فكلفت واليا على طرابلس بإنجاد صاحب مراكش، فدارت معارك عنيفة انتصر فيها العثمانيون على خصوم الملك وقتل قائد الثورة وانكسر البرتغاليون وغنمت منهم الغنائم الكثيرة، ولما رجعت القوة العثمانية من مراكش تنكر ملكها للسلطان مراد ولم يعترف له بحسن صنيعه مع أن البلاد بل وشمال أفريقيا كله قد صار ولايات عثمانية بعد هذا الفتح وكثيراً ما كانت مراكش محلاً للنزاع والأطماع الدولية بين فرنسا والبرتغال والأسبانيين ومن اعتنى بالتاريخ في شمال أفريقيا وجد به العجب العجيب لما حضر وغاب.

(٢) المراد بالفاجر الحاكم أو الحاكم الفرنسي فإن الجزائر ظلت طائفة أو شبه طائفة لبني عثمان حتى رأى الإفرنجيون احتلالها بحجة المقاومة للمقرصنة البحرية أمرة كان فصلها يتكلم مع الحاكم حسين وأوما الحاكم بالمروحة التي كانت في يده يلف بها الحر أو يطرد بها الذباب أوما بها إلى وجه الفرنسي فاعتبر هذه إهانة له واتخذها حجة، =

= وفي سنة ١٨٣٠م احتلت فرنسا بلاد الجزائر وأصبحت تعدها جزءاً لا يتجزأ من فرنسا وحاولت القضاء فيها على الإسلام واللغة العربية ((ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً))، واحتلت تونس أيضاً بموجب الحماية في الظاهر والحقيقة أنها صارت من أملاك فرنسا بزعمها وليس للباي فيها إلا صورة الحكم والواقع أن المقيم الإفرنسي هو الذي يتصرف في شؤونها الداخلية والخارجية ولم يبق للعثمانيين في ليبيا إلا الاعتراف بالخلافة أو الدعاء على المنابر حتى جاءها الاستعمار الإيطالي وبدأ فيها الحرب من سنة ١٩١١م، وقتل من أبطالها الشجعان ومن أسودها الأشاوس أمثال السيد عمر المختار رحمه الله، واستمر الوضع في الجزائر وتونس من الإفرنسيين وفي ليبيا من الإيطاليين إلى أن جاءت الحرب العالمية الثانية فتحركت النفوس واهتزت العواطف شوقاً إلى الحرية وامتلاّت قلوب العرب الذين لا ينامون على الضيم كراهية للاستعمار والمستعمرين، فذهبت إيطاليا إلى غير رجعة ومحى الله ظلها ونكس أعلامها ورجعت ليبيا إلى أهلها وحكم فيها السنوسيون ونصب ملكاً عليها السيد محمد إدريس السنوسي وهو الجالس اليوم على عرشها، أما تونس والجزائر فلم تستقل تماماً إلا بعد ذلك وقد طرد الباي عن تونس وصارت جمهورية يرأسها الآن الحبيب بورقيبة وخلصها من ظلم فرنسا الذي خلص يونس من بطن الحوت، واستقلت الجزائر بحكم الثورة العارمة التي قامت هناك في شهر نوفمبر من سنة ١٩٥٤م وقتل فيها نحو مليون جزائري إلى أن استقلت بعد سبع سنوات ونصف من ثورتها، ونحن نحبي المجاهدين في سبيل الله حيث ما كانوا وفي أي زمان كانوا، وكان يرأس الثورة الجزائرية عدة رجال كفرحات عباس ويوسف بن خدة واليوم يرأس الجمهورية الجزائرية أحمد بن بيللا، وبمناسبة توقيع المعاهدة بينهم وبين فرنسا أو بالأصح الاستقلال التام قلت قصيدة أحيي بها رجال الثورة وأبطالها، ومطلعها:

هكذا فليكن جهاد الأبي	بربري أو مسلم عربي
يشهد الله والملائك والناس	جميعاً لوقفه المغربي
وقفه للجهاد لا فرق فيها	بين كهل وأمرد وصبي
وشيوخ لهم عزائم صدق	ورثوها عن صحب خير نبي
يا لسبع من السنين صراعاً	مع قوات معتد أجنبي
جاء بالنار والحديد سلاحاً	وأق هؤلاء بالخشبي
فإذا بالأسود تزار حتى	مزقت قلب ما كرتعلي
والذي يطلب الجنود بنفس	ونفيس غير الجبان الغبي =

محمد الثالث وستة من أبنائه

محمد هذا الذي استداما
ومات بعد الألف في الثاني عشر
يخاف منهم أن ينازعوه
وقد رأى الدولة في اضطراب
فأخذ الثورة والثوارا
بنفسه ساريقوؤ الجنندا
وكان جدّه سليمٌ ومراد
بعد أبيه تسعة أعواما
وقتل الأخوان تسعة عشر
في الملك أو أن لا يبايعوه
والثورة الحمراء بالأبواب
ثم مضى في غزوه الكفارا
وحفظ الأطراف واستردا
أبوه يقعدان عن داعي الجهاد (١)

= هذا وإنما جرننا إلى ذكر شيء من أخبار شمال أفريقيا حديثنا عن السلطان مراد الثالث وفي أول الكلام قد قلت لك إننا لا نهم كثيراً بتاريخ العثمانيين إلا فيما يتعلق باليمن وغيرها من البلدان العربية فعذراً أيها القارئ الكريم فإنما الشيء بالشيء يذكر والأمر قد يجبر به أمر آخر كما رأيت، «لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً».

(١) السلطان الغازي محمد الثالث بن مراد الثالث بن سليم الثاني بن سليمان القانوني ولد في سنة ٩٧٤هـ وملك بعد أبيه في سنة ١٠٠٣هـ، ومات في سنة ١٠١٢هـ، وعمره تسع وثلاثون سنة وملكه تسع سنوات أول ما بدأ به من أعماله أنه قتل إخوانه الذكور تسعة عشر في يوم واحد قبل أن يدفن أبوه فدفنوا جميعاً أمام جامع آيا صوفيا، وذلك خوفاً من منازعتهم أو أن يتأخر بعضهم أو كلهم عن مبايعته وهي عقوبة قبل الجريمة وإنما لما تقشعر له الأبدان وإنما لوحشية لا يتخلق بها إنسان، ولئن كان محمد الثالث تقياً عابداً عالماً ذاكراً الله كثيراً معظماً لشعائر الله وغازياً في سبيل الله فإن تلك العملة لا يوازها شيء ولا يحكم فيها وعليها إلا من له الحكم المطلق وإليه المآب والمنطلق، وكانت الأمور في أول ولايته مضطربة والحالة سيئة والأعداء يطمعون في =

وأحمدُ ولدهُ استمرّا
ثم أخوه مصطفى وقد نزل
وصار بينه وبين العسكرِ
فالانكشاريةُ لما أسرفوا
بقوةِ كوتّها في آسيا
وقطّنت جيوشهُ المُحيطة
ثم أعادوا عمّه مكانه
في سنواتِ الملكِ خمسَ عشرًا
بابنِ أخيه وهو عثمانُ الأجل
خلقتُ شديدٌ وانتهى بالمنكرِ
في بغيهِم أراد أن يُستخلفوا
لكي تبيدَ باغياً وعادياً
به فقتلوه رغم الحَيظة
ولعبتُ بالدولةِ الخيانه (١)

= الممالك العثمانية والوزراء يتلاعبون بمهماتهم ولا يباليون بشيء في سبيل مصالحهم الشخصية وهم ثلاثة سنان باشا وحسن باشا وسيكالا زادة باشا الجنوبي الأصل المقتول في محاربة العجم، وسار محمد الثالث بسيرة أبيه مراد وجده سليم في القعود عن الحرب وعدم الخروج في قيادة الجيوش ولما رأى ما أصاب السلطنة وما يخشى عليها في المستقبل قام بنفسه في همته العلية وعزمته الماضية فقاد الجيوش وهز العروش واسترد ما فات من حقه وكسب فتوحاً جديدة فسار أولاً إلى بلغراد ثم إلى ميدان الحرب والنزال وتحركت الغيرة ودبت النخوة في رؤوس جنوده واقتدوا بعمله وطمع كل أن يكون مثله، ففتح قلعة (أرلو) التي عجز عن فتحها جده سليمان الأول ودمر القوات المجرية والنمساوية قريباً من هذه القلعة، واستمرت الحروب بعد هذه الواقعة المجرية والنمساوية قريباً من هذه القلعة، واستمرت الحروب بعد هذه الواقعة سجالاً بينه وبين أعدائه ولكنها حروب غير حاسمة وأخذ ثورة (قرة يازيجي) رئيس فرقة علوفة جي في الأناضول وكادت نارها تأكل الأخضر واليابس ولئن كان رئيسها قد قتل فإن أخاه قام يطلب ثأره وفعل بالدولة الأفاعيل المنكرة حتى صالحوه وسبق إلى المعارك الحربية بجنوده وهلكوا فيها جميعاً واستراح من شرهم السلطان محمد الثالث وأهل دولته، ومضى إلى الله مستخلفاً على العرش ولده أحمد الأول.

(١) السلطان أحمد الأول بن محمد الثالث بن مراد الثالث بن سليم الثاني بن سليمان باشا القانوني، ولد في سنة ٩٩٨هـ، وملك وعمره أربع عشرة سنة واستخلف بعد أبيه وعاش في الملك خمس عشرة سنة وتوفي ١٠٢٧هـ وعمره حوالي ثلاثين سنة، وتعاقت في أيامه الولاة على اليمن، وفي أيامه مات سنان باشا وحسن باشا اللذين حكما في اليمن والأول كان موته في المحاسنة ١٠١٦هـ، كما مات بالآستانة الإمام المأسور الحسن بن =

وقام بالأمر مرادُ الرابعُ والناسُ عاصٍ منهم وطائعُ
وصالح العباسُ سلطانَ العجم من بعد ما كان مرادُ قد هجم
واعتزم السيرَ إلى أرضِ اليمنِ لها يسوقئذٍ من الفتنِ

= علي بن داود سنة ١٠٢٤هـ، وفي أيامه أيضاً قويت الحركات الإنجليزية والهولندية في البحر الأحمر، وبعده تسلطن أخوه مصطفى الأول ودام ثلاثة أشهر فقط ثم عزل بابن أخيه السلطان عثمان الثاني ابن أحمد الأول وقبل مصطفى العزل وتنازل عن العرش ولم يحرك ساكناً ولا أظهر أي مخالفة، أما عثمان هذا فكان من أحسن السلاطين خلقاً وأجلهم سِياء وطبعاً، له أدب وحياء وعرفان وفيه شجاعة وفروسية، وكان ينظم الشعر التركي كما يقول الشيخ دحلان، وكان الجيش في حرب العجم، ولما سمعوا بعزل السلطان مصطفى رجعوا إلى العاصمة ووضع لهم الأمر فرجع بهم قائدهم لحرب العجم واستردوا منهم ما كانوا قد استولوا عليه من الممالك، ووقع الصلح بين السلطان عثمان والملك عباس سلطان العجم على شروط كانت في صالح الدولة العلية، وبعد هذا كانت غزوة إلى البغدان التي شجع أميرها بولونيا على العصيان فغزاهم السلطان عثمان بجيش يقوده اسكندر باشا وظفر بالعدو وقتل منهم كثيراً وأسر كثيراً، وقطع رأس قائدهم وأرسل به إلى السلطان وألزمهم القائد اسكندر بدفع مئة ألف ريال مع نفقات الحرب، وحصل من الإنكشارية تمرد على السلطان ولم ينفذوا خطته المرسومة على الوجه المطلوب في حرب بولونيا ففكر في إنشاء قوات عسكرية بولايات آسيا إذا حصل من الإنكشارية أي تمرد أو مخالفة لأوامره تسد مسدهم، وفتنوا لذلك فدخلوا عليه إلى حرمه وأخذوه من بين زوجاته وجواريه وسبوه وشتموه وذهبوا به إلى القلعة ذات السبع القلال وكان ينتظره فيها جماعة من رؤسائهم فقتلوه وأرجعوا إلى الخلافة عمه مصطفى الأول، وفي مدة ثمانية عشر شهراً والحالة سيئة والفوضى منتشرة والإنكشارية ينهون ويسلبون ويزعجون الأهالي في أنفسهم وأموالهم فأجمعت الآراء على عزل السلطان مصطفى الذي تبين ضعفه وعجزه عن القيام بأعباء الدولة لإشتغاله بالعبادة وعنايته بالأمر الأخرى مع تقصيره في شؤون الحياة التي تقتضي الحزم والعزم فعزل ونصب مكانه ابن أخيه مراد الرابع ابن أحمد الأول، وفي أيام سلطنة مصطفى بن محمد الثانية صارت الحكومة ألعوبة في أيدي الإنكشارية ينصبون الوزراء ويعزلونهم بحسب أهوائهم فعزلوا داود باشا قاتل السلطان بعد بضعة أيام وصاروا يمنحون المناصب لمن يجزل إليهم العطايا فكانت الوظائف تباع جهاراً وارتكبو أنواع المظالم في القسطنطينية.

لولا جلوسُ الخان إبراهيم
 فعاد مسرعاً ومات في الطريق
 وفتحت في عهده كريدُ
 وعزلوه ثم قتلوه
 وكان ينوي أن يُقْلَ حُدَّهم
 وبايعوا ولده عمدا
 وانتُهِكت كرامَةُ الأستانة
 وانتقضت في الشرق والغربِ الأمورُ

على سريرِ ملكه العظيم
 لم يُغني عنه صاحبٌ ولا رفيق
 جزيرةٌ وبأسها شديد
 لأنهم خافوا فماجلوه
 لَمَّا رآهم قد تَعَدَّوا حُدَّهم (١)
 وأصبح الجندِيُّ ذئباً مُفْسِداً
 وضيعت رجالها الأمانة
 لولا محمدُ الوزيرُ المشهورُ

(١) ولد السلطان مراد في سنة ١٠٢٠هـ، وتسلطن في سنة ١٠٣٢ هـ، وعمره حوالي اثنتي عشرة سنة، وتوفي في شوال سنة ١٠٤٩هـ، وسلطنته قرابة سبع عشرة سنة، وهو الذي جدد بناء الحرم الشريف المكي، وفي أول سلطنته كان الوضع كما علمت في غاية الفوضى والأمن مضطرب وشياطين الدولة تلعب بالمصالح واستطاع مراد خان أن يقضي على الفتنة ويعيد المياه إلى مجاريها، وسار بنفسه لحرب العجم وحاصر بغداد وفتحها وصالح الشاه عباس مصالحة الغالب للمغلوب، وكان يريد السفر إلى اليمن كي يقضي على ما فيها من الفتن لكن بلغه جلوس أخيه إبراهيم خان على عرش الخلافة فغاضه ذلك وترك اليمن ورجع قافلاً إلى دار سلطنته فأدركه الموت في الطريق ولا يدفع قدر الله صاحب ولا رفيق، وفي أيامه انسحبت القوات العثمانية بقيادة حيدر باشا عن اليمن سنة ٨ أو ١٠٣٩هـ، واستقر الأمر للأئمة الزيدية، وكان هذا هو الجلاء الأول للأتراك، أما إبراهيم خان وهو السلطان الثامن عشر فولده كان في سنة ١٠٢٤هـ، وتسلطن في سنة ١٠٤٩هـ، وكان لا يحب محاربة النمسا ولا يرغب في كثرة الحروب الأوروبية إلا أنه محافظ على سلامة الدولة ولا يطمع أحد في أن يمسخ بسوء، وفي عهده فتحت جزيرة كريد وما يحاذيها من الجزر، وأراد أن يقتل رؤساء الإنكشارية لما ظهر من عبثهم في ليلة زواج ابنته على ابن الصدر الأعظم، وفظنوا لذلك واجتمعوا مع آخرين في أحد المساجد فقرروا عزله وتولية ابنه محمد الرابع فذهبوا للسلطان إبراهيم وعزلوه ورأى البعض منهم أن السلطان الصغير لا يصلح للقيام بالأمر فأرادوا إرجاع والده المعزول وخاف الجانب الآخر من شدة الانتقام فسارعوا إليه ومعهم الجلاد قرة علي فخنقوه وقضوا عليه ورأوا أنهم قد اكتفوا شره، وذلك في سنة ١٠٥٣هـ.

قبضة الله لتلك الدولة وكان ذا مهابةٍ وصوله
 ومن أشد ما جرى الحصارُ ضيقه الأسطولُ والبحارُ
 بالدردنيلِ وعلى البنادقه دارت رحى الحرب فكانت ساحقه
 وبعد كوبرلي عميد استوى ولدهُ أحمدُ مشدودُ القوي
 بمثل ما كان عليه الوالدُ وهو الذي لانت له الشدائدُ
 ولم يزل في الفتج والمجاهده والنقض والإبرام والمعاهده
 ومات بعد الألفِ والثمانين في سبع الأعوامِ وضاء الجبين^(١)

(١) محمد الرابع هو ابن السلطان إبراهيم الذي عزل وقتل، بويغ محمد خان بعد أبيه وهو في السابعة من عمره، واختل النظام وعبث الطعام وأصبحت العامة تحكم في الخاصة وكثرت الصدور والوزراء والصغير لا يحترم الكبير والكبير لا يرحم الصغير والجندي المسلح الذي لا تردعه قوة ولا يخضع لأوامر رئيسه لا شك أنه ذئب مفسد في مراح الأغنام أو كلب عقور في موضع الظلام. وفي تلك المدة ضعف المسؤول وقوي الظالم والباغي وأصبحت الدولة العلية شبه كتاب يرأسه صغير لا يعقل أو كبير لا يقدر والأطفال مدللون والآباء لا يبالون حتى قبض الله للدولة صدمراً أعظم قوياً جلدأ مسناً مجرباً حازماً عازماً شديد البأس قوي المراس محمد باشا كوبرلي في سنة ١٠٦٧ هـ فضبط الأمور وأحسن السياسة وضرب بيد من حديد على الفوضويين فقتل من يخاف شره ومن لا يتفد أمره واستطاع أن يؤدب العاصي وينشر الأمن ويعيد للدولة بعض ما فقدته من الهيبة ويرد عنها أعداءها ويكون فيه للسلطان الصغير أكرم والد وأعظم وزير، ومن أعماله أن جمهورية البنادقة قد ضيقت الخناق وشدت الحصار على الدردنيل ومنعت المراكب من الدخول بالتجارة والتموين إلى القسطنطينية ودام ذلك مدة حتى مات قائد البنادقة وبعد أسابيع قليلة ارتفع الحصار واستعيدت الثغور التي استولى عليها العدو، ودارت رحى الحرب على البنادقة وسحقهم بفضل الله ثم بحسن التدبير من هذا الوزير، ولما مات خلفه ولده أحمد وهو لا يقل عن أبيه سياسة وحسن إدارة وقد سار بسيرته ولانت له الشدائد وكان في الولد خلف صالح من الوالد الذي أشار على السلطان محمد بتعيينه ولده أحمد للصدارة فنقض وأبرم وجاهد وفتح وانتصر، وتوفي كوبرلي محمد باشا في سنة ١٠٧٢ هـ، أما ولده المذكور فتوفي في سنة ١٠٨٧ هـ مشكوراً على أعماله ومذكوراً =

وصار صدرأ أعظم من بعده
 باع المناصب الكبيرة التي
 مستأثراً بما يعودُ نفعه
 حتى تواطأ الوزير الثاني
 فعزلوا سلطانهم محمداً
 حتى أتاه عام أربعة
 قرأ مصطفى القليلُ رشده
 لم تك إلا لكبار الدولة
 عليه كيف ما يكونُ جمعه
 مع كبار القوم والأعيان
 وعاش بعد عزله مبتعداً
 لمئة وألف عام متبعة (١)

= بحسن خدماته للسلطان محمود السيرة وضاء الجبين بوفائه وحسن بلائه، والذكر للإنسان
 عمر ثانٍ .

(١) تعين في منصب الصدارة بعد أحمد باشا كوبرلي زوج أخته مصطفى قره ولم يكن
 بالكفاء الكرم لهذا المنصب العظيم فرأيه ضعيف والدنيا كبيرة في صدره فباع الوظائف
 واستعمل من لا خير فيه وأعطى الامتيازات والمعاهدات الضارة بالدولة لأعدائها من
 الدول الأجنبية وبالجملة فقد استأثر بالمنافع وحرص على الجمع فما أغنى عنه جمعه ولا
 أفاده ما اكتسبه وحصلت بعد هذا فتن واضطرابات نتيجتها القتل والعزل وتحكم
 الإنكشارية وخيانة أصحاب المناصب الكبيرة، وبمواطأة مع الوزير سليمان باشا الوزير
 بعد مصطفى قره عزل السلطان محمد في آخر القرن الحادي عشر وعاش معزولاً إلى سنة
 ١١٠٤هـ، وفيها توفي، وعند هذا نقف عن الاسترسال في تاريخ الدولة العثمانية ونعود
 إلى ذكر اليمن وبعض ما صار فيها من الأحداث في تلك المدة، ((ونريد أن نمن على الذين
 استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين)).

اليمن في القرن الحادي عشر

للبيشوات في بلاد اليمن حربٌ وسلمٌ واتفاقٌ ونزاعٌ ولالإمام الحسن المؤيد ذكرٌ من التاريخ حيث أرسله بها إلى أن مات بعد الألف وقبل هذا نحو ست سنوات في ظاهر الأمر أتوا تجاراً ولم يفوزوا في ابتداء الأمر بل قوبلوا في بندر الخاء وبعض هؤلاء صاروا أسرا والأمر من صنعا هو المطاع فالإنجليز أولاً وبعدهم ونمَّ للترك هنا ما قد سلف فانسحبوا وتركوا أشياءهم

مع الأهالي في القرى والمدن ما بين صدقٍ واحتيالٍ وخداعٍ مع الوزير حسنٍ في البلد إلى بلاد الترك ثم أهمله سنة أربع وعشرين قتي^(١) أقبلت الإفرنج من بعض الجهات لكن وراء القصد الاستعماراً بأي شيء في مواني البحر وعدن بالرفض والإياء ومأثمهم قد صادرتهم الأُمرا وحسنت من بعده الأوضاع هولندا لكن لم ينالوا قصدهم عام ثمانٍ وثلاثين وألف من المُعدات لمن وراءهم^(٢)

(١) معنى هذه الأبيات مفهوم وظاهر ومعلوم، وتقدم ذكر الباشوات المتعاقبين على اليمن أوديس وازدمر ومصطفى النشار وعمود ورضوان ومراد وسان وهرام وحسن وجعفر وعمد وفضلي وحيدر. وعلمت أن الإمام الحسن بن داود قد أرسل بعد أسره إلى الآستانة وأن الوزير حسن هو الذي فعل ذلك وأهمل أمر الإمام حتى مات هناك في التاريخ المذكور.

(٢) قبل وفاة الإمام المؤيد بنحو ست سنوات وأقصد سنة ١٠١٨ هـ أقبلت السفن البحرية الإنجليزية والهولندية وهي سفن تجارية ولا يظهر من أصحابها إلا قصد التجارة =

أما الإمام القاسم المنصورُ فهو الذي تمت له الأمور
بعد الإمام الحسن بن داود وكان للقاسم أولادٌ أسود

= وتبادل المنافع مع الموالي اليمنية وحكامها العثمانيين لكن وراء ذلك ما يريده المستعمرون من الاحتلال والتدخل الفعال في شؤون اليمن وإغراء العداوة بين الشعب والدولة، وأول سفينة إنجليزية ظهرت بميناء صيرة هي التي يقودها (ألكسندر شاربي) وهي تابعة للشركة الهندية الشرقية التجارية وبعد رسوها في الميناء أرسل حاكم عدن مندوباً عنه ليدعو الكابتن شاربي للنزول في عدن ولما نزل قبض عليه وطلب منه إنزال البضائع التي في السفينة وقيمتها ألفان وخمسمئة ريال صادرها حاكم عدن بحجة أنها في مقابل الضريبة المفروضة على السفينة ثم أطلق سراح الكابتن شاربي وأخذ من سفينته رجلين بحارين رهينتين عنده وطلب منه ضريبة غير قيمة البضائع المصادرة فأبى أن يدفع شيئاً كما يقول الأستاذ حمزة لقمان في تاريخه (عدن والجنوب العربي)، وترك البحارين الآخرين، وفي سنة ١٠١٩ هـ وصلت إلى عدن ثلاث سفن أخرى بقيادة أمير البحر (سر هنري ميدلتن) ولم يجد مرشداً بحرياً فترك إحدى السفن الثلاث في عدن وتوجه بسفينتين إلى المحا واستقبله الحاكم رجب آغا بالاحترام ووعده بالمساعدة في تسهيل مهمته التجارية وبعد يوم أو يومين قبض على أمير البحر الإنجليزي ورفاقه فقيده وعذب وأرسل به وعين معه إلى صنعاء وقتل ثمانية من بحارته وفي العاصمة اليمنية تلقى من حاكمها المهانة والتهديد وأنذره العودة إلى شواطئ اليمن وقال له إن المسيحيين جميعاً ممنوعون من النزول في هذه الشواطئ وأخيراً رده إلى المحا واختلف مع حاكمها فتمكن من الهرب وتهدد المحا أن يقصفها بالمدافع من سفينتيه إذا لم يدفع له ثمانية عشر ألف ريال في مقابل ما أخذ منه ودفعت له المحا ما طلب مع ما صودر من بضاعته، وأسند هذا مرة أخرى إلى الأستاذ حمزة لقمان، وفي سنة ١٠٢١ هـ وصلت السفن الهولندية إلى بعض سواحل الصومال وأرسلوا سفينة إلى عدن تحمل علماً أبيض وتخابروا مع حاكمها فرحب بهم ودعا رئيسهم إلى تناول طعام الغداء في دار الحكومة وسأله عن جنسيته فأخبره وقال إنه يحمل تصريحاً من الباب العالي بالنزول في هذه الموالي فامتنع الحاكم من السماح له بحجة أنه لم يتسلم من السلطان ما يدل على الإذن للهولنديين بما ذكر، فرجعوا إلى الشحر وقتحوا بها مصنعاً نجحوا فيه، وفي سنة ٢٥ جاءوا إلى المحا ومنعهم الحاكم من النزول بحجة أن الباشا في صنعاء لم يأمر بهذا والشك حاصل في نوايا الهولنديين وبعد هذه الأعمال والمحاولات انسحب الأتراك عن اليمن تاركين وراءهم أشياء كثيرة من معداتهم مستغنين عنها أو =

ومَنهم ولدهُ محمدٌ وهو الإمامُ الحاكِمُ المؤيدُ
ثم أبو طالبِ بنُ القاسِمِ يقالُ فيه العالِمُ بنُ العالمِ
خَلَى مكانَ الحَكَمِ والإمامةِ لصنوهِ إسماعيلَ ذي الشهامةِ (١)

= مستقلين لها أو مقدمينها هدايا لمن وراءهم والانسحاب كما سبق في سنة ١٠٣٨ هـ،
وللدول أعمار كأعمار الرجال ودوام الحال من الحال، (إن الأرض لله يورثها من يشاء
من عباده والعاقبة للمتقين).

(١) الإمام المنصور القاسم بن محمد بن علي بن محمد بن الرشيد هو المولود في شهر
صفر من سنة ٩٦٧ هـ واشتغل بالعلم وأخذ عن شيوخ عصره وبرع في مختلف الفنون وله
تصانيف كثيرة ومنها ما كمل ومنها ما لم يكمل ككتاب الاعتصام الذي بلغ فيه إلى
أحكام الصيام وكان في مجلد ضخيم، وكتاب الأساس في أصول الدين وعليه شروح
ورود لكثير من العلماء، وله رسائل ومسائل مجموعات كثيرة، وفي المحرم من سنة
١٠٠٦ هـ دعا الناس إلى مبايعته وذلك بعد الإمام الحسن بن داود وصار للإمام القاسم
ما هو معلوم عن الحرب والغارات التي هزم فيها وتقدم وظهرت فيه شجاعته وصبره على
مكاره الإقدام مع قلة ذات يده بالنقود والطعام حتى قيل إنه كان يأكل مع بعض أنصاره
من نبات الأرض وهم بالفلوات وعلى رؤوس الجبال وبفضل ما فيه من كرم الفعال
وشرف الخصال كانت العاقبة له وانتصر على أعدائه وتجرع منه الأتراك كؤوس المرارة
وأضطرهم أولاده إلى مغادرة اليمن وتوفي عليه السلام في أول سنة ١٠٢٩ هـ وعمره اثنتان
وستون سنة وإمامته حوالي اثنتين وعشرين سنة، وله أولاد أئمة فضلاء فمنهم العالم الأديب
والشاعر المطبوع والملك المطاع والإمام المتبع ومنهم الإمام المؤيد محمد بن القاسم ومنهم أبو
طالب المتخلي عن الأمر لصنوه وأخيه الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم
المعروف بالفضل والشهامة وصحة الإمامة، وفي ترجمة الإمام المؤيد محمد بن القاسم يذكر
أنه ولد في شعبان أو رمضان من سنة ٩٩ هـ، وأجمع الناس على مبايعته بالإمامة بعد أبيه لما
رأوا فيه من العلم والسياسة وأنه لا يقل قدراً عن والده والولد سر أبيه، وقد أيدته الله
بأخويه الحسن والحسين اللذين وقفا إلى جانبه وجاهدا أعداء البلاد حتى أخرجوهم منها
كافة إلا من رغب في البقاء مع الإخلاص في خدمة الإمام وقال الشوكاني في البدر
الطالع: ولم تجتمع الأقطار اليمنية بأسرها من دون معارض ولا منازع لأحد من الأئمة قبل
صاحب الترجمة، ومات في يوم الخميس ٢٧ رجب سنة ١٠٥٤ هـ، وكان مشهوراً بالعدل
والمشي على منهج الشرع والوقوف عند حدوده وحمل الناس عليه مع لين الجانب وحسن =

وقام في جهاتنا بدافع
 يحكم في لحج وثغر عدن
 وكان هذا لاجئاً إليه
 خيلاً ورجلاً وأزال ملكه
 على المطايا وظهور الخيل
 وسلمت مأرب والمشارق
 وحضرموت كلها مستسلمة
 سلم أمرها إلى الإمام
 وسافر السلطان يقصد الإمام
 من نفسه الشيخ حسين اليافع
 حتى أتاه أحمد بن الحسن
 من قبل أن يملأها عليه
 ولم تزل جيوشه مُنفكة
 ولقبوا أحمد سيل الليل
 جميعها الرصاص والمواق
 نتيجة لصحة المقدمة
 بدر بن عبدالله في شبام
 وعاد في تجلة وفي احترام (١)

= الأخلاق والتواضع والإحسان إلى أهل العلم والميل إلى الفقراء، ووضع بيوت الأموال في موضعها، انتهى.

أما أبو طالب أحمد بن القاسم المولود في سنة ١٠٠٧هـ، فقد ادعى الإمامة بعد أخيه المؤيد في سنة ١٠٥٤هـ بشهارة ثم تنحى لأخيه المتوكل إسماعيل ومات العالم أبو طالب ابن القاسم في صعدة سنة ١٠٦٦هـ، وعمره تسع وخمسون وهو صاحب جامع الروضة قريباً من صنعاء رحمه الله.

(١) في أيام المؤيد محمد بن القاسم استولى على أبين ولحج وعدن الشيخ حسين بن عبد القادر اليافعي وليس بصنيعة لأحد ولا عامل لغيره ولكن بوازع من نفسه وعلى طمع في الملك والتغلب وصلة اليافعيين بعدن معروفة قديماً وحديثاً والخلاف وقع بين الإمام المؤيد وابن أخيه صفي الدين أحمد بن الحسن بن القاسم وسببه أن الإمام طلب من ابن أخيه تسليم خزائن والده بحجة أنها تركة ويجب تقسيمها بين الورثة على الوجه الشرعي أو أنها لبيت المال فيجب ردها إليه وبعد خلاف شديد وضغط على الصفي فر منتقلاً من مكان إلى مكان إلى أن أحاطت به جيوش الإمام في قعطبة فقتلت رجاله وانتهت أمواله ونجا بنفسه هارباً مع بعض خاصته ولجأ إلى الأمير حسين اليافعي حاكم عدن وبقي مدة بموضع الاحترام والتكريم، وجاء من الإمام الطلب لابن أخيه فضايقه اليافعي ولعله كاشفه الأمر ففرغ إلى يافع وبالوساطات الطيبة والمساعي المشهورة رجع إلى عمه فصالح معه وزوجه بإحدى بناته ومكث في صنعاء إلى أيام عمه المتوكل إسماعيل =

وكان للإمام إسماعيل ما ليس محتاجاً إلى التفصيل
وهو الذي لُقّب بالتوكلي والحزْمُ مطلوبٌ مع التوكلي

= وأرسله على رأس جيش لجب لفتح عدن ولحج وأبين وهو يعرف نقط الضعف من أميرها اليافعي الذي كان ضيفاً عليه بالأمس، فسار بقواته وفتح ما عهد إليه من هذه الجهات وفر عنها اليافعي إلى بلاده ورجع الصفي إلى صنعاء وقد استخلف من نواب الإمام ولاية على هذه الجهات بعد أن ملأها على الشيخ حسين بن عبد القادر اليافعي خيلاً ورجلاً كما قلنا وما زالت قواته تزيد ورجاله على سهوات الخيل وظهور المطايا وهو يفتح بهم مشارق اليمن (البيضاء ويافع وما بينها وبين رداع) وتطيعه قبائل الجوف وما جاورها وأهل مأرب وحريب وبيحان والعوالق وبلاد الواحدي وما إلى ذلك، وشاء الله أن يحصل الخلاف بين آل كثير في حضرموت فتنازل السلطان عبد الله بن عمر بن بدر أبي طويرق عن السلطنة لأخيه بدر بن عمرو لكن ابن السلطان الأول وهو بدر بن عبد الله لم يكن راضياً بهذا لعمه فأخذ يدس عليه الدسائس ويستعين بالسادة الباعوليين على عمه بدر، ولحسن العلاقة بينه وبين أئمة اليمن استغل البدر الصغير هذه الفرصة وزعم أن عمه قد تشيع واعتنق المذهب الزيدي ونفر عنه آل كثير والرأي العام في حضرموت، واستطاع أن يعزله ويقبض عليه وعلى أولاده ويجبسهم في حصن مربعة قريباً من سيئون ثم نقلوا إلى تريس وهذا كله في سنة ١٠٥٨هـ، وعلم الإمام المتوكل إسماعيل بحبس صديقه أو حليفه بدر بن عمر فكتب للسلطان الجديد يعاتبه ويتهدهه ويأمر بإطلاق عمه فامتثل الأمر وكتب اعتذاراً للإمام وكلف أن يتخلى لعمه عن ولاية ظفار ففعل ولكنه احتال عليه فيما بعد فأخذ منه الولاية بواسطة أخيه جعفر الذي قتل ابن عمه، وهرب بدر ابن عمر إلى بلاد المهرة ثم إلى عدن ومنها إلى الإمام إسماعيل وقابله بالاحترام والتكريم وذكر له كل ما جرى من ابن أخيه وأنه لا يريد إلا البعد بحضرموت عن دولة الإمام وأن كل ما يقوله في رسائله محض زور وخداع، وتأثر الإمام بما سمع وصدق الأمير بدرًا بجميع ما يقول وكتب للسلطان بدر يستفسره عما صار منه في ظفار وبأية حجة يخالف الأمر ويطرد عمه فرد معتذراً ومراوغاً وينحى باللائمة على أخيه جعفر ويقول إنه لا علم له بهذا العمل وأنه لا يوافق عليه وعرفت منه الخطة التي يسير عليها والمحاولة التي يرد بها سيطرة الإمام على حضرموت، وكتب أيضاً للسلطان بدر إلى صفي الدين أحمد بن الحسن يحاول أيضاً أن يخدعه حسب العادة معه ومع الإمام ولكنهم فطنوا لما يريد، وأمر الإمام أن يتجهز الصفي لغزو حضرموت فسار بقواته وهو كما يلقب بسيل الليل لمفاجأته وقوة =

وابنُ أخيه أحمدُ الصفي وقد عرفتَ كيف كان أمره ورأيه في شافعية اليمن يراهم الكفازَ بالتأويلِ وبعضُ أبناءِ عمومة له هو الإمامُ بعده العرفي فخيرُهُ يُرجى ويُخشى شرُّه رأيي غريبٌ لم يكنْ به يُظنْ ومثلُ هذا ليس بالجميل قاتلهم وهم أرادوا قتله

= هجومه، وكان لا يمر ببلدة ولا قبيلة إلا ويصحبه جماعة منها فكان معه من قبائل خولان وأشراف الجوف وعبيدة وغيرهم كثير من الذين مر بهم وما زال ينده عمه المتوكل بالجيوش والعتاد ومعهم الرؤساء من أهل البيت المالك وغيرهم من المخلصين ويقود القوات التابعة محمد بن الإمام، وكذلك سار بدر بن عمر بعد ما نال من التكريم وما أعطى له من الأموال سار في قوة يتبع بها الصفي أحمد بن الحسن وتلاحقت العساكر في مكان يقال له واسط من بلاد العوالق، وسارت تلك الطرقات البعيدة القاحلة القليلة الماء والأقوات وعلف الدواب وكاد الجيش الامامي يهلك من الجوع حتى قربوا من دوعن وأمدهم الشيخ العمودي بما يقدر عليه من الحبوب واللحوم والذوم الذي أكلوه بعجره من الجوع، واستمر زحفهم على حضرموت والمفاوضات تجري بينهم وبين السلطان الكثيري ولكنها تفشل، والصفي يتقدم حتى تمرکز قريبا من الهجرين وهناك وقع أول اشتباك بين الفريقين فاحتلت البلد وأخذ جميع ما فيها والسلطان يحاول المقاومة ولكن بدون جدوى، ودخل الصفي أحمد إلى شبام في شهر شعبان من سنة ١٠٧٠هـ، وأقام بها أياماً أتاه فيها الوجهاء والأعيان مسلمين عليه ومستسلمين له من عينات وتريم ومرجة وسيئون والغرفة وتريس وغيرها، ثم تقدم إلى سيئون العاصمة وطلب السلطان بدر الأمان فأمنه على نفسه وأهله، وأرسل قوة بقيادة الأمير علي بن بدر بن عمر الذي أعيد إلى السلطنة أرسلها إلى الشحر ليضمها إلى أبيه بدر بن عمر وكلف السلطان بدر بن عبد الله بزيارة الإمام في صنعاء فذهب سامعاً طائعا وقوبل بأعظم تقدير وأكرم استقبال وبقى عند الإمام مدة غير قصيرة معزراً مكرماً تغمره الهدايا والأموال وكرم الضيافة حتى أستأذن في العودة إلى بلاده فأذن له الإمام وخلع عليه وأعطاه خيلاً وإبلأً ونقوداً وأشياء أخرى كثيرة، والممول فيما سقناه من خبر الصفي أحمد بن الحسن ودخوله إلى حضرموت على كتاب الشيخ سعيد باوزير (صفحات من تاريخ حضرموت) وهو أيضاً ينقل عن السيد العلامة محمد بن هاشم في كتابه تاريخ آل كثير، والعلم لله بما كان وما يكون.

ومات في ثمانية وتسعين والعمري في ثلاثة وستين (١)
ثم ابن إسماعيل عم أحمد محمد إمام شعب يقتلدى

(١) المتوكل على الله الإمام إسماعيل بن الإمام القاسم المولود في سنة ١٠١٩هـ،
بويج له بعد أخيه المؤيد في سنة ١٠٥٤هـ، وكما قلنا تنازل له أخوه أحمد بن القاسم بعد
أن ادعى الإمامة لنفسه وفاضل الناس بينه وبين صاحب الترجمة فكان المترجم له أكثر
علماً وحنكة سياسية فأجمعوا على البيعة له واشتهر بالعلم والحلم والكرم والشجاعة والعدل
وهي صفات قل ما تجتمع في أحد من أئمة وملوك آخر الزمان، وكثرت فتوحاته، وكان
له من ابن أخيه أحمد بن الحسن خير ناصر ومعين، وللمتوكل مؤلفات كثيرة نافعة
وشيوخه من أجلاء علماء اليمن والناس يأخذون عنه العلم في مختلف الفنون لا فرق بين
كونه حاضراً أو مسافراً ولما حصل عنده من المال الكثير غمر الناس بالجلود والعطاء وجاءه
الملوك ورؤساء القبائل طوعاً وكرهاً، ويقال إنه كان عنده يوم موته من الطيب ما قيمته
مئة ألف أوقية من الفضة وخلف من النقود والعروض ما لا يأتي عليه الخصر، وخلف
من الحبوب ثلاثمئة ألف قدح صنعاني، وكان ينفق على العلماء وطلبة العلم ما يكفيهم
ويسير بهم معه حيث سار وكان مالياً لشريف مكة والعلاقات بينهم حسنة، ومات عليه
السلام في جمادى الآخرة من سنة ١٠٨٧هـ، وعمره بين ثمان أو تسع وستين، ومدة
إمامته ثلاث وثلاثون سنة وتفصيل ترجمته يطول بها الكلام وهي مشهورة عند مؤرخي
اليمن قاطبة، أما صفي الدين أحمد بن الحسن فهو الذي اتفق على البيعة له بعد عمه
المتوكل وتلقب بالمهدي، ومولده في سنة ١٠٢٩هـ، ووفاته في سنة ١٠٩٢هـ، ومدة إمامته
خمس سنين، وقد عرفت أنه يرجى خيره في السلم ويحشى شره وبطشه في الحرب،
وحصل بينه وبين بعض أبناء عمومته القاسم بن المؤيد الملقب بالمنصور والحسين بن
الحسن بن القاسم الملقب بالواثق شيء من الخلاف سبب قتلهم وهم كانوا حريصين على
قتله وذكر أنه كان يعتقد في الشافعية كفر التأويل ويستبيح دماءهم وأموالهم، وإذا
صح ما قيل فهو أمر ليس بالجميل ولا نعلم أن أحداً من أهله يقول بهذا، وقد اعتذر لهم
بالعجز عما يجب في معاملة الشافعية، وأنكر أن يؤم الناس في المساجد بعض فقهاء
الشافعية وغيرهم من علماء الزيدية موجود في تعز وغيرها، وربما نسب إليه الرأي الخاطيء
ترويحاً للفتنة وإظهاراً للعداوة بين الزيدية والشافعية وهي التي ما نزال نكتوي بناها
والشيطان يضرهما بين الإخوان في الدين والنسب والوطن ونعوذ بالله من الفتن، (وإن
أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين).

وَلَمْ يَدُومَ إِلَّا سَنَيْنَا خَمْسًا مِثْلَ الصَّفِيِّ ثُمَّ حَلَّ الرِّفْسَا
وَمَاتَ مَسْمُومًا بِجَمَامِ عَلِيٍّ وَقَبْرُهُ فِي قُبَّةِ الْمُتَوَكِّلِ
وَمَنْ كَالِيَ الْقَاسِمِ الْأُئِمَّةِ فِي خَيْرِ بَلَدَةٍ وَخَيْرِ أُمَّةٍ (١)

(١) بويغ بالإمامة بعد أحمد بن الحسن لابن عمه محمد بن إسماعيل المتوكل، المولود في سنة ١٠٩٤هـ، ويقال إنه مات بالسم في حمام علي ودفن مع أبيه في قبته المعروفة بضوران، وبالجملة فأئمة اليمن القاسميون من أفضل الأئمة ديناً وعلماً وخلقاً فاضلة ونعمت الذرية من خير والد ونعمت اليمن بلدة طيبة ورب غفور واليمنيون أرق أفئدة وألين قلوباً، والإيمان يمان والحكمة يمانية.

عودة إلى بني عثمان

ثاني سليمان أتي العشريننا
 ولم يَدُم إلا ثلاثَ سنوات
 ضعفاً وقوةً ولولا مصطفى
 وبعده ولي أخوه أحمدُ
 عليه ثم سادسُ الأعوام
 ومصطفى الثاني قد تسلطنا
 لكنه في عقده المعاهده
 سلمها للأربع الحكومات
 ودام تسعةً من الأحوال
 وأحمدُ الثالث لما وُلِّي
 فتارةً حرباً وما تفيدُ
 وتارةً صلحاً وفيه يُقتنطعُ
 وكثرتُ في عهده الصدورُ
 ودام سبعةً وعشرين سنة
 وعاش بعد العزل نحو عشر

آخر إحدى عشرة المثينا
 في الملك والدولة في أخذ وهات
 وزيره أمسى الهلاكُ مكسفاً
 ولم يَكُنْ وزيره يُعتمدُ
 من قرنيه فوجيء بالحمام
 من بعده كان قوياً مَرينا
 ضيَع كَم من شاطيء وقاعده
 عدوة الإسلام في ماضٍ وآت
 خليفةً لكن بسوء الحال
 كادت نجومُ سعديه تُولي
 إن قادها الأحمقُ والبليدُ
 من البلادِ طرف أو يُنتزغُ
 وبقتلُ المفتي والوزير
 وبعدها يفقدُ تلك السلطنة
 ثم استَمِع لما جرى في القُطرِ (١)

(١) لا نريد أن نذكر بالتفصيل أخبار العثمانيين بعد من تقدم ولا في هذه المدة بعد القرن الحادي عشر إلا ليعلم المعاصر منهم للأحداث اليمنية وهي أهم ما نعتني به في هذه المنظومة، فهم أولاً سليمان الثاني بن إبراهيم الأول المولود في شهر المحرم سنة =

في اليمن الميمون يومَ إذ ذاك وما بها من خيرٍ للأتراك
كان إمامها هو المهدي محمدٌ والسُّدَّه الصفي

= ١٠٥٢ هجرية، والمبايع له في سنة ١٠٩٩ هـ، أغدق العطايا وجاد بالأموال على الانكشارية ولكنهم تمردوا وقتلوا رؤساءهم وحاصروا الصدر الأعظم سياوس وانتهبوا أمواله وسبوا نساءه وأصبحت الأستانة في فوضى شديدة واغتتم الأعداء هذه الفرصة فأخذوا كثيراً من البلدان الإسلامية والممالك العثمانية في صدارة مصطفى باشا ثم عزل وعين مكانه مصطفى كوبرلي فكان قوي الإرادة مثل أبيه وأحسن من سلفه أوقف الانكشارية عند حدهم ومنعهم من الفساد وصرف لهم من المال ما يكفيهم، وأحسن معاملة المسيحيين وسمح لهم ببناء معابدهم وإقامة شعائرهم الدينية وبفضل ما فعل كسب ودهم وطردهوا إخوانهم البنادقة الكاثوليكين من بلادهم وكانوا يعادون مذهب الأروام الأرثوذكسيين في مورة واستعاد هذا الصدر مصطفى كوبرلي كثيراً مما خرج عن الدولة من البلدان الأوروبية، وفي سنة ١١٠٢ هـ، مات السلطان سليمان الثاني وليس له ولد وهو العشرون من سلاطين آل عثمان ومدته ثلاث سنوات فقط، وبعده بوبع للسلطان أحمد الثاني بن إبراهيم الأول، وقد قتل الوزير الكبير مصطفى كوبرلي وخلفه عربة جي علي باشا وهو ضعيف ولا يغني عن الدولة شيئاً ولم تحصل أحداث مهمة في أيام السلطان أحمد ومات في سنة ١١٠٦ هـ، وسلطنته مثل أخيه سليمان ثلاث سنين فقط، وخلفه مصطفى الثاني بن محمد الرابع المولود في سنة ١٠٧٤ هـ، وكان حازماً قوياً قاد الجيوش بنفسه وسار إلى بولونيا عدة مرات وكاد يفتح مدينة لمبرج، وحارب أيضاً الروسيين ثم المجريين وبعد الحروب الطاحنة جاء ما يقتضي المصالحة والمعاهدة مع الأربع الدول المشهورة بعداوتها للإسلام قديماً وحديثاً وهي روسيا والنمسا والبنادقة وبولونيا فتركت الدولة العلية بلاد المجر بأجمعها وإقليم ترنسلفانيا للنمسا وتركت أزاق وفرضتها لروسيا وردت لبولونيا مدينة كامنيك وإقليمي بودليا وأوكروين وتنازلت للبندقية عن جزيرة مورهِ إلى نهر نكساميلون وإقليم دلماسيا على البحر الإديرياتيكي، ومدة السلطان مصطفى الثاني تسع سنوات ولكنها مليئة بأسوأ الحوادث وأمهات المصائب، وعزل في ربيع الأول سنة ١١١٥ هـ، وعاش معزولاً إلى أن مات في شعبان من السنة نفسها، أما أحمد الثالث ابن محمد الرابع فتولى السلطنة بعد مصطفى خان الثاني وكانت ولادته في رمضان سنة ١٠٨٣ هـ، وتسلطن في سنة خمس عشرة من القرن الثاني عشر، ودام في السلطنة سبعاً وعشرين سنة، وسلم الانكشارية العطاء المعتاد وأذن لهم في قتل المفتي فيض الله الذي عارضهم في عزل السلطان مصطفى وتولية السلطان أحمد، وعزل =

وهو الذي بالفتك والقتلِ اشهر
 ولم يكن في العلم من رجاله
 عليه في كتابه المؤلف
 وذهبت إمامة المذكور
 وإن رأى الخير من الله شكر
 وربما يقرأ من أقواله
 والقصد من ورائه لم يُعرف (١)
 بخصمه حسين المنصور

= الصدر الأعظم نشاخي أحمد باشا وعين في الصدارة زوج أخته داماد حسن باشا وكان حازماً سياسياً طيب الأعمال وموفقاً في تصرفاته ولكنه لم يسلم من الدس عليه وحسده الذين لا يعملون الخير ولا يحبون من يعمله فعزل في سنة ١١١٦هـ، وكثرت من بعده الصدور تولية وعزلاً وقتل الوزراء وكثير من العلماء وذوي الرأي وعزل السلطان أحمد في ربيع الأول من سنة ١١٤٢هـ، وعاش معزولاً عشر سنوات إلى أن توفي رحمه الله في أول سنة ١١٥٢هـ، ثم إليك بعض مجريات الأمور في اليمن الميمون مدة القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين، والله الموفق لمعرفة الحقائق وتجنب الأهواء التي تتحكم في عواطف بعض الكتاب الذين على مثلهم يستشهد بقوله تعالى: ((أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون)).

(١) بعد الإمام محمد بن إسماعيل قام المهدي محمد بن أحمد بن الحسن بن القاسم في سنة ١٠٩٧هـ، وولده في سنة ١٠٤٧هـ، وعمره ثلاث وثمانون سنة، وكان شديد البطش فتاكاً سفاكاً للدماء يأخذ المال من حله ومن غير حله، عارضه جماعة من أهله فقهرهم واستبد بالأمر وصفا له الوقت وكان مترهداً لا يلبس الحرير ولا يتنعم كثيراً بالطيبات ويقال له صاحب السجدة لأنه كان إذا رأى ما بين يديه من عظمة الملك ترجل عن جواده وخر لله ساجداً، قالوا ولم يكن عالماً بالمعنى الصحيح ولكنه مدع ويقرأ عليه الناس طمعاً في خيره ومعاملة له أو رهبة من شره، وله كتاب الشمس المنيرة جمع فيه بعض المسائل المروية عن جده الإمام القاسم وكتابه غير مرتب ولا منظم وربما أنه لا يدري بما فيه، ومن العلماء من يتصنع لهذا المهدي وهو يعرف قلة علمه وكبير دعواه ولكنه بطاش متسرع في العقوبة، وتوفي سنة ١١٣٠هـ، وليس للأتراك في أيامه سلطان على اليمن، وعلى ما كان فيه من الظلم فإنه كان مسرفاً في الإنفاق ولا يبالي إذا حارب بقتل الألواف وإذا أنفق يصرف الملايين والظلم لا يشكر عليه صاحبه والجاهل لا تنبغي بماملته كيف ما كان ومن أي أسرة كان، (وما) نافية في قولنا وما بها من خبر للأتراك وليست بموصولة كما يتوهم من لا يعلم أو لا يفهم.

وابنُ أخيه القاسمُ المحبوس ولم يَدُمَ لعمه موالياً بل أفضت الإمامةُ الزيدية ومات ثاني عشرَ المئين ثم ابنةُ الحسينُ في أعلى اليمن لكنها لما تمردت عليه ثم ابنةُ العباس من أمِّ ولد ودام في منزلةٍ عظيمة ولم يزل يَمْضِي ويأتي منهم

قد فكَّه لحربه الضروس لَمَّا رأى الجفَاءَ منه بادياً إليه بعد النهضة الجدية آخرَ عقدٍ رابعِ السنين (١) وأحمدُ بن تَعَزُّ وعسَدَن بعضُ البلاد انضمَّ مُضطراً إليه قد صار مَهدياً إماماً في البلد لعلمه والسيرة الكريمة (٢) السَيِّدُ الإمامُ والمؤمَّمُ

(١) تولى الإمامة بعد المهدي محمد بن أحمد ابن عمه الحسين بن القاسم بن المؤيد وقيامه بالعصيمات في بلاد حاشد سنة ١١٢٤هـ، وعمره واحد وخمسون، ولهذا حرب مع صاحب المواهب الإمام الذي قبله، ثم قام المتوكل القاسم بن الحسين بن أحمد وهو ابن أخي صاحب المواهب، وخلع الذي قبله المنصور الحسين بن القاسم وكان قيام هذا في سنة ١١٢٨هـ، واستمر إلى سنة ١١٣٩هـ، وتلقب بالمتوكل، وكان في سجن عمه محمد ابن أحمد وأطلقه لمحاربة المنصور الحسين بن القاسم ولكنه أحس بالجفوة من عمه فادعى الإمامة وأفضت إليه بلا نزاع، وتوفي آخر العقد الرابع من القرن الثاني عشر.

(٢) كان للقاسم المتوكل ولدان الحسين المنصور الإمام في أعلى اليمن وأحمد في تعز وعدن وما حوالها ولم يكن أحمد هذا إلا بصفة ملك منشق على أخيه ولكنه شعر بالخطر وخاف على نفسه وعلى أخيه من ثورات القبائل في المشرق فاصطلع الأخوان ورجع أحمد بعد زيارة أخيه إلى محل عمله واستعاد الحج وعدن وكانت قد خرجتا عن الإمام وهو جد أولاد أحمد باشا محمد عامل تعز وعبد الجليل عامل الحجا، أما العباس الملقب بالمهدي وهو ابن المنصور حسين بن القاسم بن حسين بن أحمد بن الحسين بن القاسم المولود في سنة ١١٣١هـ، والمتوفى سنة ٨٩ وعمره ثمان وخمسون سنة، وأمه أم ولد حبشية اشتهر بالعلم والفضل والصلاح وجمع من الأموال وذخائر الملك الشيء الكثير، وتلقب بالمهدي وله مآثر طيبة في بناء المساجد وبرك الماء وإصلاح السبل ومات وهو في مجده وعظمته ومنزلته العالية وقبره في قبته المشهورة بسائلة صنعاء رحمه الله.

من متوكلي ومن منصورٍ
ودولة تَمْضي وتأتي أخرى
في نجد والحجازِ والتَّهائمِ
والتركِ والأشرافِ والمصاربةِ
وفي خلال قرننا الثاني عشر
والهادي والمهدي في الديجورِ
تقوُّدُ خيراً أو تسوقُ شراً
واليمنِ البعيدِ والمتاخمِ
مستأجراً وغاصباً للعاربةِ
وفي الذي يليه ذكرى وعبر^(١)

(١) تعاقب على اليمن بعد المهدي عباس عدة أئمة من متوكل ومنصور وهادي ومهدي وغيرهم إلى عصرنا الحاضر وستفرد آل حميد الدين بفصلين خاصين بهم من هذه المنظومة، (والديجور) ظلام الليل ومن الأئمة من هو كاليدر في الظلام، (وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر) والدول المتعاقبة لا شك أن منها ملوكاً وعظماء يأتون بالخير ويأتي الخير على أيديهم، وبعضهم أشقياء أشرار لا يأتي الشر إلا عن طريقهم، وكل ميسر لما خلق له، وكانت الدول مختلفة على جزيرتنا العربية في نجد والحجاز والتهائم واليمن الأعلى والأسفل من آل سعود والأشراف والأدارسة وأئمة الزيدية وسلطين الشافعية وللأتراك والأشراف والمصاربة منازعات وفيهم الغالب والمغلوب، ومن جاء وظاهره الإصلاح فهو إما غاصب مستأثر بالمصالح أو مستعير متملك جاحد للعارية، وفي القرنين الثاني عشر والثالث عشر ذكرى للذاكرين وعبرة للمعتبرين، وبإذن الله تقف على كثير من مجريات الأمور في الأزمنة الأخيرة والله الموفق والهادي للصواب، ((ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون)).

طرف من تاريخ مصر

يختلف الحكام والعمال
عهد بني طولون والإخشيدي
ولابن طولون وخرويه
من فصل مصر وبلاد الشام
هذا ولا تشك في الأخبار
وكان للأخشيدي شأن يُذكر
ودام أمر الدولتين ثَمًا
أقَى إليها الفاطميون الأولى

في مصر حتى تم الاستقلال
حين استعدت مصر للتجديد
ما يكتب التاريخ أو يرويه
عن طاعة الخليفة الإمام
عما هذين من الآثار
سل عنه كافور الذي لا يُنكر
مئة عام بعد خمس ثَمًا
عرفت من أخبارهم ما قد خلا (١)

(١) مصري كنانة الله في أرضه وأحب بلاد الله إلينا بعد الحرمين الشريفين وقبل
أوطاننا التي ولدنا ونشأنا فيها وهي مقر العلم والعلماء وفيها منازل الفضل والفضلاء ولا
حرج إن قلت معول الإسلام بعد الله عليها شعائر الدين فيها ظاهرة وحظوظها من كل خير
وافرة، ولطيب أرضها ولحسن ما في طولها وعرضها صار إليها العلماء من كل مكان ولجأ
إليها السياسي وطالب العلم والمال في كل زمان، قص الله علينا من أخبارها في الكتب
السماوية كثيراً وامتألت الكتب بتاريخها القديم والحديث ولا أحد أقدم في الحضارة من
المصريين ولا توجد الآثار في مكان آخر كما توجد فيها، ولو لم يكن من شهود العدل على
عظمتها إلا نيلها والأهرام والأزهر الشريف لكني بذلك شهوداً، فتراها ذهب ونيلها
عجب، وأهلها مضرب الأمثال في مدينة الشرق من النساء والرجال، وقد كتب العلماء
في كل ناحية من نواحي الحياة فيها الكتب الواسعة المفيدة، وبحق يقال إنه لا منة لأية
بلاد على غيرها مثل ما لمصر على الشام والعراق واليمن والمغرب العربي بل وعلى البلدان
العربية كلها وخاصة من حين ظهور الإسلام ومنذ فتحت عام ٢٠هـ، في عهد عمر بن
الخطاب إلى يومنا الحاضر وهي تتبع بالعز والكرامة وتفويض بالخيرات وإليها تتجه أنظار =

ثم أتى مصر بنو أيوب يقيه من قادة الحروب
أشهرهم في الغزو والتمكين الامبراطور الصالح البرصالح الدين

= العالم الإسلامي، وفيها تعقد المؤتمرات ومنها يتخرج القارىء والمحدث والمفسر واللغوي والأديب والمؤرخ والجغرافي والمهندس والطبيب والمحامي والصانع والمزارع وهؤلاء تمتلئ بمدارس العالم العربي بل العالم الإسلامي في الشرق والغرب والجنوب والشمال من آسيا وأفريقيا، ومن أبنائها الذين نفاخر بهم من إذا خطب أحدهم أو حاضر أو أعطيت له الكلمة في هيئة الأمم أو في مؤتمرات جنيف والاسكندرية وباندونج وأديس أبابا، والمتحدث عن مصر لا يجيء إلا كما قال الخضر لموسى عليها السلام: (ما مثل علمي وعلمك في علم الله تعالى إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من هذا البحر)، وحيث كان لا بد لصغار العلماء وطلبة المدارس من حفظ شيء عن الكنانة العزيزة فهذا طرف من تاريخها ولا غناء عن معرفته وهي أعظم قدراً من أن لا يكون لها ذكر في هذه المنظومة، ومهما جملت من أمرها فبأشعة الأنوار يظهر لك مكنون سرها، ولقد ظلت تابعة للمدينة المنورة في عهد الخلفاء الثلاثة الراشدين عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، ثم لدمشق في عهد بني أمية ثم لبغداد في عهد بني العباس إلى سنة ٢٥٤هـ، وإلى أن استقل بأمرها أحمد بن طولون ثم ولده خارويه ثم ولداه أبو العساكر الجيش وأخوه هارون ثم عمهما شيبان بن أحمد، أما طولون الذي تنسب إليه هذه الدولة فكان عبداً تركياً لنوح بن أسد الساماني صاحب بخارى وأهداه للخليفة المأمون وما يزال يومئذ بمرور من خراسان ثم كانت إقامته في سامراء حيث ولد له أحمد وما أدراك ما أحمد، سنة ٢٢٠هـ- رثي تربية حسنة واشتغل بالعلم والأدب واشترك في المعارك الحربية ضد الروم وأبلى فيها بلاء حسناً وحفظ القرآن في صغره وظهرت عليه مخايل الذكاء والنجابة وبرز من صفاته ما يؤهله لتأسيس دولة مصرية تستمر قرابة أربعين سنة، وكان الخلفاء يقطعون بعض الولايات للأمراء الذين يقيمون في العاصمة ويعينون من أتباعهم وخاصتهم من ينوب عنهم في تلكم الولايات، وكانت مصر مسندة إلى بقبق الذي تزوج بأرملة طولون وأرسل هذا يربيه أحمد إلى مصر في أول النصف الثاني من القرن الثالث زمن المعتز بن المتوكل لينوب عنه، وكانت ولاية أحمد بن طولون مقصورة على الفسطاط ومدينة العسكر، وأمر الخراج كان لأحمد بن المدبر والاسكندرية لرجل آخر فتحبب إلى الناس وتودد إليهم حتى قتل بقبق وأسندت ولاية مصر إلى أماجور وهو والد زوجة ابن طولون فضم إليه الاسكندرية وأمر الخراج فقويت شوكته واستفحل أمره، وبعد وفاة أماجور أعطيت ولاية =

وهو الذي حارب أهل الكفرِ إذ أقبلت جيوشهم في البحرِ
ونزلت في مصرَ والشامِ واعتركَ الفيلُ معَ الضرغامِ
وبعد ما زالت ملوكُ الكُردِ حلَّ محلَّ الحُرِّ خيرُ عبدِ

= مصر للموفق أبي أحمد العباس واسترضاه ابن طولون بالهدايا واستطاع أن يتخلص من ابن المدبر الذي نقله الخليفة إلى ولاية الشام ثم حصل خلاف بين الموفق صنو الخليفة وابن طولون واستعد الأخير لما قد يحدث فأكثر من الجند وبنى لنفسه عاصمة ثانية هي مدينة القطائع واتخذ قصرأ فخماً على المقطم وبنى مسجده الكبير المشهور المعمور إلى اليوم، وعجز عن دفع الضريبة التي كان يسلمها للموفق فأراد غزوه وعزله وحالت الموانع دون ذلك، ومات والي الشام أماجور فتجراً ابن طولون على ضمها إليه وما زال يتسع حتى شملت دولته ما بين برقة والفرات واتسعت من جبال طورس إلى شلال أسوان، وقوي الخلاف مع الموفق في أيام المعتمد والوحشة حاصلة بينه وبين الخليفة حتى كاد يتحول من العراق إلى مصر بعد التفاهم مع ابن طولون وحال بين المعتمد وبين ما يريد أخوه الموفق، وفي حرب ابن طولون مع الروم سنة ٢٧٠هـ، مرض مرضاً شديداً ونقل على سرير تحمله الرجال حتى عاد إلى مصر ومات بها وخلفه على عرشه ابنه خمارويه سنة، إلى سنة ٢٨٢هـ، ثم ابنه أبو العساكر جيش بن خمارويه، من موت أبيه إلى سنة ٢٩٢هـ ثم أخوه هارون بن خمارويه سنة واحدة ثم عمها شيبان بن أحمد دون العام وانتهى أمر هذه الدولة في سنة ٢٩٣هـ، والبقاء لله، أما الإخشيد فهو لقب إيراني ومعناه ملك الملوك وأطلق هذا اللقب من الخليفة الراضي العباسي على محمد بن طغج وأصله من فرغانة أسلم جده في عهد المعتمد فأكرمه وأحسن إليه وكان محمد بن طغج عاملاً على الرملة ثم على دمشق ثم أسند إليه الأمر في مصر والشام وكانتا تابعتين لبني العباس نحو ثلاثين سنة وهي من سنة ٢٩٣هـ، إلى ٣٢٣هـ، فسكن الإخشيد ما كان من الثورات وأخذ الفتن ووقعت بينه وبين أمراء الموصل آل حمدان وقائع انتصر فيها ثم تصالح بعدها مع سيف الدولة بن حمدان، توفي الإخشيد في سنة ٣٣٥هـ، وخلفه ابنه أنوجور بوصاية عبدهم الحبشي كافور الخصي الذي يقول فيه المتنبي هاجياً بعد ما مدحه كثيراً:

نويبية لم تدر أن بنها ال نويبيّ دون الله يعبد في مصرا
ومن قصيدة أخرى يقول فيه :

من علم الأسود الخصي مكرمة آباؤه الغرّ أم أخواله الصيد =

من المماليك فصاروا سادة
 إذ مالت الشمس إلى الغروب
 بعد ثمانين وعامٍ واحدٍ
 وأخذوا أزمّة القيادة
 شمس الملوك من بني أيوب
 مرّت على أولئك الأماجد (١)

واستمر كافور يحكم بالوصايا إلى سنة ٣٤٩هـ، ثم ولي علي بن الإخشيد وكان ضعيفاً لا يفعل شيئاً مع كافور، وتوفي في سنة ٣٥٥هـ، ثم استقل كافور بالحكم سنتين ومات في سنة ٣٥٧هـ، ثم ولي أحد بن علي بن الإخشيد حتى استولى الفاطميون على مصر تماماً وفتحها جوهر الصقلي للمعز الفاطمي في سنة ٣٥٩هـ، وابتدأ حكم الفاطميين الذين تقدم ذكرهم وعرضنا عليك جملة من تاريخهم من العاضد عبيد الله بن ميمون جدهم إلى العاضد آخرهم، وملوكهم أربعة عشر، وهذا تعلم أن أمر بني طولون والاششيديين وما بينها كان مئة وخمس سنوات والفاطميون بعدهم إلى سنة سبع وخمسة، وسبحان الذي لا يزول ملكه ولا يتبدل حكمه .

(١) قامت الدولة الأيوبية في مصر بعد الفاطميين في سنة ٥٦٧، واستمرت إلى سنة ٦٤٨هـ، ومدتها إحدى وثمانون سنة وذلك أن الصليبيين لما تغلبوا على مصر تساهل في الصلح معهم الوزير شاور آخر أيام العاضد الفاطمي فاستنجد هذا الفاطمي بنور الدين زنكي القائد الفاتح المشهور، فأرسل إليه قوة بقيادة أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين الملك الناصر يوسف بن أيوب الذي قتل الوزير شاور ومات عمه وقد تغلب على مصر بعد شهرين وأيام قليلة فتم له كل شيء وخاصة لما مات نور الدين محمود بن زنكي في سنة ٥٦٩هـ، فأصبح الأيوبي ملكاً على مصر والشام والحجاز ثم على اليمن وتقدم خبر هذه الدولة على جنوب الجزيرة العربية وأصلها كردية من (دوين) بضم الدال وكسر الواو وهي من آخر أعمال أذربيجان وهذا هو الصحيح من الأقوال في أصلهم وجد صلاح الدين هو شادي الذي خرج بولديه أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب الذي تنسب إليه هذه الدولة وكان يدعي المعز إسماعيل بن طغتكين بن أيوب بن شادي بن مروان أن أصله من بني أمية وكذبه أهله ولم يقروا هذه الدعوى الباطلة، ويذكر ابن خلكان أنه وجد نسباً لهم إلى بني ذبيان وأثبتته هكذا: صلاح الدين يوسف ابن أيوب بن شادي بن مروان بن أبي علي بن عنتر بن الحسن بن علي بن أحمد بن علي ابن عبد العزيز بن هذبة بن الحصين بن الحرث بن سنان بن عمرو بن مرة بن عوف بن أسامة بن نهشل بن حارثة صاحب الحمالة ابن عوف بن أبي حارثة بن مرة بن نشبة بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان، الخ، وصلاح الدين مناقب كثيرة وفضائل =

وهم صلاح الدين ثم العادل أخوه وابنه الملك الكامل
والعادل الثاني وزوج الحرة شجرة الدر وذات الشهرة

= شهيرة ترجم له المؤرخون قديماً وحديثاً وأطنبوا في ذكره ووصفوه بالعلم والعمل مع الشجاعة والكرم وقد جمع من مكارم الأخلاق ما لم يكن لأحد في عصره أو فيمن جاء بعده مع محافظة على السنة ومحاربة للبدعة قال فيه العاصمي في كتابه سمط النجوم العوالي: كان السلطان صلاح الدين رحمه الله متقشفاً في ملبسه ومأكله، لا يلبس إلا الكتان والقطن والصوف ولا يعرف أنه تخطى مكروهاً بعد أن أنعم الله عليه بالملك بل كان همه الأكبر ومقصوده الأعظم نصرة الإسلام وكسر الأعداء اللثام ويعمل فكره في ذلك ورأيه وحده ومن يثق برأيه ليلاً ونهاراً هذا مع ما لديه من الفضائل والفواضل والموائد والفرائد في اللغة والأدب وأيام الناس حتى قيل إنه كان يحفظ الحماسة بتمامها، وكان مواظباً على الصلوات في أوقاتها وجماعة، يقال لم تفتت الجماعة في صلاة قبل مماته بدهر طويل حتى في مرض موته، وكان يتجشم القيام مع ضعفه، وكان يفهم ما يقال بين يديه من البحث والمناظرة ويشارك في ذلك مشاركة حسنة وإن لم يكن بالعبارة المصطلح عليها، وكان يحفظ ويحفظ أولاده عقيدة جمعها له القطب النيسابوري، وكان يحب سماع القرآن العظيم ويواظب على سماع الحديث حتى إنه سمع في بعض المصافات جزءاً وهو بين الصفيين وتبجح بذلك وقال هذا موقف لم يسمع فيه أحد حديثاً، وكان رقيق القلب، سريع الدمعة عند سماع القرآن والحديث كثير التعظيم لشعائر الدين. وكان من خيار الملوك وأشجعهم وأحسنهم فتح الفتوحات التي لا تحصى من ممالك الكفر ودمر ديارهم واستلب أعمارهم وسبي نساءهم وصغارهم، وكان شيخاً كريماً حليماً ضحوك الوجه كثير البشر أحسن الملوك سيرة وأظهرهم سريرة يشبه بالملك العادل نور الدين الشهيد، ولم يترك في خزائنه سوى ستة وثلاثين درهماً، وقال غير ابن السبكي سبعة وأربعين درهماً ولم يترك عقاراً ولا مزرعة ولا شيئاً من أنواع الأملاك لكثرة عطاياه وهباته وصدقاته وخيراته إلى أمرائه وفقرائه حتى إلى أعدائه، وخلف من الأولاد سبعة عشر ذكراً وابنة واحدة أكبرهم الملك الأفضل نور الدين علي، وكان قد قسم البلاد في حياته بين أولاده، فالديار المصرية لولده العزيز عثمان، وبلاد دمشق وما حولها لولده الأفضل المذكور، والديار الحلبية لولده الظاهر غازي، والكرك والشوبك لأخيه العادل أبي بكر، وانتهى ما أردناه من كلام العاصمي.

ولم ينتصر في الصليبيين أحد مثل انتصارات هذا الملك الذي سجل الدهر من =

وَفِعَلَهَا قَبْلَ مَجِيءِ تَوْرَانَ
 وَخَافَ مِنْهَا يَوْمَ جَاءَ الشَّرَّاءُ
 وَلَمْ يَزَلْ مَكْفِرًا فِي الْحُكْمِ
 أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَهُمْ فَقَتَلُوهُ
 ثُمَّ تَزَوَّجَتْ بِشَخْصٍ مِنْهُمْ
 مَعَ الصَّلِيبِيِّينَ فَعَلَ السُّلْطَانُ
 وَخَافَ أَنْ تُبْعَثَ كَيْلُوبَتْرَا
 عَلَى الْمَمَالِكِ وَلَوْ بِالظُّلْمِ
 وَلِئَلَّا يَأْرَادَهُ لَمْ يُمَهِّلُوهُ
 أَيْبَكَ ثُمَّ صَارَ بَعْدُ يَحْكُمُ (١)

= صفحات تاريخه المجيد تعترّ بذكره العروبة والإسلام، وهو الفيل الشرقي الذي صارع أسود الغرب، وخضعت له ملوك الإفرنجية وقوادها، ومات قرير العين وتاركاً بذكره لسان صدق في الآخرين، وذلك بعد صلاة الصبح يوم الأربعاء سابع وعشرين صفر من سنة ٥٨٩هـ، في دمشق عاصمة الأمويين ودفن بها وحزن عليه الناس حزناً شديداً، [كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور] وكلمة الامبراطور معناها الملك الذي تجتمع له المملكتان أو الممالك في عدة بلدان وقد اجتمع لصلاح الدين كما علمت ملك مصر والشام والحجاز والعراق واليمن وتعاقب على الملك أهله وذووه من بعده حتى زال أمرهم وجاء بعدهم ممالئهم من أواسط آسيا وسياتيك طرف من أخبارهم في مصر والشام بعد هذا إن شاء الله، وفي الحكمة: لمن أنت يا دنيا فقالت لقوم بعد آخرين.

(١) تملك من أهل هذا البيت أحد عشر رجلاً وهم صلاح الدين وأولهم ثم أبناؤه الثلاثة الأفضل والعزیز والظاهر ثم المنصور محمد بن العزیز وبعد مدة ولد الظاهر موسى الأشرف ولكنه تغلب عليهم عمهم العادل أبو بكر بن أيوب الذي كان يعمل لأخيه صلاح الدين وأفضى إليه الملك بعد ذلك فاستقل بمصر سنة ٥٩٦ هـ، وبالشام سنة ٥٩٨ هـ، وباليمن سنة ٦١٢ هـ، وتوفي بعد ذلك بثلاث سنوات ودفن في دمشق مع أخيه صلاح الدين، وكان يصيّف بالشام ويشي بمصر، وذكر في ترجمته أنه كان ملكاً عظيماً ذا رأي ومعرفة تامة، وقد حنكته التجارب، حسن السيرة جميل الطوية، وافر العقل حازماً للأمر، صالحاً محافظاً على الصلوات في أوقاتها متبعاً لأرباب السنة مائلاً إلى العلماء، وقد ألفوا له الكتب وأهدوها إليه مثل كتاب التأسيس للإمام الرازي الذي أهداه إليه من خراسان وعمر خساً وسبعين سنة وخلف ستة عشر ولداً ذكراً غير البنات وكلهم نجباء أذكيا، قد قسم البلاد بين بعضهم في حياته، وأعظمهم وأجلهم ابنه الكامل محمد الملك الثامن من أهل هذا البيت، وقد استعمل الملك العادل الأول على اليمن حفيده المسعود بن =

ومنهم بَيْبَرْسُ ثم قلاوون وناصرُ الدين وحمراؤُ العيون
وقد عرفت كيف كان الحربُ وكيف كان طعنُهُم والضربُ

= الكامل واستمر محمد الكامل في الملك بعد أبيه عشرين سنة وحين وفاة أبيه كان يحارب الصليبيين في دمياط وانتصر عليهم في سنة ٦١٨ هـ، وحصل الخلاف بينه وبين إخوته فتغلب عليهم وتم له الأمر، وكان ملكاً صالحاً مقتدياً بأبيه وعمه مشاركاً لأهل العلم مساهماً في الخيرات، وتوفي يوم الأربعاء الحادي والعشرين من شهر رجب سنة ٦٣٥ هـ، ودفن يوم الخميس إلى جانب المسجد الكبير وعمره قرابة ستين سنة، ونودي بولده العادل الثاني ملكاً تاسعاً على البلاد يوم الجمعة الثالث والعشرين من الشهر المذكور في السنة المذكورة، واستمر في الملك إلى يوم الجمعة ثامن ذي الحجة من سنة ٦٣٧ هـ، وثار عليه أمراؤه فاعتقلوه واستمر معتقلاً حتى مات ودفن في مصر سنة ٦٤٥ هـ، ثم ملكاً عاشراً أخوه نجم الدين الملك الصالح أيوب بن محمد الكامل وجرت عليه مصائب قبل وبعد تملكه وانتصر على مخالفه، ومات ليلة النصف من شعبان سنة ٦٤٧ هـ، وأخفي موته ثلاثة أشهر حتى جاء ولده توران شاه من حصن كيفا، إلى مصر ودفن أباه وجعل له تربة معروفة بجانب مدارس، وكانت تدبر الملك زوجته شجرة الدر بعد وفاته وقبل قدوم الملك توران لمدة ثلاثة أشهر وهي في الأصل جارية مملوكة لا يعرف أبوها وأمها، وأعتقها الملك ثم تزوجها وولدت له ابنه خليل الذي كانت تكنى به، وهي ذات علم وحزم وجمال بارع، تملك أمر البلاد وجلست على عرش مصر وكما قيل على رأسها التاج وفي يدها الصولجان، وقد أطاعها الأمراء ونفذوا لها ما تريد، وخوفت الأعداء وفعلت مع الصليبيين ما كان يفعله السلطان قبلها، وفي عهدها أسر ملك فرنسا لويس التاسع وافتدى نفسه بمال كثير وكان معتقلاً في دار ابن لقمان، ولما جاء توران حادي عشرهم وهو ابن الملك الصالح من الشام إلى مصر وكان أميراً لأبيه في حصن كيفا من بلاد المشرق استنكر طاعة الناس لشجرة الدر وخاف منها أن تمثل دور الملكة المصرية كيلوبترا في التاريخ القديم فخاف منها وجردها من السلطة وطالبها بأموال أبيه التي تقول إنها صرفت في محاربة الصليبيين وأصبحت شبه معتقلة في قصر أبيه، وحيث إن الممالك كانوا يطيعونها ويفتخرون بها ويعدونها منهم فقد أساء الملك توران ذلك وفكر في القضاء عليهم، وبجزمها وفرط ذكائها استمالتهم إليها وانتقمت منه على أيديهم فقتلوه قبل أن ينفذ خطته المرسومة في القضاء عليهم، ورأت أنه لا بد من زوج لها تستعين به على تنفيذ إرادتها ولم يكن في سداد الرأي وصلابة العود وحسن القيادة أجل ولا أفضل من عز الدين أيبك التركماني أحد موالي زوجها الأول الملك الصالح الأيوبي فتزوجت به =

مع الصليبيين والمغول فطهر الأرض دمُ المقتول
 وأسسوا في مصر للخلافة مقرها وأحسنوا الضيافة
 ودام هذا الحكم في البحريّة قرناً وثلاثاً ثمّ في البرجية
 أما المماليك من الشراكسة فكانت الدنيا لهم معاكسة
 ودام ملكهم على تلك البلاد دهرأ طويلاً في انتقاصٍ وازديادٍ
 فالإقتصادُ عندهم قد ضاقا وملأوا بلادهم شقافاً^(١)

= وأصبحت واسطة العقد بين الدولتين الأيوبية وهي آخرهم ودولة المماليك وهي أولهم، وتوفيت وفاة طبيعية وقيل إن جواري ضرثها أم نور الدين بنت الشيخ نصر الفقيه ضربها بالقباقيب حتى ماتت والله أعلم، ومن هنا يتبدى عهد المماليك في مصر إلى أن انتهى أمرهم في عهد محمد علي باشا الكبير وذلك في أول القرن الثالث عشر الهجري، وسبحان الذي يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن.

(١) دولة المماليك التي ظهرت في مصر والشام بعد أسيادهم الأيوبيين هم المماليك البحرية الذين كانوا عصابة الملك وحماة البلاد وأنصار مولاها الملك الصالح نجم الدين الأيوبي وهو الذي جلبهم من أواسط آسيا واستكثر منهم وأصبح يعتمد عليهم كما كان أمير المؤمنين المعتصم العباسي يعتمد على مواليه من الترك وبنى لهم الثكنات العسكرية بجزيرة الروضة في النيل وبذلك قيل لهم البحرية وقد علمت ماذا كان من شجرة الدر زوجة الملك الصالح وما فعل بها توران شاه ثم ما فعلت به، وكيف كان آخر حياتها وكيف ماتت ولكن بعد ما قتلت زوجها عز الدين أيبك وهو أول المماليك في الحكم، وولي بعده ولده الصغير نور الدين علي وتغلب عليه مولى أبيه سيف الدين قطز الذي تلقب بعد بمظفر الدين واستمر ملكاً إلى سنة ٦٥٨هـ، وكان من أبرز قواده الظاهر بيبرس الذي اشتهر في محاربة الصليبيين والتتر وانتصر عليهم الانتصارات العظيمة، وكان يعده مظفر الدين قطز بولاية حلب وحيث لم يف له بما وعده فقد قتله وتغلب على الملك من بعده من السنة المذكورة إلى سنة ٦٧٦هـ، ويقال في ترجمته إنه أعظم المماليك وأشدهم بأساً وهو المؤسس الحقيقي لدولتهم ويقال له البندقداري نسبة إلى مالكة الأول المعروف في حاة بهذا اللقب وقد فاز في أول عهده في قهره المغول في عين جالوت وتستند عظمته بالأكثر إلى الحملات الموفقة التي جردها على الصليبيين وكسر بها ظهر المقاومة الافرنجية وانتصر بها خلفاء قلاوون والأشرف وانتصر قواده في حروبهم على ما بين البربر غرباً =

والبرتغاليون لما عرفوا رأس الرجاء انحرفوا وانصرفوا
إليه عن مصرفعم الفقرُ وقلَّ خيرُها وزاد الشرُّ

= وبلاد النوبة جنوباً، وطهر المماليك مملكتهم بدماء الصليبيين والوثنيين من التتر والمغول،
والعار لا يغسل إلا بدماء البغاة، وكان مع حزمه وحسن تديره في الحروب وتنظيم الجيوش
وحفر القنوات وبناء القلاع وتحسين الموانئ وتنظيم البريد بين القاهرة ودمشق كان مع
ذلك كله سباقاً إلى معالي الأمور وجميل الصفات من تعظيم العلماء وبناء المساجد وتنظيم
المصالح وتنشيط الأشغال العامة، وما تزال بقية من آثاره ظاهرة إلى اليوم كجامعه الكبير
والمدرسة التي تعرف بالظاهرية في القاهرة، وتقوم المكتبة الظاهرية في دمشق اليوم في
بناء شيده هذا العاهل ودفن تحت قبته وهو أول من جعل في مصر أربعة قضاة شرعيين
للأربعة المذاهب الاسلامية المشهورة، ونظم شؤون المحمل المصري الذي يرسل إلى الحجاز
بكسوة الكعبة من مصر ومعه حامية عسكرية قوية، وقد حدثت هذه البدعة أول ما
يكون في عهد شجرة الدر والغالب على الملك الظاهر أنه كان سنياً كثير الجهاد في سبيل
الله وإعلاء كلمة الدين، وما يزال الناس يلهجون بذكره ويجعلونه في مصاف الخليفة
هارون الرشيد والسلطان صلاح الدين الأيوبي رحم الله الجميع، وهو الذي نقل الخلافة
العباسية من بغداد إلى القاهرة وذلك بعد ما قتل التتريون آخر الخلفاء أمير المؤمنين
المستعصم وجاء عمه المستنصر بن الظاهر إلى مصر فنصب خليفة وأخذت له البيعة ودعي
له على المنابر ونقش اسمه على السكة، وبقي الحال للعباسيين في مصر على ما ذكر ولكن
السلطة والملك الحقيقي بأيدي المماليك حتى سلم المتوكل آخرهم معالم الخلافة إلى سليم
باشا العثماني سنة ٩٢٣هـ، وبعد هذا الظاهر ولداه بركة وسلامش خلع الأول نفسه
وكان الوصي على الثاني سيف الدين قلاوون الصالحي نسبة إلى مولاه، ويقال له الألفي
لأنه شرى بألف دينار، وهو مثل بيبرس في القوة والشجاعة وحسن التدبير، وقد استقل
بالحكم وتلقب بالمنصور وهو الذي دامت السلطنة في عقبه من بعده مدة طويلة وكسب
الانتصارات الباهرة على الصليبيين والمغوليين ودخل كثير منهم في الاسلام، وانتقم من
الذين كانوا يناوئون الاسلام ويظاهرون على أهله الأعداء من الشرق والغرب، وتوفي في
سنة ٦٨٩هـ، والصحيح في ضبط اسمه قلاوون بتأخير الألف عن اللام وإنما قدمت
وصارت بعد القاف لاستقامة الوزن ولأنه يجوز في الكلمات الأعجمية مثل هذا التغيير،
وبعده ملك ولده الأشرف صلاح الدين خليل الذي ينسب إليه الخان المعروف بالقاهرة
وكان مقبرة للفاطميين وبنى عليها السوق الأشرف خليل ودام إلى سنة ٦٩٤هـ، ثم قتل
وتعاقبت المماليك بعده على السلطنة حتى ولي أخوه محمد ناصر الدين ثانياً في سنة =

وحيث جاء الترك لم يزالوا
 وكثر الظلم على الرعيّة
 واقتسم الباشا والولاءة
 وجاء في ثالث عشر القرون
 في الملك لكن ساءت الأحوال
 حتى أساء الدولة العليّة
 مصر فتُجبي لهم الغلات
 ثالث عشر سنة نابليون^(١)

= ٦٩٨ هـ، وقد خلعوه بعد ما ولي أولاً عند مقتل أخيه الأشرف وهو إذ ذاك صغير في التاسعة من عمره فعاد إلى الملك بسيرة حسنة وأعمال مرضية وحارب التتر في سنة ٦٩٩ هـ، وانهمز جيشه هزيمة منكرة ولكنه استجمع قوته فكر على أعدائه كره أجلاهم بها عن الشام وفي سنة ٧٠٨ هـ، تغلب أمراؤه وحاولوا القضاء عليه بخلمه أو قتله ولكنه أظهر لهم عزمه على الحج وشيعوه إلى الكرك حيث استقر بها وساعدته الظروف على أعدائه لتفرق كلمتهم واجتماع الناس على بقاء ملكه فعاد سلطاناً قوياً محبباً لا ينازعه أحد من هذا التاريخ إلى سنة ٧٤١ هـ، وقد أخصبت البلاد في أيامه ورخصت الأسعار، وبرز من أهل العلم خلق كثير في مصر والشام وغيرها في سائر البلاد الناصرية، وهو الذي يعد بحق أحسن الملوك بعد أبيه وأطولهم مدة، وغيره من المماليك البحرية جماعة يوصفون بجمران العيون كناية عن القوة والشجاعة، وحرمة العين بلا سكر ولا علة تدل على صحة الجسم، وعدد ملوك البحرية أربعة وعشرون أولهم عز الدين أيك وآخرهم الصالح حاجي بن الأشرف شعبان ومدتهم مئة وخمس وثلاثون سنة وهي قرن كامل وأكثر من ثلث قرن آخر، من سنة ٦٤٩ إلى ٧٨٤ هـ، والدوام لله وحده لا شريك له، وبعدهم البرجية ممالك السلطان قلاوون وهو الذي بنى لهم الأبراج في القلعة ونسبوا إليها وكلهم شراكسة إلا اثنين من سلاطينهم وهم (خشقدم) و (تمربغا) فإنها روميان وعدد الملوك منهم ثلاثة وعشرون أولهم الظاهر برقوق وآخرهم قانصوه الغوري ومدتهم تسع وثلاثون ومئة سنة من خمسة عشر رمضان سنة ٧٨٤ إلى أن قتل الغوري في محاربة السلطان سليم الأول العثماني سنة ٩٢٣ هـ، كما تقدم وفي أيامهم فتحت قبرص وأسر مليكها جينوس وافتداه ملوك الغرب بأموال كثيرة واشتهرت أيام البرجية بسوء الحال وفساد الأخلاق وانتشار الأمراض وضيق المعيشة واستأثر بعضهم ببيع الحاجيات التي منعت زراعتها في مصر واستحضارها من الخارج كالسكر والفلفل، وكاد يهاجر من مصر معظم تجارها لسوء ما نزل بهم لولا أنهم تداركوا الموقف وألغيت القيود المفروضة على التجار والله المستعان.

(١) في آخر أيام المماليك أكتشف رأس الرجاء الصالح وابتدأ الغزو البرتغالي =

= وحصلت بينهم وبين المصريين حروب في البحر الأحمر والمحيط الهندي وقد سبق الحديث عن شيء من ذلك في أخبار اليمن وعدن وخلاصة القول إن البرتغال مملكة أوروبية في الجنوب الغربي من أسبانيا على المحيط الاطلانتيكي، وعاصمتها لشبونة، ومساحة البرتغال (٩٧٠٦٠٠) كيلومتر بما فيها جزائر آسور ومادبر، وسكانها قرابة سبعة ملايين وهم مسيحيون كاثوليك. والبرتغاليون شعب تجاري استعماري وهم أقدم الأوروبيين في بلاد الشرق وفي سنة ٩٠٣هـ، أو سنة ١٤٩٨م، اكتشف (فاسكو داجاما) البرتغالي، رأس الرجاء الصالح وكان يعرف برأس الزوابع وقد لقي فيه هذا القائد البحري أهوالاً عظيمة لكنه استطاع النفوذ منه إلى شرق أفريقيا ومنها نفذ البرتغاليون إلى الهند واستعمروا بلاداً كثيرة وسميت هذه الطريق برأس الرجاء الصالح، وكانت التجارة بين الشرق والغرب في الصادرات والواردات تمر من طريقين أحدهما إلى السويس ثم القاهرة ومنها إلى الاسكندرية برأ على الدواب وبحراً على السفن من خليج الرشيد إلى الرحمانية ثم إلى الاسكندرية والأخرى تمر بالخليج العربي إلى الفرات ثم إلى حلب ومنها إلى البحر الأبيض، وكلا الطريقين خاضعتان لسلطنة المماليك، ولكثرة المرور بهما وزيادة الدخل منها خفت الضرائب على الرعايا وخاصة في مصر ونشطت الحركة التجارية والزراعية والصناعية، ولما نفذ البرتغاليون إلى المشرق من طريقهم الجديدة ساءت الحالة وأصبحت الضرائب التي لا بد منها للدولة في مصر فادحة مرهقة حتى ضعفت المدن وقل السكان وكادت الاسكندرية تخرب، وتعطل خليج الرشيد من الملاحة ورب ضارة نافعة فإن التنافس الدولي والمسابقة الاستعمارية هما اللذان كانا نتيجة حفر قناة السويس فيما بعد لتربط بين البحرين الأحمر والأبيض ولقد كان اشتغال العثمانيين بحرب البنادقة مما يسر للبرتغاليين مستعمراتهم الجديدة وأطمعهم في فتح بلاد العرب وغزو شواطئها ولم ينتبهوا لهذا الخطر إلا في عهد سليمان باشا القانوني، ولكثرة الترف واشتغال المماليك ببناء القصور والمنشآت والعمرائية صار لا بد لهم من دخل كثير ومن أين يا ترى يكون هذا الدخل إلا من الرعية الذين تؤخذ أموالهم وتجي منهم الضرائب ثم تصرف في مصالح الولاة والباشوات هؤلاء من بقية المماليك وهؤلاء من قبل الدولة العلية، وربما سكت الباشا على ما يأخذه الوالي وبالعكس من أجل مصالحهم الشخصية ومن قبيل قولهم: (اسكت لي واسكت لك) ومن أجل ما كان لفرنسا من الأطماع في التوسع فكر نابليون في غزو مصر والاستيلاء عليها، وجاءها بقوات عظيمة في سنة ١٢١٣هـ، وهو التاريخ المشار إليه في البيت الأخير ويوافق سنة ١٧٩٨م، وإليك أخباراً من الغزو الافرنسي إلى مصر في الفصل الآتي.

الفرنسيون ونابليون في مصر

فات فرنسا بعض ما تملكه
مستعمرات الهند أو أمريكا
والإنجليز مثلها مستعمر
وشاهدت ملك بني عثمان
يزداد ضعفاً ومن المشاكل
فقررت غزو بلاد مصر
ومصر خير موقع في الوسط
والنيل فيها يصلح الزراعة
ويلتقي التجار أهل الشرق

ولم يكن سهلاً عليها تركه
لا تقبل الدخيل والشريكا
وهي بكر الإنجليز تشعر
على يدني محمود خان الثاني
ما فيه ضعف خارج وداخل
لعلها تجبر بعض الكسر
في جوها وسهليها المنبسط
والناس فيها تحسن الصناعة
فيها بمن يعطي ومن يستلق (١)

(١) فرنسا كما يقول فريد وجدي في دائرة المعارف: جمهورية أوروبية واقعة في جنوبها الغربي على البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسيكي جوها رطب في شمالها، ومعتدل في وسطها وأكثر اعتدالاً في جنوبها الغربي وحار في جنوبها الشرقي، وهي مملكة غنية من جهة النباتات والحيوانات والمعادن وصنائعها وعلومها في الطبقة العليا من الرقي، انتهى. وأصل فرنسا من اللاتينيين ولغتهم مشتقة من اللاتينية، وديانتهم المسيحية الكاثوليكية، وبحكم مدينتهم الحاضرة تجد أكثرهم لا دينيين قد ضعفت أخلاقهم وقل دينهم وغرقوا في اللهو والخلاعة واستبدلوا بأحكام الكنيسة أحكامهم الوضعية كغيرهم من المسيحيين الذين لا تتسع دياناتهم لأموهم المتشعبة في أوطانهم الأصلية وفي مستعمراتهم الكثيرة في آسيا وأفريقيا وأمريكا والجزر البحرية، وحكومتهم جمهورية تأسست في سنة ١٨٧١م، ويرأسها اليوم الجنرال ديفول، وهي سبع وثمانون مقاطعة تشبه المديرية في مصر أو الألوية في الشام واليمن وعاصمتها، باريس، من أجل المدن في الشرق والغرب وأكثر منتجاتها الزراعية من القمح والبطاطس، وفيها الكروم والزهور =

وكان في الإسكندرية العظيم حاكمها وهو محمد الكرم
دافع عنها أحسن الدفاع بطاعة الشعب وعدل الراعي
وانتصر الغازي على المغزو والسيف غير المدفع المؤدوي

= المختلفة وفيها تعصر الخمور وتستخرج العطور وتصنع الملابس من القطن والصوف والكتان وفيها معادن الفحم الحديد: وللفرنسيين ذوق رفيع في المصنوعات والنقش والتلوين وأدوات التجميل والتزيين، ولهم وسائل نقل في البر والبحر من السكك الحديدية والسفن البخارية، وقد استعمروا في أفريقيا الجزائر وتونس والصحراء الغربية والسنغال وغينيا وشاطئ العاج وداهوميا والسودان الفرنسي والكونغو وجزائر مايوت ومدغشقر وجزيرة ديونون وبلاد الصومال جيبوتي وما يجاذبها ومجموع المساحات في هذه المستعمرات (١٠٥٥١٥٨٩) كيلومتراً مربعاً، وكانت مستعمراتها في آسيا، الهند الإفرنسية والكونشيشين وقامبودج وأنام والتونكين ولاوس فيكون مجموع مساحات المستعمرات الإفرنسية في آسيا (٧٦٦٩٦٨) كيلومتراً مربعاً، ولها في الأوقيانوسية، ما يأتي: خاليدونيا الجديدة ومملكة الأوقيانوسية، فيكون مجموع مساحات المستعمرات الإفرنسية في الأوقيانوسية (٢٨٩٥٢) كيلومتراً مربعاً، ولها في أمريكا جزيرتا سان بيير وميكولون وجزيرة غوادولوب وتوابعها وجزيرة مارتينيك وغيانا، وخيرات هذه المستعمرات كثيرة ولا تعلم مقاديرها إلا وقد استقل معظمها وخرجت من ولاية فرنسا عليها بعضها بالحرب وبعضها بغير حرب، ومن أهمها بالنسبة إلينا معشر العرب والمسلمين ما كان في شمال أفريقيا، وحيى الله أبطالها المجاهدين الذين استرجعوا بلادهم وقهروا أعداءهم وقد انتهى الانتداب الإفرنسي الذي كان على سوريا ولبنان وأصبحت فيها دولتان عربيتان، ونسأل الله تحقيق الوحدة العربية في ظل الإسلام وشرف القومية، ونابليون هو امبراطور فرنسا وقائدها الفاتح العظيم الذي ولد في شهر أغسطس من سنة ١٧٦٩م، ومات في إبريل سنة ١٨٢١م، عن عمر يناهز الثانية والخمسين، وفي عام مولده اتحدت كورسيكا مع فرنسا وكان أبوه من سكانها وهو من أشرف البيوت الإفرنسية، وحرفته المحاماة واسمه شارلس بوناپرت، وأم نابليون (لا أتينيا رامولنيو) وذهب والده في سنة ١٧٧٩م، إلى فرسليس وتحصل على مجانية التعليم لولده نابليون في الكلية الحربية وقامت الثورة الإفرنسية في سنة ١٧٨٩م، وعمر هذا الفتى عشرون سنة فقط، فالتحق بالجيش ضابطاً في المدفعية وفي سنة ١٧٩٣م، وقع عليه الاختيار لفتح طولون المنقلبة على الثورة الإفرنسية واحتلها في ديسمبر من السنة نفسها، وبعد هذا بسنة =

وقاد نابليون تلك الحملة بنفسه وكاد يقضي شغله
ومعه من أهليه الكبار ممن لهم في الشرق الاختبار

= ترقى إلى رتبة قائد قوات المدفعية في إيطاليا وتزوج لأول مرة جوزفين، وهي أكبر منه بست سنين وتعين قائداً لقمع المتمردين في إيطاليا ونجح في مهمته وابتدأت الحرب بين فرنسا وانجلترا في سنة ١٧٩٧م، وما زال يصطلي بنارها وينهزم وينتصر حتى مات في التاريخ المذكور سابقاً، وبعد أربع وعشرين سنة قضاها مع الانجليز في أخذ ورد وكر وفر ومواعدة ومخادعة وغزا مصر التي حاول بفتحها قطع وريد الحياة بين بريطانيا والهند وتفاصيل هذه الغزوة كما تأتيك في هذا الفصل، ولا شك أنه كان حازماً ماضي العزيمة ولا يعتمد في معظم الأمور إلا على نفسه ولا يعد شيئاً مستحيلاً عليه، معولاً على الدعاية ومكشراً من جهات القتال مع عدوه، ومع ذلك كان يقدر العلماء والخبراء والصحافيين، ويرى في الدعاية لبطلته والاشادة بذكره غاية المجد لأمة وبلاده، بيد أن مغامراته ومخاطراته قد أوقعتة فيما يكره، وخسارته في غزوه لروسيا كانت خسارة فادحة فقد هزم عنها وأخذ نجمه في الأفول وتأهبت بريطانيا وحلفاؤها للهجوم على فرنسا، وفي ثلاثين مارس سنة ١٨١٤م، احتلت باريس وتنازل عن الحكم يوم أحد عشر إبريل من هذه السنة، ونفي إلى جزيرة إلبا، واستطاع الهرب من منفاه والرجوع إلى فرنسا في أول مارس من سنة ١٨١٥م، وفر الملك لويس الثامن عشر وحكم نابليون بعده أربعة عشر أسبوعاً ونفي بعد مدة إلى جزيرة سانت هيلانة، حيث مات ودفن هنالك في خمسة مايو واحد وعشرين وثمانئة وألف ونقل جثمانه بعد إلى باريس، والمتأثرون بسياسته والآخذون بخططه الحربية من بعده كثير من القادة الغربيين وغيرهم، أما غزوه لمصر آخر القرن الثامن عشر الميلادي، وفي عام ثلاثة عشر من القرن الثالث عشر الهجري، فسببه تكوين امبراطورية شرقية وتكون مصر قاعدتها لتعوض بها فرنسا عن ما فقدت من مستعمراتها في الهند وأمريكا وقد تقاربت وتجاورت المستعمرات الفرنسية بالمستعمرات الإنجليزية في الهند وجزائرها الغربية وكذلك في كندا والولايات المتحدة وللاحتكاك بين الدولتين نتج من سوء الجوار أن تنازلت فرنسا عن مستعمراتها في تلك البلدان وتركتها للانجليز، لتعارض المصالح وشدة الصراع بين القوتين الاستعماريتين هنالك ولم يكن التنازل اختياراً من فرنسا ولكنه طلب للسلامة ولاستيلائها على مستعمرات أخرى تكون أكثر نفعاً وأبعد عن الصراع المستمر وفكر نابليون في غزو مصر للمرة الثانية، أما غزوها الأول الذي أرادته فقد فشل في عهد لويس الخامس عشر، وأرادت فرنسا تحويل الطريق من =

وجيشه من الألو ف أربعون وكثهم لأمره مطيعون (١)

= رأس الرجاء الصالح إلى مصر كما كان الحال كذلك، وربما كانت الفكرة في حفر قناة السويس بين البحرين الأحمر والأبيض موجودة قبل هذا الغزو ولم تحقق إلا بعد أكثر من سبعين عاماً، وفي عهد سعيد باشا حسب ما يأتيك ذلك، ومما شجع على الغزو ما كانت القناصل الدولية ترفعه إلى حكوماتها من ضعف مصر والاختلافات الشديدة بين أمرائها من المماليك وانهار الحالة الاقتصادية مع عجز ظاهر من السلطان محمود خان العثماني الذي لا يستطيع الدفاع يومئذ عن أطراف امبراطوريته الاسلامية، أضف إلى ما ذكره الطموح نابليون ومغامراته التي لا يخاف معها شيئاً، كيف لا وقد استطاع أن يهزم المتحالفين على فرنسا وهم الانجليز والأسبان والتمسا والبرتغال وهولندا وبروسيا، واستطاع هذا الامبراطور الجبار أن يهزم المتحالفين ويفرقهم شتى ولم يبق له في الميدان إلا انجلترا فظن ان سيضربها في الصميم إذا فتح مصر وتغلب عليها وهي ذات الزراعة الكثيرة والصناعات المختلفة والأرض المنبسطة والسهول الواسعة وأراضيها البور أكثر من المعمور والنيل يدها ويسقيها وهي ملتقى التجار كما علمت من الشرق والغرب ولا تزيد الأطماع إلا في التغلب على هذه البقاع، ولا يتم مخلوق إلا ما أراده الخالق سبحانه وتعالى.

(١) ابتدأت الحملة من جنوب فرنسا مؤلفة من أربعين ألف مقاتل بقيادة نابليون مستصحباً معه جماعة من العلماء المتخصصين في الرياضه والهندسة والجغرافيا والتاريخ والفلك والكيمياء والاقتصاد والتعدين والميكانيك ومعهم الفنانون والأدباء والمستشرقون الذين يجيدون اللغة العربية والافرنجية بكامل معداتها واحتلوا جزيرة مالطة واتخذوها مركزاً لقواتهم، وفي الحملة من عطاء القواد العسكريين أمثال كليبر وديزيه، وكان في مصر من قبل العثمانين يومئذ أبو بكر باشا الطرابلسي من سنة ١٢١١ هـ، إلى أن خرج منها إلى غزة متوجهاً إلى الاسطانه في سابع صفر، وبعد وصول نابليون إلى الاسكندرية بنحو سبعة عشر يوماً وقد ترك الباشا وراءه الأمر على البلاد لرجلين من المماليك ذوي شهرة وقوة وهما مراد بك وإبراهيم بك، وفي المماليك غرور بأنفسهم ويظنون أنهم يسحقون الجيوش الغازية تحت سنابك الخيل وأحذية الفرسان، وقاوم أهل الاسكندرية مع حاكمهم محمد الكرم ودافعوا عن البلاد بما لديهم من القوة ولم تكن كافية لضعفها ولقلتها، وأخيراً استسلموا للواقع ولم يكن السيف ليقدّر على مغالبة المدفع ودخل الإفرنسيون في عشرين محرم من سنة ١٢١٣ هـ، الموافق ثلاثة يونيو سنة ١٧٩٨ م، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

واحترق الأسطول في الرشيد
 وحينما سار يربد القاهرة
 وأصبح الجيش لإبراهيم
 تأكله ناز العدو أكلا
 وضمت القائد والجنود
 ودام بعض الناس في الكفاح
 وقابلوا عدوهم في بولاق
 يساعد القوي منهم الضعيف
 فر مراد يقصد الصعيدا
 وسار ذاهباً إلى الشرقية
 وخرج الناس بما لديهم

وفيه بأس النار والحديد
 أفزعت الناس الجيوش الكافرة
 ومراد يابساً هاشماً
 والناس بين جرحى وقتلى
 وفتحت أبوابها الحدود
 وهم قليلو المال والسلاح
 وتبتوا للحرب أيام التلاق
 مجاهدين بالثقل والخفيف
 وفر إبراهيم يطوي البيدا
 وبعد لم تبق له بقية
 وبعضهم فارغة أيديهم (١)

(١) لما فرغ نابليون من أمر الاسكندرية واستسلم أهلها سار بفرقة من جيشه الى دمنهور ثم الى الرحمانية مستخلفاً وراءه الجنرال كليبر وذهبت فرقة من جيشه إلى الرشيد واحتلتها والتقى الجيشان في الرحمانية وسمع المماليك بخبر الحملة فخرجوا لمقابلتها وسار مراد بك بجيشه في البر وسير فرقة منه على الأسطول في فرع الرشيد وانفجرت سفينة البارود المصرية واحترق الأسطول وسبب الذعر في نفوس البحرية وانهمز الجيشان في البر والبحر وفر مراد بك إلى القاهرة وتبعه الإفرنسيون الزاحفون عليه وعلى بقية أنحاء البلاد وكان قد انكسر في المعركة التي دارت بينه وبين العدو في شبراخيت، وسمع أمراء المماليك بهذا فجعلوا يستعدون للفرار وينقلون من أموالهم وأمتعتهم ما يقدرون عليه البعض يخبثونه في بيوت أصدقائهم، أو يدفنونه في الخرائب، والبعض يذهبون به إلى الأرياف والأماكن البعيدة، وعسكر مراد بك على ضفة النيل في امبابة، كما عسكر الآخر إبراهيم بك بالضفة الأخرى قريباً من بولاق ومعه خلق كثير ولكن الأجناد قد ضعفت معنوياتهم واشتغلوا بحفظ أموالهم، وقلوبهم متنافرة وعزائمهم خائرة، وفي نحو خمسين دقيقة انكسر مراد بك وهرب إلى بيته في الجيزة ونقل الأهل والمال وخرج إلى الصعيد كما توجه إبراهيم بك بنفس الحالة وفي نفس الوقت إلى الشرقية ومنها إلى الشام حيث =

وبعد ما قُضِيَ على المقاومة بالغَ نابليونُ في المُسألة
فأنشأ الديوانَ واستمالا بعضَ الذين صدقوا المقالا
وشارك الناسَ بكلِّ عادة وقد أبوا عليه ما أَراده
وبعد عامٍ من دخولِ العاصمة ثارت عليه الأمةُ المُخاصمة

= انتهى أمره ولم يكن بينه وبين الإفرنسيين أي قتالٍ ومعه في مسيره إلى الشرقية الوالي التركي وجماعة من مشايخ الأزهر والوجهاء والأعيان وهم يحملون أمتعتهم على ظهورهم وعلى الدواب ويشتررون الحمار الضعيف أو البغل الأعرج بأضعاف ثمنه، ونعوذ بالله من عضال الداء وغلبة الأعداء، ولم يبق في القاهرة إلا المستضعفون من الرجال والنساء والبهادان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، وفي بداية الأمر وبعد هزيمة المصريين في شبراخيت تجمعوا وتعاونوا وأصبح بعضهم يسند بعضاً بالنفقات وما يقدرون عليه من سلاح، ولو ثبت الله أمراءهم يومئذ لكان لهم في بولاق شأن يذكر ولكنها خارت العزائم وأثرت فيهم الهزائم وانكسر الجند وقواده لا يلوون على شيء فكانت النتيجة كما علمت، وشاع في الناس أن الإفرنسيين يحرقون ما بين أيديهم من المزارع ويقتلون من وقف لمحاربتهم. والواقع أن مراد بك قد أحرق أو احترقت بعض مراكبه ومعداته وما قرب من بيته في الجزيرة وارتفع الدخان وفرغ الناس وغارت الأعراب واللصوص يقتلون وينهبون وحل بالمدينين ما لم يكن له نظير فيما سبق من تاريخهم وصاروا يشكرون على صادق وطنيتهم وحسن بلائهم في الدفاع عن أنفسهم وبلادهم ولكنهم يلامون في تفرق كلمتهم وعدم الاستعداد لرد العدو قبل أن يدخل عليهم، وما غزى قوم في عقر دارهم إلا ذلوا، ولفرط ما أصاب الناس من الشدة وخلو القاهرة من عطاء أهلها تجمع في الأزهر صغار العلماء وتقدم منهم وفد إلى القائد الإفرنسي الذي نزل بدار محمد بك في الأزبكية ليستطلعوا ما عنده وليعلموا منه ما يريد فتلطف بهم وأحسن في استقبالهم وسأهم عن وراءهم وكتب لهم أماناً يشبه ما كتب به إليهم من الإسكندرية من أنه لا يريد بهم شراً ولا يعترض عليهم في دينهم ومعتقداتهم ويدعي أنه مسلم وأنه جاء لنصرة الدولة العلية وللفضاء على ظلم المماليك المستبدين بالتجار والفلاحين والمبالغين في جمع الضرائب ونهب الممتلكات للمسلمين وغير المسلمين، واطمأنوا بما قال لهم وسكنوا به روع أهلهم ومواطنيهم وظهر من كان مخفياً وفتحت أبواب البيوت والحوانيت وأخذ الجنود يشتررون البضائع بأكثر من أثمانها مما جعل الرعية يطمأنون إليهم ويطمعون فيما يأخذونه من النقود، وتلك طبيعة الشعوب الضعيفة مع المستعمرين في كل زمان.

لما رأوا من عسفِهِ وظلمِهِ وجعلِ حكمَ اللَّهِ بعدَ حكمِهِ
 فدخلتْ جيوشُهُ الديارا وهتكتْ عن أهلِها الأستارا
 ودخلوا الأزهرَ بالخيلِ ولم يَخشوا من اللَّهِ استباحَةَ الحرمِ
 ورتَّزوا قوائِمَهم في التلِ ليحصِدوا بها جموعَ الأهلِ (١)

(١) أول ما فعل العلماء في الأزهر بعد دخول العدو إلى مصر أن بعثوا إليه برجل مغربي يتكلم بالإفريقية ومعه رجل آخر فتحدث معهما بما يرضيها ورجعا بالخبر إلى الناس وفي اليوم الثاني ذهب الشيخان مصطفى الصاوي وسليمان الفيومي للتأكد من صحة الخبر وكتب لها الكتاب الذي ذكرناه ووعده بإنشاء ديوان لفك الخصومات وللنظر في القضايا والحكم بشريعة الله وذلك ما سر به الخاصة والعامة فترجعوا إلى بيوتهم ومحلات أعمالهم وفي يوم ثلاثة عشر صفر طلب العدو جملة من المشايخ والأعيان لإقامة الديوان وأولئك من أمثال عبد الله الشراقي وخليل البكري ومصطفى الصاوي وسليمان الفيومي ومحمد المهدي وموسى السري ومصطفى الدمهوري وأحمد العريشي ويوسف الشراخيتي ومحمد الدواخلي، فتألف الديوان وأسندت الوظائف بمشورة العلماء إلى بقية من الأتراك الذين تخافهم الرعية وتنصاع لأوامرهم وسئل عن أصحاب البيوت والدكاكين المنهوبة وقد أمر بحفظها والحتم عليها فاعتذروا عن نهبها والاستيلاء على ما فيها من اللصوص الذين لا تردعهم إلا القوة ونودي بالأمان وعاد كل شيء إلى ما كان واحتاجت الحكومة إلى أموال تأخذها قرضاً من الأغنياء الذين بقي لهم بعض أموالهم وذلك نصف مليون ريال واستشفع الناس بالعلماء لتخفيف هذا الطلب وقبلت شفاعتهم وتكاثرت العسكر الإفريقيون في البلاد وامتلأت بهم الأسواق والبيوت التي أخليت من أهلها وأخذ ما فيها وصالح بعض نساء الممالك على أنفسهن بشيء من المال والحلي وبلغ ما دفعته زوجة مراد بك مئة وعشرين ألف ريال، ومجاملة المسلمين وأخذوا بخواطهم أقيمت حفلة المولد الشريف في تلك السنة حسب العادة وساعد المستعمر بثلاثمئة ريال من نفقات الاحتفال وفي ربيع الآخر طلب من الناس حجج أموالهم والبصائر التي تثبت ممتلكاتهم وحفظوها عندهم وجعلوا عليها ضريبة معلومة، وفي عشرة جمادى الأولى زيد في الضرائب وهاج الناس وابتدأ القتال وقتل خلق كثير ثم نودي بالأمان وقد استولى العدو على الأرياف وطارد أمراء الممالك حيث ما حلوا وفكر نابليون في احتلال الشام والاستيلاء عليها وذهب نابليون إلى عكا فحاصرها وعجز عن فتحها ورجع منهزماً، ورغم المجالات التي حاول بها ارضاء المصريين من إقامة الزيارات للسيد البدوي وغيره من الصلحاء ومن =

وَمِ الْاِتِّفَاقِ بَيْنَ التُّرْكِ وَالْإِنْجِلِيزِيِّينَ أَهْلِ الْإِفْكِ
 أَنْ يُخْرِجُوا مِنْ مِصْرَ بُونَابَرْتَا وَبَعْدَ أَنْ حَسَّ بِأَسْوَأِ الْمَصِيرِ
 فَزَوَّلَ يَنْوِي عَلَى شَيْءٍ مَعَهُ وَالْإِنْجِلِيزِيُّ فِي شَوَاطِي الْبَحْرِ
 وَاتَّفَقُوا عَلَى خُرُوجِ الْعَسْكَرِ وَقَدْ أَبَتْ عَلَيْهِمُ انْجِلِيتْرَا
 وَلَمْ تَدُمْ مَدَّةً نَابِلْيُونَا لَكِنَّهُ اسْتَفَادَ مِنْهَا الدَّرْسَا
 وَالْإِنْجِلِيزِيِّينَ أَهْلِ الْإِفْكِ فَهَزِمَ التُّرْكُ وَصَارُوا شَتَّى
 وَذُقِمِرَ الْأَسْطُوْكَ فِي أَبِي قَيْرٍ وَالْجَنْرَالُ بَعْدُ لَاقَى مِصْرَعَهُ
 قَدْ نَزَلَتْ جِيُوشُهُمْ لِلشَّرِّ مِنْ مِصْرَ لَكِنْ فِي ثَلَاثِ أَشْهُرٍ
 إِلَّا الْخُرُوجَ وَهُمُوكَا الْأَسْرَا إِلَّا ثَلَاثَ سِنَوَاتٍ جُونَا
 وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى فَرَنْسَا (١)

= تجهيز المحمل إلى الحجاز ونصب الشيخ أحمد العريشي قاضياً للمسلمين والمهاداة التي كانت بين صاحب الحجاز الشريف غالب والإفرنسيين في مصر رغم هذا كله لم يصف لهم الجو ولم يستطيعوا تثبيت أقدامهم في بلاد لا تحمل الظلم ولا تصبر على الضيم، وسافر نابليون إلى بلاده في سنة ١٢١٤هـ، مستخلفاً على مصر قائده الجنرال كليبر وذلك لما أصيب به من الهزائم في الشام ولما لاقاه من مقاومة المصريين ولما مني به من تحطيم الأسطول الافرنسي في أبي قير على يد القائد البحري الانجليزي المستر نلسن، ولما سمع من تحالف بعض الدول على فرنسا ولكثرة الخلاف في بلاده طمع في رئاسة الحكم عليها وفر ليلاً من الاسكندرية مع شردمة قليلة من أصحابه، وفي زمن المقاومة المصرية قبل فراره اشتدت الوطأة من قومه على المصريين فهدموا البيوت واستباحوا الحرمات وانتكوا حرمة البيوت وضربوا القاهرة بمدافعهم الثقيلة من القلاع والتلول والمرفعات، وعثوا بكرامة الأزهر فدخلوه بأحذيتهم واقتحموا أبوابه بالخيول وقتلوا جماعة من علمائه وكشف البرقع المذهب عن وجه الاستعمار القبيح، ولا يسر إلا مع العسر ولا فرج إلا مع الكرب، (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً).

(١) لما سمع الترك بالمصائب المتكاثرة على نابليون وأن الإنجليز قد جاءوا محاربتة في مصر ولطرده عنها قويت معنويتهم فتعاهدوا مع الإنجليز وأرسلوا بجيش كثيف لإنقاذ إحدى ولاياتهم التي كانت وما تزال تعترف بسيادتهم المطلقة أو على الأقل سيادتهم الروحية باسم الخلافة الإسلامية، ولكن نابليون كسر الجيش التركي وأسر قائده مصطفى =

.....

= باشا، واستمرت الأحوال تزداد سوءاً وبريطانيا تحتل الشواطئ وتنزل جنودها فيها والأترك يتراجعون والمصريون يمتثلون حقداً على فرنسا ويزدادون لها بغضاً وكراهية، وقتل أحد الطلبة الشاميين الجنرال كليبر وابتدأت مفاوضات الصلح بين الأطراف المتنازعة وتم الاتفاق على خروج فرنسا وسحب قواتها في مدة ثلاثة أشهر ولكن الإنجليز كان لا يرى الانسحاب إلا مع الذلة والمهانة بحيث لا تخرج العساكر إلا وهم كالأسرى، وانتقض ما كان قد تم وعاد الحال إلى أسوأ ما كان من الفعل والمقال وأخيراً ذهبوا إلى غير رجعة وما دام هذا الأمر إلا ثلاث سنوات مختلطاً سوادها ببياضها وبياضها بسوادها، وتعلمت فرنسا من غزوها للشرق الأوسط درساً قاسياً سوف لا تنساه أبداً ولعنة الله على المستعمرين عامة وعلى الإفرنسيين بصفة خاصة ورحم الله القاتل:

ويلعن الاستعمار أجمعه والإنجليز ملعون والافرنسي

((وعلى الله فليتوكل المؤمنون))

آل محمد علي في مصر

فكّر في احتلال مصر الإنجليزُ
والإنجليزُ شجّعوا المماليك
لكنّ مصرَ نَقَضَتْ يديها
وطلبتْ مع نقيبِ الأشرافِ
شخصٌ أتى في القوة التركيةِ
ونصّبوه حاكماً أقره
والإنجليزُ في نشاطٍ واجتهادٍ
وبالرشيدِ وبكفّرِ حادٍ
فقتلوا وأسرّوا كثيراً
غيرُ مقدّرٍ لشعبها العزيزُ
كي يُصبحَ الخادمُ في معنى الشريكِ
من طاعةٍ لحاكمٍ عليها
أن يحكمَ النيلَ وهاتيكَ الضفافِ
وكان ذا عزيمةٍ قويّةِ
خليفةُ الله ليُكفي شرّه
قد أخذَ الثغرَ وأطرافَ البلادِ
قد قابلتْ مصرُ العنادَ بالعنادِ
وأظهروا القتيلَ والأسيرا (١)

(١) علمت ما كان التنافس بين بريطانيا وفرنسا للتغلب على مصر وأن أسباب ذلك كثيرة ومطامع الجانبين يتعارض بعضها مع بعض. ولئن كان الله قد قطع دابر فرنسا وانتقم منها على ما فعلت في مصر من المنكرات والعبث بالكرامات فإن الإنجليز قد حل محلها وأصبح في البلاد يشنت شملها ويظلم أهلها ويكسر أحد الحجرين بالأخرى وهي سياسته الفرعونية التي عرف بها، ((إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين)) واستغل سخط المماليك على ولاية بني عثمان ونقمة هؤلاء على المماليك وقد أضعفت الحروب كلا من الفريقين ولكل مشاكله الداخلية والخارجية ولم يقدر شعور مصر نحو الافرنجة قديماً ولا حديثاً ولا ما توارث شعبها العزيز من عداوة الصليبيين وفضيلة الجهاد في سبيل الله فحاول المستحيل وساعدته الحاجة إليه يومئذ من قبل الدولة العلية وحسب أن في مناصرته للمماليك جلاء بني عثمان عن مصر وأنه سيصبح فيها السيد المطاع وليست المماليك إلا عبيداً له يستعين بهم في الحرب ويسترقهم في السلم لخرابة الأرض الزراعية وعمارة الأسواق التجارية ويعددهم برّة ما فقدوه من السيطرة والحكم وهم يعدونه =

وشَجَعُوا بِفَعْلِهِمْ مُحَمَّدًا
جَدَّ الْخُدْيَوِينَ وَالْمُلُوكِ
وَلَمْ يَزَلْ يَخَافُ مَنْ تَبَقَّى
يُغْرِبُهُمْ بِالْمَالِ كَيْ يُسَلِّمُوا
وَحَيْثُ لَمْ يُسَلِّمُوا بِذَلِكَ
دَعَاهُمْ إِلَى غَدَاءٍ صَنَعَهُ
وَلَمْ يَدْعُ نَافِعَ نَارٍ مِنْهُمْ
وَقِيلَ إِنَّ الْعُلَمَاءَ اخْتَلَفُوا
بِالْحَسَدِ الْمَعْرُوفِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ
فَأَصْبَحَ الْحَاكِمُ يَسْتَبِدُّ

أَعْنَى بِهِ الَّذِي تَوَلَّى الْبِلَادَ
يَا مِصْرُ قُولِي كَيْفَ مَلَكُوكِي
مِنَ الْمَمَالِكِ أَوْ الْأَرْقَا
لَهُ الْبِلَادَ وَهُوَ فِيهَا يَحْكُمُ
أَلْحَقَ مِنْهُمْ هَالِكًا بِهَالِكِ
ثُمَّ قَضَى عَلَيْهِمْ فِي الْقَلْعَةِ
وَالْوَيْلُ لِلظَّالِمِ مَنْ يَظْلَمُ
فَسَقَطَتْ هَيْبَتُهُمْ وَاسْتَضَعَفُوا
وَلانْقِيَادٍ بَعْضُهُمْ لِلزُّعْمَا
وَأَمْرُهُ فِي مِصْرَ لَا يُرَدُّ (١)

= بالامتيازات و يطلبون منه الحماية لهم ولبلائهم، فأول ما صار منهم لما فشلوا في مناصرة المماليك ومحاولة إرجاعهم إلى الحكم وقد ضعفت شوكتهم وقلَّ عددهم ومنعتهم السياسة من استجلاب الرقيق وشراء العبيد الذين كانوا يأتون بهم من أواسط آسيا فيعززون بهم سلطانهم ويكونون منهم القوة المحاربة إذ ذاك رأى الانجليز أنه لا بد من غزو مصر واحتلالها بالقوة فأرسلوا حملة بحرية في أول سنة ١٨٠٧م، الموافق ١٢٢٢هـ، ونزلت في الاسكندرية ولم تقابلهم قوة جديده بل استسلم القائد أمين آغا وطلب الأمان لنفسه ولأصحابه ومضى الانجليز إلى الرشيد واحتلوها وكان الشعب مستعداً لملاقاتهم في كفر حاد بقيادة علي بك السلانيكي وبارزوه في الأزقة والمنعطفات وانهالوا عليهم ضرباً وقتلاً وأسرا، ورجع بعضهم إلى الإسكندرية منهزماً وقدم المجاهدون إلى القاهرة بمن معهم من الأسرى ورؤوس القتلى وقوي عزم الأمير محمد علي واشتد به عضده وهو يومئذ في الصعيد يطارد المماليك وقتل راجعاً إلى القاهرة متباطئاً في السير مدبراً لخطة الهرب إلى الشام إذا سبقه الانجليز إلى القاهرة وقواده وجنوده يخرجون في الظاهر لمقاومة المستعمر الجديد وفي الباطن لنهب القرى والفلاحين ويرجعون بالأسلاب وما أخذوه من الشعب وكأنها الغنائم التي أخذوها من الانجليز، وهكذا يقول أحد المؤرخين المعاصرين، والله أعلم.

(١) مؤسس الدولة العلوية وجد الخديويين في مصر وهو رجل من ألبانيا ومن مواليد مقدونيا واسمه محمد علي كان ضابطاً في الجيش العثماني الذي حمل على نابليون وطرده =

وألقَ الجيشَ من السودانِ ومن بقايا الترك والألبان
أيضاً ومن مصرَ فصارَ خمسين ومئةً من الألوفِ مردِّفين
وافتتَحَ المدارسَ الحربِيَّةَ وأُرسلتْ بعوئهِ العلميَّةَ

= في سنة ١٨٠١م، ورجع إلى مصر مرة ثانية في سنة خمس من القرن التاسع عشر وبقي هناك ممثلاً للباب العالي ومنح لقب الباشوية في تلك السنة أو التي تليها وعرف بحزمه وقوة إرادته والقضاء على المماليك ومناوأة الانجليز، وكان السلطان يريد صرفه إلى جهة أخرى ولم يتيسر له ذلك ولا قدر عليه ورأى مصر تلف حوله وترفع من شأنه وتحب أن يكون هو الوالي عليها فأقره السلطان ليكني شره ولثلا يكون عدواً في بلاد تعترف بالسلطة الروحية وبمظاهر الخلافة العثمانية واجتمع العلماء ومشايخ الطرق ورؤساء الشعب وفي مقدمتهم نقيب الأشراف السيد عمر مكرم وقرروا ولاية محمد علي ورفضوا ولاية خورشيد الذي كان والياً قبله وبالغ في الظلم والعسف واشتد في طلب الضرائب الفادحة وراجعوه ولم يقبل المراجعة ولا أصغى لما يقولون فخلعوه واتفقوا على تولية محمد علي وعاهدوه على العدل والانصاف والأخذ بالرأي السديد وقبول النصيحة الإسلامية، ووافق على ذلك أنه قبع في بيته وطالبه الجند بمشاهرتهم وتحلوا عن المراكز العسكرية والشعب يجمع قوته ويشتري السلاح ويحاصر الوالي خورشيد في القلعة نحو شهرين حتى جاء الفرمان السلطاني بتولية محمد علي الذي أصبح حاكماً عاماً على مصر وأفضى إليه أمرها ودامت له الدولة وتعاقب فيها أبناؤه لمدة أربع وخمسين ومئة سنة على ما سيأتي وفي بداية الأمر كان يتطلف بالمماليك ويغريهم بالمال ويقطعهم الأراضي ويجمع الكثيرين منهم إلى القاهرة ويجزي لهم العطاء ويجعلهم غير مسؤولين عن شيء وهو يكفيمهم المهمات ويسترضيهم بكل حيلة ووسيلة من أجل أن يعترفوا بسيادته ويتخلوا عن محاولة استرجاعهم لبعض ما كانوا عليه حتى إذ جهز الجيش محمد علي بقيادة ابنه أحمد طوسون لمحاربة الدعوة الإصلاحية والأمراء السعوديين في نجد والحجاز أقام حفلة عظيمة في القلعة يوم الجمعة أول مارس سنة ١٨١١م، ودعا إليها كثيراً من الناس ومعهم المئات من المماليك المقيمين في القاهرة وحضروا في زينتهم وأبهى حللهم وقابلهم بالبشاشة والاحترام الظاهرين وشرب معهم القهوة وبعد الغداء وحينما توسطوا في مدخل القلعة أمر بالأبواب فغلقت وأعطى إشارة القتل لجنوده الألبان والأرنؤوط فأنهالوا على المماليك ضرباً بالرصاص من الأبواب ومرتفعات الجدران فقتلوا عليهم كافة وجيء بالختفين منهم في كل مكان فضربت رقابهم وما ترك منهم ساكن دار ولا نافخ نار، وكل ذلك خوفاً من =

واحتاج للأسطول حين أرسلنا
وانفتحت أمام هذا الوالي
في الشام والسودان والحجاز
هذا عمدا ما كان في اليونان
جيوشه ميمننا ومשמلا
مسالك الجنوب والشمال
نعم وفي نجد وما يُوازي
وما له في شعبنا اليماني (١)

= انتفاضهم عليه وخشية أن يثوروا على الوضع إذا سافر الجيش إلى بلاد العرب وأصبحت القوة الباقية حوالي محمد علي غير كافية للدفاع عنه إذا تحرك المماليك فعزلوه أو طردوه وتلك وحشية لا نظير لها في تاريخ الشرق الأوسط ولعله استشهد بقول شوقي قبل وجوده:
والشر إن تلقه بالخير ضقت به ذرعاً وإن تلقه بالشر ينحسم

ومهما يكن من شيء فالجبار لا يجعل العقوبة بقدر الجريمة والله المستعان، ومما جعل هذا الرجل يستبد بالحكم ويتمادى في الغلبة والقهر وتجريد العلماء والمشايخ من حقوقهم الدستورية وزعامتهم الدينية وجود الخلاف بينهم وحسد بعضهم لبعض وتعلقهم بالحكام وطمعهم في الدنيا وتقلدهم للمناصب فتفرقت كلمتهم وضعف شأنهم وقلت بهم ثقة الشعب وأصبح فلان يدس على فلان ويسعى ضده وهي فرصة تمكن الظالم من ظلمه وتجعله لا يخاف من الافراد خوفاً من الجماعات، ويقال إن السيد عمر مكرم الذي لم يوافق على مقررات الحاكم محمد علي قد حكم عليه بالنفي إلى دمياط وجرده من وظائفه نقابة الاشراف ونظارة الأوقاف وأسندت إلى غيره من الذين عرفوا بموت الضمير وخيانة الأوطان، وهكذا والله لا تضعف شوكة العلماء إلا حين يسكتون على المنكرو ويقرون الظالم ولا ينصرون المظلوم فينقم الله منهم و يسלט عليهم شرارهم حتى يدعوا خيارهم فلا يستجاب لهم وفي الحديث الشريف «إذا هابت أمتي أن تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منهم» ولا دليل على صحة ما نقول أعظم من المشاهدة، وعظم الله أجر الأمة في علمائها المخلصين.

(١) لما عظمت الحاجة لتكوين جيش مصري كبير لفتح البلاد المزمع فتحها ولحماية ما كان قد فتح منها ورأى محمد علي تكوين جيش نظامي لهذه المهمة وليقف به أمام أية قوة تغزوه أو تفكر له في سوء المصير أراد أن ينظم الجيش ولو بصورة مصغرة وما كان إلا من الألبان والأرنؤوط ومن الأعراب الذين لا يعرفون أساليب الحرب الحديثة ولم يتيسر له ما فكر فيه بل تمرد الأتراك والألبانيون وأخذوا في النهب وإزعاج الرعية وهو يخاف على نفسه من انقلاب يقوم به البدو فيطيحوا بحكومته، وساعده الحظ بعد رجوع الجيش من الجزيرة العربية ووصول جماعة من الضباط الافرنسيين إلى مصر بعد نهاية نابليون ومن =

ومات إبراهيمُ باشا البطلُ قبلَ أبيه وعليه الأملُ
ومات إسماعيلُ في السودانِ وكان إسماعيلُ نجلاً ثانياً
أحرقه صاحبُ شندي بالنارِ ومعه جماعةٌ هم والدارِ

= هؤلاء الكولونيل سيف الذي أظهر إسلامه وأطلق عليه اسم سليمان باشا وعهد إليه تنظيم أول فرقة من الجيش في أسوان وما زالت الظروف تساعد والمتخرجون من المدارس الحربية والراجعون إلى البلاد من البعثات العسكرية يتكاثرون وقد حملوا شهاداتهم وأصبحوا في حاجة إلى الوظائف، وأنشئت المدارس الحربية وأخذ النظام يسود في الجيش وخاصة في السودان حتى بلغ العدد خمسين ومئة ألف جندي نظامي من الترك والمصريين والسودانيين أما المدارس التي فتحت في مصر حينئذ فهي مدرسة المشاة ومدرسة الفرسان ومدرسة المدفعية المصرية ومدرسة أركان حرب وكلها تخرج ضباطاً لفرقتها مدرين، وكان طلاب هذه المدارس يتلقون إلى جانب العلوم الحربية علوم الهندسة والرياضة واللغات والرسم، أما البعثات العسكرية التي تعلمت في إيطاليا وفرنسا وإنجلترا والنمسا فقد بلغ عددها ثلاثمئة وأحد عشر طالباً وبلغت النفقات عليها من خزينة الدولة مئتين وثلاثة وسبعين ألف وثلثمئة وستين جنياً، وقد استغنى بهم عن غيرهم وحلوا محل الضباط المستقدمين من البلدان الأخرى، وبمحكم الاستقلال والتوسع المصري شرقاً وغرباً. وقد بدأت الحملة إلى الحجاز ففكر محمد علي الكبير في إنشاء أسطول بحري ولم تكن مصر تملك قبل ذلك أية قوة بحرية فأنشأ أسطولاً تصنع أجزاؤه في ساحل بولاق وتنقل على ظهور الجمال إلى السويس وهناك بنيت السفن ونزل الأسطول المصري في البحر الأحمر ولما عرف هذا الحاكم أهمية الأساطيل البحرية وما لها من فضل في خفر السواحل وحماية الثغور ونقل الجنود إلى حيث يريد بهم الغزو، وكانت قد أهديت إليه سفينتان حربيتان من الدولة العثمانية ورأى أن المصانع في بولاق والسويس لا تؤدي مهمة السفن الحربية أخذ يشتريها من الموانئ الأخرى ويقوي بها الأسطول في البحر الأبيض وعليه سارت الجنود لغزو اليونان وهي أمة بحرية مشهورة ببناء السفن واستخدام البحر في نقل قواتها الحربية والتجارية من بلد إلى آخر وحطم الإنجليز وحلفاؤهم ما كان لمصر من السفن في البحر الأبيض المهداة والمشتراة تحطيماً كاملاً في واقعة نافرين فأنشأ محمد علي دار صناعة لبناء السفن في الإسكندرية بأيدٍ مصرية واستعان بخبراء الشعب وغيرهم ونجحت الفكرة وتم له ما يريد وبلغ عدد العمال في دار هذه الصناعة من ستة إلى ثمانية آلاف عامل مصري ومعهم قليل من الأتراك ولم يكن لهم من الفضل في الصناعة البحرية مثل ما =

وانتقم الجيشُ هذا القائدِ من الأميرِ صاحبِ المكائدِ

= كان لأهل البلد وتألف الأسطول من عدة قطع مختلفة الأحجام والصلاحية لا تقل عن الأساطيل لبقية الدول المعاصرة إن لم تكن خيراً وأحسن منها وجمع هذا الأسطول نحو عشرة آلاف بحار وتخرج من المدرسة البحرية ورجع من البعثات في أوروبا جماعة من الضباط الذين تفتخر بهم مصر في الملاحة وحسن التنظيم ومثل الجماعة الذين أصدروا كتاب تاريخ مصر الحديث هؤلاء الضباط في إصلاح السفن وتدريب البحارة بعثمان نور وحسن الإسكندراني ومحمود ناجي ومحمد شنن وقد قادوا سفن الأسطول المصري وترجموا المؤلفات والقوانين البحرية. انتهى، وانتشرت فتوحات محمد علي في شمال مصر من الشام وجنوبها من السودان، وأرسلت قواته لمحاربة الموحدين أو كما يقال الوهابيين في نجد والحجاز على ما سيأتي بيانه، والخلاف الذي كان بين القاهرة والقسطنطينية سبب الحرب فسير محمد علي جيشاً برياً من طريق العريش لغزو الشام بقيادة ولده إبراهيم باشا وأقلعت من الإسكندرية ست عشرة سفينة حربية وسبع عشرة سفينة نقل وعليها الجنود الذين نزلوا في موانئ الشام لتعزيز الجيش البري الزاحف عليها من العريش ولضرب الأسطول العثماني إذا دنا من سواحل الشام وانتصرت مصر في هذه الحروب وسلم القائد الأسطول العثماني جميع سفنه إلى مصر بعدما وصل بها إلى الإسكندرية وبقيت في قبضة محمد علي إلى سنة ١٨٤٠م، الموافق ١٢٥٦هـ، وأخذت تضعف قوة مصر البحرية بعد اتفاقية لندن في التاريخ المذكور وبعد أن منعت من بناء وشراء السفن إلا بإذن صريح من سلطان بني عثمان وفي التاريخ نفسه أجبرت مصر من قبل الدول الأوروبية على سحب قواتها من بلاد الصرب وكريت وبلاد الشام والأناضول وبقيت لها السيطرة على السودان وقد استولت عليها في سنة ١٨٢٠م، وذلك لما يوجد من الروابط الكثيرة بين القطرين ولما هنالك من تشابه في العادات والتقاليد مع وحدة الدين واللغة وما قد يكون في ذلك من مصالح المستعمرين من تحمل أعباء المسؤوليات وتخفيف حدة التوتر، وما زالت السودان تتنازعها القوتان الإنجليزية والمصرية حتى استقلت بجميع أمورها استقلالاً كاملاً وصارت جمهورية ذات سيادة في أول سنة ١٩٥٦م، وترأسها أولاً إسماعيل الأزهري ثم عبد الله خليل ثم صار الانقلاب العسكري وترأس الحركة الفريق إبراهيم عبود في آخر سنة ١٩٥٨ واستقال في آخر سنة ١٩٦٤م، وحال كتابة هذا ورئيس السودان الأخير سر الختم الخليفة، ونعود إلى ذكر محمد علي وغزوه في بلاد اليونان لما قامت الثورة في بلاد المورة وعجز الخليفة العثماني عن إخمادها واستعان بصاحب مصر فاستجاب لهذا الطلب وأرسل بقواته عبر البحر الأبيض المتوسط تحت قيادة إبراهيم باشا =

وَبُنِيَتْ مَدِينَةُ الْخَرْطُومِ وَأَصْبَحَتْ عَاصِمَةً لِلْقَوْمِ (١)
 وَفَرَمَانُ السُّلْطَانِ الْعَلِيَّةِ يَجْعَلُ أَمْرَ الدَّوْلَةِ الْمِصْرِيَّةِ
 إِلَى مُحَمَّدٍ وَبَعْدَهُ تَكُونُ لَوْلِيْدِهِ فِي الْحَرَكَاتِ وَالسُّكُونِ

= كفي يظهر قوته وأنه بمثابة الوصي للدولة العلية أو أنه ساعدها الأيمن يفعل لها في اليونان كما فعل في بلاد الصرب وانتصر جيشه في بلاد المورة وافتتح مدائنها واحدة بعد الأخرى وظهرت بطولته المصريين في الاستيلاء على مدينة سولنجي التي قاومت الحصار التركي لمدة سنة ولم يقدرها منها على شيء ثم استولوا على العاصمة أثينا، وأفزع ذلك الدول الغربية ولا سيما ذات الأطماع في شرق البحر الأبيض المتوسط ودول البلقان فاجتمعت روسيا وانجلترا ثم فرنسا وطالبوا باستقلال اليونان مع بقاء السيادة الاسمية للعثمانيين على اليونان وهذه صورة مصغرة من تاريخ الفتوح الحربية والثبات الجبارة التي قدم بها مصر إلى الإمام واليهما الجديد ومؤسس الدولة فيها محمد علي باشا، والدنيا كلها عبر وصدق الله تعالى حيث يقول: (فلا أقسم برب المشارق والمغرب إنا لقادرون على أن نبذل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين).

(١) أشهر أولاد محمد علي باشا ثلاثة وهم إبراهيم وطوسون وإسماعيل والأول أكبرهم وكان ولي عهد لأبيه وعليه المعول في الحروب والفتوحات المصرية شجاعاً بطلاً مقدماً ظلوماً غشوماً يصيح أهل الشام وأهل الجزيرة العربية مما فعل بعلمائهم وما دمر وخرّب من مدنها وديارهم وقد ولد في سنة ١٢٠٤هـ، وأول ما أرسله أبوه لتأديب العصاة والقضاء على المحاربين في الصعيد المصري وفي الشام على أثر الخلاف الذي كان بين أبيه والسلطان العثماني سنة ١٢٤٧هـ، فتح عكا بعد حصار دام ستة أشهر وقتال طويل سقط فيه من جيش مصر نحو اثني عشر ألفاً ومن جيش عكا نحو خمسة آلاف وقبض على الوالي عبد الله باشا وأرسله إلى الاسكندرية واستقبله محمد علي بالإكرام وبعث به إلى الأستانة ومن هناك عين خادماً للحرم الشريف المدني، وفي محرم سنة ١٢٤٨هـ فتح دمشق وهرب بعض أهلها وبعد أن استقر فيها نادى بالأمان وكتب إلى الوجهاء والأعيان فرجع بعضهم واعتصم البعض الآخر بمدينة حمص، وفي صفر جهز جيشاً كثيفاً وسار بعسكره وقد جاءه مدد كثير من مصر مع أخيه عباس وفتح حمص وقتل الألوف وأسر الألوف واستولى على جميع ما فيها من القوات والمعدات الحربية مدافع وذخيرة وغيرها واستلم القلعة ممن كان فيها وسار إلى حماه وبلغه وصول القوات السلطانية إلى حلب فسار إليهم واستقبله أهلها بالطاعة وطلبوا منه الأمان وما زال في الشام يفتح بلاداً =

لكن عليه ربغ دخل البلد والجيش للسلطان قبضة اليد
ومصر لا تُنكر من أنبائها ما لمحمد على أنبائها

= بعد أخرى حتى صار والياً عليها فيما بعد وما تركها إلا بعد الاتفاقية التي تمت بين والده وبين الدولة العلية وأعماله في اليونان والسودان معروفة مشهورة وسيأتي ذكر الحرب بينه وبين الموحدين في نجد والحجاز، وقد توفي قبل أبيه بقليل في ذي الحجة سنة ١٢٦٤هـ، وعمره ستون سنة تقريباً، أما أخوه طوسون فقد قتل قريباً من ينبع في أول الحملة المصرية لمحاربة السعوديين وأخوه الثالث إسماعيل هو فاتح السودان، ولما انتهى الحرب في نجد والحجاز وكان قد فرَّ بعض المماليك الذين أفلتوا من القبض عليهم ومطاردتهم فروا إلى دنقلة من السودان فأرسل هذا القائد الصغير الذي ما يزال قليل الخبرة والتجربة في جيش مؤلف من القطرين مصر والسودان، ولم تكن هناك قوة دفاعية تذكر إلا في بعض المحلات وانتصر جيش إسماعيل في دنقلة على بقية المماليك ومن معهم وفي جنوبها على قبائل الشايقية وانتصر عليهم في معركة (كورتى) وقدر فيهم البسالة والشجاعة فاستمألم إليه وضمهم إلى جيشه وهم دائماً منضمون إلى جيوش مصر ومخلصين في الطاعة لها وتقدم إسماعيل المذكور إلى سنار على النيل الأزرق كما تقدم القائد الآخر محمد الدفتردار في غربي السودان واستولى على كردفان وأتم إسماعيل فتح منطقة النيل الأزرق حتى فاز وتوغل إلى حيث يظن وجود الذهب بكثرة ولما رجع إلى الشمال تنازع مع صاحب شندي الملك نمر الذي دبر له الحيلة في ويلة أقامها ثم أحرق عليه وعلى من معه من خاصته الدار التي كانوا يتعدون فيها وجاء محمد الدفتردار لاستلام المنطقة الشمالية وليحل محل إسماعيل المحروق فنكل بأهلها وانتقم منهم شر انتقام وأتم فتح السودان إلى قرب خط عرض خمسة شمالاً، وأُسست مدينة الخرطوم على ملتقى النيل الأزرق بالنيل الأبيض في عهد محمد علي وتوسعت وتنظمت في عهد حفيده الخديوي إسماعيل، وخربت في زمن الثورة السودانية وجددتها فيما بعد الحكومة الانجليزية المصرية وجعلتها عاصمة للسودان واتصل بها الخط الحديدي فزادت بذلك قيمتها العمرانية والتجارية واتصلت بأمر درمان، وفي سنة ١٣٦٠هـ، زرت هذه المدينة المثلثة واجتمعت بكثير من علماء المعهد الديني بأمر درمان وتشرفت بإلقاء درس في حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه عز وجل (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا — إلى آخره) وذلك في يوم الخميس ستة ربيع أول من السنة المذكورة، وبالمناسبة أذكر أنني قد قضيت في تلك الزيارة أربعة وخمسين يوماً ما بين وادي حلفه وعبدة الخرطوم ووادي مدني وبورت سودان وإن أنسى =

من أثر التعليم والصناعة وتُرَعَّ تَسْقِي بها الزراعة
ومات في الخامس والستين بعد اثنتي عشرة من مئتين (١)

= شيئاً من ذكريات حياتي فلا أنسى ما قوبلت به من الحفاوة والتكريم في تلك البلاد
حياها الله وحيى الأكرمين.

(١) أفزعت الفتوحات المصرية الدول الغربية انجلترا وفرنسا وروسيا والنمسا وبروسيا،
وخوفها عقد الصلح بين محمد علي والعثمانيين بما قد يضرها ويقضي على مصالحها
وربما توسعت الامبراطورية المصرية وأصبحت أخطر على هذه الدول من العثمانيين الذين
أخذ أمرهم يضعف وأمورهم تنتقض فقدموا مذكرة يطلبون فيها التدخل في عقد المصالحة
ويعدون بتقديم المساعدة للسلطان، وفي معاهدة لندن سنة ١٨٤٠م، أجبرت مصر
للانسحاب من البلدان التي فتحها ولم يبق لها إلا حكم نفسها وكانت فرنسا تعطف
عليها شيئاً ما ثم تخلت بعد عنها فاضطر محمد علي لقبول الشروط التي أملت عليه وصدر
فرمان السدة العلية بعد اتفاقية لندن بسنة واحدة في ثلاثة عشر فبراير سنة ١٨٤١م
الموافق ١٢٥٧هـ، وينص على ثلاثة عشر بنداً يتم عليها الاتفاق وتوقع من الطرفين
الغالب والمغلوب، وهي كما يأتي: (أولاً) إذا خلا مركز السدة المصرية يختار له السلطان
من يشاء من أولاد محمد علي باشا المذكور أو أولادهم الذكور فإذا انقرض نسل الذكور
كان للباب العالي أن يختار من يشاء للولاية دون أن يكون لأولاد الإناث حق فيها.
(ثانياً) يلزم من يختار خلفاً لمحمد علي الذهاب إلى الآستانة لتلقي فرمان التقليد (ثالثاً)
تكون مرتبة ولاية مصر مماثلة لمرتبة وزراء الدولة في المخاطبات والمقابلات السلطانية مع
وجود حقهم الوراثي. (رابعاً) تنفذ في مصر المعاهدات التي يبرمها الباب العالي وكذلك
الخط المهابوني الشريف المعروف بخط كلخانة والقوانين الأساسية للدولة العثمانية.
(خامساً) تحجب الضرائب والأموال الأميرية باسم جلالة السلطان ويتبع في ذلك النظام
المعمول به في تركيا. (سادساً) يرسل ربع إيرادات الحكومة المصرية الحاصل من دخل
الجمارك والخراج والضرائب إلى خزانة الباب العالي وتخصص الأرباع الثلاثة الباقية
الأخرى لشؤون مصر من نفقات الجباية والإدارة العسكرية والمدنية وحاجات الحكومة
الغلال التي ترسل سنوياً إلى مكة والمدينة وطريقة أداء نصيب الباب العالي من إيراد
الحكومة المصرية يعمل بها لمدة خمس سنوات ابتداء من أول سنة ١٢٥٧هـ، ويجوز
استئناف نظرها بالتعديل تبعاً للظروف والأحوال في مصر (سابعاً) تعيين لجنة لمراقبة
دخل الحكومة المصرية تؤلف طبقاً للأوضاع التي يقررها السلطان فيما بعد بإرادة سنوية =

بعد محمد علي إلى اليوم

وَلِيَّ عَبَّاسُ بْنُ طُوسُونَ الْحَفِيدُ خَمْسَةَ أَعْوَامٍ وَأَشْهَرَ تَزِيدُ
وَكَانَ لَا يَرْضَى سَبِيلَ جَدِّهِ سِيَّاسَةً فِي جَزِيرِهِ وَمَدَّه

= وذلك بقصد تحقيق الباب العالي من دخل الحكومة المصرية ومعرفة مقداره. (ثامناً) تصك النقود في مصر باسم السلطان ولا تختلف النقود الذهبية والفضية التي تضرب في مصر عن نقد تركيا في القيمة والنوع والعيار. (تاسعاً) لا يزيد عدد الجيش المصري في زمن السلم عن ثمانية عشر ألف جندي وللباب العالي أن يرفعه إلى ما شاء في زمن الحرب، ويتبع في مصر نظام التجنيد المتبع في تركيا ويقضي بجعل الخدمة العسكرية خمس سنوات وبناء على ما ذكر يكتفى من مقترعي الخدمة الموجودين الآن بعشرين ألفاً يبقى منهم ثمانية عشر ألفاً في مصر ويرسل الألفان الباقيان إلى الآستانة ثم يسرح خمس عدد الجيش في كل سنة بطريق القرعة ويقترح بدلهم أربعة آلاف مستجدين يبقى من هؤلاء بالقطر المصري ستة وثلاثون ألفاً ويرسل أربعمئة إلى الآستانة والذين يتممون مدة الخدمة العسكرية يرسلون إلى بلادهم. (عاشراً) لا تختلف ملابس الجنود والضباط المصريين وأعلامهم وأوسمتهم وأنظمتهم عن مثلها في الجيش التركي وكذلك ملابس البحارة والجنود والضباط في الأسطول المصري وأعلام السفن الحربية المصرية. (حادي عشر) لوالي مصر حق منح الرتب العسكرية لضباط البر والبحر حتى رتبة قول أغاسي أما الرتب العليا فينعم بها السلطان. (ثاني عشر) ليس لمصر أن تبنى سفناً حربية إلا بإذن صريح من الباب العالي. (ثالث عشر) لما كان امتياز حكم مصر الوراثي المخول لمحمد علي وأسرته مقروناً بالشروط السابقة فأخلخل بأي منها يؤدي إلى سقوط حقهم في هذا الامتياز انتهى، وتم هذا زمن السلطان عبد المجيد خان بن محمود خان الثاني أما الإصلاحات التي قام بها محمد علي في مصر من حفر القنوات وشق الترع وما يعود بالخير العام على الزراعة وما فتح من المدارس وتوسيع مرافق الحياة عمرانياً وعلمياً وزراعة وصناعة وتجارة فهو أمر لا ينكر، وما يزال تاريخ هذه الأعمال الجليلة يدرس وبقراً، =

معتزلاً ما جاء من أوروبا
 ومَدَّ سَكَّةً من الحديدِ
 وتقطر الثغر بسور القاهرة
 ومات مقتولاً وقام عمُّه
 وقرب الأجانب الأباغدا
 ولا يرى في العلم والتعليم
 إذ زُما يخرُجُ من تَعَلُّما

يَكْرَهُ منها وصلها والقربا (١)
 نَمَّت بعهدِ عمِّه سعيدِ
 أعْظَمَ بها من سكةٍ وقاطِرةِ (٢)
 وهو الذي في الغربِ زاد علمُه
 ومنهمو يَتَخَذُ المُسَاعِدَا
 خيراً لأهلِ ذلكِ الإقليمِ
 عن طاعةِ الحاكمِ فيما حَكَمَا (٣)

= والبلاد المتحضرة هي التي تسجل من أخبار أبنائها ما يعرف به الأبناء تاريخ آبائهم وكان عمر هذا الحاكم قرابة ثلاث وثمانين سنة لأنه ولد في سنة ١١٨٣ هـ الموافق ١٧٦٩ م، وتوفي في سنة ١٨٤٩ م، الموافق ١٢٦٥ هـ، وفي الأثر أو الخبر «عش ما شئت فإنك ميت واحبب ما شئت فإنك مفارق» ((وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور)).

(١) ولي مصر حاكمها عباس باشا الأول بن طوسون بن محمد علي وذلك في عهد جده وبعد وفاة عمه إبراهيم سنة ١٨٤٨ م، وقتل في جولاى سنة ١٨٥٤ م، ومدة حكمه خمس سنوات وبضع أشهر وعمره اثنتان وأربعون سنة، مولده يوافق في التاريخ الهجري ١٢٢٨ هـ، ووفاته في سنة ١٢٧٠ هـ، وسياسته تخالف كثيراً سياسة جده وعمه إبراهيم في الداخل والخارج فهو يكره أوروبا ويكره ما جاء منها متأثراً بما فعلته الدول الغربية بالامبراطورية المصرية وسياسته العزلة والابتعاد عن السفراء ويعتقد أن الفساد الخلقى وكثرة المشاكل الاجتماعية لا تنشأ إلا من الثقافة الأوروبية والتعليم الذي يصلح جانباً من حياة الشعوب والحكومات يفسد مع ذلك جوانب أخرى كثيرة.

(٢) من أهم أعمال هذا الحاكم المواصلات بين مختلف أنحاء البلاد براً وبحراً ليسهل نقل المنتوجات الزراعية والسلع التجارية بالسفن الشراعية والبخارية وعربات النقل في المدن وفيما بينها وبين القرى ولكن أعظم شيء في المواصلات تعبيد الطريق بين القاهرة والسويس وإنشاء السكة الحديدية بين القاهرة والاسكندرية في السنة الرابعة من ولايته وقام بالعمل روبرت ستيفنسن مخترع القاطرة البخارية ولم يتم بناء السكة وتسيير القطار عليها إلا بعد وفاة عباس الأول وفي عهد عمه سعيد سنة ١٨٥٦ م.

(٣) ولي سعيد باشا حكم البلاد بعد عباس ابن أخيه من حين قتله إلى سنة ١٨٦٣ م، وتربيته كانت إفرنسية خالصة وفيه غرور بنفسه لا يشرك أحداً معه في الرأي =

وَحَفَرُهَا كَانَتْ لَهُ آفَاتٌ
 شَيْئاً كَثِيراً وَمِنَ الْعَمَالِ
 مِنْذُ ابْتِدَاءِ حَفْرِهَا وَأَصْلِحَتْ
 وَمِصْرُكَ كَانَتْ ذَاتَ نِصْفِ الْإِسْتِهَامِ
 عَشْرَةَ مِليونَ وَمَالَهَا سِدَادٌ (١)
 تُطِيعُهُ أَهْرَامُهَا وَالنَّيْلُ
 سِتَّةَ عَشْرَ سَنَةً يَذْمُهَا
 وَبَعْضُهُمْ يَمْدُحُ بِالْإِطْنَابِ
 وَلَا يَهْوُلُهُ مِنَ الْخَطْبِ الْجَسِيمِ
 مُعَوَّلًا عَلَيْهِ مُذْ تَوَلَّى
 مِنْ أَهْلِهِ وَبَعْدَهُ الْعَرْشُ بِصِيرِ
 وَكَمْ وَكَمْ أَصْلَحَ فِي بِلَادِهِ
 وَحُفِرَتْ فِي عَهْدِهِ الْقِنَاءُ
 إِذْ كَلَّفَتْ مِصْرَ مِنَ الْأَمْوَالِ
 وَبَعْدَ عَشْرِ سِنِينَ فُتِحَتْ
 وَجَعَلَ امْتِيَازَهَا مِئَةَ عَامٍ
 وَمَاتَ وَالذَّيْنُ عَلَى أَهْلِ الْبِلَادِ
 وَبَعْدَهُ فِي مِصْرَ إِسْمَاعِيلُ
 وَدَامَ فِيهَا مَدَّةً يَحْكُمُهَا
 بَعْضُ مِنَ الْمُؤَرِّخِينَ وَالْكِتَابِ
 كَانَ سِيَاسِيًّا وَأَمْرُهُ عَظِيمٌ
 صَارَ خَدِيوِيًّا وَمُسْتَقْبَلًا
 وَالْعَرْشُ كَانَ قَبْلَهُ إِلَى الْكَبِيرِ
 إِلَى وَلِيِّ الْعَهْدِ مِنْ أَوْلَادِهِ

= ولا يثق بالمواطنين ولا يجب لهم العلم ولا يفتح لهم المدارس ولا يرسل أحداً منهم إلى الخارج خشية أن يتمردوا عليه إذا تعلموا وتصعب عليه سياستهم، والجاهل المغرور لا يستطيع في العادة أن يحكم من هو خير منه وأبصر بعواقب الأمور ومصالح الحاضر والمستقبل وعلى العكس من ذلك كان يجب الأجانب و يقرهم إليه و يثق بهم في كل شيء ثقة عمياء وكأنه المعني بقول حافظ إبراهيم:

أمة قد فتت في ساعدها بغضها الأهل وحب الغربا
 وليته كان يفكر فيما يقال له أو يؤمر به من قبل نصحائه الأجانب الذين أوردوه
 المهالك وكلفوه ما لا يعود عليه بالخير في بعض مشاكلة السياسية والاقتصادية وهكذا قيل
 وَتَبَرَّأَ إِلَى اللَّهِ مِنْ أَنْ نَقُولَ فِي أَحَدٍ مَا لَا نَعْلَمُ ((وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب
 حافظين)).

(١) تم الاتفاق بين سعيد باشا والمسيو فرديناند دي لسبس الأفرنسي على حفر قناة السويس التي تربط بين البحرين الأبيض والأحمر وطولها نحو مئة ميل وكلفت مصر أموالاً كثيرة ومات من العمال نحو عشرين ألفاً في مدة الحفر، وابتدأ العمل فيها سنة تسع =

دارين للكتب وللآثار وللزراعين والتجار
 قد أصلح الموانئ الحربية ومن قصوره ترى الكثيراً
 أسس مجلسين للنظار من وجهاء القوم والأعيان
 وعلماء ذلك الزمان^(١)

= وخمسين وثمانئة وألف ١٨٥٩م وفتحت للاستعمال في سنة ١٨٦٩م ومدة الامتياز مئة سنة والأسهم فيها لمصر مئة ألف وستة وسبعون ألف وستمئة واثنان، وثمان الواحد عشرون جنيهاً مصرياً وقد اشترى الانجليز هذه الأسهم عام ١٨٦٥م، ويذكر أن سعيداً فتح باب الاستدانة وما مات إلا وقد أثقل كاهل مصر بالديون التي بلغت عشرة ملايين جنيه ومات ولم يترك القضاء هذه الديون من سداد وفي عهده تم إصلاح الطريق إلى السويس ومد السكة الحديدية من الاسكندرية إلى العاصمة القاهرة.

(١) خامس الملوك من أهل هذا البيت هو الخديوي إسماعيل باشا بن إبراهيم بن محمد علي وحكم البلاد بعد عمه سعيد لمدة ست عشرة سنة من سنة ٦٣ إلى ١٨٧٩ م، والأهرام والنيل أعظم المظاهر في مصر وهما رمز المجد والحضارة قديماً وحديثاً ونيلها كرامة من الله للزراعة المصرية والأهرام وعددها ثلاثة عشر هرمًا تدل على مجدها التاريخي وماضيها العظيم والحديث طويل عن الأهرام والنيل والاشتغال به يخرجنا عن العنوان الذي هو طرف من تاريخ مصر الحديث، وعهد إسماعيل مليء بأعماله التي يمدحها الكتاب والشعراء ويذمها بعضهم وكل ينظر إليها من زاوية خاصة وتلك سنة الله أن يختلف الناس بين مادم وقادح ورحم الله القائل:

إن نصفت الناس أعداء لمن ولي الأحكام هذا إن عدل

وهو أول من صار خديوياً في مصر ومعناه الحاكم العظيم أو الحاكم بأمر نفسه المستقل بشؤون بلاده في الداخل والخارج يدبر سياستها ويعقد المعاهدات مع من شاء من الدول ويزيد من قوته الحربية أو يخفف منها ما شاء والحق أنه كان قوياً حازماً صارماً مجازفاً لا يبالي بالأخطار ولا يجب الاقتصاد على شيء من الأمور الكبار وكانت ولاية العرش لأكبر أفراد الأسرة من بيت محمد علي وفي عهد الخديوي إسماعيل صار العرش وراثته لولي عهده وأكبر أولاده الذكور ثم لأولاد الأولاد وليس لأولاد البنات حق في تبوأ عرش مصر وإن عظم قد أحد من أولاد البنات، وله إصلاحات كثيرة وما =

واتسعت أملاكه المنتعشة
 وأظهرت غيوبه وغلظه
 وصرف الأموال فيما لا يُفِيدُ
 وبلغت ديونه الملايين
 وباع أسهم البلاد في القناه
 وعزلوه بعد هذا كله
 في وسط السودان ثم الحبشة
 محاكم أنشأها فخلطة
 تصرفات أحق غير رشيد
 عشرة وبعدها ثمانين
 هذا ولم يُذكر بالبيع مُناه
 ونصبوا توفيق بعد عزله (١)

= تزال ماثلة وظاهرة للعيان ومنها دار الكتب ودار الآثار جمع فيها كثيراً من الكتب المطبوعة والمخطوطة بالعربية وبمختلف اللغات الأجنبية ولا تسأل عن الآثار المجموعة في دارها من مخلفات مصر ودفائنها وجثث المحنطين من أبنائها مع مختلف أنواع السلاح والملابس والآنية المستعملة عند قدماء المصريين وهذان داران في الوقت الحاضر أعظم مما كانتا عليه في عهد إسماعيل بكثير، وهو الذي أصلح الموانئ الحربية وبلغت السكك الحديدية في وقته نحو ألف ميل وكان يحب العلم وينشره ويرسل البعثات لتحصيله وفتح المدارس التي أغلقت في عهد سلفه عباس الأول، ومن قصوره ومبانيه دار الأوبرا الملكية وقصور فخمة في القاهرة والإسماعيلية وأنشأ مجلسين أحدهما للنظار وهم الوزراء والآخر للعلماء والوجهاء والأعيان ومهمته التشاور فيما يعرض من المهام ثم تطور الحال وأصبح المجلسان أول خطوة في سبيل الحكم النيابي.

(١) حيث عرفت هذا الخديوي وأنه يجب التوسع ومد النفوذ إلى حيث يتأق له وقد رأى التنافس الدولي في استعمار القارة الأفريقية وأنهم يرسلون البعثات الاستكشافية إلى الجهات المختلفة للاطلاع على خيراتها ومدى قوة الدفاع فيها فإن إسماعيل باشا قد اختار المستر صموئيل بيكر لاكتشاف الأراضي القريبة من منابع النيل سنة ١٨٦٩ وأرسل حملات عسكرية فامتلك تلك الجهات وجعل منها مديرية جديدة سماها خط الاستواء، وفي كتاب تاريخ العرب والمسلمين قال ما نصه: ثم توسع في غرب السودان ففتح دار فور سنة ١٨٧٣م، وكانت قبل ذلك مملكة مستقلة، وتوسع في السودان شرقاً حتى البحر الأحمر وحارب الأحباش ثم صالحهم انتهى. ومن أعظم الذنوب للخديوي إسماعيل اتصاله بالأوروبيين ووجه لهم والاعتماد عليهم في إدخال الحضارة الغربية إلى بلاده وإنشاؤه للمحاكم المختلطة على يد وزيره نوبار باشا سنة ١٨٧٦م وجعل رئيسها أجنبياً ومنحت المحاكم المختلطة استقلالاً تاماً عن القضاء المصري حتى أصبحت كحكومة داخل =

ودام عشرا وثلاث سنوَاتِ
 ودخلتْ في عهدِه انجلترا
 وثار إذ ذاك عُرابي باشا
 وإن تَكُنْ ثورته لم تَنجَحْ
 فإنه قد بتَّ فيهم وعباً
 وجاء بعد ثورة المذكورِ
 فحكّموا بقتلِه ثم نُفي
 في الحكمِ والدنيا على غيرِ ثباتِ
 وحكمتْ بعد الدخولِ مصرا
 ولم يَخَفْ شيئاً ولا تَحاشى
 وكفه الميزانِ لَمَّا تَرَ جَحْ
 يفيدُهم تحركاً وسعيّاً
 تَدخُلُ الإفرنجِ في الأمورِ
 ومصطفى الكاملُ خيرُ مُقتَفي (١)

= حكومة، وفي معاهدة سنة ١٩٣٦م، ساعدت المصريين بريطانيا على الاتصال بالدول المشتركة في تلك المحاكم فلم توافق على إلغائها إلا في مايو سنة ١٩٣٧ ولم يتم بالفعل إلغاؤها إلا في سنة ١٩٤٩م قبل الثورة الأخيرة بثلاث سنوات، وقد استدان الخديوي أموالاً كثيرة كان يصرفها على المنشآت والحفلات التي لا حاجة لها ويقال إنه أنفق في حفلة افتتاح قناة السويس نحو مليون وأربعمئة ألف جنيه، وما مات إلا وقد بلغت الديون على مصر واحداً وثمانين مليوناً من الجنيهات مع العشرة التي كانت عليها من زمان عمه سعيد، وقد باع حصة مصر في أسهم القناة بأربعة ملايين جنيه ولم تسد مسداً من قضاء الديون فاختلت الميزانية وتدخلت بريطانيا وفرنسا في الأمر وطلبتا من السلطان عبد الحميد الثاني عزل الخديوي ووافق على ذلك في سنة ١٨٧٩م الموافقة سنة ١٢٩٦هـ، وسافر بعد العزل إلى إيطاليا وفيها انتهت حياته وهكذا ولي الفاروق آخرهم نحو ستة عشر سنة وانتهت حياته بعد عزله في إيطاليا والتاريخ يعيد نفسه، وسبحان الذي لا يحول ولا يزول وإلى ملكه تعالى ترجع الفروع والأصول.

(١) محمد توفيق هو ابن إسماعيل الخديوي وهو الذي تبوأ العرش بولاية العهد التي جعلها أبوه في أكبر أولاده وإنه لأول ملك طبق عليه النظام الجديد وعاش في ولايته ثلاث عشرة سنة من بعد أبيه إلى سنة ١٨٩٢ وكانت الأحوال مضطربة والأنظمة مختلفة في عهده للأسباب الآتية: ميله إلى الأجانب وأخذه بنصائحهم والعمل بمشورتهم لأنهم سهلوا له أسباب الجلوس على العرش ثم عدم وفائه بالوعد الذي قطعه للأمة عند جلوسه بإنشاء حكومة برلمانية دستورية، ومن أسباب ما حصل من الاضطرابات رجوعه إلى الباب في معظم الشؤون وموافقته على تدخله في بعض مما لا يتفق والحقوق التي نالتها =

= مصر بموجب فرمانات السلطانية ومسايرته لأبناء العناصر غير المصرية وموافقته على بقائها في المناصب الكبرى هذا وإنه قد زاد توظيف الأجانب مما جعلهم يتدخلون في شؤون الدولة ويستبدون بأفراد الشعب ومن دونهم في الوظائف وإن كانوا أكبر منهم قدراً وأكثر جدارة، وهذه الأمور وغيرها قامت الثورة العربية بقيادة أحمد عرابي باشا بن محمد عرابي بن محمد وافي بن محمد غنيم بن إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن علي بن سليم بن إبراهيم بن سليمان بن حسن بن علي بن حسن بن إبراهيم مقلد بن محمود بن أحمد بن محمود بن حسن السجاعي بن صالح ابن السيد علي البلاسي نسبة إلى بلاس قرية صغيرة في بطائح العراق وينتهي نسبه الشريف إلى مولانا السبط الحسين بن علي رضي الله عنهم، وينتهي نسب أمه إلى جده إبراهيم المقلد، وولد أحمد عرابي في قرية رزنة ونشأ في حجر أبيه نشأة إسلامية وحفظ القرآن وتوفي والده وهو سيد قريته وما يزال أحمد عرابي صغيراً واحتضنه أخوه محمد وبعث به إلى الأزهر، ولصدور الأمر في عهد سعيد باشا بتجنيد أولاد العمد والأعيان دخل صاحب الترجمة في الجيش سنة ١٢٧١هـ، وكان جندياً بسيطاً وترقى إلى رتبة ملازم أول بعد أربع سنوات ثم إلى رتبة اليوزباشي ثم إلى رتبة البكباشي وبعدها إلى رتبة القائمقام، فصار بذلك أحد عرابي بك، وقد انتدب لكثير من المهام ورافق سعيد باشا إلى المدينة المنورة، ويقال إنه أول مصري صار قائمقاماً، واشترك في الحملة التي أرسلت إلى الحبشة في سنتي خمس وست وتسعين ومئتين وألف، وكان يسعى ضده الأميرلاي خسرو باشا الذي كان قبله في منصبه العسكري؛ واتهم أحمد عرابي مع ضابطين آخرين من الجيش بتدبير المظاهرة التي قام بها طلاب المدرسة الحربية وبعض الضباط في أول سنة ١٢٩٦هـ وحوكم في هذه التهمة ثم برىء منها، وكان من أعظم المؤيدين للخديوي توفيق وقد فرح بولايته لأنه كان يعتقد منه استيفاء حقوقه المهضومة في عهد إسماعيل وإنه سيرقى إلى منصب أكبر ورتبة أعلى وكذلك كان في أول الأمر وفي سنة ١٢٩٨هـ، تكونت جمعية من الضباط الوطنيين وصارت نواة للثورة العربية وكل هؤلاء ساخطون على وزير الحربية عثمان رقي بك الشركسي وكان زعيم الحركة وقائدها الأول السيد عرابي باشا الذي عاهدوه على الإخلاص له وأن يفدوه بدمائهم وأموالهم إذا حصل ما يوجب ذلك، وفي السنة التي تليها استقالت وزارة شريف باشا وصار عرابي وزيراً للحربية بعد ذلك في وزارة محمود سامي البارودي وحضر معركة التل الكبير في سبتمبر سنة ١٨٨٢م وانهزم الجيش وسلم أحمد عرابي نفسه بعدما رجع إلى القاهرة ثم خفض الحكم عليه بالنفي المؤبد مع تجريدته من الرتب والألقاب ومصادرة أمواله وغادر =

.....

= القاهرة إلى السويس في آخر ديسمبر من سنة ١٨٨٢م ومنها إلى سيلان حيث بقي متفياً تسعة عشر سنة ثم عني عنه وعاد إلى مصر في سنة ١٩٠١م وعاش بقية حياته في بلاده حتى مات في سبتمبر سنة ١٩١١م الموافق سبعة وعشرون رمضان سنة ١٣٢٩هـ، وعمره اثنتان وسبعون سنة ويرحمه الله، أما تدخل الإنجليز تدخلاً مباشراً فكان بعد المقدمات المذكورة نتيجة لمكر السياسة والحيل البريطانية لاستعمار الشعوب وهم يعملون صباحاً ومساء على تنفيذ خططهم المرسومة وفي ذات يوم تشاجر رجل مالطي وعربجي مصري قطعن الثاني الأول وثار لكل أهله وأنصاره فكانت معركة عنيفة دارت في شوارع الاسكندرية وقتل فيها مئة وأربعون من الوطنيين وسبعة وخمسون من الأجانب فتفاقم الشر وألزمت فرنسا وبريطانيا عظمة السلطان بإرسال قوة عسكرية لمساعدة الخديوي توفيق ولم يوافق إلا بعد فوات الفرصة، وفي أحد عشر جولاي سنة ١٨٨٢م قصف الأسطول الانجليزي قلاع المدينة لمدة عشر ساعات فدكوها عن آخرها فتراجعت حامية المدينة وأضرموا النار فيها ودخل الإنجليز في اليوم الثاني وتم له الاحتلال تدريجياً وأخذ التاريخ يكتب حوادثه وما كان من تدخل الإنجليز والانتقام من السيد عرابي، ومن الزعماء في ذلك العصر المجاهد الكبير السيد مصطفى كامل المولد في سنة ١٨٧٤م والمتوفى في شهر فبراير من سنة ١٩٠٨م، وعمره اثنتان وثلاثون سنة وعاش عيشة الأبطال منذ صغره، وتخرج من كلية الحقوق ونال شهادة المحاماة في باريس واشتغل بها إلى أن مات، وأسس الحزب الوطني المصري وأصدر أول مجلة مدرسية أيام الدراسة، وانضم إليه كثير من الشباب المتأثرين بروحه الوطنية، وبحق يعد مصطفى كامل من التلاميذ الكبار لأحمد عرابي باشا وإن لم يكن في المدارس والثكنات فلقد كان تلميذه في المعارك والحركات، ومع الأسف لم تطل حياة هذا الشاب السياسي حتى يحقق ما يصبو إليه أو يرى معه ثمرات جهاده، ورب عمر قصير اكتسب صاحبه فيه الذكر الجميل والتوفيق الكبير، وكانت وفاة البطل العظيم مصطفى كامل في أيام النبي لعرابي باشا وقد خلف زميلاً له في الميدان وهو محمد فريد الذي كان له ما أوجب خروجه من مصر وأن ينفق أمواله وكل ما لديه في سبيل الحرية والكرامة، ومات في برلين سنة ١٩١٩م، وهذه الأحداث كلها في عهد إسماعيل وتوفيق وعباس الثاني، والإتيان على كل شيء غير ممكن ولا يحيط بكل شيء علماً إلا الله الذي له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً.

فصل تابع لما قبله

معظم ما مرَّ مع السلطان
عبد العزيز ومراد والجديد
والإنجليزُ جعلوا كرومرَ
يفرضُ نفسه على الأهالي
ومن ذنوبه التي لا تغتفر
عبد الحميد ومع الإخوان
قرار الاحتلال من عبد الحميد^(١)
معتماً بحضور كُـلِّ مؤتمَر
فرضاً وبالقانون لا يُبالي
في دنشواي ما روت لنا السير^(٢)

(١) أكثر ما مرَّ وما يأتي من تاريخ محمد باشا وأولاده كان في أيام السلطان عبد الحميد بن محمود العثماني وهو الذي تسلطن في سنة ١٢٥٥هـ، ومات في سنة ١٢٧٧هـ، ثم في عهد أخويه عبد العزيز الذي تسلطن بعده وعزل في سنة ١٢٩٣هـ، ثم أخيه مراد الخامس وسلطنته ثلاثة أشهر وقليل وبعد هؤلاء تسلطن عبد الحميد بن عبد الحميد في شعبان من السنة المذكورة ودام إلى سنة ١٣٢٧هـ، أما قبل ذلك فبداية أمر محمد علي كانت في عهد سليم الثالث ثم عهد ولديه مصطفى ومحمود الثاني والد عبد الحميد المذكور والأمر الغريب والجديد الذي حدث لمصر في أيام السلطان عبد الحميد أنه أقر بإرسال قوة عسكرية لمساعدة الخديوي توفيق ضد عرابي باشا ولحماية الرعايا الأوروبيين في مصر وذلك بعد المؤتمر المنعقد في دار الخلافة عام ١٨٨٢م الموافق سنة ١٢٩٩هـ، واستعجلت القوات البريطانية الأمر فضربت الاسكندرية ونزل فيها الجنود يوم أحد عشر جون من السنة المذكورة وعرفت ماذا كان من مقاومة عرابي باشا وهزيمته في التل الكبير وأنه نفي بعد إلى سيلان وما عاد إلى مصر إلا بعد مدة طويلة.

(٢) عين الإنجليز بعد الاحتلال أول معتمد لهم في مصر وهو اللورد كرومر الذي فعل الأفاعيل وتدخل في شؤون البلاد تدخلاً مباشراً مشيناً وفرض نفسه على الأهالي بحضور المجالس ويصدر الأوامر ويتحكم في الخديوي وظاهر أمره مستشار وحقيقته مستعمر خبيث جبار يعمل لحكومته ويحاول أن تكون لها السلطة التامة على كل شيء وفي كل شيء وكان تعيينه في سبتمبر سنة ١٨٨٣م وبقي إلى سنة ١٩٠٧م، وعاصر الخديوي توفيق =

وبعد توفيقه أقيم عباسٌ ولده وكان ذا عزمٍ وبأسٍ
لكنهم كفّوا يديه واستبدّ به وبالشعب الخبيث المعتمدُ
وعزلوه منذ خمسين سنة وسكّنت أقالمه والألسنة

= ثم ولده عباس الثاني ولم يتمكن عباس من فعل شيء مع كرومر حيث وقد استولى على المالية والجيش ومجلس النظار ولما عين عباس هذا رئيساً لمجلس النظار أكرهه المعتمد البريطاني على الاستقالة وحاول التدخل في شؤون الجيش وانتقد بعض أعماله فأهانته كرومر وكلفه بسحب انتقاده علناً ولم يجد له يومئذ نصيراً على عدوه فالسلطان عبد الحميد مشغول بنفسه وبداخلية سلطنته وفرنسا تقرر أعمال الانجليز ولا تعارضهم في شيء لما حصل بين الدولتين من الاتفاقيات وأن تطلق الأولى للثانية يدها في مصر كما تطلق الثانية للأولى يدها في شمال أفريقيا وقد هاجم الزعيم مصطفى كامل هذه السياسة في جريدته اللواء، وكان فيه عون لعباس الخديوي إلا أن العدو قطن بينها وفرق أمرهما كما هي عادته بين أعدائه المتصادقين، ومن ألغن ما حفظ التاريخ وسجله على كرومر حادثة دنشواي في مديرية منوف وحاصلها أن جماعة من الانجليز كانوا يتصيدون الحمام هنالك فأصابوا امرأة مصرية وقتلت وثار لذلك الأهالي فهاجموهم وهرب الانجليزيون، ومات ضابط منهم بضربة الشمس فغضب كرومر وقتل بالشنق أربعة من المصريين كما جلد وسجن سبعة عشر آخرين فشوّ سمعته وسمعة حكومته وملاً قلوب المصريين بغضاً وعداوة له وهاجمه مصطفى كامل هجوماً عنيفاً هذه الحادثة واضطره الحال إلى مغادرة مصر في شهر مايو من سنة سبع أول القرن العشرين بعد حوالي سنة من حادثة دنشواي وفيها يقول شاعر النيل حافظ إبراهيم رحمه الله قصيدته المشهورة ومطلعها:

أيها القائمون بالأمر فينا هل نسيتم ولاءنا والودادا
خفضوا جيشكم وناموا هنيئاً وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا
وإذا أعوزتكم ذات طوقٍ بين تلك الربا فصيدوا العبادا
إنما نحن والحمام سواء لم تغادر أطواقنا الأجيادا

وهي طويلة وفيها تألم الشاعر وشعبه الكرم من هذه الفادحة المؤلة ولا شك أن أربعاً وعشرين سنة يقضيها كرومر في مصر مليئة بالأحداث وفيها لوحة من تاريخ الاستعمار في القرن التاسع عشر الذي أنشب أظفاره وعض بلهزمتيه كثيراً من البلدان في آسيا وأفريقيا وللظلم أيام محدودة ومصيره إلى الزوال وإن طال .

وفرضوا حمايةً ملعونة ونَبَشُوا أسرارها المدفونة
وسلطنوا من بعده حسينا خديعةً وكذباً وقينا
وبعده أيضاً فؤادَ الأولا وملكاً بعد قليلٍ حُولا^(١)

(١) لما عزل الخديوي توفيق في سنة ١٨٩٢م للأسباب التي قدمناها نصب بعده على عرش مصر ولده عباس حلمي من ذلك التاريخ إلى شهر ديسمبر سنة ١٩١٤م والحالة بينه وبين اللورد كرومر كما علمت، وكان عباس شاباً ذكياً حازماً متعلماً ويريد لشعبه وبلاده الخير إلا أن المعتمد البريطاني يحول بينه وبين ما يريد ويفكر فيه. وكيف لا وهو المتدخل في كل شيء المالية والجيش ومجلس النظار وكف يد الخديوي عن التصرف في شؤون بلاده واستبد عليه وصيره ضعيفاً مغلوباً على أمره ولما أراح الله مصر من شر المعتمد كرومر جاء بعده المعتمد غورست وعمل بسياسة التفرقة فجعل القبطي بطرس غالي رئيساً لمجلس النظار من أجل أن يفتن بين المسلمين والمسيحيين فتضعف المقاومة ويتمكن الاستعمار من ضرب أوتاده ونصب خيامه فقتل أحد المسلمين ذلك القبطي في أول السنة العاشرة بعد تسعمته وألف الموافق سنة ١٣٢٨هـ، وكادت الفتنة تشمل البلاد والعباد إلا أن الله كف شرها وأخذ نارها ومرض غورست وخلفه المعتمد الثالث كتشنر وحاول المصريون قتل الاثني والاستراحة منها ولكنها كشفت المؤامرة وظهر أن مصر وخديوها يوالون السلطان العثماني محمد رشاد ويعملون على التخلص من كيد الانجليز فعاقب كتشنر الوطنيين وكاد يقضي على الحزب الوطني الذي أسسه الزعيم مصطفى كامل وفر يومئذ الزعيم محمد فريد إلى أوروبا وظل يواصل جهاده حتى مات في برلين بعد الحرب العالمية الأولى بقليل وخلع عباس حلمي وفرضت الحماية الانجليزية على مصر فصاروا يولون ويعزلون ويسلطنون ويملكون ولا راد لما يريدون. وقد كثرت في عهد عباس الثاني الإصلاحات الوطنية رغم ما كان من الضغط عليه والحد من سلطته ومنعه من القيام بمسؤولية الراعي المصلح، ومن الأعمال الجليلة في عهده سد أقيم أمام القناطر الخيرية لتنظيم تدفق المياه وبنيت قناطر (زفتي) وقناطر أسيوط وقناطر إسنا، وأقيم خزان أسوان سنة ١٩٠٢م، وقد بلغ طوله ألفين ومئة وستة وخمسين متراً وارتفاعه عن قاع النهر ثمانية وعشرين متراً وصار يتسع لألف مليون متر مكعب من الماء وزيد في بنائه سنة ١٩١٢م حتى صار متسعاً لضعف ما كان يتسع له من الماء سابقاً، وفي عهد عباس استعيدت السودان والانجليز يجب ذلك ويرغب فيه لينع النفوذ الافرنسي من أن يصل إلى السودان وقضي على الحركات والمقاومات التي قام بها التعايشي وحزبه ووقعت في =

ونشأت في عهدِ الأحزابِ
وكلَّ يومٍ والخلافُ يتسعُ
وبعد الانتدابِ للمستعمرِ
وفي اتفاقهم مع النحاسِ
وكان وفدياً وحزبُ الوفدِ
هذا ولما أن تُوفي الملكُ
تملكَ الفاروقُ وهو الآخرُ
والحربُ كانت في زمانِ فاروقِ

ومنهم الشيوخُ والنوابُ
والإنجليزُ للحقوقِ يمتزجُ
صارت حمايةً لهذا القدرِ (١)
زال عن البلادِ جُلُّ الباسِ
ظلَّ قوياً بعد موتِ سعدِ
ودارت الدنيا ودار الفلكُ
وهو الذي دارت به الدوائرُ
يخافُ منها سابقٌ ومسبقُ

= السودان اتفاقية ثنائية بين مصر والانجليز وبموجبها يرفع العلمان للدولتين و يكون الحاكم العام فيها انجليزياً ولا يعين إلا بموافقة مصر عليه ولما عزل الخديوي عباس في التاريخ المذكور آنفاً وقد مضت عليه إلى يوم كنت أنظم هذا الفصل خمسون سنة شمسية تقريباً سكتت عنه الألسنة وكفت الأقلام عن ذكره لأنه معزول، أما السلطان حسين كامل بن الخديوي إسماعيل وهو عم عباس حلمي فقد سلطنه الإنجليز بعد ابن أخيه واستمر إلى أكتوبر سنة ١٩١٧م وكان لعبة في يد المندوب السامي الذي كان يقال له المعتمد ولم تكن لهذا السلطان حول ولا قوة وما كان يعمل إلا بمقتضى ما تريده بريطانيا التي زجت مصر في الحرب العالمية الأولى واستغلت جميع خيراتها وكلفتها من الأعباء الثقيلة ما تنوء بحمله وليس لها من ورائه أية مصلحة ولم تكن السلطنة لحسين كامل إلا محض زور وكذب وما أبصر الانجليز بصناعة الكذب وخدع السياسة وبعد حسين كامل تسلطن أخوه أحمد فؤاد ابن إسماعيل أياماً قليلة ثم صار ملكاً على مصر حتى توفي في أبريل سنة ١٩٣٦م الموافق سنة ١٣٥٥هـ، وملك بعده ابنه فاروق على ما سيأتي :

(١) ظهرت في عهد فؤاد الأول الحركات الحزبية وبرز في عهده من الرجال المجاهدين أمثال سعد زغلول وإسماعيل صدقي ومحمد محمود وعلي الشعراوي وقبل ذلك ألغى الانتداب واستبدل بالحماية الانجليزية وحصل من العزل والنفي والسجن شيء كثير، وفي خمسة عشر مارس سنة ١٩٢٢م أصبح السلطان فؤاد ملكاً على مصر وبعد قليل ألغيت الحماية البريطانية ورجع سعد زغلول ورفاقه من منفاه بجزيرة سيشل وصار رئيساً للوزراء وألف حزب الوفد، والتاريخ حافل بثورة سنة ١٩١٩م وبالحوادث جزراً ومداً للانجليز في مصر على عهد الملكين فؤاد وفاروق.

وكيف لا والحرب عالمية ونشأت جامعة للعرب ونشرف اليوم على السقوط من بعد ما ضمت ثلاث عشرة بحرها الشعوب مكتوبة (١) تجمع بين مشرق ومغرب لخطياً في الرسم والخطوط من دول صغرى وأخرى كبرى (٢)

(١) في شهر أغسطس من سنة ١٩٣٦م تمت المعاهدة بين مصر والانجليز في وزارة مصطفى النحاس باشا ومعظمها كان في صالح مصر ونصت على وجوب انسحاب القوات البريطانية من جميع الأراضي المصرية ما عدا منطقة القناة وتمثيل بريطانيا لدى مصر بسفير في القاهرة بدل المندوب السامي واشترطت على مصر وجوب وضع مواصلات تحت تصرف القوات البريطانية وقت الحرب وتقديم ما يلزم لتلك القوات من مواد غذائية مقابل ثمن إلا أن تلك المعاهدة لم تتعرض لمشكلة السودان فظل الوضع كما كان يسيطر عليه الانجليز، ومات الملك فؤاد في إبريل كما تقدم وذلك قبل إبرام المعاهدة المذكورة بحوالى أربعة أشهر، وترأس مصطفى النحاس حزب الوفد بعد زغلول وظل الحزب قوياً ويكسب غالب الأصوات في الانتخابات بعد وفاة رئيسه الأول سعد زغلول في جولاي سنة ١٩٢٧م إلى أن ذهبت الأحزاب كلها وذهب أمرها في أول عهد الثورة الجديدة، وبعد وفاة الملك فؤاد نصب ملكاً بعده ولده فاروق وهو آخر ملوك هذه الدولة ودام إلى ثلاثة وعشرين جولاي سنة ١٩٥٢م وعزل وانتهى أمر هذا البيت والدوام لله الذي لا يزول ملكه ولا يتغير سلطانه. وفي عهد فاروق كانت الحرب العالمية الثانية بين الحلفاء الغربيين الانجليز وفرنسا وأمريكا وروسيا ومن يتبعهم ودول المحور ألمانيا وإيطاليا واليابان ومن يتبعهم واصطلى بنار هذه الحرب كثير من الشعوب والدول التي لا ناقة لها في الأمر ولا جمل، وكانت مصر تابعة للانجليز ومسلمة لهم القيادة ولولا عناية الله لدخلتها دول المحور بقيادة رومل الألماني الذي وصل بقواته إلى العلمين وأوشكت مصر أن تسقط صريعة بين يديه ولا فائدة لها في تلك الحرب غير أنه كان عليها المغمم ولبريطانيا الفائدة والمغمم ومن الشعوب التي ذاقت ألم الحرب واحترقت بنارها في الشرق الصين وأندونيسيا وبورما وفي الغرب والشرق الأوسط بولندا وفنلندا وكثير من دول أوروبا الشرقية وليبيا والحبشة، ورب ضارة نافعة، ولما جاءت الهزائم وانكسر محور الحلفاء استقلت هذه البلدان وذهب عنها الاستعمار، والله تعالى في خلقه شؤون وهو العالم بما كان وما سيكون.

(١) نشأت فكرة الوحدة العربية في أول العقد الرابع من القرن الرابع عشر أو الثاني من القرن التاسع عشر وذلك أثناء الحرب العالمية الأولى وشعر العرب بقسوة الحكم =

وقام لليهود في فلسطين حكمٌ به تعترفُ الشياطين والحربُ بينهم وبين أهلها دامت على جبالها وسهلها

= وكثرة الظلم من الأتراك الذين كانوا يحكمون البلاد العربية بصور مختلفة فأروا الحاجة ماسة إلى الوحدة وجمع الكلمة وقام بالثورة الشريف حسين بن علي صاحب الحجاز وقد اشتدت الكراهية للأتراك في نجد واليمن وكان يعد الإنجليز بمنصرة هذه الحركة وقيام الامبراطورية العربية ضد الامبراطورية العثمانية ولكنها لما انتهت الحرب العالمية الأولى وانتهى أمر العثمانيين نقض الإنجليز يده من مصافحة العرب وقلب لهم ظهر المجن ومع حلفائه ولا سيما الافرنسيين بددوا هذه الفكرة وقسموا البلاد العربية أقساماً كثيرة واشتغل كل جزء بما فيه، ونكبت فلسطين بالانتداب البريطاني عليها كما وعدت بالوطن القومي لليهود الصهانية فيها، وفي الحرب العالمية الثانية وقد أصبح للعالم العربي شأن يذكر ومكانة لا بد للإنجليز من صداقة معها، مركز عسكري هام ومعادن كثيرة ينتظر خروجها وتبادل تجاري يستفيد منه كلا الجانبين فقرروا مساعدة العرب على تكوين وحدة اقتصادية وثقافية وسياسية وصرح رئيس وزراء الإنجليز المستر ايدن في أواخر مارس، سنة ١٩٤١م باستعداد حكومته لتوحيد الأقطار العربية بعد تقديم مقترحات كثيرة ومناقشات طويلة بين ملوك العرب وزعمائهم وأكد ايدن هذا الوعد في أربعة وعشرين فبراير سنة ١٩٤٣م وأخذت الفكرة تشب وتنمو وعمل كثيراً مصطفى النحاس باشا في السنتين التاليتين، وتم الاتفاق على إنشاء جامعة الدول العربية ووقعت الدول المستقلة المشتركة في الجامعة على ميثاقها المدروس في يوم اثنين وعشرين مارس سنة ١٩٤٥م في شهر صفر سنة ١٣٦٤هـ، وقد وضعت لهذا التاريخ جملة طيبة ويوافق عدد حروفها بالحساب الأبجدي قول الله جل ذكره (وأصلحوا ذات بينكم) وتتابع في الانضمام إلى الجامعة ثلاث عشرة دولة عربية آسيوية وأفريقية أو شرقية وغربية وهي مصر والسودان وليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى وسوريا ولبنان والأردن والعراق والسعودية والكويت واليمن وقريباً إن شاء الله تدخل فيها دولة الاتحاد في الجنوب العربي، إلا أن هذه الجامعة تصاب بالتصدع والهزات العنيفة حيناً بعد آخر وربما أشرفت على السقوط لخطأ صحيح أو لتوهم الخطأ في بعض بنود ميثاقها وحال كتابة هذا وبين أعضاء الجامعة العربية وحكومة تونس وعلى رأسها الحبيب بورقيبة خلاف شديد حول قضية فلسطين وقطع العلاقات الدبلوماسية بين العرب وحكومة ألمانيا الغربية المعترفة مؤخراً بدولة إسرائيل، ونسأل الله جمع الكلمة وأن لا يجعل للشيطان سبيلاً على هدم الكيان العربي والأمل كبير في الساسة والقادة أن يسووا صفوفهم وأن يحلوا مشاكلهم على ما يرام.

نحو ثلاثين من السنين
ومصرُ كانت تُكثرُ الكلاما
وكان هذا سبباً في العزل
وكان في الثورة أمثالُ نجيب
واشترك العُربُ بها عزيماً
وانهزمت من بعده انهزاما
بثورةٍ من جيشِ مصرِ الأهلي
ممن إذا دعا فصرُتستجيب (١)

(١) كانت فلسطين جزءاً من سوريا الكبرى وكانت تتنافس في احتلالها بعد العثمانيين دول كبرى لأهميتها الدينية والعسكرية ولما فيها من المقدسات التي يطمع كل في حمايتها وبسط نفوذه عليها، فالإنجليز البروتستانتيون يريدون ضمها إلى مصر والفرنسيون الكاثوليكيون يريدون ضمها إلى سوريا الشمالية وروسيا وهي أورثوذكسية تريد الاستيلاء عليها ولها بها مصالح ومؤسسات كثيرة، وقد كان الإنجليز يفكر في احتلال فلسطين من أول القرن التاسع عشر من أجل أن يحمي طريق الهند وبعد ذلك تكون فيها قاعدة عسكرية لضرب مصر التي يخاف منها أو يخاف عليها وكانوا يعدون لذلك عدته ولكن الظروف لا تساعدهم والتنافس الدولي لا يمكنهم مما يريدون، وقد ظهرت الفكرة الصهيونية وتحتضنها بريطانيا لتكون بها دولة يهودية في فلسطين وتحت الحماية، وما زالت المفاوضات مع السلطان العثماني والحيل الاستعمارية تمهد السبيل للهجرة اليهودية وجمع شذاذ الآفاق إلى هذا الوطن الذي سيتخذونه وطناً قومياً لهم وبلغ عدد المهاجرين في سنة ١٨٨١م خمسة وعشرين ألفاً وفي سنة ١٩١٤م ثمانين ألفاً، وأعلن الوعد المشؤوم وعد (بلفور) وزير خارجية الإنجليز يوم اثنين نوفمبر سنة ١٩١٧م بالوطن القومي اليهودي، والجمعيات الصهيونية تبذل قصارى الجهد وتبذل الأموال وتقوي الاتصال بينها وبين المستعمرين من أعداء العرب، وأهل البلاد الشرعيون يأبون ذلك ويرفضونه أشد الرفض والانتداب الإنجليزي الذي أقرته الأمم على فلسطين بعد الحرب الأولى يعمل جاهداً في إخضاعهم واستلامها، واليهود يشتررون الأراضي ويبدلون الغالي والرخيص ويستعدون لبناء دولتهم في أرض الميعاد كما يزعمون، وتستمر الحرب بين الجانبين ثلاثين سنة والمفاوضات جارية خلال هذه المدة وكلها ضد مصالح العرب سواء كانت في إنشاء حكومة فلسطينية مشتركة بين العرب واليهود والمسيحيين أو بتقسيم البلاد وإنشاء دولتين فيها، وكافح المجاهدون المسلمون كفاحاً شديداً وقتل منهم الكثير في ميادين الحرب وشنق وسجن وعذب آخرون، وفكرت الجامعة العربية في مساعدة الفلسطينيين وأرسلوا إليها الجيوش من سبع دول مصر والعراق وسوريا ولبنان والاردن والسعودية واليمن وكانت الآراء مختلفة والنيات غير مخلصه فانهزموا ويقال إن سياسة الغرب هي التي لعبت دورها في هذه الحرب وإن السلاح المستعمل بأيدي =

ومهمو جمال عبد الناصر كنا نراه ملأ عين الناظر
قد سجل التاريخ في القناة بذهب في صفحة الحياة
أما إذا تم بناء السد فإنه المجد وراء المجد

= المصريين كان ضعيفاً وفساداً وضرره أكثر من نفعه، وفي خمسة عشر مايو سنة ١٩٤٨م أعلن اليهود دولة إسرائيل على فلسطين واعترفت بها أمريكا المتحدة في سياستها وذلك بعد عشر دقائق من إعلان نيا الدولة الإسرائيلية وتتابع الاعتراف بها من نحو ثمانين دولة أصبحت عضواً في هيئة الأمم وشوكة مسمومة في جنب البلاد العربية، وتاريخ الصهيونية والأطوار التي مرت بها فلسطين يحتاج إلى كتابة الأسفار الكبيرة الخاصة به وقد أكثر الناس من ذلك وعلى ما تفيض به الكتب والصحف والنشرات في ذلك نعول وإليه نحول، ولما أدركت الجيوش المصرية خيانة المسؤولين في الجهات العليا ولم يتخلصوا من حصارهم في الفلوجة إلا بعد مئة وثلاثين يوماً ثارت حفائظهم وصاروا يفكرون في الانتقام من الملك فاروق ورجال دولته المثرين على حساب المصالح العامة والبايعين لضمايرهم الخائنين لأوطانهم بشراء تلك الأسلحة الفاسدة التي فتكت بقوادهم وجنودهم أكثر مما فتكت بأعدائهم، وبعد الهدنة التي عقدت بين العرب واليهود في جزيرة رودس احتفظت مصر بقطاع غزة كما احتفظ شرقي الأردن بالضفة الغربية الفلسطينية، وبقي اليهود يبنون مجدهم وينظمون أمورهم في فلسطين المحتلة وأنهم اليوم ليهددون بتحويل مجرى نهر الأردن ويطعمون في الاستيلاء على ما بين الفرات والنيل وإن يوم الخلاص منهم لقريب إن شاء الله، ونحن على ثقة بالله ومصدقون بقوله تعالى: (ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون).

وفي سنة ١٩٥١م ألغيت بين مصر والانجليز معاهدة سنة ١٩٣٦م وأخذ الأحرار من الشيوخ والنواب يتبرمون من فساد الأوضاع كما أخذ الفدائيون يهاجمون المراكز الانجليزية على قناة السويس ولحداثة الحرائق في القاهرة يوم ستة وعشرين يناير سنة ١٩٥٢م توسعت شقة الخلاف بين الشعب والحكومة والضباط العائدون من فلسطين يتشاورون في أمر الثورة والانتقام من الملك فاروق ورجاله ونظام دولته، وفي ثلاثة وعشرين جولاى من السنة نفسها أعلنت الثورة وعزل فاروق وفرحت مصر بذلك واستقبلته بالغبطة، وغادر الملك ميناء الاسكندرية في ستة وعشرين من ذلك الشهر، ونصب الطفل أحمد فؤاد الثاني ملكاً على البلاد تحت وصاية الأمير عبد المنعم وهاء الدين بركات ورشاد مهنا ثم ألغيت =

لولا اتباعه لشر مذهب
 قد حدد الملكية الصحيحة
 مؤمماً للشركات كلها
 وأبطل المحاكم الشرعية

في الاشتراكية ذات العطب
 وأسكت الألسنة الفصيحة
 لأهل مصر ولغير أهلها
 مستهزئاً بالدين والرعية^(١)

= الملكية تماماً في شهر جون سنة ١٩٥٣م وأعلنت الجمهورية بدلاً من الملكية وتعين لرئاستها السيد محمد نجيب المعروف بصلاحه وتدينه والمحجوب المطاع أمره والمستجاب له فيما يقول ومعه من الأحرار جماعة معروفون بإخلاصهم وحبهم لأوطانهم ولإقائته من الرئاسة وإعفاء كثير من أنصاره من مناصبهم أسباب يعرفها رجال الثورة، ونحن لا نذكرها كراهية للقليل والقال أو لأنها تخفى علينا حقيقة الحال، والكاتب النصف كالمأشي على الصراط المستقيم حتى يكتب له النجاة من الخطاطيف التي ربما أخذنه وسقط في النار، ورحم الله امرأ قال خيراً فغتم أو سكت عن شرفسلم.

(١) قبل أن نتحدث عن سيادة الرئيس جمال عبد الناصر وما قام ويقوم به من الأعمال في دولته نذكر لك نبذة من تاريخ حياته فهو أكبر شخصية عرفتها مصر بعد محمد علي باشا، وهو ابن عبد الناصر بن حسين بن خليل بن سلطان من قرية بني مر التي تبعد في الصعيد عن مدينة أسيوط بنحو أربعة كيلومترات، وأمه فاطمة بنت التاجر المقاول الفحم محمد حماد الصعيدى الأصل ثم الاسكندراني الموطن، ولد الرئيس جمال بمدينة الاسكندرية في شهر جنواري سنة ١٩١٨م ولما بلغ السابعة أرسله أبوه إلى عمه خليل حسين الموظف بوزارة الأوقاف في القاهرة وأدخله المدرسة الابتدائية مدرسة النحاسين بخان خليل، وفي ذلك السن كان قوي البنية طويل القامة أنيس المقابلة إلا أنها تعجبه الوحدة ويفكر أكثر من زملائه ولا يبالي بمطعمه ولا ملبسه ودراسته ولكن أمه كانت شديدة العناية به ومهتمة بكل ما هو من شأنه، ويقال إنه كان متأثراً بالفروق التي يشاهدها بين الطبقات المصرية من الخواجات والبشوات والرأسمالية من جهة والعمال والفلاحين من جهة أخرى ويذاكر والديه ويكتب إليهما الرسائل الكثيرة في الموضوع منذ طفولته وأمه معجبة به وكثيرة العطف عليه وقد مرضت في إبريل سنة ١٩٢٦م ونقلت من قرية الخطاطبة حيث يقيم أبوه عاملاً في مصلحة البريد إلى مدينة الاسكندرية وبها توفيت وانقطعت رسائلها، وخوفاً عليه من الجزن كتبوا عنه الخبر حتى رجع إلى أبيه وعرف موت أمه وخرج من مدرسة النحاسين في السنة الثالثة الابتدائية وألحقه أبوه بمجده محمد حماد والد أمه في الاسكندرية وللسنة الرابعة الابتدائية دخل مدرسة العطارين، وفي =

آه على جمال إذ تغيرا وأصبح المعتدي المستعمرا
وشب نار الإثم والعدوان بين أهالي شعبنا اليماني

= سنة ١٩٢٩م لحق بمدرسة حلوان الثانوية ثم بالمدرسة الثانوية في رأس العين بالاسكندرية، واشتغل بالسياسة وتأخر في الامتحان وكان يصاب بضربات العصي حين يشترك في مظاهرات الطلبة، والتحق بحزب الوفد في سنة ١٩٣٥م ولم تعجبه سياسة الوفدين ثم التحق بحزب مصر الفتاة تحت رئاسة أحمد حسين وكان ينادي ويهتف بشعار ذلك الحزب (مصر للمصريين) ولتأثره بمتابعة السياسة ومطالعة الكتب عن أمجاد الإسلام أصبح شديد الكراهية للانجليز واليهود والمستغلين لمصالح بلاده وكان يذاكر الطلبة من زملائه فيما يحيط بمصر يومئذ من الظروف والملابسات ويدعوهم إلى بيته وأحياناً يجتمع بهم في مسجد الشعرافي حيث كان يذاكر دروسه ويحتلي هناك بكتبه وبمن يشاركه في الرأي. ولما تخرج من المدرسة الثانوية فكر في الالتحاق بالكلية الحربية التي يؤمل بعد الخروج منها أن يكون جندياً متعلماً يعرف كيف يطالب بحقوق وطنه وكيف يدافع عنه واتخذ ما يلزم لذلك ولكنه لم يقبل في هذه الكلية فالتحق بكلية الحقوق وظل راغباً في الجندية التي قد يترقى منها إلى ضابط و بكباشي وأمير لواء فحاول مرة ثانية ونجح فيها يريد وأصبح طالباً متمتعاً بمكانة عالية في الكلية الحربية والفضل يرجع في ذلك إلى وكيل وزارة الحربية إبراهيم خيرى باشا الذي قبل من الطلبة أمثال جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وزكريا محي الدين وليس هؤلاء من الذين تتوفر فيهم شروط القبول لأنهم ليسوا من أبناء الباشوات وأصحاب المصالح ولا من صنائع القصر الملكي المسخرين في خدمة النظم العتيقة والدفاع عن رغبات المستبدين. وعلى الرغم من أن مدة الدراسة في الكلية الحربية تكون ثلاث سنين فإن صاحب الترجمة الملتحق بالكلية بعد مضي ثلاثة أشهر من سنة ١٩٣٧م قد استطاع أن يؤدي الامتحان بنجاح في مدة ستة عشر شهراً وأن يرقى إلى رتبة رئيس فريق. وأسندت إليه مهمة تأهيل الطلبة المستجدين في أول سنة ١٩٤٠م وهو في السودان. واشترك في الحرب الفلسطينية من يوم ستة عشر مايو سنة ١٩٤٨م وأصيب في الميدان بشظايا رصاصية وقعت في صدره وسلم منها وظل يتدرج في رتبة العسكريه ويستعد لها لما وصل إليه من رئاسة الجمهورية وهو في طليعة الثائرين على الملك فاروق بل إنه الذي دبر الانقلاب. وفي أيام اللواء محمد نجيب وهو رئيس للوزارة والجمهورية من سبتمبر سنة ١٩٥٢م إلى إبريل ١٩٥٤م كان جمال عبد الناصر في المنصب الثاني لرئاسة الوزراء ثم صار هو الرئيس: وفي سنة ١٩٥٩م كنت في مصر =

وأهزقت فيه الدماء الطاهرة
خسبون ألف عسكري بالسلح
واستنكرت صنعاء فعل القاهرة
يقاتلون في الجبال والبطاح

= أطلب المساعدة للمعهد العلمي الإسلامي بعدن، ومدحت الرئيس جمال عبد الناصر
بقصيدة طويلة منها:

حي الرئيس جمال عبد الناصر
حي الذي طرد البغاة وأخرج ال
ومضى بمصر لتستعيد حقوقها
حي الرئيس إذا تكلم قائلًا
والظلم كالأظلمات يبقى حالكأ
فيقود أمته ويرفع سلمأ
يا مصر قولي للرئيس وصحبه
بطل العروبة ملء عين الناظر
مستعمرين وهد عرش الفاجر
والحق تحت ظلال سيف باتر
لا مجد إلا للمريد القادر
حتى يجيء صباح جيش ثائر
ترقى عليه إلى السعيد الغابر
سيسجل التاريخ مجد الحاضر

ولي فيه أبيات كثيرة من قصائد أخرى مسجلة في الديوان الشعري، ومن أجل
أعماله تأميم قناة السويس الذي وقع نتيجة لغضب الدول الغربية من مبدأ الحياد
الإيجابي وعدم الانحياز إلى الأحلاف العسكرية المختلفة وذلك أن مصر قد عازمت على بناء
السد العالي بأسوان ووعدها بريطانيا وأمريكا بالمساعدات المالية عن طريق البنك
الدولي، ولما رأتا من التأثير القومي العربي أنه لا ينصاع للتهديد ولا يتراجع عما تقرر في
مؤتمر يوغسلافيا بينه وبين رئيس جمهوريتها المارشال تيتو ورئيس وزراء الهند البانديت
نهرو تأخرتا عن المساعدة التي كانت وعدت بها وظنتا أن في ذلك أعظم رادع عن الحياد
الإيجابي: ولم يجد الرئيس بدا من الانتقام فأعلن تأميم شركة القناة في يوم ستة وعشرين
يوليو سنة ١٩٥٦م، وفي الاحتفال بالذكرى الرابعة ألقى خطابه التاريخي الذي اهتزت له
الدنيا وعرفت أن لمصر تاريخاً مجيداً وأن أبطالها إذا أرادوا الأمر فعلوه ومما قاله جمال عبد
الناصر يومئذ: سني مصر عزيزة، ولهذا قد وقعت اليوم ووافقت الحكومة على القانون
الآتي:

مادة ١ - تؤمم الشركة العالمية لقناة السويس البحرية: شركة مساهمة مصرية،
وينتقل إلى الدولة جميع ما لها من أموال وحقوق وما عليها من التزامات، وتحل جميع
الهيئات واللجان القائمة حالياً على إرادتها، ويعوض المساهمون وحصة التأسيس
عما يملكون من أسهم وحصة بقيمتها، مقدرة بحسب سعر الإقفال السابق على تاريخ
العمل بهذا القانون في بورصة الأوراق المالية بباريس ويتم دفع هذا التعويض بعد إتمام =

وربما يقول بعض الناس من السعودية كم نقاسي

= الدولة لجميع أملاك وممتلكات الشركة المؤممة.

مادة ٢ — يتولى إدارة مرفق المرور في قناة السويس هيئة مستقلة تكون لها الشخصية الاعتبارية وتلحق بوزارة التجارة؛ ويصدر بتشكيل هذه الهيئة قرار من رئيس الجمهورية ويكون لها في سبيل إدارة جميع السلطات اللازمة لهذا الغرض دون التقيد بالنظم والأوضاع الحكومية؛ ومع عدم الإخلال برقابة ديوان المحاسبة على الحساب الختامي؛ يكون للهيئة ميزانية مستقلة يتبع في وضعها القواعد المعمول بها في المشروعات التجارية وتبدأ السنة المالية في أول يوليو وتنتهي في آخر يونيو من كل عام؛ وتعتمد الميزانية والحساب الختامي في كل عام بقرار من رئيس الجمهورية، وتبدأ السنة المالية الأولى من تاريخ العمل بهذا القانون وتنتهي في آخر يونيو عام ١٩٥٧م ويجوز للهيئة أن تندب من بين أعضائها واحداً أو أكثر لتنفيذ قراراتها أو للقيام بما يعهد به إليه من أعمال؛ كما يجوز لها أن تؤلف من بين أعضائها أو من غيرهم لجاناً فنية للاستعانة بها في البحوث والدراسات؛ يمثل الهيئة رئيسها أمام الجهات القضائية والحكومية وغيرها وينوب عنها في معاملتها مع الغير.

مادة ٣ — تجمد أموال الشركة المؤممة وحقوقها في جمهورية مصر وفي الخارج ويحظر على البنوك والهيئات والأفراد التصرف في تلك الأموال بأي وجه من الوجوه أو صرف أي مبالغ أو أداء أية مطالبات أو مستحقات عليها إلا بقرار من الهيئة المنصوص عليها في المادة الثانية.

مادة ٤ — تحتفظ الهيئة بجميع موظفي الشركة المؤممة مستخدميها وعمالها الحاليين وعليهم الاستمرار في أداء أعمالهم، ولا يجوز لأي منهم ترك عمله أو التخلي عنه بأي وجه من الوجوه أو لأي سبب من الأسباب إلا بإذن من الهيئة المنصوص عليها في المادة الثانية.

مادة ٥ — كل مخالفة لأحكام المادة الثالثة يعاقب مرتكبها بالسجن وبغرامة توازي ثلاثة أمثال قيمة المال موضوع المخالفة وكل مخالفة لأحكام المادة الرابعة يعاقب مرتكبها بالسجن فضلاً عن حرمانه من أي حق في المكافأة أو المعاش أو التعويض، إنتهى.

وكسبت مصر من فوائد القناة خمسمائة مليون دولار في خمس سنوات بدلاً من سبعين مليوناً كانت ستحصل عليها في المدة نفسها، واشتد حنق الدولتين الإنجليزية والفرنسية =

فصر تأتي بالسلاح والجنود كما تجيء من أولئك النقود

= واستعاننا بالدولة اللقيطة دولة إسرائيل على العدوان الثلاثي ودبروا له الحيل وبعد أخذ ورد في مجالس الدولتين ومع روسيا وأمريكا وفي هيئة الأمم المتحدة ارتكبت الحماقة واقتحم إيدن رئيس وزراء الإنجليز وزميله جي موليه الإفرنسي بجيوشها عرين الأسد في نوفمبر بعد التأميم بثلاثة أشهر وعشرة أيام وحاولوا فرض الاستعمار من جديد وأن يعودوا بمصر إلى ما كانت عليه من الضعف والمسكنة والتساهل منها بحقوقها الشرعية ولكنها فشلت المحاولة وثبتت مصر والدول العربية إلى جانبها ثبات الجبال الراسية أمام الأعاصير التي ما تلبث إلا ساعة ثم تنتهي، وكتب النصر للمؤمنين وأصبحت قناة السويس لمصر وليست مصر للقناة، وإنها لصفحة بيضاء من التاريخ يكتب محتوياتها جمال عبد الناصر بماء الذهب أو بأشعة الأنوار، وقد نجح في هذه القضية واستطاع بحكمته وبوقوف أمته لمؤازرته، أن يبني السد العالي وهو اليوم في إبان نهاية العمل. ولا حد للفوائد التي ستعود منه على المصريين صناعة وزراعة إن شاء الله وحقاً يكون ذلك كما قلنا (فإنه المجد وراء المجد) وجميع ما سجلناه بل ما يسجله غيرنا من كبار عطاء المؤرخين وكبار الكتاب يدل على عظمة الرئيس جمال عبد الناصر ويكسبه المقام الرفيع والتقدير العظيم في قلوب مواطنيه بل ومعاصريه حتى كاد لا يذكر اسمه إلا وتمتليء الأجواء بالهتاف والتصفيق إلا أن ظهور الاشتراكية الماركسية على يديه ودعوته إليها وتفضيلها على مبادئ الإسلام وتعاليمه كل ذلك حط من قدره وجعل الناس فريقين في متابعتهم ومخالفتهم وإنه ليقول في بعض خطبه وهي التي ألقاها بين يدي اللجنة التحضيرية في بور سعيد، إن اشتراكيته تقضي على فوارق الطبقات وتذويبها وتجعل وسائل الإنتاج والبنوك والمصارف والمصانع ملكاً للشعب أو الدولة الخ، ومعلوم أن الاشتراكية تحدد الملكية وتظلم الناس للناس وتحالف قول الله تعالى: ((نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون))، وفي القرآن مثل هذه الآية آيات كثيرة أخرى، وليس هذا الكتاب للمناقشات الدينية وإنما هو عرض لبعض ما كان أو يكون من الأحداث في عالمنا العربي والإسلامي مع الاحتفاظ فيه بالحياد الإيجابي وعدم الانحياز وبحكم القوة والغلبة جرد ذوو الممتلكات الصحيحة من حقوقهم ولم يبق لهم إلا بعض ما يكفهم، وسكت الخطيب وأمست الكاتب عن المعارضة رغبة أو رهبة وطمعاً في المستقبل الجديد أو سخطاً على الماضي المجيد، ويمقتضى ما تهدف إليه الاشتراكية فقد أمت البنوك والمراكز التجارية وأهم المصانع الإنتاجية ولا فرق بين أصحابها من المصريين والمسلمين وغير المسلمين، ومن أكبر ما يعاب على سيادة =

ولست أدري ما لأهل الحق قد صمتوا عن الكلام الصدق^(١)

= الرئيس عبد الناصر إلغاؤه للمحاكم الشرعية وتحويل اختصاصاتها إلى المحاكم المدنية ((ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون)) ومع هذا فقد ألغى قانون الأوقاف الأهلية، ونحن نعلم أنه لا يراد بهذا حسب الظاهر إلا القضاء على الفساد والضرب على أيدي القضاة المتلاعبين بأحكام الله حتى تظهر الحياة العامة من تلاعبهم وعبثهم، ولكنه عولج الشر بشر منه. والله المستعان.

(١) ونحن نأسف أشد الأسف لتغير الاتجاه السليم وخيبة الأمل الذي كان معقوداً على بطل العروبة ورائدها وقائدها الكبير أما تدخله في قضية اليمن وإرساله للقوات والمعدات الحربية إليها فذاك ما لا نعلق عليه بكبير شيء ولا نحب أن نجرح فيه خاطر أحد على حساب خاطر أحد آخر، ولكن الألوف المجندة والأسلحة الثقيلة المتعددة يقذف بها لغير حاجة في بلاد ضعيفة وهي ذات سيادة ولها حق تقرير المصير لا ينبغي لأحد أن يتدخل في شؤونها الخاصة وكيف ما كانت السياسة فيها فهي لا تعدو كونها بين شعب وحكومة أهلية، وقد ارتبك الأمر واشتبه الحق بالباطل في قضية اليمن بين مصر التي تؤيد الجمهوريين وترى أنه لا يد من القضاء على الملكيين وتعددهم رجعيين وحائلاً منياً بين التقدميين وبين ما يريدون من الإصلاحات ومجارات العصر، والسعوديون يقولون لسنا طرفاً ثالثاً في النزاع إلا أنه لا بد من إطعام الجائع وعلاج المريض ونصرة المظلوم الواجبة شرعاً وعقلاً وعادة، ولعلك تسمع منهم المستدل بقول الله جل ذكره ((فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تقيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينها بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين)) أما نحن فإذا سكنتنا على شيء فما هو بالسكوت على الباطل ولكنه تحويلٌ للواجب على من هو أقدر بالقيام عليه منا وأبصر بحقائق الأمور وسلامة العاقبة وصدق الله العظيم القائل ((تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين)).

ظهور الدعوة الإصلاحية في نجد

سنة خمس بعد عشر ومئة من بعد ألف سنين هجرية
 وُلد في نجد إمامها العظيم محمد نعم الإمام والزعيم
 كان أبوه عالماً كبيراً تكاد لا ترى له نظيراً
 وحفظ القرآن هذا الطفل وسئله عشر وقيل قبل^(١)
 وفي اكتساب العلم ظلَّ يرحل من بلدٍ لبلدٍ وينقل

(١) الدعوات الإصلاحية كثيرة في جزيرة العرب وغيرها من البلاد الإسلامية، وتكون تلك الدعوات دينية وسياسية وعلمية واجتماعية ولكل جانب من الإصلاح رجاله المعروفون بصبرهم وثباتهم وجهادهم في سبيل ما يدعون إليه يتفانون في ذلك ويتحملون فيه الأذى ويبدلون فيه النفس والنفيس، ومتى صحت العقيدة وآمن صاحبها بشرف الغاية هانت عليه الشدائد واستسهل الصعاب، وما أظن أحداً يخلص لمبدئه كإخلاص المتدين الذي يقول بلسان حاله ومقاله ((ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً)) وهؤلاء يبشر النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله» ومنهم الزعماء الكبار المجددون لما درس من معالم الحق والهدى، والله يبعث على رأس كل مئة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها، وعلى رأس المئة الثانية عشرة من الهجرة بعث الله المصلح الكبير والزعيم العظيم الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي التيمي النجدتي المولود في عيينة سنة ١١١٥هـ، كان أبوه عالماً فاضلاً من علماء الحنابلة، وبيته شريف وأسرته كريمة وربما كان الشيخ عبد الوهاب مفتي أهله والعالم المحترم في قومه، أما ولده محمد الذي نعينه في هذا الفصل فهو الذي حفظ القرآن العظيم وهو في العاشرة من عمره وقيل إنه تم له حفظه قبل هذه السن، وكثير من علماء المسلمين والتاريخ مليء بذكرهم من حفظ القرآن في ما بين السابعة والعاشرة من عمره. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وكان في المدينة المنورة
ومهمُ وقد أخذَ الأسانيدَ
فاقَ على الأقرانِ في المزاملة
وشاهدَ الأمرَ الذي لا يُرضى
من خطأٍ في الرأي والعقيدة
فالناسَ يَطلبون غيرَ الصمدِ
فقال لا إلهَ إلا اللهُ
له رجاك في تمامِ المقيدة
لما رأوا فيه المفيدة المستفيدة
وافتخرتَ بعلمه الحنابلة
ولا تذوقُ العينُ فيه الغمضا
والسيرِ في الطرائقِ البعيدة^(١)
ويستغيثون بكلِّ أحدٍ
حقاً ولا ربَّ لنا سواه

(١) ابتدأ الشيخ طلب العلم على يد والده ومشايخ بلاده ثم ارتحل إلى الحرمين الشريفين مكة والمدينة وتلمذ فيها لجملة من المشايخ الكبار يجمع ويحصل حفظاً وكتابة مع ما أوتي من فهم ثاقب وذكاء خارق يطالع الكتب الفقهية وفي أصول الفقه والدين ويعتني بدراسة الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ممن يعتد بأقوالهم ويقتدى بأفعالهم أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وقد أخذ الأسانيد عن العلماء وأجازوا له في الرواية، ومن أشهر مشايخه في المدينة المنورة عبد الله بن إبراهيم النجدي وأبو المواهب البعلبكي وعن الأول أخذ كتب الحديث واتصل بإسناده إلى علماء الحنابلة مثل ابن مفلح وابن رجب وفي أسانيده أبو العباس بن تيمية وعبد القادر الجيلاني وأبو الوفا وابن حامد وابن عقيل، وسافر في طلب العلم إلى البصرة ومكث بها أربع سنوات ثم إلى بغداد وبها أقام خمس سنوات ثم إلى كردستان وهمدان وأصفهان ومدينة قم، ولم تتجاوز دراساته العلوم الإسلامية الفقه والتفسير والحديث والتصوف، وحصلت بينه وبين بعض مشايخه خلافات في العقيدة وإنكار البدع وفي مسائل أخرى ومن هؤلاء شيخه محمد حياة السندي في المدينة المنورة وطبيعي لا بد أن تكون خلافات بينه وبين علماء العراق وإيران لما هنالك من البدع وقاذورات الشرك والوثنية عدا ما هنالك من خلافات بين السنين والشيعة والفقهاء والمتصوفين، وتفوق ابن عبد الوهاب على أقرانه وبرع على زملائه وكثير من أساتذته، وافتخر به علماء الحنابلة وهم المشهورون بالشدة في الحق والتصلب في متابعة السنة وجاء هذا الشيخ كثير العلم واسع الاطلاع قوي الحججة وطويل الباع وحق لأهل مذهبه أن يفتخروا بمثله وماله في العصور الآخرة من مثيل.

وحاربَ الشُّركَ ولا يُبالي
وحاولَ الأحرازَ والسعيْدُ
وطاردوه من مكانٍ لمكانٍ
آوى إلى الدُّزعيَّةِ الحصينةِ
حين التقى الشيخُ ابنُ عبد الوهاب
جَدَّ الملوكِ من بني سعوْدِ
وانتصر التوحيدُ في الجزيرةِ
من جاعلي القبورِ كالأصنامِ
على يَدَي آلي سعوْدِ الحماةِ

بعملاءِ الشُّوءِ والجهالِ (١)
أن لا يقولَ الشيخُ ما يريدُ
حتى رأيتَ أمره وكيف كان
وفجَّرَ اللهُ بها معيَّنَه
بسيِّدِ لِداعي الحقِ استجاب
فذلَّتِ الأنعامُ للأسودِ
على دعاةِ الفرعِ والعتيرةِ
والمتأثرينَ بالأوهامِ
حماةِ هذا الدينِ من شرِّ الغلاةِ (٢)

(١) ولكثرة ما ظهر من منكرات الذنوب في العقائد والأعمال كالتوسل والاستغاثة بغير الله ونداء المخلوقين في الشدائد ولما لا يقدر عليه إلا الله وحده تعالى، ثم يكون عند قبور الأنبياء والصالحين من استلامها والطواف بها ووضع الثياب عليها وأكل ترابها رفع الشيخ عقيرته بالإنكار ورفع صوته بالتوحيد لا اله إلا الله يفسر للناس معناها ويحذرهم من مخالفة الأعمال للأقوال ومن الأعمال الجاهلية وما ظهر في أيامه من الشرك والثنية، ويعيب على العلماء سكوتهم وعدم إنكارهم لما هو صريح في مخالفة الآيات والأحاديث ويحتملهم التبعة ويدكرهم قول الله تعالى: «وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه الآية». فظهر من بعضهم العناد وتعصبوا للباطل وأقروا كثيراً من الأعمال المخالفة لصريح القرآن وعابوا على الشيخ ما يقوم به من الواجب ونسبوا إليه منكراً من القول وزوراً، وحسبوه شاذاً عن الإجماع ومخالفاً لما عليه السواد الأعظم وما كان إجماعهم إلا على الباطل وما كان سوادهم الأعظم إلا على سواد الاثم والفسوق والعصيان فصمد لهم وقام في وجوههم ولا يبالي بمخالفتهم ولا بما نسبوا إليه من التهم ولقد قالوا فيه إنه يحقر الرسول صلى الله عليه وسلم ويحط من قدره ويكره الصالحين ويكفر المسلمين بغير مكفر وفي أولئك وأمثالهم يصدق قول الله تعالى: «إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم».

(٢) وبعدهما رجع الشيخ من رحلته الطويلة وتنقلاته بين نجد والحجاز والعراق وإيران وكان يريد مواصلة الرحلة إلى الشام ولكنها قصرت به النفقة ومنعته قلة ذات يده =

وما تزل الحرب بين الأمراء منهم وبين غيرهم من الورى
حتى توفى الله هذا العالم والحامل الأقلام والصّورما

= من المضي في سبيله ومواصلة رحلاته إلى مختلف الأقطار رجع بعد ذلك كله إلى الإحساء وأقام بها مدة ثم ذهب إلى (حريملا) وكان أبوه قد تحول إليها من عيينة ومات بها سنة ١١٥٣هـ، وهو يخاف على ولده من صراحته في الحق ويأمره باللطف وأن يكتبني بالنصيحة دون مهاجمة الناس ولم يرض الشيخ رحمه الله إلا بتابعة خطته والجهر بدعوته فلي من الناس الأذى ورجع إلى مسقط رأسه بعيينة واتصل فيها بالأمير عثمان بن حمد ابن معمر وتفاهم معه ووعدته بالنصرة والتأييد والشيخ يعده بخير الدنيا والآخرة ويشره بالغبلة على أعدائه وأن يكون ملك نجد إذا هو استجاب لله ونصر دينه ((وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)) وفي بادئ الأمر وقف ابن معمر مع الشيخ وساعده على هدم القبة المعظمة في بلاده قبة زيد بن الخطاب رضي الله عنه، ولكن القبائل غضبت من هذا وهددت ابن معمر بخلعه ونفض أيديهم من طاعته فنكص على عقبيه وقال للشيخ لا طاقة لي بمقاومة الناس ولكن انج بنفسك واذهب حيث شئت، وحاول الأغرار من العبيد والأحرار أن يقتلوا الشيخ وأن يتخلصوا منه ولو بسفك دمه، كما حاولت قريش أن تفعل بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة ((وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)) فسار ينتقل من مكان إلى مكان ويحتسب عند الله ما يلقاه من الاضطهاد وما يعانيه من فلان وفلان مع الغربة وقد بدأ الدين غريباً وسوف يعود غريباً كما بدأ، فطوفى للغرباء الذين يحبون ما أمات الناس من السنة، وأخيراً قصد الدرعية وأوى ذات ليلة إلى مسجدها ولقي الشيخ محمد بن سعود بن محمد بن مقرن جد العائلة السعودية فاستضافه وبات عنده وعرض عليه دعوته وأخبر ابن سعود امرأته بكلام الداعية ابن عبد الوهاب فاستحسننت ما قال ورغبت زوجها في إيوائه ونصرته، وشاء الله أن يتم بين الشيخ العالم والأمير الصالح عقد الاتفاق على ما يجب لحماية الإسلام والدعوة إليه والدفاع عنه، بيد أن الأمير اشترط على الشيخ شرطين لا بد منها الأول الصحبة الدائمة وأن لا يفارقه إذا ظهر أمره واستجاب الناس له. (الثاني) في أن يترك له ما يعتاد من الضرائب والإتاوات المالية التي يأخذها من أتباعه وقبائل بلاده، وقبل الشيخ الشرط الأول وقال (الدم الدم والهدم الهدم) وعلى ذلك نجيا ونموت إن شاء الله. أما الضرائب فسوف يغنيك الله عنها ويرزقك من الغنائم وأموال أعدائك ما هو خير لك وأكثر نفعاً وأحل كسباً، ومن الدرعية بدأ العمل الجدي وظهرت الدعوة الإصلاحية على ما يرام وانتصر المحمدان ابن عبد الوهاب وابن سعود ثم =

من بعد ما جدّد أمرَ الدينِ
ومات في شوالٍ عامٍ سنَّته
ألّف في الإسلامِ خيرَ الكتبِ
وسار في طريقه من بعده
عبد العزيزُ بنُ سعودٍ الأول
إن تسأل التاريخَ عن أنبيائه

للناسِ ثانيَ عشرَ القرونِ
وقد عرفتَ وصفَه ونعتَه
لأهله من عجمٍ وعربِ
آلِ سعودٍ وولّاءه عهده
وبعدَه ابْنُه سعودُ البطل
تجدّه سرَّ الله من آبائه (١)

= أولادهما من بعدهما على عبّاد القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج يشبهونها بالأصنام و يتعبدون عندها بالخرافات والأوهام وأولئك هم دعاة الفرع والعتيرة والمتقربون بمختلف أنواع العبادة لغير الله تعالى في طول الجزيرة العربية وعرضها متمسكين بما بقي من عادات الجاهلية التي أبطلها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (لا فرع ولا عتيرة) والفرع هو المذبوح من الأبقار للأصنام والآلهة طلباً منهم للبركة في أنعامهم وما تولد منها، والعتيرة هي ما يذبحونه في شهر رجب لغير الله تعالى، وحقاً إن آل سعود قد صاروا حماة الدين وهم الأسود التي لا يستباح عرينها بل إنهم الأمراء والملوك ولا يستضعف دينها، وجزاهم الله عن الإسلام خير الجزاء سابقاً ولاحقاً.

(١) لم تنته الحرب ولم تقف المقاومة عند حد بين الموحدين وغيرهم ولم يقبلوا الصلح على فعل شيء وترك شيء، ولا عند طاعة المخالفين للأمراء فيما يكون لهم على الرعايا، بل استمر الحال في الهجوم والدفاع حتى كتب النصر وظهرت أماراته لآل سعود وآل عبد الوهاب، وامتد سلطانهم ورفرفت أعلامهم على كثير من الجهات، ولم تنقض حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وينتقل إلى رحمة الله إلا وقد ظهرت دعوته ورضي بما وصلت إليه واطمأن قلبه وأينعت ثمرات جهاده بالسيف والقلم، فهو المجاهد والمقاتل وهو العالم الواعظ الكاتب المجادل إذا حمل السيف فن بني تميم، وإن حمل القلم فهو الكاتب العظيم، وله مؤلفات نافعة ورسائل مفيدة ككتاب التوحيد في حق الله على العبيد، والأصول الثلاثة وكشف الشبهات، ومختصر السيرة النبوية، وإذا جاءت المناسبة أو سنحت له الفرصة كتب داعياً ومرغباً لمن يتوسم فيه الخير ومحذراً ومخوفاً للذين لا تنفع فيهم إلا القوة ولا تنحني رؤوسهم إلا للسيف.

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف في موضع الندى =

نشأة الدولة السعودية وحالها اليوم

لم يك هؤلاء إلا أمرا
وأصبحوا الملوك والسادات
وكلُّهم قرعان من محمد
عبد العزيز فابنه سعود
أعظم بعبد الله في القتال
حتى تبوءوا مقاعد الذرا
والبالغين أشرف الغيات
نجلي سعود المؤمن الموحد
ثم ابنه وفضله مشهود
إذا التقى أبطال بالأبطال^(١)

= وتوفي رحمه الله في شهر شوال عام ستة ومئتين وألف، وقد عرفت كيف كان في صبره وجهاده وفي علمه وشجاعته وعبادته، ثم إن الحق لم يمت بموته، ولكن آل سعود الثاني بعد الأول وأولاد الشيخ كذلك استمروا في القيام بواجب الدعوة وكان الأمير بعد أبيه عبد العزيز بن محمد بن سعود ثم ولده سعود بن عبد العزيز، والولد سر أبيه، وبإذن الله نقص عليك من أبناء آل سعود ما تيسر في الفصول الآتية: ((قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين)).

(١) آل سعود ملوك الجزيرة العربية، وقواعد مجدها ودعائم عزها، وأصولهم من شيبان وشيبان من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان وهم أخوان مضر الذي ينتهي إليه نسب النبي محمد صلى الله عليه وسلم، والمتبوء لعرش هذه المملكة اليوم هو صاحب الجلالة فيصل بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن تركي بن عبد الله بن محمد ابن سعود بن محمد بن مقرن بن مرخان بن إبراهيم بن موسى بن ربيعة بن مانع بن المسيب، ومانع هذا هو الملقب بالمريدي، وكان يسكن بلدة الدروع من أعمال القطيف وتحول إلى أرض المليبيد وغصيبة قرب الدرعية واستقر هناك مع صحبه في حوالي سنة ٨٥٠هـ، وذلك قبل خمسمئة وأربع وثلاثين سنة وهناك مساكن آل سعود وآباؤهم الاقربون، وتقدم لك كيف كانت صلة الشيخ ابن عبد الوهاب بالأمير محمد بن سعود الموصوف بالمؤمن الموحد (في البيت الثالث) الذي تنسب إليه العائلة السعودية وله عدة أبناء أشهرهم الفرعان المنحدرة منها العائلة المالكة الحالية وبنو عمومته من قبلهم والفرعان =

سَلَّ عَنْهُ إِبْرَاهِيمَ بَاشَا الْقَائِدَا
وَكَيْفَ كَانَ الْحَرْبُ فِي الدَّرْعِيَّةِ
وَلَوْ سَأَلْتَ التُّرْكَ وَالْمِصْرِيَّةَ
لَوْ كَانَ عِنْدَهُ مِنَ الْقَوَاتِ
مِثْلُ الَّذِي عِنْدَهُمْ لَرَدَّهُمْ
وَبَعْدَ مَا ظَالَتْ عَلَيْهِ الْحَرْبُ
سَلَّمَ لِلْبَاشَا بِعَهْدِ اللَّهِ
أَرْسَلَهُ إِلَى أَبِيهِ الظَّالِمِ
ثُمَّ إِلَى خَلِيفَةِ الْأَسْتَانَةِ
وَحَكَمُوا عَلَيْهِ بِالشَّنْقِ وَلَمْ
كَيْفَ رَأَى صَابِرًا مُجَالِدًا
صَادِقَةً بِالرَّاعِي وَالرَّعِيَّةِ
عَنْهُ لَقَالُوا أَسَدٌ وَدَاهِيَّةٌ
فِي الْخَيْلِ وَالسَّلَاحِ وَالْأَقْوَاتِ
إِلَى بِلَادِهِمْ وَقَلَّ حُدُّهُمْ
وَانصَرَفْتُ عَنِ الْأَمِيرِ الْعَرَبِ
وَمَكَرَ الْبَاشَا بِعَبْدِ اللَّهِ
عَمْدِ الْمَعْرُوفِ بِالْمُظَالِمِ
تَحْتَ سِتَارِ الْمَكْرِ وَالْخِيَانَةِ
يَرَوْنَ لِعَبْدِ اللَّهِ حَقًّا يُحْتَرَمُ (١)

= هما عبد العزيز بن محمد وأخوه عبدالله ومن الأول سعود بن عبد العزيز ومنه ولده عبد الله بن سعود المعروف بالبأس والنجدة والشجاعة، وسيأتيك خبره مع إبراهيم باشا المصري، أما عبد الله بن محمد بن سعود فهو والد الأمير تركي جد الأمير عبد الرحمن والد الملك عبد العزيز رحمه الله، وما كان آل سعود إلا أمراء في نجد ورؤساء لقبائلهم يمتد سلطانهم أحياناً وينكمش أحياناً، حتى جاء مفردهم العلم ومؤسس دولتهم إمام الوهابية أولاً ثم سلطان نجد والحجاز وملحقاتها ثم ملك المملكة العربية السعودية عبد العزيز الذي سنتحدث عنه بما تيسر من طيب ذكره وصادق خبره لا حياً فيه وفي أسرته فحسب ولكن لأنه رجل وقته وباني مجده بيده والذي يصح فيه قول الشاعر:

أنا الذي شرف الدنيا بطلعته وشيد الملك حتى قارب القمر
وسوف ترى من الأثر ما يصدق الخبر ونسأل الله الصواب ونعوذ به من شر كل مسرف كذاب.

(١) ابتدأت الحرب بين الترك والمصرية من جانب وبين السعوديين من جانب آخر وذلك في عهد السلطان محمود الثاني سنة ١٢٢٦ هـ إلى سنة ١٢٣٣ هـ، وقواد السلطان في هذه الحرب محمد علي باشا وولده طوسون وإبراهيم والأمير السعودي يومئذ هو سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود، وكانت الانتصارات كلها أو جلها للأمير سعود ثم لولده =

وبعدَه تحوّل الأمرُ إلى مَنْ رَفَعَ البَيْتَ إلى أَوْجِ العُلا
وذاك تركي بنُ عبدِالله مُصارِعِ الخُطوبِ والدَّواهي
وبينه وبينَ أهلِ نجدٍ كابنِ معمِرِ ضياغِ الجَهدِ
بالحربِ حتى زادَ الارتباكُ وسلطتْ عليهم الأتراكُ

= عبد الله في حياة أبيه وبعده، وقد توفي الأمير سعود في شهر جمادى الأولى سنة ١٢٢٩هـ، وخلفه في الحكم والإمارة والقيادة ولده عبد الله الذي صارع إبراهيم باشا لمدة أربع سنوات بين كَرِّ وفرِّ، وتقدم وتأخر، وأبلى فيها بلاء حسناً وصمد للقوة الجبارة التي يقودها إبراهيم باشا وفيها من الجنود الأشداء والخيل الجياد والسلاح الثقيل المدافع والقنابل والمتفجرات الكثيرة مع ما هنالك من الحبوب وطعام العساكر وعلف الدواب والإمدادات المتوالية التي كلما سحق منها جانب جاء بعده أكثر منه، وبرغم أن الطبيعة بشمسها المحرقة وصحارها القاحلة قد ساعدت كثيراً على الانتصارات لآل سعود ضد تلك الجيوش المجهزة بوسائل الهجوم والدفاع في النقل والمواصلات فإن قوة الأمير عبد الله قد ضعفت وتفرقت عنه معظم القبائل خوفاً مما يروونه من شدة عدوهم وما معه من الذخائر والأقوات، وقد فتنت بعض القبائل النجدية بالوعود الكاذبة والعهود التي سرعان ما تنتقض أو طمعاً في الأغطية التي تصل إليهم من القاهرة والآستانة، حتى أحيط بالعاصمة النجدية مدينة الدرعية وحوصرت مدة طويلة وضربت بالمدافع وهدمت ديارها واحتلت حصونها وقلاعها وسقط الجمل الغفير من رجالها البواسل قتلاً في الميادين وأسراً في المعارك مما جعل الأمير عبد الله بن سعود الذي لو كان له أكثر مما كان معه من المال والرجال لثبت للقتال مدة أطول ولربما دحر به العدو، جعله ذلك يضطر للتسليم ومصالحة إبراهيم باشا، وكانت شروط الاتفاقية لا تمس بكرامة نجد وأمرائها السعوديين ومنها أن يذهب عبد الله بن سعود إلى الظالم الكبير والجبار الفتاك الشهير والي مصر محمد علي الكبير وفعلاً ذهب إليه ولم يقبل بعض الشروط التي تم الاتفاق عليها مع ولده إبراهيم بل طالب بوصول إخوة الأمير عبد الله وأن يهدم ما بقي من حصون الدرعية ومعاقبها الحربية ثم إنه بعث بالأمير السعودي المستسلم إلى الآستانة وبقي فيها قليلاً حتى أمر السلطان محمود الثاني بقتله شنقاً على باب القسطنطينية يوم ستة عشر نوفمبر سنة ١٨١٨م الموافق سنة ١٢٣٣هـ، وكنت أود ذكر المعارك من أولها إلى نهايتها باستسلام عبد الله بن سعود ولكنها طويلة وأخبارها مفصلة في الكتب الموضوعه لها فراجع الكتب عنوان المجد، =

يَمْضِي أَمِيرٌ وَجِيءَ آخِرُ
يُسِيمُهُمْ خَسْفًا وَرَبًّا يَرِيدُ
وَانْتَصَرَ الْإِمَامُ تُرْكِي نَضْرًا
مِثْلَ ابْنِ اخْتِهِ الَّذِي قَدْ اسْتَمَرَ
لَكِنَّهُ قَتَلَهُ مِنْ بَعْدُ
مِنْ بَعْدِ مَا أَدَى صَلَاةَ الْجُمُعَةِ
وَلَمْ يَتِمَّ لِمَشَارِي مَا أَرَادَ
وَمَعَهُ الْعِتَادُ وَالْعَسَاكِرُ
قَضَاءَهُ عَلَى رَجَالِ التَّوْحِيدِ
جَاءَ بِبَعْضِ أَهْلِهِ مِنْ مِضْرَا
فِي ظِلِّ خَالِهِ عَلَى خَيْرٍ وَشَرِّ
وَنَقَدَ الْخَطَّةَ فِيهِ الْعَبْدُ
وَيَثَسَّتِ الْوَقْعَةُ تِلْكَ الْوَقْعَةُ
وَاللَّهُ لَا يُصْلِحُ أَعْمَالَ الْفَسَادِ^(١)

= وتاريخ السعوديين والثورة والهابية، وتاريخ نجد للأوسمي وغيرها كثيره بيد أن عواطف الكتاب والمؤرخين تختلف، فالمستشرق من الغربيين والمصري والشامي والعراقي والنجدي والحجازي يستعرضون الحوادث حسب نزعاتهم وميولهم الطائفية؛ وربك أعلم بمن هو أهدي سبيلاً؛ ومن قبيح ما يذكر إذا صح أن إبراهيم باشا لم يكتف بقتل الأمراء والجنود المحاربين بل عمد إلى العلماء وحمله الشريعة فأفناهم قتلاً وأوجعهم ضرباً؛ ومنهم الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب الذي أرسل إليه بجماعة من الموسيقيين ليعزفوا بين يديه بالآلات نكابة به واحتقاراً له؛ وأخيراً يجر إلى المقابر ويقتل هنالك والله المستعان.

(١) تحول الأمر من الأمير عبد العزيز بن محمد وأولاده إلى ابن أخيه تركي بن عبد الله بن محمد جد الملوك من آل سعود وذلك أنه لما تم أمر الدرعية والاستيلاء عليها، وقتل عبد الله بن سعود وكان ابن عم أبيه في (حايير السبيع) وقد بلغه قيام محمد بن معمر وأنه يكاتب القبائل ويطلب مبايعتهم لنفسه، وقد سار إلى الدرعية واستخلف على الرياض ولده مشاري بن محمد، فركب الأمير تركي في جماعة من صحبه إلى (ضرمي) وشعر به ابن معمر وحاول أسره ولكنه فشل في المحاولة واستعد الأمير تركي للعمل الإيجابي في استرجاع أمر البيت السعودي، وكان قد حصل خلاف بين ابن معمر ومشاري بن سعود بن عبد العزيز وانتصر ابن معمر وأسر عدوه وتقرب بذلك إلى الأتراك الذين وصلت منهم جماعة إلى القصيم بقيادة (أبوش أغا) وأقروه على عمله وكاد يصبح الأمير الأوحدي في نجد فاستعد لمتازلته الأمير تركي وزحف على الرياض وأسره مع ولده مشاري وطلب منهم إطلاق ابن عمه مشاري بن سعود ولم يقدر على ذلك لأن القبائل قد التزمت بتسليمه إلى الأتراك، وبقي في سجنه حتى مات، أما محمد بن معمر وولده =

وقام في نجد الإمام فيصلُ بعد أبيه وهو نغم الرجلُ
وبعده كانت حروبٌ داميةً بشرّها على البلادِ راميةً
واستسلم الفيصلُ بعد الشدّة وبعضُ أهليه وعاش مُدّة

= مشاري فقد أمر تركي بقتلها ونفذ الحكم فيها وأصبح كل شيء بعد الله على معظم البلاد النجدية للأمير تركي المستعيد مجد آبائه والمتغلب على أعدائه وخصمائه من العرب والأتراك في شهر ربيع الأول سنة ١٢٣٥هـ، وزحف عليه فيصل بن الدويش الأول مع القائد التركي خليل أغا، ولكن السعودي هزمهم شر هزيمة وردهم عن الرياض خائبين واستمر فيصل الدويش مع صحبه في غزو البلاد ونهبها حتى كثرت الفتن وعصي الأتباع رؤساءهم واحتل الأمن ونهبت الأموال وزاد القتل واستفحل الشر إلى نهاية سنة ١٢٣٧هـ، والقواد الأتراك حسين بك وحسن بك ومعهم عبد الله الجمعي من أهل نجد وآخرون من الضباط والرؤساء يسمون الناس خسفاً وينزلون بهم سوء العذاب قتلاً وضرباً وسجناً وهتكاً للأعراض ويخرجونهم من ديارهم وأموالهم بغير حق، ولم يقف الفساد والاضطهاد والأعمال الوحشية في مكان واحد من البلاد، ولكنه بين رغبة والداخلة وجلاجل والتوم والحوطة والمجمعة وحرملًا وسدير، وكان أبوش أغا في هذه البلدة الأخيرة ونزل بقواته في قصر جلاجل وفرق جنوده في تلك الأرجاء فكانت أعمالهم أشد خزيًا وإجراماً ومن قتلاء تلك الحوادث عبد الله بن مانع وعبد الله بن حميد من أهل الدرعية، ومات فيها بالضرب سليمان الحر وزامل بن ثنيان، وضرب الأتراك في بلدة (ثادق) عبد الله بن حيدر وعبد الرحمن بن ماجد حتى توفيا، وفي حرملًا سجن الشيخ عبد العزيز بن سليمان بن عبد الوهاب ونهب بيته ومكتبته الضخمة وكان فيها من الكتب الدينية والعلمية العدد الكثير فأخذ القاضي الزلي بعضها وأشعلت النار في البعض الآخر، وغير ما ذكرنا خلق كثير أبادهم التقييد والأسر والقتل والله عاقبة الأمور.

وما يزال الأمير تركي يراقب هذه الحالة وينظر إليها بعيني الحزن والألم حتى هب في رمضان سنة ١٢٣٨ هـ، من بلدة الحلوة ودخل بلدة عرقة في نحو ثلاثين رجلاً من قومه بغير سلاح واستقر فيها، وعلم به أمير شقراء حمد بن غيب وهب لمساعدته ومناصرته، ثم أرسل الأمير تركي أحد أقاربه مشاري بن ناصر بن مشاري بن سعود إلى سدير، وكتب إلى سويد بن علي صاحب جلاجل يطلب منه ما يقدر عليه من المال والرجال فلبى الطلب وجاء بما لديه فرفعت راية الجهاد واشتد ساعد الأمير تركي وسار بقواته إلى الرياض ومنفوحة وكان عاملاً عليها من قبل صاحب مصر رجل يقال له علي البهلوي =

في مصر وهو الرجل المثالي في طاعة الرحمن ذي الجلال
وقرَّ منها قاصداً بلاده مُواصلاً في قَصده جهاده
ومات قبل مئة من السنين وذلك في الثنتين والثمانين^(١)

= المغربي ودار القتال بين الفريقين شديداً وانهمز كثير من أصحاب الأمير تركي ولم يثبت معه أمام القوات المصرية وأعراب نجد إلا عدد قليل، وما زال في حربه مع القبائل حتى اشتد ساعده مرة أخرى في سنة ١٢٣٩هـ، وما بعدها وفي سنة ١٢٤١هـ نقلت من الأسر الأمير مشاري بن عبد الرحمن وجاء من مصر حتى لحق بخاله الأمير تركي وبعده جاء الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ وفرحت بمقدمه نجد كلها وعظمه الأمير تركي، واستقصى كثيراً من تلاميذه على مختلف أنحاء البلاد، وفي سنة ١٢٤٣هـ، تمكن من الهرب أيضاً فيصل بن تركي وفرح أبوه بسلامته ومقدمه من مصر فرحاً شديداً وقوي به زنده وإنما الشبل من ذلك الأسد، وكثرت الانتصارات في هذه السنة وكل من ناوأ الأمير تركي باء بالفشل، بيد أن حركات المفسدين كلما خدت نارها في مكان اشتعلت في مكان آخر ويعان على إطفائها حتى إذا تنكر مشاري بن عبد الرحمن لخاله الأمير تركي بعد المبالغة في إكرامه والحفاوة وأخذ يتصل برؤساء القبائل ويتنقل من بلاد إلى بلاد وهم يرفضون ولاءه والقيام معه على خاله الإمام الذي ظهر عدله وشمل الناس فضله فلبجاً مشاري إلى شريف مكة محمد بن عون واستعان به ولم يفعل معه شيئاً، فأظهر الطاعة ووسط الشفعاء بينه وبين خاله فعفا عنه وقيل عودته إلى العاصمة، وما زال يدبر الحيل ويفكر في القضاء على رب نعمته والمحسن إليه، وفي يوم الجمعة آخر ذي الحجة من سنة ١٢٤٩هـ قتل الأمير أو الإمام تركي بعد خروجه من المسجد إثر مؤامرة بين مشاري وبعض رجال الديوان وأحيط بالإمام تركي وهو يقرأ رسالة قدمت إليه وقد امتلأ ما بين المسجد والقصر بأصحاب الجريمة مخبئين في أماكن متفرقة وتقدم العبد إبراهيم ابن حمزة وأدخل طينجته في كم الإمام وأطلقها عليه وسقط يتضرج في دمانه، وخرج مشاري بن عبد الرحمن من المسجد وسيفه في يده مصلاً يتهدد به حتى وصل القصر فأخرج النساء والصبيان واستولى على كل شيء وطلب البيعة لنفسه ممن حضر ومن سائر الرؤساء وشيوخ القبائل كل في محله وبويع له طوعاً وكرهاً حتى من العلماء وآل الشيخ الذين اعتصموا بالمسجد ولم يخرجوا منه إلا بعد أن أرسل إليهم وأعطاهم الأمان وبعد العصر من ذلك اليوم تم تجهيز الإمام تركي وصُلِّي عليه في المسجد ودفن في مقابر الرياض رحمه الله.

(١) قام على بلاد نجد أميراً لشؤونها الدنيوية وإماماً لشؤونها الدينية الرجل المثالي =

وكان بين ولده خلافٌ رَوَتْ لَنَا أَخْبَارُهُ الْأَسْلَافُ
وَإِنَّمَا كَانُوا جَمِيعاً أَرْبَعَةً وَكُلُّ وَاحِدٍ يَخْوِضُ الْمَغْمَعَةَ

= والبطل النزالي فيصل بن تركي الذي أخذ بثأر أبيه وسار بسيرة الفضلاء من أهله وذويه، وكان غائباً عن الرياض في الإحساء يوم اغتيال والده، وفي أول سنة ١٢٥٠ هـ تمت له البيعة من أمراء العشائر ورؤساء القبائل، وأغار بهم على مشاري بن عبد الرحمن فقتله وقتل جماعة من أصحابه، وتمت له الإمامة في نحو ستة أسابيع من مصرع والده رحمه الله، ودام فيها قرابة ثلاث وثلاثين سنة، وله حروب دامية مع القبائل العصاة والمتمردين عليه من منازع في السلطة أو متمنع عن الزكاة والواجبات المالية، وفي أول سنة من إمارته كانت الحروب مع الدواسر، وفي سنة ١٢٥١ هـ كان الخلاف بين عبد الله بن علي ابن الرشيد وصالح بن عبد المحسن بن علي، الثاني معزول والأول مكانه وظهر ابن الرشيد على خصمه وطارده حتى قضى عليه وعلى أهل بيته في القصيم، ومن مصر في هذه السنة جاءت الحملات من مكة إلى عسير بقيادة أحمد باشا والشريف محمد بن عون فهزمت شر هزيمة وغنم الأهالي من مخلفاتهم شيئاً كثيراً وأرسلوا بها إلى الإمام فيصل مع ما هنالك من تأديب مانعي الزكاة ومقاتلتهم في روضة، التنهات، الواقعة في الدهناء، فقد خرج إليهم الإمام بنفسه وسمعوا بمقدمه فجاءوا إليه مستسلمين وأظهروا طاعتهم، وبعث إليهم من يأخذ زكاة أموالهم، وأرسل إليهم من يعلمهم الدين ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وفي سنة ١٢٥٢ هـ أرسل محمد علي باشا بقواته إلى ميناء ينبع وكانت قرابة ألفي جندي أو أكثر بقليل وهي تحت قيادة إسماعيل أغا وخالد بن سعود، وجمع الإمام لها جموعه واستنفر القبائل النجدية لمواجهة تلك القوات الغازية، ولتقدم المصريين أخذ النجديون يضعفون ويتفرقون عن الإمام وهو بحكمته يصالحهم ويرشيمهم ولكن الحالة بينه وبين خالد بن سعود وإسماعيل أغا تزداد سوءاً، والفتنة تتسع والحرب سجال يوماً لهذا ويوماً لذلك، ولما تفرق عنه أصحابه ولحق الكثير منهم بخورشيد باشا، اضطر للمصالحة واستسلم لخورشيد وبقي عنده مدة أشهر ثم أرسل إلى مصر مع ولديه عبد الله ومحمد وأخيه جلوي وجماعة آخرين من أهله وحكم عليهم محمد علي باشا بالبقاء مع من هنالك من السعوديين، فاعتكف الإمام في معتقله يصلي ويصوم ويتعبّد وقرأ القرآن وهو من حفاظه ليلاً ونهاراً، حتى أجل قدره وأعظم أمره الحراس والجنود المحافظون عليه وشاء الله أن يفر الإمام فيصل من معتقله وينزل بمن معه من فرجة في أعلى القصر بالخيال، وقد أعد المطايا فركبها وصحبه حتى وصلوا إلى نجد واستقبلهم الناس بعضهم بالطاعة وبعضهم بالحرب والتمنع، وكان قد ظهر في نجد أحد أبناء البيت السعودي وهو عبد الله =

ومنهـمُ الإمامُ عبدُ اللهِ
وبعدَه أخوه عبدُ الرحمنِ
وأهلُ هذا البيتِ في القياسِ
السيفُ والمصحفُ في أيديهم
وكان في نجدٍ عظيمَ الجاهِ
خيرُ محبٍ للسلامِ والأمانِ
مُخالفون لجميعِ الناسِ
والجودُ والإحسانُ مِنْ لَدَيْهِمْ^(١)

= ابن ثنيان بن سعود بن محمد بن مقرن واشتدت مقاومته واستمرت المقاومة حتى اعتقل في الرياض ومات في السجن وتمت الأمور للإمام فيصل بن تركي واستمر يؤدب العصاة ويردهم إلى الطاعة ويكرم الوافدين عليه ويعظم قدر العلماء والأدباء، ويجيز الشعراء مما أطلق الألسنة بالثناء عليه، واستدعى جميع مخالفيه إليه، ومن أشهر الذين مدحوه وأطنبوا في مدحه عند مختلف المناسبات الشيخ أحمد بن علي بن مشرف الإحسائي، ومن كلامه فيه:

أخوهمة في شامخ العز قد علت
أبو المجد وابن المجد والمجد أصله
إمام همام باسل باذخ العلاء
فأكرم به فرعاً سلالة مقرن
لقد نصروا دين الإله وقوموا
وأصبح بالمعروف يأمر أهلها
وأنصف للمظلوم من كل ظالم

ولهذا المادح في هذا المدوح قصائد غراء كثيرة، وتوفي الإمام فيصل بن تركي في سنة ١٢٨٢هـ وذلك قبل مئة سنة من نهاية هذه المنظومة رحمه الله.

(١) كان أولاد الإمام فيصل أربعة وهم عبد الله وسعود ومحمد وعبد الرحمن وتأمم بعده ولي عهده وأكبر أولاده عبد الله بن فيصل، واستعرت الحروب بينه وبين أخيه سعود، وظلت الانتصارات والهزائم تتوالى بين الأخوين، والقبائل دائماً لا تراعي إلا مصالحها من اكتساب المال والأخذ بالثأر وتغلب أحدهم على الآخر، وآل الرشيد يكادون يقضون على آل سعود ويتم لهم ملك نجد بأسره، واستمر سعود بن فيصل في مناوأة أخيه حتى مات في سنة ١٢٩١هـ، وكان أخوه الثالث عبد الرحمن قد استقر في الرياض بحكمها، والإمام عبد الله يرسل لمنازلته شقيقه محمد وينهزم عبد الرحمن ويترك الرياض لخلاف حصل بينه وبين أولاد الأمير سعود، وأخيراً يتصافى مع أخيه الإمام =

الملك عبد العزيز وما بعده

عبدُ العزيزِ بنُ سعودِ الملكُ
 في علمه وِجَلْمِه وفضله
 تَعَلَّمَ القرآنَ حتى أتقنَه
 خاض الحروبَ مُقبِلاً ومُدبراً
 قد فُتِحَتْ بسيفه الرياضُ
 كالجسدِ الواحدِ كلُّ عضوٍ
 حقٌّ لدينِ أهله مشتركٌ
 وحزمه وعزمه وعدله
 وعاش خمسةً وسبعينَ سنةً
 ودائماً في حربهِ مُنْتَصِراً
 في فِتْيَةٍ تُقْضَى بها الأغراضُ
 فيه محمدٌ أو ابنُ جَلوي^(١)

= ويلحق به في بادية عتبية، ويطلبان من ابن الرشيد العودة إلى الرياض وسمح لهما بذلك، وتوفي الإمام عبد الله في سنة ١٣٠٧هـ بالرياض، وبعد مخابرات طويلة وانتقال من مكان إلى مكان استقر المقام بالإمام عبد الرحمن ومن معه في الكويت إلى أن ظهر أمر ولده عبد العزيز الآتي ذكره في فصل خاص بتاريخ حياته، ولا شك أن أهل البيت السعودي معروفون مشهورون بالكرم والشجاعة والعلم والعبادة، وما منهم من أحد إلا وهو يحمل كتاب الله لتلاوته والعمل بما فيه، ويحمل السيف لمقارعة الخطوب ومصارعة الدهر وأمرهم كما يقول الشاعر:

يا أيها القوم الذين تقدموا
 أهديكموني السلام تحية
 وتقمصوا بحامد وتعمموا
 وجميع من عندي عليكم سلموا
 وإذا مدحتكمو فحق واجب
 والمدح إرث بينكم لا يقسم

ونسأل الله دوام أمرهم وخلود ملكهم على خير ما يرام تحت راية التوحيد وفي ظل الإسلام.

(١) ولد الملك عبد العزيز بن سعود في ذي الحجة باتفاق المؤرخين قبل ليلة العيد وقيل ليلة عشرين وقيل ليلة سبع وعشرين من سنة ١٢٩٧هـ وقيل سنة ١٢٩٩هـ والظاهر أن الأول أصح، وكان مولده في الرياض بقصر والده عبد الرحمن أيام الفتنة =

وحيث هزَّ للقتالِ السيفُ كان على أهلِ الكويتِ ضيفا
وابنُ الرشيدِ في بلادِ نجدِ عدوُّه الباذلُ أفصى الجُهدِ
في حربِهِ وحربِ صاحبِ الكويتِ إن قالَ هذا بعثُ قالَ إذا اشترِبُ

= واضطراب الأمور في نجد بين آل سعود بعضهم البعض وبين آل الرشيد، ولا شك أن هذا الملك مثل الماء والشمس والهواء حق مشترك بين الناس ولا سيما العرب والمسلمين، والشركة بينهم فيه من ناحية الدين الذي حبا وربا عليه ونشأ ومات، وهو ينصره ويدعو إليه ويدافع عنه، وهم شركاء في سائر صفاته التي جبل عليها وتخلق بها وشمل بها الناس، وأعطى رعيته وجميع من في ولايته نصيبهم من العلم الذي نشره وفتح له الجامعات والمدارس، وحلمه الذي عفا به عند القدرة وصفح به عن المسيئين، وفضله الذي أشبع به الجائع وكسا به العريان وأكرم به الضيف والوفاد، واشتهر به وهو فقير وقليل ذات اليد وملأ به الأفواه والأيدي والحزائن بعدما أغناه الله ووسع عليه في دنياه، أما حزمه وعزمه وعدله فالكل يعرفونه فلا جبن ولا عجز ولا ضعف ولا محاباة ولا تقديم إلا لمن قدمه الله ولا تأخير إلا لمن أخره الله، يحكم بالحق ويحابه الشدائد في غير خوف ولا وجل، وإذا ظهر له الحق فلا تأخذ فيه لومة اللائمين، وفي الخامسة من عمره دفعه أبوه إلى شيخ من أهل الخرج ليعلمه القرآن وأكمله وأتقنه وهو في التاسعة، ولكثرة المحن والمصائب التي حلت بأهل بيته أرسله والده الأمير عبد الرحمن مع أفراد أسرته إلى البحرين ثم إلى قطر ثم إلى الكويت حيث اجتمع الوالد بالولد في ضيافة الشيخ مبارك ابن صباح، وفي تلك السن تعلم الفروسية والرماية واشترك مع أهله في الحرب بين صاحب الكويت وابن الرشيد، ولم يعبأ به من الحماسة والأخذ بالثأر وما يمليه عليه والده من التاريخ المجيد والماضي السعيد الذي كان لأسلافه مع أعدائه في نصرته التوحيد وفي محاربة الترك والمصريين وآل الرشيد ومن لف لفهم من القريب والبعيد. من أجل ذلك طلب الغزو في جماعة من أقاربه ومهاجرة ابن الرشيد المستولي على نجد والمتغلب على آل سعود، فطلب العون بعد الله من الشيخ مبارك الذي لم يمه إلا بمائتي ريال وثلاثين بندقية وأربعين ذلولاً، وخرج ينتقل في الأطراف ويتحول مستخفياً من مكان إلى مكان، وقد عزم على دخول الرياض واحتلالها مهما كلف الأمر ومهما يكن الثمن، واستطاع أن يدخلها ليلة الخامس من شوال سنة ١٣١٩هـ، وتم له ما يريد فدخلها وقتل أميرها عجلان الشمري من قبل ابن الرشيد ولم يكن معه إلا نحو أربعين رجلاً اختار منهم ستة للدخول من بيت إلى بيت ولتسلق السور حتى وصل إلى الأمير عجلان، وهؤلاء =

ثم تتابعته حروب جمة وراءها الخطوب مُذْهِمَةٌ
 قَضَى بِهَا الْبَيْتُ السُّعُودِي عَلَى آلِ الرَّشِيدِ ثُمَّ صَارُوا مَثَلًا (١)
 فِي خِلَالِ ثَلَاثِ الْأَيَّامِ دَسَائِسُ الْإِفْرَنْجِ وَالْأَرْوَامِ

= هم أخوه محمد بن عبد الرحمن وابن عمه ناصر بن سعود والأخوان عبدالله وعبد العزيز أبناء جلوي بن تركي واثنان من الخدم، وهم الذين شبهتهم بقولي كالجسد الواحد، في كل عضو منه نفس محمد بن عبد الرحمن أو عبدالله بن جلوي، وصدق الشاعر الذي يقول:

لا تحقرن امرأ من غير تجربة فرمما قام إنسان مقام فئة

وبعدما استولى على الرياض أقبل عليه الناس مبايعين ومهنتين، وأخذ يبني المجد ويرفع بنيان الملك مسالماً ومحارباً، والنصر حليفه كلما كثر أو قرأ أو أقبل أو أدبر (والله يؤتي ملكه من يشاء والله ذو الفضل العظيم).

(١) نهض الأمير عبد العزيز بن سعود في بداية أمره وهو وأهله في الكويت ضيوفاً على آل صباح، وأخذ يتدرج في عظمته حتى فتح الرياض وبايعه الكثيرون كما عرفت واستدعى والده الامام عبد الرحمن وأجلسه في المكان الذي خرج منه وأظهر له البر والطاعة ولم يعتبر نفسه إلا ولداً صالحاً هو وما يملك لوالده، وبينما هو مشغول بتدبير أمره وتنظيم ملكه إذا الخلاف يشتد بين الحكومة العثمانية والشيخ مبارك الصباح، وقد استعد لمقاتلته بأمرهم رئيس قبائل المنتفق، سعدون باشا في العراق، فكتب صاحب الكويت إلى عبد العزيز يستنجده ويطلب منه العون والنصرة فاستجاب له مسرعاً وسار إلى الكويت ووضع نفسه تحت أوامر شيخها، لا يخالف له رأياً ولا يظهر إلا السمع والطاعة، ولقد كان ينصح فما تقبل منه النصيحة ويشير بالرأي على ابن صباح فلا يقبل منه، ولكن وفاءه بالجميل جعله يصبر في الحرب إلى أن انهزم هو والجاهل بن مبارك أمام سعدون باشا ولا يفت ذلك في عضده بل أخذ يصبر الجيش ويثبت عزيمة الشيخ جابر بن مبارك، وحيث كان محمد بن عبد الله بن الرشيد هو عدوه الأكبر فقد استعد لمنازلته وأخذ يعمل الحيلة في القضاء عليه والتخلص من شره وسطوته، فبعد أن سلم الأمور لوالده خرج بجماعة قليلة من رجاله وأظهر أنه مختلف مع أبيه وأنه ما خرج من الرياض إلا مغاضباً له، وسمع ابن الرشيد بذلك فسروا متلاً بشراً، وخرج لمحاربة آل سعود فانهزم بين يديه عبد العزيز وعاد الكرة وانتصر على عدوه المحارب، وضم إلى مملكته الخرج والمحمل والشعيب والوشم في سنة ١٣٢٠ هـ ومن سنة ٢١ إلى ١٣٢٤ هـ والحرب بينه وبين =

طَهَّرَ مِنْهَا ابْنَ سَعُودِ الْأَرْضَا وَأَصْبَحَ الْحَقُّ صَرِيحاً مُخَضَّأ
 وَهُوَ الْإِمَامُ وَأَبُوهُ حَيٌّ يَصْدُرُ عَنْهُ أَمْرُهُ وَالنَّهْيُ
 وَبَعْدَ مَا احْتَلَّ رِيَاضَ نَجْدِ جَاءَ الْبَشِيرُ بِظَهْرِ السَّغْدِ
 وَشَكَرَ اللَّهُ أَبُو سَعُودِ إِذْ مِنْ بِالْفَتْحِ وَبِالْمَوْلُودِ (١)

= ابن الرشيد حتى ظفر به وقتل في روضة مهتا، واستلم القصيم من آل الرشيد وانتهى بذلك معظم أمرهم، ولكنهم اليوم موضع الحفاوة والتكريم عند آل سعود ولقد كان ابن الرشيد باذلاً أقصى الجهد في القضاء على من يخالفه لا فرق بين نجدي وكويتي بل الحرب كانت بينهم كسوق تجارة إن قال أحد منهم في شيء بعث هذا قال الآخر اشتريت، وكذلك الدنيا يعز فيها قوم ويدل آخرون (وربك يخلق ما يشاء ويختار).

(١) كان ابن سعود لا يرى بدأ من احتلال الإحساء وإخراج قوة الأتراك منها وتم له ما يريد، وأظهر من كرمه العربي وطيب سجيته ما جعله يعفو عن المحاربين ويحلي سبيلهم وقد رجعوا لمحاربتة من البحرين وما جاورها فهزمهم ثانياً وسلموا له مؤخراً ولم يؤاخذهم بسوء صنيعهم بل أكرمهم وفتح لهم الطريق ومكنهم من السفر إلى مكة وإلى مراكزهم البعيدة عن نجد، وفي الحرب العالمية الأولى كان العثمانيون مع ألمانيا ضد الانجليز وحلفائهم، والانتصارات إذ ذاك في جانبهم وابن سعود يفكر في مصيره إذا انتهت الحرب وانتصر الأتراك ماذا سيفعلون به، والانجليز يخضب وده ويعقد معه اتفاقية في سنة ١٩١٦م ويوقع عليها مندوب بريطانيا السير برس كوكس، وهي على حمايته وحماية بلاده من كل خطر يداهمها أو شرياد بها من الأتراك أو من الشريف حسين الذي يمينه بملك العرب وإقامة إمبراطورية له على سائر أنحاء الجزيرة وذلك في نظير ما يريده الانجليز من ابن سعود وهي بعد أن ذكر أنحاء بلاده التي يخاف عليها من أي تدخل أجنبي (نجد، والإحساء، والقطيف، والجبل) وملحقاتها والمرافئ التابعة لها على سواحل خليج العجم:

١ - أن لا تتخلى ولا تبيع ولا ترهن بأية صورة من الصور، ولا تشتري قطعة من الأراضي التي ذكرتها آنفاً ولا تمنح امتيازات بها لدولة أجنبية إلا بعد استشارتنا إذ ربما يكون في ذلك ضرر يعود على الحكومة البريطانية ومن الخبر لك أن تتبع نصائحها فيما لا يضر بمصالحك.

٢ - أن لا توصل الطرق المؤدية إلى البلاد المقدسة في بلادك، بل عليك أن تدعها مفتوحة في وجه حجاج بيت الله، وأن تحافظ عليها في أثناء ذهابهم إلى الأماكن المقدسة ورجوعهم منها.

وَلَمْ تَزَلْ تَتَّسِعُ الْبِلَادُ لِـمُلْكِهِ وَمُلْكُهُ يَزْدَادُ
فِي نَجْدِ وَالْحِجَازِ ثُمَّ فِي عَسِيرٍ وَالْخَيْرُ عِنْدَهُ كَثِيرٌ وَكَثِيرٌ

٣- أن تمتنع عن كل تجاوز وتدخّل في أراضي الكويت والبحرين وأراضي
مشايخ قطر وعمان وسواحلها وكل مشايخ الموجودين تحت حماية انجلترا والذين لهم
معااهدات معها.

٤- وفي حالة ما إذا كنت تريد استمرار هذه المعاهدة مع أبنائك من بعدك فيشترط
فيمن يخلفك أن يكون منتخبا من قبل الإمام الحاكم، وأن لا يكون مخلصاً لانجلترا
بوجه من الوجوه، أي أنه يجب أن لا يعمل ضد المبادئ التي تم الاتفاق عليها في هذه
المعاهدة.

ولقد رأى الأمير عبد العزيز أنه لا شيء عليه من هذه المعاهدة، واستشار فيها كبار
قومه وأولي الرأي منهم ووافقوا عليها لأنهم يومئذ ضعفاء وأعداؤهم كثيرون وفي إمكانهم
التخلص منها متى شاءوا حين ما يظهرون على من ناوأهم وبعد الخلافات الشديدة التي
كانت بينه وبين الشريف حسين وما يدبره له في الخفاء وما يصارحه به من العدا، ولا
سيما مع من بقي من آل الرشيد في حائل والجوف، استطاع أن يقضي عليهم وأن يضم إليه
بلادهم فجهز القوات لمحاربتهم وقاد بعضها بنفسه إلى أن استسلم عبد الله بن متعب
الرشيدي ثم محمد بن طلال فأواهم إليه وجعل لهم في الرياض خير مقر ومقام، متناسياً
كل ما مضى يحترم الكبير منهم احترام الأخ الصغير ويرحم سائر أفرادهم رحمة الوالد
لأبنائه الصالحين، وسيأتيك كيف تم له ضم الحجاز وعسير وملحقاتها إلى مملكته وكيف
نشر فيها التوحيد وطهرها من آثار الجاهلية حتى تمحض فيها الحكم بكتاب الله تعالى
وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وكان أبوه رحمه الله قد تخلّى له عن الإمامة وترك الدنيا
وتفرغ لعبادة ربه مع ما يمد به ولده من النصائح المفيدة والآراء السديدة، وفي سنة
١٣٢٢هـ بويع لعبد العزيز بالإمامة وأصبح الأمر النهائي المطلق التصرف في حياة أبيه
مع ما يعرف له من واجب السمع والطاعة والبر به والإحسان إليه، ومن غريب الصدف
أنه بشر بولادة ابنه الأكبر وولي عهده الملك من بعده سعود بن عبد العزيز وذلك ليلة ما
فتح الله عليه الرياض فاجتمعت له فرختان وهي الفتح المشهود ووجود ابنة سعود، وصح
له أن يتمثل بقول النبي صلى الله عليه وسلم «الله أكبر لا أدري بأيها أسر أكثر بفتح
خير أم بقدم جعفر».

وليس بالسرّ ولا بالخافي
أخذ الحجاز من يد الأشراف
أعني بهم آل الحسين والألي
صاروا ملوكاً يحكمون في الملا^(١)

(١) أما الحروب في نجد فقد عرفت كيف كانت وكيف انتصر الملك عبد العزيز في جميع مواقعها، وأما عسير فإن مؤسس إمارتها عايض بن مرعي اليزيدي كان تابعاً لحكام نجد يدفع إليهم الزكاة والخراج، ويدين بالمذهب السلفي وشأنه في ذلك شأن الموحدين الوهابيين، ولما ضعف أمر آل سعود وتفرق أولاد فيصل بن تركي وتغلب آل الرشيد انفصل أمير عسير عن نجد وأعلن فيها استقلاله وتولى بعده ابنه محمد وبسط نفوذه على غامد وزهران وغيرها من أطراف الحجاز واستولى على تهامي عسير واليمن وأفزع ذلك الدولة العثمانية فجهزت لمحاربتة قوة بقيادة رديف باشا وأحمد مختار باشا في سنة ١٣٣٥ هـ، واضطر إلى التسليم، وألحقت الدولة العثمانية بلاد عسير بممتلكاتها، واتخذت فيها مصرفية ومقرها في (أبها)، ولحربها مع الإديسي رأت أن تجعل الحسن بن علي بن محمد بن عايض معاوناً للمصرف في أبها لأنه من أهل البلاد وربما كان أبصر بشؤونها من المصرف التركي، وفي الحرب العالمية الأولى خرجت القوات العثمانية من عسير وترك كل شيء فيها للحسن بن علي المذكور فاستبد بالناس وجار في الأحكام وأظهر الفساد في الأرض، ولم ير أحداً يعارضه فيما يفعل أو يوقفه عند حده، ولكنه ارتفع الضجيج واحتجت عليه رعيته لما يجدون من سوء أعماله وتصرفاته. ولما انكسر الأشراف وانهمزوا هزيمتهم التكرء أمام القوات السعودية رفع أهل عسير شكايتهم إلى الملك عبد العزيز وطلبوا منه النجدة وأن يخلصهم من شر ابن عايض وظلمه في حكمه فبعث إلى جماعة من علماء التوحيد تقدم إليه النصيحة وتدعوه إلى متابعة الكتاب والسنة وتخوفه من الله وسوء العاقبة ونتيجة قول الله تعالى: «ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون» وقوله تعالى: «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون»، فاستخف بهم وبمن أرسلهم ورد عليهم أسوأ رد، وقال لهم أخبروا ابن سعود أنه إذا تدخل في أمرنا واتصل بقبايلنا فإننا سوف نغزوه في عقر داره ونسلب عنه ملكه، وكذلك يفعل المغرور، ويقول من لا يفكر في عواقب الأمور، ولما بلغ الخبر مسامع ابن سعود وقصت عليه بعثته ما سمعت من ابن عايض وبما رد به عليها استشاط غضباً وجمع أهل الرأي والمخلصين في المشورة وعرض عليهم الأمر فنصحوه بإرسال قوة تنصر المظلومين وتأخذ على يد الظالم لا سيما وهو يقدر بحمد الله على إزالة المنكر وتغييره باليد فضلاً عن القلب واللسان، فأرسل جيشاً للمهمة بقيادة عبد العزيز بن مساعد بن جلوي واستعد ابن عايض لمقابلته ولكنه انهزم بعد المعركة وفر =

يَحْكُمُ عَبْدُ اللَّهِ شَرْقَ الْأُرْدُنِ وَغَرْبَهُ كُلَّ الْقُرَى وَالْمَدَنِ

= من عسير بفلول من أهله وقبائله، وبفضل ما يوجد في أبيها وما جاورها من توحيد الله وحب طريقة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ثم بما نشره ابن سعود من العدل والإحسان والحكم بتعاليم الإسلام هدأت الحالة واستقر كل شيء على ما يرام، ورجع ابن عايض عن غيه فألقى السلاح وأظهر الطاعة للملك عبد العزيز فعفا عنه وأكرمه وأحسن مثواه وجعله من خاصته وعينه مستشاراً لعامله في عسير التي أصبحت تابعة بعد الله لابن سعود، وكان ضمها إليه في شعبان من سنة ١٣٣٨هـ، وكبر الأمر على الشريف حسين وحاول إفساد القبائل وأن يرد ابن عايض إلى محاربة ابن سعود وعصيانه وقد فعل واغتر بوعد الشيطان وما يعدهم الشيطان إلا غروراً، وأرسل الأمير فيصل لتأديبه واستمر يطارد في عسير حتى أنزله من حصنه المنيع في (حرملة) ولجأ إلى القنفذة، وطلب من الملك حسين بن علي المدد والقوة التي يحارب بها فأرسل إليه قوة بقيادة الشريف عبد الله بن حمزة الفعمر، ووقع في كمين سعودي فرق شمله ولم ينج من القتل إلا الشريد، وتم كل شيء على يد الأمير فيصل لوالده العظيم في صفر سنة ١٣٤٢هـ، وعاد إلى الرياض في جمادى من هذه السنة ولما عرف ابن عياض أنه لا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه سلم الأمر وطلب العفو واعتذر عما كان منه فقبل عذره وعفا عنه الملك عبد العزيز مرة ثانية وآواه إليه وجعله من خاصته :

وإذا ما عفوت عن أي شخص كان حرباً عليك صار أسيراً
لا يجبس ولا بقيد ثقيل غير عفوبه ملكت الأميرا

أما كل شيء مع ابن الرشيد فقد تم كما علمت في سنة ١٣٤٠هـ، وأما الحجاز فشاء الله فتحه والاستيلاء عليه لما ظهر من حماقة الملك حسين وسوء العلاقات بينه وبين مسلمي الهند المنتصرين للخلافة العثمانية والذين يحسبون الخروج عليها مفارقة للجماعة ومحاربة لله ولرسوله، ويعدون فساداً في الأرض، ولم يقع التفاهم بين الجانبين بحال من الأحوال، بل إنه يهزأ بهم ولا يحاول التفاهم معهم، وكذلك ما بينه وبين مصر حين منع وصول محمل الحج منها إلى الحجاز وعارض في كتابة اسم الملك فؤاد على كسوة الكعبة مرة يقول هذا شيء لا يتناسب مع قداسة الكعبة وحرمتها الدينية، ومرة بعد هذا تدخلت في شؤون الحجاز ومساساً بسلطته عليه وكل ذلك مع ما بينه وبين ابن سعود الذي ما ينفك يسبه ويطعن في دينه ومعتقده ويبيث ضده الدعايات المغرضة الموروثة من الأتراك وعلماء السوء من أعداء السنة وأنصار البدعة ومع ما يفعل من مساعدة آل الرشيد وآل =

ثم طلالاً بعدة حسين والعزم في الحسن لا يلين

= عائض في محاربة ابن سعود الذي أخذ يتوحد إليه و يتلطف به ويحاول تصفية الجويينه وبينه يستعين بالانجليز وهم حلفاء الجانبين، ويشهد المسلمين على ما يعامله به الملك، حتى إذا لم يبق في القوس منزع ولا من الأمر حيلة استعد لفتح الحجاز ومحاربة ملكه الذي لو كان يتعظ بما كان لكفاه ما حصل في (تربة) و (خرمة) بين ولده عبد الله والشريف خالد بن لؤي مع سلطان بن بجاد، فاستعان الله واستغل فرصة الخلاف بين الحسين وأعدائه فأوعز إلى القائدين الشريف خالد ورفيقه ابن بجاد بغزو الطائف ومعها حوالي ثلاثة آلاف من الجنود الأشداء (صبيان التوحيد واخوان من أطاع الله) الذين يعتقدون وجوب تطهير الحجاز من عبادة القبور والالتجاء إلى المخلوق في الشدائد، ولم يكن أحب إليهم من القيام بالمهمة والقضاء على من يخالفهم في ذلك من الحكام والرعية فبدأوا بقلعة (كلاخ) على حدود الحجاز وفتحوها ثم تقدموا في أول صفر سنة ١٣٤٣هـ إلى الحوية، وأمر الحسين قائد حربه صبري باشا بمقابلة الغزاة، وأرسل من حامية الطائف، بأربعمائة جندي في كامل معداتهم وقاوموا المهاجمين خمسة أيام، ثم تراجعوا إلى أسوار الطائف، وفرغ الأهالي وهم مصيفون هنالك وأرادوا الفرار والنجاة بأنفسهم ومنعتهم الحكومة وهدأت من روعهم، وجاء الشريف علي بن الحسين بجيش آخر لحماية الطائف والدفاع عنها وتقدم السعوديون حتى بلغوا أسوار البلد وفرغ الأمير عبد الله باشا فأمر الجند بفتح الأبواب وهرب على فرسه يطلب النجاة وسمع الشريف علي بهذا فانسحب هو أيضاً بن معه ودخل الغطف ليلة السبت سابع صفر واستعملوا السيف في الأهالي ونهبوا الأموال وحصلت مقتلة عظيمة سودت وجه التاريخ واستنكرها الملك عبد العزيز وعاتب القائدين على ما كان من الجيش الذي تبين أنها لا يستطيعان ضبطه ولا كف يده عن الإجرام وقتل الأبرياء، ثم أمر بوقف الزحف على مكة حتى يصل هو بنفسه ويفعل الله ما يريد أما الشريف علي الذي تمركز في (الهدى) وهو جبل بين مكة والطائف وعبر المسالك مرتفع عن سطح البحر بنحو ألف وثمانمئة متر، فإنه لما جاء خبر الموقعة وما نزل بالأهالي خاف أن يتقدم عليه السعوديون ولا يثبت لهم فتأخر بقوته وهي لا تزيد عن سبعمائة مقاتل وأمر المدفعية بالبقاء هنالك تحمي ظهورهم ريثما ينسحبوا بنظام فسمع الملك حسين بما طير ليه وأفرعه حتى كاد يفقد وعيه فأمر أهل مكة أن يستعدوا للقتال وأن يصمدوا أمام هذا العدو المهاجم وطلبوا منه أن يفتح لهم خزائن المال والسلاح ولكنه لم يجند منهم إلا مشين لكل واحد منهم بندقية وعشرة ريالات، وأمر ابنه علي أن يتراجع من عرفات إلى حيث كان وامثل الأمر وما كاد يصل إلى (كرى) حتى أقبلت عليه الجيوش ومعها من قبائل =

= الحجاز الساخطة على نظام الحكم الحسيني فصبوا الرصاص كالمنظر على المتراجعين من جيش الشريف عبي وأهل مكة الخارجين لمساندته فتفرقوا شذراً مذبذباً، وأمر الملك ولده الشريف على أن ينسحب إلى باذان بأعلى مكة، وطلب من الإنجليز أن يتدخل في الأمر ويمنع الوهابيين من الزحف على مكة ولكنهم تخلوا عنه ونفضوا أيديهم منه وصمم على القتال في شوارع مكة بل وصرح أنه سيدبر القتال بنفسه ولو في المسجد وتحت جدار الكعبة، وخاف الناس ودخلهم الذعر وقالوا مصيرنا اليوم كمصير أهل الطائف بالأمس، وهربوا إلى جدة وارتفعت أجور المواصلات وسافر الكثير منهم إلى مصر وسوريا ومصوع وأسمر وبورتسودان، ثم إلى عدن وجزائر الملايو، واجتمع أهل الرأي للمشاورة في جدة من أمثال محمد الطويل وطاهر الدباغ ومحمد نصيف وسليمان قابل وعبد الرؤوف الصبان والطبيب الساسي محرر جريدة القبلة، وصعب عليهم ما يفعلون إزاء الموقف المتحرج، الملك جبار وقوي الشكيمة وليس من السهل أن يتنازل عن العرش أو يخلع عن الملك لا سيما وأكثر الناس من أهل الحل والعقد قد غادروا البلاد وسافروا إلى الخارج، والموجودون منهم صنائع الحسين وأصدقاؤه الأقدمون، وفي رقابهم بيعة له، وأباديه بيضاء عليهم بل وعلى العرب معظمهم، فهو الذي حررهم من الأتراك ونفخ فيهم روح العزة والوطنية وذلك مما يخفف ظلمه ويقلل عثرته ويجعلهم يحكم دينهم وإخلاصهم لا يشقون له عصا الطاعة ولا يكفرون بسابق إحسانه إليهم ولكن المصلحة تقضي بتنازله عن العرش فتباحثوا طويلاً في تنازله عن الملك لولده الأمير علي حتى لا يظهروا بمظهر العداء للبيت الهاشمي ولا يعرض البلاد لفرض سيادة الوهابيين عليها، والحال أن قوة الدفاع ضعيفة وأن غلبة الهجوم ظاهرة محققة، ودرسوا الأمر من جميع نواحيه وتباحثوا فيه أولاً مع الشريف علي من أجل أن يكون عوناً لهم على أبيه فقبل الفكرة واعتذر من أن يكون هو الملك خشية أن يساء به الظن أو يتهم بالمواطأة على خلع والده الملك حسين وبعدهما أقنعوه رفعوا إلى الحسين برقية في أول ربيع الأول سنة ١٣٤٣هـ، هذا نصها:

مكة. صاحب الجلالة الملك المعظم.

بما أن الشعب الحجازي بأجمعه واقع الآن في الفوضى العامة بعد فناء الجيش المدافع، وعجز الحكومة عن صون الأرواح والأموال، وبما أن الحرمين الشريفين خاصة وعموم البلاد مستهدفة لكارثة قريية ساحقة، وبما أن الحجاز بلد مقدس يعني أمره جميع المسلمين، لذلك قررت الأمة نهائياً طلب تنازل الشريف حسين وتنصيب ابنه الشريف علي ملكاً =

= على الحجاز فقط، مقيداً بدستور ومجلسين وطنيين، فنرجو التكرم بتنفيذ هذه المكرمة إلى سابق خدماتكم للاسلام والأمة.

مولاي.

ووقع على البرقية مئة وأربعون رجلاً من الوجهاء والأعيان وفي نفس اليوم كثر الأخذ والرد بين الملك الوالد والملك الجديد ابنه علي، ثم بين الحسين وأهل جدة وعلى رأسهم سكرتير الحزب الوطني الحجازي السيد طاهر الدباغ وتبودلت البرقيات والمحادثات التلفونية إلى تمام الساعة الثالثة مساءً من يوم أربعة ربيع الأول، وانجلى الموقف عن تنازل الملك حسين وتفويض الأمر إلى الأمة تختار لها ملكاً من الأشراف أو من غيرهم ولا مانع من أن يكون علي بن الحسين هو الملك الدستوري إذا اختاره الناس وبايعوه، فكتب الحزب كتاباً للشريف علي يخبرونه بتنازل والده وأن الأمة تبايعه ملكاً على الحجاز بموجب تلك الشروط التي ذكروها في كتابهم، فشكرهم علي وطلب منهم التعاون على القيام بالواجب، وتشكك بعض الناس في تنازل الحسين والبيعة لعلي وحسبها خدعة سياسية وأرادوا شراً، وأبرق الحسين في صبيحة اليوم التالي، إلى الحزب الوطني يطلب المسارعة بإرسال من يتسلم الأمور فإنه مسافر إلى الخارج من جدة وأجيب بالموافقة على طلبه وأنه تعين من قبل الملك علي من يتسلم مهام الملك في مكة وما على الحسين إلا مغادرة البلاد احتفاظاً بكرامته ونفياً للشكوك واتقاء لما قد يقع من الفوضى لو تأخر الملك المتنازل عن السفر إلى حيث يريد، وبارح مكة إلى جدة في يوم عشرة من الشهر المذكور، وفي أربعة عشر منه ركب الباخرة المسماة بالرقتين، ومعه أهله وأفراد عائلته، وأبلغ ابن سعود الملك علي بأنه لا صلح ولا اعتراف بوجود أحد أبناء الحسين على الحجاز، وأخفقت الوساطات بين الطرفين وفي يوم خمسة عشر سحب الملك علي قواته من مكة إلى جدة وهي لا تزيد عن أربعمئة جندي وفتح الناس واستعدوا لهجوم الوهابيين وكاد الأعراب ينهبون مكة ولكن خالد بن لؤي وسلطان بن بجاد قد دخلا حدود الحرم يوم الخميس سبعة عشر ربيع الأول، ونودي بالأمان وطاف القائدان بالكعبة وأديا مناسك العمرة ولم يحصل لأحد ما يكره ما عدا كلمات جافة يسمعا أهل مكة من الإخوان الغطظ وهم أغلاظ جفاة لا يرون الناس إلا مشركين وعباد أصنام، ولولا خوفهم من الملك عبد العزيز لفعلوا بالناس في مكة أشد مما فعلوا بهم في الطائف، ثم وصل الملك إلى مكة حامداً شاكراً لله على نعمه، واجتمع بالناس عدة مرات وألقى فيهم الخطب مبيناً لأحكام الدين وموضحاً لسياسته التي ينتهجها والعقيدة التي من أجلها يجاهد، وتبودلت الرسائل بينه =

= وبين الملك علي ورجال الحزب الوطني بجدة ومع سفراء إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وهولندا وإيران، وأحيطت جدة بالأسلاك الشائكة وبت الألغام في الطرقات وخيف على الرعايا الأجانب أن يصيبهم شيء من الجيش المهاجم وتكون مسؤوليته على ابن سعود، فحاصر البلاد وضيق عليها الخناق ولم تجد شيئاً من المساعدات التي تأتيها من الملك حسين وأولاده من شرق الأردن والعراق، وكان الأمير عبد الله يسعى ضده والده المقيم يومئذ في عمان والعقبة ويتفاوض مع الانجليز في إخراج والده من محل إقامته خشية أن يستولي عليها ابن سعود ويضمها إلى ملك الأشراف الزائل عن الحجاز، وقد نجح في تدبيره وألزمت بريطانيا جلالة الملك حسين أن يسافر قبرص مع عائلته، ورجع إلى عمان وبها أقام حتى مات ونقل جثمانه إلى فلسطين حيث دفن بها، واستمر ابنه الشريف علي يدافع عن جدة ويطلب العون من أخويه فيصل في العراق وعبد الله في شرق الأردن ولم يفعلوا معه شيئاً وقلت ذات يده وأصبح لا يقدر على نفقات أهله فضلاً عن مرتبات الجنود وحاجيات الدولة، وفي يوم تسعة عشر جمادى الأولى سنة ١٣٤٤ هـ بلغه أن حامية المدينة المنورة قد سلمت وأن محمد بن عبد العزيز بن سعود قد احتلها وأقبل الناس للتسليم عليه وتهنته، فانهارت أعصاب الشريف علي واضطر للتسليم، وكتب لذلك شروطاً خمسة ووسط المعتمد البريطاني في إبلاغه إلى الملك عبد العزيز، واستأذن المعتمد حكومته في الوساطة فأذنت له، وأرسل بكتاب منه إلى ابن سعود مع شروط التسليم الخمسة وهي:

١ - إعلان عفو عام عن الموظفين الملكيين والعسكريين والأشراف، وكل من والى الحكومة الحجازية أو ناصرها من المدنيين وأهل القبائل، ويؤمنهم على أرواحهم وأموالهم.

٢ - ترحيل جميع الضباط والجنود الذين جيء بهم من الأقطار العربية إلى أوطانهم مع تأمين نفقاتهم ومصاريفهم السفرية، وأن يوزع عليهم مبلغ خمسة آلاف جنيه مكافأة لهم بنسبة معتدلة.

٣ - تأمين سائر الموظفين على وظائفهم وعدم إخراج أحد منها من عمله إلا بحجة أو سبب معقول.

٤ - سريان الشروط السابقة على جميع السكان والموظفين والضباط والجنود الموجودين في ينبع ما عدا المكافأة النقدية فإنهم لا يدخلون فيها.

وبين هؤلاء واليهود ما يترك الوالد للمولود (١)
وفيصل ملك في العراق يحكم فيها سائر الآفاق
ثم ابنه الغازي وبعد الغازي ولده الفيصل في الجهاز

٥ - الاحتفاظ بممتلكات العائلة الهاشمية في الحجاز لأصحاب الحقوق فيها بعدم الاعتداء عليها أو مصادرتها.

ونقل هذا إلى الملك عبد العزيز أحد الموظفين بدار الاعتماد البريطاني وهو المستر (منشيء) إحسان الله الهندي الذي أقام بعدن بقية عمره ومات فيها وله ممتلكات وأولاد بها، عمر وحمزة وفاروق ورضية المتزعمة للحركة النسوية في عدن، وقابل المعتمد البريطاني جلالة الملك ابن سعود في الموعد المحدد للمقابلة وتم الاتفاق على جميع مطالب الشريف علي وقال السعودي إنه مستعد لأكثر من هذا، ولو أن الشريف آوى إليه لأحله منه بالمحل الأعلى وربما كان سيجعله أميراً على جدة وطلب الملك علي من أخيه الملك فيصل أن يستقبله في العراق فرحب به وأرسل له باخرة تنقله مع أفراد أسرته وحاشيته فغادر جدة يوم أربعة جمادى الآخرة ومنها إلى عدن ثم إلى العراق وتم كل شيء في الحجاز لله ثم للملك عبد العزيز، والله الأمر من قبل ومن بعد، وسبحان الذي لا يزول ملكه ولا يدوم غيره، (وهو الذي جعلكم خلائف - ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم).

(١) من أولاد الملك حسين ولده الأمير ثم الملك عبد الله المولود في مكة سنة ١٢٩٩هـ، ونشأ في قصر أبيه وتعلم القراءة والكتابة مع أخويه فيصل وعلي، وسافر مع أهله سنة ١٣١٤هـ إلى الآستانة حيث نزلوا في قصر عظيم كان قد أهداه السلطان عبد الحميد للشريف حسين، ثم تعلم التركية وبرز في أدب اللغتين العربية والتركية وكانت له مكتبة فخمة جمعت من نفائس الكتب الشيء الكثير، قاد الحرب وخاض في السياسة إلى حد بعيد إلا أنه كان ضيق الصدر ملولاً، ويحب مجالسة البدو والأعراب أكثر من مجالسة الحضريين وأهل المدن، يلعب بالشطرنج، ويحب المساجلات الأدبية، وتولى إمارة شرقي الأردن في إبريل سنة ١٩٢١م، ومساحة شرقي الأردن أربعون ألف كيلومتر، ويحدها من الجنوب الحجاز ومن الشمال سوريا والعراق ومن الغرب نهر الأردن والبحر الميت وفلسطين ومن الشرق بلاد نجد، وأشهر مدنها (السلط، والكرك ومأدبة والطفيلة وأربد وجرش، وألحقت بها العقبة ومعان في سنة ١٩٢٥م وعاصمتها عمان) ويعول سكانها على الزراعة في معاشهم، ولها جيش نظامي، وحكومتها دستورية نيابية ديمقراطية، وكانت مشمولة بالحماية البريطانية، ونودي بهذا الأمير ملكاً عليها في خمسة =

وقد أبادت أهل هذا البيت نورة من يقضي بحكم الموت
على المليك بعد لبس التاج ثم على الزوجات والأزواج^(١)

= وعشرين مايو سنة ١٩٤٦ م، وبعد الحرب في فلسطين بين العرب واليهود قسمت البلاد
ثلاثة أقسام وصار منها غرب الأردن بما فيه القدس القديمة والمسجد الأقصى تابعاً لشرقي
الأردن، وذلك أن جماعة من رجال هذا القسم عقدوا جلسة سياسية في أريحا أول ديسمبر
سنة ١٩٤٨ م وقرروا ضم هذا القسم إلى شرقي الأردن تحت تاج الملك عبد الله وقبل هذا
القرار وأصبح الجانبان من الأردن شرقيه وغربيه مملكة هاشمية واحدة، ولموافقة دائماً
على سياسة الانجليز ومتابعته لخطتهم التي يضعونها ولو خالفت المصالح العربية فإنه قد
اغتيال يوم الجمعة عشرين جولاى سنة ١٩٥١ م - وهو داخل للصلاة في المسجد
الأقصى، وتملك بعده ابنه طلال، وأمه مصباح بنت عم أبيه الشريف ناصر، أما أخوه
ناثف بن عبد الله الذي كان وصياً على العرش لغياب ولي العهد في أوروبا للعلاج فأمه
شركسية الأصل، واستمر طلال في الملك إلى أن مرض أو مرض واتهم بالجنون فعزل
وتملك بعده ابنه (الحسين) المولود في أربعة عشر نوفمبر سنة ١٩٣٥ م، وبلغ السن القانوني
في اثنين مايو سنة ١٩٥٣ م، فبوع له بالملك واحتفلت بذلك البلاد حكومة وشعباً وهو
الموجود حالياً، وهو شخصية فذة وملك عبقرى لا يستهان بعرويته ولا يستخف بشجاعته
وحنكته السياسية، وقد تشرفت بمقابلته في شباط سنة ١٩٥٩ م في مهمة علمية تتعلق
بالمعهد العلمي الإسلامي في عدن، والعلاقات بين الأردن وحكومة إسرائيل سيئة للغاية
كغيرها من سائر الدول العربية خاصة في هذه الأيام والاعتداءات من اليهود متكررة،
وحكومة الأردن وعلى رأسها الملك الحسين الثاني لا تألو جهداً في الهجوم والدفاع واليهود
(كلها أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب
المفسدين).

(١) أما فيصل بن الحسين فأمه هي أم إخوانه الآخرين عابدية بنت الشريف
عبد الله باشا، وقد ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٠٢ هـ بعيد أخيه عبد الله بثلاث سنين،
ونشأ في القصر يتعلم كغيره من أولاد الأشراف على أيدي أساتذة مخصوصين لتربيتهم
وتعليمهم، فقرأ القرآن وعرف القراءة والكتابة والحساب وعلوم الآلة، وكإخوانه تعلم
الفروسية والرماية وتكلم باللغة التركية وتشبع بأدابها، وأرسله أبوه وهو في السادسة من
عمره إلى بلاد جده محمد بن عون قرية (رحاب) ومكث فيها ست سنوات أخرى بين بني
عمومته وأخواله يعيش عيشة البادية ويلبس ملابس أهلها، ويركب الفرس والبعير =

هذا وإن عُذْنَا إلى مَا قُدِّمًا فهَاكَ مِنْهُ الْبَاقِي الْمُتَمَّمَا
من مدخل الشيطان بين ابن سعود وابن حميد الدين أطراف الحدود

= ويضرب بالسيف ويطلق الرصاص، ويتمرن في قوة وجلد على ما يصيره مكملاً في رجولته صالحاً لما يسند إليه من المهمات ومجد آبائه وأجداده، ورجع إلى مكة وهو في الثانية عشرة من عمره، ومكث بها قليلاً يتعلم مع إخوانه في قصر أبيه ثم سافر إلى تركيا معهم، ورجع إلى الحجاز وكان أبوه يوليه قيادة الجيوش لتأديب العصاة ومحاربة المنشقين عليه من القبائل، وانتخب نائباً عن لواء جدة في مجلس النواب العثماني، ويحضر المجلس سنوياً ويمر بالقاهرة في ذهابه وإيابه، ويجتمع فيها بعضاء الرجال ويحتك بأولي الرأي وأقطاب السياسة وينتفع بتلك الاجتماعات ويحمل عنها ما ينتفع به شاباً وكهلاً، واشترك مع أخيه عبد الله في الحملة ضد السيد محمد بن علي الإدريسي ورفعوا حصاره عن أهباء، وكسروا قواته في عسير واشتهر الأمير فيصل في هذه المعركة بشجاعته وبطولته، وسافر إلى سوريا مع الحمل الشامى في سنة ١٩١٣م وذلك خوفاً على الحجاج من قطاع الطريق ولم يلق مكروهاً في سفرته بل اجتمع في دمشق بكبار المفكرين ودعاة الجامعة العربية، وزار سوريا مرة ثانية بعد سنتين من زيارته الأولى وهو في طريقه إلى الآستانة وعاد إليها بعد انتهاء الجلسة البرلمانية وبقي بها ضيفاً على آل البكري بدمشق إما ليكون معيناً لأحمد جمال باشا القائد العام في الشام إذا أراد أن يغزو مصر أو ليكون رهينة عند الأتراك إذا خرج الشريف حسين عن طاعتهم أو لأن السوريين كانوا يزينون له حمل والده على الخروج من مخالفة العثمانيين وأن يقيمها دولة عربية تنفض عنها غبار الاستعمار التركي الذي قتل ساسة العرب وكبار مفكرها، وفي شهر مايو سنة ١٩١٦م سافر من دمشق إلى مكة بطريق المدينة ليخبر والده بحدث السوريين وما يريدونه من الثورة العربية ضد بني عثمان، واجتمع في المدينة بأخويه ثلاثة أيام يتشاورون فيها ثم سافروا كلهم وتخابروا مع أبيهم وأعلنت الثورة العربية في عشرين جون تلك السنة الموافق تسعة شعبان سنة ١٣٣٥هـ، وسلمت حامية مكة وجدة وخرج الفيصل لمطاردة الأتراك حتى وصل إلى الوجه من شمال الحجاز ومنها إلى معان ثم صحراء الشام حتى دخل دمشق فاتحاً منصوراً في ثلاثين سبتمبر سنة ١٩١٨م واستقبل فيها استقبالا عظيماً وأقيمت له الزينات وسافر إلى باريس في نوفمبر لعرض قضية العرب في مؤتمر فرساي وعاد إلى الشام في ابريل سنة ١٩١٩م وألقى الخطاب الحماسية في بيروت ودمشق قائلاً: (إن الحرية تؤخذ ولا تعطى وإن استقلال كل أمة بيدها) ونودي به ملكاً على سوريا يوم ثمانية مارس من سنة ١٩٢٠م، وطرده الافرنسيون عنها في سبعة وعشرين جولاى بعد =

وبعدما كانت دماء العرب تذهب في الأرض وتحت الثرب
جاء الشيوخ المصلحون الأربعة من مصر والشام وكفوا المغمة

= أربعة أشهر من تملكه عليها، فسافر إلى إيطاليا ودعي منها إلى لندن وشرح فيها لعرش العراق بموجب اتفاقية عقدت بين الطرفين فرجع إلى القاهرة، ثم إلى الحجاز التي كان قد فارقها منذ خمس سنوات ومنها ركب باخرة إلى البصرة حيث نزل بها في يوم عشرين جون سنة ١٩٢١م ووصل إلى بغداد بعد ستة أيام، ونودي به ملكاً على العراق في ثلاثة وعشرين أغسطس، والعراق بلد عربي زراعي وفيه منابع الزيت وله منها دخل طيب وكل يوم يتحسن الدخل وتكثر العائدات من الزيت العراقي، وأشهر مدنه بغداد عاصمة العباسيين، وسر من رأى، والبصرة والموصل والسليمانية وكركوك والحلة وكربلاء والنجف، وتصدر العراق بعد سد حاجاتها كثيراً من التمر والحبوب، وسكانها عرب وأكراد وفرس ويهود ولكن طابعها عربي خالص ودينها الرسمي هو الإسلام، أما الملك فيصل فيذكر من عاداته أنه كان يستيقظ مبكراً ويذهب بعد تناول الفطور من قصره الخاص في الساعة السابعة صباحاً إلى البلاط الملكي قبل وصول الموظفين فيبدأ بدراسة ملفات الأوراق والتقارير التي ترفع إليه، ويطالع الصحف العربية وخصوصاً المصرية وما تكتبه عن العراق وسائر البلاد العربية وتقدم له قصاصات من الصحف الغربية، ولم يكن متخرجاً من مدرسة رسمية، وما يحسن إلا لغة آبائه أو اللغة التركية التي تعلمها من وصائف القصر ومرقيات الأمراء، إلا أنه في سوريا درس الفرنسية واتقنها، وفي العراق درس الإنجليزية وتكلم بها وخاطب أبناءها، ويقال إن شخصيته جذابة وحديثه حلو وأخلاقه كريمة متبسط في مطعمه ومشربه وملبسه، باراً بأهله محسناً إليهم ومتأدباً في مجلس أبيه حتى بعد أن صار ملكاً، وكان يقود سيارته بنفسه ويسافر في الطائرات ولم يكن إذ ذاك من ملوك العرب من يركبها غيره، وهو كثير الأسفار والتنقلات لا في نواحي العراق فحسب ولكنه سافر إلى أوروبا عدة مرات وإلى مصر وتركيا وإيران، وقد أنفق جميع أمواله على واجباته نحو أهله ورعاياه مع ما كان يتقاضاه من مرتب سنوي قدره اثنان وخمسون ألف دينار، وتزوج بالشريفة حزيمة بنت عمه الشريف ناصر باشا وولدت له الملك غازي وثلاث بنات، ولم يتزوج بغيرها، وتوفي في سويسرا يوم ثمانية سبتمبر سنة ١٩٣٣م، ونقل جثمانه إلى بغداد وفيها كان دفنه رحمه الله، وتملك بعده ابنه غازي وهو في الحادية والعشرين من عمره وهو المعروف بشجاعته وبطولته، حسن حالة الجيش وقمع الثورة التي قام بها بكر صدقي وتحسنت في عهده الحالة الاقتصادية، وتمت اتفاقية العراق =

فجعلوا لابن سعود نجراناً وجعلوا له بلادَ جازانَ
 وجعلوا تحتَ الإمامِ يحيى ما دونَ ذبني في البلادِ العُليا
 ولا أريدُ أنْ أفصلَ الخبرَ فالشمسُ لا تُدرِكُ في السيرِ القَمَرِ^(١)

= مع السعودية وكان أبوه قد وضع أسسها ومد يده للمصالحة وفي أربعة إبريل سنة ١٩٣٩ م توفي الملك غازي في حادث اصطدام سيارته بعمود كهربائي رحمه الله، ونودي بعده بولده فيصل الثاني ملكاً على العراق وهو في الرابعة من عمره، وكان الوصي على العرش خال الملك الصغير الشريف عبد الإله بن علي، وتولى الملك سلطته الدستورية في اثنين مايو سنة ١٩٥٣ م، وفي عهده بلغ الدخل من عائدات الزيت العراقي خمسين مليون دينار سنوياً، وفشلت الثورة التي تزعمها رشيد عالي الكيلاني ضد الملك والوصي، ولعب رئيس الوزراء نوري السعيد دوراً عظيماً في السياسة العربية فتحالف مع تركيا حليفة إسرائيل وأصبح آلة في يد الإنجليز يضرب بها صرح العروبة حتى جاءت الثورة العراقية في سنة ١٩٥٨ م وقضت على الملك فيصل الثاني وخاله عبد الإله ورئيس الوزراء نوري السعيد وانتهى بها أمر البيت الهاشمي قتلاً ونكالاً، وكسرها الفيصل في غمده وانقطع مع السيف جهازه، ولم يقتصر الشرور على للأسف على الرجال بل شمل النساء والأطفال والله المستعان، وتزعم الثورة عبد الكرم قاسم، وحصلت في أيامه السوداء ما لا نستطيع ذكره ثم قتل وانتهى أمره في الانقلاب ضده في أربعة عشر رمضان ١٣٨٢ هـ وترأس الجمهورية بعده المشير عبد السلام عارف الموجود حالياً، ولقد طال بنا الاستطراد حتى ربما نسي القارئ ما نحن بصدده من تاريخ الملك عبد العزيز وهكذا يقال الحديث شجون، وربك الرحمن المستعان على ما يصفون.

(١) يرجع تاريخ العلاقات بين المملكة السعودية والمملكة المتوكلية اليمنية إلى العهد الذي اتصلت فيه حدود المملكتين بعضها ببعض، ففي سنة ٣٨ وإلى سنة ١٣٤٠ هـ، دخلت عسير في السعودية وزال عنها أمر آل عايض، وتمت الاتفاقية بين السيد حسن الإدريسي والملك عبد العزيز في أربعة عشر ربيع الثاني من السنة الأولى وبمقتضاها دخلت البلاد الإدريسية في حماية الملك، وأرسل إلى الإمام يعلمه بذلك ويطلب تثبيت الحدود وما يقضي به حسن الجوار، وذهب الوفد السعودي إلى صنعاء في أول ذي الحجة سنة ١٣٤٥ هـ — ومكث إلى آخر محرم سنة ١٣٤٦ هـ وفشل في المحادثة، وقال الإمام إن الإدارة دخلاء ومغتصبون لتهامة عسير وعسير جزء من اليمن ومن قبله جاء وفد في رمضان هذه السنة ولم يتوصل إلى نتيجة مرضية مع ابن السعود، وتوقفت المحادثة وتجمدت =

= القضية إلى سنة ١٣٥٠هـ، ثم تقدمت جنود اليمن إلى جبل (عرو) فاحتلته وأخذت الرهائن من أهله واحتج ابن سعود على هذا وقال الإمام انه لم يفعل شيئاً إلا بطلب من أهل الجبل وتفاقم الشر وأوشكت الحرب أن تعلن بين الجهتين وجاء الوفد اليمني بطلب من الملك ولم يصلوا في المباحثة إلى شيء يذكر بل أخذت جيوش الجانبين تستعد للقتال، وأدرك الإمام خطورة الموقف فأبرق إلى الملك يحكمه في القضية ويرد إليه الأمر في جبل عرو، فما كان جلاله الملك إلا أنه حكم على نفسه وجعل المنطقة تابعة لليمن طلباً للسلامة وحرصاً على الاحتفاظ بحق الأخوة وقياماً بواجب العروبة والإسلام فانتهت المشكلة ووقعت المعاهدة في خمسة شعبان سنة ١٣٥٠هـ، وهي تقضي بحسن التفاهم وحل المشكلة ونصت على تسليم المجرمين السياسيين وغير السياسيين، وعلم الملك بعد ذلك أن الأحرار الحجازي قد أخذ يدبر الحطط العدواني مع سيف الإسلام عبد الله بن الإمام، وقد انتفض الأدارسة على ابن السعود ولجأوا إلى صنعاء فغضب من هذه المعاملة واحتج على الإمام فأنكر أن يكون لديه أحد من الأحرار الحجازيين، وطلب العفو عن الأدارسة واستأذن في بقائهم عنده وطلب لهم إعانات مالية تقوم بنفقاتهم حيث إن الحزنة اليمنية لا تحمل ذلك فقبل الملك الاعتذار وأجاب الطلب، وكسب بما صنع عواطف العرب وأثبت أنه ملك كريم وأنه يصلح بالرفق واللين ما لا يصلح بالعنف والشدة، ويقال إن جلاله الإمام قد اتخذ من السادة الأدارسة أداة حرب وإثارة لقبائل عسير ضد السعودية فطلب الملك عقد معاهدة سلمية دفاعية تقوي الروابط بين المملكتين وتحافظ على واجب الصداقة، وقال إنه لا يجب الحرب ولا يرغب فيها مع اليمن وذلك في رسالة بتاريخ ثمانية جمادي الثانية سنة ١٣٥١هـ، ورد الإمام على هذا بمثله في رسالة بتاريخ سبعة رمضان فأرسل الملك وفده المكون من خالد القرقي وحمد السلیمان وتركي ابن ماضي للمخابرة بهذا الخصوص وما كاد الوفد يصل إلى ميدي حتى علم أن جيوش الإمام قد احتلت بلاد المكارمة في بلاد نجران، فرجع الوفد ولم يفعل شيئاً، وتبدلت المخابرات وعقد في أبا مؤتمر آخر برئاسة فؤاد حمزة وعبد الله بن الوزير، وفتش المؤتمر في المحادثة فأرسل الملك عبد العزيز بقواته في ستة ذي الحجة سنة ١٣٥٢هـ بقيادة ولي العهد سعود بن عبد العزيز من جهة نجران وبقيادة نائب الملك فيصل بن عبد العزيز من طريق الساحل وأمرت باسترجاع ما كانت الجنود اليمنية قد استولت عليه من عسير ونجران ففعلت وتقدمت في داخل اليمن وكادت تضمها إلى المملكة السعودية بيد أن الإمام قد استنجد برؤساء الدول العربية والإسلامية، وألف المؤتمر الإسلامي وفداً من رجاله =

فصل تابع لما قبله

تَمَّتْ لَهُ الْأُمُورُ وَالْمُعَاهَدَةُ وَاحِدَةٌ تُمَضَى وَتُلْفَى وَاحِدَةٌ
وَإِبْنُ الدُوَيْشِ نَائِرٌ عَلَيْهِ حَقٌّ أَيْ اللَّهُ بِهِ إِلَيْهِ

= المعروفين بالحنكة والسياسة والإخلاص للوحدة العربية وهم أربعة، رئيس المجلس الإسلامي الأعلى محمد أمين الحسيني وهاشم بك الأتاسي رئيس الوزارة السورية سابقاً وعطوفة الأمير شكيب أرسلان ورئيس الأوقاف المصرية سابقاً محمد علوية باشا، ووصل الوفد إلى جدة في اثنين محرم سنة ١٣٥٣هـ، واستقبل بما يستحق من الكرامة، ولما كان الأمير فيصل قد احتل الحديدة واحد وعشرين من هذا الشهر وأخذ بيت الفقيه وبلاد الزرائق والزيدية وشارفت صعدة جيوش الأمير سعود طلب الإمام إيقاف القتال وأظهر استعداداه لقبول ما يملكه الملك عبد العزيز من الشروط فوافق الملك واشترط إخلاء نجران وجبال عسير وفك الرهائن وتسليم الأدارسة وبعدهما توقف الإمام قليلاً قبل الشروط كلها ووقف القتال، وأمرت الجنود السعودية بالمحافظة على الأماكن المحتلة وأرسل الوفد اليمني إلى الطائف في الحجاز للدخول في مفاوضة الصلح، وبدأ فيها مستهل صفر سنة ١٣٥٣هـ، وتمت المعاهدة وسلمت الأدارسة في أربعة وعشرين من هذا الشهر، وكانوا مع أفراد عائلاتهم نحو ثلاثمائة نسمة، وفي ثلاثين منه سافر وفد المؤتمر الإسلامي مع السيد عبد الله بن الوزير إلى صنعاء، وصادق الإمام على المعاهدة في سبعة ربيع الأول وبوجها صارت عسير ونجران تابعتين للسعودية وما فوق ذلك من جبال اليمن وسهوله تابعاً للمملكة المتوكلية وانتهت الفتنة بهذا، ولا جرم أنه يوجد في نصوص المعاهدات والاتفاقيات ما يثير الحفاظ وينيش الأحقاد لو كتبت تفاصيله، وما أكثر ما يقع فيه المؤرخون المعاصرون من التحيز وتحكم العاطفة، والحمد لله على السلامة، وإنما تركنا نصوص تلك البرقيات والاتفاقيات وما تبودل بين الطرفين من الرسائل ومعادنات الوفود طلباً للاختصار وتجنباً للشر واستشهاداً بقول الله تعالى: ((لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون)).

وابنُ بجادٍ معه في السجنِ بعدَ هجومٍ ودفاعٍ مُضنيٍّ (١)

(١) عقدت مع الملك عبد العزيز معاهدات كثيرة بينه وبين الملوك ورؤساء الدول في الشرق والغرب وأهمها ما يأتي:

١ - معاهدة العقير في ستة وعشرين ديسمبر سنة ١٩١٥م عشرة صفر سنة ١٣٣٤هـ، وهي مع الإنجليز ويمثلهم المعتمد البريطاني في الخليج العربي السير برسي كوكس، ونقدم لك أهم نصوص المعاهدة.

٢ - معاهدة جدة مع الإنجليز أيضاً في عشرين مايو سنة ١٩٢٧م ثمانية وعشرين ذي القعدة سنة ١٣٤٥هـ، ويمثل ملك بريطانيا في هذه المعاهدة مندوبه السير جلبرت مكنجهام، كما يمثل الملك ابن سعود نجله الأمير فيصل وتشتمل على إحدى عشرة مادة خلاصتها حسن العلاقات بين المملكتين ومراعاة كل جانب منها لمصالح الجانب الآخر ومصالح رعاياه وأنه بموجبها تلغى معاهدة العقير السابقة، وكتبت المعاهدة باللغتين العربية والإنجليزية والمرجع في تفسير ما أشكل منها إلى اللغة الإنجليزية.

٣ - معاهدة جدة مع مندوب فرنسا عن سوريا ولبنان المنتدبة عليها وهي في عشرة نوفمبر سنة ١٩٣١م تسعة وعشرين جمادى الآخرة سنة ١٣٥٠هـ، وتشتمل على ثماني عشرة مادة أهمها فيما يتعلق بأمر القبائل والعشائر العربية التابعة لكلتا الدولتين المتعاقبتين وكتبت المعاهدة باللغتين العربية والأفرنسية ومفعول اللغتين في تفسير ما أشكل من النصوص واحد وهي مثل المعاهدة التي مع الإنجليز لسبع سنوات من يوم توقيع المعاهدة، وإذا أراد أحد الفريقين المتعاقدين إنهاء المعاهدة فعليه أن يخبر الجانب الآخر قبل ستة أشهر من إنهاؤها وإذا لم يقع الإخطار بنهايتها فهي مستمرة لأكثر من المدة المذكورة، ووقع عليها سمو الأمير فيصل وزير خارجية السعودية ومندوب فرنسا المسيوح. رميفرة.

٤ - معاهدة جده مع الملك عمانويل ملك إيطاليا وهي في عشرة فبراير سنة ١٩٣٢م، ثلاثة شوال سنة ١٣٥٠هـ، وتشتمل على سبع مواد كتبت باللغتين العربية والإيطالية، ووقع عليها الأمير فيصل وزير الخارجية والمندوب الإيطالي (جويدو سولاسو).

٥ - معاهدة مكة مع المملكة العراقية في سبعة إبريل سنة ١٩٣١م، عشرين ذي القعدة سنة ١٣٤٩هـ، وتشتمل على عشر مواد تنص كل واحدة منها على ما فيه مصلحة =

والثورة التي بلا إفاذه قام بها الشيطان ابن رفاذه

= الفريقين المتعاقدين كليهما أو مصلحة أحدهما التي لا تضر بالفريق الآخر وقد وقع عليها مندوب الملك عبد العزيز نائبه ووزير خارجيته الأمير فيصل ومندوب ملك العراق ورئيس وزرائه نوري السعيد.

٦ - معاهدة القدس مع الأمير عبد الله بن الحسين أمير شرق الأردن في سبعة وعشرين جولاي سنة ١٩٣٣م وقد حضر المندوبون عن الحكومتين مندوب بريطانيا بالنيابة عن شرقي الأردن في قصر المندوب السامي على معاهدة صداقة وحسن جوار، وتقع في أربع عشرة مادة، وتنطوي على أهم ما يأتي:

١ - التعهد المتبادل بإقرار السلم.

٢ - تعهد كل فريق بأن يحاول دون اتخاذ بلاده مركزاً أو وسيلة للإضرار بالفريق الآخر.

٣ - معاقبة كل من يحاول ذلك واتخاذ تدابير خاصة على الحدود لمنع مثل هذه المحاولة.

٤ - تعهد كل فريق بعدم تجنيد رعايا الفريق الآخر في بلاده.

٥ - تخطيط الحدود على الأرض.

وهكذا إلى آخره، أما المعاهدة بين اليمن والسعودية في خمسة عشر شعبان سنة ١٣٥٠هـ، فتشتمل على ثماني مواد أهمها تسليم المجرمين السياسيين وغير السياسيين، والاحتفاظ بمصالح رعايا الجانبين ودراساتير الحكومتين مع الرجوع إلى شريعة الله فيما يحدث من الخلاف، ووقع عليها مندوبون من جلالتي الإمام يحيى والملك عبد العزيز.

وهناك معاهدات أخرى واتفاقيات مع ابن السعود وهي كثيرة، وقد اكتفينا بما ذكر لأنه أهمها وأحق ما يكون بالاطلاع عليه في الموضوع. ولسهولة مراجعتها لم نأت على جميع محتوياتها، وخير الكلام ما قل ودل.

أما فيصل بن الدويش وسلطان بن بجاد فكانا قائدين عظيمين من قواد ابن سعود إلا أنها بغيا عليه وخرجا عن طاعته، وقاد الدويش ضد الملك حركات عنيفة وثورات مخيفة، وكفر بإحسان الملك إليه ولم يعترف بإنعامه عليه، وما زال يثير الفتن ويتنقل من مكان إلى مكان وأخيراً يلجأ إلى العراق وإلى بريطانيا ظناً منه أنهم سيمنعونه وينصرونه =

وذهبَ الوالدُ فيها والولدُ والذئبُ لا يَقْوَى على حربِ الأسدِ (١)
 وظَهَرَتْ مَعَادِنُ الحِجَازِ على يَدَيِ صَاحِبِ الامْتِيازِ
 للبحْثِ والتَّنْقِيهِ في كلِّ مَكانِ إلا مَكانَ الحَرَمِينِ قِيْصَانِ

= في محاربتة ملك نجد والحجاز، فطالب به الملك وألزم حلفاءه الإنجليز برده إليه وبالفعل جاءوا به في ثمانية وعشرين يناير سنة ١٩٣٠م ثمانية وعشرين شعبان سنة ١٣٤٨هـ، ومعه صاحباها نائف بن حثلين وحاسر بن لامبي إلى مكان اجتمعوا فيه بالملك يقال له: (حباري وضحا) وأكد الكلونيل ديكسون ومعه قائد البارجة التي كان المحرمون معتقلين فيها وفاء حكومتها بالمعاهدة وشكر ابن سعود بريطانيا على ما قامت به من تسليم أعدائه إليه، ورغبة في العفو وكرامية لسفك الدم أمر الملك بسجن خصومه الثلاثة حتى مات فيصل الدويش في سجن الرياض بعد ثلاث سنوات من الظفر به وبصاحبيه، واستسلم أيضاً سلطان بن بجاد في أول إبريل وبعد ثلاثة أيام من وصول ابن الدويش وأمر به إلى السجن وانتهت فيه حياته، واستراح الناس من شر الرجلين وبيت الظالم خراب ولو بعد حين.

(١) تواطأ الشيخ حامد بن سالم بن رفاة مع سمو الأمير عبد الله بن الحسين وحزب الأحرار الحجازي وفي مقدمتهم السادة آل الدباغ على محاربة ابن سعود وأن يقوموا ضده بثورة عارمة في الشمال مع ما يعانيه من مشكلة الأدارسة في الجنوب، وأعدوا لذلك عدته وابتدأوا حركتهم في محرم سنة ١٣٥١هـ، وجاءتهم الإمدادات الحربية والأرزاق الكافية ودعوا كثيراً من القبائل المجاورة ونشروا من الدعايات ما يفرغ الضعفاء ويعتبره السخفاء، وأعلن بالأمير عبد الله أنه العدو اللدود لابن سعود وأنه ما يزال باذلاً الجهد في تحطيمه وتحطيم مملكته فاستعد الملك عبد العزيز لهذه الحركة واعتقل جماعة من أهل الحجاز يخاف منهم على سلامة الدولة وأصدر بياناً بمنع الحزبيات والخوض في السياسة وأنه لاحق لأحد في الحجاز إلا من يريد العبادة أو طلب الرزق من أبواب حله، ثم أمر قواته بالاستعداد لمجابهة الخطر، وذهب بعض القواد لمنازلة ابن رفاة والتفوا به ودارت المعركة الفاصلة في سفح جبل شاد يوم تسعة وعشرين ربيع الأول من السنة نفسها وقصوا على الحركة تماماً، وقتل ابن رفاة وكثير من أهله وصحبه ومنهم أولاده حماد وفالح ومنهم سليمان بن أحمد أبو صقيقة ومحمد بن عبد الرحيم أبو صقيقة والسيد مسعود الدباغ، وأحبطت تدابير تلك الثورة من جميع نواحيها، وكان لها أنصار كثيرون في مصر وغيرها من البلاد، (وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز).

وكان من حظِّ المليكِ والعربِ
 وإن للدولةِ سهماً وافراً
 والخيرُ جاءَ وله بَقِيَّةُ
 كمعدنِ البترولِ نغمَ الثَّرْوَةِ
 فالذهبُ الأسودُ في الإحساء
 والذهبُ الأصفرُ في المدينة
 أن يجِدوا هنالك معدنَ الذهبِ
 من كرمِ الله الذي تكاثراً (١)
 معادنُ المنطقةِ الشرقيَّةِ
 زاد بها عبدُ العزيزِ قُوَّةُ
 يسيلُ في الصُّبْحِ وفي المساءِ
 في يَدِهِ القَوِيَّةِ الأَمِينَةِ (٢)

(١) تكاثرت الخيرات المعدنية في المملكة العربية السعودية شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، وبعضها كان معروفاً ويخرج منه الشيء القليل، وفي عهد الملك عبد العزيز وما بعده منحت الإمتيازات للشركات الأجنبية تبحث وتنقب عن المعادن وتستخرج الكثير من بعض الأماكن المعروفة، فالذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص وغيرها، وقد بدأت شركة التعدين في مهد الذهب سنة ١٣٥٣هـ، ويبعد هذا المكان عن المدينة المنورة في جنوبها الشرقي بثلاثمائة وخمسين كيلومتراً، ويشغل فيه نحو ألف عامل سعودي وآخرون من الخبراء والفنيين، وللحكومة ربع الدخل من المحاصيل مع ما هنالك من فوائد جمركية ومستحققات أخرى، ويوجد الذهب أيضاً بكميات قليلة في بعض جبال الطائف وأوديتها، ويوجد معدن الألماس بقلة قريباً من مكة، وكما توجد هذه المعادن في الحجاز فإنه يستخرج اللؤلؤ من الخليج العربي والمرجان من البحر الأحمر، وبلغني أنها توجد اليوم في المملكة نحو سبعة عشر معدناً وكلها مهمة وذات خيرات كثيرة، والبحث والتنقيب مسموح به للأجانب فيما عدا البقاع المقدسة من مناطق الحرمين الشريفين، أما البترول ومستخرجاته فسيأتيك الحديث عنه في الأبيات التالية.

(٢) تنقسم المملكة العربية السعودية إلى منطقتين شرقية وغربية، فنجد والإحساء تقعان في المنطقة الشرقية، والحجاز وعسير تقعان في المنطقة الغربية، ولقد منَّ الله على السعوديين بظهور الذهب الأسود (البترول) الذي صار يتدفق صباح مساء بكميات كثيرة في المنطقة الشرقية، كما منَّ جل وعلا بمعدن الذهب الأحمر قرب المدينة المنورة، وقد وقعت الاتفاقية بين الحكومة السعودية وشركة (ستاندر أويل كمباني أوف كاليفورنيا) على البحث والتنقيب عن البترول وذلك في واحد وعشرين يوليو سنة ١٩٣٣م، ومدة الإمتياز ست وستون سنة تنتهي سنة ١٩٩٩م، في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية في مساحة قدرها أربعمائة وخمسين ألف كيلومتر، وبعد توقيع الاتفاقية في السنة =

ثم رأى الناس لتلك المملكة تسمية جامعة مُشتركة
فُيَسِّبَت لابن سعود العربي ونسألُ الله دَوامَ النسبِ (١)

= نفسها وصل أول فوج من الجيولوجيين إلى ميناء الجبيل ووصلت أولى فرق الحفريات إلى ميناء الخبر سنة ١٩٣٤م، وبدىء في الحفر واستمر لمدة خمس سنوات تكبدت فيها الشركة أتعاباً وخسائر فادحة حتى أنفقت نحو ثلاثة ملايين دولار ولم تحصل على فائدة تذكر حتى أوشكت أن ترحل، وفي شهر مارس ثمانية وثلاثين، ظهر البترول في البئر السابعة وتبين وجود كميات هائلة في بحر من الزيت السعودي، وللأتعاب التي بذلت في السنين الماضية وافق الملك على إضافة ست سنوات أخرى وبها تنتهي مدة العقد بين الشركة والمملكة في سنة ٢٠٠٥م، وفي سنة ١٩٤٠م اكتشفت حقول للبترول في أبي حدرية وفي أبيق حتى أنشأت الشركة معامل تكرير البترول، وفي رأس تنورة تكرر ثلاثة آلاف برميل في اليوم واندمجت هذه الشركة مع ثلاث شركات أخرى في سنة ١٩٤٨م وأطلقت على مجموعها اسم (أرامكو) - أو شركة الزيت العربية الأمريكية، وما زالت البركات تتكاثر والزيت يتدفق حتى بلغ مجموع الانتاج اليومي من الآبار كلها في سنة ١٣٧٣هـ (٨١٧٨٤٥) برميلاً، وتتقاضى الحكومة السعودية أربعة شلنات ذهبية عن البرميل الواحد أو ما يعادلها من الدولارات الأمريكية، وفي سنة ١٣٧٠هـ كان نصيب الحكومة من الأرباح خمسين في المئة وتقدر بنحو خمسين مليون جنيه ذهبي، ويقول الكاتب عثمان فيض الله في كتابه الجغرافيا إن دخل البترول في السعودية يبلغ في السنوات الأخيرة نحو تسعين مليون جنيه.

أما خطوط البترول التي يسيل فيها من مختلف آباره إلى رأس تنورة حيث توجد المصافي ويشحن منها إلى الخارج فهي كثيرة وبمساحات مختلفة في طولها وقصرها، وفي سنة ١٩٤٧م قامت شركة من شركات الأنابيب بمد الخطوط عبر البلاد السعودية من أبيق إلى صيدا في لبنان على ساحل البحر الأبيض المتوسط وسبحان الذي لا تنفذ خزائنه ولا تنقطع مواهبه، وهنياً لأصحاب الأيدي الأمينه عبد العزيز ومن بعده ما جعل الله فيها من خيرات الذهب والبترول وغيرها وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

(١) كان يطلق على الإمام عبد العزيز لقب هو ملك نجد فقط ثم ملك نجد والحجاز وملحقاتها ولما رأى الناس عدله بين رعاياه وأنه لا يفرق في المصالح بين نجد وحجازي وغيرهما بل الوظائف والاستشارة والتعاون بين الجميع بحسب الكفاءة، وبره وعطفه =

واختيرَ والياً لعهدِ الملكِ
مُستمِيكاً بالدينِ والسيرِ على
وجُعِلَ النَّائبُ عن أبيه
الفِصلُ المعروفُ بالمهارةِ
المستشارُ لسعودِ الأوَّلِ
سعودُ المشهورُ بالتَّنَسُّكِ
نهجَ أبيه آخِراً وأوَّلاً
ثم وليَّ العهدِ عن أخيه
وهو الرئِيسُ اليومَ للوزارةِ
ومَن له مثلُ الأميرِ فيصلِ (١)

= عليهم بالسوية، وبعد أن فشلت المحاولات لتفريق الكلمة والثورات التي كان يشب نارها صاحب شرقي الأردن وحزب الأحرار الحجازي وجمعية الشبان هنالك، فكر أهل الرأي وأصحاب الحل والعقد في القضاء على روح التفرقة الإقليمية وإزالة سوء التفاهم بين الحجازيين والنجديين، فاقترحوا أن يطلق على صاحب الجلالة، ملك المملكة العربية السعودية، وهذا هو الاسم الجامع للأطراف كلها وللمناطق الأربع التي سبق ذكرها، وقبل منهم الاقتراح ووافق عليه رسمياً في يوم الخميس واحد وعشرين جمادى الأولى سنة ١٣٥١هـ، اثنين وعشرين سبتمبر سنة ١٩٣٢م، واحتفل باللقب الجديد في جميع المدن وأقيمت له الزينات وخاصة في الرياض العاصمة، وخطب في الحفل سمو الأمير سعود، ومما جاء في خطبته قوله: (وإني أعلن باسم الملك أيد الله أن المملكة أصبحت اليوم، المملكة العربية السعودية، بدلاً من مملكة الحجاز ونجد وملحقاتها إيداناً بزوال جميع الفوارق التي قد تظن بين أجزاء هذه المملكة) إهـ، وهذا الاسم شعر الناس بثلاثة معان جلية أولها الوحدة الخاصة، ثانيها الوحدة العامة بين المملكة وسائر الملكات والجمهوريات العربية، وأنها لا تنفصم عن غيرها في دين ولا لغة ولا قومية عربية، وثالثاً الإشادة بمجد الملك عبد العزيز وتخليداً لبطلته التي بنى بها صرح هذه الدولة، وأسس قواعدها، على الحضارة المدنية، وعلى تقوى الله، ونسأله تعالى بقاء هذا الاسم وتخليد معناه وأن يحفظ للعروبة وللإسلام دوام المملكة العربية السعودية.

(١) في يوم الخميس ستة عشر محرم سنة ١٣٥٢هـ الموافق أحد عشر مايو سنة ١٩٣٣م تمت البيعة بولاية العهد للأمير سعود بن عبد العزيز بعد صدور مرسوم ملكي من والده بالموافقة على ذلك وصادق على ولاية العهد مجلس الوكلاء ومجلس الشورى بمكة المكرمة، وأخذ البيعة لنفسه وبواسطة أبيه في نجد، كما أخذها له من أهل الحجاز أخوه الأمير فيصل الذي صار نائباً لجلالة الملك على الحجاز ووزيراً للخارجية، وأن ولي العهد لمشهور بأخلاقه السامية وصفاته الفاضلة، كرمياً وشجاعة وبراً بأبيه، وحسن معاملة لأهله =

وابنُ سَعُودٍ يَتَشَرُّ الحَضَارَةَ
 وَأَصْلَحَ الطَّرِيقَ بِالتَّعْبِيدِ
 وَلَا يَخَافُ أَحَدًا مِنْ أَحَدٍ
 وَأَدْخَلَ العَيْنَ العَزِيزِيَّةَ فِي
 وَالمَسْجِدَ الحَرَامَ فِي المَنُورَةِ
 وَأَلْغَيْتْ ضَرْبِيَّةَ الحِجِّ الَّتِي
 إِلَّا اليَمَانِي وَإِلَّا الحَضْرَمِي
 وَعَلَى البِلَادَ بِالعِمَارَةِ
 وَالأَمْنَ لِلقَرِيبِ وَالبَعِيدِ
 لَا فِي مَفَازَةٍ وَلَا فِي بَلَدٍ
 جَدَّةَ لِلشَّارِبِ وَالمُفْتَرِفِ
 جَدَّدَ مِنْ بِنَائِهِ وَكَبَّرَهُ
 تُؤَخِّدُ مِنْ حُجَاجِ كُلِّ جِهَةٍ
 فَكَانَ مَغْفِيًّا وَغَيْرَ مُلْتَزِمٍ (١)

= وأسرته ولجميع رعيته متمسكاً بالدين إلى حد بعيد، في عقيدته وصلاته وزكاته وصيامه
 وحجه وفي سائر أنواع العبادة. متابعاً لسيرة آبائه وأجداده في مناصرة السنة ومحاربة
 البدعة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحب العلماء واحترامهم، وتوفير أسباب الراحة
 لأهله وذويه، وكان بطلاً مقداماً في أيام إمارته وبراً رحيماً مسالماً كثير العفو عن من
 أساء إليه في أيام مملكته، وستحدث عن إصلاحاته وما قام به من الأعمال الجليلة في
 الفصل الآتي، وقد تولى العهد بعده أخوه الأمير فيصل وهو مستشاره وساعده الأمين
 ورئيس وزراء الدولة السعودية حال ماكنت أنظم هذه الأرجوزة، أما الآن فهو الملك
 الشديد البأس السيد الرأي البعيد النظر، الصلب العود المصلح الكبير، ونسأل الله لنا
 وله التوفيق في جميع الأمور.

(١) لم تكن الإصلاحات الكثيرة في نجد والحجاز معروفة كما هي في عهد الملك عبد
 العزيز وأولاده فإنه ليعمل جاداً ليلاً ونهاراً في ادخال الحضارة ونشر العمارة، يمدن البدو
 وينشئ الهجر ويبنى القرى وينظم المدن بتوسيع الشوارع وتنظيفها، وعمارة القصور
 وتوسيع الدور وتهويتها وإضاءةها للسكان والموظفين مع إصلاح السكك الحديدية وربط
 أجزاء المملكة بأسلاك الكهرباء والتلفونات ثم إنشاء محطة أو محطات للإذاعة،
 وبالصحافة والمدارس والمستشفيات وتعميد الطرق للسيارات والقوافل وتسهيل المواصلات
 التي تربط القريب بالبعيد والحاضر بالباد حتى لكأن الناس في مدينة واحدة أو مدن
 متجاورة مع بعد المسافات واتساع الصحارى التي أصبحت مليئة بآبار المياه وكثرة
 المتنقلين فيها للتجارة ورعي الماشية، أما الأمن فتحديث عنه ولا حرج، فلا خوف إلا من
 الله ولو خرج الراكب من الحيرة إلى مكة أو سافر من أم القرى إلى الأردن شمالاً أو إلى
 صنعاء جنوباً لم يخش إلا الله أو الذئب على غنمه، وأن المجرمين واللصوص أفراداً =

ولم يَمُتْ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنِ سَعُودٍ إِلَّا وَشَعْبُهُ بِفَضْلِهِ شُهُودٌ

= وعصابات في أوروبا وأمريكا وفي سائر البلاد المتحضرة ليعيثنون في الأرض فساداً، بينما يعيش أهل المملكة العربية السعودية في راحة وأمن على أنفسهم وأموالهم، قد اجتبي الله لهم حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم ((فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف)) ومن الإصلاحات العظيمة التي قام بها المرحوم عبد العزيز بن عبد الرحمن سقي جدة وإيصال العين العزيزية من منابع المياه في وادي فاطمة وقد احتفلت البلاد بهذا العمل الجليل في يوم الثلاثاء خمسة محرم سنة ١٣٦٧هـ، الموافق ثمانية عشر نوفمبر سنة ١٩٤٧م، وترأس الحفل حضرة صاحب السمو الملكي الأمير سعود وخطب فيه منوهاً بنعمة الله على تلك البلاد، ومشيداً بما يعمله والده من الإصلاحات وتلا الوثيقة التاريخية بهذا العمل الجليل، ومما جاء فيها عن الملك عبد العزيز (فقد أمر حفظه الله وأمد في حياته السعيدة بأن تشتري المقادير التي تكفي لشرب مدينة جدة من عيون وادي فاطمة وأن يسحب هذا الماء منها، وهو على بعد خمسة وستين كيلومتراً من الوادي إلى داخل مدينة جدة ليستقي منه سكان البلاد والحجاج والزوار، كل ذلك على حساب جلالتة وعلى نفقته الخاصة) انتهى. أما أنا فقد عرفت جدة قبل وصول الماء إليها وهي على حالة لا تصلح معها لاستقبال الحجاج والزائرين وكثرة السكان من قلة المياه وتهدم البيوت وعفونة الأسواق والشوارع، وإنما اليوم والله الحمد لعل العكس من ذلك في كل شيء، والمياه تدفق فيها إلى البيوت والمساجد والمحلات الخاصة والعامة بواسطة المواسير بأثمان زهيدة ولا يزيد ثمن الطن عن ريال واحد وربما بأقل من ذلك، وللعين العزيزية إدارة حكيمة وجماعة تشرف على تنظيم المواسير والخزانات وتصريف المياه في البيوت والحدائق، ولها مالية وأوقاف تضمن بقاءها وسلامتها من الخراب، وكان لجلالة الملك المرحوم عناية عظيمة بالمدينة المنورة والحرم الشريف فيها، فلقد وسعه وكبره وجدد من بنائه الشيء الكثير وما تزال العناية به تزيد والإصلاحات تضاف إليه يوماً بعد يوم وقيل لي والله أعلم إنه كان قد خصص للمسجد النبوي ولأشياء أخرى، في المدينة المنورة ما يقدر بثمانمائة عشر مليون جنيه، وإن دار الهجرة وآخر قرى الإسلام خراباً لجديرة بالإصلاح والانفاق عليها بغير حساب. و ينتظر أن تصبح في القريب العاجل واسعة معدة لهجرة كثير من المسلمين عرباً وعجماً إن شاء الله. (وإن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تآرز الحية إلى جحرها)، وهكذا جاء في الحديث الشريف، وكانت المملكة تعتمد في دخلها على الضريبة التي تؤخذ من الحجاج القادمين من مختلف الجهات ما عدا اليمنيين والحضارمة لفقهم وحاجتهم، حتى إذا بسط الله الرزق وفتح أبوابه وتكاثرت موارده =

= ألغيت تلك الضريبة عن الجميع وأصبح الحاج لا ينفق إلا نفقات سفره وأجرة تنقلاته أو ما يقدمه من الصدقات إلى المستحقين، وزارنا في عدن الشيخ إبراهيم بن معمر وهو في طريقه إلى اليمن، وحملته كتاب رجا إلى جلالة الملك بالعفو عن ضريبة الحجاج العدنيين وأن يسن بهم سنة إخوانهم اليمنيين والحضارمة وحصلت بيبي وبين الشيخ ابن معمر مشادة في الموضوع وأخيراً اقتنع بالفكرة وحمل كتابي إلى الملك عبد العزيز وبعد مدة قصيرة جاء العفو عن ضريبة الحجاج أجمعين. والحمد لله رب العالمين.

(١) والحاصل أن الله عز وجل لم يتوفَّ الملك عبد العزيز ويقبضه إليه إلا وشعبه بل وأكبر الشعوب الإسلامية يشهدون بفضله وبما له من الأعمال الصالحة والأيدي البيضاء على العروبة والإسلام، ولقد مات رحمه الله وهو قرير العين بما أسس وشيد وجدد وخلد، ومن ترك مثله فما مات، (والذكر للإنسان عمر ثان) وكانت وفاته في الطائف يوم الإثنين ثاني ربيع الأول سنة ١٣٧٣هـ الموافق تسعة نونبر ١٩٥٣م ونقل جثمانه إلى الرياض ودفن بها حسب ما تقضي به السنة في تجهيز الموتي ودفنهم ورحمة الله علينا وعليه وعلى سائر المؤمنين والمؤمنات آمين.

الملك سعود بن عبد العزيز

بويَع بالملك ولي العهد
والشعب في ثاني ربيع الأول
وهو يسير اليوم بالملك كما
وينشر العمران والإصلاح
قوية شوكته في الحق
بيض الأيدي منه لا تعد
من أهله وقوميه في نجد
يوم وفاة الوالد المرتجل
تسير بالأمر العظيم العظماً
وللمحق تخفيض الجناح
والكذب لا يتأغه بالصدق
وجوده في الخير لا يحعد^(١)

(١) في التاريخ الذي سبق ذكره صبيحة فتح الرياض للملك عبد العزيز ولد ابنه وولي عهده والملك من بعده سعود بن عبد العزيز الذي عرف بالخير والصلاح واتمسك بالدين محافظة على العقيدة وقياماً بالواجبات والمندوبات الشرعية سائراً على نهج آبائه في الكرم والشجاعة والعدل في الحكم وتعظيم العلماء والرجوع إلى الكتاب والسنة شديداً في الحق متواضعاً لله صلب عوده وكثير جوده، يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين، يعفو إذا قدر، حسن المعاملة وطيب المقابلة، إذا وفد عليه رؤساء القبائل وقناصل الدول والوفود السياسية ومشاهير العلماء من مختلف الأقطار الإسلامية حجاجاً أو زواراً أو مفاوضين أو طلاباً لمساعدته في مختلف المشروعات الخيرية، ولقد نشأ قوياً فارساً رامياً قائداً منصوراً يعرف عادات قومه وبلاده يجوب الصحارى ويتنقل في الفيافي ويركب البعير ويسير على رجليه في المسافات البعيدة مع ما يسر الله له من الرحلات والأسفار في البلدان العربية والغربية وكل ذلك يجعله عظيماً في عين والده وكبيراً في صدره حتى اختاره لولاية العهد وتقدم كيف كان ذلك، ويوم وفاة الملك عبد العزيز في ثاني ربيع الأول بويع سعود بالملك من أهله وأفراد عائلته وعموم شعبه في نجد والحجاز واستمر في الملك قرابة اثنتي عشرة سنة يسير بالملك سيرة العطاء في الداخل والخارج سياسة وعمارة وعدلاً، يعبد الطرق ويؤمنها ويسهل المواصلات ويبنى المستشفيات وله على الناس عامة وعلى شعبه خاصة الأيدي التي يشكر عليها في معالجة المرضى ومواساة الفقراء وكفالة الأيتام =

والحَرَمَانِ لَو سَأَلْتِ عَنْهَا لَجَاءَكَ الْحَقُّ الْيَقِينُ عَنْهَا
وَالْمَسْجِدُ الْحَرَامُ فِي أَرْضِ الرَّسُولِ وَوَسَّعَ لِلْحُجَّاجِ فِي عَرْضِ وَطْوِيلِ
مَعَ الْجَمَالِ فِي الْبِنَاءِ وَالْفَنِّ مُوَافِقاً لِمَا عَلَيْهِ السُّنِّي
وَالْمَسْجِدُ الْحَرَامُ فِي أُمِّ الْقُرَى كَأَنَّهُ الْجَوْزَاءُ فِي أَعْلَى الدَّرَى
وَالنَّفَقَاتُ فِيهِ ذَاتُ مَقْدَارٍ مِئَةُ مَلِيُونَ وَنِصْفُ مَلِيَارٍ
مِنَ الرِّيَالِ الْعَمَلِيَةِ الْمَضْرُوبَةِ بِاسْمِ سَعُودِ سَيِّدِ الْعَرَبِيَّةِ (١)

= وإنشاء الملاحيء للعجزة، وتحمل الديون وتسليم الديات عن القتلة التائبين، وتوفير الراحة للحجاج، وحفر آبار المياه في مختلف القرى والبوادي والطرق، ولقد أعطاه الله من المال الشيء الكثير وسلطه على هلكته في سبيل الله، ونعم المال الصالح في يد الرجل الصالح، ودائماً يذهب أصحاب الدثور بالحسنات والأجور ((ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً)).

(١) من الأعمال الجليلة والمجهود الكبير الذي سيسجله التاريخ ويظل الزمان شاهداً به على فضل الملك سعود ما قام به من الإصلاحات في الحرمين الشريفين بمكة والمدينة من عمارة المسجدين وتوسيعهما مع متانة البناء والجمال والفن الذي لا يخالف السنة ولا يتعارض مع قول النبي صلى الله عليه وسلم «لا تقوم الساعة حتى ترخف المساجد» وإنك لتدخل الحرم الشريف المدني فتندهبش لما تراه من متانة في البناء وإضاءة وتهوية مع حسن تفصيل وكثرة أبواب للداخلين والخارجين في شكل بديع وذوق رفيع، والتوسعة فيه تريد على ما كانت عليه في العصور الماضية بأضعاف مضاعفة، وتاريخ هذا المسجد الذي تفضل الصلاة فيه ألف صلاة في غيره يرجع إلى أول الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، وجدد في أيام أبي بكر ثم عمر ثم في أيام عثمان بالقص والحجارة والنورة وجعل سقفه من خشب الساج، ووسع وزين في عهد الوليد بن عبد الملك، وما زال الخلفاء والملوك يزيدون في توسعته وإصلاحه حتى بدت الفكرة الطيبة في توسعته وعمارته الجديدة في سنة ١٣٦٨هـ فرصدت له الأموال الكثيرة واشترت الدور التي حوالية، وبلغت مساحته الموسعة (٢٢٩٥٥) متراً مربعاً، وفي سنة ١٣٧٠هـ ابتدئ في عملية الهدم وإضافة الأماكن التي حوالية وإدخالها فيه، وفي سنة ١٣٧٢هـ وضع الأمير سعود الحجر الأساسي في التوسعة، وبعد سنة كاملة وفي الشهر الذي ملك فيه وضع بيده الحجر الأساسي في التعمير والبناء واقتداء بالسنة اشترك في البناء بوضع أربعة =

وهيئة للأمر بالمعروف تأخذ بالمليون والألوف

= حجارة بيده الكريمة في إحدى زوايا الجدار الغربي، وانتهى البناء في يوم السبت ثلاثة ربيع الأول من سنة ١٣٧٥هـ واحتفل بافتتاح المسجد بعد الفراغ من عمارته في حفل عظيم شهده الألوف من أهل المملكة وغيرهم، وارتفعت الأصوات بالتهليل والتكبير والدعوات الصالحة لجلالة الملك ولقد بلغت التكاليف المالية بضعاً وخمسين مليون ريال سعودي، وكانت البناية على ما يأتي:

عدد الأعمدة المحيطة بالجدار	٤٧٤ عموداً مربعاً
عدد الأعمدة المستديرة في العمارة الحديثة	٢٣٢ عموداً مستديراً
الجدار الغربي	١٢٨ متراً طولاً
الجدار الشرقي	١٢٨ متراً طولاً
الجدار الشمالي	٩١ متراً طولاً
البواكي الشمالية	٥
البواكي الوسطى	٣
البواكي الشرقية	٣
البواكي الغربية	٣
الأبواب الجديدة	٩
الحصاوي	٢
العقود	٦٨٩
النوافذ	٤٤
المآذن	٢ ارتفاع كل منها (٧٠) متراً
	وعمق الأساس (١٧) متراً
عمق الأساس	٥ أمتار

طول كل باب من الأبواب الجديدة ستة أمتار وعرضه ٣,٢٠ متر والباب مصنوع من الخشب وبه زخارف من النحاس الأصفر على الطراز العربي (الأرابسك) وقد صنعت في مصر، وجدير بالذكر أن هذه الأبواب طعمت بشمانية أطنان من النحاس، وتكلف الباب الواحد بأكثر من ثلاثة آلاف جنيه مصري، عدد الأروقة الحديثة أربعة وهي الرواق الشمالي والرواق الأوسط والرواق الشرقي والرواق الغربي وأساس الرواق هو العقود المتكررة والتي تحتوي على زخارف عربية، وأما أرضية الرواقات فقد فرشت =

وَكَمْ وَكَمْ مِنْ مَسْجِدٍ وَمَدْرَسَةٍ تُدْرَسُ فِيهَا الْكُتُبُ الْمُقَدَّسَةُ (١)

= بالرخام الأبيض، وتتخللها أشرطة من الرخام الأسود، وهذا عدا الرواق الجنوبي وهو القسم القديم من المسجد الشريف، تقدر قيمة النحاس الذي وضع في قواغد الأعمدة الرخامية والموهبة بالذهب عيار (٢٤) بمبلغ خمسة عشر ألف جنيه مصري، أما الحرم المكي فحدث عنه ولا حرج، وتشبيهه بالجوزاء في عظمته وعلو مقداره أقل مما يستحق ولا يتصور ما هو عليه اليوم إلا من رآه حقيقة أو مجازاً بالتصوير، ويقال إن النفقات عليه ستمائة مليون ريال إن لم تكن أكثر من ذلك وهي أعشار المليار من الريالات السعودية نقود كثيرة من الذهب والفضة وقد ضربت في سنوات مختلفة، فهناك الريال الفضي المضروب في مكة المكرمة سنة ١٣٥٤هـ، والجنيه الذهبي المضروب سنة ١٣٧٠هـ، وعليها اسم الملك عبد العزيز رحمه الله وتصرف هذه العملة كالأتي، الجنيه الذهبي (٤٠) ريالاً الواحد منها بعشرين قرشاً من النيكل، ويصرف الجنيه الاسترليني اليوم (١٢) ريالاً ونصف ريال سعودي.

أما ترميم الكعبة وإصلاح سقفها وبعض جدرانها في سنة ١٣٧٧هـ، فعلى خير ما يرام، ولونسي كل شيء لآل سعود ما نسيت عنايتهم بالمساجد عامة وبالحرمين خاصة، وقد بلغت توسعة الحرم المكي خمسة وسبعين ألف متر مربع بعد أن كانت ثلاثين ألف متر فقط من عهد الخليفة المقتدر العباسي إلى عهد الملك سعود، وصار البناء من طابقين طول الأول اثنا عشر متراً وطول الثاني تسعة أمتار، والارتفاع في الطابقين أقل من ارتفاع الكعبة المشرفة ونصف مليون مسلم يؤدون الصلاة في جماعة واحدة كلهم مرتاحون، فلا ضيق ولا مزاحمة إلا ما يقع من بعضهم في محاولة الوقوف قريباً من الكعبة، وصحن المطاف سابقاً لا يزيد على (٤٥٠٠) متر مربع، وهو اليوم نحو عشرة آلاف متر، وفي المسجد سبع مآذن طول الواحدة تسعون متراً، وفيه ثلاثة أبواب رئيسية وهي باب السلام وباب العمرة وباب سعود وعشرة أبواب متوسطة مفرقة في الجهات الأربع، وفيه ستة سلام رئيسية وسبعة ثانوية وكلها قوية ومتمينة وسهلة الارتقاء، أما المسعى فعرضه عشرون متراً وارتفاعه (١٢) متراً، وفيه ثمانية أبواب وثمانية مداخل، ومن شاء الاطلاع الكامل على عمارة الحرمين الجديدة فليجب دعوة إبراهيم الذي أذن في الناس بالحج وجاءوه من كل فج عميق، والله تعالى يقول: ((إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين)).

(١) توجد في المملكة السعودية هيئة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويرأسها اليوم =

هذا وللصحة في البلاد مستشفيات ذات الاستعداد
بكل ما يدعو إليه الاحتياج من الطبيب ووسائل العلاج (١)

= في المناطق الغربية الشيخ عبد الملك بن إبراهيم آل الشيخ، ولها أعمال مبرورة في الوعظ والإرشاد ومحاربة الفساد وإزالة المنكرات وهي تحرض الناس على إقامة الصلاة في المساجد مع شهود الجماعة والمنتسبون إليها من خيرة الناس عملاً وإصلاحاً، وشدة في الحق، ونرجوها الزيادة من الخير والنشاط في تأدية الواجب مع علم بالأحكام والعقائد وفي رفق ولين إذا أمرت بشيء أو نهت عنه، وأحب أن يكون منهم العلماء القادرون على إقامة الحجة والرد على المعارض في أسلوب حكيم ومجادلة بالتي هي أحسن. وإن هذه الهيئة لتأخذ من يوم تأسيسها المبالغ الطائلة والأعطية التي لا تؤخذ ممن يخشى الفاقة وإنما تأخذه شهرياً أو سنوياً لا يقل عن الألوف ومئات الألوف، وربما لا يقل عن الملايين، وليس الذي تأخذه اليوم في عهد الملك فيصل بأقل مما كانت تأخذه في عهد الملك سعود. وبهذه المناسبة أذكر أن كتباً دينية تقوم بتوزيعها هيئة الأمر بالمعروف على الحجاج وغيرهم من العلماء وطلبة العلم، ونرجو المزيد من هذا الخير وبالله التوفيق، ومن هذه الكتب ما هو في التفسير والحديث والفقه والتاريخ الإسلاميين، وكما هي موجودة ومنتشرة فإنها تدرس في المساجد والمدارس الحكومية والأهلية، ونحب أن يكون مع تدريسها حرية في الرأي وتقديراً لأصحابها من أهل المذاهب الصحيحة لا فرق بين شافعية وحنابلة وغيرهم، والبدعة ينبه عليها ويحذر منها، وما عارض الدليل أو لا دليل عليه فيطرح، ولا يجوز التعصب له مهما كان قائله ولا بد في المدرسين ورجال التربية والتعليم من سعة الاطلاع ومعرفة الأصول والقواعد التي تؤخذ منها وتبنى عليها أقوال العلماء حيث لا يردوا على محق ولا ينتصروا لمبطل (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون).

(١) لا نعلق على هذين البيتين أكثر مما جاء في كتاب (أضواء على المملكة العربية السعودية) الصادر في سنة ١٣٧٦ هـ عن المديرية العامة للإذاعة والصحافة والنشر، قال في الموضوع:

إذا تأملنا أمهات المدن في المملكة مثل مكة المكرمة والرياض وجدة مثلاً وجدنا في كل منها عدداً من مستشفيات وزارة الصحة بعضها للأمراض العامة والجراحة وبعضها للأمراض العيون وجراحاتها، وبعضها للولادة وأمراض النساء وجراحاتها، وكل من هذه المستشفيات مجهز بأحدث الآلات والأجهزة الجراحية والإشعاعية ويتولى الإدارة والعلاج =

وجيشه لا بد من تفويته كي يدفع الطامع عن هويته
 والبأس لا يدفع بالشجاع إلا مع القوة في الدفاع (١)
 وحينما أكتب هذا الفصل والحرب تغشى جبلا وسهلا

= فيها زمرة من الأطباء العموميين والأطباء المختصين ومن بينهم عدد من أبناء البلاد الذين تخرجوا حديثاً أطباء من الجامعات ويشغلون الآن وظائف إدارية وفنية في أكثر المستشفيات، ويبلغ عدد مستشفيات وزارة الصحة في نهاية سنة ١٣٧٦هـ في سائر المملكة (٢٤) مستشفى، وعدد المراكز الصحية والمستوصفات (١٢٥) مستوصفاً، وعدد الأسرة طيلة العام (٣,٠٠٠) سرير تقريباً، وعدد المرضى الذين تستقبلهم عيادات المستشفيات والمستوصفات والمراكز الصحية في اليوم الواحد بالنسبة لسنة ١٣٧٦هـ (٩٣٠٠) مريض كلهم يعالجون بالمجان وتصرف لهم الأدوية حتى المستحضرات مها بلغت قيمتها من غير مقابل، وعماً قريب أي بعد أشهر معدودة تفتتح وزارة الصحة أحد عشر مستشفى حديثاً هي الآن على وشك التمام في ابها وبيشة، وجيزان وبريدة والمجمعة وشقراء وحائل والدمام والخبر وتاروت وغيرها، وكل أجهزتها من آخر طراز فني وتدار كل آلاتها حتى مطابخها بالكهرباء وفي كل منها طبيب باطني وجراح ومساعد أشعة وعدد من المرضين، وبها أقسام للعزل ولأمراض النساء هذا عدا عن مؤسسة الدم في جدة والرياض والدمام وقريباً تعمم بنوك الدم بحيث لا تخلو منها بلدة كبيرة، ومعلوم أن بنك الدم مؤسسة تحفظ مقادير من دماء الأحياء المتبرعين في ثلاجات وأجهزة خاصة لتقدمها مجاناً للمنزفين أثر الحوادث الدامية أو لإصلاح حالة الدم في بعض الأمراض كفقر الدم الخبيث، انتهى.

(١) جيش المملكة في عهد الملك سعود لا يستهان به من حيث عدده وتدريبه تدريباً عسكرياً على حل السلاح واستعماله، وطاعة قواده وقوة الجنود، وتوفير ما يحتاجون إليه من المعالجة الطبية وحسن الأغذية والملابس، ومعرفة كل بما عليه وتأدية الوظيفة على ما ينبغي في كل فرقة سواء في الطيران والجيش والبحرية والبرية، ولهم المدارس الخاصة التي يتخرج منها رجال الشرطة وغيرهم وبه توجد في عموم المدن والمراكز الهامة وترسل البعثات إلى الخارج لدراسة الفنون الحربية وللتخصص في ما يقتضيه الحال وتدعو إليه الحاجة، ولا شك أن نفقات الدفاع كثيرة في ميزانية الدولة، وما تزال تكثر ويصرف منها على صنع السلاح في الداخل وشرائه من الخارج، وعلى جلب الخبراء والفنيين للمصانع والتدريب ومع أن الجيش السعودي محارب بطبعه وقادر على الهجوم والدفاع لما =

بين السعوديين والثوارِ على إمامِ اليمنِ الأحرارِ
تُسندُهُم مصرُ بما لديها وإنما حسائبهم عليها^(١)

= جبل عليه من الشجاعة ولما نشأ عليه من الكر والفر والدفع والرفع، ولما فيه من حب لدولته وبلاده والإخلاص لها فإنه لا بد من تقويته بتكثير عدده واستكمال عدده والشجاعة وحدها لا تكفي والسلاح وحده لا يكفي أيضاً، خاصة مع كثرة الأعداء وانتشار الفتن وتغلب الأقوياء على الضعفاء بغير حق بل الأمر كما قال المتنبي:

الرأي قبل شجاعة الشجعانِ هو أول وهي المحل الثاني
وكما قال الشاعر اليمني ابن المقري:

عقل الفتى ليس يغني عن مشاورةٍ كحدة السيف لا تغني عن البطل

والآن يبلغنا عن الدفاع السعودي أنه كل يوم أحسن من أمسه، وأن مصانع السلاح تنتج، وأن الخبراء الأجانب يدرّبون الفرق الحربية على استعمال الأسلحة الحديثة وتدبر الخطط الحكيمة في الإقدام والإحجام والاستعداد الكامل لما قد يحدث أو هو حادث، ونسأل الله أن يحفظ بلاد الإسلام كافة من كل سوء ومكروه وأن يوفق المسؤولين للعمل بقوله تعالى: ((وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون)).

(١) لما قامت الثورة في اليمن على الإمام البدر محمد بن حميد الدين وتدخلت مصر في القضية تدخلاً مباشراً والتجأ الإمام إلى السعودية يطلب منها النصرة والمعونة، توسعت شقة الخلاف وكادت الحرب تشب نارها بين المصريين الذين يريدون سحق الملكية والقضاء على الأوضاع القديمة كيف ما كانت وبين السعوديين الذين بحكم عروبتهم وإسلامهم ينتصرون للمظلومين ويقفون إلى جانب اللاجئ إليهم والمستجير بهم وعملاً بقول النبي صلى الله عليه وسلم لخليفه الخراعي حين جاء يذكر له ما أصابهم من قبيلة بكر بن وائل فقال عليه الصلاة والسلام «نصرت يا عمرو ابن سالم» فكان ما علمت من فتح مكة، وربما كان الملك سعود يخاف ما قيل (ما حل بجار حل بدارك). أو ما قاله الشاعر العربي:

من حُلِقَتْ حلية جارٍ له فليسكب الماء على لحيته

وانعقد المؤتمر الإسلامي
 يرأسه جلالة السعودي
 وغيرهم من علماء المسلمين
 فضلا عن الآتين من أفريقيا
 وكينيا ومصر والسودان
 واتخذت فيه القرارات التي
 كرفضهم للمذهب الشيوعي
 وأنه لا فضل للإنسان
 والعمل الصالح أيًا كانا

مقره في البلد الحرام
 لعلماء العرب والهنود
 حتى من الجاوة والفلبين
 من السنغال ومن أنجيريا
 وفيه مندوب عن الأفغان^(١)
 جاءت بها في الأرض خير ملة
 والاشتراكية في الجموع
 إلا يا له من الإيمان
 فالدين قَدْ صَبَّرْنَا إخوانا^(٢)

فكان لا بد من معاونة الإمام المعتدى عليه بغير ذنب ودفاعاً عن النفس فقطعت العلاقات بين الدولتين وتهددت الجمهورية اليمنية وأنصارها المملكة السعودية بالزحف عليها وضربها في عقر دارها، فاستعدوا لمجابهة الخطر لما قد يحدث، وأخذت تقوي جيشها وتشترى السلاح ولكن الله سلم وخفت حدة الشربين الجانبين، والله نسأل أن يحفظ الجميع من الفتن وألا يجعل للشيطان سبيلاً على المؤمنين، وإنما أشرت بهذه الثلاثة الأبيات إلى ما جعل ويجعل السعودية تعتنى بقوة الدفاع وتبينة نفسها لمجابهة الخطر ولا خطر إن شاء الله.

(١) في مكة المكرمة وفي موسم الحج عام ١٣٨١هـ انعقد المؤتمر الإسلامي في دورته الأولى وشرف جلالة الملك سعود جلسة الافتتاح وألقى كلمته التاريخية ونشأت رابطة العالم الإسلامي وجعل قصر الملك عبد العزيز بأعلى مكة مقراً لها، واشتركت في المؤتمر دول وشعوب إسلامية كثيرة من العرب والهنود والجاوة والفلبين وإيران والأفغان والأترك وغيرهم من الأقطار الإسلامية في شرق آسيا كما حضر الممثلون الأفريقيون من السنغال ونيجيريا وأثيوبيا والسودان وغيرهم وساد المؤتمر روح الود والإخاء وشعر المؤتمر ببركة قول الله تعالى: ((وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتينا من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم)) الآيات إلى آخرها.

(٢) من القرارات التي اتخذت في ذلك المؤتمر: التمسك بأحكام الإسلام ومحاربة المذاهب المخالفة لتعاليمه من الشيوعية والاشتراكية وتحديد الملكية والتمييز العنصري بين =

وكان للجامعة العلمية والحاضرون فيه أهل الخبرة
مؤتمراً في طيبة المرضية بكل نزعة وكل فكره

= الأجناس البشرية، فن ملك شيئاً من حله وبطريقة مشروعة فهو له، وإن كان أوفياً مؤلفاً، أو فدايين من الأرض كثيرة، ولا شيء على صاحب المال إلا زكاة ماله وفطرته وما يجب عليه من النذور والكفارات، أو ما يتطوع به من الصدقات والهبات أو ما لا بد منه لحماية الدين والوطن وسلامة الدولة القائمة بواجبات شعبها وحفظ مصالحه التي يقضي بها روح العصر والمجتمع، ثم لا فضل لأحد على أحد إلا بتقوى الله والعمل الصالح، والعربي والعجمي والأبيض والأسود، والأسمر أمام الله شيء واحد ذلك هو أهم ما تقرر في المؤتمر ووافق عليه الجميع، ولقد كنت أنا الممثل الوحيد لعهد لعدن الغير رسمي في تلك الدورة، أما دورة المؤتمر الثانية في سنة ١٣٨٤ هـ فكنت رئيساً لوفد الجنوب العربي رسمياً وذلك في عهد الملك فيصل بن عبد العزيز حفظه الله، والحاضرون في هذه الدورة ثلاثة وخمسون وقدأ ومنها خمسة وثلاثون عن الدول الإسلامية وثمانية عشر من مختلف الشعوب الإسلامية، وتشكلت خمس لجان للدعوة الإسلامية والشؤون الثقافية والاقتصادية والتضامن الإسلامي والقضايا الإسلامية بما فيها حق تقرير المصير، والقرار المتعلق بأمر الجنوب العربي وهو كما يأتي:

ينظر المؤتمر بعين القلق الشديد إلى المكائد الاستعمارية في منطقة الجنوب العربي، ويحيي جهود العاملين المخلصين في تحرير بلادهم وإصلاحها ويطالب الدول العربية والإسلامية والصديقة المحبة للسلام بمساعدة الجنوب العربي في كفاحه ضد الاستعمار لنيل سيادته بكل الوسائل المستطاعة لكي يتحرر من الحكم والنفوذ الأجنبي، وينال سيادته كاملة ويتمكن من ممارسة حقه في تقرير مصيره في نطاق الأمة العربية والعالم الإسلامي، انتهى. وألقيت في المؤتمر قصيدة طُبعت ووزعت على الأعضاء ومطلعها:

أيها المسلمون من كل شعبٍ	من بني يعرب ومن غير عربٍ
أيها القادمون من كل قطرٍ	يجمع الله بين شرقٍ وغربٍ
وإذا ما الجنوب لاقى شمالاً	فحبب مصافحٍ لمحِبٍ
أيها السوافدون في خير وقت	كلنا اليوم في ضيافة ربي
مرحباً مرحباً وأهلاً وسهلاً	بحجيجٍ مكبرٍ وملي

وهي طويلة وموجودة في الديوان الشعري ونسأل الله أن يحقق ما تهدف إليه هذه المؤتمرات التي تعقد اليوم في كثير من البلدان الإسلامية والعربية وغير العربية.

ومهمُّ الشَّيْخِ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ فَوَضَعُوا بِرَامِجِ التَّعْلِيمِ
وَكُلَّ مَا لَا بَدَّ مِنْهُ لِلْعَمَلِ وَاللَّهُ تَرَجَّوْا أَنْ يُحَقِّقَ الْأَمَلَ (١)
أَمَّا شُؤْنُ الْمَلِكِ وَالسِّيَاسَةِ وَكُلَّ مَا تَقْضِي بِهِ الرِّئَاسَةَ

(١) بعد الدورة الأولى للمؤتمر الإسلامي اجتمع في المدينة المنورة كثير من المؤتمرين للبحث في شؤون الجامعة وبرامج التعليم فيها، وما هي العلوم والكتب التي ينبغي أن تعلم فيها، وما الذي يشترط في المنتهقين بها والمنتسبين إليها من حيث السن وسابق المعرفة، وهل يقبل فيها الطالب السعودي وغيره وكم يكون عدد الطلاب لكل سنة، وكيف يوزع العدد على الأقطار الإسلامية، وما هي المساعدة المالية التي يتحصل عليها طالب الجامعة الإسلامية في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، وهل يدرس الفقه على المذاهب الأربعة أم على مذهب واحد معين، وما هي الكتب التي تقرر للتفسير والحديث والفقه وأصوله واللغة العربية بمصطلحاتها ثم ما هي اللغات غير العربية التي لا بد من دراستها للطلاب الجامعي حتى يكون واعظاً ومرشداً إذا أرسل للتبشير والدعوة إلى الله إلى أي بلاد أو أمة في مختلف القارات، وتباحث أولئك من مصر والشام والمملكة العربية السعودية وغيرهم من الهند والجاوة والأفريقيين، وتقرر أن يكون رئيس الجامعة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي البلاد السعودية ورئيس المؤتمر الإسلامي أيضاً، ومن أبرز الشخصيات التي ناقشت هذه المواضيع وكان يؤخذ بآرائها محمد حسين مخلوف مفتي مصر سابقاً والسيد أبو الحسن علي الندوي وأبو العلاء المودودي وعبد الله القلقيلي مفتي المملكة الأردنية الهاشمية، وكان نائب الرئيس هو الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، وغير هؤلاء آخرون من رجال التربية والتعليم وقادة الفكر الإسلامي، ونسأل الله أن يحقق الأمل ويصلح العمل في الجامعة الإسلامية المدنية، ولقد زرتها في أول ذي الحجة من سنة ١٣٨٤هـ ومع الأسف كانت العطلة الصيفية قد ابتدأت فيها ولكنني تشرفت بمقابلة بعض المسؤولين والمدرسين في الجامعة من أمثال الشيخ محمد العبود والشيخ عبد القادر شبية الحمد والتقيت بكثير من الطلبة وزرتهم في منازلهم وطلبوا مني كلمة توجيهية فألقيتها عليهم وأرجو الله أن تكون نافعة مقبولة، وهذه الجامعة تعد بحق من حسنات الملك سعود ولكن أهل هذا البيت مثل الغيث الطيب كله بركة أوله وآخره، وما أشد حاجة المسلمين وخاصة في مهبط الوحي ومبعث الرسالة إلى إنشاء الجامعات والمعاهد والمدارس وحلقات العلم في المساجد حتى يكثر العلماء وحتى يعرف الناس كيف بدأ هذا الدين وكيف يعود ومن أين وإلى أين، والله المستعان.

فإنه لابن سعود القيد في قومه برده والأخذ (١)

(١) جميع ما ذكرناه من الأعمال الإصلاحية وما يعود بالنفع على الشعب، كان لا يجري ولا يتم إلا بعد التفكير الطويل والمشاورة التي يأمر ويقضي بها الدين في مثل قول الله تعالى: (فبإرحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين).

أما شؤون الملك وتدبير السياسة فأمر لا تكون فيه الكلمة الفاصلة أخذاً ورداً وقبولاً ورفضاً إلا لجلالة الملك لأنه المسؤول أمام الله عن سعادة رعيته وشقاوتهم وعن حفظ مملكته «وكلكم راع ومسؤول عن رعيته». وتصرفات الملك واجبة التنفيذ وطاعته مقرونة بطاعة الله ما لم يأمر بمعصية أو يضعف رأيه أو تتعقد عليه المشاكل، فإن للشعب المخالفة وعليه أن يريح الملك أو الرئيس مما يعانيه، ولأمر ما ولأسباب لا تعلم مسبباتها فقد عزل أو تنازل عن عرشه الملك سعود لأخيه الملك فيصل، وكلاهما عظيم ولا نقول في الاثنين إلا خيراً ولا نقرأ إلا قول الله تعالى: ((وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون)).

آل صباح في الكويت

كان الكويتُ بلداً مصغراً
وكان حصناً للأمير الخالدي
وفيه جنودٌ يحرسُ المراكبا
وابنُ عريمٍ الذي قد وهنتُ
إذ بقيتُ وما لها من سلطانٍ
وأهلها من تاجرٍ وغواصٍ
وقد أرادوا الخيرَ والصلاحا
واليومَ صارَ علماً مكبراً
وفيه حفظٌ صادرٌ وواردٌ
وما عليها ذاهباً وآيباً
قوتُها تركها فامتُحجتُ
يحفظُها من مُغتدي وشيطانٍ
قد عُرفوا بصدقهم والإخلاصِ
فجعلوا أميرهم صباحاً (١)

(١) الكويت بلد عربية تكون نصف دائرة على الساحل الغربي من رأس الخليج العربي وهي بين جنوب الجمهورية العراقية وشمال الإحساء التابعة للمملكة العربية السعودية ويبلغ طولها من الجنوب إلى الشمال نحو (١٨٠) ميلاً ومن الشرق إلى الغرب نحو (٢٥) ميلاً، وليس في الكويت ماء جار ولكن بها آبار مبعثرة في الصحراء، ويبلغ عمقها عشرين قدماً، ومياهها مالحة، واعتمادهم اليوم في الشرب والظهور بل وحتى في غسل الثياب على الماء المقطر من البحر، وتعتبر مشكلة الماء عندهم من أعظم المشاكل، وفي سنة ١٩٥٣م قامت الحكومة بإنشاء معملٍ للتقطير في ضاحية الشويخ، وقد وصل إنتاجه الحالي إلى (٤٥) مليون جالون في اليوم، وليس في الكويت سابقاً أشجار إلا السدر والنخيل وبعض ما لا ينتفع به كثيراً من الأشجار الأخرى، والموجود حالياً في بعض شوارع المدينة وحواليها وفي حدائق البيوت إنما هو للظل والزينة ويحصل منه بعض الفواكه والخضروات وهو قليل، وقبل مئات السنين كانت الكويت من جملة الصحارى العربية التي لا يعرف لها تاريخ واسع أكثر من أنها أنجبت الشاعر العربي الفرزدق، واتخذ بها خالد بن الوليد معسكراً لغزو العراق وفتح بلاد فارس، وفي العصور الأخيرة وقبل مئتين وخمسين سنة اشتهرت هذه البلدة وأخذ أمرها يظهر وشأنها يذكر وكانت تابعة لبني خالد كغيرها من السواحل المجاورة لها، وأميرها محمد بن عريم =

وهو ابنُ جابرٍ وفي بابِ النسبِ
ملوكُ نجدٍ وشيوخُ البحرينِ
وعامُ سبعةٍ وستينَ أتت
قام صباحٌ يحكمُ البلادا
قد أحسنَ الوقوفَ والمُضيَا
مشاوراً لغيره في الأمرِ
مُجتمعٌ بخيرِ ساداتِ العربِ
وقطرَ الثالثِ بينِ الاثنينِ
من بعدِ مئةٍ وألفٍ قد خلتْ
سنةَ أعوامٍ ولا انتِفادا
وكان في سيرتهِ مَرَضِيَا
مُؤمناً لبحره والبرِ (١)

= الخالدي هو الذي جعلها كوتاً وهو الحصن الصغير أو القلعة التي توضع فيها الذخائر ويعسكر بها الجنود لحماية الشواطئ من القراصنة المغيرين عليها وعلى المراكب الذهبية والآية من بندر في قطر والبحرين وإمارات الخليج، وما يقابلها ويحاذيها من شواطئ الإحساء، ولما ضعف أمر ابن عريعر بالحرب مع جيرانه من القبائل العربية، وللخلاف بين زعماء قومه تحلى عن الكويت أو وهبها لآل صباح القادمين مع آل خليفة أصحاب البحرين والجلاهمة الذين يرأسهم يومئذ الشيخ جابر العتيبي، وكان قدومهم من الهدار من مقاطعة الأفلاج في نجد، وأقاموا في قطر تحجباً للقتال والأخذ بالثأر، بينهم وبين بني عمومته، وحين ساروا إلى الكويت اشتغل آل صباح بالحكم وآل خليفة بالتجارة والجلاهمة بالعمل في البحر، وثلاثتهم كانوا تحت حماية بني خالد، ولما زال أمرهم وكان لا بد للكويت من حكومة تدفع عنها الغارات وتحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ومعظم السكان من التجار والغواصين، وكلهم مخلصون لبلادهم ويريدون فيها السلام والاستقرار فقد جعلوا الأمير عليهم الشيخ صباح الجابر جد هذه الأسرة الحالية وإليه ينتسبون، وذلك فيما بين سنة ١٠ إلى ١١٣٠هـ، ومن هنا يتبدى تاريخهم في البلد المصغر في لفظه ومعناه ثم المكبر اليوم بثروته البترولية وكثرة سكانه النازحين إليه من جهات شتى، ومن قصيدة لي أقول فيها:

جيلٌ مضى بعد جيلٍ كلما ذهب
دارت بقومٍ أقيمت بعدها بلدٌ

(١) هذا هو المشار إليه هو الشيخ صباح الجابر الأب السادس لأمير الكويت الحالي الذي سيأتيك نسبه فيما بعد وقبيلته وآل سعود كلهم من بني شيبان من ربيعة بن نزار بن معد ابن عدنان ومنهم آل خليفة أصحاب البحرين وأميرهم الآن هو الشيخ عيسى بن سلمان ابن حمد بن عيسى بن علي آل خليفة لما تأمر الشيخ صباح في الكويت كان لا يحكم ولا ينقض ولا يبرم في أي شيء إلا بعد مشاورة للأهالي والأخذ برأي أولي الرأي منهم، وقد =

وبعده قام ابنه عبد الله
أكثر من خمسين عاماً يحكم
وانتصر الكويت في أيامه
وقد أتوا في سفن كبيرة
وهو الذي بني على الكويت
يرد عنها كل من يأتيها
وحيث حل الفرس مينا البصرة
منتصراً على جميع من سواه
وحزومه وعزومه لا يُهزم
على بني كعب بني أعمامه
وانكسرت بالسفن الصغيرة
سوراً لحفظ متجر وبيت
من الغزاة للفساد فيها
أصبحت الكويت ذات شهره^(١)

= عاهدوه حين أمره على السمع والطاعة له وأنه نافذ الكلمة وملزم بحكمه الشريف
والوضع والقوي والضعيف على السواء، ويقال إنه طيب السيرة مرضي السيرة ومن
أجل ذلك وقع عليه الاختيار دون غيره، وقام بتطهير البحر من القراصنة الذين كانوا
يهددون الخليج، فنشر الأمن على شواطئ الكويت وجعل منها ميناء مزدهراً، كما أمن
طرق التجارة المؤدية إلى داخل الجزيرة العربية، وأولاده الذكور ستة وهم صباح
وعبد الله وسلمان ومالك ومحمد ومبارك، ومدة إمارته ست سنوات تقريباً، ويقال إنها
من سنة ١٧٥٦ إلى سنة ١٧٦٢م وفي المنظومة وقع ذكر إمارته من سنة ١١٦٧هـ، وإنما
ذكرت التاريخين للخلاف في وقت إمارته. والله أعلم بالصواب.

(١) أمير الكويت الثاني من هذه الأسرة هو الشيخ عبد الله بن صباح الجابر، وتأمّر
بعد أبيه، وعاش أميراً على بلاده خمسين سنة أو أكثر بقليل، ويقال إنه توفي سنة
١٨١٢م، وكان شجاعاً حازماً بصيراً بأحوال الحكم، كيساً في معالجة المشاكل، وفي
أيامه نشطت التجارة وأصبح الكويت ميناءً بحرياً هاماً، وخاصة حين استولى الفرس
على البصرة من سنة ١٧٧٦م، إلى سنة ١٧٧٩م مدة ثلاث سنوات، وتحولت تجارة
الهند مع بغداد وحلب وأزمير والآستانة من البصرة إلى الكويت، ونشطت التجارة في
عهده مع الهند والعراق واليمن وكان منتصراً في الحروب مع أعدائه وخاصة مع قبيلة بني
كعب الذين أرادوا أخذ الكويت والاستيلاء عليها، وديروا لذلك حيلة واتخذوا خطة
فاشلة أظهروا خطوبة لابنة الشيخ عبد الله، وجاءوا بقواتهم ومعداتهم لتنفيذ ما أرادوه في
الحقيقة، وفطن ابن صباح لحيلتهم فاستعد لإحباطها ولقاومة الشر بثله، فأرسل أهل
الكويت في سفنهم الصغيرة والتقوا بأعدائهم في مكان يقال له (الرقعة) وهو مكان ضحل
قريباً من جزيرتي فليكة ومسكان، وكان قد ندم الشيخ عبد الله لإرسال قومه وخاف =

ولم يكن له من الولد سوى وهو الذي أراد أهل البصرة وقد رأوا عاقبة المنازعة وقد غزا قبيلة التّصارٍ من قومه وانتصرت جنوده قد لقبوه جابر العيش لا وليس ذا مالٍ كثيرٍ بذلة

جابر الذي على الحكم استوى أن يُخميّداً أنفاسه وذكره فرجع السعدون للموادعة مُنتقماً لأحد التجار وكان جابرٌ كثيراً جوّده يَعْرِفُ منه أهلُ ذلك الجَمَى لطارقٍ أو لفقيرٍ يسألُه^(١)

= عليهم من الهزيمة لقلّة عددهم أمام بني كعب المغيرين بقوة أهل الكويت، وأرسل إليهم يأمرهم بالرجوع ولكن رسوله بلغ الجيش تحريض أميرهم على الهجوم وألا يكونوا مدافعين فحسب، ونفخ الرسول فيهم روح الشجاعة والحمية وقال لهم: إن المرء لا يموت إلا إذا حضر أجله، فهاجوا أعداءهم بسفنهم الصغيرة وساعدتهم البحر بالجزر الذي لا تستطيع السفن الكبيرة الحركة معه وبدأوا بالزعراء وقادة المغيرين فانحصروا عليهم وكسبوا المعركة وعادوا بأموال وأسلاب مغنومة كثيرة، وظهرت شجاعتهم وهابهم الكثير من جيرانهم، ورأى الأمير عبد الله ضرورة سور بينى على المدينة ليصد عنها الغارات ويحفظ أسواقها وبيوتها من عبث المفسدين في الأرض أفراداً وجماعات، فبنى السور في عهده ممتداً من حي النصف في الشرق إلى حي البدر في الجنوب، واشترك في البناء جميع الأهالي من الحاكمين والمحكومين والتجار والعمال جميعاً، واتخذت لذلك السور خمسة أبواب كل واحد منها إلى جهة، ولم يكن للشيخ عبد الله من الأولاد الذكور إلا ولده الجابر الذي صار أميراً من بعده.

(١) ولي الحكم بعد أبيه في الكويت الشيخ جابر بن عبد الله بن صباح من حين توفي في التاريخ المذكور سنة ١٨١٢ إلى ١٨٥٩م، ومدة أمره سبع وأربعون سنة وهو الذي كان يريد صاحب البصرة بندر السعدون غزو بلاده ومهاجمته في عقر داره لغير سبب يحمله على ذلك، واستعد الكويتيون للدفاع، وجددوا ما تحرب من سور بلدهم، وأرسلوا من قبلهم رجلاً من زعمائهم يقال له عبد الرحمن الدويرج ليفاوض السعدون في الأمر فحذره عاقبة البغي. وأخبره أن أهل الكويت سيناجزونه الحرب فإن ظفروا كانت لهم، وإن انهزموا فقد جعلوا نساءهم وأطفالهم في سفنهم الشراعية التي سيفرون بها إلى أماكن النجاة وإلى حيث تقصر عنهم أيدي أعدائهم، وما زال رسوهم يراجع السعدون حتى =

وليموالاة بني عثماننا
 وجعلوا له عطاء يائيه
 والإنجليز حاولوا الحلق معه
 وعاش في الحكيم سنينا سبعا
 قد عظموه رتبةً وشانا
 في كل سنة له ولبنيه
 وخاف من عدوه أن يخدعه
 وأربعين وانتهى في المسعى^(١)

= أدرك أنه مخطف و ربما ينهزم فتفوته الغنيمة والصحة وحسن الجوار، فترجع عن قصده وأخذ يحسن العلاقات مع الشيخ جابر ويثني عليه في مجالسه ويصفه بالكرم والجود مع فقره وقلة موارد دخله، وقتلت قبيلة النصار رجلاً كويتياً من آل الدبوس ظلماً وعدواناً، ورأى جابر الصباح في ذلك مهانة له ولقومه واحتقاراً لأمرهم، فجهز جيشاً منهم وذهب معهم في السفن الشراعية وقتل من أعدائه رجالاً كثيرين وعاد منتصراً ولم يسمح لقومه بمتابعة المنهزمين بل قال كلمته المشهورة (اتركوا الذليل منهزماً) والناصر بتشديد الصاد المهملة قبيلة عربية تسكن الجهة الشرقية من شط العرب، وعرف جابر بن عبد الله الصباح بالجود والكرم وإطعام الفقراء والمساكين مع فقره وقلة ذات يده، ولم يكن شديداً على رعيته في فرض الضرائب ولا في أخذ شيء من أموالهم بل إنه عاتب ولده الصباح بأخذ شيء غير مستحق من أحد التجار ورد المظلمة إلى صاحبها وعاتب ولده في ذلك، وكان يفرش الحصر ويطرح عليه الزاد للغرباء والمحتاجين حتى لقبوه (جابر العيش) والعيش هو الطعام، وإنما الجواد من أنفق القليل ولم يبخل بالكثير، ولا شك الكرم حبيب الله كما يقولون، والكرم والشجاعة صفتان لا تفترقان، ومن شجاعة هذا الأمير أن والي البصرة قد اعتقل رجلاً كويتياً من آل البدر؛ فطلبه الشيخ جابر وأبى الوالي أن يطلقه فسار إليه بأسطوله البحري ورجاله وحاصر البصرة مدة طويلة ولم يفك عنها الحصار حتى خلى سبيل الكويتي ورجع إلى أهله والحاكم العادل لا يعد رعيته إلا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

(١) كانت العلاقات حسنة للغاية بين الشيخ جابر والحكومة العثمانية، فلقد ساعدها في استرجاع البصرة وإخماد الفتنة التي كانت بها، ورفض الاتفاق مع بعض الحكومات العربية خشية أن يتكدر الصفو بينه وبين السلطان العثماني فعظموا شأنه ورفعوا منزلته وعقدوا له علماً أخضر وأعطوه فرماناً بالإمارة وقرروا له مرتباً سنوياً مئة وخمسين كارة من التمر ومعها شيء آخر يجري له ولبنيه من بعده، وحاول الإنجليز أن يعقدوا حلفاً مع الشيخ جابر ولم يقبل مخافة أن يخدع، وخداع إنجليز معروف، ورد ما =

صباح الجابر الثاني وأولاده

بَعْدَ أَبِيهِ جَابِرٍ تَوَلَّى وَقَدْحُهُ فِي قَوْمِيهِ الْمُعَلَّأَ
سَبْعَ سَنِينَ حَاكِمًا مُطَاعًا يَغْدِلُ فِي الْأُمُورِ مَا اسْتَطَاعَا
إِذَا أَشَارَ النَّاسُ بِالْأَمْرِ عَلَيْهِ فَكَّرَ فِيهِ غَيْرَ مَسْرَعٍ إِلَيْهِ (١)

= عرضوا عليه وعمل بالمثل السائر الحمية خير من العلاج، ولم يشعر الكويتيون بفارق كبير بين الرعية والراعي حيث كان الأمير يعد نفسه واحداً منهم يغضب لغضبهم ويرضى لرضاهم طيلة أيام حكمه حتى توفي رحمه الله في سنة ١٢٧٦هـ الموافق سنة ١٨٥٩م وبموته ينتهي الدور الأول من تاريخ آل صباح، وخلف من الأولاد اثني عشر ذكراً وهم صباح وسلمان وخليفة ومحمد ومقرن وعلي ومحمود وجراح ومبارك وشعلان ودعيج وعبد الله، ومن كان له ذرية طيبة فامات.

(١) مؤسس هذه الدولة هو الشيخ صباح الجابر الأول وتقدم لك طرف من تاريخه وفي الكويت ومن هذه الأسرة الشيخ صباح الجابر الثاني وهو المترجم له في هذا الفصل، ولي بعد أبيه جابر من سنة ١٨٥٩م إلى سنة ١٨٦٦م ومدة إمارته سبع سنوات فقط، ولكثرة إخوانه وتأمره عليهم كان قدحه المعلا ونصيبه الأوفر والأحظ، والقده المعلا هو الأول من السبعة السهام التي كانت تضرب على الميسر في الجاهلية، ويعبر بهذه الكلمة عن المتقدم في الشيء والمبرز فيه، وهذا الرجل وإن كانت مدة إمارته قصيرة فلقد كان محبباً في قومه وسائراً في رعيته بسيرة أهله عدالة ورفقاً وأخذاً بآرائهم ومجاراة لهم في معظم الأمور، وكانت البلاد في عهده غنية والأحوال رحية، ولما أراد أن يفرض ضريبة على الناس في تجارتهم وهي أكثر من المألوف عارضوه وهددوه بمغادرة البلاد وذكر حاجة الدولة إلى المال فجعلوا كل شيء تحت يده وأذنوا له أن يتصرف في كل شيء كما يريد شريطة ألا يجعل ذلك حقاً واجباً مستمراً على الرعية واستجاب لهم حين عرف طاعتهم وأنهم يأبون أن يظلموا مع القدرة على مراجعة الظالم، ومن أحسن صفاته الأناة وعدم الاستعجال في الشيء حتى يفكر فيه ويعرف عاقبته ويستشير من يثق به فيما أشكل عليه، ويذكر الكويتيون أن عبده عنبر اعترض مرة قافلة خارجة إلى نجد وطلب منهم =

وكان بينه وبين ابن سعود
وقدّر الشيخان سوء العاقبة
وعمت الخيرات في زمانه
وقام عبداً لله من أولاده
ودام ستة وعشرين سنة
وكان ذا تقشف وزهد
قد وثق الأمر مع الأتراك
وقاد في الإحساء والقطيف
مبارك أخوه في الإحساء
ومنحوه اللقب المشهوراً

خلف وناز الحرب تأكلُ الوقود
فلم تقع حرب ولا مُغالبة
بلاّده والبعض من جيرانه^(١)
بحكم أهله على بلاده
في بلد وأمة مُستأمنة
تراه في مظهره كالجُندي
والإنجليز خشيّة الهلاك
جيوشه لنصرة الحليف
وهو إلى القطيف باللواء
قائم مقام منصباً كبيراً^(٢)

= أكثر مما عليهم واشتبك مع أحد الوجهاء فاعتدى عليه وضربه فغضب الناس واشتكوا
بالعبد إلى سيده وأراد حبسه ولم يكتفوا بذلك بل طالبوا بنفيه وتسفيره وتآزم الموقف وقتل
العبد سيده محمد بن الشيخ صباح المذكور ورأى في ذلك حلاً للمشكلة فاستراح منه
وأراح الناس.

(١) لما خرجت قبيلة العجمان من طاعة الإمام عبد الله بن فيصل بن سعود ولجأوا
إلى الكويت أرسل يظلمهم من الشيخ صباح ويقال إن رسوله قد أساء التعبير واستعمل
ألفاظاً تثير الحفاظ وتجعل العربي لا يسلم من التجأ إليه ولو كان في الأمر ما كان،
فاستعد الشيخ صباح لمحاربة ابن سعود، وكادت الفتنة تأتي على الفريقين ولكن الإمام
السعودي كان أعقل من أن يحارب صديقاً عزيزاً عليه واعتذر من الكلمات التي قالها
سفيره وصفا للجويين الطرفين وأدرك كل منها مغبة الحرب وأنها قاضية على المنهزمين من
أحد الفريقين لا محالة وتحسنت الحالة بعد هذا ولم يكن الخير مقصوراً في تلك الأيام على
الكويت بل كان شاملاً لها ولجيرانها في نجد والعراق وما حوالها.

(٢) خلف الشيخ صباح ثمانية أولاد ذكوراً وهم عبد الله وجابر وجراح ومبارك
ومحمد وأحمد وعذبي وحمود، والأمير منهم عبد الله بن صباح الثاني، وكانت إمارته على
الكويت من وفاة والده إلى سنة ١٨٩٢م الموافق ١٣٠٩هـ، ومدتها ست وعشرون سنة.
وعرف بالزهد والتشف والتفكير والإصلاح بين الناس وعلاقته طيبة مع الأتراك والإنجليز محافظة =

وكان هذا الشيخُ يُصلحُ الأمور عند اختلافِ الرؤساءِ والضُدور
وسار مرةً إلى البحرينِ يُصلحُ بين اثنينِ أخوينِ
آل خليفةَ ولكن يعرفوا أتْهُموا من بعدِ هذا اختلفوا^(١)
وبعدَ أن قضى الحياةَ قاما محمدُ أخوه واستداما
في الحكمِ نحو أربع من السنين أخوه جراحُ ذراعهُ اليمينِ
وبعضُ تجارِ الكويتِ كانا للحاكمِ الضعيفِ مستعانا

= على استقلال بلاده وتباعداً بها عن المشاكل والاختلافات السياسية، لاسيما ولكل من الدولتين مصالح في الكويت كثيرة هذه تعدها باباً هاماً على جزيرة العرب ومنه الدخول على نجد والعراق، وتلك تعدها طريقاً هاماً من الطرق الموصلة إلى الهند وهي مستعمرة إنجليزية يعدونها جوهرة التاج ويحافظون عليها محافظة الإنسان على عنقه، وقد وقف إلى جانب الأتراك وقفة مشرفة وخاض معهم معركتي الإحساء والقطيف حين استنجد بالعثمانيين عبد الله بن فيصل السعودي على أخيه المنشق عليه سعود بن فيصل واستنجد هؤلاء بابن صباح لنصرة حليفهم السعودي فسار بنفسه مع جيشه بجرأ إلى القطيف وسار أخوه مبارك بجيشه برأ إلى الإحساء وافتتح كل منها البلد التي توجه إليها ورجعا إلى الكويت ظافرين منتصرين، وكبر شأن ابن صباح عند سلطان بني عثمان ومنحه لقب قائمقام وهو لا يمنح ولا يعطى إلا لرجل مهم ذي شهرة فائقة ومنصب عال، وكنا نعد هذه الألقاب شيئاً لا قيمة له فقد أصبح الناس يفاخرون بها ويعتزون بالحصول عليها ولا سيما إذا جاءت من الخلفاء والملوك ورؤساء الدول الكبيرة.

(٢) من أحسن ما يذكر عن الأمير عبد الله الثاني كراهته للخلاف بين الناس وخاصة بين الجار الجنب والصاحب بالجنب، ويتدخل تدخلاً مباشراً فيما يقع بين هذا وذاك من الخلاف المؤدي إلى القتال أو الفتنة والفتنة أكبر من القتل، ومما قام به من الإصلاح سفره إلى البحرين ليوفق بين الأخوين علي ومحمد آل خليفة ولقد لجأ الثاني إلى الشيخ عبد الله فكتب إلى الحاكم علي بن خليفة يعاتبه على ما كان بينه وبين أخيه محمد فأظهر أسفه وقال إنه مستعد للتفاهم مع أخيه، وسراً أمير الكويت لنجاحه في تضييق الشقة بين الأخوين وسار مع بعض أهله إلى البحرين ولكن آل خليفة اختلفوا واستبد علي بالحكم ولجأ بعد هذا محمد إلى الإحساء. والله المستعان.

من آل إبراهيم مستبداً وأبعدوا مبارك المباركا ومنعوه المال ثم سبوه فثار ذات ليلة منتقياً وقال يا أهل الكويت ماذا فسكتوا وبأبغوه واشتقروا

لا بد من مراده لا بدا^(١) عما يريد فاعلًا وتاركا كما روى التاريخ حتى أغضبوه من أخويه وقضى عليها ترون في الأمر العظيم هذا في الحكيم والدنيا تطيع من قدر^(٢)

(١) ولما توفي الشيخ عبد الله بن صباح الثاني خلفه أخوه محمد بن صباح وما دام في الحكم إلا أربع سنوات فقط وهي إلى الثالثة عشرة بعد ثلاثمائة وألف هجرية، وكان ساعده الأمين أخوه جراح يستشيره ويعتمد عليه في المهمات وربما وكل إليه عظام الأمور لبيت فيها وليعمل على إنجازها، ولرقتة ودماثة أخلاقه كان ضعيفاً ظاهر الضعف مما جعله يستعين بأخيه جراح وقد أثر عليه الوجيه يوسف الإبراهيم من وجهاء البلد وتجارها الكبار فكان بمثابة وزير ماليته وصاحب الرأي الذي لا يجد الأمير بدأ من قبوله واحتمال عاقبته وإن كان في الأمر ما كان، وقد أثر هذا الوجيه في إرادة الأمير محمد وحمله على مناوأة أخيه مبارك فكانت النتيجة كما يأتيك.

(٢) مبارك بن صباح الأمير السابع من هذه الأسرة، شديد البأس قوي البنية، سياسي محنك بعيد الغور، شديد الرأي مجازف لا يبالي بأي شيء إذا أقدم عليه مهما كان في نظر غيره، أخذ الحكم من يد أخيه محمد الذي أقصاه عن كل شيء ومنع عنه المال الذي يحتاج إليه في بيته ولأضيافه ولا إكرام من يأتيه من القبائل وهم يقدون عليه كثيراً ويرون فيه الكرم والشجاعة والاستعداد لتحمل مسؤولية المستقبل ولأعباء ما يأتي به الزمان، وكان في أخويه الأمير محمد ومستشاره جراح بن صباح قسوة وشدة على مبارك لا يشركانه في الحكم ولا يقبلان له قولاً، إما لأنها يخافان منه لكثرة ما ينفقه من بيت المال أو خزانة الدولة، وإما لوشاية الذين يفرقون بين الأخوة ويضرمون بينهم نار العداوة، وربما نال الأخوان من عرض أخيها الثالث وسباه وشتماه في المجالس أو سمعا من يقول فيه السوء ولا ينكران عليه فغضب الشيخ مبارك لهذا وفقد أعصابه وبات لا يستطيع تحمل الضيم ولا أن يصبر على الظلم وهو يرى من نفسه صلاحيته لحكم البلاد، وإنه أحق بذلك من أخويه محمد وجراح فهجم بأولاده ومن معه على أخويه في ذات ليلة من ذي القعدة سنة ١٣١٣ هـ فقتلها وجلس على كرسي الحكم واستدعى صبيحة تلك الليلة =

مبارك الصباح وأولاده

كان مباركٌ شديداً صلباً فيما يريدُه وفيما يَأبأ
 داهيةً في الحكمِ والسِّياسة همُّه تليقُ بالرئاسَة
 في وقتِه تنافسُ بين الدولِ على الخليجِ ولكلِّهم أملِ
 للإنجليزِ ولآلِ عثمانَ ولفرنسا وروسيا والألمانَ
 كلُّ يريدُ أن يَضُمَّه إليه ويُصبحَ الخليجُ في قبضِ يَدَيْهِ (١)

= أهل البلاد وعرض عليهم ما حصل واستشارهم فسكتوا ولم تبد منهم أية معارضة بل بايعوه، واستقر له الأمر، والحق ليس إلا لمن قدر، وصدق الله تعالى فيما يقول: (إنها لإحدى الكبر نذيراً للبشر لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر).

(١) أما كيف وصل الشيخ مبارك إلى الحكم فقد علمته وعلمت أنه كان داهية دهباء شديداً قاسياً صلب العود ماضي العزيمة، وإذا أراد شيئاً لم ينثن عنه، أو يموت دونه، وإذا امتنع من شيء لم يعطفه أحد، ولولا كثرة أعدائه وقوتهم لأصبح في الجزيرة المملك المطلق والسيد المطاع، ولكن حظه كان دون عزمه، ولا إعجابه بنفسه واحتقاره لخصومه وقلة المستشارين حوالبه أخفق في الحصول على ما يريدُه ويفكر فيه، ولا ينكر ما وصلت إليه بلاده في عهده من العزة والكرامة، فهو الذي رفع علمها وجعل الدول تعرف أهميتها الجغرافية والاقتصادية، وحتى ابن الرشيد الذي هزمه في موقعة (الصريف) كان يكبر شأنه، ويعدّه الرجل الكبير والمنافس الخطير، الذي يعظم قدره ويتقي شره، وهو متقلب في سياسته ولا يبالي بأي شيء في سبيل مصلحته، يناصر آل سعود في حرب آل الرشيد ويناصر هؤلاء خوفاً من توسع آل سعود، ويذكر أنه كان لا يبالي بأخذ المال من أي مكان، بيد أنه حريص على رفع مستوى الكويت وعزة أبنائها، وحصل من تنافس الدول على كسبه واستمالته إليهم واحتلال بلاده، بل الخليج العربي كله، في آخر القرن التاسع وأول العشرين ما جعله يطلب حماية الإنجليز والاستعانة بهم على الآخرين فالأتراك يشجعون ابن الرشيد على حرب ابن صباح وأخذ بلاده، و يوسف الإبراهيم مع =

وابن الرشيد كان خير الخلفاء
وهو الذي قد صار في الجزيره
إلا مبارك الذي بحاربه
وعنده آل سعود ومعه
إلا الرضا بالحلف والمعاهده
والدولة العليه المنتصرة
بين مجيئه إلى الأستانه
أو أن يُقيم حيث شاء مُبعداً

لآل عثمان بصدقٍ ووقارٍ
ذا شهره فائقة كبيره
وكاد في الحرب يزول جانبُه
في حربِه لكنه لم يسغه
ولإنجليز تحسن المعاقده
قد أرسلت إليه من يُخبره
وهم هناك يرفعون شأنه
ليس له إلا العشاء والغدا^(١)

= أولاد القتيلين محمد وجراح يؤلبون الأعداء، ويفكرون في القضاء على الشيخ مبارك مها يكلفهم الثمن، وقد استراح لقتل عبد العزيز بن الرشيد ولموت الإبراهيم في سنة واحدة وتنفس الصعداء وصفا له الجؤ، وأصبح الحاكم المطلق بغير منازع، وبما أنه قد انهزم أمام قوة ابن الرشيد فقد طمع الأتراك في كسر شوكته وإذلاله فأرسلوا إليه من البصرة نقيب الأشراف يخبره بين أشياء لا تعجبه ولا يقبلها، مع ما في الميدان من تنافس روسيا وفرنسا وألمانيا على الخليج عامة وعلى الكويت خاصة، فاضطر لعقد المعاهدة مع الإنجليز كما ذكرناه في الآيات الآتية.

(١) كان بنو عثمان لا يرون في حلفائهم العرب أكثر إخلاصاً من ابن الرشيد الذي توسع سلطانه وقضى في الحرب على آل السعود وشردهم من نجد وألجأهم إلى الكويت، حتى أذن الله في رجوعهم وانتصارهم على عدوهم كما تقدم في تاريخ الملك عبد العزيز، وبما أنهم كانوا في الكويت وانهزموا مع أميرها أمام بن الرشيد الذي قتل ابن الشيخ مبارك وبعض إخوانه وكثيراً من الكويتيين في المعركة وبعدهما أسرهم فإن السلطان العثماني قد طمع في إخماد أنفاس هذا الأمير الذي لم يكن في أيامه من يدانيه في حزمه وعزمه من أبناء الجزيرة، فخيروه بين أن يصل إلى الأستانة ويكون عضواً في مجلسها الاستشاري، أو يغادر الكويت إلى حيث يشاء ويترك الحكم ويجري له مرتب شهري يكفيه، وإلا فليستعد للتأديب والعقوبة، ولم يكن بد من مخالفة الإنجليز، وهو الذي يتلطف للناس في عقد الاتفاقيات ويعطي من نفسه لحلفائه ما يجعلهم بادئ الرأي وإن كان يضع لهم السم في العسل؛ وقد تمت بين الإنجليز والشيخ مبارك ثلاث اتفاقيات =

وكان في محالفات ابن صباح
بقاؤه ثم بقاءه ولديه
ولا يكون الامتياز نتما
وهم إذا ينتظرون البترول
وقن أراد الشرب الكويت
وبعد أن مضى على الموافقة
فلم يزل يشد أزرا بن سعود
حتى كفاه الشر من آل الرشيد

مع العدو في العدو والرواح
على الكويت وعلى ما في يده
إلا للإنجليز فيما نتما
في العرض من أرض الكويت والطول
فالإنجليز مثل أهل البيت (١)
فكر فيما يدفع المضايقة
وابن السعود أسد من الأسود
وابن الرشيد كان ذا بأس شديد (٢)

= الأولى في رمضان سنة ١٣١٦ هـ، والثانية في محرم سنة ١٣١٨ هـ، والثالثة في ذي الحجة
١٣٢٢ هـ، وخلاصة هذه الاتفاقيات اعتراف الإنجليز بأسرة مبارك الصباح وأن الحكم
محصور فيهم وأن الكويت حرة في سياستها الداخلية وليس للإنجليز حق التدخل في أي
شأن داخلي وأن إنجلترا مستعدة لمناصرة الكويت وحمايتها من كل عدوان يقع عليها من
الخارج وأن الصداقة التي تربط البلدين توجب على الكويت ألا تصادق أعداء الإنجليز
أو تعادي أصدقاءهم والا تبیح استغلال أرضها لأية دولة أو هيئة ما لم يتفق الطرفان
على ذلك، وهذه الخلاصة من (سجل الكويت اليوم).

(١) لا شيء في هذه الخمسة الآيات إلا ما ذكرناه في التعليقة الأولى، أما انتظار
البترول وكبير الأمل في خروجه فهو السبب الأعظم في هذه المعاهدة، وسيأتي الحديث
عنه قريباً.

(٢) لم يكن ابن صباح مكتفياً بالاتفاقية مع الإنجليز ولا معتمداً في كل شيء عليها
بل كان يفكر في القضاء على ابن الرشيد ومن أي طريق بدخل عليه فشجع عبد العزيز
ابن عبد الرحمن آل سعود على فتح الرياض وإن لم يكن قد أعطاه ما يحتاج إليه في المهمة
ولكنه قد أعانه وعرف شجاعته وما في نفسه من حب الانتقام والأخذ بالثأر، بيد أنه
صغير السن وعدوه خطير وكبير القدر ومهما يكن من شيء فإن ابن السعود مدين لابن
صباح وضيع مكرم عنده فإن انتصر فذلك ما يريد وإن ينهزم فرجوعه إلى الكويت يقوي
جانها ويزيد في بحث الإنجليز عن الأصدقاء الجدد المناوئين لبني عثمان وحلفائهم
العرب، ولقد انتصر عبد العزيز بن سعود على عدوه فاستراح وأراح منه صاحب =

ولم يَزَلْ محافِظاً على الولا
فكم وكم أرسلَ مِنْ إعانه
هذا وما قَصَّرَ في المساعِدة
وقلده الدولة العلية
أقامها يومَ قدومِ الشوافِ
هذا وما قصر في احتفاله
إذ جاء في الأسطول بحمي البحر
لآلِ عثمانَ إذا حلَّ البَلا
يومَ حريقِ شَبِّ في الآستانة
في حربِ ليبيا مع المعانِدة (١)
وسامها في حفلةٍ مَرَضِيَّة
ومعه الوسامُ رمزُ الاعترافِ
بكيرزون اللورد واستقباله
ويعرف البحر بها والبرا (٢)

= الكويت، وكانت النتيجة في صالح الإنجليز وابن سعود وابن صباح وضد بني عثمان المضطرين إلى التخلي عن تلك الجهات وقبول حماية بريطانيا على أهل الخليج.

(١) مع كل ذلك فالعلاقات حسنة بين الكويت والآستانة والشيخ مبارك محافظ على الإخلاص والولاء للسلطان المتمتع بالسلطة والتفوذ الروحي على معظم البلاد الإسلامية يدعى له على المنابر ولا يقصر المسلمون في مساعدته والوقوف إلى جانبه ضد أعدائه وإن كانوا يعيرون السياسة التي هو عليها ويفكرون في الخلاص من عبث الأتراك واستبدادهم بالبلاد التي يسيطرون عليها وابن صباح كغيره يظهر الولاء، وإن كان في نفسه ما كان، حتى لا يتهم بموالة الكفار ضد المسلمين وحتى لا تجرد الدولة العلية في نفسها عليه شيئاً ولا تنتقم منه لو قدرت عليه في المستقبل، ومن المساعدات التي قام بها ما أرسله إلى الدولة العلية في حرب طرابلس الغرب من الأموال والمساعدات الكثيرة، أما الحريق الذي شب في الآستانة وكانت أضراره جسيمة في سنة ١٣٢٩هـ فإن الشيخ مبارك لم يقصر في الواجب ولم يرسل أحد من الأمراء بمثل ما أرسل به من الإعانات والمواساة، وكان هذا بواسطة الشيخ سعود بن خالد الحضير البصري الذي سافر بين الجانبين وحسن العلاقات بينها وجعل السلطان يعترف بحسن الولاء ويقدر لهذا الأمير صنيعه الطيب وجيله العظيم.

(٢) قدر السلطان محمد رشاد للشيخ مبارك الصباح تلك المساعدة وأراد شكره ومكافأته عليها فنحه الوسام المجيدي من الدرجة الأولى وأرسل وفداً تركياً برئاسة عبد الملك الشواف مفتي البصرة ومعهم ذلك الوسام ووصل الوفد إلى الكويت في خمسة عشر صفر من سنة ١٣٣٠هـ، واحتفل الشيخ بوصول الوفد إليه احتفالاً كبيراً وبالغ في إكرامه، ولم يدع بعد ذلك فرصة تمر به إلا وأظهر فيها ولاءه وإخلاصه للسلطان، وفي سنة =

وكان لا يُخالف الأهلينا
 وسَلْ هَلالاً ثم سَلْ شَمَلانا
 في رأيهم إن شدة أولينا
 والشَيْخَ إبراهيمَ ماذا كانا
 وأشهر في الحكم دَامَ ثم مات (١)

= ١٣٢١ هـ زار الكويت اللورد كيرزون في رحلته إلى الخليج العربي وأحسن استقباله الشيخ مبارك، وهو يومئذ في أمس الحاجة إلى مصادقة الانجليز وطلب حمايتهم، وعينت بريطانيا وكيلاً سياسياً للكويت، واحتجت تركيا على هذا كله ولم يكن للاحتجاج أي أثر بل استطاع هذا الداهية أن يلعب على الحبلين وأن يشد بلندن وبالآستانة كلتا اليدين.

(١) في خضم من المشاكل وفي عاصفة من الزوابع الثائرة على هذا الأمير كان يغلب فلا يذل، وكان ينتصر فيرد الفضل إلى قومه ورعيته وربما قدم آراءهم على رأيه وآثر ما عندهم على ما عنده، وبعد مصيبتيه بالهزيمة في (الهدية) فكر أن يستعيد ما فاته فيجهز حملة على عدوه ولكن الوقت غير مناسب والأهالي مشغولون بتحصيل أرزاقهم في موسم الغوص فخالفه جماعة منهم هلال المطيري وشملان بن علي بن سيف وإبراهيم المصف، فلم يقبل معارضتهم ولم يربداً من تنفيذ خطته، فغضب هؤلاء وهاجر هلال إلى البحرين والآحران إلى جزيرة جنة، وتأسف الشيخ لمخالفتهم ولخروجهم من البلاد فسار بنفسه إلى البحرين لاسترضاء المطيري وسير ولده سالملاً لاسترضاء إبراهيم المصف وشملان بن علي، وعرف بإخلاصه لبلاده وحرصه على كرامة مواطنيه، وأنه كان يتحمل المشقة ويصبر على المخالفة إذا كان في ذلك مصلحة عائدة على البلاد أو على أي واحد من الأهليين، ولقد استمر في حكمه تسع عشرة سنة وبضعة أشهر شمسية أو عشرين سنة وخمسة وأربعين يوماً، من خمسة وعشرين ذي القعدة سنة ١٣١٣ هـ إلى عشرين محرم سنة ١٣٣٤ هـ، ثم مضى لسببائه وترك الكويت وقد بدأت في مدنيته وحضارتها وأخذت بأسباب الرقي الذي وصلت إليه اليوم، ونسأل الله أن يعيد للعرب ما مر من المجد وأن يجعل مستقبلهم خيراً من الماضي، والتوفيق بيد الله.

فصل تابع لما قبله

بَعْدَ مَبَارِكِ الْأَمِيرِ جَابِرُ
ثُمَّ أَخُوهُ سَالِمٌ وَدَامَا
فِيهَا بَنِي السُّورِ عَلَى الْمَدِينَةِ
وَطَوَّلَهُ خَمْسَةُ أَمْيَالٍ وَقَدْ
وَأَشْتَمَعْتُ فِي وَقْتِهِ الْحُرُوبُ
أَشْهَرُهَا فِي حِمَضِ وَالْجَهْرَةِ
بَيْنَ الْكُوَيْتِيِّينَ وَالْأَخْوَانِ

وَنَحْوَ عَامٍ دَامَ هَذَا الْأَمْرُ^(١)
فِي حَكْمِهِ أَرْبَعَةَ أَعْوَامًا
حَتَّى غَدَتْ بِسُورِهَا حَصِينَةً
قَامَ بِهِ التَّجَارُ مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ
وَلَمْ تَكُنْ تُفْرِغُهُ الْخُطُوبُ
وَالنَّصْرُ مَرَّةً هُنَا وَمَرَّةً
مِنَ السُّعُودِيِّينَ وَالْعُجْمَانِ^(٢)

(١) خلف الشيخ مبارك سبعة أولاد ذكوراً وهم جابر وسالم وصباح وفهد وناصر وحمد وعبد الله، وتأمّر أكبرهم بعد وفاة والده الشيخ جابر الثاني وهو ثامن الأمراء من الأسرة، وكان واسع الصدر دمث الأخلاق لين العريكة حسن التفاهم مع أهله وجيرانه، كثير العطاء من مالية الدولة بعد ولايته، وقبل ذلك كان مشهوراً بالبخل، وقد خفف الضرائب المفروضة في عهد والده على التجار والغواصين ونشطت في عهده التجارة بين الكويت ونجد والحجاز والشام والعراق والآستانة، ورأب الصدع السياسي الذي كان بين والده في أخريات حياته وبين الملك عبد العزيز، وأبى أن يعلن ثورته على العثمانيين ومخالفته لأوامر الخلافة وقال أنا مسلم وما اتفق عليه المسلمون فأنا عليه، ولم يظل عهده وإنما مكث في الإمارة سنة واحدة وشهرين وستة أيام من تسعة وعشرين نوفمبر سنة ١٩١٥م إلى خمسة فبراير سنة ١٩١٧م.

(٢) بعد الأمير جابر قام أخوه الأمير سالم واستمر في الحكم أربع سنوات فقط، ومن أهم الأعمال التي قام بها في وقته بناء السور الجديد المحيط بالكويت، وطوله خمسة أميال وارتفاعه أربعة عشر قدماً وله أربعة أبواب، واشترك في بنائه أهل البلاد ودفَعوا نفقات البناء كلها، وحصنوا مدينتهم بهذا السور تحصيناً مكيناً، وكان مبنياً من الطوب الأحمر وتوسيع =

وسالمٌ قد جعلَ الضربَهِ
وليسَ في الصادرِ من بلادِهِ
وكان في العلمِ وفي العبادةِ
وعندَهُ الشاعرُ صقرُ بنُ شبيب
ومات سالمٌ ومن ورائهِ
فهدِ علي ودعيج وصباح

أربعةٌ من مئةٍ نصيبَهُ
شيءٌ وهذا كان من رشادِهِ (١)
ثُرَوِي له الأخبارُ بالإجادةِ
وإن صقراً في الكويتِ لأديب
فاضت يدُ اللهِ على أبنائِهِ
والشيخ عبد الله مطلعُ الصباح (٢)

= المدينة فقد أزيل السور في سنة ١٩٥٧م، وكثرت في أيامه الحروب مع القبائل المجاورة والدولة السعودية، ومن أهم المواقع واقعة الحمض بينه وبين ابن سعود، وواقعة الجهراء، بينه وبين الإخوان الوهابيين، من العجمان بقيادة فيصل الدويش وكانت الأولى عليه والثانية له.

(١) أما حالة البلاد الاقتصادية فإن الشيخ سالم سار بمثل ما كان عليه أخوه جابر في جباية الضرائب وتخفيفها على الناس بل إنه رفعها عن الصادرات كلها وجعلها على الواردات أربعة في المئة فقط، وذلك هو المعمول به في جارك الكويت حتى اليوم، ولا شك أن هذا كان من رشد الأمير وسياسته الحكيمة في توسيع التجارة ورغبة الناس في الأخذ والعطاء مع الكويت وأراد الانجليز أن يفرضوا حصاراً تجارياً على البلاد في أثناء الحرب العالمية الأولى مخافة أن تكون مصدراً لتموين الدول المعادية وأبي عليهم الشيخ سالم ما أرادوه رغم التهديد بضرب الكويت، إلا أن السير برسي كوكس تطف به ودعاه إلى الموافقة على طلب بريطانيا واشترط أن يكون الموظفون من أتباعه وأن تدفع له بريطانيا تعويضاً مالياً بعد الحرب عما قد تحسره بلاده من الفوائد التجارية، وفعلاً دفعوا له ذلك ولا نعلم مقدار ما دفعوا له.

(٢) يذكر عن هذا الشيخ أنه كان فقيهاً أديباً ملماً بقواعد النحو، متديناً محافظاً على الواجبات والآداب الإسلامية مع شجاعة وفروسية وحسن رماية، وكان يحب الأدباء ويقرهم إليه وهم يمدحونه ويثنون عليه بالقصائد الغر الطوال، ومن أشهر الأدباء وأكثرهم حظوة عنده الشاعر صقر بن المشيب، ومع الأسف لم أطلع على ديوانه ولا أحفظ شيئاً من قصائده ولو للاستشهاد على الأقل بشيء منها، ولكن شهرته في بلده تشهد له بالإجادة وأن الشيخ سالم كان يقدمه على غيره، وتوفي هذا الأمير التاسع من آل صباح في سنة ١٣٣٩هـ، وخلف من الأولاد الذكور خمسة وهم علي وفهد ودعيج وصباح =

وأحمد بن جابر بن مبارك
 يُقَدِّمُ الْعِلْمَ عَلَى السِّيَاسَةِ
 وَدُونَ التَّارِيخِ لِلْكُوَيْتِ
 وَأَسَّسَ الْمَدْرَسَةَ الْمَعْرُوفَةَ
 وَأَحْسَنَ السِّفَارَةَ الْعَظِيمَةَ
 مَا بَيْنَ عَمِّهِ وَبَيْنَ ابْنِ سَعُودٍ
 عَلَى طَرِيقِ الْأَهْلِ خَيْرُ سَالِكٍ
 وَيَبْعَثُ الْبُعُوثَ لِلدِّرَاسَةِ
 فِي عَهْدِهِ لِحَبِّهَا وَالْمَيْتِ
 وَبِاسْمِهِ مَشْهُورَةٌ مُوصُوفَةٌ
 وَجَدَّ الصَّدَاقَةَ الْقَدِيمَةَ
 بَعْدَ خِلَافٍ وَالْبَعِيدُ قَدْ يَعُودُ (١)

= وعبدالله الذي كنيته عنه بأنه مطلع الصباح وهو كذلك بل إنه اليوم لأمير الكويت وشمس نهاره المشرقة.

(١) عاشر الأمراء هو الشيخ أحمد بن جابر بن مبارك بن صباح المولود في سنة ١٨٨٥م، ولي بعد عمه سالم وكان من أبرز حكام الكويت وأبعدهم أثراً في حياتها وهو مؤسس نهضتها وصاحب عمرانها والقائم بالوثبة العلمية فيها، معروف بسداد الرأي وبعد النظر وقوة الشخصية، وفيه أناة وروية وسماحة، وكان لا يصدر أمراً ولا يقدم على شيء إلا بعد الاستشارة وتقليبه على مختلف الوجوه حتى يتبين له فيه الرشد وحسن النتيجة، ولئن كانت النهضة الكويتية قد ابتدأت في عهد الشيخ مبارك فإنها لم تزدهر ولم تشتهر وتنتشر إلا في عهد الشيخ أحمد الذي كان مولعاً بالصيد والقنص، كثير الأسفار إلى الشرق والغرب، معجباً بحضارة العصر الحديث وآخذاً منها بالأطراف الصالحة المفيدة، يشجع العلم ويفتح له المدارس ويبعث له البعث إلى الخارج، وأنشئت في عهده المدرسة الأحمدية ومدرسة السعادة وبعدها عشرات المدارس، واستقدم المدرسين من الخارج للتعليم في الكويت وأنشئت المكتبة الأهلية والنادي الأدبي وبنيت في عهده مدينة الأحمدية، وأسست دوائر الدولة المختلفة التي قامت مقام الوزارات حتى مطلع سنة ١٩٦٢م، ومن أجل الخلاف الذي كان بين الملك وسالم بن مبارك على الحدود بين البلدين فإن عمه سالم قد أوفده إلى الرياض للمفاوضة مع الملك ابن سعود فكان الشيخ أحمد لطيفاً في المحادثة وأديباً سياسياً في المناقشة وجاء نعي عمه سالم وهو في الرياض، وقد عين أميراً للكويت وظهرت عليه التأثيرات الشديدة لموت سلفه فهناه العاهل السعودي بتولي الإمارة وعزاه في عمه وضيق شقة الخلاف وقال له خذ ما شئت ودع ما شئت فما نحن وأنتم يا آل صباح إلا شيء واحد وإذا أحببت فاجعل حدود الكويت إلى خارج الرياض، وتحسنت بعد ذلك العلاقات وصفا الجو بين الجانبين وكان هذا في مطلع إمارة الشيخ أحمد فدل على سعادة مستقبله وعلى أنه الموفق فيما يعود =

وفي زمان أحمد بن جابر
 وابتدأت شركة المواصله
 بين الكويت وبلاد البصره
 وأعظم الأشياء مما حَقَّقَه
 وسألم القريبَ والبعيدا
 زار الرياضَ وبلادَ الهندِ
 وأبعدَ اليهودَ والصهائنةَ
 ومات في ربيعِ عامِ سبعينَ
 مجلسُ شوري كان للأكابرِ
 وكانت الخيراتُ منها حاصله
 وقد أفاد ابنُ صباحٍ مصرَه^(١)
 البحثُ عن بتروكٍ تلك المنطقه
 ولم يَكُنْ في سِلْمِه بليدا
 مُجاملا ومُظهراً للوُدِّ
 وفي فلسطينَ له مُعاوَنَة
 ورحمهُ اللهُ علينا أجمعينَ^(٢)

= بالخير على شعبه وبلاده، ولقد عاد ما كان بين الرياض والكويت من الود القديم والصدقة العظيمة، ومهما يكن من شيء بين رؤساء العرب وملوكهم فلا بد ما تقضي عليه حكمة العرب وحكم الإسلام، وأن البعيد ليعود، وحي الله آل صباح وآل سعود.

(١) في زمان الشيخ أحمد تأسس مجلسُ للشورى يستعين به الأمير ويعتمد عليه في المهمات ويأخذ بقراراته وكان مؤلفاً من الآتية أسماؤهم حمد الصقر رئيساً له والأعضاء هم الشيخ يوسف بن عيسى القناعي وأحمد الفهد الخالد وعبد الرحمن النقيب ومشعان الخضير وأحمد الحميضي ومرزوق الداود آل بدر وشعلان بن علي بن سيف وهلال المطيري وإبراهيم المصف وخليفة بن شاهين آل غانم وعبد العزيز الرشيد، ولم تطل مدة هذا المجلس بل انحل ولم تصبح له فائدة، والله أعلم من الذي كان سبباً في إلغائه وعاملاً على حله، وفي سنة ١٣٤٣هـ منح الشيخ أحمد للسيد حامد النقيب امتيازاً لتسيير السيارات بين الكويت والبصرة لمدة خمسين سنة، وبعد هذا تألفت شركة كويتية عراقية لتنفيذ هذا الامتياز، واستفادت البلاد من تلك الشركة فائدة تجارية عظيمة، وبها افتتح ابن صباح عهداً اقتصادياً تحضرت به الكويت وتقوت بها المواصلات بينها وبين البصرة وكثر النقل، وتيسر تبادل الزيارات والمنافع وصار أهل المدينتين كالسكان في مدينة واحدة.

(٢) تحققت للكويت آمال كبيرة وتوسعت تجارتها وانتقلت من حياة الغوص وبناء السفن الشراعية إلى حالة الغنى؛ وامتلأت الجيوب والصناديق بل البيوت والبنوك من الذهب الأهر الذي جاء به الذهب الأسود (البتروك) وقد منح الشيخ أحمد الجابر شركة =

= النفط الانجليزية وشركة غولف الأمريكية اللتين أصبحتا فيما بعد (شركة نفط الكويت المحدودة) منح الشركتين امتيازاً للبحث عن البترول في سنة ١٩٣٤م سنة ١٣٥٢هـ وعثر على البترول في الكويت والمنطقة المحيطة بكميات كثيرة هائلة من عدة آبار إلا أنها سدت بالاسمنت أثناء الحرب العالمية الثانية خوفاً عليها، وفي أكتوبر سنة ١٩٤٥م أعيد فتحها، وأصبحت الكويت بعد البترول من أغنى البلدان العربية وأصبح دخلها السنوي يزيد على مئة مليون جنيه ذهباً، وما يزال يتضاعف ويزيد، وصارت الدولة الفقيرة تمد إخوانها بالقروض والتبرعات الكثيرة لمختلف المشروعات الخيرية، وكان الأمير أحمد مسلماً للقريب والبعيد من الناس في حكمة ودراية يصون بها كرامة البلاد ويتمكن معها من التعمير والسير بالبلاد قدماً في كل مضمار من العلم والصحة والتجارة، ومن ذلك ما صلح من الأمر بين نجد والكويت ولم يتساهل في شيء تساهل الغفلة والغباوة ولكنه ينصف من نفسه ويطلب حقه بالرفق واللين، والله يصلح بالرفق واللين ما لا يصلح بالعنف والشدة، وقام بالزيارات الكثيرة التي وثق بها عرى الصداقة وأواصر الود والمحبة فزار الرياض بعد توليه الحكم، كما زار كراتشي عاصمة الباكستان، واتصل بحاكمها العام ثم زار بمبي في الهند وجمال وتلطف، وتركت زيارته لتلك البلدان أثراً طيباً واحتراماً متبادلاً، ولما علت الأصوات العربية ضد إسرائيل واحتل اليهود جزءاً كبيراً من فلسطين طرد الأمير أحمد اليهود والصهاينة من بلاده ولم يبق منهم أحداً فيها، وبذلك استراحت الكويت من شر اليهود وقطعت ما كانوا يؤملونه من خيراتها، ولم يقصر في مساعدة فلسطين ونصرة قضيتها والوقوف إلى جانبها مادياً وأديباً، ولقد أثنى عليه الكتاب المعاصرون بما يستحق من الثناء، وقالوا فيه إنه أديب واسع الاطلاع يرقب سير الحركة الأدبية والعلمية والسياسية في الشرق العربي عن كثب، ويقرأ الكتب والصحف ويجالس الأدباء والعلماء وهو معجب بالمدنية الأوروبية ميال إليها، ومن الخطة التي سار عليها أن يوافق في كل مساء أحد شيوخ الدين فيتلو درساً في الفقه أو الحديث أو العلوم الإسلامية الأخرى فيستمع إليه الأمير مع من يكون هنالك من ضيوفه وزواره ويظل على هذه الحالة حتى آذان العشاء، ولقد عاش في الحكم ثلاثين سنة من سنة ١٣٣٩هـ، إلى ربيع الأول من سنة ١٣٧٠هـ، فرحة الله علينا وعليه وعلى المؤمنين أجمعين، وخلف من الأولاد ثمانية ذكور وأحدهم صباح الأحمد وزير الخارجية في الوقت الحاضر، ومقامات الرجال لا تعرف إلا بقدر ما يقومون به من الأعمال.

الكويت اليوم

خَيْرُ الْجَمِيعِ أَوْلَىٰ وَآخِرًا
 مِنْ بَعْدِ أَحْمَدَ بْنِ جَابِرٍ وَقَدْ
 وَهُوَ ابْنُ سَالِمٍ وَقَدْ عَرَفْتُهُ
 فَإِنَّهُ لَعَالَمٌ أَدِيبٌ
 قَدْ أَصْبَحَتْ بِلَادُهُ غَنِيَّةً
 إِذِ اسْتَقَلَّتْ بِالْأُمُورِ كُلِّهَا
 أَبْوَابُهَا مَفْتُوحَةً لِلْوَالِحِ
 عَمْرَانُهَا الْيَوْمَ عَظِيمٌ جَدًا
 وَنَهْضَةُ الْكُوَيْتِ وَالْحَيَاةُ
 مِنْ أَهْلِ هَذَا الْبَيْتِ صَارَ الْإِمْرَا
 أَصْبَحَ عَبْدُ اللَّهِ خَيْرَ مَعْتَمِدٍ
 وَلَا أَقْوَلَ الْكُذْبَ إِنْ وَصَفْتُهُ
 أَنَّ يُدْعَىٰ لِلْخَيْرِ قَمُوسًا^(١)
 وَأُذِرَكْتَ فِي عَهْدِهِ الْأَمْنِيَّةِ
 وَشِمِلْتَ أُمَّتَهَا بِفَضْلِهَا
 بَعُوْثَهَا كَثِيرَةٌ فِي الْخَارِجِ
 وَبِالْأَيْدِي الْبَيْضِ تَبْنِي الْمَجْدَا
 أَكْبَرُ مَا يَذْكُرُ الرَّوَاةُ

(١) في هذا الفصل نذكر ما وصلت إليه الكويت في الوقت الحاضر، ومن هو الأمير فيها اليوم وهو أعظم أهل بيته قدرًا وأسعدهم خطأ وله مميزات فاضلة عن غيره فيما بينه وبين شعبه خاصة، والشعوب العربية وغير العربية، أما حاله مع الله فذلك إلى الله وهو العالم بما خفي من الأمر أو ظهر، ولا نزكي على الله أحداً، ومن ظاهر أمر هذا الشيخ أنه عالم أديب فخور بما يحفظ وما يطلع عليه من قواعد اللغة ومرويات الأخبار وكثير من المسائل الدينية، أما نسبه فهكذا: عبد الله بن سالم بن مبارك بن صباح بن جابر بن عبد الله بن صباح الأول مؤسس الدولة وأصلها الذي تنسب إليه، ولي الأمير عبد الله بعد ابن عمه أحمد بن جابر بن مبارك وسيرته في الحكم ومعاملة رعاياه مثل سيرة أسلافه إن لم تكن أفضل منها، ديمقراطية وتواضعاً وحرصاً على ما فيه مصالح الجميع، وكلما أذكره من صفاته فهو الحق والصدق إن شاء الله وهو بحسب ما وصل إليه علمي وكما يذكره المقربون إليه من خاصته وأهل مجلسه، ومن كبير فضل الله عليه ما أكرم به دولته من الغنى وما يسر له من البذل والعطاء، وكل ميسر لما خلق له.

قد زرّتها قبيل ست سنوات فيها خَطَّتْ إلى الأمامِ خطواتٍ (١)

(١) زاد الخير في الكويت وكثر الغنى وتضخمت الثروة في عهد أميرها الحالي وكادت البيوت تضيق بنعمة الله على أصحابها من حسن البناء وجمال التأسيس، وتوسع التجارة وعلو المرتبات الشهرية لأصحاب الوظائف وكثرة الأجور للعمال العاديين من أجل أن الدخل قد كثر، وأصبحت البلاد تأخذ من شركة نفط الكويت بموجب الاتفاقية الجديدة معها نصف أرباحها إن لم يكن أكثر بعدما كان لها قدر محدود من الدخل فقط وقيل لي في سنة ١٣٧٦هـ، إن الدخل السنوي يكون مئة وستة ملايين من الجنيهات، أما اليوم فهو أكثر وأكثر والبركة من الله، ومما أدركته من أمانها انتشار العمران وإصلاح الشوارع وتعبيد الطرقات وبناء المدارس وفتح المستشفيات وجلب الأساتذة الأكفاء والأطباء المهرة ومحاربة الجهل والفقر والمرض بشتى الوسائل، وتحققت الآمال في ميادين الصحة والتعليم والعدالة الاجتماعية، وقدمت المساعدة المالية للعجزة وضعفاء الحال كل بحسب حاجته، ونظمت الوزارات لجميع شؤون الدولة، وبنيت المساجد الجديدة وتجدد القديم الخارب منها في داخل المدينة وخارجها، وتولى الإمامة والخطابة فيها علماء دينيون أكفاء يتقاضون من المرتبات ما يكفيهم وما يقوم بحاجات أنفسهم وعائلاتهم من الضروريات والكفاليات، وقل ما شئت عن طبع الكتب وصدور الجرائد وفتح الأندية، وقيام الجمعيات الدينية والأدبية والرياضية وغيرها.

واستقلت الكويت استقلالاً كاملاً وأصبحت ذات سيادة تقرر من أمرها ما شاءت وكيف شاءت، وألغيت الاتفاقية المعقودة بينها وبين بريطانيا في أول سنة ١٨٩٩م ولتعلم شيئاً من استقلالها وكيف ألغيت تلك لاتفاقية نورد لك نص البيان الذي أصدرته سكرتارية الحكومة الكويتية بعد ما تم بين سمو الأمير عبد الله ومندوب بريطانيا في الخليج العربي، والسير وليام لوس، قالت السكرتارية:

بعون الله وحده تم في هذا اليوم الاثنين الواقع في السادس من شهر محرم سنة ١٣٨١هـ الموافق تسعة عشر جون سنة ١٩٦١م تبادل كتابين بين حضرة صاحب السمو أمير الكويت المعظم وبين السير وليام لوس المقيم السياسي في الخليج نيابة عن حكومة المملكة المتحدة ويشكل الكتابان المذكوران اتفاقية بين الحكومتين تظل سارية المفعول ما لم يشعر أحد الطرفين الطرف الآخر برغبته في إنهاؤها بإخطار يسبق هذا الإلغاء بثلاث سنوات على الأقل، وتنص الاتفاقية الجديدة على أربع مواد، هي:

١- تلغى اتفاقية ثلاثة وعشرين جنواري ١٨٩٩م لكونها تتنافى مع سيادة واستقلال الكويت.

وقاسمُ العراقَ ظلَّ يَشْتاق
وصارت الكويْتُ ضمنَ الجامعه
والْتَحَقَتْ بعدُ بهيئَةِ الأيم
وكلَّ يومٍ تَسْمَعُ الجديدا
أن تُحْسَبَ الكويْتُ من أرضِ العراق
جامعَةِ العُربِ مع المنازعه
وللكويْتِ نَمَّ يُرْفَعُ العلم
فيها وعنها تَقْرَأُ المُفَيِّدا

٢- تستمر العلاقات بين البلدين مسيرة بروح الصداقة الوثيقة.

٣- عندما يكون ذلك مناسباً فإن الحكومتين ستشاوران مع بعضهما في الأمور التي تهم الطرفين.

٤- لا شيء في هذه المواد السابقة يؤثر على استعداد حكومة المملكة المتحدة في مساعدة حكومة الكويت إذا طلبت حكومة الكويت مثل هذه المساعدة. انتهى.

وأخذ الكويت يستقبل القادمين إليه من الأطباء والحامين وسائر الخبراء في مختلف الشؤون وكذلك التجار وأصحاب الحرف والمستعدين للعمل مع الحكومة والأهالي من سوريا ولبنان وفلسطين واليمن والجنوب والخليج العربيين، وأرسلت من أبنائها العدد الكبير لتدريبهم على المهن والقيام بمهمات الدولة في السفارات والقنصليات وتبادل التمثيل السياسي وكيف تكون المحادثات في المؤتمرات، وكيف تعقد الاتفاقيات مع أصحاب الشركات والامتيازات في الكويت وبأيدائها البيضاء وأيديها القوية تبنى المجد مثبت القواعد مشيد الأركان، والحياة فيها كل يوم خير من أمسه، وجميع ما يقال أو يكتب عنها في الوقت الحاضر فهو دون ما تصل إليه في غد أو بعد غد، والناس يسرون إلى الأمام بخطا ضيقة وواسعة لكن هذه الإمارة والحمد لله تسير إلى المستقبل بسرعة الصواريخ، ونسأل الله أن يحفظ عليها دينها وعروبته وألا يجعلها ممن عجلت لهم طبيبتهم في حياتهم الدنيا، ((وما الحياة إلا متاع الغرور)) أما زيارتي لها فكانت في أواخر أكتوبر من سنة ١٩٥٦م وأثناء تلك الزيارة كان الاعتداء الثلاثي على قناة السويس واعتقلت فرنسا زعماء الجزائر الخمسة أحمد بن بيل وصحبه وحضرت ما كان هناك من غضبة العربي لأخيه العربي في كل مكان، وسمعت بما جمعته الكويت حكومة وشعباً من التبرعات المالية، وما قامت به من المساهمة المادية والأدبية في نصره إخوانهم، ثم لا أستطيع أن أذكر على الوجه المطلوب ما حدث بعد تلك الزيارة من النهضة والتقدم، وقد حدث أن زرت الكويت في السنة الماضية ١٣٨٤هـ وكنت في كلتا الزيارتين موضع الحفاوة والتكريم لا لما أستحق ولكن لما جبلوا عليه من حسن الضيافة وكرم الوفادة، وشكراً.

وَيَبْلُغُ السَّكَّانُ فِي تِلْكَ الْبَلَدِ
 مَعَ الَّذِي فِيهَا مِنَ النِّظَامِ
 أَمَا إِذَا عُذْنَا إِلَى ذِكْرِ الْأَمِيرِ
 فَهُوَ الَّذِي فِي الزَّهْدِ وَالتَّوَضُّعِ
 مَبْسُوطَةٌ يَدَاهُ بِالْإِحْسَانِ
 قَدْ كَانَ مَوْرُوداً وَكَنْتُ الْوَارِداً
 فِي الْمَعْهَدِ الْعِلْمِيِّ وَمَا بَنِيْنَاهُ
 مِنْهُ وَقَدْ أَجَابَ عَنِ خِطَابِي
 وَجَاءَ مِثْلُهَا وَمِثْلُ الرَّبِيعِ
 أَكْثَرَ مِنْ نَصْفِ مِلْيُونِ الْعَدَدِ
 وَالْعَدْلِ وَالْأَمَانِ وَالسَّلَامِ^(١)
 فَلَيْسَ لِلْأَمِيرِ ثَمٌّ مِنْ نَظِيرِ
 مُضْرَبِ أَمْثَالٍ لِكُلِّ سَامِعٍ
 لِكُلِّ قَاصِدٍ وَلِكُلِّ دَانِي
 حِينَ طَلَبْتُ مِنْهُ أَنْ يُسَاعِدَا
 إِلَّا عَلَى مِثْلِ الَّذِي أَعْطَيْنَاهُ
 بِمِثِّي أَلْفٍ مِنَ الرَّبَّايِ
 مِنَ الرِّعَايَا وَكِرَامِ الطَّبَعِ

(١) قاسم العراق هو الزعيم عبد الكريم قاسم الذي ترأس جمهوريتها بعد الإطاحة بالملكة الفيصلية الهاشمية، ولكثرة الخلافات بينه وبين الشعب بل بينه وبين العالم قيل له قاسم العراق والإضافة لفظية وهي بمعنى (الذي قسم العراق) طالب هذا بإمارة الكويت بعد الاتفاقية المعقودة مؤخراً بينها وبين بريطانيا، ولما رآها قد استقلت حاول أن يضمها إلى العراق لما فيها من الخيرات والثروة العظيمة، ولكنه فشل في المطالبة ولم توافقه الشعوب العربية على ما يريد، ولم يتخل الانجليز عن حلفائه فيما لو دعت الحاجة إلى الدفاع عنهم، ولما أصبح أمر البلاد بيد أهلها التحقت أولاً بالجامعة العربية ثم بهيئة الأمم لأنها ذات سيادة ومصيرها في يدها تقرره كيف شاءت، وقريباً إن شاء الله يستقل الجنوب العربي استقلالاً تاماً ويكون عضواً عاملاً في المنظمتين جامعة الدول العربية وهيئة الأمم، ولا فرق بيننا وبين الكويت إلا أنها غنية وبلادنا فقيرة، والخير منتظر من الله لجميع البلدان العربية والإسلامية، والأحداث كل يوم تتجدد والتطورات في الكويت تتقدم وفي كل ساعة يحدث من الأمر ما لا يستطيع كتابته المؤرخ إلا بعد وقت طويل، ويبلغ عدد السكان والمهاجرين إلى تلك الإمارة نصف مليون أو أكثر، وما يزال عدد السكان يتكاثر وكلهم واجدون هنالك الرزق والصحة والأمان، والجرائم عندهم قليلة، والمحاكم القضائية لا تكاد تفصل في الشهر والشهرين إلا قضية أو قضيتين، وهل يكون الإجماع وهل تكثر الخصومات إلا في بلاد فقيرة جاهلة، واليوم والله الحمد لا فقر ولا جهل في الكويت.

وما يزالُ الذكرُ بالثناء
وكم هؤلاء من عطاء
قد ساهموا في ثورة الجزائر
في المعهد العلمي هؤلاء
في شدة الحال وفي الرخاء
وساعدوا جمال عبد الناصر^(١)

(١) أمير الكويت الحالي هو الحادي عشر من أمراء أهله، وقد ولي كما تقدم بعد ابن عمه الشيخ أحمد الجابر وهو على جانب من الزهد والتواضع لا تكاد تحسبه إذا رأيته إلا شخصاً عادياً في منظره ومظهره جواد كريم مبسوطة يده بالخير والإحسان لأن غناه في قلبه وجيبه على السواء، والأيام تساعده على اللحوق بآبائه وأجداده بل تجعله يخلفهم ويسبقهم، وقلما يزوره العالم الديني أو شيخ القبيلة أو الأديب البارز في شعره ونثره إلا ويكرمه ويغنيه ويرده شاكراً ومثنياً عليه، ولما زرتُه وطلبت من سموه مساعدة مالية لبناء المعهد العلمي الإسلامي تكرم بمئتي ألف روبية وتساوي يومئذ خمسة عشر ألف دينار كويتي، ولقد تحدثت معه طويلاً وأعجب بما عرضته عليه من أحوال الجنوب في قصيدي التي أصفى إليها جيداً وتقبلها بقبول حسن وإليك بعضها وإنه ليستحق خيراً منها:

تحية وسلاماً لا أكرره	عليك إلا لأمر أنت تكبره
وكيف لا وهو حق واجب وإذا	قصرت فيه فن للحق ينصره
وأنت أكبر في قلبي وفي أذني	من أي شيء عيون الناس تنظره
ألست يا ابن صباح سيداً علماً	تشجع العلم والتعلم تنشره
نبئت أنك في الأدب أشهر من	نار على عَلم والأمر تصدره
سبحان من جمع الأمرين في رجل	ملكاً وعلماً وهذا ما نقدره
وهبتك المدح لا أرضى له أحداً	سواك يعبق في الدنيا معطره
وكل من طاب في ذات وفي صفة	فالله يذكره والناس تشكره
وفي يدي قلم والنفس محبرة	وصفحة الدهر تروي ما أسطره
لو أن لي ذهب الدنيا ولؤلؤها	لصغته لك عقداً عز جوهره
وما بقي منه في حفل تشرفه	عليك يا ابن صباح كنت أنشره

إلى أن أقول فيها:

لما رأيت بلادي وهي في خطر	من شدة الجهل فيها صرت أحذره
وساءني الحال واستدعيت طائفة	من المحبين في أمر ندبره
إنشاء جامعة أو معهد وعلى	ما يسر الله من مال نعمره

وما أريدُ الاختصارَ في الكويتِ حتى ولو نظمتُ فيه ألفَ بيتٍ
لكنني أخافُ أنْ يَضيقاً مَنْ يَعرفُ الغايةَ والطريقاً
فاللهُ يُبقي مجدها والفخرا ولأميرها يُطيلُ العُمرا^(١)

وقد بدأنا به لكنه عمل إذا تعقد معناه تفسره
مليون ربية نحتاجها هبة أو بالكويت إذا ما شئت نقطره

وهي طويلة ومسجلة في الديوان الشعري، هذا وقد تبرع الكويتيون للمشروع نفسه بشمانية وخمسين ومئتي ألف روية، ويرجع الفضل بعد الله في جمع هذه التبرعات السخية للسيد عبد الحميد بن عبد العزيز الصانع والمرحوم الشيخ عبد العزيز حمادة، وإذ نشكر الجميع على ما فعلوه من الخير فإننا نخص بالشثناء العاطر والذكر الحسن حضرة المحسن الكبير الشيخ عبد الله العبد اللطيف العثمان الذي ما يزال إحسانه دائماً وخيره باقياً ومستمراً على المعهد العلمي الإسلامي وجزاؤه على الله الذي لا يضيع أجر المحسنين، ولأهل الكويت مبرات كثيرة ومساهمات مشكورة في كل قضية عربية تستحق المساعدة والمساهمة فيها ناهيك بما جمعت الكويت من الملايين بل من عشرات الملايين من الجنيهات والربايب لتحرير الجزائر ومعاونة أهلها في التخلص من الاستعمار الإفرنسي، وكذلك ما فعلوه من مساعدة مصر في العدوان الثلاثي على بور سعيد وما ساندوا به جمال عبد الناصر، وما تكسب الأموال وما تنفق إلا لمحاربة الباطل ونصرة الحق والله تعالى يقول: (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى وما يعني عنه ماله إذا تردى).

(١) كنت أود أن آتي بكل شيء يتعلق بهذه البلاد من كل ناحية ولا أكره التطويل بذكرها ولو بلغ ما أنظمه فيها ألف بيت أو أكثر وفاء بحقها واعترافاً بفضلها وإشادة بذكرها ولكنني أخشى أن يضيق القارئ والسامع ذرعاً بما أقول وربما يتهمني بالكذب أو كيل المدح جزافاً لمن لا يستحقه ولست بمادح ولا قادح في هذا المقام، وإنما أنا مؤرخ وبضاعتي قليلة والاطلاع محدود وفيما يكتبه الناس من ذوي الاطلاع الواسع والأقلام السيالة كفاية وغنية، وأسأل الله أن يديم مجدها وفخرها وأن يطيل في الصالحات عمر أميرها العظيم. وبمزيد الأسف بلغنا بعد تحرير ما تقدم وإعداد الكتاب للطبع نبأ وفاة الشيخ عبد الله المذكور يوم الأربعاء واحد شعبان سنة ١٣٨٥هـ، ونعزي بوفاته أنفسنا ودولة الكويت حكومة وشعباً بل وجميع أبناء العروبة من الخليج إلى =

آل حميد الدين في اليمن

آل حميد الدين قاسميه هم الأسود عند حومات الوغى في الحرب أهل الطعن والضراب ومنهم المنصور والمهيا عشرًا من السنين بعد الأربع والحرب بينه وبين الترك ومات في ثمانية وعشرين في يوم عشرين ربيع الأول ولديه يحيى وشاع ذكره

شهرتهم في الملك عالميه وهم سيوف الحق فوق من بغى وسلمهم للعلم والآداب لأمرهم محمد بن يحيى وهو الإمام والمليك الألعج إن ضحكك عين فعين تبكي من قرننا هذا أمير المؤمنين وتنت البيعة للمنوغل وطاب منه عسره ويُسره^(١)

= المحيط، ونهى أمير الكويت الجديد الشيخ صباح السالم شقيق الأمير الراحل نهيته بمنصبه الجديد ونسأل الله لنا وله التوفيق وأن يسير بالكويت إلى مدى أبعد مما هي عليه اليوم في التقدم والرقى آمين، وكنت أود أن أذكر طرفاً من تاريخ قطر والبحرين وبقية إمارات الخليج ولكن العذر واضح وقد سبقت من ذلك نتفاً مفرقة في تاريخ آل سعود وآل صباح وكل هؤلاء ذرية بعضها من بعض وبلادهم قطع متجاورة من الأرض العربية وحي الله الجميع، والله المستعان.

(١) حميد الدين هو السيد الشريف يحيى بن محمد بن يحيى بن محمد بن إسماعيل ابن محمد بن الحسين ابن الإمام المنصور أمير المؤمنين القاسم بن محمد بن علي الذي تنسب إليه السادة القاسمية في اليمن ومنهم الأئمة المشهورون كثرة وكفاءة، وينتهي نسب القاسم هذا إلى الإمام الهادي يحيى بن الحسين صاحب صعدة مؤسس الدولة الزيدية والمتقدم ذكره في أواخر القرن الثالث، وآل حميد الدين أبناؤه الذين أفضت إليهم الإمامة واستقرت فيهم الزعامة، وهم الشجعان في الوغى وسيوف الحق على من بغى، أدباء علماء =

في عهده انجلي عن الأوطان بل انتهى عهدُ بني عثمان
وعرفوا من الإمام عهده عبد الحميد والذين بعده

= شعراء خطباء فصحاء نصحاء لله ولرسوله ولخاصة المسلمين وعامتهم، قادة الحرب إذا حضروه وسادة العلم إذا نظروا فيه وتذاكروه، وأولهم في الإمامة المد والمهيا لها الإمام المنصور بالله محمد بن يحيى المولود في سنة ١٢٥٥هـ، والذي قام بدعوته وأظهر إمامته في ذي الحجة من سنة ١٣٠٧هـ، ودام ملكه واستمرت إمامته نحو أربع عشرة سنة من يوم ظهوره إلى يوم وفاته في عشرين ربيع الأول من سنة ١٣٢٢هـ، وقد حارب الأتراك واشتد بينه وبينهم الخصاص والعراك مدة حياته والحرب سجال إذا ضحكت منها جهة بكثت منها جهة أخرى، قال الشيخ الواسعي في كتابه، (فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن) ثم هاجر عن صنعاء إلى مدينة صعدة في شوال سنة ١٣٠٧هـ، وكانت دعوته بها في ذي الحجة من تلك السنة، وفي المحرم سنة ١٣٠٨هـ كان انتقاله إلى هجرة المدان من الأهنوم وبعث المقادمة والأجناد إلى البلاد فاستفتحت الأجناد الإمامية حصن ظفير حجة ومسور والشرف ويريم وذمار وخفاش وملحان والروضة وغيرها من جهات صنعاء، واستمر الحصار لصنعاء وتمز وقل شمر مدة إلى وصول أحمد فيضي باشا وقد كان فيما بين الإمام المنصور رحمه الله وبين الولاة على اليمن في أيام خلافته من المعارك والملاحم ما ملأ الدفاتر وأنضب المحابر وما من قبيلة ولا بلاد من الزيدية في اليمن إلا وله فيها معركة، وحاصر صنعاء مرتين وأسر من الأتراك مراراً، وقصدوه إلى محطته المعروفة بقفلة عذر من بلاد حاشد مرتين في جموع تملأ الفيا في والقفار وآلات ترع لرؤيتها الأبصار، انتهى، ومن أشهر مواقع الإمام المنصور الحربية موقعة عَصِرْ ونُقْم، ولثورة القبائل على الأتراك في عهده حصلت الحروب في الجرداء والجرف ومفحق والخميس والحيمة وغيرها كثيرة، وتفاصيل تلك الحروب وما خسر الجانبان فيها مفصلة في كتب تاريخ اليمن الحديثة، وتبودلت كتب كثيرة بين الإمام والسلطان العثماني وولاته في اليمن، وفي عهده امتدت يد الانجليز من عدن إلى كثير من المحميات، وتوفي رحمه الله في التاريخ المذكور آنفاً، وبويع بالخلافة من بعده لولده المتوكل على الله يحيى بن محمد الذي عاصرناه وعظم أمره وشاع ذكره سياسة وعلماً وحرباً وسلاماً، وقبض على اليمن بيد من حديد، فأدب العصاة واستسلم له البغاة واستطاع أن يحفظ اليمن من تلاعب الدول الاستعمارية وأن تتدخل في شؤونها، وساعده على ذلك تنافس الإنجليز وفرنسا وإيطاليا في بلاد ما تزال خيراتها مغمورة وكنوزها مطمورة، وإليك طرفاً من أخبار الإمام يحيى رحمه الله.

وخضعت له البلاد كلها جبّلها وسهلها وأهلها
وكان بينه وبين الترك سفك دم ما مثله من سفك^(١)

(١) هو المتوكل على الله يحيى بن محمد حميد الدين المولود في سنة ١٢٨٦هـ، والمبايع له يوم موت أبيه الجمعة عشرين ربيع الأول سنة ١٣٢٢هـ، ومولده بصنعاء، ونشأ في حجر أبيه وأخذ عنه العلم وعن جماعة من السادة والقضاة اليمنيين كالقاضي محمد بن عبد الملك الأنسي والقاضي أحمد بن رزق السياني والقاضي محمد بن أحمد العراسي وشيخ الإسلام القاضي علي بن علي اليدومي والقاضي محمد بن أحمد حميد والقاضي عبد الله بن علي الحضوري والقاضي لطف بن محمد شاکر والقاضي عبد الله بن أحمد المجاهد الذماري والقاضي أحمد بن عبد الله الجنداري، وله تلاميذ كثيرون ومن أشهرهم السيد العلامة محمد بن محمد بن يحيى زبارة والقاضي عبد الله بن علي اليدومي وعن الاثنين أخذت أسانيد الحديث بالمشافهة والمكاتبة، وقد بويع له بالإمامة بعد تمتع منه في البداية، ولما رأوا فيه من الكفاءة واستكمال الشروط المعتبرة في الإمام أجبروه على ذلك، وباع له أولاً علماء صنعاء وصعدة وذمار ثم أهل شهارة وغيرهم، وبيعته كانت في أيام عبد الحميد بن عبد المجيد خان، ونادى الإمام بالجهاد وحارب الأتراك في كل مكان واستجابت له القبائل وقاموا على الأتراك قومة رجل واحد وكان تخيمه المنصور في كوكبان حتى فتح صنعاء ودخلها في صفر سنة ١٣٣٧هـ وأقام مدة في الروضة قبل دخوله صنعاء حتى أقبلت عليه الوفود واطمأن لسلامة العاقبة واتخذ صنعاء عاصمة له كما كانت عاصمة اليمن منذ القدم وتعاقبت الولاة العثمانيون على اليمن في عهد الإمام يحيى إلى أن خرجوا عنها تماماً واستقل الإمام بحكمها وأصبح فيها صاحب السيادة المطلقة، وهؤلاء الولاة هم أحمد فيضي باشا، حسن تحسين باشا، كامل بك متصرف لواء تعز سابقاً، محمد علي باشا وعزل وناب منابه رجب مكتوبجي ثم ولي محمود نديم بأمر من الإمام وهو آخرهم، وجاء من الحديدية إلى صنعاء عزت باشا الذي رضي عنه أهل اليمن وحمدت سيرته ووقع الصلح بين الإمام والدولة العلية وذلك في ربيع الأول من سنة ١٣٣٠هـ وتشمل معاهدة الصلح على عشرين مادة وتعرف باتفاقية (دعان) وهي بلدة بشمال غرب عمران وتبعد عنها بنحو خمس ساعات، وكان الفضل بعد الله في حسن المساعي لعقد هذه الاتفاقية راجع إلى القاضي حسين بن علي العمري والسيد القاسم بن حسين العزي، وفي شوال من هذه السنة سافر عزت باشا إلى الآستانة مشيعاً بالاحترام والتقدير من اليمنيين لما عرفوا من إخلاصه وحبه للخير بحقق الدماء وحفظ الأموال وصيانة =

والإنجليزُ اقتطعوا من الوطن
ثم ادعوا حمياً عليها
واسترجعوا الضالعَ والعواذلا
والحربُ بين ابنِ سعودٍ والإمامِ
فيها يكونُ الحَظْرُ كالمباحِ
وأصبحت أصابعُ الإفرنجِ
تسعَ نواحٍ تابعاتٍ لليمنِ
ولطمتْ أكتفُهم خديها
بالبائراتِ تَقذفُ القنابلا
قد اقتضت صلحاً لأربعينَ عامٍ
في عدنَ وسائرِ النواحي
تلعبُ في لحجٍ وغيرِ لحجٍ (١)

= الأعراض وحسن التفاهم مع الدولة المحلية ذات الشأن في اليمن، وقد عزل السلطان عبد الحميد في سنة ١٣٢٧هـ وبعد خمس سنين من المبايعه للإمام يحيى وتسلطن أخوه محمد رشاد بن عبد المجيد ومكث في السلطان عشر سنين إلى ما بعد دخول الإمام الأخير إلى صنعاء، وكانت الحرب العالمية الأولى من سنة ٣٢ إلى ١٣٣٧هـ خمسة عشر أغسطس سنة ١٩١٤م إلى نوفمبر ١٩١٨م، وفي هذه المدة زحف من اليمن القائد علي سعيد باشا مع الأتراك وكثير من القبائل العربية إلى لحج وهم يقصدون عدن، وفر السلطان علي بن أحمد بقواته إلى عدن وأصيب برصاصة في رجله من الانجليز وتوفي متأثراً بجراحه وتسلطن بعده ابن عمه عبد الكريم فضل، وتم جلاء الأتراك عن اليمن في سنة ١٣٣٦هـ، وكانت طريقهم في البحر من عدن إلى مصر، وأدى صلاة الجمعة القائد سعيد باشا في مسجد العيدروس، وبهذا تعلم كيف عرف السلطان عبد الحميد والذين بعده أمر الإمام يحيى وكيف كانت الحروب بينهم وبينه وكيف كان جلاؤهم وخروجهم عن اليمن إلا من استوطن ورضي بالبقاء فيها منهم وكما ذهبوا من البلاد العربية ذهبت عنهم الخلافة الإسلامية وانقرض أمر بني عثمان وآخرهم محمد وحيد الدين، وأصبحت تركيا قاصرة على نفسها وليس هذا محل ما جرى لهم وما وقع فيها من الأحداث بعد الحرب العالمية الأولى.

(١) التسع النواحي ويقال لها (محميات عدن الشرقية والغربية) هي (لحج) و (أبين) و (الحوشب) و (يافع) و بلاد (العوذي) و (بيحان) و بلاد (العوالق) و بلاد (الواحدي) و (حضر موت)، وفيها سلطنات وإمارات كثيرة (الصبيحة) و (الضالع) و (الشعيب) و (المفلحي) و (العلوي) ومشيخة العقارب (ودثينة) و (يافع السفلي) و (العوالق السفلي) ومشيخة (العوالق السفلي) وفي حضر موت دولتان (القعيطية والكثيرية) ومساحة هذه الإمارات مئة وستة وعشرون ألف ميل مربع، وسكانها نحو =

و غضب الناس لأوضاع اليمن وأن يحسى لا يسائر الزمن
واستنكروا التنفيذ والخطا وحسبوا أحكامهم أغلاطا

= المليون أو أكثر بقليل، وهي في الأصل يمنية جغرافية وسياسية، وكانت تتبع الدول القائمة في جبال اليمن من الزيدية وفي التهام واليمن الأسفل من الزياديين ومواليهم الأحباش والصلحيين والزريعيين والأيوبيين والغسانيين وبني طاهر، ولكل إمارة أو مشيخة أو سلطنة معاهدة خاصة واتفاقية تختلف عن غيرها مع الإنجليز في أوقات مختلفة وربما نذكر طرفاً من ذلك بعد، وبمقتضى المعاهدات حسبها الإنجليز من محمياته التابعة لمستعمرة عدن، وبحكم القوة صفعوا بذلك خدي اليمن وصدق فيهم ما قيل:

ولا حق في الدنيا لغير مسلح يحيط به الرمح الطويل وصمصام
وأى ضعيف جاء يطلب حقه ففي ظهره سوط وفي الوجه ملطام

وفي سنة ١٣٣٧ هـ غزا الإنجليز ميناء الحديدية باحدى عشرة قطعة من الأسطول البحري واحتلوها، وفرعها أهلها، وذهبت بعثته من عدن إلى صنعاء يرأسها الكرنل جاكوب واعترضتها قبائل القحري وأخذت ما كان معها من الأموال والهدايا ولم تخل سبيلها إلا بعد أربعة أشهر تقريباً فردتها إلى الحديدية ومنعتها من الوصول إلى صنعاء، وأخيراً سلمت الحديدية للسيد الإدريسي، وغضب الإمام لما حصل فاحتل جيشه الضالع والشعيب والأجعود والقطيب كما دخل البيضاء بعد ذلك في سنة ١٣٣٩ هـ، وكانت حروب طاحنة بين قبائل تلك الجهة وجيش الإمام، وتراجع الإنجليز عن أمر الحديدية وأخذت المفاوضات بين الجانبين تقوى وتضعف وتحقق شيئاً وتفشل في أشياء، وسحب الإمام مندوبه القاضي عبد الله العرشي الذي كان في عدن، وبما أنه قد توفي السيد محمد بن علي الإدريسي وخلفه ولده علي بن محمد وكان ضعيفاً وأسندت الأمور إلى عمه الحسن بن علي ففي سنة ١٣٤٣ هـ، وبعد رجوع السيد عبد الله بن أحمد الوزير من الجوف وشمال اليمن نزل التهام وكان قد سبقه إليها سيف الإسلام ولي العهد أحمد بن يحيى فدخل الوزير باجل والحديدة بدون مقاومة واستلم الموانئ اليمنية على البحر الأحمر ابن عباس والصليف واللحية وميدي كما تسلم مدن تهامة الضحى والزهرة والمنيرة والزيدية والمراوعة وغيرها، ولما حصل بين اليمن وإيطاليا من المعاهدات التي خوفت الإنجليز على مستقبله في جنوب الجزيرة فقد وجه الإنذار إلى الإمام في شهر سبتمبر سنة ١٩٢٧ م ربيع أول سنة ١٣٤٦ هـ وذلك بالانسحاب والتخلي عن الضالع والمناطق الجنوبية التي احتلها مؤخراً ولم يقابل الإنذار الإنجليزي إلا بالرفض والتأبي، وفي شهري جون وجولاي سنة ١٩٢٨ م =

وارتفعت أصواتهم بالانتقاد على الذي يشكونه من الفساد
من ظلم حاكم ومن عريفه والافتراءات على الخليفة (١)

= قصفت الطائرات الإنجليزية المدن اليمنية تعز وذمار وغيرها، مما جعل القوة اليمنية تنسحب وتأخر إلى ما وراء الحدود في آخر سنة ١٩٣٣م، وعقد الإمام يحيى معاهدات مع روسيا وبعض الدول الأوروبية جعلت بريطانيا تعلم يقيناً أنه مصمم على حفظ بلاده واستقلالها، وللحرب الذي وقع بينه وبين الملك ابن سعود في سنة ١٣٥٢هـ أجبرته الظروف على المفاوضة مع البعثة التي كان يرأسها والي عدن السير برنادريلي لعقد الهدنة بينه وبين الإنجليز لمدة أربعين عاماً ابتداء من سنة ١٩٣٤م وتنص على بقاء الإمارات كما هي وألا تتدخل إحدى الدولتين فيما هو تحت يد الأخرى وألا يقع من الأحداث والتغيرات ما يخل بمصالح الجانبين أو يخالف نصوص الاتفاقية. وتنص المعاهدة أيضاً على اعتراف بريطانيا باستقلال اليمن وملكية الإمام يحيى عليها، وعالجت المادة الثالثة منها مشكلة النزاع على الحدود اليمنية الجنوبية ومطالب اليمن في الحماية وتركها معلقة للتفاوض والتسوية السلمية بين البلدين في خلال مدة المعاهدة، وحصلت بريطانيا واليمن بالمقابل على حق الدولة الأكثر رعاية في الشؤون التجارية، وكان النص المعتمد مرجعاً في حالة الخلاف هو النص العربي وقد ترتب على هذه المعاهدة بعض الشروط التي التزمها اليمن وهي إخلاء أربع وستين قرية في بلاد العواذل وثمان في إمارة الضالع وإطلاق سراح الرهائن المأخوذ من بلاد الحماية وإعادة فتح طريق التجارة بين اليمن والمحميات، وكان قد أقلل بسبب القصف الجوي على مدن اليمن، وبمقتضى الوضع الراهن للحدود الذي نصت عليه المعاهدة تم جلاء القوات اليمنية عن العواذل والضالع وعن أراضي الحكام الذين كانت لهم معاهدات حماية مع الحكومة البريطانية، ولم يقف الإنجليز عند هذه المعاهدة بل عبثوا بها وما برحت أصابع الفتنة والأطماع التوسعية تلعب في لحن وغيرها من السلطنات والإمارات، وكل يوم يحدث أمر جديد وتنفصل المحميات عن اليمن الأم شيئاً فشيئاً حتى نشأت دولة الاتحاد فيما يسمونه اليوم بالجنوب العربي. ونسأل الله أن يجمع كلمة العرب والمسلمين على ما فيه خير معاشهم ومعادهم.

(١) لسهولة المواصلات وكثرة الأسفار واختلاط الناس بعضهم ببعض تأثر اليمنيون بما رأوه في مصر والشام من الحضارة فضلاً عن مشاهدتهم لما في أوروبا وأمريكا من المدنية والمناظر الخلابة والحرية التي يتمتع بها الفرد والجماعة لعدالة الحكم وتساؤل القوانين الوضعية بالآداب والأخلاق الفاضلة وبموجب حرية الرأي والقول جهرًا بالسوء =

والتحقت أمثنا بالأقم والتزقت بوضعها الملتزم

= وقالوا ما بدا لهم وطالبت المرأة بأكثر من حقها وأصبحت الضرائب على التجارة والزراعة خفيفة معددة والمصانع تعمل ليل نهار والإنتاج يكثر والطرق معبدة وأسباب الراحة متوفرة في المطعم والمشرب والملبس والمسكن والمركب وجميع ذلك لا يوجد منه شيء في اليمن والموجود قليل جداً فغضب الشعب لسوء حاله ولقلة موارد الرزق فيه مع فداحة الضرائب وشكوا من الفقر ولا خلاص منه ومن الجهل ولا مدرسة ومن المرض ولا مستشفى وحسبوا الإمام جامداً رجياً لا يساير الزمان ولا يفكر في أي خير لشعبه وسياسته العزلة ودستوره الفوضي، وعلى البعير والحمار تعتمد المواصلات وإذا صدر الأمر من الحاكم والعامل والشيخ والعريفة فبواسطة العسكري المنفذي الذي يأخذ أجر عمله من الرعوي الظالم أو المظلوم وتختلف الأجرة باختلاف المسافات وقد يؤدب العاصي في نظير الحكومة بقاء الجنود في بيته لمدة غير محدودة وعليه نفقتهم وجميع ما يلزم لهم ما داموا عنده وذلك ما يقال له (الخطاط) وفي الأيام الأخيرة صاروا لا يطيقونه وإن أطاقوه فلا يرضونه لما فيه من مخالفة الشرع والقانون والطبع والذوق السليم ولئن كان الإمام يعرف فداحة الضريبة وثقل الخطاط والتنفيذ، فعاذ الله أن يكون راضياً بكل ما يحصل من المسؤولين والموظفين الذين تؤخذ عليهم العهود والمواثيق بالعدالة وإنصاف الرعية يوم يولون عليهم ولكنه تساهل كثيراً وساء ظنه بالمخلصين ولم يثق بأحد يبادله الرأي أو يتحمل عنه بعض المسؤولية، وربما كان يستشهد بقول الشاعر:

إني لأغمض عيني ثم أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحداً

ونشأ من هذا أن سخط الكبير والصغير وغضب القريب والبعيد ولكنهم بين معتدل في الطلب وشديد في الانتقاد فعامل متدين يلتزم ما أوجب الله على الرعية لولاة الأمور فهو يؤدي ما عليه ويسأل الله الذي له ويقول مستشهداً بالقرآن: ((وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)) وآخر طائش متسرع إما فاسق وإما ملحد يقول لا سمح ولا طاعة ولا رضاء ولا قناعة ولا صبر على ما نحن فيه، وقد كبر الإمام سناً وضعف رأياً وكثر أعداؤه داخل القصر وخارجه:

فكان ما كان مما لست أذكره فظن شراً ولا تسأل عن الخبر

((وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال)).

وأخذت بسبب في الجامعه ولنادي الخير كانت سامعه (١)

(١) حدث في الأيام الأخيرة للامام يحيى حادثان تاريخيان عظيمان الأول دخول اليمن في الجامعة العربية والثاني دخولها في هيئة الأمم وبداية الأمر الأول أن مصر دعت الحكومات العربية إلى القاهرة للبحث في قضية فلسطين فأرسلت صنعاء إلى القاهرة وفدها المؤلف من سيف الإسلام الحسين والقاضيين محمد عبد الله العمري ومحمد عبد الله الشامي ووصل الوفد في منتصف جنواري سنة ١٩٣٩م وعقد العرب في مؤتمرهم ذلك ثلاث جلسات، وسافرت الوفود العربية من مصر والعراق والأردن والسعودية واليمن إلى لندن ولم يتم شيء في ذلك المؤتمر المنعقد مع ممثلي الانجليز في عاصمتهم يوم سبعة فبراير سنة ١٩٣٩م، وبعد إعلان الحرب العالمية الثانية، وفي سنة ١٩٤٣م دعت الحكومة المصرية سائر الحكومات العربية للبحث في قضية الوحدة وكانت اليمن من جملة الحكومات الموجهة إليها الدعوة وتأخر الإمام وتريث في الإجابة وفكر طويلا في نتيجة ما تفضي إليه تلك الاجتماعات وأخيراً وافق على إرسال مندوبه السيد حسين الكبسي لحضور الاجتماع كسمتعم فقط وليبلغ الإمام بما تصل إليه المحادثات وليس له أن يوافق أو يعارض في أي شيء، واشترك الكبسي في حضور المباحثات التي وضعت ميثاق الجامعة العربية ودستورها الذي تسير عليه وذلك في شهر سبتمبر سنة ١٩٤٤م، وفي يوم اثنين وعشرين مارس سنة ١٩٤٥م الموافق شهر صفر سنة ١٣٦٤هـ اجتمعت وفود العرب للتوقيع على الميثاق وكان مندوب اليمن القاضي حسين الحلالي وسبيله في هذا الاجتماع سبيل السيد الكبسي في الاجتماع الأول فلم يوقع على الميثاق ولا كانت له سلطة يعمل بمقتضاها أي شيء من الناس وتوقف الإمام حتى توسط الملك عبد العزيز بن سعود وحسن له التوقيع على الميثاق والدخول في الجامعة العربية وقال له يد الله مع الجماعة وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية فوافق على الفكرة وأرسل ولده سيف الإسلام عبد الله بعد أكثر من شهرين للتوقيع على ميثاق الجامعة ويمثل اليمن فيها، وحضر ثاني جلسة فيها وذلك في نوفمبر من السنة نفسها، وأصبحت اليمن عضواً عاملاً مؤسساً في الجامعة العربية ملتزمة بقراراتها وعاملة بما ينص عليه دستورها وثاني الحداثين هو انضمام اليمن إلى هيئة الأمم التي فتحت أبوابها لقبول عضوية اليمن كغيرها من الدول العربية وغير العربية، فكانت أول جلسة يحضرها وفد اليمن في شهر سبتمبر سنة ١٩٤٧م والثانية بعدها في أكتوبر، وكانت مسألة فلسطين على أشد ما يكون بين العرب واليهود، وقد خطب رئيس الوفد اليمني السيد حسن بغدادي في تلك الجلسة خطبة تدل على عناية اليمن =

فصل تابع لما قبله

ودبرت قتل الإمام يحيى
وقتلوه في صباح السبت
ثاني ربيع سبعة وستين
جماعة من أشقياء الأخيا
في خامس الأيام بعد السبت
وعمره في الثاني والثمانين^(١)

= بفلسطين وأنها واقفة منها موقف الدول العربية هجوماً ودفاعاً ومطالبة واحتجاجاً، ومنذ الانضمام إلى الجامعة وهيئة الأمم واليمن لا تزال باقية فيها وملتزمة بالقوانين والأنظمة فيها ولها في هذه وتلك أخبار تستحق العناية بدراستها ولا سيما في الأيام الأخيرة وبعد الثورة الانقلابية فيها والله عاقبة الأمور.

(١) بلغ الإمام من العمر إحدى وثمانين سنة وأياماً، وفكر في الخلاص منه ومن حكمه جماعة من أهله وحاشيته مع حزب الأحرار الثائرين عليه من صنعاء إلى عدن وفي مقدمتهم زوج ابنته وأكبر وزرائه السيد عبد الله بن أحمد الوزير صاحب الوقائع الشهيرة وعامل الحديدية سابقاً وكذلك من يقال له سيف الحق إبراهيم بن الإمام وكان هذا في عدن والأول يعمل في الحفاء فتواطأوا على قتل الإمام واشترك في تدبير الخطة وتنفيذ المؤامرة جميل جمال العراقي الموصل الذي كان لاجئاً سياسياً في اليمن وكذلك الفضيل الأرتلاني الجزائري ونفذت الخطة المدبرة لقتله قبيل ظهر يوم السبت أحد عشر ربيع الثاني من سنة ١٣٦٧هـ فبينما كان راجعاً من مشاهدة عرض عسكري اعترضت سيارته التي كان معه فيها أحد أنجاله والقاضي عبد الله بن حسين العمري والسائق والحاجب اعترضتها سيارة المجرمين فأطلق منها نحو ست وخسين رصاصة قتل بها الإمام ومن معه وأحاط بالقصر جماعة من الجند الموعز إليهم بحفظه والدفاع عنه وقتل هناك ولدان آخران للإمام وهما الحسين والمحسن ونصب للإمامة عبد الله بن الوزير وأقبل الثوار من مختلف الجهات وكادوا يقبضون على ولي العهد في تعز لولا أنه نجا بنفسه وقضي على الثورة في مدة ستة وعشرين يوماً وقتل أكثر رجالها وملئت السجون في صنعاء وتعز وحجة بالمتمردين، وبويع له بالإمامة يوم ثلاثة جمادى الأولى من السنة الهجرية المذكورة، ((ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً)).

وبعدده قام الإمام الناصر
ورغم ما كانت له من شدّه
وحين ما تمّت له الإمامة
مما دعاه بعد طول الياس
وبعد قبضه على البغاة
طلبت منه أن يفلّك الأسرا
فقال لي خيراً ولبيّ الطلبا

أحمدُ من دانت له الأكابرُ
ما زالت الثورات تسعى ضده
قامت على كرسية القيامة
لقتل عبد الله والعباس
وقتلُه لمن عليه عاتي
وبالعطا يغسلُ كفّاً حمراً
مُستخسناً قصائدي والخطبا (١)

(١) ولي أحمد بن يحيى بعد أبيه على ما ذكرناه وتلقب بالناصر لدين الله، وكان قوياً شجاعاً عالماً أديباً سخياً كريماً فتاكاً أخذاً بالحق ولو من أقرب الناس إليه، ورغم ذلك ما برحت الثورات ضده وإن كان قد صالحه أكثر الخارجين عليه والمجرمين بقتل والده، وبعد ما سكن غضبه فك الأسير ورحب بالراجع إليه وأخذ يتصدق ليجبر الكسر وليأسو الجرح مع شيء من الصرامة والشدة في الحكم مما جعل الناس يرجون رحمته ويخافون سطوته، ولقد ترمد عليه أخواه عبد الله الذي رأى نفسه أحق بالإمامة منه والعباس الذي ناصبه العداء لغير أسباب معروفة، والثوار ومطامع الاستعمار تشجع سيف الإسلام عبد الله على محاربة أخيه حتى يتنازل له عن العرش وقد استجاب لشيء من ذلك إلا أنه طلب منه أكثر من ذلك فانتصر على الأخوين المنشقين عليه وقتلها شرقنتلة وكنل بأنصارها من الجنود والعلماء كأحمد الثلاثي ومن على شاكلته، وكنت قبل قتله لأخويه قد أبرقت إليه شافعاً وراجياً وأذكره بالله وأناشده حق القرابة وصلة الرحم فأجاب من يومه وقال: إن السيف سبق العذل بنحو تسعين دقيقة ولكل أجل كتاب، وكان قتلها في شعبان سنة ١٣٧٤هـ إبريل سنة ١٩٥٥م في مدينة حجة، ورأى الناس في ذلك حسماً لمادة الشر وقضاء على الخلاف كما رأى البعض منهم في ذلك أول باب من الشر ينفتح على اليمن منذ نحو سبعين سنة، ولقد كانت صلتني بالإمام أحمد قوية للغاية ولازمته أيام كان في عدن سنة ١٣٦٦هـ، واتهمني بموافقة الثائرين عليه وعلى أبيه ولما رجع إلى تعز بعدما كاد يفقد كل شيء من يده ذهبت إليه معزياً ومهنثاً، وأنشدت بين يديه قصيدتي التي أقول في مطلعها:

أعزبك يا مولاي في خير ذاهب إمام الهدى يحيى عظيم المناقب

وَكثُرَتْ فِي قَلْبِهِ الْأَحْزَانُ
وَضَلَّ عَاجِزاً عَنِ الْإِصْلَاحِ

وَكُلُّ شَيْءٍ وَلَهُ مِيزَانٌ
لَطُولِ مَا لَاقَاهُ فِي الْكِفَاحِ (١)

وهي طويلة وفيها:

ما أنا بالآتي لإرجاع هالك
ولكن لتخليص الذين تسابقوا
فإن تعف كان العفو فضلاً ومنة
فإني ورائي من رعاياك أمة
ولا لبقاء الحق في يد غاصب
إلى الشر جهلاً أو لأقوال كاذب
وإلا فقد أدبت والله واجبي
يرونك في الإسلام خَلِّي وصاحبي

وفي سنة ١٣٦٨ هـ كتب اليمينيون في عدن عريضة وأمضى عليها مئة وثمانون منهم وطلبوا مني أن أذهب بها إلى الإمام وأقدم معها طاعتهم وإخلاصهم لبلادهم ومليكمهم وأتشفع في إطلاق المساجين وقت هذه المهمة وقبل وساطتي وأعجب بما قلته له وبما قدمت إليه من النصائح سراً وعلناً وشعراً ونثراً وكلفني عدة مرات بخطبة الجمعة في جامع المظفر بتعز، وكنت أمدحه كثيراً وأتجراً عليه كثيراً ولما جبل عليه من رقة العاطفة أتيت من هذه الناحية وأثرت عليه والله الحمد، ولما أطلق أكثر المساجين وألغى حكم الإعدام عن بعضهم قلت له في قصيدة أنشدتها بين يديه في ملأ من الحاشية والجنود والزوار:

نحن البنون وأنت والدنا وهل
خل السبيل لأهل حجة إنهم
وكما عفوت وأنت أكرم قادر
هذا ابن عمك إن مننت بفك
يكفيك ما أنزلته بعيالك
تابوا وقد سنموا الحياة هنالك
عن بعضهم فقل الجميع كذلك
كرماً وذلك من بني أحوالك

وبالجملة فقصائدي فيه كثيرة، ولم آل جهداً في وعظه وإرشاده وهو لا شك أعلم مني ولكن هذا واجب العلماء نحو الملوك والأمراء، (ولله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور).

(١) تكاثرت الهموم والأحزان في قلب الإمام لما حل باليمن ولما أصيب به من قتل أبيه وإخوانه عبد الله والعباس والحسين والمحسن وإبراهيم إما مع أبيه يوم قتله وإما لما أنزله بالخارجين عليه منهم وذلك عدا ما نزل بالبلاد من الفتنة التي أكلت الأخضر واليابس وقتل فيها من السادة والقضاة الأفاضل من المذورين أو الملمومين في موقفهم من الحكومة وما جريات الأمور في البلاد وحاول القيام بشيء من الإصلاح ولكنه عجز لقلة =

وَقَبِلَ الْوَحْدَةَ بَيْنَ مِصْرَ
 واختلفت مصر وأرض الشام
 وقال إن المذهب الشيوعي
 وقال فيه الرجلُ الدعيُّ
 وسوريا وأهلُ هذا القطرِ
 ولم يقع خُلُفتُ من الإمام
 مناقضاً للأصلِ والفروع
 دَعُ عَنْكَ هذا أئُها الرجعيُّ^(١)

= رجاله ولعدم الإخلاص في الموجودين منهم ولأنهم أصبحوا لا يصدقون بالوعد ولا يؤمنون بالعهد ويعرفون أن الامام عاجز أو غير راغب في الإصلاح حقيقة فاشتدت الأزمة وتعدت الأزمة، وإذا قيل للإمام شيء قال درأ المفسدة مقدم على جلب المصلحة، والقضاء على الفتنة وقتل الثورة في مهدها خير من الحضارة والمدنية التي يهدف إليها الشيوخ المهووسون أو الشبان الطائشون، ولقد ساء ظن الناس به ورأوا فيه ضعفاً وعجزاً عن الخير أو قوة واستبداداً في الحكم لا يقبل المشورة من القريب ولا يحب من البعيد أية خدمة يقدمها للشعب والحكومة مهما كان في عمله وإخلاصه، والمرء دائماً قليل بنفسه وكثير بأعوانه، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

(١) كانت العلاقات السياسية بين مصر واليمن ضعيفة أو معدومة منذ جلاء القوات المصرية عن اليمن الأسفل في سنة ١٢٥٧هـ - ١٨٤١م، إلا ما حصل مؤخراً في عهد الإمام يحيى مما لا يكاد يذكر من المكاتبات بينه وبين الملك فؤاد وقبل الحرب العالمية الثانية بقليل بدأت الصلات تقوى بين القطرين وعلى ما تقدم ثم دخول اليمن في الجامعة العربية وهيئة الأمم ثم تمت الاتفاقية المعقودة بمجدة في رمضان سنة ١٣٧٥هـ بين الإمام أحد والملك سعود وجمال عبد الناصر وتشتمل على اثنتي عشرة مادة وكلها تنص على الحقوق لكل من الثلاث الدول وما عليها نحو الآخرين ومدتها خمس سنوات وتتجدد بطبيعتها مدة مثل التي قبلها ومن رغب في إنهاؤها من جهته فعليه أن يخنظر الدولتين قبل ذلك بسنة كاملة ولولا التطويل لأوردنا الاتفاقية بنصها الكامل، ولما أن اتحدت الجمهورية المصرية مع الجمهورية السورية في أول سنة ١٩٥٨م جادى الاخرة سنة ١٣٧٨هـ رحبت اليمن بهذه الوحدة وأرسل الإمام بوفد يعني يرأسه ولي عهده محمد البدر ومعه محمد الشامي ومحمد العمري إلى القاهرة وتمت المباحثة مع الرئيس جمال عبد الناصر ورجع البدر بصورة الاتفاقية إلى والده فقبلها ووقع عليها ثم عاد بها إلى مصر في آخر شهر فبراير وذهب بها إلى سوريا وتم كل شيء هنالك وأعلنت في اثنين مارس ووقع الانفصال بين الجمهوريتين اللتين سميتا بالجمهورية العربية المتحدة وانسحبت سوريا من هذه الوحدة بعد ثلاث سنوات وبقي الإمام محافظاً عليها ولم يظهر منه خلاف ولا =

ومات مولانا الإمام أحمدُ وقام بعده ابنه محمدُ

= انشقاق عنها إلا أنه كان يكره المبادئ الشيوعية والاشتراكية ويخاف منها كثيراً ويرى فيها القضاء على الإسلام وتعاليمه بمخالفتها أصول الشريعة وفروعها في ملكية الفرد وحرية كل في التصرف بما معه وقد أصدر في ذلك أرجوزة أثارت عليه غضب حلفائه ونسبوه بها إلى الجمود والرجعية وأظنها أول الأسباب لثورة مصر ورئيسها جمال على اليمين وإمامها أحمد، وإليك من الأرجوزة بعض أبياتها للاطلاع عليها ولك الرأي في الحكم عليها بما تستحق:

من الهدى إلى السبيل الأرشد
ونبذ كل مبدأ سخيّف
والبعد عن قول الخنا والعجب
خير رسول جاء رحمة لنا
هذا النزاع والخصام والقل
وعبثت فيكم يد التمزيق
ليست تعير رشدها التفاتاً
وفت زندكم وحز مفصله
قولاً يفيض حسداً وبغضاً
وتصفعون جهة المكارم
بكل صوت ناشز الإيقاع
هتكتمو يا قوم جانب الحرم
ولم تصونوا ذمة الوفاء
وسخرت منكم عناوين الصحف
كأنما احتل حاكم وانتصر
وصرّتمُ بعضاً لبعض شركا
ودستّمُ العهد الذي يصونكم
ولا شعار القادة العظام
ولعننة في شفة السماء
سفيننة تاهت بلا شرع
وتفسلون درن الأحقاد =

وكم أتى على لسان أحمد
كم حثنا لوحدة الصفوف
وكم دعانا للإخا والحب
هذي التعاليم التي علمنا
فما دعاكم يا بني العرب إلى
وما لكم حذم عن الطريق
وأصبحت قلوبكم أشيتاتاً
فأدرك العدو منكم أمه
مالي أراكم تملأون الأرضاً
وتفعمون الجوب بالشتائم
وتصرخون من فم المذيع
كم تشتمون بعضكم بعضاً وكم
أقلقتمو مضاجع الآباء
واستحت الأجداد منكم والشرف
وابتسم العدو بسمة الظفر
نسيتمو وعدونا المشتركاً
شنتم الحروب فيما بينكم
ولم تراعوا حرمة الإسلام
فصرّتمُ عاراً على الآباء
وصيرتكم شهوة الأطماع
فهل تعودون إلى الرشاد

وقد أصيب أحمدُ في رجله وبده من مُنكيرِ لِفعلِهِ

= وتقطعون ألسن السباب
وتنبذون الكيد والخذاعا
متى تكفرون عن أخطائكم
وتجمعون صفكم كي تضربوا
هيا فقد آن الأوان وانتهت
خضعتمو فيها لأمر الأجنبي
وتغلقون عنه كل باب
والمعجب والغرور والأطماعا
وتأخذون الدرس من آباءكم
أعداءكم وتعمروا ماخربوا
عصور ذل سيطرت واستحكمت
وذاب فيكم كل عرق عربي

هيا بنا نبني صروح الوحدة
فبينتشي تاريخنا افتخاراً
ونرتقي للمجد أعلى قة
وتركع الدنيا لنا إكباراً

هيا بنا لوحدة مبنيه
قانونها شريعة الإسلام
ليس بها شائبة من البدع
من أخذ ما للناس من أموال
بحجة التأميم والمعادله
لأن هذا ما له دليل
فأخذ مال الناس بالإرغام
ولا يجوز أخذ مال الغير
على أصول بيننا مرضية
قدسية الأوصاف والأحكام
تجيز ما الإسلام عنه قد منع
وما تكسبوا من الحلال
بين ذوي المال ومن لا مال له
في الدين أو تجيزه العقول
جرعة في شرعة الإسلام
إلا بأن يرضى بدون ضير

ويحسن أن تعرف طرفاً من حياة الإمام أحمد المولود مساء الأربعاء ليلة الخميس يوم
اثنين عشر جمادى الأولى سنة ١٣١٣هـ بقرية الرأس من الأهنوم شرقي شهارة، ونشأ في
حجر جده المنصور ثم في حجر والده المتوكل وظهرت عليه علامات الذكاء والنبوغ وبرز
في العلم والأدب ولمع نجمه في تفسير القرآن والحديث النبوي والفقاه الإسلامي والأصولين
والتاريخ واشتغل بالأدب فشرع ونثر وكتب وخطب وجالس العلماء وبلغ رتبة الاجتهاد، وله
مختارات فقهية يقول فيها بخلاف ما عليه من المذاهب الخمسة وهي لا تخرج عن أدلة
الكتاب والسنة، وأخذ العلم عن كبار أهله من أمثال شيخ الإسلام شيخه وشيخ والده
القاضي علي بن علي اليماني والسيد قاسم بن الوجيه المتوكل والسيد محمد بن عبد الرحمن =

= المقدمي والقاضي يحيى بن محمد الغشم والقاضي عبد الوهاب بن محمد المجاهد الشماحي والقاضي عبد الرحمن بن محمد المحبشي والسيد حسين بن محمد أبو طالب، وله مصنفات ومرويات في الحديث ومنها أربعة عشر حديثاً مسلسلاً، وشعره كله أو جله في الحماسة والجد ولا أعرف شيئاً في الغزل والهزل وإن وجد من ذلك شيء فهو نادر وقليل، ومن شعره:

وقد رجع الأعقاب بعدم التقدم
لإدراكه والشر في الناس ينتمي
وحيداً عن الجيش الخميس العرمم
جواد كريم الأصل غير مذمم
يصول بسيف صارم لم يثلم
بأن السريع الطلق في كف ضيفم
فخر صريعاً لليدين وللغم
أن أقدم إلى نحوي بموت محتم
عليه رصاصاً في البنان المنعم
وألبسته بالقطع ثوباً من الدم
يسلم للأعدا السلاح ويرتمي
تلوح كلمح البارق التبسم
ينوء بخزي في العصور وينتمي
فما عقلوا للجنين بعض تكلمي
وقد صلت فيهم بالحسام المصمم
وفروا حيارى من سناني وأسهمي
ومن حيث ألفت رحلها أم قشعم
ألا فاسألوا عني أهيل الخيم
لمن هو في ليل من الشك المظلم

ولما رأيت السيف قد فل حده
ونادى باسمي المستجير من الردى
وقد تركوا ذلك السريع بمهمه
كررت بطرف يسبق الطرف إن عدا
وكم أسد شاكي السلاح مجرب
ينازعني أخذ السريع وما درى
تلقيته بالحزم والحتف فعله
وكم بطل يومي إلي بكفه
فصدرت في صدري القناة فأمرت
فولى وقد قطعت كل بنانه
وكم جاهل لا يعرف الحرب إن غدا
عطفت عليه والمنية فوقه
فأنجيته والجيش إذ ذاك هارب
وكم مرة ناديت للجيش أن قفوا
فلم يبلغ الأعداء بعض مرامهم
فلما رأوا بأسني تداعوا إلى الورى
إلى حيث يأوي الذئب من شدة الظمأ
وفي القرقر المعروف قد كان كل ذا
ترون الذي قد كان كالشمس واضحاً

وكان يلقي خطبتي الجمعة والعيد أحياناً مرتجلاً ويخطب في الجموع المحتشدة وفي
ثكنات الجيش عند المناسبات وكلامه فصيحاً وصوته جهورياً، مهاب الطلعة لطيف
المعاشرة، حاضر البديهة محب للنكتة، حضر المعارك وقاد الفيالق شاباً وكهلاً وشيخاً،
وهو القائد في نجران أيام حرب اليمن مع السعودية، وهو الذي أخضع قبيلة الزرانيق الذين =

وكان هذا وهو في المُستشفى
ولا نحبُّ أن نُسجِّلَ الخَبَرَ
تعصُّباً منا لهذا أو لذاك
والنصرُ دائماً مع الحقِّ
ونسألُ اللهَ صلاحَ الأمرِ
وما أراد اللهُ فهو الماضي
وعاش عاماً بعدَ ذا ونصفاً^(١)
في هذه الأيامِ كي لا يُعتَبَرَ
وما يزاكُ الجانبانِ في العِراكِ
في الشِقِّ هذا أو بذاك الشِقِّ
لثورةِ السلالِ أو للبدرِ
على الذي يَرُضَى وغيرِ الراضي

= لم يخضعوا قبله للاتراك ولا لأحد من أهله، وستعرف كيف كانت محاولة اغتياله وكيف ومتى وأين مات رحمه الله.

(١) توفي الإمام أحمد يوم عشرين ربيع الثاني سنة ١٣٨٢هـ الموافق سبتمبر سنة ١٩٦٢م وكان مرضه شديداً بالروماتيزم الذي ربما منعه من الأخذ بالقلم والكتابة لما يجد من ألم المفاصل والكفين وقبل وفاته كان ينتقل بين تعز والحديدة وحمام الشفاء، ومرة زار مستشفى الحديدة بعد المغرب وأطفئت الأنوار وحاولوا اغتياله ولكنه سلم وأصيب من الجناة برصاصات في يده ورجله كاد ينزف منها الدم وعالجه الأطباء وأظهر من نفسه الشدة والتغلب على المرض حتى وافته المنية بقصره الملكي في تعز التاريخ المذكور ونقل جثمانه إلى صنعاء ودفن إلى جانب مسجد كان قد بناه هنالك، وبويع بالإمامة لولي عهده محمد البدر الذي أعلنت ولاية عهده يوم السبت ستة عشر شعبان سنة ١٣٧٤هـ بعد القضاء على ثورة عمه سيف الإسلام عبد الله، وأعلنت اليمن كلها جبالها وتهايمها وزيديتها وشافعييتها ولاءها وطاعتها لإمامها الجديد وأعطت على ذلك العهود والمواثيق في دوائر الحكومة وتحت منابر المساجد واستمر الإمام أسبوعاً كاملاً يعد بالإصلاح ويقدم النصائح لشعبه، وفي الساعة الحادية عشرة من مساء خمسة وعشرين سبتمبر زحفت القوة العسكرية على قصره وضربتته بالمدافع وكاد يقضى عليه فخرج من صنعاء خائفاً مستخفياً ونجا بنفسه وأعلنت الجمهورية اليمنية صبيحة تلك الليلة وقالوا إن الإمام قد مات تحت الأنقاض وإذا به يظهر وتنضم إليه القبائل وتنقسم اليمن على نفسها قسمين ملكية وجمهورية وتؤيد المملكة العربية السعودية الإمام البدر، كما تؤيد مصر جمهورية اليمن وعلى رأسها المشير عبد الله بن حسين السلال ((ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أين ما تكونوا يأتى بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير)).

والسبُّ والشتُّ من الجنونِ والحربُ من سنةِ هذا الكونِ (١)

(١) نعم لا نريد التوسع في الموضوع متناً ولا تعليقاً كي لا نتهم بالتعصب أو التحيز وإنما نحن طلاب إصلاح ورواد خير للبلاد وأهلها وكلا الجانبين عينان في رأس وقد تتألم إحداها لألم الأخرى والكل يعزون علينا ونحن في خلواتنا وجلواتنا وساعات الإجابة نسأل الله عز وجل أن ينصر الحق وأهله وأن يخذل الباطل وأهله وأن يختار للأمامة ما فيه خير معاشها ومعادها وحاضرها ومستقبلها، وإن يريدنا إصلاحاً يوفق الله بينها ومن يوم نظمت هذه الأبيات والأمر كما قلت في عراك واشتباك ولم تقف الحرب وإطلاق النار بين الفريقين إلا بعد اتفاقية جدة المعقودة بين جلالة الملك فيصل وفخامة الرئيس جمال عبد الناصر، يوم اثنين وعشرين أغسطس سنة ١٩٦٥م خمسة وعشرين ربيع الثاني سنة ١٣٨٥هـ، والحرب سنة كونية وليس العيب فيها مثل أن يصحبها السب والشتم وتبادل الفحش والبذاءة ثم الأمر في نهايتها لمن أراد الله نصره والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، ومن رضي بقضاء الله فله الأجر والراحة، ومن سخط مشيئة الله فليس عليه إلا الوزر وله الهزيمة، ((من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً)).

دخول الإنجليز في جنوب الجزيرة (١)

قَبْلَ دُخُولِ الْإِنْجِلِيزِ فِي عَدَنٍ بِحُكْمِهَا شَيْخَانِ مِنْ أَهْلِ الْوَطَنِ
الشَّيْخُ فَضْلُ بْنُ عَلِيٍّ السَّلَامِيِّ وَكَانَ نَائِباً عَنِ الْإِمَامِ

(١) الإنجليز مجموعة من قبائل شتى وعناصر مختلفة تسكن في الجزائر الغربية الشمالية من أوروبا، ويحدها من الغرب والشمال المحيط الانطلانطي ومن الشرق بحر الشمال الذي يفصلها عن بلاد اسكتلندا وألمانيا والدانيمارك وهولندا وبلجيكا ومن الجنوب بحر المانش الذي يفصلها عن فرنسا، وتنقسم بلاد الانجليز إلى أربعة أقسام وهي انجلترا وأكوسيا ومنها تتكون جزيرة بريطانيا وجزيرة إيرلنده، والرابع بقايا جزائر الأرخيبيل البريطاني ويطلق على الأقسام الأربعة كلها كلمة انجلترا تغليبا لها على غيرها، وفي هذه الأقسام مدن كثيرة وشهيرة، وكل قسم ومدينة فيه مميزاتة الخاصة في الزراعة والصناعة والتجارة والمعادن والفحم والحديد والألواح الحجرية وغيرها، وبها ثروة حيوانية ونباتية ويقال لأهلها الانجليز، ويمتازون بالصبر والجلد والأخلاق الفاضلة بالنسبة إلى غيرهم من الشعوب الأوروبية مع كبر في نفوسهم واعتقاد بأنهم الأمة التي لا تسوى بغيرها من الأمم، مستعمراتهم لا تكاد تقرب عنها الشمس وقد توسعت في القرون الثلاثة الأخيرة، ولهم قوة بحرية لا تضاهيها قوة أخرى ولكثرة بناء السفن عندهم وإحاطة البحار بجزائرهم أصبحوا شياطين البحر ومن أسبق الناس إلى الفتوحات وكثرة المستعمرات، وحكومتهم ملكية دستورية نيابية وللشعب فيها الصوت الأرفع فهي تشبه حكومة الجمهورية الفرنسية من السلطة التنفيذية التشريعية ما ليس لملك الانجليز، وللحكومة مجلسان أحدهما مجلس للشيوخ أو اللوردات والآخر مجلس العموم ومن الأول يتكون حزب المحافظين، ويوجد عندهم اليوم حزبان كبيران من أشهر الأحزاب حزب العمال وحزب الأحرار، أما كيف تكونت المملكة الإنجليزية فكما يأتي مع الاختصار، لما افتتح الرومان هذه البلاد في القرن الأول الميلادي قاومهم سكانها الأصليون وهم القبائل المعروفون باسم بيكتس أو الاسكوتس، مقاومة شديدة، وبنى الملك الأمبراطور (أديان) الروماني دونهم حصوناً منيعة فساورها الاسكوتس في القرن الخامس للميلاد، واستعان البروتون من سكان =

ومعه الآخرُ سيثُ الياضي صنوانٍ في الخيراتِ والمنافع
وقد أبى القسمةَ شيخُ حجٍ في عدنَ لدخلها والخرج

= الجزيرة بقبائل الأنجلوساكسون من جرمان وكانوا من قرصان البحر فنزلوا إلى معونتهم ثم استضعفهم فأبدلوا المعونة بالأسر فلكوا بلادهم وكونوا بها سبع ممالك انجلوساكسونية، ثم ترفت فكونت مملكة واحدة وضع قوادعها الفريد الكبير من سنة ٧٤٩ إلى ٩٠١، وهكذا تعاقب الملوك والملكات وحصلت الغارات على البلاد الانجليزية وطرد المغيرون عليها وثبت بعضهم إلى أن صار منهم الملك وتوارث أبناء الملك عنه حتى جاء قلب الأسد ريشار وهو الذي حضر الحرب الصليبية الثالثة وخرج بنفسه إلى بلاد الشام وحديثه معروف مع صلاح الدين الأيوبي، ثم خلفه أخوه حنا، وفي أيامه فقدت انجلترا نورماندي وممتلكات أخرى، فثار عليه الأهالي وبالقوة حددوا سلطته ووضعوا أول القواعد لحرية الحكم وذلك سنة ١٢١٥م، ولما تولى الملك هنري الخامس، من سنة ١٤١٣م إلى ١٤٢٢م حارب الفرنسيين وغلبهم وأخذ أكثر بلادهم وخلفه الملك هنري السادس إلى عام ١٤٧١م وفي أيامه ظهرت القائدة جان دارك الفرنسية المشهورة فقادت الجيوش وحاربت الأعداء وخلصت بلادها من الاحتلال الانجليزي، ولم تذكر دائرة المعارف لفريد وجدي من الذي كان بين هذا الملك والملكة اليزابت الأولى من سنة ١٥٨٨م إلى ١٦٠٣ وليس عندي الآن كتاب آخر أرجع إليه فإني أعتذر عن إهمال تاريخ الانجليز في هذه الفترة، وفي عهد اليزابت ظهر وانتشر مذهب البروتستانت في انجلترا وكانت الملكة حامية له في العالم، وأرسل ملك الإسبان فيليب الثاني (ماري استوار) الكاثوليكية لتكون ملكة على الانجليز فأسرتها الملكة اليزابت وبعد ثماني عشرة سنة من أسرها قتلها لتسكن بذلك الفتن الطائفية ولتخمد أنفاس المذهب الكاثوليكي في بلادها وغضب ملك الإسبان لهذا الحادث فأرسل بقواته وأساطيله البحرية لفتح بلاد الانجليز ولكنها تهشمت القوة وتحطم الأسطول وفقدت أسبانيا من يومئذ سيادتها البحرية وما تزال تفقد مستعمراتها شيئاً فشيئاً، وفي عهد اليزابت أيضاً نال الانجليز من السعادة ما لم ينالوه في أيام غيرها وبلغوا من العلم والصناعة والتجارة حداً بعيداً جداً، وتملك بعدها شارل الأول من سنة ١٦٢٥م وكان دكتاتورياً يعجبه الحكم الفردي ويعارض البرلمان، وصار بينها قتال وترأس جيش البرلمان (أوليفيه كرمويل) وهزم الملك وأسره وأخيراً قتل الملك ولقب كرمويل بجمامي الجمهورية وحكم البلاد بهمة وروية، وبعده قام الجنرال مونك ودعا ابن الملك شارل فلكه ولقبه بريشار الثاني واستمر على الخلاف مع البرلمان من سنة ٦٠ إلى ١٦٨٥م، وتولى بعده جاك الثاني لمدة ثلاث سنوات وأراد أن يحل المذهب =

وهو أبو الدولة والسلاطين في لحج مُذْ ذاك إلى هذا الحسين

= الكاثوليكي محل المذهب البروتستانتي واستعان عليه الانجليز بالهولنديين وجاءهم غليوم دورانج وفرحوا به وهرب الملك الأول إلى فرنسا وملك غليوم هذا على الانجليز وترقت البلاد في عهده كثيراً ولما مات خلفته الملكة آن بنت جاك الثاني إلى سنة ١٧١٤ م وفي مدتها ملك الانجليز جبل طارق وملك بعدها جورج الأول إلى ١٧٢٧ م وخلفه جورج الثاني إلى سنة ١٧٦٠ م ثم جورج الثالث إلى سنة ١٨٢٠ م وفي أيامه حصلت الثورة الأمريكية وكان أكثر البلاد لانجلترا كما اتحدت الدانيمارك والسويد والنرويج لحرب الانجليز ولكنه انتصر عليهم وهزم أساطيلهم البحرية شرهزيمة، وخلفه ابنه جورج الرابع ومدته عشر سنوات، وفي عهده اتحدت انجلترا وروسيا لحسم الخلاف بين الدولتين العلية واليونان وانتصرت أمته انتصارات باهرة كثيرة، وخلفه غليوم الرابع إلى سنة ١٨٣٧ م، وتقدمت في عهده البلاد تقدماً لا مثيل له وكثرت فيها السكك الحديدية، وخلفته الداهية الدهياء والمصيبة الكبرى على كثير من الناس وتعد بحق نعمة كبرى على شعبها وبلادها وهي الملكة (فكتوريا) ومدة ملكها أربع وستون سنة، وفي عهدها وبعد سنتين من ولايتها استعمر الانجليز عدن على ما يأتي، وخلفها ولدها ادوارد السابع من أول القرن العشرين إلى سنة ١٩٠٩ م ثم ابنه جورج الخامس وتوفي في عشرين جنواري سنة ١٩٣٦ م، وفي عهده تمت الاتفاقية مع الإمام يحيى على صلح أربعين سنة بينهم وبينه وكانت الحرب العالمية الأولى وتم جلاء القوات التركية عن الجزيرة العربية وانتهت الخلافة العثمانية، ثم ولده ادوارد الثامن وتنازل عن العرش في عشرة ديسمبر من السنة نفسها ثم أخوه جورج السادس وفي عهده انفصلت عدن عن تبعية الهند وأصبحت مستعمرة تابعة للتاج البريطاني مباشرة، وكانت الحرب العالمية الثانية من سنة ٣٩ إلى سنة ١٩٤٥ م، وتأسست هيئة الأمم المتحدة في أمريكا وكذلك جامعة الدول العربية في مصر، وظهرت حكومة إسرائيل في خسة عشر مايو سنة ١٩٤٨، وتوفي في ستة فبرواري سنة ١٩٥٢، وملكته بعده ابنته اليزابت الثانية في ابريل من السنة نفسها وتوجت في شهر جون من السنة التي بعدها وزارت عدن في سنة ١٩٥٤ م ووضعت في زيارتها هذه الحجر الأساسي في مستشفى خورمكسر، وإليها ينسب مستشفى الملكة، وفي عهدها تأسس الاتحاد الفيدرالي في جنوب الجزيرة سنة ١٩٥٩ م ثم صار اليوم يضم عدن وست عشرة ولاية من الحميات الغربية و ينتظر الاستقلال التام لهذه الحكومة مع الحميات الشرقية القعيطية والكثيرة والمهرية في سنة ١٩٦٨ م والمفاوضات جارية والأخذ والرد، والفوضى ضاربة أطنابها حال كتابة هذا من اثنين أكتوبر إلى اليوم أربعة منه من سنة ١٩٦٥ م، =

في وسط الثاني بعد العشر
ومات مقتولاً بأرض خنفر
ثم ابنه الكبير في الأولاد
وأحمد هذا هو الذي اتفق
يوقع الميثاق بين دولته
في سادس الأيام من سبتمبر
من المآت في الحساب الهجري (١)
ثم ابنه عبد الكريم أمرا
وأحمد من بعد عبد الهادي
مع الغزاة الإنجليز وأنطلق
ودولة قد حددت من صولته
من أشام القرون تسعة عشر

= وقد وضعت لهذه السنة تاريخاً إذا حسبت أرقام حروفه جاء في قوله: (نعوذ بالله من الشياطين ومن جنود الشياطين).

(١) قدمنا لك طرفاً صالحاً من تاريخ عدن ولحج في فصول مختلفة وكيف طمع المستعمرون في الاستيلاء عليها من سنة ١٠١٨ هـ وكيف لجأ إليها الإمام المهدي أحمد بن الحسن بن القاسم حين اختلف مع عمه اسماعيل المتوكل ثم اصطاح معه ورجع إليها غازياً وفاتحاً لها وهي إذ ذاك تحت ولاية الحسين بن عبد القادر اليافعي وظلت عدن وما جاورها تابعة لحكم الأئمة المتوكل إسماعيل ثم ابن أخيه أحمد بن الحسن ثم ابن عمه محمد بن المتوكل ثم ابنه محمد المعروف بصاحب المواهب المتوفى في سنة ١١٣٠ هـ وعليه تترددت لحج ويافع وكان فيها الشيخان المتصالحان على خراج عدن وهما فضل بن علي بن صلاح بن سلام بن علي السلامي، وسيف بن قحطان العفيني اليافعي ولقرب السلامي من عدن وسواحل البحر كانت له الغلبة وكان يدفع للشيخ سيف خمسمائة ريال سنوياً من خراج عدن ولما مات لم يدفع لورثته شيئاً من بعده، ويقال إنه امتنع مما كان يدفعه لليافعي قبل وفاته، وسبب تولي الرجلين على هذه البلاد ما كان لها ولأهلها من إكرام الإمام أحمد بن الحسن بن القاسم يوم كان ملتجئاً إليهم ثم من حسن الوساطة والتفاهم بينه وبين عمه المتوكل ولكن لضعف الدولة الإمامية تغلب النواب على ما في أيديهم واستقلوا بحكم بلادهم، وفضل بن علي هذا هو جد السلاطين في لحج وما يزالون فيها إلى اليوم وسلطانهم الحالي فضل بن علي بن أحمد بن علي بن محسن بن فضل بن محسن بن فضل الأول وهو الذي ظهر أمره وقويت شوكته من عهد الإمام محمد بن أحمد بن الحسن إلى أن قتل في خنفر من بلاد يافع في وسط القرن الثاني عشر الهجري سنة ١١٥٥ هـ وسنذكر كيف تولى بنوه الحكم من بعده إلى اليوم وكيف دخل الإنجليز في عهدهم إلى عدن وكيف كانت الاتفاقيات بينهم وبينه صداقة ثم حماية ثم دولة في الاتحاد.

سنة ثنتين ابتداء الجيل جيل المغالطات والتضليل
وكان في الميثاق سبعة عشر من الشروط بلغتهم الوطر (٢)

(١) مات الشيخ فضل موتاً طبيعياً أو قتل على الأصح بأرض خنفر من يافع وذلك أنه سافر ليصلح بين الشيخ سيف وبعض قبائل المنشقين عليه أو ليحضر حفلة زواج هنالك ويحتمل أن سفره كان للأمرين معاً، وكان يطالبه آل محسن بن عطية أن يجعل لهم شيئاً من نصف خراج عدن المقرر للشيخ سيف وهو يأبى عليهم وبينما هو متوجه إلى حصن ابن عطية ومعه نحو ثلاثمئة رجل من قومه نشبت الحرب بين الفريقين وسقط الشيخ فضل عن فرسه وقد أصيب وقطعت قبائل يافع رأسه وكان معهم بقية من جند الإمام وذهبوا به إلى صنعاء وأجاز الإمام المنصور الحسين بن القاسم كل واحد منهم بنحو إحدى عشرة أوقية ذهباً، ودفن رأسه في صنعاء أما جسده فدفن بخنفر، وخلف ولدين عبد الكريم ومحسن والأول هو الذي تأمر بعد أبيه وأول من أطلق على نفسه لقب السلطان من هذه العائلة وخلف عبد الكريم خمسة أولاد عبد الهادي وفضل وأحمد وعلي ومنصر، وتوفي السلطان عبد الكريم بعد سنة ١١٨٠هـ وتسلطن ابنه عبد الهادي وحصلت بينه وبين عمه محسن فضل خلافات كثيرة، وكان عليه مع عمه آل سلام وخرجت عن طاعته العقارب، واستولى على بئر أحمد الشيخ مهدي العقربي واستقل بها في سنة ١١٨٦هـ، وظفر السلطان عبد الهادي بعمه محسن فقتله واستراح من شره وشر أصحابه الذين نازعوه الحكم وشقوا عليه عصا الطاعة، وتوفي عبد الهادي في حوالى سنة ١١٩٤هـ، ثم تسلطن أخوه فضل بن عبد الكريم إلى سنة ١٢٠٧هـ، ثم أخوه أحمد بن عبد الكريم ولم أذكر سلفه فضل بن عبد الكريم لأن نهاية أهل هذا البيت كانت بأحمد، على ما تراه، وهو الذي صادق الانجليز ورحب بالزوار منهم ووسع لهم صدره وأحسن ضيافتهم وعقد أول معاهدة معهم في يوم ستة سبتمبر سنة ١٨٠٢م الموافق سنة ١٢١٧هـ، وكانت بينه وبين السر هوم بوفم، ووقعا عليها مبناء صيرة وعلى ظهر السفينة (راني) وتشتمل هذه الاتفاقية على سبعة عشر بنداً وكلها أو جلها في صالح الانجليز وقد أورد صورتها الأمير أحمد فضل العبدلي في كتابه (هدية الزمن) ونقلها عنه حمزة لقمان واستمر أحمد عبد الكريم في سلطنته على لحج إلى سنة ١٨٢٧م ١٢٤٣هـ، ومات ولم يخلف ولداً وبموته انقرض بيت السلطان عبد الكريم بن فضل الأول، وتحولت السلطنة إلى البيت المحسني نسبة إلى محسن بن فضل الهارب إلى الحمراء بعد مقتل أبيه محسن بن فضل الأول وذلك بوصاية وولاية عهد من أحمد بن عبد الكريم لابن ابن عمه، ((وتلك الأيام نداؤها بين الناس))

هذا ومحسنُ بنُ فضلِ الثاني
بدا للإنجليزِ في سقطراً
في عامِ خمسةٍ وأربعينَا
وجاءَ مركبٌ من الهندِ إلى
وانكسرَ المركبُ ثم ذهبَا
وجاءَ هنسٌ يطلبُ الضمانَا
عشرةً من الألفِ بعدها
فسلّمَ البعضَ وأبقى البعضَا
في جنواري يومِ ستةَ عشرَ

لما مضت من حكمه عامين
أن يأخذوها من بلاد المهرا
بعد اثني عشرة من مئينا (١)
هنا بججاج كرام فضلا
جميع ما فيه ثم واتهبَا
وبالضمان يسزّم السلطانَا
ألفان ملزوماً بأن بعدها
وبعد عام جاء ما لا يرضى
من قرن الاستعمار تسعة عشر

(١) جزيرة سقطرا مشهورة معروفة في البحر الهندي مقابلة لرأس الاحتراس من شرق أفريقيا ومساحتها (١٤٠٠) ميل مربع وسكانها حوالي ستة آلاف نسمة، وحاصلاتها اللؤلؤ والصدف الممتازان والزباد وأشجار النخيل وما تستخرج منه الصمغ والأبخرة والعقاقير المختلفة كاللبان والمر والصبرودم الأخوين وثروتها الحيوانية قليلة والأمطار لا تنزل فيها إلا نادراً وإذا جاء المطر كثرت السيول وأتلفت بعض الممتلكات، ويعد أهلها ثلاث طبقات عليا وهم الأمراء وشيوخ القبائل، ووسطى وهم التجار وأصحاب الحرف، والثالثة من الصيادين والعمال في البحر والبر، وشيخها الحالي عيسى بن علي بن عفرير، وقد فكر الإنجليز في احتلالها سنة ١٨٢٩م الموافق ١٢٤٥هـ وذلك ليجعلوها محطة للفحم ولبعض المنتجات التجارية بين الهند وباب المندب ولم تكن الاتفاقية مع سلاطين لحج وافية بالفرض لتكوين المراكب من عدن لقلّة العمال فحالوا بعدما طافوا ساحل حضرموت في نحو مائة ميل أن يجعلوا من هذه الجزيرة ومن بلاد المهرا ما يحقق رغبتهم ولم يتم لهم ما أرادوه إلا في أكتوبر ١٨٣٤م وفي السنة التي بعدها، وقد تمتع يومئذ سلطانها عمرو بن سعد الذي يحكم من الجزيرة إلى ساحل حضرموت وإلى مسقط في عمان من عقد اتفاقية مع الإنجليز لا بالشراء ولا بالإيجار ولكنه اضطر للاستسلام بعد التهديد بالقوة فأخذوها منه قهراً وأعطيت له عشرة آلاف ريال نمساوي، وأصبحت منذ ذلك تابعة لحكومة الهند الإنجليزية، وقاتل الله الإنجليز ما ألعن أساليبهم كلهم في الاستعمار والانتداب والحماية.

في عامه التاسع والثلاثين وكان جيش الغزو سبعمئة وانسحب السلطان بعد ما فقد والإنجليز فقد الشيء القليل فنزل الكفار دار المسلمين يقودهم هنس الخبيث النية من جيشه ما لا يُعَدُّ أو يُعَدُّ بضعة عشر من جريح وقتيل (١)

(١) كان الكابتن هنس يواصل أسفاره على سواحل البحر الأحمر لمهمة البحث أو الاستقرار في مكان يجعله الإنجليز في ظاهر الأمر مخزناً للفحم وفي الحقيقة أنهم يريدونه الأكبر من ذلك، وقد حاولوا الاستيلاء على عدن بكل وسيلة وحيلة من أول القرن التاسع عشر، وفي سنة ١٨٣٥م رست السفينة التي تحمل هذا القائد ومعه رجلان من قومه في ميناء صيرة ونزلوا لزيارة السلطان محسن ومحادثته في مستقبل عدن، وكانوا يضعون له الفخ حتى يقع فيه وطلب منهم قوة يستعين بها على محاربة آل فضل الأبينيين، الذين هاجموا عدن في تلك السنة فامتنع الوفد من تلك المساعدة واعتذر الإنجليز لصاحب الحج بأنهم لا يريدون حرباً ولا عداوة ظاهرة للعرب في هذه البلاد، وفي أربعة يناير سنة ١٨٣٦م أربعة عشر رمضان سنة ١٢٥١هـ وصلت من الهند السفينة (دريادولت) وهي ملك لسيدة هندية مسلمة وتحمل حجاجاً وبضائع كثيرة وغرقت في الساحل قريباً من عدن وأغاص عليها البدو ونهبوا جميع ما فيها وقتلوا بعض ركابها وغرق منهم أربعة عشر رجلاً وامرأة وباع البدو جميع ما نهبوه في الأسواق والبوادي، لا يرقبون في ضعيف إلا ولا ذمة، ولا يراعون لمسلم كرامة ولا حرمة ولا يبعد أن يكون الإنجليز قد فرحوا بهذه الجريمة النكراء ليتخذوا منها ذريعة تبرر غزوهم لعدن واحتلالها بالقوة، فأرسلت حكومة بمبي بشيطانها الكابتن هينس ليفاوض السلطان فيما جرى ويطالبه بالتعويض عن الأموال المنهوبة من السفينة دريادولت أو يردها بأعيانها فاعتذر عن ذلك وأنكر أن يكون له علم بتفاصيل ما حدث واحتج عليه بوجود البضائع في أسواق عدن ولحج ولم يجد له بدأ من دفع التعويض اثني عشر ألف ريال سلم منها في الحال سبعة آلاف وثمانمائة وثمانية، وطلب مهلة فيما بقي وهو أربعة آلاف ومئة واثنان وتسعون ريالاً لمدة سنة كاملة وذلك في جنواري سنة ١٨٣٨م، وحصل بينه وبين المستر هينس اتفاق سري على أن يسلم له شبه جزيرة عدن مقابل سبعة آلاف وسبعمائة ريال يأخذها سنوياً ولكن الأمير أحمد بن محسن عارض في هذا وحاول أن يأخذ وثيقة الاتفاق، وفي سبتمبر من السنة نفسها جاء الكابتن هينس إلى عدن وخيم في طرشان من التواهي وطلب أن تسلم إليه عدن حسب ما وقع من الاتفاق مع السلطان محسن ولكن ابنه الأمير أحمد جاء إليه وأخبره أن والده يرفض تسليم =

وكان في المملكة العظيمة فكثوريا قوية العزيمة

= البلاد وكذلك دفع ما بقي من التعويض المطلوب وطلب الوثائق التي بيد هينس ورفض أن يسلمها وأخيراً طلب منه تسليم أوراق اعتماده من حكومة بمبي للمفاوضة في شراء عدن فسلمها له وما كان ذلك ليحدي شيئاً والله المستعان، وفي أكتوبر وصلت السفينة كوت وطلب كبتانها الماء والأغذية اللازمة ولكن الأمير أحمد بن محسن منعها من كل شيء واعتبر ذلك منه إعلان حرب على الإنجليز، وفي ثمانية عشر ديسمبر وصلت السفينتان ماهي وآن كريستن تحملان الفحم وتندران بتصميم الإنجليز على احتلال عدن وفي أحد عشر جنواري سنة ١٨٣٩م من القرن التاسع عشر وقعت مناوشة بين الباخرة ماهي ومدفعية صيرة وقتل من عسكر السلطان قرابة ثلاثين رجلاً ومن الإنجليز جنديان فقط، وكان السلطان يطلب النجدة من إبراهيم باشا قائد الحملة في اليمن وهو إذ ذاك بتعز، والمفاوضات تجري بين الجانبين العربي والإنجليزي ورأى هينس أنه مضطر بعد فشله في المفاوضات لطلب القوات العسكرية جنوداً وسلاحاً فجاءه من الهند:

قوة من ستمائة وخمسين جندياً من رجال المدفعية .

قوة من مئة بحار من فرقة العاصفة .

قوة من أربعة وعشرين جندياً هندياً (سيبوز).

سفينة سلوب تحمل ثمانية عشر مدفعاً .

سفينة يريج تحمل عشرة مدافع .

سفينة سكونر .

أربعة وعشرين أو ثمانية وعشرين مدفعاً تطلق قنابل زنة ١٢ أو ١٤ رطلاً ليستعملها

في الدفاع عن عدن بعد احتلالها .

قوة احتياطية من خمسمائة جندي هندي وأوروبي ليستعملها في حالة قيام الأهالي

بثورة مسلحة بعد الاحتلال . وفي يوم ستة عشر جنواري سنة ١٨٣٩م اقتربت مراكب

الإنجليز من سواحل عدن وعليها الجنود من الإنجليز والهنود وأخذت تقصف الأبراج

ومراكز الدفاع العذنية وتنزل العساكر في القوارب البحرية وتحميم السفن الراسية على

صيرة وحقات، وقد سكنت مدافع السلطان ولم تبق مع أصحابه إلا البنادق التي لا تفعل

شيئاً مع القوة القاهرة والقنابل التي يقذفون بها زنة أربعة عشر رطلاً من هنا وهناك،

وكان عدد الجيش المحتل نحو سبعمائة رجل ولا يعرف بالضبط عدد جيش السلطان وقد

قتل من الجيش العربي يومئذ نحو مئة وخمسين ومن الإنجليز وأتباعهم ثلاثة عشر أو خمسة

عشر رجلاً فقط، وانهزم السلطان وتم الاحتلال في التاريخ المذكور، وقریباً إن شاء الله

تذهب عن هذه البلاد أغصانه والجذور، ولكل زمان حال، ولكل مقام مقال .

وربما أقرَّ هذا الاحتلال
 إذا كان إبراهيمُ باشا في اليَمَن
 أما الإمامُ فهو المَهدي
 وهكذا ما اختلفَ الحكامُ
 والإنجليزُ مثلُ داءِ السلِّ
 عبدُ المَجدُ مَخطئاً في الاحتيال
 وكان لا يَهُمُّه إلا عَدَن
 يَكادُ لا يُطِئُهُ جُندي
 إلا وزالَ الأَمَنُ والسَلامُ
 وَقَلَّ ما يَخْرُجُ مِنْ مُغْتَلٍّ (١)

(١) أول مستعمرة بريطانية في عهد الملكة فكتوريا كانت عدن ولما كانت الحرب بين محمد علي باشا بقيادة ولده إبراهيم وبين جيوش السلطان عبد المجيد خان وقد وصل إبراهيم باشا إلى تعز واليمن الأسفل وكان يحاول دخول عدن اتفق رئيس وزراء بريطانيا اللورد بالمرستون مع السلطان العثماني على معاهدة تحول للانجليز الاتجار في الممالك العثمانية والبلدان التابعة لها بما في ذلك عدن وأصدر السلطان عبد المجيد مرسوماً بموجبه يبيح للانجليز استعمال عدن كمركز تجاري ومخزن للفحم وهو يريد مساعدتهم على استرجاع مصر والشام إلى حظيرة الخلافة العثمانية، وكان محمد علي باشا قد استبد بما في يده واقتطع كثيراً من الممالك العثمانية حتى جاءت معاهدة لندن وتم في سنة ١٨٤١م ما قد علمت مما تقدم، وكتب هينس إلى محمد علي يخبره باحتلال عدن ورد عليه برسالة ودية ويقدر فيها العمل الذي تم للانجليز في وقت قصير وقد عجز عنه بعد محاولات كثيرة وفي وقت طويل، أما كتابة هينس إلى الإمام في صنعاء بخبر الاحتلال فإنه لم يأت رد عليها وكان الإمام إذ ذاك علي بن المهدي عبد الله الذي اختلفت عليه الأمور ولم يحسن السياسة في بلاده ومعاملة جنوده وقبائله بل ولا مع وزرائه، ومات المهدي قبل أن يتم احتلال عدن بنحو ثلاث سنوات وتنازع الإمامة بين الناصر بن المهدي والناصر بن عبد الله بن الحسن بسبب المشاكل الداخلية التي تشغل أصحاب البلاد عما يأتهم من الخارج، والبيت الأخير من هذا الفصل يتضمن معنى صحيحاً لسياسة الانجليز في كل مكان وزمان وقد أصبح مثلاً سائراً عند العرب، وإذا كان السل من الأمراض المعضلة والتي لم يصل الطب إلى القضاء عليها تماماً فإن الانجليز أشد خطراً وأخبت فتكاً بالبلاد التي يحتلها إن كان باقياً فهو يمتص خيراتها ويستأثر بمصالحها ولا يعلم أهلها وإن خرج منها ترك وراءه من الفتن والاضطرابات السياسية والمنافسات الحزبية وإغراء العداوة بين السكان ما يمتنون معه عودة الاستعمار إليهم أو يعجزون عن إصلاح أمورهم ولئن كانت هذه الصفات في المستعمرين الآخرين فهي في الانجليز أكثر وجوداً، ونسأل الله أن يحفظ =

ماذا بعد الاحتلال

تَمَّ مع السلطانِ محسنِ بنِ فضلي ما بينه وبينَ هنسِ القائدِ هذا عليه أن يُؤمِّنَ السَّبيلَ مصادقاً للإنجليزِ ومعه وبأخذُ السلطانُ كَلَّ سنةً والإنجليزُ يدفعُ الرواتبَ وما على السلطانِ أيُّ فرضٍ عهدٌ وقد أجمَلتهُ في ذا الفصلِ على ضماناتٍ من المعاهدِ مِن أيِّ مَكروهٍ ومِن كَلِّ قَبيلِ مشارِكاً له بِكُلِّ مَنفَعَةٍ ستَّةِ آلافٍ وخمسةِ مئةٍ لليافعي والفضلي والحواشبِ في كَلِّ ما يملكُهُ مِن عَرْضِ (١)

= علينا ديننا العظيم والوطن العزيز، وهو القائل تعالى: ﴿إِنَّمَا يَهْتَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلوكم فِي الدِّينِ وَأَخْرَجوكم مِّن دِيَارِكُم وظَاهروا على إِخْرَاجِكُم أَن تُولُوهم وَمَن يَتولهم فَأولئك هم الظالمون﴾.

(١) يتلخص المقصود من هذه السبعة الأبيات فيما نقلته من المعاهدة المعقودة بين السلطان محسن والقائد هينس وهي كما يقول الأمير أحمد فضل في كتابه (هدية الزمن) بنصها:

تعهد السلطان محسن فضل وأولاده وعلي وعبد الله وفضل بحماية الفقير والضعيف وسلامة قبائلهم وتأمين الطرق وأنه مسؤول عن أي قبيح يرتكبه أصحابه في الطرق وأن لا يحدثوا أي نوع من المقاومة ضد الدولة البريطانية وأن تكون مصلحة الطرفين واحدة، وعلى الدولة أن تدفع المعاشات التي للفضلي واليافعي والحوشي وقبائل الأمير وأن تعطي السلطان محسن وأولاده ما تناسلوا معاشاً قدره (٦٥٠٠) ستة آلاف وخمسمائة ريال سنوياً ابتداء من شهر القعدة الحرام سنة ١٢٥٤هـ وأن الأرض من المجراد إلى الحج وإلى جميع حدود قبيلة العبادل المعروفة تحت سيطرة السلطان وعند حدوث أي هجوم على الحج أو على قبائل العبادل أو على عدن أو على عساكر بريطانيا فالسلطان محسن والدولة البريطانية يكونان يداً واحدة وإذا دخل أحد رعايا السلطان عدن فعليه =

هذا وفي السادس والخمسين ثلاث مرات فكانت فاشلة وقطعوا عنه الذي تَقَرَّرَا إليه في ثالثةٍ مِنَ السنين وتمَّ بينهم وبين السلطان عَهْدٌ وفي خامسةٍ وستينَ أن يحفظوا للإنجليز مآلَهُمْ وأن يكونَ الحدُّ للمستعمِر

حاول أن يسترجع القرينا جميعها وضاعت المحاولة له وقد عاد الذي تغيَّرا وذلك في تاسعةٍ وخمسين (١) عليّ بن محسنٍ ذاك الأوان تاريخه ويُلزَمُ السلاطينَ من عادةٍ وتحفظوا أموالهم منتهباً إليه خورَ مكر

= إطاعة قوانين الدولة البريطانية وعلى رعايا الدولة البريطانية أن يطيعوا أحكام السلطان في لحج وأن السلطان وأولاده معفونون من العوائد والرسوم عند دخولهم وخروجهم في عدن، وتاريخ هذه المعاهدة في ستة ربيع الثاني من سنة ١٢٥٥هـ.

(١) لم يميض على المعاهدة السالفة الذكر إلا نحو ستة أشهر في رمضان من السنة المذكورة وفي الشهرين ربيع الأول وجمادى الأول من السنة التي تليها أراد السلطان نقض المعاهدة وأغارت قبائل العبادل على عدن ليسترجعوها من أيدي الانجليز وعبثاً حاولوا ولم يقدروا على شيء بل رجعوا مهزومين في غاراتهم الثلاث والأسد يحمي عربنه ما دام فيه. أما إذا خرج منه واحتله غيره كان من الصعب أو المتعذر أن يعود إليه، ولما حدث قطع الانجليز المساعدة السنوية التي كانت تدفع للسلطان، وفي سنة ١٢٥٩هـ وبعد ثلاث سنوات مما صار علم السلطان أنه لا طاقة له بحرب عدوه وأن التفاهم السلمي هو خير وأصلح له فدخل إلى عدن واصططح مع الانجليز وتحسنت العلاقات بين الجانبين وأعيد إليه ما كان قد قطع عنه من المساعدة في المدة كلها والمغلوب العاقل يرضى باليسير وإن فاته من حقه الشيء الكثير، وتوفي السلطان محسن في آخر ذي الحجة من سنة ١٢٦٣هـ خلفاً من الأولاد الذكور تسعة وهم أحمد وعلي وعبد الله وفضل ومحمد وعبد الكريم وعبد الهادي وعبد القوي ومنصر، وتسطن منهم بعد أبيه الأمير أحمد الذي كان شديداً على الانجليز ومعارضاً لأبيه في كثير من الاتفاقيات، حكيماً في المعارضة أحياناً وضعيف الرأي أحق في حين آخر وتوفي بعد سنة وشهرين من سلطنته وذلك في صفر سنة ١٢٦٥هـ، وتسطن أخوه علي بن محسن ومن أهم ما حصل في أيامه هذه المعاهدة التي يأتيك خبرها في السبعة الأبيات التالية.

وَأَنْ يَسْلَمُوا إِلَيْهِ الْمَجْرَمِينَ أَتْبَاعَهُ كُفَّارَهُمْ وَالْمُسْلِمِينَ
وَكُلُّ مَا لِلْإِنْجِلِيزِ مَمْلُوكٌ أَوْ لِلسَّلَاطِينِ بِغَيْرِ جَمْرُوكِ
إِنْ مَرَّ هَاهُنَا وَإِنْ مَرَّ هُنَاكَ وَمِثْلُ مَا لِيَذَا مِنْ الْحَقِّ لِيَذَاكَ (١)

(١) في شهر مايو سنة ١٨٤٩م أربعة عشر جمادى الآخرة سنة ١٢٦٥هـ حصلت هذه المعاهدة المشتملة على إحدى عشرة مادة بين الحكومة الانجليزية في عدن والسلطان علي ابن محسن العبدلي وثبتتها منقولة من تاريخ عدن والجنوب العربي للأستاذ حمزة لقمان وهو يقول إنها منقولة من الأصل الإنجليزي، أما الأمير أحمد فضل فإنما ذكرها بإيجاز واختصار ونصها في المرجع الذي ذكرناه كما يأتي:

بالنظر إلى الحاجة إلى السلام والتبادل التجاري والرخاء بين جميع الشعوب وعلى الخصوص لفائدة السلطنتين المذكورتين أعلاه وهما السلطان علي محسن فضل سلطان لحج باسمه وبالنيابة عن ورثته وخلفائه وجميع القبائل التي تحت إدارته ورقابته وسلطته، والكبتن ستافورد بتسورث هينس بالنيابة عن صاحب الشرف الرفيع الحاكم العام للهند، عملت هذه الاتفاقية لغرض تأسيس صداقة دائمة وطيدة الأركان لا يجوز خرقها، واتفق الطرفان وصادقا وختما ووقعا على المواد التالية:

المادة الأولى:

بالنظر إلى الاحترام الواجب للحكومة البريطانية فإن السلطان علي محسن فضل يتعهد بأن يحصل للمالكين الشرعيين كل الأراضي والممتلكات المنزلية وغيرها التي في داخل حدود بلاده والتي يمتلكها رعايا بريطانيا الساكنون في عدن، وأن أشخاصهم ووكلائهم سيكونون في أمان ويتمتعون بالاحترام إذا هم ساروا إلى بلاد السلطان ليجمعوا إيجار تلك الممتلكات أو لأي غرض آخر.

المادة الثانية:

يقبل السلطان علي محسن فضل أن يسمح لرعايا بريطانيا وجميع سكانها بزيارة لحج وأي جزء من بلاده. إما لأغراض تجارية أو لرحلات ترفيهية، وسيضمن لهم الحماية والتسامح الديني الكامل ما عدا إحراق الموقى.

المادة الثالثة:

إذا اقترف أحد رعايا بريطانيا ما يجعله مسؤولاً أمام القانون فإنه يرسل إلى سلطان عدن للمحاكمة والعقاب.

والتزم السلطان فضل بن علي للإنجليز ضد كل عثماني

المادة الرابعة:

بموافقة سلطان لحج يمكن لرعايا بريطانيا أن يحصلوا على أراضٍ لمدد معينة في لحج أو أي مدن أو قرى في بلاده تبعاً لقوانينه، وبنفس الأسلوب يمكن لرعايا السلطان أن يحصلوا على أراضٍ في عدن تبعاً للقوانين والإجراءات البريطانية.

المادة الخامسة:

إن جسر خور مكسر والأرض الفضاء الواقعة بينه وبين جبال عدن والتي تكون البرزخ (اسمس) ممتلكات بريطانية ولا شيء إلى الشمال.

المادة السادسة:

يتعهد السلطان علي محسن فضل بأن يظهر الطريق المؤدية إلى عدن من عصابات النهب وأن يحمي جميع المواد التجارية المارة ببلاده وأن يعاقب إذا كان في سلطته، جميع الناهيين والمؤذنين والمسببين للأضرار.

المادة السابعة:

المواد التي يحتاجها سلطان لحج شخصياً لأغراضه المنزلية ستمر من عدن دون أن تفرض عليها أي عشور وبنفس الأسلوب ستمر ممتلكات الحكومة في بلاد السلطان دون أن تفرض عليها رسوم المرور. إن سلطان لحج يتعهد بأن يأخذ رسوم المرور داخل أراضيه على جميع البضائع المارة إلى عدن من الجبال وهي البضائع التي يمتلكها رعايا بريطانيا.

البر - الطعام - الدقيق - السمن - العنب وكل أنواع الفواكه - العسل - القوة - الدال - السنة مكّي - اللبان - الورد - البن - القات - سيفرض على سعرها الأساسي ٢٪.

الخضروات - الخشب - القصب والحشيش (لن يفرض عليها شيء من العشور لأنها من منتجات بلاد السلطان). وتفرض ٢٪ على المواد التي لم تذكر في القائمة أعلاه أما المواد التي تدخل إلى بلاد السلطان من عدن فتفرض عليها ٢٪ وهي:

القطن - النشوق (الشمة) - الفلفل - الملابس البيضاء والقطنية - الحديد - الرصاص - التمر - المدافع (النارجيلات).

وأيضاً ٢٪ على المواد غير المذكورة في القائمة أعلاه.

أَنْ لَا يُصَادِقُوا عَلَيْهِ أَحَدًا مِنْ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ أَبَدًا
وَلَا ذَخْسِيرَةً وَلَا سَلَاخَ يَمُرُّ وَالْبِنَاءَ لَا يُبَاخُ

المادة الثامنة:

إن السلطان علي محسن فضل يتعهد بأن يشجع زراعة جميع أنواع الخضروات الأوروبية والمحلية لسوق عدن.

المادة التاسعة:

إن السلطان علي محسن فضل يؤكد بكل قوة الإخلاص الديني لهذه الاتفاقية، وزيادة على ذلك يعلن أنه سيقدم أقصى معونة لتأييد المصالح البريطانية في جميع الأمور المتعلقة بسلام وتقدم ورفاهية عدن، وأنه سيستمع وأيضاً سيمتثل، إذا كان بإمكانه إلى نصائح ممثل الحكومة البريطانية في جميع الأمور.

المادة العاشرة:

إن السلطان علي محسن فضل يتعهد أيضاً ويقسم مبنياً أنه إذا حدث إخلال أو خرق للارتباط المذكور أعلاه فيما يخص نفسه أو أولاده أو أقربائه أو رؤساء دولته أو أي شخص آخرين من رجال قبيلته أو أولئك الذين يملكون السلطة تحته أو المأجورين أو بأي وسيلة مرتبطة بحكومته أو دائرة قضائه أو إذا كان أحد أو أي واحد من الأشخاص المذكورين أعلاه قد صار بأي طريقة مسؤولاً عن كونه قد عمل سرياً أو كأداة للإخلال بالارتباط أو لحرق المعاهدة أو إذا اقترف أي عمل للنهب في الطرقات المؤدية إلى عدن بواسطة بلاده فإن السلطان يتحمل كل المسؤولية وعليه أن يقدم الإجابة المرضية المقنعة للحكومة البريطانية. وبالإضافة إلى ما تقدم إذا عمل السلطان أو أي شخص من المذكورين أعلاه إما بصورة علنية أو سرية على حماية أي مذنب دون تقديم التقرير المرضي المقنع للبريطانيين، أو قام بأي خرق للمواد المذكورة أعلاه فإن السلطان، بحرية وتأكيد، يقسم بأن يلغي أي مطلب له في الماهية (المذكورة أدناه) التي منحها له صاحب الشرف الرفيع الحاكم العام للهند وأن يعلن نفسه حائثاً بالعهد.

المادة الحادية عشرة:

إن ستافورد بتسورث هينس الكبتن في الأسطول الهندي والمعتمد السياسي في عدن الذي منحت له السلطة يعد رسمياً باسم صاحب الشرف الرفيع الحاكم العام للهند بأن يدفع للسلطان علي محسن فضل وورثته وخلفائه مبلغ ٥٤١ ريالاً (ماريا تريزا) شهرياً =

من ساحل البحر بدون رخصه من عدن وبأها من قيصه
ويُلزَمُ السلطانُ كلَّ ما تليف بالنهب والسلب ولو لم يعترف (١)

= طالما استمر هو أو ورثته وخلفاؤه على العمل بإخلاص وصدق وصدقة نحو البريطانيين،
وبكل الأحوال يحافظون على شروط هذه المعاهدة.

حررت هذه المعاهدة ووافق عليها في اليوم السابع من شهر مايو سنة ١٨٤٩ م.
وللشهادة على ذلك وضعنا أختامنا وتوقيعاتنا.

ختم سلطان الحج . إمضاء علي محسن فضل .

ختم إمضاء ستافورد بتسورث هينس .

(الكابتن في الأسطول الهندي والمعتمد السياسي).

ختم لورد د. الهاوسي (حاكم الهند العام).

وقد صادق على هذه المعاهدة صاحب الشرف الرفيع الحاكم العام للهند في
٣١ أكتوبر سنة ١٨٤٩، وفي عهد هذا السلطان هاجمه العواتق وآل فضل ولاية لحج
(الحوطة) وغيرها من القرى وفي هذا الهجوم قتل الشيخ أبو بكر بن ناصر العولقي وانهم
أصحابه من القبيلتين، وتهدة للحالة وكفا لعبث المفسدين أعطى السلطان علي لأخي
المقتول الشيخ فريد بن نصر خمسمائة ريال، وفي سنة ١٢٧٢ هـ صالح السلطان آل فضل
واجتهد في تحسين العلاقات بين قبائله والعواتق وصادق الشيخ منصر بن أبي بكر بن
مهدي العولقي بواسطة السيد محمد بن عبد الرحمن الجفري وكذلك بواسطة السلطان هادي
ابن عبد الله الواحدي وهما صديقان للطرفين، وفي عهده وبعد منازعات وحروب مع شيخ
الحواشب عبيد بن يحيى رجحت كفة ميزان العبادل وعزل الحوشي ونصب مكانه
السلطان علي بن مانع بن سلام جد السلطان الحالي فيصل بن سرور بن علي بن مانع
المذكور، وهو الذي نقل عاصمة الحواشب من الراحة إلى المسيمير، وفي شهر ربيع الأول
سنة ١٢٧٩ هـ توفي السلطان علي بن محسن العبدلي وتنازع إخوته فيمن يكون سلطاناً بعده
وتم الأمر على تولية فضل بن علي بعد أبيه رغم أنه صغير، وأعمامه ينافسونه ويرون أنهم
أحق بالسلطنة منه، ومن المعاهدات التي وقعت بينه وبين الانجليز ما تضمنته هذه
الآيات الآتية.

(١) هذه المعاهدة هي كما في (هدية الزمان) بنصها حرفياً مع تاريخها والتوقيع

عليها.

وفي زمانٍ والِدِ المذكور
فضلِ بنِ محسنٍ مع الأعداءِ
كانت حروبُ عمِّه المشهور
في الشيخ عثمان محلَّ الماءِ
واشترتْ بعضُ بلادِ العُقْرِي
وطبِعُ هؤلاءِ خدغُ العربِ

بسم الله الرحمن الرحيم.

لزيادة إثبات الصداقة الموجودة بين الدولة البريطانية العظمى والسلطان فضل بن علي بن محسن بن فضل العبدلي سلطان لحج الحالي بمعاونة عمه السلطان محمد محسن وغيره من أولاد المرحوم محسن فضل ولزيادة القوة والسطوة والعظمة للعبدلي أبرم جناب البرجيدير جنرال (فرانسيس لارك سي بي) والي عدن بالتفويض من الدولة الانجليزية هذه المعاهدة مع المذكور فضل بن محسن بن فضل العبدلي سلطان لحج من طرف نفسه وكافة سلاطين العبادل وورثائهم وبها يكون الاعتراف بنفوذ سلطته على جميع الحدود المسكونة بكافة قبائل الأصابع، ومن جلته المناصرة والمهاديم والرجعية والدينية الذين لهم في الحال مشاهرات من الدولة الانجليزية ما عدا الحدود والقبائل المتعلقة حالاً بالدولة العثمانية وتأكيداً للغرض المذكور أعلاه يلتزم السلطان فضل بن علي محسن فضل عن نفسه وورثائه وخلفائه بأن يحافظ على الشروط المشروحة أدناه:

(١) حال ما يوقع السلطان فضل بن علي محسن فضل العبدلي المذكور هذه المعاهدة يقبل أن يكون مخاطباً بكل ما يحصل من أفعال النهب والتعدي من أي نوع من الأصابع و يلتزم بإرجاع المنهوب بعينه أو بالتعويض عن الأموال والأرواح والجراحات.

٢ - سلاطين العبادل ملزمون بأن لا يعقدوا معاهدة من أي نوع كانت مع أية دولة أخرى لبيع أو رهن أو إيجار أو كرى أو هبة في أي قسم كان من البلاد التي هي الآن والتي ستكون في المستقبل تحت حكومة سلطان العبادل من دون رضا الدولة الإنجليزية.

٣ - أن لا تعمر قلاع أو عمارات أخرى على ساحل البحر من دون رخصة والي عدن ولا ينزل أو يطلع سلاح أو ذخائر أو زانة أو رقيق أو تجارة أو مسكرات أو مكيفات عن أي جهة كانت من الساحل من دون رخصة والي عدن.

٤ - ليس لسلطان العبادل أن يأخذ مكساً حادثاً على الأموال المارة في حدود الأصابع إلى عدن ولا لأحد من قبائل الأصابع أن يأخذ مكساً على الأموال لنفسه.

٥ - إذا أجرم أحد أو جماعة من الأصابع في الطرق وعجز سلطان العبادل عن =

وبالثلاثين من الألف من الريالات وآل العيدروس في الحادي والعشرين من ذي الحجة عام ثمانين وخمس بعدها شيخ العقارب الذي لم يذر ولم تكن له من المشاهدة وصيروها بعد هذا أربعين

بيعت بنقد البلد المعروف كانوا شهوة البيع في اليوم العبوس وكتب للإنجليز الحجة واستسلم القيمة واستعدها يغبنيه في بيعه والخسر إلا ثلاثين ريالاً عابرة يأخذها ما عاش ثم للبنين (١)

= إرجاع ما نهوه لالتجائهم في حدود الدولة التركية فلا على السلطان مسؤولية بعد بلوغ جهده في جلب الغرم والمنهوب ما دام سلطان العبادل عاملاً بالشروط المذكورة سيلزم على الدولة الإنجليزية أن تكفل إجراء التدابير والإمتيازات الآتية:

١- تدفع المشاهرات التي تساق الآن للمخدومي والمنصوري والرجاعي والديبني لسلطان العبادل.

٢- ليس للأصباح أن يدخلوا عدن ضيوفاً على الدولة الإنجليزية إلا إذا جاءوا بتواصي = من سلطان الحج.

٣- يلتزم سعادة الوالي أن يمنع السلطان علي بن مانع الحوشي من تحويل طريق القوافل عن طريقهم المعتادة التي تمر على الحوطة وحدود العبادل.

عقدت هذه المكاتبة ووقع عليها التراضي في نهار الخميس ٥ من شهر مايو سنة ١٨٨١م الموافق ٧ من شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٩٨هـ، إمضاء محمد محسن عن نفسه ومن طرف السلطان فضل بن علي محسن سلطان الحج أحمد بن علي محسن - أحمد فضل محسن - السيد عمر حسين قاضي الحج - فرانسيس لاك سي بي برجيدير جنرال والي عدن - آر بي ولش معاون والي عدن - صالح جعفر ترجمان الوالي - ريبون نائب ملك - سارلس جرنند نائب الحكومة في لوندرة.

(١) حصل خلاف بين حامية السلطان في الشيخ عثمان وأميرها يومئذ فضل بن محسن عم السلطان فضل بن علي حصل الخلاف بينهم وبين حكومة عدن في سنة ١٢٧٤هـ وتقدم الجيش الإنجليزي إلى الشيخ عثمان وهدم دار السلطان واستمرت الحرب =

والشيخ عثمان اشتراها الوغد وما شراه الوغد لا يُردُّ

= إلى السنة الخامسة بعد السبعين، وجاء السلطان بقبائله ليوقف مع أخيه الأمير فضل ولكنهم انهزموا وعسكروا في مكان قريب من المدينة وتقابل السلطان علي والقائد الإنجليزي فتفاهما وتصالحا سريعاً وعلى خوف من معارضة السادة أصحاب الوهط فدبر لهم السلطان حيلة جعلتهم يقبلون الصلح بل ويطالبون به سريعاً، وما يزال ابنه فضل الذي تسلطن بعده شاباً وجندياً في جيش عمه وعنه تروى قصة هذه الحرب والصلح بعدها، ومحل الماء الذي ذكرناه هو الشيخ عثمان الذي تستقي منه عدن قديماً وحديثاً، وكانت المياه تجري في قناة اتفق على مدها من هناك إلى جبل حديد مع السلطان فضل ابن علي في سنة ١٢٨٤هـ، وكانت عدن تعتمد كثيراً على مياه الأمطار التي تمتلئ بها الصهاريج وتبقى مدة حتى تنزل الأمطار مرة أخرى وكذلك مياه الآبار في المساجد والشوارع العامة وتختلف شدة وخفة في ملوحتها، وكانوا يأتون بالماء على ظهور الدواب من الحسوة وما حوالها وبعد أن مدت السكة الحديدية إلى لحج جيء بالماء من الحليل قريباً من الحداد وتبعد نحو ثمانية وعشرين أو ثلاثين ميلاً من عدن واستغني عن هذه المياه كلها بعد حفر الآبار الإرتوازية في الشيخ عثمان سنة ١٣٤٦هـ ثم استمدت وأصبحت غير كافية ولا صالحة للشرب فاستبدلت بغيرها في محل يقال له بئر ناصر وماؤها عذب وغزير، وليس لدي الآن نص الإتفاقية بين حكومة عدن وحكومة لحج على الحفر في بئر ناصر. وتصل المياه اليوم إلى مدينة عدن وجميع ضواحيها في المواسير الممتدة إلى الجبال والهضاب وساحل البحر، وهي تباع بسعر (٢٥) فلساً للمئة جالون، والماء في المساجد وجميع المعابد الإسلامية وغير الإسلامية بالبحان من أول شهر أغسطس سنة ١٩٦٥م الموافق ١٣٨٥هـ (صدر هذا القرار في أيام حكومة الإتحاد ولم ينفذ فعلياً إلا بعد الاستقلال يوم عيد الفطر من سنة ١٣٨٧هـ ١٩٦٨م. حين أجازته وأمر به رئيس الجمهورية قحطان محمد الشعبي).

أما قبيلة العقارب فتنسب إلى عقارب بن ربيعة بن سعد من قضاة وهي من حمير وعددهم اليوم قليل جداً، وبلادهم تمتد من بئر أحمد إلى رأس عمران من ناحية البرثم من الحسوة إلى فقم من ناحية الساحل، وتتكون بلادهم من بئر أحمد العاصمة وهي كما سبق ذكرها في تاريخ الزنجبيلي، والحسوة وجبل إحسان والبريقة والغدير وفقم، وقد اشترى الإنجليزي معظم هذه الأماكن من الشيخ عبد الله بن حيدرة العقربي وذلك بموجب المعاهدة المنعقدة بين الجانبين في ثلاثة شعبان سنة ١٢٧٩هـ بثمان لا يزيد عن ثلاثة آلاف ريال وقررت للشيخ عبد الله ثلاثين ريالاً شهرياً يأخذها على الدوام من حكومة =

بنحو خمسة وعشرين فقط من الألوفا ومع البيع اشترط وأصبحت تابعة لعدن والبيع من محمد بن مخلص

= الهند وهي له ولأبنائه من بعده ولم يكتف بما حصل في تلك المعاهدة المشؤومة حتى تمت المعاهدة الثانية التي حصل الشراء بمقتضاها من العقارب على ما تراه في نص هذه المعاهدة - إن سبب كتابة هذه الإتفاقية هو ما يلي:

إن معاهدة وتعاقدا قد وقعا بين الشيخ عبد الله بن حيدرة مهدي شيخ قبيلة العقارب من الجهة الأولى والجنرال السر أدوارد رسل المقيم بعدن بالنيابة عن الحكومة البريطانية الموقرة من الجهة الأخرى.

وذلك أن المذكور أعلاه الشيخ عبد الله بن حيدرة مهدي من جهة يلتزم بموجب محتويات هذا الاتفاق بأنه قد باع وسلم مؤيداً للحكومة البريطانية شبه الجزيرة المسماة جبل إحسان والتي تشمل جبل إحسان وخور بئر أحمد والغدير وبندر فقم. وكل ما يحتويه الساحل من مراسي وموانئ بين خور بئر أحمد المذكور وبندر فقم.

وبالإضافة إلى ذلك فإن المذكور عبد الله بن حيدرة مهدي يربط نفسه وورثته وخلفاءه بهذه الإتفاقية بأن لا يبيع أو يرهن أو يسلم لأي أحد للسكن فيما عدا للدولة البريطانية أي جزء من جبل رأس عمران أو الأرض الواقعة في حدود الخور بين رأس عمران وجبل حسان أو إحسان.

وكثمن لما هو مذكور أعلاه فإن الشيخ عبد الله بن حيدرة مهدي استلم من الجنرال أدوارد رسل المقيم السياسي بعدن مبلغ ثلاثين ألف ريال (كروان ألماني) وذلك قيمة البيع الذي وافق عليه الشيخ عبد الله بن حيدرة مهدي، وهذا المبلغ وقدره ثلاثون ألف ريال هو زيادة على مبلغ الثلاثة آلاف ريال التي قدرها وسلمها البريجادير ولیم مرقس كوجلان للشيخ عبد الله بن حيدرة مهدي بتاريخ ٢٣ يناير سنة ١٨٦٣م بموجب المعاهدة المعقودة في ذلك التاريخ وقد جرى التسليم الوافي للثلاثة آلاف ريال للمذكور الشيخ عبد الله بن حيدرة مهدي.

وللشهادة على شروط هذه المعاهدة التزم الشيخ عبد الله بن حيدرة مهدي بوفاء وإخلاص بالنيابة عن نفسه وورثته وخلفائه بخصوص البيع والجنرال السر إدوارد رسل المقيم في عدن بالنيابة عن الحكومة البريطانية الموقرة بخصوص الشراء فإن الطرفين يضعان =

ورفعوا مُرَّتَبَ السَّلاطين ألفاً وستّمائةٍ وأربعين (١)

= إمضائها وختمها في عدن في اليوم الثاني من أبريل سنة ١٨٦٩م الموافق ٢١ ذي الحجة سنة ١٢٨٥هـ.

بمضور:

إمضاء: علوي بن زين العيدروس
إمضاء: الكابتين ج «ر» جودفيلو
إمضاء: عبد الله بن حيدرة مهدي
إمضاء: ا. ل. رسل، ميجر جنرال

(مساعد المقيم في عدن) (المقيم في عدن)

وقد زيد في مرتب شيخ العقارب على ما كان له سابقاً عشرة ريالات وبها تكون مشاهرتة أربعين ريالاً له ولذريته من بعده، وشهد على هذه الاتفاقية مناصب عدن الروحانيون السيد علوي بن زين وأخوه عيدروس بن زين آل العيدروس والثاني هو جد منصب عدن الحالي السيد أبو بكر بن عبد الله بن عيدروس المذكور، ولا شك أن طبيعة الإنجليز وساسته التي تقوم عليها دولته هي النفاق والمخادعات لا مع العرب فحسب ولكن معهم ومع غيرهم كما قيل:

فلا ذمة ترعى ولا معنوية كلامهمو كذب ولطفهمو سحر

ولا لوم على هذا الشيخ العقربي إذا خدع في البيع أو غبن في الصفقة فما هو إلا جاهل تغره المجاملة وفقير تضره الحاجة، وكيف يعرف مغبة الأمر أيرفض ثلاثين ألف ريال كان لا يظن أن العدد الكبير يتجاوزها وربما حسبها غنيمة وإن حسبت عليه قيمة فما باع إلا صحارى قاحلة وأراضي ماحلة وليته يبعث اليوم ويرى مصافي البترول في بلاده التي باعها بثلاثين ألفاً، وبلاد العرب كلها واحدة وسوف يرجع كل حق إلى صاحبه بإذن الله، ((ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله)).

(١) الشيخ عثمان بلد تبعد عن عدن بنحو عشرة أميال وسميت بهذا الاسم نسبة للشيخ عثمان بن محمد الأزدي المتوفى أو الذي بني ضريحه في سنة ١١٣٩هـ، وكانت قرية صغيرة تعرف اليوم بالشيخ الدويل ثم توسعت وكبرت وتباعد أطرافها حتى صار يسكنها حالياً سبعون ألف نسمة أو أكثر وقد اشتراها الإنجليز من العبادل أصحاب الحج بواسطة الأمير محمد بن محسن بن فضل في ذي القعدة سنة ١٢٩٨هـ نوفمبر سنة ١٨٨١م بثمن قدره خمسة وعشرون ألف ريال، واشترط محمد بن محسن لنفسه خمسمائة ريال شهرياً تكون خاصة به، ووافق على البيع السلطان فضل بن علي بن محسن بعد صدوره =

= من عمه محمد المتوفى آخر ذي الحجة من السنة نفسها وحيث كان لا بد من الموافقة رسمياً بين الإنجليز والسلطان فضل الذي هو صاحب الحق الأول فقد كتبت هذه الاتفاقية بين الطرفين وأصبح البيع نافذاً ولا معارضة لا من حيث شروطه ولا من حيث حدود المنطقة المبتاعة، وهذا نص المعاهدة مع التوقيع عليها وتاريخ إقرارها:

بسم الله الرحمن الرحيم.

شروط معاهدة واقعة بين السلطان فضل بن علي محسن سلطان الحج ونواحيها من طرف نفسه وأعمامه وورثائه وورثائهم وخلفائه وخلفائهم من جهة، والميجر جنرال فرانسيس لاك — كوماندر اف ذي موست أونرابل أوردرد أوف باث — والي عدن من طرف حكومة الهند من الجهة الأخرى.

حيث في الشرط الخامس من المعاهدة المعقودة في تاريخ ٧ مارس سنة ١٨٤٩م بين ستافورد بتسورد هيتس قبطن من الرؤساء البحرية الهندية ووكيل عدن من طرف حكومة الهند، والسلطان علي محسن من طرف نفسه وورثائه وخلفائه، حصل التراضي بينهما أن قنطرة خور مكسر والميدان الذي في وسطه وجبال عدن هي جبل حديد ملك للدولة البريطانية ولا زيادة إلى الشمال.

وحيث إن مبلغ دراهم وقدرها خمسمائة وواحد وأربعون ريالاً بموجب المعاهدة السابقة تسلم للسلطان علي محسن فضل المذكور وورثائه وخلفائه ما داموا يسيرون بالإخلاص والصدق والمحبة. نحو الدولة البريطانية و متمسكين بكل تأكيد بشروط المعاهدة المذكورة.

وحيث إن السلطان فضل بن علي محسن لأجل نفسه وأعمامه وورثائه وورثائهم وخلفائهم رضوا أن يبيعوا للدولة البريطانية بمبلغ وقدره خمسة وعشرون ألف ريال وزيادة فوق المشاهدة الحاضرة التي هي خمسمائة وواحد وأربعون ريالاً شهرياً مبلغ ألف ومائة ريال شهرياً من ذلك ستمائة ريال مقابل محصول الماء وخمسمائة ريال مقابل محصول الملح، وتكون الجملة للجميع ألف وستمائة وواحد وأربعون ريالاً قيمة جميع الأرض الممتدة إلى شمال جزيرة عدن يحدها خط يبدأ من محل ساحل البحر ميلاً واحداً وخمسة أقسام الميل من ١٦ قسماً إلى جهة الشرق رأساً من شمال آخر جسر خور مكسر ويمتد من شمال شرقي الشمال سبعة أميال وربع إلى طرف خط الساحل، فمن هذا المكان يمتد =

= الحد من البحر إلى جهة الغرب ثلاثة أميال وربع إلى محل قريب العماد، ومن هذا المحل بعدما يمر الحد وسط الطرف الخيالي بميل واحد من جهة الشمال من ولي الله الشيخ عثمان يمتد إلى العلامة التي على الشاطئ وادي تبين الكائنة على بعد من جهة البر، ومن هذه العلامة يمتد الحد إلى جنوبي غربي طرف الجنوب بجزراً.

فلذلك، هذا يثبت أن السلطان فضل بن علي محسن المذكور بموجب شروط هذه المعاهدة وبسبب الخمسة وعشرين ألف ريال التي قد سلمت وزيادة المشاهدة شهرياً ألف ومئة ريال رضيت الدولة البريطانية بتسليمها له وذلك لأجل نفسه وأعمامه وورثائه وورثاتهم وخلفائه وخلفائهم يعطي ويثبت التملك إلى يد الدولة البريطانية جميع أقسام تلك البلدة التي ذكر وصفها أعلاه أن تبقى بيد الدولة البريطانية مؤبداً كقسم من بلدانها، والمذكور السلطان فضل بن علي محسن يربط نفسه وأعمامه وورثائه وورثاتهم وخلفاءهم وخلفائهم أن لا يقيموا دعوى من الآن وصاعداً على الأرض المذكورة وأي محصول منها.

البند الثاني: والميجر جنرال فرانسيس لارك سي بي آي. والي عدن المذكور مفوض تفويضاً كلياً، فلذلك يشهد عبد الله باسم سعادة والي الهند ورأي المجلس العالي أن للسلطان فضل بن علي محسن المذكور وورثائه وخلفائه مبلغاً قدره ألف وستمائة وواحد وأربعون ريالاً شهرياً المجملة كما ذكر أعلاه.

البند الثالث: والسلطان فضل بن علي محسن المذكور من جهة والميجر جنرال فرانسيس لارك سي بي آي والي عدن من الجهة الأخرى مفوضان تفويضاً كلياً بأن المعاهدة الواقعة والمصححة في سابع يوم من شهر مارس سنة ١٨٦٧م الخاصة بالعم بالذي بين الشيخ عثمان وعدن من السلطان فضل محسن من جهة واللفتننت كرنل ولیم ميرويدر من جهة أخرى، أن تلك المعاهدة صارت غير ذات مفعول.

البند الرابع: ما دام لسلطان لحج أن يأخذ المكوس على الأموال الداخلة إلى عدن من جهة البر كما كان فسيرخص له أن يجمع مكوسه كما هو الآن مستمراً عليها في حد الدولة البريطانية بالقدر المذكور في المعاهدة الواقعة سنة ١٨٤٩م.

البند الخامس: إذا فر أحد من عساكر السلطان إلى حدود الدولة البريطانية ثم طلبه السلطان فإن والي عدن سيرسل به إلى لحج، وإذا فر أحد من رعايا السلطان بعد ارتكابه =

= المعصية العظمى والتي تعتاد الدولة البريطانية في مثل هذه الأحوال أن توافق على تسليم لاجئين كهؤلاء إذا كانوا في الشيخ عثمان والعماد أو عدن عند طلب السلطان وإذا كانت الدولة البريطانية قد اقتنعت بصحة ارتكابه للجريمة فوالي عدن سيرسل به أيضاً، والسلطان يوافق من طرف نفسه أن يرجع عساكر الدولة البريطانية أو رعاياها الذين يلتجئون من عدن وتوابعها إلى الحج ونواحيها إذا طلب رجوعهم.

البند السادس: إذا احتاج الوالي إدخال أحد في الخدمة من العبادل يكون إدراجه بمعرفة السلطان وإذا استعفى العبدلي أو العبادل أو رفتهوا من الخدمة وإذا رغب الوالي استبدالهم بغيرهم من العبادل فإن الوالي سيطلب ذلك من السلطان.

البند السابع: تكون حدود السلطان فضل بن علي محسن فضل المذكور وورثائه وخلفائه من الآن وصاعداً بحماية الدولة البريطانية كما هي الآن.

حررت في الشيخ عثمان في نهار الاثنين تاريخ ٦ من شهر فبراير سنة ١٨٨٢م المطابق ١٧ من شهر ربيع الأول سنة ١٢٩٩هـ.

إمضاء: فضل بن علي محسن فضل

(سلطان الحج وتوابعها)

بمضور: ميجراف. أم. هنتر، معاون والي عدن.

بمضور: عمر بن حسين بن محمد الوحش، قاضي الحج.

بمضور: فرانسيس لوك ميجر جنرال، والي عدن.

شريط وختم نائب جلالة الملك ووالي ولاية الهند.

بقية من أمر الإنجليز

وَلَمْ تَرَكَ تَخَلِّفَ الْوَلَاةَ وَمِنْهُمْ الْمَدُوكُ وَالْفُلَاةُ
 وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْبَرِّ مَا زَالَتِ الْمَعَاهِدَاتُ تَجْرِي
 مَعَ السَّلَاطِينِ وَبَعْضِ الْأَمْرَا وَرِمَا يَمْضِي الَّذِي لَا يَقْرَأُ
 وَيَصْنَعُونَ لَهُمُ الْخُتُومَا تُوضَعُ فِي مَا لَمْ يَكُنْ مَعْلُومَا
 وَهَذِهِ الْمَعَاهِدَاتُ تُمَضَى ثُمَّ بِهَا يُلْزَمُ مَنْ لَا يَرْضَى
 وَهِيَ عَلَى الصَّدَاقَةِ الْمَأْلُوفَةِ سَمُومَهَا مَطْوِيَةٌ مَلْفُوفَةٌ
 وَقَدْ يَكُونُ الْعَهْدُ لِلْحِمَايَةِ وَسَيْلَةٌ وَالْمَوْتُ عِنْدَ الْغَايَةِ (١)

(١) تعاقبت الولاة والحكام على هذه المستعمرة الواحد بعد الآخر من الإنجليز المتلطفين بالناس إذا أخذوا منهم شيئاً أو احتاجوا إليهم في أية مهمة، وإنهم لقساء أشداء على من استضعفوه أو عرفوا منه الفهم والإدراك فهذا ينعمون عليه بالألقاب وهذا يدونه بالسلاح وذلك يعطى له المال فسوحات سنوية أو مرتبات شهرية أو إعامات يشترطون بها ضميره ويكسبون بها وده عند مختلف المناسبات، إذا مات له قريب فتعزیه وإن قتل من أهل أحد فواسة وتسلية وإن تزوج أو زوج كان له الرغد المالي بمثابة ما يوضع تحت الفخ للصيد والقنص، ورب عظيم في نفسه وأهله وبلاده لم يلتفتوا إليه ولم يحسبوا له حساباً، إذا رأوه صعب المراس وشديد التمتع فإنهم يكرمون أعداءه ويحاولون القضاء عليه غير مكترئين به ولا سائلين عنه، وتلك سياسة جبلوا عليها وتعلموها في بلادهم وقبل أن يسافروا إلى مستعمراتهم القريبة والبعيدة، وطبيعتهم الكبر الخفي والأطماع التوسعية مهما تكن اللحظة الموصلة إلى ما يهدفون إليه، ومنذ استقرت أقدامهم في عدن يدون الشباك لخدیعة هذا وذلك، في هذا الجنوب من الجزيرة العربية، ويساعدهم جهل الأمراء والسلاطين وغباوة العملاء وحاجة من يبيع وطنه ويبغني عندهم العزة والعزة لله جميعاً، يبيع لذلك الغالي والنفيس بالأثمان الرخيصة والمرتبات القليلة والمجاملات التي لا تعدو إطلاق المدافع له إذا دخل عدن أو المخاطبة بالكلمات الجوفاء، (صاحب الفخامة محبنا =

فالعولقي والعودلي والفضلي واليافعي والضالعي والعبدي
والحوشي والعقري وبيحان والدثني والواحيدي في حبان

= وصدقنا المحترم فلان بن فلان) ولورأوا في بلاده إنساناً آخر هو أقوى منه شوكة وأكثر إخلاصاً لبريطانيا العظمى كما يقولون لنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به صديقهم الجديد وبش ما يشترون، وما زال هذا سبيلهم التي ينفذون منها كل يوم إلى بسط نفوذهم ومد حمايتهم على ولاية بعد ولاية، حتى شملت حمايتهم المقاطعات الآتي بيانها وتوثقوا بالمعاهدات الفاضحة المخزية من التحكم في البلاد وجعلها تحت سيادتهم، لا ينازعهم فيها أحد ولا يحكم أهلها الأصليون إلا بموجب ما تريده بريطانيا وقد أصبحوا يولون ويعزلون ويرفعون ويضعون حسب ما يشاءون، والولاية من الإنجليز يختلفون شدة ولبناً، وصعوبة وسهولة في المقابلات والمحادثات وإملاء الشروط مع اتحادهم في الغاية، ولكن بعضهم سبع مفترس يتسم قبل أن يعضك، وبعضهم حية رقطاع ملمسها لين وفي أنيابها العطب، ولو تلطفت بها نهشتك في غفلة ولأخذتك على غرة، وليست العدالة الموصوف بها بعضهم إلا أمراً نسبياً، وإلا فإن واقمهم الصحيح الظلم والجور سراً وعلناً وظاهراً وباطناً:

وإذا ما رأيت منهم صديقاً فهو سم عليه لفة حلوى
كيف ترجو من العدو صديقاً وهو يسعى بضد ما كنت تهوى

وحيث كانوا يكتبون المعاهدات ويسجلون موثيق الصداقة بينهم وبين سلاطين وأمراء المحميات فإنهم يكتبونها بصيغة تضمن لهم السيادة، وتجعل هؤلاء المساكين كموظفين في بلدانهم لتنفيذ الأوامر الإنجليزية ولتحقيق ما يقصدونه من تلك المعاهدات، فإما أن تكتب بالإنجليزية وإما أن تكتب باللغة العربية التي لا يعرف مدلول ألفاظها ولا مفهوم معانيها إلا متعلم غير موجود في أولئك الأمراء، ويكون التوقيع عليها كتابة بمن لا يحسنها أو بالبصمات من الأميين، وربما تصنع لهم الختم وهم يضعونها في أوراق المعاهدات وأحياناً تكون عندهم تلك الختم يضعونها في المراسلات والطلبات التي يتقدمون بها إلى حكومة عدن، وأحياناً يحتفظ بها في دار الحكومة وتعطى لهم أوراق مخومة ليكتبوا عليها طلباتهم إذا أرسلوا بها مع من يثقون به إلى عدن، وربما لا يكون عندهم الخبر الصالح لوضع الختم عليه، فيجعلون بدله النيل أو دخان الغاز، وكل معاهدة يصادق عليها الطرفان ويمضي عليها الجانب العربي خطأ أو ختماً أو بصمة فهي ملزمة له ولأهله ولورثائه وورثاتهم ولخلفائه وخلفائهم، وقد رأيت فيما تقدم شيئاً منها وسنثبت لك شيئاً =

ثم القعيطي ورجال المهر
 جميع هؤلاء بالمعاهدة
 إلا بقاؤهم على ما كانوا
 في الاتصال بالحكومات الأخر
 وحضرموت وغمان تئرا
 مرتبطون وبغير فائدة
 وماهم حق ولا إمكان
 معاهدات ذئبها لا يُغْتَفَر (١)

= آخر من نصوص تلك المعاهدات وما حلي منها فسمه في الدسم وما خبث ومر فهو المرض والحمي وليس بعده إلا الموت، وعلى الرغم من طول المرض فقد جاء الطبيب وحصل الدواء ونسأل الله العافية.

(١) جملة الولايات أو المحميات التابعة لعدن إثنان وعشرون، والاتحاد الذي سنتحدث عنه بعد هذا يشمل منها حالياً سبع عشرة فقط والخارجة منها يافع العليا والسلطنات الثلاث القعيطية والكثيرية والمهرا في حضرموت وما يزال ودها يخطب والمسؤولون يقولون إنهم سوف لا يقبلون الاستقلال إلا إذا شمل الاتحاد جميع هذه الولايات، شرقياً وغربياً على السواء، وكانت سابقاً يقال لها التسع المحميات باعتبار الجهات لا باعتبار السلطنات والمشيخات فيها، وقد ذكرت منها الأهم، وهي:

العوالق: وتشمل السلطنة العليا وعاصمتها نصاب وسلطانها الحالي عوض بن صالح ابن عبد الله بن عوض بن عبد الله بن فريد بن ناصر وينوب عنه حفيده محمد بن عبد الله.

والسلطنة السفلى: وعاصمتها أحور وسلطانها الحالي ناصر بن عيروس بن علي بن عبد الله بن مهدي، وتسلطن بعد أبيه وهو صغير وكان الوصي عليه عمه عبد الله بن علي ثم النائب الحالي أبو بكر بن أحمد بن علي.

ومشيخة العوالق: عاصمتها يشم ثم الصعيد، وأميرها الحالي عبد الله بن محسن بن فريد بن ناصر بن رويس بن مذيّب بن علي بن يسلم بن دحة بن علي بن أحمد، وهؤلاء جميعهم يرجعون إلى أصل واحد من العوالق الذين سبق ذكرهم في تاريخ معن بن زائدة وخروجه إلى حضرموت أميراً عليها في أيام العباسيين.

والعوذلي: نسبة إلى العواذل من قبائل الظاهر ويقال إنهم يرجعون في النسب إلى عامر بن عبد الوهاب الظاهري، وعاصمتهم (زارة) وسلطانهم الحالي صالح بن حسين ابن جعبل بن قاسم بن أحمد.

واليوم قد جاءوا بالاتحاد
 كي تصبغ النواحي المُبَعَثَرَة
 وما تزالُ الجهةُ الشرقيّة
 والخلفُ بين الناسِ في السياسةِ
 وجمعَ شملُ الناسِ في البلادِ
 مجموعةً وعدنُ المستعمرة
 بعيدةٌ عن هذه المَعِيّة
 لِمَن يكونُ الأمرُ والرياسةُ

والفضلي: نسبة إلى آل فضل والمشهور من أوائلهم أحمد بن عبد الله، وعاصمتهم شقرة
 ثم زنجبار أبين، وسلطانهم الحالي ناصر بن عبد الله بن حسين بن أحمد بن عبد الله
 الفضلي وتسلطن هذا بعد عزل أخيه أحمد وأحمد بعد عزل ابن عمه عبد الله بن عثمان
 وعبد الله بعد عزل صالح بن عبد الله وصالح بعد وفاة أبيه عبد الله بن حسين وهو بعد
 ابن أخيه عبد القادر بن أحمد وهو بعد جده حسين بن أحمد وهو بعد جده ابنه أحمد بن
 حسين، وإنما ذكرت هؤلاء لقصر مدة كل واحد منهم وقد عاصرت منهم أحمد بن حسين
 ابن أحمد ومن بعده.

ويافع قسمان بنو مالك وبنو قاصد، وسلطان يافع السفلي وهم الذين في حكومة
 الاتحاد الآن هو اليوم محمود بن عيدروس بن محسن بن علوي بن محسن العيفي،
 وعاصمتهم القارة، وتمتد يافع السفلي إلى حدود الساحل، ومن أشهر مدنها حصن ابن
 عطية وجعار التي فيها مقر النائب حيدرة بن منصور.

والضالع مقاطعة أميرية وكانت تابعة للحج، وأميرها اليوم شعفل بن علي بن
 شايف بن سيف الضالعي تأمر بعد عمه وابن عمه حيدرة بن نصر بن شايف.

والعبدلي هو صاحب الحج وتقدم الحديث مفصلاً عن تاريخ الحج وسلاطينها،
 والسلطان الحالي فيها اليوم هو فضل بن علي بن أحمد بن علي بن محسن بن فضل بن
 محسن بن فضل بن علي بن صلاح بن سلام بن علي السلامي.

والحواشب: قبيلة مشهورة وتقدم الحديث عنها وعن الخلافات بين سلاطينها، وكيف
 تبعت الحج ثم انفصلت عنها، وسلطانها الحالي فيصل بن سرور بن علي بن مانع.

والعقري نسبة إلى العقارب وتقدم ذكر أصلهم وكيف استقل منهم الشيخ مهدي عن
 تبعية الحج في سنة ١٢٨٦هـ وعاصمتهم بئر أحمد، وفي بلادهم نشأت مدينة الاتحاد
 الجديدة، وأميرهم اليوم محمود بن محمد بن فضل بن عبد الله بن حيدرة بن مهدي.

وبيحان: هي بلاد المؤلف وقد ذكرت في معاجم البلدان وهي من مخاليف اليمن =

وهل يكونُ الاتحادُ قبلَ أنْ يذهبَ الاستعمارُ من تُغرِ عَدَنَ
وبعضُهم يَقُولُ كيفَ نتحدُّ ونحنُ لا نَدْرِي بماذا يَسْتَجِدُّ

= وأرضها طيبة وماؤها عذب وهواها نقي، وتزرع البر والشعير والذرة ومختلف أنواع الحبوب، وفيها النخل والعلوب والأثل والقطن وشجر الوسمي وهو النيل، والسمسّم والخروع، وشرع الناس فيها اليوم بغرس أشجار أخرى كالعنب والتين والبرتقال وفيها معدن الملح، وماشيئها كثيرة، والعمدة في السقي على الآبار وقد جلبت إليها بل وإلى سائر مناطق الاتحاد مضخات الماء وحفرت الآبار الإرتوازية، وشرعوا في بناء السدود التي تمكنهم من الانتفاع بالسيول المتدفقة والتي كان يذهب معظمها سدى، وسكان بيحان بين خمسين وستين ألفاً، وأشهر قبائلها المصعبين وهم آل حميد وآل العريف وآل نعيم وهم بطون وفخائذهم كثيرة، ثم قبيلة بلحارث والسادة المحاضير والأشراف ومنهم الإمارة الهبيلية، وكان شيخ المصعبين السابق علوي بن أحمد بن علوي بن أحمد بن علي بن طالب بن عبد الله بن بركات وإليه ينسب سوق عبد الله في مدينة القصاب، وكانت الحروب بين هذه القبائل بعيدة المدى ولا يقل زمنها عن مئة أو أربع عشرة سنة فيما نعلم من سنة ١٢٤٨ إلى سنة ١٣٦٢هـ، وأميرها اليوم هو الشريف صالح بن حسين بن أحمد بن محسن بن مبارك بن ضيف الله بن الهبيلي الذي تنسب إليه الإمارة الهبيلية، واسمه محمد بن حسين ابن غالب وينتهي نسبه إلى عبد الله بن حمزة صاحب أرحب الحسني العلوي الفاطمي الهاشمي، وعاصمة بيحان القصاب، ومن أشهر مدنها النقوب وعسيلان وعين وموقس والحرجة.

والدثني: نسبة إلى دثينة ولاية تقع بين العواذل والعوالق وشيخها اليوم حسين بن منصور باجاير وعاصمتها مودية.

والواحدي: نسبة إلى الشيخ عبد الواحد المتغلب أبناؤه على تلك الجهة وعاصمتهم عزان وبلادهم كلها تقع بين العواالق وبيحان والسلطنة القعيطية وإمارة آل عبد الواحد تقع في بيت الشيخ عبد الله بن أحمد الواحدي، وأولاده أربعة ناصر وحسين وعلي وهادي، وسلطانهم اليوم ناصر بن عبد الله بن محسن بن صالح بن ناصر، ومن أشهر المدن الواحدية حبان، وهي مساكن السادة المحاضير، وجملة من القبائل والتجار المدنيين، وحوطة الفقيه علي بن محمد بن عمر، وميفعة وهي اليوم أحسن المدن الواحدية، وجردان على خلاف في الحدود بين الواحدي وجيرانه في هذا المكان، وإنما قلت في حبان مع أن العاصمة عزان لشهرتها وكثرة سكانها.

وهذه صنعا تقول إنا لها ومنها كيفما كونا

أما القعيطي: فأصله يافعي وتغلبت قبائله على سواحل حضرموت وأكثر مدن الداخل، والسلطان الحالي هو عوض بن صالح بن غالب بن عوض بن عمر مؤسس هذه السلطنة وعاصمتها المكلا، وهذه الدولة أخبار طويلة مفصلة في تواريخ حضرموت مع آل كثير وبعض القبائل التي كانت خارجة عليها وغير طائفة لحكومتها.

والمهرة: قبيلة عربية قديم أمرها ومشهور ذكرها في الجاهلية والإسلام وقد وفد منهم جماعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومساكنهم بين حضرموت وعمان وسلطانهم الحالي عيسى بن علي بن سالم بن سعد بن طوعري بن عفرير وهو في سقطرا، أما الذي في قشن فهو ابن عمه خليفة بن عبد الله بن محمد بن عامر بن طوعري بن عفرير.

وحضرموت: اسم جامع لأكبر مما هي معروفة به اليوم وشهرتها تغني عن التعريف بها. وقد سبق الحديث عنها كثيراً، وسلطانها الحالي حسين بن علي بن منصور بن غالب الكثيري، وعاصمتها سيئون ومن أشهر مدنها تريم، وفي الأمثال (تريم ولا يرام غيرها) ويقال لها الغناء لما كان فيها من البساتين والحدائق أما الآن فسيئون أحق بهذا الوصف منها، ومن قصيدة لي في الشوق إليها أقول:

رعى الله أيام الوصال وإذ كنا مع السادة الأشراف في البلد الغنا
تريم التي طاب الحديث بذكرها فيا حبذا الغنا ويا حبذا المغنا
ومن المحميات الإنجليزية المجاورة للجنوب ولاية عُمان بضم أوله وتخفيف ثانيه، وعاصمتها مسقط وسلطانها سعيد بن تيمور، وبينه وبين أهل الجبل الأخضر خلافات شديدة، وكلمة تتر معناها تتبع.

وكل ما عقد من الاتفاقيات والمعاهدات بين الإنجليز وبين أصحاب هذه الولايات من سلاطين وأمراء ومشايخ كان معظمها يعود بالفائدة على الإنجليز، ويجرد هؤلاء من سلطاتهم وينعهم من التصرف في حقوقهم وكذلك من الاتصالات بالحكومات الأخرى موالية أو معادية مهما كانت المصلحة فجميعهم والله ليسوا إلا كالأطفال أو المحجور عليهم، لهم الملك والفائدة للحكام والأوصياء، فهي معاهدات لا يغفر ذنبها ولا تحمد عاقبتها والله المستعان وقد عرفت منها ما كان مع العبادل والعقارب وبقيتها موجودة مع تواريخ عقدها وأسساء الموقعين عليها ولأنها معروفة فلا نطيل بذكر صور منها وأن بعضها ليلعن بعضاً (إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم =

واليوم قد أدبر الاستعمار وكل من يرضى به جماز (١)

= ينقضون عهدهم في كل مرة فهم لا يتقون، فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون وإما تحافن من قوم خيانة فانبد إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين).

(١) في سنة ١٩٥٩م أحد عشر فبراير الموافق الثالث من شعبان سنة ١٣٧٨هـ، تحققت فكرة الاتحاد ولم تعقد الاتفاقية عليه مع الإنجليز إلا من ست ولايات غربي عدن وهي الآن كما عرفت بعد أن انضمت إلى الاتحاد الواحدة بعد الأخرى تكون سبع عشرة ولاية بما فيها مستعمرة عدن وهذه صورة الاتفاقية الأولى:

معاهدة صداقة وحماية بين المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وشمال إيرلندا واتحاد إمارات الجنوب العربية.

المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وشمال إيرلندا والاتحاد الفيدرالي لإمارات الجنوب العربية.

بالنظر إلى أن حكام إمارة بيحان والسلطنة الفضلية وإمارة الضالع ومشيجة العوالق العليا وسلطنة يافع السفلى وكل منهم مرتبط بمعاهدة صداقة وسلام مع المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وشمال إيرلندا، فيما يلي يشار إليها بعبارة: المملكة المتحدة، قد كونوا بموافقة المملكة المتحدة من ولاياتهم اتحاداً يسمى الاتحاد الفيدرالي لإمارات الجنوب العربية، فيما يلي يشار إليه بلفظة، (الاتحاد) للدفاع المتبادل عن هذه الولايات ولتطورها في جميع الشؤون الاجتماعية والسياسية والاقتصادية تطوراً يؤدي إلى تحسين البلاد وأهلها.

وبالنظر إلى أن الاتحاد يرغب في التطور نهائياً إلى دولة مستقلة اقتصادياً وسياسياً في علاقات ودية مع المملكة المتحدة وإن المملكة المتحدة تتعهد بمعاونة الاتحاد لكي يصبح نهائياً دولة مستقلة.

وبالنظر إلى أن المملكة المتحدة والاتحاد يرغبان في تقوية أو اصر الصداقة التقليدية التي وجدت منذ أمد طويل بين المملكة المتحدة والولايات المكونة الآن للاتحاد، حيث إن المملكة المتحدة والاتحاد قد قررا عقد معاهدة لهذه الغايات فقد اتفقا على ما يلي:

المادة الأولى:

أن يكون هناك سلام وصداقة دائمان وتعاون كامل وخالص بين المملكة المتحدة والاتحاد.

وهاهنا قواعدُ حربِيه جويةُ بريهٌ بحريه

المادة الثانية:

(١) أن تدبر المملكة المتحدة علاقات الاتحاد مع الدول الأخرى وحكوماتها والمنظمات الدولية وتكون لها المسؤولية الكاملة بشأن هذه العلاقات، وأن لا يدخل الاتحاد في أية معاهدة أو اتفاقية أو مراسلات أو علاقات أخرى مع أية دولة أو حكومة أو منظمة دولية بدون معرفة وموافقة المملكة المتحدة.

(٢) أن يبلغ الاتحاد على وجه السرعة المملكة المتحدة عن أي تدخل أو محاولة للتدخل في شؤون الاتحاد من قبل أي دولة أو حكومة أخرى.

(٣) أن تستشير المملكة المتحدة الاتحاد بخصوص تدبيرها للعلاقات المشار إليها في الفقرة الأولى من هذه المادة، وأن لا تدخل المملكة المتحدة في أية معاهدة أو اتفاقية تنص على أي تغيير في حدود الاتحاد أو بأي صورة أخرى تعترف بأي تغيير في هذا الخصوص بدون موافقة الاتحاد.

المادة الثالثة:

(١) هذه المعاهدة يشمل الاتحاد برعاية صاحبة الجلالة البريطانية وحمايتها الكريمتين.

(٢) إن الترتيبات المفصلة والمحتواة في الملحق لهذه المعاهدة بشأن المساعدة والتعاون المتبادلين بخصوص الدفاع والأمن الداخلى ستكون سارية المفعول كجزء من هذه المعاهدة.

المادة الرابعة:

(١) ان تقدم المملكة المتحدة إلى الاتحاد النصح والمساعدة المالية والفنية لكي تساعد الاتحاد في تطوره الاجتماعي والاقتصادي والسياسي وتأسيس وصيانة جيش للاتحاد وحرس وطني للاتحاد، وأن يقرر مقدار وشكل هذه المساعدة المالية والفنية من وقت إلى آخر من قبل المملكة المتحدة بعد التشاور مع الاتحاد آخذة بعين الاعتبار كل العوامل المتعلقة بالموضوع.

(٢) أن يتقبل الاتحاد ما قد تقدمه المملكة المتحدة بموافقة الاتحاد من الموظفين الاستشاريين والفنيين لمساعدة الاتحاد وأن يقدم الاتحاد جميع التسهيلات الضرورية لهؤلاء الموظفين.

وما أظنُّ الإنكليزَ اللُّؤما بـِستاركيها دونَ إهراقِ الدِّما
وما لَهُمُ قاعِدةٌ سِواها لو جاءها في الحربِ من يهواها

المادة الخامسة:

(١) أن يتقبل الاتحاد وأن ينفذ من جميع الوجوه أية نصيحة تقدم من قبل المملكة المتحدة في أية مسألة تتعلق بالحكم الصالح للاتحاد، على شرط أن يكون للاتحاد الفرصة للتعبير عن آرائه للمملكة المتحدة قبل أن تقدم هذه النصيحة له .

(٢) أن يقدم الاتحاد إلى المملكة المتحدة ما قد تطلبه من وقت إلى آخر من نسخ من الوثائق المتعلقة بإجراءات الهيئات التشريعية والتنفيذية للاتحاد .

المادة السادسة:

(١) يجوز أن يسمح لأية ولاية ليست ضمن الاتحاد حتى تاريخ التوقيع على هذه المعاهدة أن تنضم إلى الاتحاد بعد موافقة المملكة المتحدة على ذلك .

(٢) عند انضمام أية ولاية من هذا القبيل إلى الاتحاد طبقاً لشروط دستور الاتحاد وطبقاً لهذه المادة أن تعتبر المملكة المتحدة والاتحاد هذه المعاهدة منطبقة على تلك الولاية كجزء من الاتحاد .

المادة السابعة:

أن تظل جميع المعاهدات والاتفاقيات والارتباطات الأخرى التي أبرمت من قبل بين المملكة المتحدة وحكام الولايات المشكلة للاتحاد سارية المفعول فيما عدا الحالات التي تتناقض فيها مع هذه المعاهدة .

المادة الثامنة:

لأغراض هذه المعاهدة، أن يكون الشخص الذي يشغل وظيفة الوالي والقائد العام لحماية عدن أو من ينوب عنه هو واسطة بين المملكة المتحدة والاتحاد .

المادة التاسعة:

أن يسري مفعول هذه المعاهدة عند التوقيع عليها، ويمكن إعادة النظر فيها أو تعديلها في أي وقت من الأوقات بالاتفاق المتبادل بين الطرفين المتعاقدين .

وَحَسْبُنَا اللَّهُ لِكُلِّ فُطْرٍ وَكُلِّ إِقْلِيمٍ وَكُلِّ نَغْرٍ

ملحق المعاهدة:

الفصل الأول: أن تتخذ المملكة المتحدة تلك الخطوات التي تراها في أي وقت من الأوقات ضرورية أو مرغوباً فيها للدفاع عن الاتحاد وبعد التشاور مع الاتحاد فيما يخص الأمن الداخلي للاتحاد.

الفصل الثاني:

(١) أن يحتفظ الاتحاد بجيش للاتحاد وأن يتخذ تلك الخطوات التي تكون ضرورية لصيانتها ليكون في مستوى الكفاية وباعتبار الالتزامات التي تعهد بها المملكة المتحدة بخصوص الدفاع عن الاتحاد والمصلحة المشتركة للمملكة المتحدة والاتحاد في تهيئة الدفاع المتبادل، أن يوفر الاتحاد عند طلب المملكة المتحدة أي قسم من جيش الاتحاد قد تطلبه المملكة المتحدة للخدمة خارج الاتحاد للدفاع عن ذلك الجزء من محمية عدن الواقع خارج الاتحاد أو عن أمنه الداخلي وأن يكون هذا القسم من جيش الاتحاد تحت تصرف أي ضابط تختاره المملكة المتحدة من قوات المملكة المتحدة لصاحبة الجلالة البريطانية.

(٢) أن يكون الضابط الذي سيكون قائداً لجيش الاتحاد شخصاً معيناً من قبل الاتحاد بموافقة المملكة المتحدة.

الفصل الثالث: أن يحتفظ الاتحاد بحرس وطني لغرض حفظ الأمن الداخلي وحيث يكون ذلك ضرورياً للمساعدة في الدفاع عن الحدود وأن يتخذ الاتحاد تلك الخطوات التي تكون ضرورية لصيانتها في مستوى الكفاية. ويطلب من الوالي، أن يوفر للاتحاد أي قسم من الحرس الوطني قد يطلبه الوالي للخدمة تحت تصرفه في ذلك القسم من محمية عدن الواقع خارج الاتحاد.

الفصل الرابع: اتباعاً لالتزامات المملكة المتحدة بمقتضى المادة الرابعة من معاهدة الصداقة والحماية المكتوبة أعلاه بتقديم المساعدة المالية والفنية بخصوص تأسيس وصيانة جيش للاتحاد وحرس وطني للاتحاد، أن تقدم المملكة المتحدة بقدر ما يقرر بمقتضى تلك المادة:

(أ) الأشخاص للمساعدة في توظيف وإدارة وتدريب جيش الاتحاد والحرس الوطني.

في الشرق والغرب وفي الجنوب وفي الشمال ساعة الخطوب

(ب) التسهيلات، بما في ذلك الدورات الدراسية في الخارج، لتدريب أفراد جيش الاتحاد والحرس الوطني.

(ج) النصيحة والمساعدة من الخبراء في أمور العمليات العسكرية والأمر الفنية.

(د) المساعدة في تزويد جيش الاتحاد والحرس الوطني بالمعدات.

(هـ) استعمال التسهيلات الموجودة في مستعمرة عدن لأغراض المحطات العسكرية.

الفصل الخامس:

(١) أن يسمح الاتحاد لقوات صاحبة الجلالة أن تتخذ قواعد لها في الاتحاد وأن تتحرك بحرية داخله ومنه وإليه مع معداتها ومخزوناتهما وأن تخلق طائراتها في سماء الاتحاد وأن تقوم بأية عمليات أخرى كما تدعو الضرورة، وأن يمنح الاتحاد التسهيلات لأي قوات تكون في الاتحاد (طبقاً لهذه المادة) وأن يتخذ أي خطوات أخرى لمساعدتها كما تدعو الضرورة.

(٢) فيما عدا الحالات المتفق عليها بين المملكة المتحدة والاتحاد في أي قضية خاصة أو طائفة من القضايا أن تمارس المحاكم والسلطات المؤسسة والمعترف بها من قبل المملكة المتحدة لهذا الغرض السلطة القضائية الوحيدة فيما يتعلق بجميع الإجراءات القضائية ضد أفراد هذه القوات والأشخاص المذكورين في الفقرة (١) (١) من الفصل الرابع من هذا الملحق، على أن تمارس هذه السلطة بعد استشارة الاتحاد في حالة الإجراءات التي تمس أشخاصاً أو ممتلكات أشخاص ليسوا أفراداً في هذه القوات أو ليسوا أشخاصاً مذكورين في الفقرة (١) (١) من الفصل الرابع من هذا الملحق. وأن تتخذ المملكة المتحدة ما هو ضروري وعملي من الخطوات لضمان حفظ القانون والنظام بين هذه القوات والأشخاص.

الفصل السادس:

(١) أن يعين الاتحاد من وقت إلى آخر ذلك العدد من الأشخاص الذي قد يدعوهم الوالي من وقت إلى آخر كأعضاء في مجلس الدفاع الذي تؤسسه المملكة المتحدة لتقديم النصح للوالي في المسائل المتعلقة بالدفاع عن محمية عدن.

وَكُلُّ أَرْضِ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ وَبَعْضُهَا لِبَعْضٍهَا مُسَانِدَةٌ

(٢) أن يستشير الاتحاد مجلس الدفاع في جميع الأمور المتعلقة بالدفاع والأمن الداخلي للاتحاد بما في ذلك إدارة وتدريب وعمليات قوات الاتحاد وعلى الاتحاد أن يطلع مجلس الدفاع بصورة مستمرة على كل هذه الأمور.

الفصل السابع: في هذا الملحق فإن عبارة (الوالي) تعني الشخص الذي يشغل منصب الوالي والقائد العام لمحمية عدن أو من ينوب عنه.

وإشهاداً على ذلك فقد وقع المذكورون أدناه على هذه المعاهدة وملحقها بوصفهم الأشخاص المفوضين من قبل الطرفين المتعاقدين.

حرر من نسختين باللغتين العربية والإنجليزية بعدن في هذا اليوم الحادي عشر من شهر فبراير ١٩٥٩م الموافق لليوم الثالث من شهر شعبان ١٣٧٨هـ.

عن المملكة المتحدة:

وليام. ه. ت. لوس، الوالي والقائد العام لمحمية عدن.

عن الاتحاد: رئيس المجلس الأعلى للاتحاد—أحمد بن عبد الله الفضلي أعضاء المجلس الأعلى للاتحاد—صالح بن حسين العوذلي—شعفل بن علي حسين بن أحمد الهبيلي—عبد الله بن محسن العولقي—علي عاطف الكلدي.

معاهدة بين حكومة المملكة المتحدة وحكومة اتحاد الجنوب العربي تنمي على تعديل معاهدة الصداقة والحماية المبرمة بتاريخ ١١ فبراير ١٩٥٩ م.

اتفقت كل من حكومة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وشمال إيرلندا المشار إليها فيما يلي بالمملكة المتحدة، وحكومة اتحاد الجنوب العربي المعروفة سابقاً باتحاد إمارات الجنوب العربية والمشار إليها فيما يلي (بالاتحاد) على ما يلي:

المادة الأولى:

ستكون هذه المعاهدة ملحقاً بمعاهدة الصداقة والحماية المبرمة بين المملكة المتحدة والاتحاد في الحادي عشر من فبراير ١٩٥٩م الموافق للثالث من شعبان ١٣٧٨هـ المشار إليها فيما يلي بمعاهدة ١٩٥٩م والمعاهدة التي أبرمت بين المملكة المتحدة والاتحاد في السادس عشر من يناير ١٩٦٣م الموافق للعشرين من شعبان ١٣٨٢هـ وستقرأ المعاهدات كمعاهدة واحدة:

وَنَسَأُ اللّٰهَ اَتْحَادَ الْكَلِيْمَةِ فِي الدِّيْنِ وَالدُّنْيَا وَحَسْنَ الْاَنْظِيْمَةِ

المادة الثانية:

تعديل بهذا معاهدة ١٩٥٩م بمقتضى نصوص المادة التاسعة منها وذلك باستبدال المادة الخامسة منها بالمادة الجديدة التالية.

المادة الخامسة:

أن يتقبل الاتحاد وأن ينفذ من جميع الوجوه أية نصيحة تقدم من قبل المملكة المتحدة في أية مسألة تتعلق بالشؤون الخارجية والخدمة العامة للاتحاد والدفاع (بما في ذلك مسؤوليات المملكة المتحدة الدفاعية العالمية) على شرط أن يكون للاتحاد الفرصة للتعبير عن آرائه للمملكة المتحدة قبل أن تقدم مثل تلك النصيحة له.

المادة الثالثة:

أن يسري مفعول هذه المعاهدة عند التوقيع عليها. وإشهاداً على ذلك فقد وقع المسؤولان أدناه على هذه المعاهدة بوصفها الشخصين المفوضين المتعاقدين حرر من نسختين باللغتين الإنجليزية والعربية في لندن.

في هذا اليوم الثاني عشر من شهر أغسطس ١٩٦٥م الموافق لليوم الخامس عشر من شهر ربيع الثاني سنة ١٣٨٥هـ.

عن الاتحاد

عن المملكة المتحدة

رئيس المجلس الأعلى الاتحادي

المندوب السامي لعدن ومحمية الجنوب العربي

معاهدة بين حكومة المملكة المتحدة وحكومة اتحاد الجنوب العربي تنص على انضمام عدن إلى الاتحاد الفيدرالي.

اتفقت حكومة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وإيرلندا الشمالية المشار إليها فيما يلي «بالمملكة المتحدة» وحكومة اتحاد الجنوب العربي المعروف سابقاً باتحاد إمارات الجنوب العربي والمشار إليها فيما يلي (بالاتحاد) على المسائل التالية.

المادة الأولى:

تعتبر هذه المعاهدة ملحقة وجزءاً من معاهدة الصداقة والحماية بين المملكة المتحدة والاتحاد المؤرخة في ١١ فبراير ١٩٥٩م المشار إليها فيما يلي «بمعاهدة ١٩٥٩م».

إلى هنا وَيَنْتَهِي الْكَلَامُ وَيَقِفُ اللِّسَانُ وَالْأَقْلَامُ

المادة الثانية:

لا شيء في هذه المعاهدة يمس السيادة البريطانية على عدن.

المادة الثالثة:

عرضة لنصوص هذه المعاهدة؛ سوف تصبح مستعمرة عدن ولاية في الاتحاد تعرف باسم عدن وذلك في أول مارس ١٩٦٣ م أو في ميعاد قبل ذلك التاريخ يعين بمقتضى أمر في المجلس (و يشار إليه فيما يلي (بتاريخ الانضمام)).

المادة الرابعة:

تستثنى ميون وجزر كوربا موربا من الاتحاد.

المادة الخامسة:

ستضمن حكومة الاتحاد تعديل دستور الاتحاد ابتداء من تاريخ الانضمام بالطريقة المتفق عليها بين حكومة الاتحاد وحكومة عدن والمصادق عليها من قبل حكومة المملكة المتحدة.

المادة السادسة:

سترتب حكومة المملكة المتحدة إعطاء دستور الاتحاد، كيفما يعدل بمقتضى المادة الخامسة، فعالية القانون في عدن في تاريخ الانضمام شريطة النصوص الخاصة المتفق عليها بين حكومة الاتحاد وحكومة عدن والمصادق عليها من قبل حكومة المملكة المتحدة.

المادة السابعة:

عرضة لنصوص هذه المعاهدة فإن معاهدة ١٩٥٩ ابتداء من تاريخ الانضمام ستطبق على عدن كولاية تشكل جزءاً من الاتحاد.

المادة الثامنة:

بصرف النظر عن المادة الثانية تتعهد حكومة المملكة المتحدة بعدم ممارسة سلطاتها الخاصة بالسيادة لسحب عدن من الاتحاد خلال فترة سريان هذه المعاهدة عدا بمقتضى المادتين التاسعة والعاشر.

المادة التاسعة:

يجوز لحكومة المملكة المتحدة أن تبعد أو تسحب في أي وقت من الاتحاد أي منطقة أو مناطق داخل عدن إذا رأت ذلك مرغوباً فيه لأغراض مسؤولياتها العالمية للدفاع.

المادة العاشرة:

بصرف النظر عن أي شيء في دستور الاتحاد وفي خلال الاثني عشر شهراً التي تلي نهاية العام السادس بعد تاريخ دخول عدن في الاتحاد، إذا ما أجاز مجلس عدن التشريعي قراراً بأغلبية ثلثي أعضائه يسجل شكوى بأن الاتحاد قد عمل بطريقة تضر بصورة غير عادلة بمصالح عدن فعندئذ تتعهد حكومة المملكة المتحدة بعقد مؤتمر برئاسة وزير تابع للمملكة المتحدة، لمثلي الاتحاد وعدن من أجل محاولة حسم المسألة بالاتفاق. وإن لم يكن بالإمكان التوصل إلى إتفاق وإذا ما اقتنعت حكومة المملكة المتحدة بأن الاتحاد قد عمل بطريقة تضر بصورة غير عادلة بمصالح عدن فستطلب من حكومة الاتحاد اتخاذ أي عمل (لا يتضمن تعديل دستور الاتحاد) يكون في نظر حكومة المملكة المتحدة ضرورياً لمعالجة الوضع. وفيما لو عجز الاتحاد عن اتخاذ ذلك العمل فسيجوز لحكومة المملكة المتحدة أن تسحب عدن من الاتحاد.

المادة الحادية عشرة:

يسري مفعول المعاهدة الحالية عند توقيعها.

وكل هذا مع أصحاب المناطق الغربية، أما المناطق الشرقية حضرموت القعيطي والكثيري والمهري فإنها حتى اليوم لم تدخل في الاتحاد وما تزال متحفظة بأمرها وخائفة من سوء المستقبل وتحسب له ألف حساب ولعلمها بوجود البترول في أراضيها ولو أنه لم يظهر فعلياً وبعدم المساواة بينهم وبين أهل الاتحاد من نواحي العلم والمال وكثرة السكان وغير ذلك تخاف من الدخول في حكومة تفرض عليها السيادة ولا تترك لها الاستقلال بأية إرادة، وكان خيراً لها أن تكون مع غيرها وأن تنضم إلى قافلة العروبة وأن لا تكون سبباً في بقاء الحماية الإنجليزية على جزء كبير من الجنوب العربي لا سيما وأن زعماء الاتحاد لا يقبلون الاستقلال الموعود به في سنة ١٩٦٨ م إلا بشرط أن يكون للجنوب كله =

وهذه قائمة الكتاب والله يَهْدِينَا إِلَى الصَّوَابِ (١)

= وأن يكون حضرموت جزءاً من الدولة (الجمهورية المقرر إعلانها بعد الاستقلال فوراً) وقد يكون من أعظم الأسباب لعزلة حضرموت أو لتفكك الاتحاد لا سمح الله هو الخلاف السياسي على رئاسة الجمهورية ومن هو المقدم على غيره في المصالح المشتركة وهل العبرة بالكفاءة أم بكثرة موارد المال أم بكثرة السكان وهي قضايا بسيطة؟ ومن السهل جداً دراستها والوصول فيها إلى حلول مرضية بين جميع الأطراف المتخوف بعضها من بعض، ومن الناس من يقول إنه لا معنى للاتحاد قبل أن تستقل عدن تماماً وقبل أن يغادرها الإنجليز ويترك لأهلها حق تقرير المصير لتنضم إلى حيث شاءت من الجهات ويرى هؤلاء، أن الاتحاد الموجود حالياً ليس إلا في مصلحة الإنجليز ولا يقصدون منه إلا بقاء الامتيازات وقوة الصلابة بينهم وبين دولة اتحادية تصبح في المستقبل عضواً في رابطة الكمنولث الإنجليزي، وربما يجعلونها شوكة أخرى في جنب الوحدة العربية الكبرى، أما اليمن فإنما تعارض بشدة وتقول إن جميع هذه الولايات أجزاء من اليمن فهي جنوبه المحتل، ولا تعترف لأي سلطان بأي سلطة شرعية، لا في عدن ولا في غيرها إلا للحكومة صنعاء وتحتج بالتاريخ والجغرافيا الشاهدين على حدود اليمن من جهاته الأربع، وترغم أننا في مختلف الولايات لها ومنها وإليها كيف ما كنا وكيف ما كانت بلادنا محتلة أو مستقلة، وللأحزاب السياسية نزعات مختلفة، ولكل وجهة هو مولياها، شطر اليمن أو مصر أو تكوين دولة مستقلة ذات سيادة تصبح مثل الكويت في نفسها وفي هيئة الأمم المتحدة وفي منظمة جامعة الدول العربية ونسأل الله أن يختار للحكومات والشعوب العربية ما فيه خير العاجل والآجل تفضلاً منه وكرماً، وحيث قد استقلت معظم المستعمرات ولم يبق منها إلا القليل التابعة للبرتغاليين والاسبانيين وأصبح النظام الاستعماري بغضاً ممقوتاً في الدنيا كلها وأصبح أهله معترفين بالأمر الواقع وهو العجز عن البقاء، وإخضاع تلك الشعوب التي تعلمت وثقفت وأصبحت قادرة على إدارة شؤونها وتدبير أمورها، فإنها مهما كانت الحالة عليه من الأمن والاستقرار فقد سئم الناس العبودية وحياة الذل تحت السيطرة الأجنبية، وصار لا يرضى بالاستعمار إلا بليد حمار أو مجنون مسلوب الاختيار، والكون دائماً يتطور والنظام دائماً يتغير، وما كان لك اليوم فهو لغيرك بالغد، ولا بقاء لدولة على بلد إلا ريثما ترفع يد وتوضع يد ((والله الأمر من قبل ومن بعد)).

(١) لكل دولة كبيرة أو صغيرة في مستعمراتها قواعد حربية: مطارات وموانئ =

= وثكنات عسكرية وتختلف أهميتها ومعدات أصحابها من الجنود والأسلحة المستعملة والمهياة إذا احتيج إليها، وللإنجليز قاعدة حربية مهمة في عدن لا تقاس بغيرها من القواعد الأخرى وهم يحرصون على بقائها كحرصهم على الحياة لخطورة موقعها ولما جهزت به من العتاد والقوة، والحديث حول القاعدة في الوقت الحاضر هو هل ترفع بسرعة أو تترك للمفاوضة مع المسؤولين إلى ما بعد الاستقلال، ورغم ما نسمع من حوادث القتل وتهديد الإذاعات المصرية واليمنية، فما أظن الإنجليز تاركين القاعدة العظيمة، ولا متخلين عن المطارات والمراكز العسكرية المنبثة هنا وهناك، إلا بسفك الدماء وشب نار الحرب بينهم وبين أبناء البلاد قبل خروجهم منها وبعد الخروج، وليس بين جبل طارق وسنغافورة قاعدة حربية هي عند الإنجليز أهم من قاعدة عدن، ونسأل الله السلامة من خطر الحروب ومن مضلات الفتن في كل جهة وإقليم وقطر وثمر في الجو والبر والبحر شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً، والحرب لا تأتي بخير إلا إذا انتصر بها الحق وتغلب بها المظلوم على ظالمه، والعالم في هذا الزمان كالبيت الواحد إذا شبت النار في جانب منه أحرقت الجوانب كلها، ولهذا فنحن نخاف منها على البشرية أجمع، والأسلحة مدمرة، والشح مطاع والأهواء متبعة ومصالح الناس مرتبط بعضها ببعض، أما بلاد المسلمين قديماً وحديثاً فهي كالبلد الواحد والمسلمون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، لما بينهم من الروابط الدينية التي لا تفرق بين عربهم وعجمهم وبين أبيضهم وأسودهم، بل توجب نصرة بعضهم ولو كان أحدهم في المشرق والآخر في المغرب لقول النبي صلى الله عليه وسلم (المؤمنون كالبنان أو كالبنيان يشد بعضه بعضاً) وما تفرقت الممالك ولا ذهبت الخلافة الإسلامية إلا حين تخاذل المسلمون وقصر القريب منهم في مناصرة البعيد وبالعكس، وإذا جمع الله الشمل ووجد الكلمة وأصلح الأنظمة ورجع آخر هذه الأمة إلى ما كان عليه أولها وإذا عاد للدين سلطانه وللإسلام تعاليمه فالدنيا كلها بخير ولا خوف من قوي على ضعيف ولا تطاول من دني على شريف، والله تعالى هو المسؤول في صلاح الأحوال ونشر السلام وعليه قصد السبيل، ولو شاء لهداكم أجمعين، والتاريخ سجل الحياة ولا تغادر كتيبه وكتابه من الحوادث صغيرة ولا كبيرة إلا وتثبتها وتحصنها، وما فات منها في هذا ذكر في مكان آخر، والمؤرخ يخطيء ويصيب ويصدق ويكذب، وكل بحسب نيته وكل ذي نية بحسب إرادته وقدرته، والله من وراء المقاصد، وأنا أسأل الله التوفيق لكل خير والإخلاص فيما عملت =

خاتمة المنظومة

تَمَّتْ وَللهِ جَزِيلُ الْحَمْدِ كَأَنَّهَا جِوَاهِرُ فِي عَقْدِ
 فِي وَاحِدٍ مِنْ رَجَبِ الْحَرَامِ وَكَانَ هَذَا ثَانِي الْأَعْوَامِ
 بَعْدَ الثَّمَانِينَ حَسَاباً مُعْتَبَرِ فِي عِدَّةٍ مِنْ قَرْنِنَا الرَّابِعِ عَشَرَ
 وَإِنْ أَرَدْتَ جَمْعَهُ فِي جُمْلِهِ فَهَآكَ (تَارِيحاً صَحِيحاً كُتِبَهُ) ^(١)

= وبما أنه قد كل اللسان وضعف القلم وانتهى ما تيسر لي جمعه في هذه المنظومة وفي التعليق عليها فأرجو الله أن يكون العمل صالحاً والمتجر راجحاً وما أصبت فيه الصواب فإنما هو بعمونة الله وحسن توفيقه، وما أخطأت فيه، ساهياً لا عامداً مكرهاً لا قاصداً فاستغفر الله من ذنبي، وأعوذ به من شره، ((ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء))، ((وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم))، وأعوذ بك اللهم أن أشرك بك شيئاً أو أقترف إثماً أعلمه، وأستغفرك لما لا أعلمه، ((ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً)).

(١) خاتمة الشيء آخره ومنتهاه، وهي في آخر الكتاب مثل الخطبة في أوله فهناك تذكر البسملة والحمد لله والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم كما تذكر براءة الاستهلال واسم المؤلف واسم الكتاب والموضوع الذي يؤلف فيه، والسبب الحامل على التأليف كما يذكر العلم وبيان فضله وفضل المشتغلين به، وفي خطبة الكتاب يدعو الله صاحبها بالعمونة والتوفيق لنفسه ولطلابيه ومريديه وهنا يذكر حسن المقطع وتاريخ الوقت الذي فرغ فيه المؤلف من الجمع واستدراك ما فات وتبويض ما كتب وتصحيح ما وقع فيه الغلط، ثم يعتذر المؤلف عن الأخطاء وسبق اللسان وزلة القلم ويسأل الله أن يتقبل منه العمل وأن يثيبه عليه ولقد اشتمل هذا الكتاب في خطبته على جميع ما ذكر، وهالك بيان ما أوردناه في خاتمة المنظومة، فلقد تم جمعها ووقع الفراغ منها في اليوم الأول من شهر رجب الحرام عام ١٣٨٢هـ وهو القرن الرابع عشر الهجري، وإذا شئت له جملة مختصرة مفيدة يأتي عدد حروفها موافقاً لتلك السنة فاحسب الحروف من قولك (تاريخ =

جمعتُ فيها ما رَوَوْا من الصحيح
 أبياتها من الألفِ أربعة
 ثم ثلاثمئة تقريباً
 حافظُها يُعَدُّ في أفرانه
 وهي هديّةٌ إلى أولادي
 وبالأخصّ الناشئين في الوطني
 ونظّمها من البليغ والفصيح
 وأنها سهلةٌ مُمتنّعة
 تطعمُ حُلواً وتشمُّ طيباً
 مُحترماً مُعظماً في شأنه
 في كلّ شامخٍ وكلّ وادي
 من عدنّ إلى نهايةِ اليمنِ (١)

= صحيح كله) وأرجو الله أن يكون ذلك في المعنى كما هو في اللفظ والحساب، أما التعليق
 عليها فكان الفراغ منه يوم الأربعاء اثنى وعشرين شعبان من سنة ١٣٨٥هـ وإنما طالّت
 المدة في كتابة هذا التعليق للأسباب التي ذكرتها في طول مدة النظم، وإنما السهل ما
 سهله الله، والأجر على قدر النصب وكل من سار على الدرب وصل، أما ما وصفت به
 منظومتي وأثنت به عليها فهو بحمد الله كما تستحق، وها أنا ذا أقدمها إليك أيها القارئ
 الكريم لتشجعني على موضع الإحسان ولتعذرني إذا رأيت الإساءة، فإنما الكمال لله، وكفى
 بالمرء فخراً أن تعد معائبه، وما شبهتها بالجواهر في العقد المنظوم إلا لما تشتمل عليه من
 بلاغة المنطوق وصواب المفهوم، ولقد جاء نظمها من البليغ الذي هو مطابقة الكلام
 لملقضى الحال فصيحاً لا تنافر في كلماته ولا غرابة في مفرداته، ولا ضعف تأليف في
 تراكيبه، ولا تعقيد لفظياً ولا معنوي وإنما هو سهل ممتنع وقريب مرتفع، والمذكور فيها
 من أصح الأخبار الروية، ولا تعصب فيها لرأي أو مذهب يخالف الصدق والصواب ولا
 تحيز فيها إلى دولة ضد أخرى ولا إلى متأخر ضد متقدم، وإن بدا لك من ذلك شيء فإنما
 هو بعد بذل المجهود في تحصيل المقصود، وما أنا إلا كما قال شعيب عليه السلام ((إن
 أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب)).

(١) عدد الأبيات في أشعة الأنوار على مرويات الأخبار أربعة آلاف وثلاثمائة
 تقريباً، وطعمها أحلى من العسل وربحها أطيب من المسك، وهي أبرد من الثلج، وأبيض
 من اللبن، مفرغة في قالب مقبول، لا جزالة منفرة، ولا إطالة مملة، ولا إيجاز مخل،
 ولكنها بين بين، تشف بها الآذان وتقر بها العين، وقد جعلتها هدية ولا ثواب عليها إلا
 من الله، ولا منة بها على أحد إلا أني أطلب صالح الدعوات ممن أهديت إليهم جميعاً،
 وهم الذين أعتبرهم كأولادي، وإن بعدوا عني، وإن صعّدوا كل شامخ أو هبطوا كل =

وقد مَضَتْ عَلَيَّ مِنْ حَيَاتِي
 قد أَبْطَأْتُ بِي كَثْرَةُ الْمَشَاغِلِ
 وَقِلَّةُ الْعِلْمِ وَكَفَّتْ بَصْرِي
 فِي خِدْمَةِ الْعِلْمِ وَأَرْجُو اللَّهَ
 وَأَنْ يُثِيبَ كَاتِبِي عَبْدَ الْكَرِيمِ
 فَإِنَّهُ أَوْلُ مَنْ أَمَلِيَتْهَا
 وَكُلُّ مَنْ سَاعَدَنِي فِي الْجَمْعِ
 فِي الْجَمْعِ نَحْوَ سَبْعِ سِنَوَاتٍ
 وَمَا أَعَانِيَهُ مِنَ الْأَرَاذِلِ
 وَالْبَعْدِ عَنْ أَهْلِي بِطَوِيلِ سَفَرِي
 قَبُولَهَا وَأَنَّهُ يَرْضَاهَا
 عَلَى صَنِيعِهِ وَجَهْدِهِ الْعَظِيمِ
 عَلَيْهِ حَقِّي أَنْ أُنْهِئَهَا
 أَوْقَامًا بِالتَّصْحِيحِ وَقَبَّ الطَّبِيعِ (١)

= وادي، ولا فرق بين أحد منهم، وأنا أعلم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «اتقوا الله واعدلوا في أولادكم» وإنما أخص ذوي الحاجة منهم وأقدمهم على إخوانهم لما يعرف من فقرهم وعوزهم وهم طلبة العلم وخيرة الشبان من ثغر عدن إلى نهاية اليمن والأقربون أولى بالمعروف، «وأت ذا القرنى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً»، ومن حفظها وعني بها فهو الأوحيد في زمانه والمقدم على أقرانه، لأنها مكتبة تاريخية يحملها في صدره وخزانة علم في قلبه، يأخذ منها ما يشاء حين ما يشاء وكيف ما يشاء، وحفظ المتون سهل فهم الفنون، ولئن كانت النفوس قد ملت والأفهام قد كلت فإنها ما تزال في الزوايا خبايا وفي البرايا بقايا، وفي أهل العلم من لا يزال يحفظ الكثير، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

(١) بدأت في هذه المنظومة آخر شعبان من سنة ١٣٧٥هـ وذلك في أديس أبابا عاصمة الحبشة، وما كنت أظن أنها ستطول هكذا وليس عندي من الكتب هنالك شيء البتة، إلا القرآن العظيم، فجاءت بحمد الله كما ترى لولا أنها طالت المدة وقضيت من حياتي سبع سنوات إلا شهرين في جمعها وتهذيبها، مع ما كنت أعانيه من المشاغل الكثيرة ومعارضة الأئذال والأراذل المعوقين عن الخير والواقفين في سبيل العمل، لا يعملون ولا يحبون لغيرهم أن يعمل، وتلك طبيعة الناس في كل زمان، ومنهم المعذور بخطئه وفيهم المجبول على المعارضة، وفي أولئك أقول:

ونحن رجال العلم والدين دائماً نفكر في الإصلاح والحر همام
 نفكر في إصلاح شعب ودولة ونسبي ولكن المعارض هدام =

وَأَمَلِي فِيَمَنْ يَرَى الْعُيُوبَا أَنْ يَغْفِرَ الزَّلَّاتِ وَالذُّنُوبَا
وَيُضْلِحَ الْأَخْطَاءَ فَالْإِنْسَانُ تَصِيبُهُ الْغَفْلَةُ وَالنَّسْيَانُ
لَا يَسْتَمَّا مِثْلِي وَهَلْ يَلَامُ مِثْلِي إِذَا هَامَتْ بِهِ الْأَوْهَامُ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى الْإِنْعَامِ بِنِعْمَةِ التَّوْفِيقِ وَالْإِتْمَامِ

ومن الأسباب المبثثة بي قلة علمي وعدم المصادر الموثوق بها في الرجوع إليها وقد يمر بي الشهر أو قريباً منه في البحث عن كتاب أو مسألة في الكتاب ولا يتيسر ذلك إلا بعد جهد جهيد، مع أنني كفيف البصر، ولا تتأق لي المطالعة في كل حين ولا أقدر على كتابة الأبيات إذا انتهت منها إلا بعد حضور الكاتب وبعدها يذهب عني بعضها، والفكرة والخطارة إذا لم تقيد في حينها قد تذهب ويذهب التعبير عنها باللفظ المستحسن لكتابتها وتسجيلها، وفي تلك المدة كنت كثير التنقلات وطويل الأسفار في قضية المعهد العلمي الإسلامي لبنائه وتأثيثه وجلب المعلمين إليه من الداخل والخارج وضمان مستقبله في ما يتطلبه من النفقات عليه، لشراء الكتب، ثم لوضع البرامج وتخطيط المناهج وخلال السبع السنوات سافرت إلى الحبشة ثم إلى أرتيريا ثم إلى السعودية عدة مرات، وإلى الكويت، والبحرين، وقطر، ومصر، وسوريا ولبنان، والأردن، وفلسطين، واليمن، أسافر من بلاد إلى بلاد، وبلسان الشعر والنثر أنشئ الخطب والقصائد والرباعيات في تحقيق هذه الفكرة حتى نجحت، وحقق الله لي ما أريد وله الحمد على كل حال، ومما قلته في ذلك هذه الرباعية:

أسافر في طول البلاد وعرضها وأطلب بالأسفار أجراً ومغنماً
ولو قيل لي هيات ما أنت طالب لكلفت نفسي أن تسيرت قدماً
ولو كان بين الفرقدين معلقاً لصيرت من عزمي إلى النجم سلماً
ولن يدرك الإنسان بعض مراده إذا شب رعديداً وشاخ محطماً

وقد صحبت في هذه الأسفار جملة من التلاميذ المخلصين والأصدقاء المتعاونين على الخير جماعة منهم السيد عبد الكريم عز الدين الكحيلي الذي ذكرته بالدعاء له في البيتين فإنه الذي كتب الأصل وكان يحثني على المضي حتى فرغت منها وجزاه الله خيراً، لكن الذي سافر معي كثيراً وشاركني في الأتعاب وبيض المسودة وكتب التعليق كله بخطه الحسن ومع صبره الجميل على تبعه الطويل في المراجعة والتأمل وإبدال شيء بآخر =

والأجرُ والإخلاصُ في الأعمالِ نسأله من صاحبِ الأفضالِ
 وكلُّ شيءٍ فهو منه وإليه والخيرُ لا نرجوه إلا من يَدَيْهِ
 ثم الصلاةُ والسلامُ الأبدي عَلَى النَّبِيِّ الْهَاشِمِيِّ مُحَمَّدٍ
 والآلِ والأصحابِ أَجْمَعِينَ يَا رَبِّ وَالْحَقُّنَا بِهِمْ آمِينَ^(١)

= والتنبية على ما فات هو الذي لا أستطيع مجازاته ولا مكافأته إلا بالدعاء له وأن يديم الله بيني وبينه حسن الصحبة في الدنيا ويرزقنا مرافقة الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين في دار النعيم إن شاء الله ذلك هو الشيخ عمر بن سعيد باعمود الحضرمي الدوعني أثابه الله وأحسن إليه وجعله عوناً لأهل الخير على كل خير.

وأعترف بالجميل لمن ساعدني على الجمع أو صحح الكتاب عند الطبع أو سعى في نشره أعترف لهؤلاء جميعاً بالجميل وبحسن الصنيع، ((ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً)).

(١) وختاماً أسأل الله تبارك اسمه، وجل ذكره، أن يغفر الذنوب ويستر العيوب، وأن يقبل العثرة لي ولن كتب أو قرأ أو نشر أشعة الأنوار، ومن اطلع على العيب فليصلحه وإذا أمكن فليراجعي فيه فإنما أنا إنسان والإنسان تصيبه الغفلة والذهول والنسيان، وإن رجلاً مثلي ليعذر ولا يلام إذا وهم أو زل به القدم لأنه ضرير والله تعالى يقول ((ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج)) وإن كان هذا في الجهاد فلا شك أن هذا نوع من الجهاد، وأحمد الله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، وبحماده كلها ما علمت منها وما لم أعلم، على جميع نعمه كلها ما علمت منها وما لم أعلم، عدد خلقه كلهم ما علمت منهم وما لم أعلم، أحده وأشكره وأثني عليه بما هو أهله حيث قد وفقني لهذا العمل وأعاني على إتمامه، وإنما يسأل الفضل منه، وإنما يطلب الخير من لديه وكل شيء منه وإليه، وهو المستعان وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثم صلاته وسلامه الأدومان الأتمان والأبديان على سيد خلقه وخاتم رسله محمد وأحمد الهاشمي القرشي العربي الماحي الذي يمحو الله به الشرك، والعاقب الذي يحشر الناس على عقبه، ولا نبي بعده صلى الله وسلم عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابه أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وعلينا ومعهم وفيهم برحمتك يا أرحم الراحمين (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، آمين اللهم آمين آمين).

فهرس الجراء الثاني

الموضوع	الصفحة
دولة بني زياد ومواليهم . أول بني زياد وصاحبه — مدينة زييد — ثاني بني زياد — رابع ملوك بني زياد — أخبار القرامطة في اليمن — ضعف الزيادي وانتفاض الناس عليه — أهل بيته من بعده	٥
موالي بني زياد: الحسين بن سلامة — مرجان الحبشي — نهاية بني زياد	١٢
دولة آل نجاح . أولاد الأمير نجاح — انتصارهم على الصليحي — استمرار الحرب بين الجانبين — جيش بن نجاح — أولاده — نهاية آل نجاح	١٧
الدولة المعاصرة في ذلك الزمان: الزيدية — بنومعن — بنوزريع	٢٢
ملوك آخرون: الحواليون — جعفر المناخي — المفضل بن أبي بركات — بنو الضحاك	٢٧
دولة بني مهدي: احتلالهم لزييد — المهدي بن علي — عبد النبي آخرهم الاشراف بنوسليم	٣٢
دولة الصليحيين: عامر بن عبد الله الزواحي — عاصمة الصليحيين — أسعد بن شهاب في تهامة	٣٦
فصل تابع لما قبله: ثاني ملوك الصليحيين — مرضه وقيام زوجته بالأمر — محاولة سبأ بن أحمد أن يتزوج بالملكة أروى — استقلالها بالحكم بعد وفاته	٤٠
دولة بني أيوب في اليمن: طوران شاه — عثمان الزنجبلي — بئر أحمد — انتفاض العمال — طغتكين بن أيوب	٤٣
فصل تابع لما قبله: إسماعيل بن طغتكين ونهايته — الأتابك سنقر ومولاه الناصر — جبريل بن غازي — سليمان تقي الدين — المسعود بن العادل آخرهم	٤٩

- خلاصة من تاريخ حضرموت: الإسلام في حضرموت - قبائل كندة -
الأشعث بن قيس - وائل بن حجر - زياد بن لبيد الأنصاري - حرب الردة
في حضرموت - عبد الله بن يحيى الأباضي - ابن عطية السعدي ٥٣
فصل تابع لما قبله: نهاية السعدي في حضرموت ٦١
آل باعلوي في حضرموت: جددهم المهاجر - وصوله إلى حضرموت - أولاد
عبيد الله بن المهاجر - دخولهم إلى تريم - تعلق الناس بهم والغلو في حبهم
- فتنة الإرشاديين في جاوا - الفقيه المقدم - أولاد الفقيه - المشاهير منهم -
انتشارهم في الأقطار ٦٣
دول ودويلات: أبو إسحاق الهمداني - عبد الله بن راشد - سالم الحبوذي
- أوقاف الحبوذي - عمال بني الرسول وأمر آل كثير بعد الحبوذي - غيل
باوزير وغرفة باعباد - مؤسس الدولة الكثيرة - عائلتان في بيحان من آل
باوزير ٧١
دولة بني رسول الغساني: الملك المنصور - ولده المظفر - أعماله ٧٨
الملك بعد المظفر - داود المؤيد - علي المجاهد ٨٣
الملك بعد المجاهد: الأفضل عباس - الأشرف الثاني - الناصر بن الأشرف
المنصور بن الناصر - الأشرف بن الناصر - خلعه بعمه - تنازع الملك ونهاية
بني الرسول ٩٢
دولة بني طاهر: ابتداء تملكهم - ابن أبي دجانة - محاربة الظافر لأئمة صنعاء ١٠٠
ثاني ملوك بني طاهر ومن بعده المجاهد الطاهر - عبد الوهاب بن داود - عامر
ابن عبد الوهاب ١٠٥
بقية من تاريخ بني طاهر بعضهم في بيحان - آل قطب الدين في جاثران،
البرتغاليون في سواحل العرب، الإمام شرف الدين، نهاية الملك عامر بن عبد
الوهاب، ماذا صار بعده، انتصار المطهر بن شرف الدين، مقتل قانصوه وأمر
جيشه في اليمن، وصول بني عثمان إلى عدن ١١٠
من علماء وعباد ما قبل الألف: أئمة ورواة في اليمن ١١٧
فصل تابع لما قبله: فقهاء الشافعية المالكية والحنفية في اليمن، فقهاء الزيدية،
كبار الصوفية، ابن عربي والحلاج، العباد في اليمن ١٢٤
كتب التراجم ١٣٣
الدولة العثمانية: مؤسسها الأول الأمير ميخائيل، جنكيزخان، خوارزم شاه،

- أولاد جنكيزخان، اختلاف أهل السنة والشيعة في العراق، نهاية بني العباس،
التر في بغداد، الخليفة الجديد في مصر، الحروب الصليبية، من آثارها الباقية
- أورخان بن عثمان وأخوه علاء الدين — أمر الروم مع بني عثمان ١٣٨
- من مراد الأول إلى مراد الثاني — بايزيد الأول — تيمورلنك — أولاد بايزيد
— محمد الجلبي — الإشتراكية في جيش أخيه موسى — الأتراك واليهود — ترجمة
- الجلبي — مراد الثاني — حربه مع المسيحيين — اعتزاله للملك ورجوعه إليه . ١٤٧
- محمد الفاتح وولده بايزيد: فتح القسطنطينية — فتوحات أخرى — بايزيد
الثاني — حربه مع أخيه — نهاية الأمير جم — بايزيد الصوفي — مهادنة الملوك
للخليفة وفتنة بعضهم — أولاد بايزيد ١٥٤
- أمير المؤمنين سليم الأول: رجوعه إلى أدرنة وعقده المعاهدات — قضاؤه على
الشاه إسماعيل الصفوي — خوفه من بعض جنده وقضاؤه عليهم — فتح الشام
ومصر — تحول الخلافة إلى بني عثمان — ماذا كان من أشرف مكة — عودة
سليم إلى بلاده — وفاته ١٦٠
- سليمان باشا القانوني: أول ما بدأ به — غزوه لبلاد المجر — فتح روديسيا
وذهاب أهلها إلى مالطة — أمر القرم والفلاح — صدران أعظمان — غزواته في
أوربا — فتح إيران مرة ثانية، زيارته لبغداد ١٦٥
- فصل تابع لما قبله: خير الله بن باشا — خير الدين في تونس — خير الدين في
فرنسا — البرتغاليون في البحر الأحمر — جيوش السلطان في اليمن — تعاقب
الباشوات عليها — سليمان باشا وأولاده ١٧١
- الخلفاء العثمانيون بعد القانوني: المطهر بن شرف الدين — فتح قبرص في أيام
سليم — هزيمة بعد النصر — استمرار الحكم العثماني في قبرص — دخول
الإنجليز فيها واستقلالها بعد ذلك — في ليبنته — مراد الثالث — معاصرته في
اليمن لأولاد المطهر — الإمام الحسن بن داود — مراد الثالث ودول أوربا —
- شمال أفريقيا في عهده — خروج بعضها عن آل عثمان ١٧٦
- محمد الثالث وستة من أبنائه: حروبه مع أعدائه — أحمد الأول — أخوه
مصطفى وابنه عثمان — مراد الرابع — انسحاب القوات العثمانية عن اليمن في
عهده — إبراهيم الأول — محمد الرابع — وزيره كوبرلي وأحمد ابنه — وزراء
- آخرون — نهاية هذا السلطان ١٨٤
- اليمن في القرن الحادي عشر: بدء المحاولات الإستعمارية — ظهور الدولة

- القاسمية - المؤيد محمد بن القاسم - أخوه أبو طالب - حسين اليافعي في
عدن - أحمد بن الحسن وعمه المؤيد - حضرموت والأئمة الزيدية - بدر
الكثيري وإسماعيل المتوكل - أحمد بن الحسن في حضرموت - الإمام المتوكل
١٩٠ إسماعيل - صفي الدين أحمد بن الحسن - الإمام محمد بن إسماعيل
عودة إلى بني عثمان: جملة من سلاطينهم وصدورهم - أحوال اليمن في القرنين
الثاني والثالث عشر - صاحب المواهب محمد بن المهدي - أئمة متنافسون -
١٩٨ المهدي عباس
طرف من تاريخ مصر: متابعتها لدار الخلافة - بنو طولون - الأخشيديون
- الفاطميون - الأيوبيون - صلاح الدين - حرب الصليبيين - الملك
العادل - محمد الكامل - العادل الثاني - الملك الصالح نجم الدين - شجرة
الدر - المماليك بعد أسيادهم - الظاهر بيبرس - المنصور قلاوون - صلاح
الدين خليل - محمد الناصر - المماليك البرجية - البرتغاليون ورأس الرجاء
٢٠٣ الصالح - بقية من أمر المماليك
الفرنسيون ونابليون في مصر - شخصية نابليون - غزوه لمصر - الزحف على
القاهرة - الأزهر وفرنسا - نابليون يفشل في الخطة - الدول الثلاث في مصر . . .
٢١٤ آل محمد علي في مصر: بداية أمر الإنجليز - شخصية محمد علي - قضاؤه على
المماليك - أسباب تغلبه - الجيش وضباطه - الأسطول البحري - حربه في
الشام - أمر السودان - غزو اليونان - إبراهيم باشا - طوسون باشا وأخوه
إسماعيل - مدينة الخرطوم - فرع الأوربيين من فتوحات مصر - معاهدة
٢٢٣ لندن - إصلاحات محمد علي
بعد محمد علي إلى اليوم: عباس طوسون - سعيد باشا - قناة السويس
- الخديو إسماعيل - فتوحاته - غلطاته - محمد توفيق - أحمد عرابي باشا
- تدخل الإنجليز المكشوف - مصطفى كامل ومحمد فريد
٢٣٢ فصل تابع لما قبله: اللورد كرومر - حادثة دنشواي - عباس حلمي -
الإصلاحات في عهده - فورست مثل كرومر - السلطان حسين كامل - أحمد
فؤاد الأول - الأحزاب ورجال السياسة - مصطفى النحاس والمعاهدة - الملك
فاروق - الحرب العالمية الثانية - جامعة الدول العربية - مطامع الغرب في
فلسطين - دولة إسرائيل - أسباب الثورة المصرية، نهاية الملكية وقيام
الجمهورية - جمال عبد الناصر - تأميم قناة السويس - العدوان الثلاثي على

- ٢٤٠ مصر - السد العالي - الإشتراكية وتحديد الملكية - مصر واليمن بعد الثورات... ظهور الدعوة الإصلاحية في نجد: دعوة ابن عبد الوهاب ومعارضة الناس لها - تنقلاته واتصالاته
- ٢٥٤ نشأة الدولة السعودية وحالها اليوم: ابتداء الحرب بين السعوديين والمصريين - شروط الصلح بينهم - تركي بن سعود، فيصل بن تركي - أولاد الإمام فيصل:
- ٢٥٩ الملك عبد العزيز وما بعده: فتحه للرياض - مع سعدون باشا - مع ابن الرشيد - اتفاقته مع الإنجليز - إمامته بعد أبيه - استيلاؤه على عسير - استيلاؤه على الحجاز - نهاية الأشراف وخروجهم - تسليم الملك على - أولاد الملك حسين - السعودية واليمن - الحرب بينها والصلح بعد ذلك
- ٢٦٧ فصل تابع لما قبله: المعاهدات مع الملك عبد العزيز - ثورة ابن الدويش ونهايته - ثورة ابن رفاعة ونهايته، المعادن في السعودية - البترول - الإسم الجديد للمملكة - ولاية العهد - إصلاحات عبد العزيز
- ٢٨٤ الملك سعود بن عبد العزيز: عمارة الحرمين الشريفين - هيئة الأمر بالمعروف - الكتب الجديدة - الصحة والمستشفيات - الجيش والدفاع - الإمام البدر في السعودية - المؤتمر الإسلامي بمكة - الجامعة الإسلامية في المدينة - مسئولية الملك سعود
- ٢٩٤ آل صباح في الكويت: صباح الأول - عبد الله بن صباح الأول - جابر بن عبد الله
- ٣٠٥ صباح الجابر الثاني وأولاده: عبد الله بن صباح الثاني - أخوه محمد
- ٣١٠ مبارك الصباح وأولاده
- ٣١٤ فصل تابع لما قبله: جابر بن مبارك - أخوه سالم - أحمد بن الجابر - مجلس الشورى في عهده - ظهور البترول
- ٣١٩ الكويت اليوم: الإصلاحات الكثيرة - استقلال الكويت - زيارة المؤلف للكويت - مظالبة عبد الكريم قاسم بضمها إليه - أميرها الحالي
- ٣٢٤ آل حميد الدين في اليمن: التسع المحميات - شدة الخلاف بين الإمام يحيى والإنجليز - تبرم اليمنيين من الحكم الإمامي - اليمن والجامعة العربية وهيئة الأمم
- ٣٣٠

- فصل تابع لما قبله: أحمد بن حميد الدين - صلة المؤلف به - تأثيرات الإمام
 بالأحداث - العلاقات بين مصر واليمن في الوحدة العربية - أرجوزة الإمام -
 ٣٣٨ تاريخ حياته - وفاته والأحداث من بعده
- دخول الإنجليز في جنوب الجزيرة: شيخان في عدن - آل عبد الكريم الأول
 ٣٤٧ والإنجليز - جزيرة سقطرة - استعمار عدن - مقدمات الإستعمار
- ماذا بعد الاحتلال: بين الإنجليز ومحسن فضل - أحمد بن محسن وأخوه علي -
 معاهدة مع السلطان علي بن زيد محسن - حروبه مع بعض القبائل -
 السلطان فضل بن علي - معاهدة الإنجليز معه - الحرب والصلح في الشيخ
 ٣٥٦ عثمان
- بقية من أمر الإنجليز: الولايات التابعة لحكومة عدن - حكومة الإتحاد - صور
 المعاهدات - معاهدة سنة ١٩٥٩ م وما بعدها - المحميات الشرقية - معارضة
 ٣٧٠ اليمن لحكومة الإتحاد - القاعدة الحربية في عدن - بلاد المسلمين كلها واحدة
- ٣٨٧ خاتمة المنظومة: كتاب المنظومة والتعليقات عليها

رقم الايداع في دار الكتب القطرية

١٩٨٥/١٣٠

